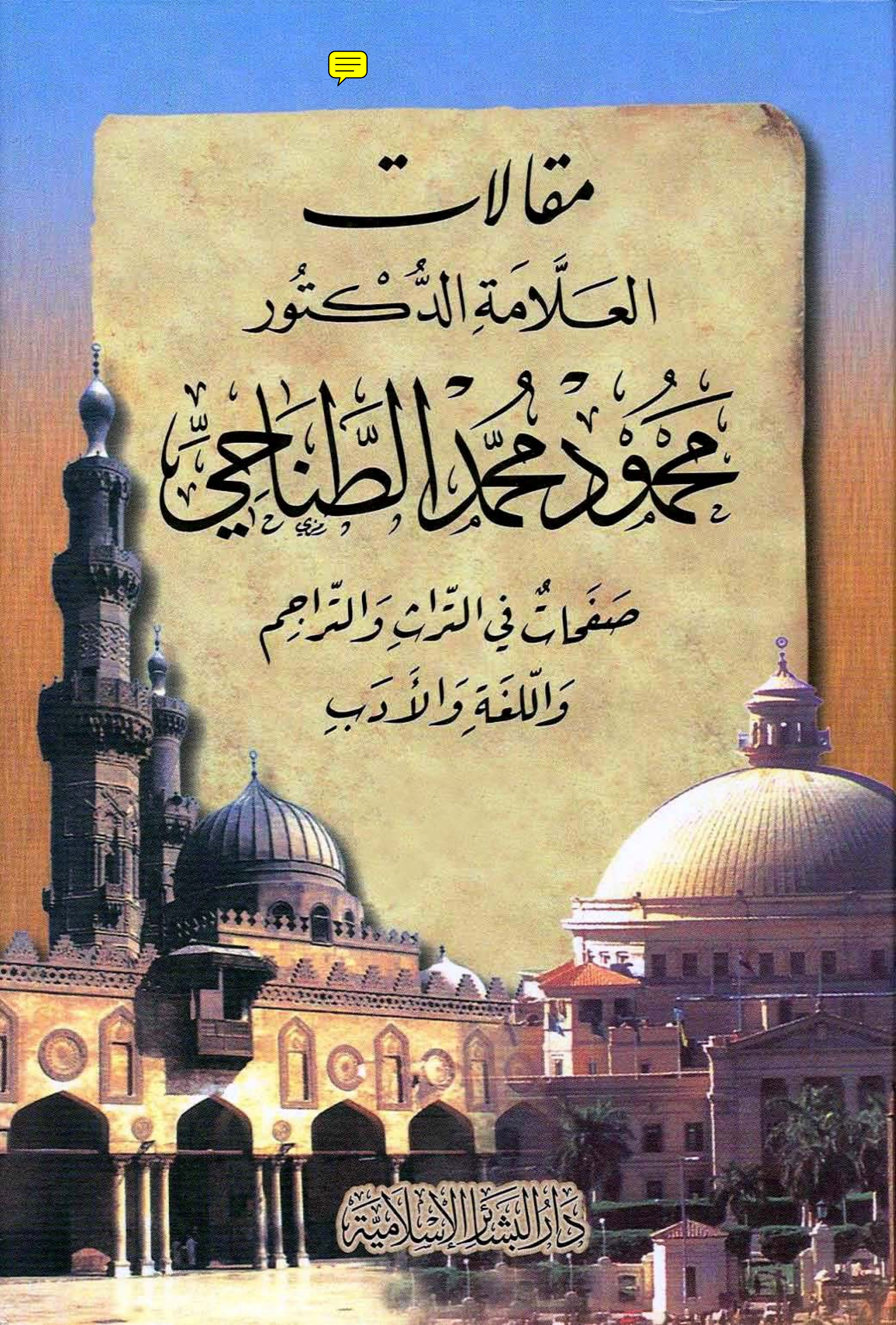

مقالات
العلّامة الدّكتور
محمود محمّد الطناحي
صفحاتٌ في التّراث والتّراجم
واللّغة والأدب
دار البشائر الإسلامية

مقالات

العلامة الدكتور



صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب

القسم الأول

دار البشائر الإسلامية

مقالات

العلامة الدكتور

محمود محمد الطناحي

صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب

القسم الأول

صورة الغلاف يظهر فيها الجامع الأزهر
وجامعة القاهرة وقد تخرَّج منهما الدكتور محمود الطناحي

الطَّبْعَةُ الأولىٰ
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

دار البشائر الإسلاميّة
للطباعة والنشر والتوزيع   هاتف: ٧٠٢٨٥٧ - فاكس: ٧٠٤٩٦٣/ ٠٠٩٦١١
بيروت - لبنان   ص.ب: ١٤/٥٩٥٥
e-mail:
bashaer@cyberia.net.lb



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله وصحبه والتابعين، وبعد:

فهذا الكتاب الذي بين يديك، يحوي مقالاتِ عالمٍ أديبٍ أريبٍ جليلٍ، هو الدكتور محمود محمد الطناحي، رحمه الله تعالى؛ وهو بريدُ محبَّةٍ وتقديرٍ وإجلالٍ وإكبارٍ، تضافرت جهود أحبَّةٍ له في إخراجه:

أولهم ولده البارّ، الأخ محمد، الذي قام بجمع هذه المقالات؛ ثم الشيخ الألمعي محمد بن ناصر العجمي، الذي سعى بجمعها وطبعها، وقدَّم لها؛ ثم أخوه وصفيُّه العالم الأديب عبد الحميد بسيوني، الذي تفضَّل بقراءتها تحضيراً لطبعها؛ وأخيراً الأخ الشيخ أمين شحرور الذي قام على تصحيحها وصنع فهارسها.

فجزى الله هؤلاء الأحبَّة عن الدكتور الطناحي خيراً، حيث أحيَوْا تراثاً كاد أن ينطوي بين صفحات المجلّات.

والله الموفِّق، ومنه العون والسّداد.





بسم الله الرّحمن الرّحيم

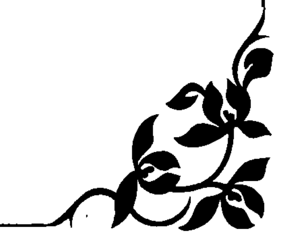
تصدير

الحمد لله المتفرّد بالعزّة والبقاء، وصلّى الله على نبيّه محمّد سيّد الأصفياء، وخاتم الأنبياء

أمّا بعد:

فإنّه لما بلغني وفاة صديقنا العلّامة محمود الطّناحي ضاق ذرعي وقضّ مضجعي وحقيق بأهل العلم أن يرمضهم وفاة مثل هذا العالم المتمكّن، والنّابغة الأديب العالم بجواهر اللغة وآدابها، الخبير بالمخطوطات وكنوزها، صاحب التحقيق الذي يدرأ بحسن درايته ودربته التصحيف والتحريف فيما يحقق ويحرّر، كما أنّه يسطر بأنامله الكريمة ويراعته العسّالة الحواشي والمقدّمات الرّائعة الفائقة:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح ... فأنت كما نثني وفوق الذي نثني



وقد يسّر الله تعالى لي بفضله ومنّه هذه الأيّام لقاء نجله الأستاذ محمد محمود الطّناحي فاقترحت عليه أن يقوم بطبع جميع مقالات والده المنشورة في المجلات والدوريات المختلفة، وذلك لما اشتملت عليه تلك المقالات من سلاسل ذهبية وفوائد علميّة نادرة في التّراث والتراجم واللغة والأدب، فرحب بهذه الفكرة أجمل ترحيب، كما طلبت منه تصديرها بترجمة موجزة للعلاّمة الطّناحي مع تصوير ما أمكن من الرّسائل المتبادلة بينه وبين بعض أعلام العصر فاستجاب لذلك أيضاً جعله الله خير خلف لخير سلف، وقد قامت دار البشائر الإسلامية ببيروت بطباعة هذه المقالات وهي المعروفة في الأوساط العلمية بالطّباعة الأنيقة وجودة الإخراج.

أغدق الله على قبر العلاّمة الطّناحي شآبيب الرحمة والغفران، وألهم آله وأصحابه الصبر والسلوان وبالله المستعان.

الكويت - الجهراء المحروسة

محمد بن ناصر العجمي

صفر الخير ١٤٢١ هـ



الطناحي ورحلته مع التراث العربي[1]

بقلم: أ. د. عبد الله حمد محارب

لم يَدُر بخَلَدي وأنا أستمع إلى حديث الدكتور محمود الطناحي الحلو مع زملاء وأصدقاء اجتمعوا في منزلي أنني سوف أعود من رحلة الحج التي كنت أجهز نفسي لها، فأجد العلم والفضل وكل الصفات النبيلة تتقبَّل العزاء بوفاته.

عرفته في أواخر السبعينات أستاذاً كريماً وحافظاً متقناً ثبتاً، وقبل هذا هو واحد من حواريي شيخنا محمود محمد شاكر، كان ملازماً له قارئاً عليه كثيراً من كتب التراث، ذكياً سريع اللمحة، مطلعاً على كتب التراث، ومتمكناً من تحقيقها، فقد كان منذ صغره معنياً بها، مشغوفاً بدراستها.

وقد التقى في مسيرة حياته عدداً كبيراً من العلماء والأساتذة المبرزين في هذا الميدان سواء من خلال عمله في دار الكتب ناسخاً للمخطوطات فيها، أو جهوده في معهد المخطوطات العربية، أو أسفاره إلى أقطار الأرض لتصوير تلك المخطوطات وفهرستها (المغرب، اليمن، تركيا، المملكة العربية السعودية)، كما صار حجة أيضاً في البصر بتاريخ الطباعة في مصر، وله فيها كتاب مطبوع، وهو حجة كذلك في فنون العربية وآدابها، حافظاً للقرآن الكريم، عارفاً وجوه قراءاته كلها، ومع كل هذا فقد كان لطيف المعشر، حلو الحديث، راوياً لطرائف عجيبة، صاحب نوادر، لا يمل منه جليسه، وفوق هذا فقد كانت الكويت من البلاد التي أحبها، وهو لم يتسن له أن

---

(١) من كتاب: «محمود الطناحي: ذكرى لن تغيب»، إعداد محمد محمود الطناحي (ص ١٢٨ ـ ١٣٩).

يقضي فيها أكثر من شهور معدودة أستاذاً زائراً في جامعتها، وقد لفت انتباهه النظام الدقيق الذي يضبط الحياة في الكويت، والنظافة في الشوارع والأسواق.

ولقد سطر أحبَّاء الفقيد وأصدقاؤه جملة من المقالات الممتازة حول حياته ومؤلفاته وعلمه الغزير، على أن هناك جوانب أخرى عظيمة يعرفها جميع من التقاه، سواء أكان لقاء مباشراً أم من خلال كتبه وإنتاجه العلمي الرصين.

هذه الصفات وتلك الجوانب تحتاج إلى أن تلتقط من سطور تلك الكتب والمقالات، فهي تتناثر في متون كتبه وتتلألأ في هوامشه، ومن هنا رأيت أن أحاول التقاط بعض تلكم الفضائل التي كنا نعرفها في الفقيد، ومن أبرزها:

تواضعه وعلو خلقه ووفاؤه، وقد صرفنا عن الحرص على ذكرها والإشادة بها أنه كان يمتعنا بها في حياته، أما وأننا قد افترقنا إلى حين فإن الحديث عن تلك اللمحات المحبَّبة في شخصيته يخفف شيئاً ما من مرارة الأسى بوفاته.

فضل الرواد:

وفي مقدمة تلك الفضائل ذلك الدعاء الذي يتناثر بين عباراته عندما يذكر أساتذته ومشايخه وجهودهم وخدمتهم للعلم والتراث، كقوله عن شيخنا الأستاذ محمود شاكر: «حرس الله مهجته، أمتع الله المسلمين ببقائه، أحسن الله إليه وجزاه خير الجزاء»، ويدعو لمشايخه الآخرين كلما ذكرهم إذا كانوا من الأحياء «أطال الله في الخير بقاءهم» (مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص ٩٧) و «عبد السلام هارون حفظه الله» (المرجع نفسه ص ٩٩)، و «شيخنا الأستاذ أحمد راتب النفاخ أطال الله في النعمة بقاءه» (كتاب الشعر لأبـي علي الفارسي ج ١ ص ٩٦).

وعندما يتحدث عن شيخنا الأستاذ محمود شاكر وجهوده في خدمة التراث يقول «وعذراً عن الإطالة فهو كلام نفيس عال لا يحذف منه شيء».

«كيف أكتب عنك أيها الشيخ الجليل؟ ومن أين أبدأ، وكيف أمضي؟ والحديث عنك إنما هو عن تاريخ هذه الأمة العربية الشريفة: عقيدة ولغة وفكراً ورجالاً، وآماداً

رحبة متطاولة، لا يقدرها إلا أنت، ولا يعرف كنهها إلا أنت، وتاريخ أمتنا حاضر بين يديك، ماثل أمام عينيك، لم يغب عنك لحظة، فماذا أنا قائل فيك؟ وماذا أنا بالغ من الكتابة عنك؟ ومعذرة ثم معذرة شيخي أبا فهر إذ أكتب عنك بهذه الوجازة التي تراها ــ أراك الله الخير كله، ودلَّك عليه، ورغبك فيه.

ثم معذرة من بابة أخرى: وهو أن كثيراً مما ستقرأه، إن شاء الله، منتزع من كلامك، مدلول عليه بفكرك، فأنا إنما أكتب عنك بك، وأتقدم إليك بسابق فضلك وموصول علمك، وإن كنت أعتقد أن هذا لا يعتذر منه إليك، وأيضاً فإنك كنت قد شجعتني على الكتابة عنك، حين أنبأتك ما أصابني من دوار أرضاني وأسخطني يوم خرجت إلى الناس بطبعتك الجديدة من كتابك الفذ «المتنبي»، وحدثتنا في الجزء الأول منه، حديثاً غريباً عجيباً، عن فساد حياتنا الأدبية، وعن تفريغ عقولنا من كل ما يردّنا إلى تاريخنا وأيامنا، وقلت لك يومها:

إني أريد أن أدل على ما ذكرت بما شاع في كتاباتك الأخرى، ما دق منها وما جل، وقد أذنت لي في الكتابة عنك، ويومها رأيت نفسي ــ وأنا من أصغر تلاميذك ــ قد ظفرت بما فوق المنى»، (مدخل إلى تاريخ نشر التراث ص ١٠٣).

ومن العلماء الذين كان يحرص على الدعاء لهم الأستاذ عبد السلام هارون ــ وهو أستاذنا أيضاً، تتلمذنا على يديه يرحمه الله في كلية دار العلوم في الفترة من ١٩٦٥م ــ ١٩٦٩م ــ ، فيتحدث في معرِض انتقاده لشيوع ظاهرة المختصرات لأمهات الكتب في أيامنا هذه والتي قام بها البعض فأساءوا ــ بسبب ضعفهم العلمي ــ إلى الأصول.

ويقول عنه وبعد أن قدم بحديث عن جهود الأستاذ عبد السلام هارون في خدمة التراث: «وخلاصة ما يقال في الأستاذ عبد السلام محمد هارون: أنه لم يخط أحد في التراث سطراً إلا ولهذا الرجل عليه منَّة، وذلك أنك لا تكاد تجد قائمة مراجع تراثية إلا وفيها كتاب من تحقيقات شيخنا، حفظه الله».

خدمة التراث:

وكل حديثه عن شيوخه والعلماء الذين عاصرهم كان يجري على هذا النمط، كالشيخ السيد صقر والشيخ محمد عبد الخالق عضيمة وغيرهما، وهو في معرض حديثه عن أساتذته كان يذكر فضل بعض العلماء الذين اجتمع معهم على مائدة التراث، كالأستاذ محمد رشاد عبد المطلب فيقول عنه (المدخل ص ٥٢ هـ ١): «كان يرحمه الله من العلماء بالمخطوطات وأماكن وجودها، وكان لا يجارى في معرفة المطبوعات وأماكن طبعها شرقاً وغرباً، والفرق بين الطبعات وعدد طبعات الكتاب المختلفة، ومن وراء ذلك كانت له صلات وثيقة بعلماء الدنيا، من عرب وعجم، كنت لصيقاً به ملازماً له عشر سنوات في معهد المخطوطات، وسافرت معه في بعثة المعهد إلى تركيا والمغرب وتعلمت منه الكثير، توفي إلى رحمة الله في غرة المحرم ١٣٩٥هـ الموافق ١٩٧٥م، وقد كتبت عنه كلمة غداة وفاته بمجلة الثقافة المصرية».

وهو لا ينسى كل من يسدي خدمة إلى تراث أمته فيقول عن «حسن عباس زكي»: «وقد سقت هذه الحكاية لأدل على فضل هذا الرجل (حسن عباس زكي)، ذلك الوزير الصالح، الذي أحب التراث العربي الإسلامي، حباً ملك عليه نفسه، وكان هو على رأس وزارة خطيرة ــ وزارة الاقتصاد المصري ــ معنيًّا كل العناية بشؤون التراث، والمشتغلين به، من علماء وناشرين، يفسح لهم في مجلسه، ويذلل لهم العقبات، ومن أياديه البيضاء نشر كتاب «الجامع الكبير» للحافظ السيوطي، الذي صدر مصوراً عن مخطوطته، وإعادة نشر كتاب «الأم» للإمام محمد بن إدريس الشافعي، إلى كتب أخرى ساهم في طبعها، أو أغرى الناشرين بطبعها، ومكتبته الخاصة تضم قدراً عظيماً من نوادر المصحف الشريف، والمخطوطات والمصورات والمطبوعات القديمة. تقبَّل الله منه صالح عمله، وجعله في موازينه يوم يقوم الناس لرب العالمين» (المدخل ص ١٠٣).

ومن الملتقطات التي تتلألأ في نظرته إلى الأوائل ــ رحمه الله تعالى وبرّد

مضجعه ـ أنه كان يحبهم ويعظمهم ويراهم سبباً في شهرة أبناء عصرنا، يقول في خاتمة مقدمته لكتاب منال الطالب في شرح طوال الغرائب لابن الأثير (ج ١ ص ٤٩):

(وغفر الله لنا، فقد جئنا إلى هذا التراث: لننال به الشهادات ونرتقي عليه إلى المناصب، ونطلب به المثالة عند الناس، ثم لم نعطه حقاً من الدرس والتأمل والاقتداء.

ورحم الله النَّضْر بن شُمَيْل، فكأنه كان يعنينا حين قال قولته العظيمة في الخليل بن أحمد، شيخ العربية، يقول النَّضْر: «لقد عاش الخليل بن أحمد في مربد من مرابد البصرة لا يجد قوت يومه، وأصحابه يأكلون بعلمه الأموال».

ويعيب على محققي التراث المرتزقين هذه الأيام حرصهم على أن يملأوا هوامشهم بما لا يتصل بالنص لتضخيم الكتاب.

وفي خضم الحديث عن العلماء والشيوخ لا ينسى ورَّاقي العصر الذين كنا نختلف إليهم نبحث في مكتباتهم عن نوادر المطبوع كالطيب وخربوش وغيرهما، ولم أكن أظن أنني سوف أجد ذكراً لهم في كتاب أو مقالة كان لهم فضل في إرشاد كاتبها إلى بعض مادتها، يقول ـ رحمه الله ـ : «وما أكثر ما وجدنا عندهم مما حفيت أقدامنا في البحث عنه في دور النشر وعند سماسرة الكتب، وفي مقدمة هؤلاء الورَّاقين الشيخ علي خربوش، وزكي مجاهد، ومحمد العبادي، ومحمد الطيب، وحجازي صاحب المكتبة الحجازية بالإسكندرية وغيرهم». (المدخل ص ١٤٢).

وفاؤه وتواضعه:

أما وفاؤه فأنت تراه في مواضع كثيرة مما كتب، وهي طبيعة صاحب النفس الصافية التي لا تحمل حقداً ولا تنسى فضلاً، ويذكر من هؤلاء الذين أحسنوا إليه «الشيخ الأصولي الفقيه عبد الغني عبد الخالق الأستاذ في كلية الشريعة، محقق كتاب آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبـي حاتم الرازي، وكان صاحب غرائب وعجائب. . .

وكان كثير البر بتلاميذه وأبنائه، وقد تخرج على يديه عدة من أبناء الجزيرة العربية، وبخاصة طلبة العراق، والمملكة العربية السعودية، وقد أحسن إليّ كثيراً وقرَّبني من مجلسه في أول اشتغالي بالعلم، توفي عام ١٤٠٣هـ رحمه الله رحمة واسعة» (المدخل ص ١٤٢ ــ ١٤٣).

وقال عن المرحوم محمد رشاد عبد المطلب: إنه «قد تعلم منه كثيراً»، وعند حديثه عن الشاعر المحقق حسن كامل الصيرفي يقول: «ولهذا الرجل فضل عليَّ سابغ» (مستقبل الثقافة العربية كتاب الهلال مايو ٩٩ ص ٥٦).

ويقول عن فترة عمله في جامعة أم القرى: «إنهم أنزلوه آنذاك منزلاً كريماً» (منال الطالب في شرح طوال الغرائب ج ١ المقدمة ص ٧، ٨، ٩)، وشرح هذا في الهامش فقال: «حيث عوملت وظيفياً تحت بند هناك يسمى «كفاءة نادرة» يعامل به الإنسان الذي أكرمه الله بشيء من العلم معاملة «العالم» لا معاملة «حامل الشهادة العليا» ــ لاحظ تواضعه رحمه الله ــ وفي ظل هذا البند كان يعامل الأساتذة: محمد متولي الشعراوي ومحمد الغزالي والسيد أحمد صقر والسيد سابق ومحمد قطب». وهذه الأسماء لعلماء عصرنا الكبار تنبئك عن مكانة فقيدنا ــ يرحمه الله ــ العلمية الكبيرة.

ثم يفيض وفاء وشهامة فيقول:

«ومن أمانة التاريخ، ومعرفة أقدار الناس أذكر هنا أصحاب الفضل في إرساء المبادىء العلمية الرفيعة: الشريف راشد الراجح، ومحمد بن سعد الرشيد...»، ثم يذكر مجموعة من القياديين الذين أرسوا هذه المبادىء...

وهو لا ينسى أن يذكر مذاكرته العلم مع زملاء له وطلاب كانوا يدرسون على يديه، ويرى في هذه المدارسة والمذاكرة فائدة للعالم قبل المتعلم.

يقول: «وكانت أياماً زاكية مباركة، وقرأت فيها مع إخواني الشباب هناك شيئاً من علوم العربية، وقد أعطيتهم وأعطوني، أعطيتهم خبرة الأيام، وثمار مجالسة أهل

العلم ومشافهتهم والرواية عنهم، وأعطوني حماسة الشباب وتوقده، بل إنهم فتحوا لي أبواباً من النظر، ودلوني على فوائد من الكتب لم أكن أقف عليها لولا نظرهم ومناقشتهم، وما زلت أقول: إننا حين نعلم ونخرج أبناءنا الطلبة إنما نقرأ معهم العلم مرة أخرى، بل ربما استفدنا منهم مثل الذي استفادوه منا، ولأمر ما كان التلميذ قديماً يسمى «صاحباً» لشيخه: فأبو يوسف ومحمد صاحبا أبـي حنيفة، والربيع بن سليمان المرادي صاحب الشافعي، وابن جني صاحب أبـي علي الفارسي. . . وهلم جرّاً».

ثم لا يترك هذا الموضع حتى يذكر في هامش الصفحة أسماء هؤلاء الشباب الذين أفادهم واستفاد منهم، ومنهم: عياد بن عيد الثبيتي، سليمان بن إبراهيم العايد، عثمان بن حسين الصيني، عبد الرحمن بن سليمان العثيمين وغيرهم.

ولعل هذه الإشارة من عالمنا الجليل إلى توقير واحتفال الجامعات السعودية بأهل العلم والحفظة والرواد، الذين ضاقت بعلمهم الواسع الشهادات الجامعية، فالتقطتهم درراً واستقطبتهم نجوماً، أثرت بهم هيئاتها التدريسية وانتفع طلابها بعلمهم العظيم، هي التفاتة مهمة وتنبيه واجب للقائمين على إدارة المؤسسات الجامعية في بلادنا العربية، فهذه السُّنَّة الحميدة، وهي التعيين دون الالتزام بمسميات الشهادات، أسلوب عرفته الجامعات الأجنبية قبل العربية، فاستفادت منه، وبسبب هذا النهج رأينا العقاد وعبد السلام هارون وعمر الدسوقي، وغيرهم كثيرين، رأيناهم في أروقة الجامعات يحاضرون ويناقشون ويفيدون وهم لا يحملون لقب العصر وصرعته «الدكتوراه» ولا يعبأون بها، وكان الأمر كذلك في مؤسساتنا العلمية إلى أن ابتليت بالنظام الأمريكي الفجّ، الذي جعل الطلاب يمتحنون أساتذتهم في بعض المقابلات الخارجية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

علمه وفضله:

أما علمه وفضله فإن الحديث في هذا الجانب «سوف يغرق في بحور إحسانه»، (وهي كلمة الحسن بن رجاء في مدح أبـي تمام)، وما سطره الإخوة الأفاضل

والأساتذة الكبار من محبي الفقيد في مجلات وجرائد مصر والمملكة العربية السعودية والكويت ينبئك عن مكانته العلمية ورسوخ قدمه في علوم العربية، بما لا يتأتى لأحد في هذا العصر إلا القليل، وربما لا تجد عند غيره تلك الثقافة الموسوعية التي حظي بها يرحمه الله، وتلك القراءات الثرية تتلألأ بها مؤلفاته بصورة مدهشة، فأنت عندما تقرأ ما يكتب الدكتور الطناحي تجده تجاهك يحدثك وتحدثه، ويلقي إليك بفوائد جمة تجيئك تترى، والمحب للتراث إزاء تلك الفوائد والغرائب لا يكاد يلتقط أنفاسه من نفاستها وتتابعها، ويكفيك أن الإخوة في المملكة العربية السعودية عرفوا قدره فوضعوه بإزاء الشيخ محمد متولي الشعراوي والشيخ محمد الغزالي والسيد صقر يرحمهم الله وغيرهم. كما أن فكه لطلاسم أسلوب أبي علي الفارسي في كتاب «الشعر» دليل على رسوخ قدمه في تحرير النص وتحقيقه (انظر ج ١ ص ٦٣ وما بعدها).

وعالمنا الجليل يحرص على تذكيرنا دائماً بأنه: «لا يغني كتاب عن كتاب» (الموجز في مراجع التراجم ص ٢٤)، و «أن مجاز كتب التراث مجاز الكتاب الواحد»، (المرجع السابق ص ٣٥).

ولقد اخترمته المنية وقرار اختياره عضواً في مجمع اللغة العربية في سبيله للصدور، فخسر المجمع بذلك ابناً باراً من أبنائه الأوفياء، رحمه الله رحمة واسعة.

وبقي فقيدنا عمره كله وفياً لتراث أمته يذود عنه بغي الباغين، وتشكيك المستغربين، ويسوؤه ما انتشر في هذا الزمان من استهانة به وبأصول تحقيقه ودراسته، واندفاع بعضهم في إخراج الطبعات السريعة لبعض كتب التراث: لا يعبأ بصحة القراءة، ولا يضبط النص، ويستجلب التعليقات مغيراً على كتب الأئمة الأعلام، «ولا بأس من التهويش ببعض الشروح اللغوية التي تعبُّ من المعاجم عبّاً، وكثيراً ما يقع في نقل هذه الشروح أخطاء فادحة، لعدم التنبه للمشترك اللفظي» كما يقول رحمه الله في (كتاب الشعر لأبي علي الفارسي، المقدمة صفحة: ج).

زينة المجالس:

وتبقى بعد كل ذلك روحه المرحة وخفة ظلِّه، وتعليقاته الطريفة، فهو زينة المجالس وريحانتها، مع عزة نفس وإباء، وحرص على صيانة كرامته من كل ما يسيء إليها ولهذا فهو يصف هؤلاء الذين يتزلفون لتلاميذهم في أسلوبه الساخر الممتع قائلاً: «وإن منهم لفريقاً يتهافت على ذوي المناصب من تلاميذه، حتى إذا رأى أحدهم في مجلس طمح ببصره إليه، وأخذ يمد عنقاً ويميل رأساً، ويسدد نظراً ليريه مكانه فتلتقي العينان، فيذهب بها غنيمة باردة يحدث بها أهله وولده، فإذا أبصره في طريقه ركض خلفه حتى يكاد يتعثر في أذياله، وشق الصفوف إليه وقد علاه البهر وغلبه النهيج حتى يوشك أن يكتم أنفاسه، فإذا انتهى إليه ابتسم في صَغار وانكسار وأخذ يذكره بتلمذته له في ثقل وغثاثة:

«ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظَّموه في النفوس لعظما»

(مقدمة كتاب الشعر ص ٦).

وانظر مقالته في الهلال عدد سبتمبر ٩٥ حول التصحيف والتحريف: «هذه النقطة وقضية التصحيف والتحريف»، وهو يناقش فيها الخطأ الذي جاء في امتحان اللغة العربية للثانوية العامة في بيت أحمد شوقي:

«ولم أخل من وجد عليك ورقَّة إذا حل غيد أو ترحل غيد»

إذ ورد مصحفاً في السؤال بالعين المهملة، والصواب «غيد» بالغين المعجمة (الشوقيات ٢، ١١٩).

فيستهل هذه المناقشة بأن يسوق رواية طريفة حول أشهر تصحيف في التراث، وهو التصحيف الذي جعل والي المدينة في زمن سليمان بن عبد الملك يخصي مجموعة من المخنثين، بسبب تصحيف وقع في كلمة «أَحص» بالحاء المهملة فصارت «اِخص» بالخاء المعجمة، هؤلاء الذين خصوا معرَّفون بأسمائهم، ويقال في ترجمة كل منهم: «وهو ممن خُصي بالنقطة».

وهكذا كان رحمه الله في كل ما يكتب أو يقول خفيف الظل والروح، لا يمل مجلسه، وتود لو بقي معك اليوم كله لا يفارقك.

واليوم ونحن نكتب هذه السطور نشعر بالأسى لفقد **«جبل من جبال العلم»** ــ كما وصفه أخي العزيز عبد الحميد البسيوني ــ حفظه الله ومتعه بالعافية.

وإذا كان الفساد قد ألقى بعاعه في هذه الأيام على حياتنا الأدبية، فإن الدهر قد لا يجود بأمثاله، وإن عزاءنا أنه لم يمت بيننا، وستبقى الذاكرة تسترجع صورته وعلمه ومواقفه النبيلة العظيمة، وسوف تخلده مآثره وكتبه وسيرته في خدمة التراث العظيم لهذه الأمة التي كرمها الله عز وجل بلغتها ودينها، ولهذا فإن الباحثين مدعوون إلى العكوف على دراسة منهجه وقراءة كتبه واستخلاص المعلومات والإشارات حول قضايا التراث المختلفة ونسخ المخطوطات الثمينة والنادرة التي نسخها أو رآها، وقبل هذا تمثل مراحل حياته التي أوصلته إلى هذه القمة العلياء من العلم والفضل، والتي تصورها سيرة حياته الثرية بالتجارب، ثم الاستفادة من تلك التجارب التي صقلته، والتي سطر كثيراً منها في كتبه وهوامشه، فعليك رحمة الله يا أبا محمد، وجزاك عما قدَّمت خير الجزاء الذي يجزى.



من ذكريات الدكتور الطناحي في مكة

لمَّا عاد الدكتور محمود الطناحي من مكة المكرمة ـ وقد قضى فيها ما يقارب أحد عشر عاماً ـ كتب كلمة تفيض وفاءً ومحبة وذكرى للسنين التي قضاها فيها؛ حيث يقول في مقدمة تحقيقه لكتاب «منال الطالب» لابن الأثير (١/ ٧) الطبعة الثانية:

«وتبقى كلمة:

لقد قلت: إنَّ الطبعة الأولى من ذلك الكتاب قد صدرت عن مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، زادها الله تشريفاً وتكريماً ومهابة، وتلك أيامٌ عزيزة، أذكرها فتفيض النفسُ سعادةً وتَحناناً، ففي عام ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م، تلقَّيتُ دعوةً علميَّةً كريمة من كلية الشريعة بمكة المكرمة، للمشاركة في إرساء قواعد مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي الذي قام في تلك الأيام ملحقاً بكلية الشريعة. وقد أنزلني القومُ آنذاك مُنْزَلاً كريماً[1].

(١) حيث عُومِلْتُ وظيفيًّا تحت بندٍ هناك يسمَّى «كفاءة نادرة» يُعامل به الإنسان الذي أكرمه الله بشيء من العلم معاملة «العالِم» لا معاملة «حامل الشهادة العليا». وفي ظِلِّ هذا البَنْد كان يعامل الأساتذة: محمد متولي الشعراوي، ومحمد الغزالي، والسيِّد أحمد صقر، والسيِّد سابق، ومحمد قطب، وطائفة من كبار مشايخ الأزهر، من طبقة الفقهاء الحَفَظَة، منهم: محمد الصادق عرجون، ومحمد أبو شهبة، وعثمان مريزق، وسيِّد العقبـي، ومحمد شعبان حسين، وأحمد أبو سنة، وعلي العَمَّاري، ثمَّ الشيخ المُعَمَّر الفقيه، شيخ الشافعية في وقته، ورئيس لجنة الفتوى بالأزهر، الشيخ محمود عبد الدَّائم.
وفي رِحاب هذه الكوكبة النادرة من العلماء الأعلام، التي قلَّ أن تجتمع في مكان، تخرَّجت =

ولم يكن في تقديري البقاءُ بتلك الديار المباركة أكثر من عامين أو ثلاثة، لأعود إلى عملي بمعهد إحياء المخطوطات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ ومعهد المخطوطات هو بيتي وشبابي وأحلامي ـ ولكن شاء ربّك أن تمتدَّ الإقامةُ أحد عشر عاماً، فكنتُ كما قال أحمد بن الحسين بن حَيْدَرة، الشاعر المعروف بابن خراسان (٤٩٧هـ):

نـــزلْنـــا علـــى أن المُقـــامَ ثـــلاثـــةٌ فطـــابـــتْ لنـــا حتـــى أقمْنـــا بهـــا عَشْـــرا

* * *

وكان ممَّا قدَّر الله وقضى أن أترك مركز البحث العلمي؛ للتدريس بقسم الدراسات العليا العربية، والإشراف على بعض الرسائل الجامعية العليا. وكانت أيَّاماً زاكية مباركة، قرأت فيها مع إخواني الشباب[1] هناك شيئاً من علوم العربية، وقد أعطيتهم وأعطوني، أعطيتهم خِبرةَ الأيام، وثِمَارَ مجالسةِ أهل العلم ومشافهتِهم والروايةِ عنهم، وأعطوني حماسةَ الشباب وتوقُّدَه، بل إنهم فتحوا لي أبواباً من

= طائفة من الشباب السعوديين النابهين، مؤسِّسين تأسيساً علميًّا صحيحاً.

ومن أمانة التاريخ، ومعرفة أقدار الناس أذكر هنا أصحاب الفضل في إرساء هذه المبادىء العلمية الرفيعة: الشريف راشد الراجح، ومحمد بن سعد الرشيد، وناصر بن سعد الرشيد، وعليَّان بن محمد الحازمي، وعبد الله بن سليمان الجربوع، وحسين حامد حسَّان، وحسن محمد باجودة. فهؤلاء هم الذين سَعَوْا إلى العلماء في بيوتهم، وأحلُّوهم دارَ الكرامة، ولم يتغيَّروا عليهم بطول المكْث والإقامة.

(١) أذكر منهم: عياد بن عيد الثبيتي، وسليمان بن إبراهيم العايد، ومحمد بن حمود الدعجاني، وعثمان بن حسين الصيني، وحماد بن محمد الثمالي، وصالح الغامدي، إلى شباب آخرين، لـم أُشْـرِف عليهم، ولكنـي سعـدت بمُذاكـرتهم ومجالستهم، ومناقشة بعضهم في رسائلهم الجـامعية، منهم: عبـد الـرحمن بن سليمـان العثيمين، وسعـد بن حمدان الغامدي، وحمد الزايدي، وعبد الله القرني، ومحمد العمري، ومحسن العميري، والشريف عبد الله الحسيني البركاتي ـ شفاه الله ـ، ومحمد بن مريسي الحارثي، وعبد الله العبادي، سقى الله أيَّامهم جميعاً بالخير.

النظر، ودلُّوني على فوائد في الكتب، لم أكن أقف عليها لولا نظرُهم ومفاتشتُهم، ولا زلت أقول: إننا حين نعلِّم ونخرِّج أبناءنا الطلبة إنما نقرأ معهم العلمَ مرَّة أخرى، بل ربَّما استفدنا منهم مثل الذي استفادوه منَّا، ولأمرٍ مّا كان التلميذ قديماً يسمَّى «صاحباً» لشيخه: فأبو يوسف ومحمد صاحبا أبي حنيفة، والربيع بن سليمان المرادي صاحب الشافعي، وابن جني صاحب أبي عليّ الفارسيّ... وهلمَّ جرًّا.

وهكذا مضت أيامي مع هؤلاء الأحباب، فقضيت معهم وبهم أحلى الأوقات، وسعدت بأكرم جِوار، ونَعِمْتُ بأرحَب دار، ولولا أكْبَادُنا التي تمشي على الأرض، لَمَا كان لي عن هذه الديار مَذْهَبٌ ولا مُتَحَوَّل، ولا زلت مع تطاوُل الأيام وكُرُور الليالي أجِدُ لَذْعَ تلك الدمعةِ السَّخينة التي تحدَّرت من عيني ساعةَ غادرت مكة، وأنا أُنْشِد قولَ الشريف الرضيّ:

وتلفَّتَتْ عيني فمُذْ خَفِيَتْ عَنِّي الطُّلولُ تلفَّت القلبُ

وما بَرح القلبُ يتلفت، وما زالت العين تشتاق حتى يأذن الله بلقاء.

اللّٰهُمَّ اجْزِ إخوانَنا هؤلاء خيرَ الجزاء، واربِطْ على قلوبهم، واجعلهم موصولين بالعلم، بارِّين به، حافظين لأمانته...».

* * *

السيرة الذاتية
للأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي

* وُلد عام ١٩٣٥م بمحافظة المنوفية ــ جمهورية مصر العربية.

* انتقل إلى القاهرة في الثامنة من عمره.

* أتم حفظ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم في الثالثة عشرة من عمره.

* التحق بمعهد القاهرة الديني بالأزهر الشريف، وحصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٥٣م، والشهادة الثانوية عام ١٩٥٨م.

* التحق بكلية دار العلوم ــ جامعة القاهرة ــ وحصل على شهادة الليسانس في علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية عام ١٩٦٢م.

* حصل من الكلية نفسها على شهادة الماجستير (قسم النحو والصرف والعروض) عام ١٩٧٢م بتقدير «ممتاز»، وكان موضوع أطروحته: (ابن معطي وآراؤه النحوية، مع تحقيق كتابه: الفصول الخمسون).

* ومن كلية دار العلوم أيضاً حصل على شهادة الدكتوراه (قسم النحو والصرف والعروض) عام ١٩٧٨م بمرتبة الشرف الأولى. وكان موضوع أطروحته: (ابن الشجري وآراؤه النحوية، مع تحقيق الجزء الأول من كتابه: الأمالي النحوية).

* عمل عقب تخرجه عام ١٩٦٣م معيداً بمعهد الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. وفي عام ١٩٦٥م ترك الجامعة الأمريكية، وعُيِّن خبيراً بمعهد

المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ اليونسكو العربية)، وظل بمعهد المخطوطات إلى أواخر عام ١٩٧٨م، حيث انتدب أستاذاً مشاركاً بقسم الدراسات العليا العربية بكلية الشريعة ــ جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ــ كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى الآن. ثم استقال منها بنهاية العام الدراسي ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩م.

* عين أستاذاً مساعداً بكلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة القاهرة ــ فرع الفيوم، في ٢٧/٣/١٩٩١م، ثم رُقِّي أستاذاً بتاريخ ٣١/٥/١٩٩٥م، وعمل أستاذاً بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب ــ جامعة حلوان.

* عمل خبيراً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وبمركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، وعضواً بالهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ معهد إحياء المخطوطات العربية).

النشاط العلمي:

* اتصل بالمخطوطات العربية، منذ أن كان طالباً بالسنة الأولى بكلية دار العلوم: ناسخاً ومفهرساً ومحققاً، فنسخ كثيراً من المخطوطات المشرقية والمغربية، وأعان بعض المستشرقين الذين نزلوا مصر.

* شارك في نشاط معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، على امتداد ثلاثة عشر عاماً، وخرج عضواً في بعثاته لدراسة وتصوير المخطوطات. ومن البلدان التي زارها وفهرس نوادرَ مخطوطاتها:

* تركيا عام ١٩٧٠م.

* المغرب الأقصى، مرتين ــ عام ١٩٧٢م، وعام ١٩٧٥م.

* المملكة العربية السعودية عام ١٩٧٣م.

* جمهورية اليمن الشمالية عام ١٩٧٤م.

* وقد اكتشف في هذه البلدان بعض المخطوطات المجهولة التي لم يكن يعلم الناس عنها شيئاً، والتي لم تدرج في فهارس المكتبات.

* شارك في ندوة «أبناء الأثير» التي عقدتها جامعة الموصل بالجمهورية العراقية (مارس ١٩٨٢م)، واشترك ببحث عنوانه: «مجد الدِّين بن الأثير في علم غريب الحديث».

* شارك وحاضر في الندوات التي عقدتها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، (أحمد زكي يماني) لدراسة وفهرسة المخطوطات الإسلامية: القاهرة ـ يناير ١٩٩٤م، إستانبول ـ سبتمبر ١٩٩٤م، لندن ـ يونيه ١٩٩٥م.

* شارك في ندوة «تاريخ الطباعة العربية في القرن التاسع عشر» التي أقامها مركز جمعة الماجد للتراث والثقافة بدبـي ـ أكتوبر ١٩٩٥م.

* شارك في ندوة «اللغة العربية المعاصرة في مصر»، التي أقامها المجلس الأعلى للثقافة، إبريل ١٩٩٧م.

* شارك في ندوة «علي الجارم»، التي أقامها المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨م.

* شارك في تدقيق وتحرير (مدخل قاموس القرآن الكريم) الذي أصدرته مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

* حرر مادة «أحمد محمد شاكر» في دائرة المعارف الإسلامية التي تصدر في إستانبول باللغة التركية.

* نشر عدة مقالات بمجلات الرسالة والهلال والكتاب العربي والمجلة والثقافة والشعر بالقاهرة. ومجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ودمشق، والعربي بالكويت، ودعوة الحق بالمغرب، وكلية اللغة بمكة المكرمة.

* شارك في ندوة «المحافظة على كنوز التراث الإسلامي» التي عقدت على هامش الدورة الثالثة للمجلس التنفيذي لمؤتمر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. عمان ـ الأردن ـ سبتمبر ١٩٩٦م.

* شارك في تقييم برامج كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي ـ الإمارات العربية المتحدة ـ نوفمبر ١٩٩٦م.

الإنتاج العلمي للأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي (من سنة ١٩٦٣م إلى سنة ١٩٩٨م):

التحقيقات:

١ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدِّين بن الأثير، المتوفَّى سنة ٦٠٦هـ (خمسة أجزاء: الثلاثة الأولى بالاشتراك، والرابع والخامس بالانفراد) مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م[1].

٢ ـ طبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي، المتوفَّى سنة ٧٧١هـ.
(عشرة أجزاء بالاشتراك) الطبعة الأولى بمطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م، والطبعة الثانية بدار هجر، القاهرة ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

٣ ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (مكة المكرمة)، لتقي الدِّين الفاسي، المتوفَّى سنة ٨٣٢هـ (الجزء الثامن)، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٣٨٨هـ = ١٩٦٩م.

٤ ـ الغريبين ـ غريبي القرآن والحديث ـ، لأبي عبيد الهروي، المتوفَّى سنة ٤٠١هـ (الجزء الأول)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م.

٥ ـ الفصول الخمسون ـ في النحو ـ، لابن معطي، المتوفَّى سنة ٦٢٨هـ ـ وهو رسالة الماجستير بكلية دار العلوم ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.

٦ ـ تاج العروس، شرح القاموس، للمرتضى الزَّبيدي، المتوفَّى سنة ١٢٠٥هـ، (الجزء السادس عشر) وزارة الإعلام بالكويت ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.

---

(١) هذا التاريخ إنما هو للجزء الأول، وكذلك في الذي بعده.

٧ ــ الجزء الثامن والعشرون منه، الكويت ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

٨ ــ منال الطالب في شرح طوال الغرائب، لمجد الدِّين بن الأثير، المتوفَّى سنة ٦٠٦هـ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ــ جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م ــ وقد حصل هذا الكتاب على الجائزة الأولى في تحقيق التراث بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٩ ــ أرجوزة قديمة في النحو، لليشكري، المتوفَّى سنة ٣٧٠هـ (نُشرت ضمن: دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أبي فهر محمود محمد شاكر، بمناسبة بلوغه السبعين) مطبعة المدني، القاهرة ١٤٠٣هـ = ١٩٨٢م.

١٠ــ كتاب الشعر ــ أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب ــ، لأبي علي الفارسي، المتوفَّى سنة ٣٧٧هـ (جزءان) مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

١١ــ أمالي ابن الشجري، المتوفَّى سنة ٥٤٢هـ (ثلاثة أجزاء، اشتملت على (٨٤) مجلساً، منها (٤٩) مجلساً، حصل بها المحقق على شهادة «الدكتوراه» من كلية دار العلوم، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

١٢ــ ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات، لأبي عبد الرحمن السلمي، المتوفَّى سنة ١٤١٢هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

١٣ــ أعمار الأعيان، لابن الجوزي، المتوفَّى سنة ٥٩٧هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

المؤلفات:

١٤ــ مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

١٥ــ عن التصحيف والتحريف ــ محاضرة نشرت بآخر الكتاب السابق.

١٦ــ الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم ــ مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م.

١٧ــ نبذة في تاريخ الطب العربي ــ مقدمة لكتاب الطب النبوي، لابن قيم الجوزية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

١٨ــ التنبيه على خطأ «الغريبين» للحافظ أبي الفضل بن ناصر، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ــ مكة المكرمة ١٤٠٠هـ = ١٩٧٩م.

١٩ــ فهارس كتاب «غريب الحديث»، لأبي عبيد القاسم بن سلام، المتوفَّى سنة ٢٢٤هـ ــ مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ــ مكة المكرمة ١٤٠١هـ = ١٩٨٠م.

٢٠ــ فهارس كتاب «الأصول في النحو»، لابن السّرّاج، المتوفَّى سنة ٣١٦هـ، مكتبة الخانجي القاهرة ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

٢١ــ فهرس الأشعار لكتاب «ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري، المتوفَّى نحو سنة ٣٩٥هـ، مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة، المجلدان ٣٧، ٣٨، ١٣١٣هـ، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م، ١٩٩٤م.

٢٢ــ ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، وشيء من التحليل والدراسة العروضية المجلد ٦٦، ج ١، ٣، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤١٠هـ، ١٤١٢هـ = ١٩٩٠م، ١٩٩١م.

٢٣ــ مجد الدِّين بن الأثير وجهوده في علم غريب الحديث ــ بحوث ندوة أبناء الأثير ــ جامعة الموصل بالعراق ــ كلية الآداب ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

٢٤ــ المتنبي، للأستاذ/ محمود محمد شاكر، تقديم ــ موسوعة عصر التنوير (أهم مائة كتاب في مائة عام) دار الهلال ــ الجزء الأول، القاهرة ١٩٩٢م.

٢٥ــ الرسالة، للشافعي، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، تقديم، موسوعة عصر التنوير، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٩٣م.

٢٦ــ من إعجاز القرآن ــ العلم الأعجمي في القرآن مفسراً بالقرآن للأستاذ محمود رؤوف أبو سعدة، تقديم، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٣م.

٢٧ــ جموع التكسير والعرف اللغوي، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة ــ المجلد ٧١ ــ ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

٢٨ــ شرح شواهد الإيضاح، لأبي علي الفارسي، تأليف ابن بري المصري، المتوفَّى سنة ٥٨٢هـ ــ عرض ونقد، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، المجلد ٧٢ ــ ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

٢٩ــ كتاب الفرق ــ بين صفات الإنسان وصفات الحيوان ــ ، لثابت بن أبي ثابت، من علماء القرن الثالث، عرض لنشرته، وتعريف بمخطوطة ثانية له اكتشفها الدارس بخزانة القرويين بفاس، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٥١، ج ٢، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.

٣٠ــ الفهرس الوصفي لبعض نوادر المخطوطات بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

٣١ــ الكتاب المطبوع بمصر في القرن التاسع عشر، كتاب الهلال ـ أغسطس ١٩٩٦م هذا إلى (٤٠) أربعين مقالة بمجلة الهلال المصرية، في قضايا العربية.

٣٢ــ قضية إنقاذ المخطوطات ــ ما تحقق وما لم يتحقق، مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

٣٣ــ كتاب صنعة الشعر، لأبي سعيد السيرافي، تحقيق نسبته ونقد نشرته، مجلة معهد المخطوطات ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

٣٤ــ كتاب الردة والفتوح، لسيف بن عمر التميمي، عرض ونقد، الكتاب التذكاري للأستاذ الدكتور/ ناصر الدِّين الأسد، الأردن ١٩٩٧م. ونشر باسم: قطوف أدبية مهداة إلى ناصر الدِّين الأسد.

٣٥ــ مراجعة كتاب أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهلي صفين، لأبي الخطاب عمر بن الحسن بن دحية الكلبي، المتوفَّى سنة ٦٦٣هـ = ١٢٣٥م. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

الأعمال الوظيفية:

الجهة	المدة
١ ــ معهد الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة	سنتان
٢ ــ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (معهد المخطوطات)	أربع عشرة سنة.
٣ ــ كلية اللغة العربية ــ جامعة أم القرى ــ مكة المكرمة	إحدى عشرة سنة.
٤ ــ أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها ــ بكلية الآداب جامعة حلوان	إلى حين وفاته رحمه الله.

٥ ــ خبير بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

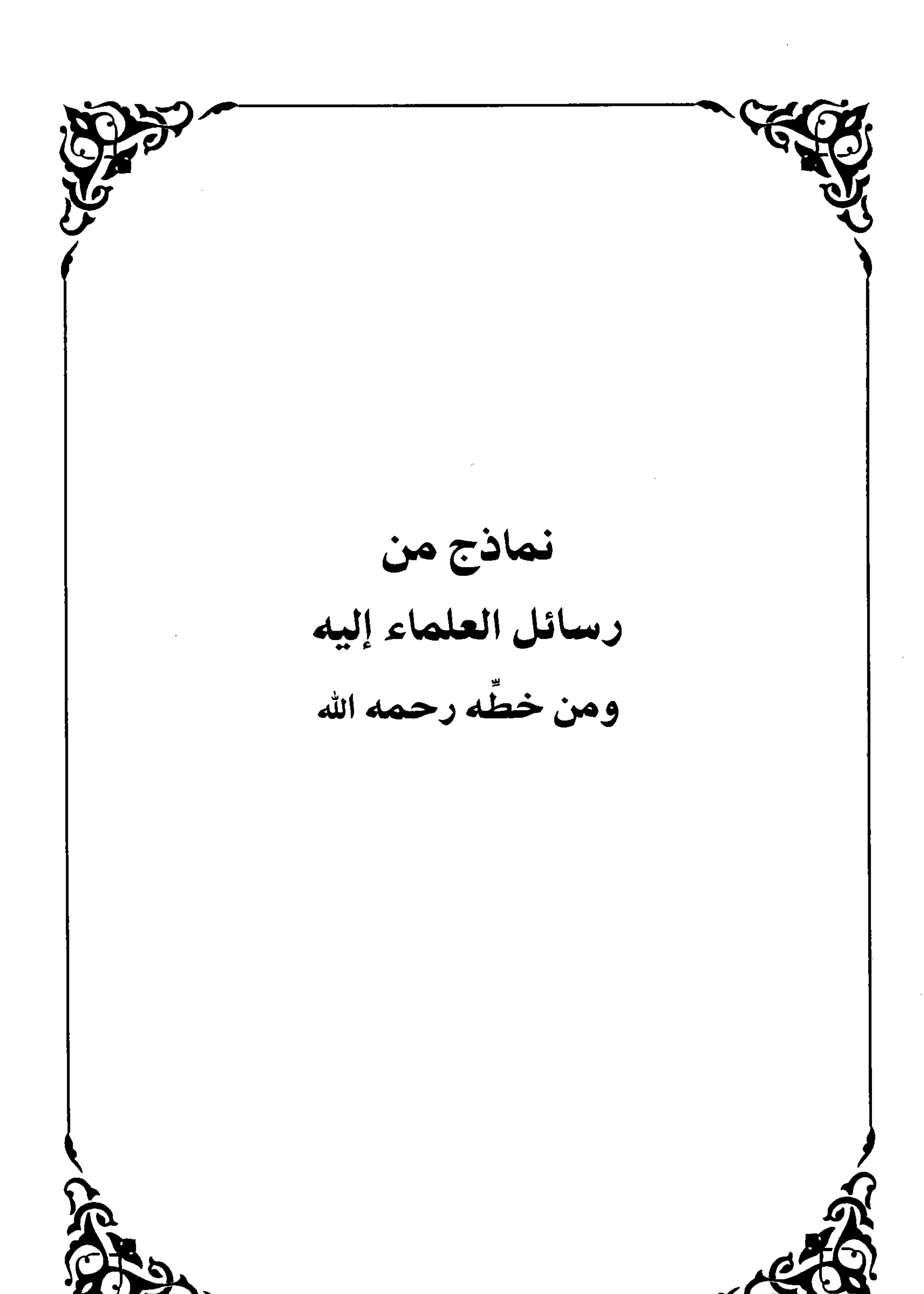
٦ ــ عضو بمركز تحقيق التراث بالهيئة العامة لدار الكتب المصرية.

٧ ــ عضو بالهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ معهد إحياء المخطوطات العربية).

انتقل إلى جوار ربه صباح الثلاثاء ٦ من ذي الحجة ١٤١٩هـ، الموافق ٢٣ مارس ١٩٩٩م.

* * *





نماذج من
رسائل العلماء إليه
ومن خطِّه رحمه الله



بسم الله الرحمن الرحيم

دمشق في ٥ جمادى الآخرة ١٣٩٣

٥ تموز ١٩٧٣

الأخ المفضال الأستاذ محمود :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وصل إليّ - أحسن الله جزاءك - الجزء الأول من كتابه «الغريبين». ولم أفاجأ بما رأيت فيه من علائم الجهد والعناية والإتقان، فمن قبل ما رأيت نحو ذلك في «النهاية». وإني لآمل أن نرى فيما يستقبل الكثير الطيب من أعمالك إن شاء الله.

كان الأخ الأستاذ علي شاكر أخبرني أنك على نية أن تزور دمشق منقلبك من المدينة، وقد أسفت عندما بلغني أنك أرجأت ذلك إلى حين آخر أرجو ألا يكون بعيداً.

وقد أغراني الأخ الأستاذ علي بما حدثني عنك أن ألجأ إليك في حاجة عنت لي. وذلك أني أعد مقالة لمجلة المجمع عن كتاب «إعراب القرآن المنسوب للزجاج». وقد صح عندي بأدلة لا تتعلق بها شبهة أن مؤلف الكتاب أبو الحسن علي بن الحسين الأصبهاني الباقولي المعروف بـ«جامع العلوم». فإن كان المعهد قد أصاب شيئاً من مؤلفات الرجل وصورها - عدا كتابه «الكشف في نكت المعاني والإعراب وعلل القراءات» الذي كان المعهد قد صوره قديماً - ورأيت أن تكتب إلي بذلك فعلت مشكوراً إن شاء الله.

وسلامي إلى من قبلكم من الصحب: الأستاذ علي، والأستاذ محمد مرسي الخولي، والأستاذ رشاد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أحمد راتب
النفاخ

رسالة من العلامة أحمد راتب النفاخ إليه بخطه

بسم الله الرحمن الرحيم

دمشق في ٤ ربيع الأول ١٣٩٤
٢٧ آذار ١٩٧٤

أخي الأستاذ محمود:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قعدت بي عن الكتابة إليك قبل اليوم هموم وشدائد أسأل الله تعالى الفرج منها. ولكني لا أدفع أن لضعف العزيمة والاستسلام للكسل حظاً في ذلك، ومثلك من عذر فصفح. وكنت أنفذت إليك مع بعض الصحب أرغب أن تكتب لي صورة عن «الكشف» لجامع العلوم، فإني في أمس الحاجة إليه لأتمم ما وعدت به في مقالتي الأولى عن «إعراب القرآن» من التعريف به بعد أن صح عندي أن الجامع هذا هو صاحبه. وقد أبى على صاحبنا الذي كان وعدني بصورته كرم عليه إلا أن يسترد نسخته عندما عرف مني أن لا سقط في الكتاب ولا خرم وأني أعدت ترتيب ما اضطرب من أوراقه. وفي الكتاب أشياء كثيرة لم أستوف نقلها ولا بد منها للتعريف بصاحبه. هذا إلى أنه ظهر لي وأنا أستعرض الكتاب مشابه كثيرة ما بينه وبين «غريب إعراب القرآن» لأبي البركات بن الأنباري الذي حققه (!) طه عبد الحميد، وأنا أستبعد أن يكون ذلك أمراً عارضاً، ويغلب على ظني أن أبا البركات وقف على كتاب «الجامع» - وهو من طبقة أشياخه - واتكأ عليه، بل إن في كتابه أشياء تكاد تكون مسلوخة من كتاب ذاك. إلا أني أرجو ألا تتحرج من إهمال ما طلبته إليك إذا ما كان فيه عسر، فإن فيما كنت نقلته عن «الكشف» ما يعين على التعريف بالرجل تعريفاً مقارباً.

هذا، وكنت أنفذت إليك مع بعض موفدي جامعة اللاذقية نسخة من مقالتي الأولى لتدفعها إلى الأبياري لأني لا أعرف عنوانه، ومن حق الرجل أن يقف على ما كتبت، وقد يعن له أن يرد ما ذهبت إليه. وإذا كان قد سنح لك رأي في ذلك؟ أو وقفت عرضاً على شيء من أخبار الباقولي أو ترجمة له في غير ما ذكرته من مصادر ورأيت أن تكتب إلي بذلك فعلت مشكوراً إن شاء الله. وإني لأستحلفك ألا تدع شيئاً مما تتوقع أني قادر على تقديمه إليك إلا كلفتني به من غير ما حرج.

وإليك أخيراً وإلى من قبلك من الصحب - ولا سيما شيخنا أبو فهر - أطيب التحية. والسلام عليكم ورحمة الله.

أحمد راتب
النفاخ

رسالة من العلاّمة النفاخ له أيضاً

الكويت في ١٤/١٠/٦٧

عزيزي الأخ الحبيب الأستاذ محمود الطناحي

تحية وشوقا، وإعزازا للأخ الوفي حفظه الله، ثم تحية مني إلى جميع الإخوان في جامعة الدول العربية. وهأنذا ألقي عليك حملا ثقيلا، راجيا ألا تتوده، فإنك أهل للحمل وإن لم تكن أهلا للوضع! ومعذرة، لأني أحاكيك في أسلوب الفكه المحبوب وإن لم أحسن الحكاية.

إليك بعض المسائل لتبحثها في مخطوطة ابن منظور من اللسان، وهي برقم ٤٦ لغة في الجزء السادس وما بعده، على أن تنقل إليّ الصورة واضحة من أصلها من حيث الضبط والإهمال في الحروف والحركات. وقد ذكرت لك المادة من اللسان والصفحة والسطر من طبعة بولاق، ليتيسر لك أن تقابلها على المخطوطة. وشكرا مقدما. وتيسيرا للرد أرجو إعادة هذه المسائل إليّ مكتوبا تحتها مقابلها بالضبط موافقة أو خلافا، بدقتك المعهودة. وعسى أن يصل إليّ الرد مبكرا لأتمكن من نشر هذه التحقيقات في مجلة البيان التي تصدرها رابطة الأدباء الكويتيين بالكويت. وقد نشرت المجلة في عدد هذا الشهر (أكتوبر) إعلانا لاستئناف نشر بقية التحقيقات التي بدأت في الأعداد ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٧ من مجلة المجلة مع الإلحاح المفرط على حين أجد الإلحاح هنا من مجلة البيان، والترحيب الصادق الذي يسرني أن أرسل إليك صورة منه مرفقة بهذا.

وإني إذ أكرر لك الشكر أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك، ولك التحية والود الصادق.

المخلص
عبد السلام هارون

رسالة من الأستاذ عبد السلام هارون بخطه إلى الطناحي

نهاية ، أنا أكرر لك الشكر يا محمود على وفائك الذي
أدخلني في باب التاريخ الذي من دخله لم يخرج منه ، وجريًا على
عادتي في التصحيح والتحقيق ، أذكر لك سبقي التحقيق الجميل من
ذكرت من هؤلاء الأربعة الكرام حتى شيخي المغفور له الشيخ أحمد شاكر .
فإني قد حققت قبله جزءًا من أدب الكاتب لابن قتيبة الذي طبعه
محب الدين الخطيب وأنا في السنة الأولى من تجهيزية دار العلوم سنة ١٩٢٤
كما حققت أجزاء الخزانة الأربعة على المخطوط بدءًا من سنة ١٩٢٨
التي كتب عنها محب الدين الخطيب في داخل مقدمتها " فمنهم أخي النجيب اللبيب
عبد السلام هارون " قبل أن يظهر أي أثر لهؤلاء الأربعة ،

وعسى أن تكون أنت والأسرة الكريمة والأنجال على خير ما أتمنى لك
تحيتي وتحية أسرتي إليك وإلى الأسرة ، وعسى أن ألقاك كثيرًا في
إجازتك المقبلة لا كما فعلت من قبل ، وحفظك الله وزادك
توفيقًا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المحب المخلص
عبد السلام هارون
١٦/٣/١٩٨١

الورقة الأخيرة من رسالة أخرى من عبد السلام هارون بخطه

بسم الله الرحمن الرحيم



Organisation Islamique pour l'Education, les Sciences et la Culture (ISESCO)

Directeur Général

Islamic Educational Scientific and Cultural Organization (ISESCO)

Director General

المدير العام

الرقم: مدع/5. № 02634 الرباط في: 13 يوليو 1995،

14 صفر 1416

الأستاذ الدكتور محمود الطناحي
القاهرة - جمهورية مصر العربية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،

قرأت بتركيز شديد واهتمام كبير، مقالكم القيم الذي نشر لكم في عدد شهر يوليو 1995م من مجلة الهلال، تحت عنوان: [الكتاب والتواصل العلمي]، والذي تفضلتم فيه -مشكورين- بالإشادة بجهود المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وبالثناء على شخصي، في عبارات تفيض صفاء وإخاء، وتعرب عما تنطوي عليه نفسكم من حب للثقافة العربية الإسلامية وولاء، وتعكس ما عُهد في بحوثكم وكتاباتكم من تعلّق بالتراث العربي الإسلامي وصدق انتماء.

ولقد تأثرت بالغ التأثر بالحفاوة والاهتمام اللذين أبديتموهما في مقالكم الكريم، وبحرصكم على التعريف بالمنظمة الإسلامية وبمطبوعاتها.

وإن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ومنذ أن توليت مسؤوليتها في 30 من شهر نوفمبر سنة 1991م، وهي تسير في هذا الاتجاه الصحيح، وتعمل من أجل خدمة تراث الأمة، والنهوض بثقافتها، ونشر لغتها، ومدّ إشعاع الحضارة الإسلامية إلى مختلف الآفاق.

وإن من شأن مقالكم الممتاز هذا، أن يقوي فينا العزم، ويحفزنا على المزيد من العمل والبذل والعطاء، نهوضاً بمسؤولياتنا، وقياماً بواجبنا تجاه العالم الإسلامي.

وإني لآمل أن أدعوكم في أقرب فرصة تسنح، للمشاركة بعلمكم وقلمكم، في أحد الأنشطة التي ستقوم بها المنظمة الإسلامية، لنستفيد من سعة خبرتكم وعمق درايتكم في أحد المجالات التي أنتم مبرزون فيها.

وفقكم الله، وسدّد خطاكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

ع ا/وف

Hay Mesk Al-laïl - Avenue Attine - Hay Ryad - Rabat - Maroc
B.P. : 2275 - 10104 - Tél. : 77.24.33/67.22.94
Tlx : 326 45/318 44 M. - Fax : 77.74.59/77.20.58

حي مسك الليل - شارع التين - حي الرياض - الرباط - المغرب
ص.ب. 2275 - 10104 الهاتف : 33_24_77 - 94_22_67
تلكس : 45 326 - 44 318 M - فاكس : 59_74_77/58_20_77

رسالة من الدكتور عبد العزيز التويجري إليه

دمشق في ١٩٧٥/٤/١١

أخي الأستاذ محمود

أطيب التحية وأصدق المودة. وأرجو أن تكون الموفق المسدد المحظي أبدًا.

شغلت منذ فترة بغريب الحديث، وبالدلائل للقاسم بن ثابت خاصة.

وقد توقفت قليلًا عند أبي محمد بن قتيبة، وكتابيه في الغريب وإصلاح الغلط.

طبع كتاب إصلاح الغلط في بيروت، طبعه المستشرق جيرار لوكنت، ورأيت أن أقابل الكتاب بمخطوطتيه: واحدة في الظاهرية، والأخرى في استانبول. ولم يكن لي بدّ من أن أستعين بك في الحصول على النسخة الثانية التي صورها معهد المخطوطات فيما أحسب. وقد ذكرها في الجزء الأول من فهرس المخطوطات المصورة تصنيف الأستاذ فؤاد سيد (في علم اللغة، ص ٣٤١) برقم ٦٧، مصورة عن أيا صوفيا ٤٥٧، فأرجو أن أتلقى منك ميكروفيلم هذه النسخة لي حتى الآن ستة المبلغ.

وهناك أمر آخر، هو الفهرس الذي صنعته لكتاب غريب الحديث لأبي عبيد، هل لي أن أحصل على نسخة منه. لأن المراجعة في الغريب بغير فهارس تستنفد الوقت والجهد.

لعل الأخ مع شاكر، هو وغيره من سورية في الزيارة، يوافيني بطلبي، وإلا فلعله الاتصال بالمستشار الثقافي في السفارة السورية، وإرسالها بالحقيبة الدبلوماسية.

تحياتي الطيبة لجميع الإخوة في الدار. ولك مني أطيب التحية. ودمت [illegible]

شاكر الفحام

- لعلنا نحظى ببقية غريب الحربي، فقد طال الترقب منذ جزئه الأول، والكتاب جيد في بابه، ولك من همتك ما يعين على إتمامه.

رسالة من الدكتور شاكر الفحام بخطه إليه

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
مكة المكرمة
كلية اللغة العربية

الرقم : ٩٠٧/٨/ج م
التاريخ : ١٤٠٩/١١/١٤هـ
الموافق : ١٩٨٩/٦/١٧م

سعادة الدكتور محمود محمد الطناحي الموقر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد :-

فبناء على رغبتكم في انهاء عقدكم مع كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى ، يطيب لي أن أقدم لشخصكم الكريم خالص الشكر والتقدير لما قمتم به من جهود طيبة لخدمة العلم وطلابه في الفترة التي قضيتموها أستاذا مشاركا بكلية اللغة العربية في الفترة من ١٣٩٨/١٠/١٢ الى ٣٠/ ١٢/ ١٤٠٩هـ . لقد كنتم أيها الزميل العزيز مثالا متميزا لتحمل المسئولية ، فقد أسهمتم خلال هذه السنوات التي مرت كالطيف في تطوير المناهج التعليمية بالكلية سواء فيما يخص برامج الدراسات الجامعية أو فيما يخص برامج الدراسات العليا العربية .

أما جهودكم في الاشراف على طلاب وطالبات الدراسات العليا في مرحلتي الماجستير والدكتوراه حتى تخرج على يديك مجموعة ممتازة من زملائنا الفضلاء فهي أكبر من أن يسطرها قلمي في هذا الخطاب .

أرجو من الله العلي القدير أن يجعل ذلك كله في موازين أعمالكم وأن يديم عليكم وافر الصحة والعافية وأن يمدكم بعونه وتوفيقه والى أن نسعد بصحبتكم العلمية والعملية بجامعة أم القرى أستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم أعمالكم .

وتقبلوا خالص التحية ووافر الامتنان ..،،

أخوكم
عميد كلية اللغة العربية
١٧/٦/٨٩
د . محمد بن مريسي الحارثي

برقيا جامعة أم القرى مكة
تلكس عربي ٤٤٠٠٤١ م ك جامعة
سنترال ٥٥٧٤٦٤٤
ص. ب ٣٧١٥

خطاب من عميد كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الفاضل الكريم الأستاذ أحمد العلاونة حرسه الله ورعاه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد:

فقد تسلمت بكلتا اليدين كتابك الكريم الذي أسعدني كل السعادة، إذ ردّ إليّ ثقة مفقودة في أبناء هذا الزمان، فقد كنت على يأس من أن أرى أحداً يحفل بهذه الطائفة الجليلة من علمائنا الأفذاذ، فيفرد لهم صفحات تأتي على تراجمهم، وتبقى لهم ذكراً في العالمين. وقد زاد من سعادتي حرصك على أن تمسك بالحبل الذي مده "علم الأعلام" الأستاذ خير الدين الزركلي، برّد الله مضجعه، ولقد كتبت عن هذا الرجل العظيم كلمة يسيرة في رسالة لي صغيرة، سميتها «الموجز في مراجع التراجم والبلدان».

إن تراثنا وما تركه أهل العلم فينا يتعرض الآن لإهمال شديد، ليس من أعدائه فقط، ولكنه يأتي أيضاً من القائمين على إذاعته ونشره، أولئك الذين يزعمون أنهم محققون، وإنما هم مفسدون، ينشرون الكتب ناقصة ومحرفة ومزالة عن جهتها، ولا زلت أشير إلى هذا العبث في كل ما أكتب - قياماً بحق العلم والنصح فيه - ولعل أقرب ما تراه في تقدمتي لكتاب الشعر، في تلك الكلمة التي سميتها: (ماذا يلقى الأكابر من الأصاغر) وقد ظن بعض الناس، غفلة أو سوء ظن أني أردت بالأكابر نفسي، وبالأصاغر الدكتور حسن هنداوي، الذي أساء إساءة بالغة في نشر الكتاب. ويعلم الله أني ما قصدت إلى هذا، فأنا عند نفسي أهون من هذا بكثير. وإنما أردت بالأكابر: أهل العلم من الأولين الذين شقوا في تأليف هذا التراث وجمعه، وبالأصاغر تلك الطائفة من محققي هذا الزمان الذين يجترئون فيفسدون. وإلى الله المشتكى،

الورقة الأولى من رسالة بخط الطناحي إلى أحمد العلاونة، صاحب كتاب «ذيل الأعلام»

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي العزيز النبيل الدكتور عبد الله الغنيم حفظه الله وبارك فيه

تحية عاطرة

وبعد

فبعد أن انتهت المخاطبات الرسمية والأسماء الثلاثية (عبد الله يوسف الغنيم) و (محمود محمد الطناحي).

إليك أيها الحبيب أقصى ما يقدمه أخ لأخيه من مشاعر الود والحب والدعاء. (أما الثناء والرجاء فلا مكان لهما إن شاء الله بين الأشقاء).

بعد غياب أحد عشر عاماً عدت إلى القاهرة فوجدت أشياء كثيرة قد تغيرت لعل من أبرزها غياب الأحباب وبخاصة جيل أساتذتنا الكبار (أبو الفضل إبراهيم وحسن كامل الصيرفي وعبد السلام هارون) رحمهم الله أجمعين وكانوا واحة خضرة نستظل بفيئها من هجير الحياة.

أما عالم المخطوطات فقد حدثت فيه غرائب وعجائب، نسأل الله العافية والسلامة، ولعلنا نستطيع أن نفعل شيئاً.

تحياتي إلى الأسرة الكبيرة والصغيرة، والأصدقاء جميعاً، وإن كان لا بد من تخصيص فعليك بمرزوق الغنيم وعبد الحميد البسيوني. ثم لا تنس الزميل القديم الأستاذ الفاضل عصام الشنطي (أبو حاتم).

واسلم ودم أخاً باراً نبيلاً.

والسلامة لك والسلام عليك

من الداعي لك

محمود الطناحي

رسالة منه بخطه إلى الدكتور عبد الله يوسف الغنيم

روضة العقلاء ونزهة الفضلاء

للإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حِبَّان البُسْتي

المتوفى سنة ٣٥٤ من الهجرة وهو فى عشر الثمانين

رحمه الله

مما مَنَّ الله به عليَّ
في المدينة المنورة على
ساكنها أفضل الصلاة
وأزكى السلام
ربيع الأنور ١٣٩٢
ابريل ١٩٧٢
محمود محمد الطناحي

بتحقيق وتصحيح

محمد حامد الفقي

رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية

١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥ م

مطبعة السنة المحمدية

ت ٧٩٠١٧

نموذج من تملكه للكتب

اهداء
إلى استاذنا الكريم
سعادة الدكتور محمود الطناحي
مع خالص حبي و تقديري
اخوكم
عابد المشوخي
١٦/١٠/١٤١١هـ

عابد سليمان المشوخي

فهرسة المخطوطات العربية

مكتبة المنار
الأردن - الزرقاء

نموذج من أحد الكتب المهداة إليه

أعمار الأعيان

لابن الجوزي

إلى أخي الكريم الشيخ
محمد بن ناصر العجمي
زاده الله علماً ورفعة
محمود الطناحي
الكويت في
٩/٤/١٩٩٤م

جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد

(٥١٠هـ - ٥٩٧هـ)

تحقيق

الدكتور محمود محمد الطناحي

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

نموذج من خطه في الإهداء

مقالات

العلامة الدكتور

محمود محمد الطناحي

صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب

القسم الأول

ابن السبكي[1]: علم وإصلاح

عرف تاريخ الثقافة العربية كثيراً من البيوتات العلمية التي استفاض العلم فيها، وكان إرثاً طيباً يؤول إلى الأبناء فيما يؤول إليهم من عقار وحطام، فكان علم الأبناء امتداداً ناضجاً لعلم الآباء. وقد صان هؤلاء الأبناء ذلك الموروث العلمي العظيم، وعملوا على إثرائه وإخصابه.

وبحسبنا في هذا المقام أن نذكر أبا حاتم الرازي محمد بن إدريس بن المنذر، المتوفى سنة ٢٧٧هـ، وابنه عبد الرحمن بن أبي حاتم، المتوفى سنة ٣٢٧هـ، من أئمة علم الجرح والتعديل. والإمام ضياء الدين خطيب الري عمر بن الحسين بن الحسن، وابنه الفخر الرازي محمد بن عمر، المتوفى سنة ٦٠٦هـ من فرسان علم الكلام.

على أنه لم يستعلن تأثير والد في ولده كما استعلن في تاريخ الإمام العلامة تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، المولود في سنة ٦٨٣هـ والمتوفى في سنة ٧٥٦هـ، وولده العلامة تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي، المولود في سنة ٧٢٧هـ، والمتوفى في سنة ٧٧١هـ.

وقد أجمع المؤرخون على فضل الوالد وسعة علمه، فيقول عنه الذهبي ـ فيما ينقل عنه السبكي:

---

(١) مجلة «الرسالة»، إبريل/ نيسان ١٩٦٥م.

«القاضي الإمام العلامة الفقيه المحدث الحافظ فخر العلماء، كان صادقاً ثبتاً خيراً ديناً، من أوعية العلم، يدري الفقه ويقرره، وعلم الحديث ويحرره، والأصول ويقربها، والعربية ويحققها».

ويكفي دليلاً على علم هذا الرجل أنه كان الوحيد من بين علماء عصره الذي تصدى لابن تيمية ــ على عنفه وشدَّته ــ ورد عليه في مسألتي الطلاق، وزيارة قبر النبيّ عليه الصلاة والسلام، وهما المسألتان اللتان زعزع بهما ابن تيمية كيان العلماء في عصره. فرد عليه الإمام السبكي في مسألة الطلاق برسالتين: رافع الشقاق في مسألة الطلاق، والتحقيق في مسألة التعليق. ورد عليه في الزيارة برسالة شفاء السقام في زيارة خير الأنام، أو شن الغارة على من أنكر السفر للزيارة.

ويقول فيه ابن تيمية: «لقد برز هذا على أقرانه». وقد نبغ صاحبنا تاج الدين في منتصف القرن الثامن الهجري ــ عصر الموسوعات العلمية ــ هذا العصر الذي كان بمثابة الصحوة الفارهة بعد النكسة التي أصابت العالم الإسلامي، والتي كادت تأتي على تراثه الضخم العريض، إبان الغزو التتري الكاسح.

وقد ولد تاج الدين بالقاهرة، ونسب إلى قرية سبك من أعمال المنوفية. ولم ينصرف الفتى في صباه إلى اللهو واللعب، كما يفعل لداته وأترابه، فقد هدهد سمعه في سن تفتحه وفود العلماء، تفد إلى بيت أبيه، تنشد العلم وتطلب الفتيا. فأقبل على ألوان المعرفة يحصلها على مهل واتئاد، حتى اكتملت له أدوات العالم المجتهد. وكان مجلى هذه الثقافة الواسعة العريضة في نهاية الشوط موسوعة علمية ضخمة، لمت أطراف الثقافة العربية، وجلتها على نحو معجب خلاب، على امتداد سبعة قرون في كتابه الخالد: «طبقات الشافعية الكبرى».

لقد انفسح هذا الكتاب العظيم من خلال ترجمته لرجال المذهب الشافعي ــ لكثير من المباحث الفقهية والفتاوى الشرعية، والمقالات، والمناظرات، والنوادر

والملح، كما حفل بالضوابط اللغوية ومسائل علم الكلام والأصول. كما كان مصدراً أدبيّاً لكثير من الكتب التي عالجت شؤون الحب.

وكان أيضاً مرجعاً أصيلاً في جمع أشعار الشعراء. على أن أهميته الكبرى بعد كل ذلك ترجع إلى أنه حفظ لنا كثيراً من النصوص التي ضاعت أصولها. كتاريخ نيسابور، للحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله، المعروف بابن البَيِّع، المتوفى سنة ٤٠٥هـ، وتاريخ مصر لابن يونس، عبد الرحمن بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٧هـ، وغير هذين الكتابين كثير من هذه الأمهات التي عبث بها الزمان.

وقد عالج ابن السبكي في كتابه هذا ذلك المنهج العلمي، الذي عرف فيما بعد، ونسب إلى ابن خلدون، ذلك المنهج القائم على تمحيص الأخبار، والتنبه لما تفعله المعاصرة والعصبية في المذهب.

استمع إليه يقول في ترجمة أحمد بن صالح المصري، في الطبقة الثانية: «ومما ينبغي أن يتفقد عند الجرح حال العقائد، واختلافها بالنسبة إلى الجارح والمجروح، فربما خالف الجارح المجروح في العقيدة، فجرحه لذلك». ولم تقف تلمذته للإمام الذهبي حائلاً دون نقده مُرَّ النقد لمخالفته هذا المنهج القائم على الحيدة والتجرد، فيقول عنه: «وهو شيخنا ومعلمنا، غير أن الحق أحق أن يتبع، وقد وصل من التعصب المفرط إلى حد يسخر منه».

ولكن هذه الحياة العلمية المخلصة لم تشغل صاحبنا عن أن يلمس مظاهر الضعف والعسف التي استعلنت في الحكم المملوكي الجائر، فظهرت دعواته الإصلاحية النقدية في كتابه القيم: «معيد النعم ومبيد النقم».

لقد كان هذا الكتاب ثورة عاتية على نظم الحكم وأخلاق الناس، فقد أتيح لابن السبكي من خلال مشاركته في الحياة العامة ــ مدرساً وخطيباً وقاضياً ــ أن يرى ويحس مدى التمزق الذي شمل الأمة نتيجة للحكم المملوكي البغيض، الذي نبتت فيه فكرة «تركي وفلاح». والذي استأثر فيه المماليك بالمناصب الكبرى، وتركوا أصحاب الأرض الحقيقيين يشربون العرق ويقتاتون السهد.

وقد وضع ابن السبكي كتابه هذا رداً على سؤال ورد عليه، أو وضعه هو بين يدي كتابه، موضوعه: «هل من طريق لمن سلب نعمة دينية أو دنيوية إذا سلكها عادت إليه، وردَّت عليه»؟ وإجابة عن هذا السؤال راح ابن السبكي ينقد بقسوة وصراحة طوائف الأمة، ابتداء من السلطان إلى أرباب الحرف، آخذاً في طريقه نواب السلطان والقضاة والمدرسين، ورجال الدين من العلماء والصوفية.

استمع إليه يلخص رأيه في الأتراك عموماً، فيقول: «وقد اعتبرت كثيراً من الأتراك يميلون إلى أول شاك، وما ذاك إلا للغفلة المستولية على قلوبهم»، ثم يسخر من هؤلاء الأتراك وتعلقهم من الإسلام بالمظاهر الفارغة، فيقول: «وأما أنك ترتكب ما نهى الله عنه وتترك ما أمر به، ثم تريد أن تعمر الجوامع بأموال الرعايا، ليقال: هذا جامع فلان، فلا والله لن يتقبله الله تعالى أبداً».

ثمَّ يتكلَّم عن السلطان ويحدد اختصاصاته فيقول: «إن الله لم يوله على المسلمين ليكون رئيساً آكلاً شارباً مستريحاً، بل لينصر الدين ويعلي الكلمة». وحين يتحدث عن العلماء والمفتين يأخذ على بعض هؤلاء وأولئك تعصبهم لمذاهبهم، وإضاعتهم الوقت في الخلافيات، فيقول مخاطباً العلماء: «لو أن الشافعي وأبا حنيفة ومالكاً وأحمد أحياء يرزقون لشدَّدوا النكير عليكم وتبرأوا منكم فيما تفعلون»، ثم يأتي إلى المفتين فيقول: «ومنهم طائفة تصلبت في أمر دينها، فجزاها الله خيراً، تنكر المنكر وتتشدد فيه، وتأخذ بالأغلظ، وتتوقى مظان التهم، غير أنها تبالغ فلا تذكُر لضعفة الإيمان من الأمراء والعوام إلا أغلظ المذاهب، فيؤدي ذلك إلى عدم انقيادهم وسرعة نفورهم. فمن حق هذه الطائفة الملاطفة وتسهيل ما في تسهيله فائدة لمثل هؤلاء إلى الخير، إذا كان الشرع قد جعل لتسهيله طريقاً، كما أن من حقها التشديد فيما ترى أن في تسهيله ما يؤدي إلى ارتكاب شيء من حرمات الله».

ويرسم ابن السبكي المعلم للمدرس منهجاً تربوياً راشداً حين يقول: «وحق عليه أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمه للحاضرين، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق، وإن كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواضحات، بل يدخل بهم في المشكلات». وتتجلى دعوة صاحبنا الإصلاحية في أبهى صورها حين يأسى للفلاح الذي يستهلك في السخرة والإقطاع. فحين يتكلم عن منصب ناظر الجيش وتحديد اختصاصاته يقول: «ومن قبائح ديوان الجيش إلزامهم الفلاحين في الإقطاعات بالفلاحة، والفلاح حر، لا يد لآدمي عليه، وهو أمير نفسه».

وبعد... ألا تعتقد معي أيها القارىء الكريم أن هذا الرجل إنما يتكلم بلغة عصرنا، كمصلح اجتماعي، وكعالم نفساني، بصير بالنفس الإنسانية، عالم بضعفها.

وكان طبيعياً بعد هذا النقد المر الجارح لنظام الحكم وأخلاق الناس أن تتعرض حياة الرجل ومصير أسرته للزوابع والأعاصير، فيعزل عن منصب القضاء، لأسباب واهية ذكرها الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة» وتُجرى له محاكمة، يحكم عليه فيها بالحبس سنة. ولكن هل ضعف ابن السبكي، أو تخاذل؟ استمع إلى معاصره الحافظ ابن كثير يقول: «جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على قاض قبله، وحصل له من المناصب والرياسة ما لم يحصل لأحد قبله، وأبان في أيام محنته عن شجاعة وقوة على المناظرة، حتى أفحم خصومه، ثم لما عاد عفا عنهم، وصفح عمن قام عليه».

وبعد هذه الحياة الخصبة الزاخرة بالعلم والإصلاح انطفأت هذه الشعلة التي توهَّجت عبر أربع وأربعين سنة. وحق لابن السبكي أن يقول في زهو ورضا، في ورقة كتبها إلى نائب الشام: «وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق، لا يقدر أحد يرد علي هذه الكلمة».

توفي تاج الدين شهيداً بالطاعون (بالدهشة) ظاهر دمشق، في ذي الحجة. خطب يوم الجمعة، وطعن ليلة السبت رابعه، ومات ليلة الثلاثاء سابعه سنة ٧٧١هـ، ودُفن بتربة السبكية بسفح قاسيون، عن أربع وأربعين سنة، بعد أن جلا صفحة مشرقة في تاريخ علماء المسلمين.

* * *

طبقات الفقهاءِ الشافعية[1]

تأليف أبو عاصم محمد بن أحمد العبّادي

لم يحظ رجال مذهب من مذاهب الفقه الإسلامي ما حظي رجال المذهب الشافعي، من التأريخ لحياتهم، والاحتفال بإنتاجهم، وتدوين مسائلهم وفتاواهم. وما ذلك إلا لأن رجال المذهب الشافعي انتشروا في الآفاق وشغلوا الناس حين بسطوا سلطانهم على كل فروع الثقافة العربية، درساً وتمثلاً وتصنيفاً.

فرأينا منهم المحدثين والحفاظ والمفسرين والصوفية والمؤرخين والأدباء واللغويين والمتكلمين والفلاسفة، وأمامنا أبو بكر البيهقي، وابن عساكر، وابن حجر العسقلاني، وابن كثير، وأبو قاسم القشيري، وابنا الأثير، مجد الدين صاحب «النهاية»، وعزّ الدِّين صاحب «الكامل»، والجرجاني صاحب «الوساطة»، وأبو منصور الأزهري، والفخر الرازي ووالده، وإمام الحرمين الجويني ووالده، وأبو حامد الغزالي، إلى آخر هذه السلسلة التي جلت وجه الثقافة الإسلامية، والتي ازدانت بإنتاجها المكتبة العربية.

وانطلاقاً من التأليف في مناقب الإمام محمد بن إدريس الشافعي صاحب المذهب، توالت المصنفات في تاريخ أتباعه وحملة مذهبه (انظر: كشف الظنون، ص ١١٠١).

وعلى وفرة هذه المصنفات لم يظهر منها مطبوعاً سوى «طبقات الفقهاء»

(١) مجلة «الكتاب العربي»، ديسمبر ١٩٦٦م.

لأبـي إسحاق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦هـ، و «طبقات ابن هداية الله» المتوفى سنة ١٠١٤هـ، ثم معلمة ابن السبكي العظيمة «طبقات الشافعية الكبرى». (وقد توفي ابن السبكي سنة ٧٧١هـ).

واليوم يظهر هذا النص المبكر في تراجم الشافعية لأبـي عاصم العبادي، محمد بن أحمد بن عبد الله بن عباد الهروي القاضي.

ولد أبو عاصم سنة خمس وسبعين وثلاثمائة. يقول عنه ابن السبكي: «كان إماماً جليلاً حافظاً للمذهب، بحراً يتدفق بالعلم، وكان معروفاً بغموض العبارة، وتعويص الكلام، ضنة منه بالعلم، وحباً لاستعمال الأذهان الثاقبة فيه».

وقد تنقل أبو عاصم في البلاد، ولقي المشايخ، وتلمذ لأفاضل عصره، فأخذ عن القاضي أبـي منصور محمد بن محمد الأزدي، بهراة، والقاضي أبـي عمر البسطامي، والأستاذ أبـي طاهر الزيادي، وأبـي إسحاق الإسفراييني، بنيسابور.

وصنف كتباً نافعة، منها: «الزيادات»، و «زيادات الزيادات»، و «المبسوط»، و «الهادي إلى مذهب العلماء»، و «أدب القضاء»، و «الرد على القاضي السمعاني». وبعد حياة زاخرة بالعلم والتصنيف انتقل إلى رحمة ربه، في شوال سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، عن ثلاث وثمانين سنة.

وكتاب أبـي عاصم هذا «طبقات الفقهاء» أحد كتب خمسة في تراجم الشافعية ظهرت في القرن الخامس الهجري. فقد ألف أبو حفص عمر بن علي المطوعي المتوفى سنة ٤٤٠هـ كتاباً سماه «المذهب في ذكر شيوخ المذهب». ثم ألف القاضي أبو الطيب الطبري المتوفى سنة ٤٥٠هـ مختصراً ذكر فيه مولد الشافعي رضي الله عنه. وعدَّ في آخره جماعة من الأصحاب كما يقول ابن السبكي.

ثم ألف شيخ الإسلام أبو إسحاق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦هـ كتاب «طبقات الفقهاء»، وفي آخر القرن ألف الحافظ أبو محمد عبد الله بن يوسف الجرجاني المتوفى سنة ٤٨٩هـ كتابه «الطبقات». ويصف ابن السبكي كتاب

أبـي عاصم هذا فيقول: «جمع فيه غرائب وفوائد، إلا أنه اختصر في التراجم جدّاً. وربما ذكر اسم الرجل أو موضع الشهرة منه، ولم يزد».

وقد أسدى الأستاذ المستشرق ــ نموستا فيتستام، ليدن ــ إلى التراث العربـي يداً جليلة بإبراز هذا النص وإخراجه إلى النور. لكنه على عادة كثير من المستشرقين المشتغلين بتحقيق النصوص العربية قدم النص مجرداً من أي شرح أو توثيق، إلا ما يكون من ذكر فروق النسخ.

وسواء أكان الباعث على هذه الطريقة: المنهجية أو القصور، فستظل هذه النصوص التي تخرج على هذا النحو في حاجة إلى إخراج جديد، يجلوها ويربطها بما قبلها وبما بعدها في خط التراث العربـي المتداخل المتشابك. وستظل هذه النصوص أيضاً في حاجة إلى عين عربية بصيرة بمجرى السياق عليمة بمواقع الكلام.

وإذا كان من المجمع عليه أنَّ أوفى عمل في هذا الفن ــ فن تراجم الشافعية ــ هو موسوعة ابن السبكي العظيمة: «طبقات الشافعية الكبرى»، فإن أي عمل في هذا المجال ينبغي أن يراجع على هذه الموسوعة الكبرى، وبخاصة أن ابن السبكي قد أفرغ في كتابه كل الكتب التي صنفت قبله في هذا الفن. فهو جهد حقيق بأن يرجع إليه ويستفاد منه.

ويبدو أن الأستاذ المحقق لم يفد من عمل ابن السبكي، ولو فعل لأراح واستراح من هذه المظاهر الصاخبة التي زحم بها حواشي الكتاب، من ذكر فروق النسخ فيما لا طائل تحته ولا غناء فيه. فقد تكثر الأستاذ المحقق من ذكر هذه الفروق، بحيث اشتملت بعض الصفحات على عشرين تعليقاً، معظمها يمكن الاستغناء عنه. وليس هناك داع لإثقال النص بالفروق الهينة، أو التي تكون واضحة الخطأ، نتيجة لأوهام النساخ أو جهلهم، ولا يذكر من الفروق إلا ما كان له وجه يخدم النص. والمسألة ليست استعراض عضلات، كما يقال في هذه الأيام. وهذا مثال واحد في صفحة ٦١ هامش ٧: «قال أبو داود السجستاني»، يضع المحقق رقماً فوق «أبو» ليقول في الهامش: في ت: «أتو»!

ولا شك أن هناك جهداً صامتاً للمحقق لا يظهر في التعليقات، فلن يضير المحقق أن تكون تعليقاته قليلة. وهذه حقيقة يعرفها كل من ابتلي بتحقيق النصوص.

وملاحظاتي العامة على عمل هذا المستشرق أنه لم يضبط النصوص القرآنية الكريمة، والأحاديث الشريفة. وفي هذا ما فيه. كما أهمل ضبط النسب: كالبويطي والدغولي والقراب، والسجزي، والتبوذكي. مع أن الأمر فيها هين. فكان حسبه أن ينظر في «اللباب» لعز الدين ابن الأثير، و «المشتبه» للذهبي، و «معجم البلدان» لياقوت، بل كان يكفيه «القاموس المحيط»، وهو مرجع لا نظن مكتبة تخلو منه. والعجيب حقاً أن المحقق في صفحة ٦٣ سطر ٤ ضبط «المروروذي» فكيف حظي أبو حامد وحده بهذا الاهتمام؟ وهذا من علامات اضطراب المنهج عند المحقق.

ولم يضبط المحقق الألفاظ الغريبة التي امتلأ بها النص، مثل: «النغم والوغم» صفحة ٣٦ سطر ٥، وكذلك كلمة «جداد» في الصفحة نفسها سطر ١٣.

ولم يراع المحقق علامات الترقيم، فاضطرب السياق في كثير من الأحيان.

وقد اقتطفت هذه الملاحظات لتدل على غيرها!

صفحة ٢ سطر ٩: «ومحمد بن صباح» شدد الباء في «صباح»، والصواب تخفيفها.

وقد تكرَّر هذا الخطأ في صفحة ٢٣ سطر ٥، وفي ص ٧٨ س ٤.

ص ١٠ س ٩: قال العبادي في ترجمة المزني: «صنف المنثور»، وفيه قال في رجل ظاهر الحرية له أولاد أحرار في الظاهر أقر بالرق لآخر فقبله أن أولاده أحرار وتجب نفقتهم على العبد في كسبه لا يأخذ السيد من كسبه إلا ما يفضل من نفقتهم».

جعل المحقق جملة «له أولاد أحرار» مقول القول. ووضع قبلها نقطتين دليلاً على ذلك. وهو خطأ. والصواب أن مقول القول هو قوله: «إن أولاده أحرار...».

ص ١١ س ٦ : لم يضبط المحقق كلمة «السلم»، وهو اصطلاح فقهي، يجب أن يضبط بفتح السين واللام. وهو مثل السلف وزناً ومعنى. قاله في المصباح المنير. والعجيب أن المحقق حين يضبط لا يأتي ضبطه دقيقاً. ففي الصفحة ذاتها س ٧: «خبز حُوَّارَى» ضبطها بضم الحاء وفتح الراء فقط. وحقها أن تكون بضم الحاء وشد الواو وفتح الراء. وهو الدقيق الأبيض.

ص ١٢ هامش أ يقول المحقق: «هذه الكلمتان مكتوبة في هامش أ»، وهو أثر من آثار العجمة. وكان يجب على المحقق أن يستعين بأحد أبناء العربية في تحرير التعليقات وفي قراءة النص، كما يفعل كثير من المستشرقين.

ص ١٣ س ١١، ١٢ : «إذا ترك أهل بلد طلب العلم رأيت الحاكم أن يخبرهم عليه».

والصواب: «يجبرهم» بالجيم، وليس بالخاء المعجمة.

ص ١٤ س ١ : «أما الفرض فغسل اليدين وقصعة والسكين والمغرفة»، والصواب: «والقصعة»، كما ورد في طبقات ابن السبكي في ترجمة الربيع المرادي. وللمحقق كلف بحذف «ال» التعريف ستأتي له أمثلة كثيرة.

ص ١٥ س ١٠ : ذكر العبادي في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل أنه روى عن الإمام الشافعي «أن السيد يلاعن أمته»، وقد جاءت هذه العبارة في طبقات ابن السبكي، في ترجمة الإمام أحمد «يلاعن عن أمته»، والذين تمرَّسوا بقراءة المخطوطات يعرفون أن تجاور كلمتين كما في هذا المثال قد يكون أصيلاً وقد يكون زيادة جرى بها قلم الناسخ بتأثير الكلمة الأولى. فكان ينبغي على المحقق أن يلتفت إلى هذه الزيادة.

ص ١٧ س ١ : مثال لإهمال الترقيم وعدم فصل النصوص. «سئل النبيّ ﷺ عن الصلاة في الفراء، فقال: «أنقاها الدباغ وكانت الصحابة رضي الله عنهم... الخ... وواضح أن قول الرسول عليه الصلاة والسلام ينتهي عند كلمة «الدباغ».

وفي الصفحة نفسها س ٢ : «وحكى الربيع المرادي عن الشافعي رحمه الله أنه قال: آلات الرئاسة خمسة: صدق اللهجة، وكتمان السر، والوفاء بالعهد، وابتذال النصيحة، وأداء الأمانة».

ذكر العبادي هذه الحكاية أثناء ترجمة الربيع الجيزي، ولا علاقة لها بترجمته، إذ إنها سبقت في ترجمة الربيع المرادي ص ١٤ . والربيع المرادي هو الذين يتوقع منه الحكاية عن الشافعي، فهو كما يقول ابن السبكي: «صاحب الشافعي وراوية كتبه، والثقة الثبت فيما يرويه. وقد اتصل بخدمة الشافعي وحمل عنه الكثير وحدث عنه به».

في حين لم يكن للربيع الجيزي من الإمام الشافعي سوى الرواية عنه فقط. ويلاحظ أيضاً أن النص في ترجمة الربيع المرادي بدا مبتوراً هكذا: «الرئاسة خمسة». وهنا يقول: «وابتذال النصيحة»، وهناك: «وبذل النصيحة»، وهو الصواب، فإن الابتذال ضد الصيانة. كما يقول صاحب القاموس.

وكل هذا يدل على أن المحقق بمعزل عن النص. والاشتغال بتحقيق النصوص يقتضي المعايشة الكاملة للنص المحقق، بحيث يكون المحقق مالكاً لزمام عمله، مفتح العينين لكل خبر وحكاية.

ص ٢٢ س ١٣ : «وفيه قول آخر أنه فيها من غير قطع»، والأولى أن توضع كلمة «يدخل» قبل «فيها»، كما في النسخ الثلاث التي أشار إليها المحقق في الهامش. والضمير يرجع إلى الصلاة.

ص ٢٤ س ٥ : «هذا لا نعرف»، الأولى قراءة النسخ الثلاث التي بالهامش «لا نعرف هذا»، ويقرأ ما في الصلب «لا يعرف» بالبناء للمجهول. ويجب أن يتخذ المحقق موقفاً تجاه اختلاف النسخ، وألا يكون عبداً للأصل إذا كان واضح الخطأ.

وفي الصفحة نفسها س ١٠ : «أبو طيب»، والصواب: «أبو الطيب»، وانظر ما كتبته عن ظاهرة حذف «ال» التي تكررت عند المحقق ص ١٤ س ١ .

ص ٢٦ س ١١ : «ومن فتاويه أنَّ الصبـي إذا أسلم بإسلام أحد أبويه» رفع «أحد»، والصواب : جرّه بالإضافة.

ص ٢٩ س ؟: «عن النبـيّ ﷺ: اقتدوا بالذين من بعدي أبـي بكر وعمر» صوابه : «باللذين»، كما هي قراءة النسخة ت. ولا يضير هذه النسخة أن تنفرد بالصواب. وكأن المحقق خدع بأن سائر النسخ تخالفها.

وفي الصفحة نفسها س ١٤ : «عمرو بن سواد المسرحي»، وفي بعض النسخ «التنـوخـي»، وإنصـافـاً للمحقـق أقـول إن مـا أثبتـه هـو الصـواب، كمـا فـي اللبـاب ٥٣٩/١، والمشتبه ٣٥٦. ولكن من حق القارىء عليه أن يعرف من أين جاء بهذا الصواب، حتى رفع عنه الشك، ويريحه من عناء البحث والتقصي.

ص ٣٣ س ١٤ : «فدل أنه يستحق كمال الدرجات بكمال الإيمان ونقصانه ينقص الدرجات»، يجب أن توضع فاصلة بعد «الإيمان»، وهذا مثال لإهمال المحقق علامات الترقيم.

ص ٣٥ س ٩ قال العبادي : «ومنهم إبراهيم بن عبد الله المحبر (وشدد الباء)» من أصحاب مالك رحمه الله. روى الحرث بن سريح عنه. قال للشافعي رحمه الله : لم أرَ هاشمياً يفضل أبا بكر على عليّ رضي الله عنهما سواك، فقال: أمير المؤمنين علي ابن عمي وابن خالتي وأنا من بني عبد مناف وأنا من بني عبد الدار ولو كان فيه مكرمة لعلي لكنت أولى بها منك»، وفي هذا النص عدة أخطاء.

أولاً : «المحبر» خطأ. صوابه : «الحجبـي»، كما جاء في طبقات ابن السبكي في ترجمة الحارث بن سريج. وساق ابن السبكي هذه الحكاية (انظر : الطبقات ١١٣/٢، ١٧٩، الطبعة الجديدة).

ثانياً: «ابن سريح» بالحاء المهملة خطأ. وصوابه : «سريج» بالجيم المعجمة. كما في طبقات ابن السبكي، وكما في المشتبه للذهبـي ص ٣٩٥. وهو حجة في هذا الشأن، لأنه يضبط بالعبارة.

ثالثاً: «وأنا من بني عبد الدار» خطأ. صوابه: «وأنت»، كما جاء في طبقات ابن السبكي، وهذا يؤيد كون «المحبر» خطأ، وأن الصواب: «الحجبي»، كما قدمت. فقد جاء في اللباب لابن الأثير، عند الكلام على نسبة «الحجبي» ١/ ٢٨٠: «هذه النسبة إلى حجابة بيت الله المحرم. وهم جماعة من عبد الدار».

ص ٣٩ س ٢: «أبو طاهر أحمد بن عمر ابن سرح» خطأ. والصواب: «أبو الطاهر... ابن السرح»، كما جاء في ترجمته في تذكرة الحفاظ ٢/ ٧٩، تهذيب التهذيب ١/ ٦٤، الجمع بين رجال الصحيحين ١/ ١٤، شذرات الذهب ٢/ ١٢٠، طبقات ابن السبكي ٢/ ٢٦ (الطبعة الجديدة)، العبر ١/ ٤٥٥. وحذف «ال»، وإن كان جائزاً في الأسماء والكنى، إلا أن تكرره وشيوعه في هذا الكتاب (انظر ما كتبته عن ص ١٤ س ١، وص ٢٤ س ١٠) مما يجعلني أكاد أجزم بأنه أثر من آثار العجمة لدى بعض المستشرقين الذين يصعب عليهم نطق ما فيه «ال»، وسيأتي في ص ٩١ س ١: «ابن نحاس القاضي» بدون «ال». وكذلك في ص ٩ من المقدمة الأجنبية ذكر كتاب العبادي المسمَّى: «الهادي إلى مذهب العلماء»، ذكره هكذا: «هادي إلى مذهب العلماء»، ولو كان اسم الكتاب في الحقيقة بدون «ال» لكتب: «هاد» بحذف الياء، لأنه حيئنذ يعل إعلال «قاض».

ص ٤١ س ١٣: «ابن أبان» شدد الباء. والصواب تخفيفها.

ص ٤٦ س ١٢: «ويحتمل» ضبطها بضم الياء. وهو خطأ يقع فيه كثير من الناس، يضمون الياء ويفتحون التاء والميم، مبنيّاً للمجهول. والصواب فتح الياء مع كسر الميم، مبنيّاً للمعلوم. قال الفيومي في المصباح المنير: «والاحتمال في اصطلاح الفقهاء والمتكلمين يجوز استعماله بمعنى الوهم والجواز، فيكون لازماً، وبمعنى الاقتضاء والتضمن، فيكون متعدياً، مثل احتمل أن يكون كذا، واحتمل الحال وجوهاً كثيرة».

ص ٥٠ س ٦: قال العبادي في ترجمة إبراهيم ابن إسحاق الحربي: «وذكر في كتاب «غريب الحديث» الذي صنفه أبو سليمان الخطابي أن النبيّ ﷺ

نهى عن قتل الهدهد، كرامة له...»، وقد وضع المحقق بعد كلمة «صنفه» رقماً، وذكر في الحواشي أن في كل النسخ زيادة: «نقل». وهذه الزيادة في نظري مهمة، وحقها أن توضع في الصلب. فهي ــ فضلاً عن كونها في كل النسخ ــ لا يستقيم الكلام بدونها. فما دخل أبي سليمان الخطابي هنا؟ إلا أن يكون نقل في كتابه هذه التفسيرات اللغوية من كتاب الحربي، ويكون العبادي لم يقف على كتاب الحربي ووقف على كتاب الخطابي، وفيه آراء الحربي، والمشكل هنا أن لكل من الحربي والخطابي مصنفاً في غريب الحديث (انظر: مقدمة النهاية، لابن الأثير)، وقد توفي الحربي سنة ٢٨٥هـ وتوفي الخطابي سنة ٣٨٨هـ.

ص ٥١ س ٢: «أبو عبد الله الزبيري محمد بن سامري بن عبد الله بن عاصم... صاحب الكافي»، وكل ذلك خطأ. والصواب فيه: أبو عبد الله، الزبير بن أحمد بن سليمان بن عبد الله بن عاصم كما جاء في مراجع ترجمته. انظر: تاريخ بغداد ٨/ ٤٧١، طبقات ابن السبكي ٣/ ٢٩٥، طبقات الشيرازي ٨٨، طبقات القراء ١/ ٢٩٢، مرآة الجنان ٢/ ٢٧٨، نكت الهميان ١٥٣، وفيات الأعيان ٢/ ٦٩. وواضح أن «سليمان» هي القراءة الصحيحة لكلمة «سامري» التي علق عليها المحقق بأنها في بعض النسخ «شامري».

ص ٥٣ س ١٣: قال العبادي في ترجمة الإمام البخاري: «ولم يرو عن الشافعي رحمه الله في «الصحيح» لأنه أدرك أقرانه، والشافعي رحمه الله مات مكتهلاً، فلا يرونه نازلاً وقد وجده عالياً»، والخطأ في «يرونه» فصوابه: «يرويه»، كما جاء في طبقات ابن السبكي ٢/ ٢١٥. ولو رجع إليها المحقق لوقف على الصواب، ولما احتاج أن يذكر في الحواشي أن الكلمة كذا في ب، ت، في الأصل و ح بغير تنقيط. وقبل كل ذلك فالكلمة من اصطلاحات علم الجرح والتعديل ورواية الحديث. فكان ينبغي على المحقق أن يفزع إلى أهل الذكر.

ص ٦٤ س ١: «إن كان لشيء مضى وقع وإن لشيء مستقبل لم يقع»، وضع المحقق رقماً فوق «وإن لشيء»، وأشار إلى أن في بعض النسخ «وإن كان»، ولست

أدري لم لم يضع «كان» هذه في الصلب، فبها يستقيم السياق.

ص ٦٧ س ٤ : «محمد بن إبراهيم بن منذر. الصواب: «المنذر»، كما جاء في بعض النسخ بالهامش. وكما جاء في بعض المراجع التي ترجمت له. وفي السطر نفسه: «صاحب إشراف على مذاهب العلماء»، والصواب: «الإشراف»، كما يذكر ابن السبكي دائماً.

وانظر ما كتبته عن ص ٣٩ س ٢.

ص ٧٨ س ١٣ : قوله تعالى: «اعلموا ما شئتم» بتقديم اللام خطأ، والصواب: «اعملوا» بتقديم الميم. وهي الآية ٤٠ من سورة «فصلت».

ص ٧٩ س ١١ : في قوله تعالى: ﴿يا أبت إفعل ما تؤمر﴾، جعل الهمزة همزة قطع». والصواب أنها ألف وصل ﴿ اَفْعَلْ﴾.

ص ٨٨ س ٢ : «سئل عن قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فقال: فذاكروا فيه». علق المحقق على كلمة «فذاكروا» بأنها في بعض النسخ «أكثروا»، وأرى أن يكون ما في الصلب: «تذاكروا».

ص ٩٠ س ١٣ : «إن ماسح الخف لا ينوي رفع الحديث» خطأ. والصواب: «الحدث».

ص ٩١ س ١ : «وقد عارض بهذا الكتاب ابن نحاس القاضي» رفع «ابن» بالضمة. والصواب نصبه على المفعولية. والفاعل ضمير مستتر يعود على أبي بكر أحمد بن عمر الخفاف، وهو المترجم، وهنا أيضاً حذف «ال» من النحاس. وقد أشرت إليه قبلاً.

ص ٩٦ س ١ : «ويكره الرفع الشديد الصوت» ضبط المحقق الفعل بضم الياء وكسر الراء، مبنيّاً للمعلوم، ونصب «الرفع»، و «الشديد»، والصواب بناء الفعل للمجهول، ورفع «الرفع» نائباً عن الفاعل، و «الشديد» على الصفة.

وفي الصفحة نفسها س ٤ : «ويكره الدعاء بالشجع وتكلف الصنعة»، والصواب: «بالسجع» بالسين المهملة.

ص ٩٨ س ١٠ : «لأنَّ العرب تقول: غسل الشتاء السطح» علق المحقق على «الشتاء» بأنها في ثلاث نسخ «السماء»، وأرى هذا هو الصواب، فإن العرب تسمي المطر سماء.

(انظر: معجم مقاييس اللغة ٣/ ٩٨).

ص ١٠٢ س ٦ : قال النبيّ ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وإنما يجب أن يقول: جعلت داري مسجداً لله تعالى» قفل المحقق علامة التنصيص بعد «تعالى» على أن الكلام كله من قول النبيّ ﷺ. وإنما ينتهي كلام الرسول عليه السلام بعد «مسجداً».

وفي الصفحة نفسها س ١١ : «أبو حنيفة أفتى بأن المال بينهما نصفين». الأولى «نصفان»، وهو ما جاء في ثلاث نسخ، كما أشار المحقق.

ص ١٠٨ س ١٢ : «إذا وجد زان، وإذا فقد شأن»، وضع المحقق همزة على ألف «شأن»، والصواب حذفها لتناسب السجع.

ص ١١٠ س ١٢ : «وحكيم بن محمد الذيموني الفقيه من قراء بخارى»، أشار المحقق إلى أن في نسخة: «من قرى بخارى»، وقد كان ينبغي على المحقق أن يقف عند هذه القراءة. فقد قال ياقوت في معجم البلدان ٢/ ٧٢٧: «ذيمون بفتح أوله وآخره نون: قرية على فرسخين ونصف من بخارا»، فلعل الناسخ وجد الكلمة «قرا» فلم يحسن قراءتها، وتطوع بزيادة الهمزة. نعم ترجم ابن الجزري في «طبقات القراء» لشخص اسمه «حكيم بن محمد»، ولم يزد في اسمه على ذلك، ولم يذكر في نسبته «الذيموني»، واختلفت سياقة ترجمته عند ابن الجزري عما في الأنساب لوحة ٢٤١ب، واللباب ١/ ٤٤٩، وطبقات ابن السبكي ٤/ ٣٧٧، وانظر طبقات ابن الجزري ١/ ٢٥٧.

ص ١١١ س ٦ : «ووجهه أنهما دليلان تعارضا في الحس»، وجاء في إحدى النسخ: «في الحسن»، وأرى هذا هو الصواب. وهذه اصطلاحات أصولية محددة، تشبه الأمثال. وقد كان يجب على المحقق، كما قلت قبلاً، أن يلجأ إلى أهل هذا الشأن، حتى يحفظ للنص روحه وسلامته.

وفي الصفحة نفسها س ١٢ : «الظهارة والإيلاء والرجعة»، والصواب: «الظهار»، كما جاء في نسختين بالهامش.

ص ١١٤ س ١٢ : «وإليه يرجع المآب»، الأولى قراءة النسخة ت «وإليه المرجع والمآب». وقد لاحظت أن هذه النسخة كثيراً ما تنفرد بالصواب ومع ذلك لم يلتفت لها المحقق. وقد لاحظت أيضاً أن المحقق في صنع فهرس الأعلام قد بذل جهداً في تحقيق الأسماء، ولو أنه فعل هذا في تحقيق النص لسلم من كثير من الأخطاء، ولسلم أيضاً من إثقال النص بالحواشي وفروق النسخ.

ومهما يكن من شيء فلن نستطيع أن ننكر للمحقق الفاضل هذه اليد التي أسداها إلى تراثنا العربي ببعث أصل مبكر من تراثنا الخالد. وتحية لكل الجهود المخلصة.

* * *

أحمد محمد شاكر[1]

وُلِد بالقاهرة، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبـي طالب، وأبوه هو الشيخ محمد شاكر، وكيل الأزهر. وقد انتقل مع والده إلى السودان عندما عُيِّن في منصب قاضي قضاة السودان سنة ١٣١٧هـ = ١٩٠٠م فالتحق بكلية غوردون. وذهب إلى الإسكندرية سنة ١٣٢١هـ = ١٩٠٤م، فالتحق بمعهد الإسكندرية، ثم التحق بالأزهر، وحاز شهادة «العالمية» منه سنة ١٣٣٤هـ = ١٩١٧م، وعُيِّن موظَّفاً قضائيّاً ثمَّ قاضياً، وذلك بعد تعيينه مدرِّساً لمدة وجيزة جدًّا، وظلَّ في القضاء حتى أُحِيل على التقاعد سنة ١٩٥١م عضواً بالمحكمة العليا الشرعية، وتوفِّي رحمه الله بالقاهرة يوم السبت ٢٦ من ذي القعدة سنة ١٣٧٧/ ١٤ من يونية ١٩٥٨.

كان أوَّل شيوخه في معهد الإسكندرية الشيخ «محمد أبو دقيقة»، وقد ترك هذا الشيخ في حياته أثراً لا يمحى، وهو الذي حبَّب إليه الفقه وأصوله، ودرَّبه وخرَّجه في الفقه حتى تمكن منه، ثم تلقَّى العلم عن أبيه الشيخ «محمد شاكر» الذي قرأ له ولإخوانه شيئاً من التفسير وكتب السنَّة وأصول الفقه والفقه الحنفي والمنطق، ثم وجَّهه والده إلى دراسة علم الحديث منذ سنة ١٩٠٩، وأول اهتمام له قراءة مسند الإمام أحمد بن حنبل، ثم قرأ صحيح مسلم وسنن الترمذي والشمائل له وشيئاً من صحيح البخاري.

وقد اتصل بعلماء الأزهر من أهل القاهرة والوافدين عليها أيام كان طالباً

---

(١) أبو الأشبال أحمد بن محمد شاكر بن أحمد عبد القادر (١٨٩٢ ـ ١٩٥٨)، عالم مصري بالحديث والتفسير، اشتهر بنشر نصوص التراث الإسلامي. (الموسوعة الإسلامية التركية ـ استانبول، وهي مقالة تعريفية بطلب من الموسوعة للدكتور الطناحي رحمه الله تعالى).

بالأزهر، ومن العلماء الذين لقيهم وأخذ عنهم وأجازوه: السيِّد عبد الله بن إدريس السنوسي، عالم المغرب ومحدِّثه، والشيخ محمد بن الأمين الشنقيطي، والشيخ أحمد بن الشمس الشنقيطي، عالم القبائل الملثمة، والشيخ شاكر العراقي، والشيخ طاهر الجزائري، والسيِّد محمد رشيد رضا، صاحب «المنار» وغيرهم من علماء السُّنَّة. وكان لهؤلاء أثر كبير في نشأته التي أدَّته إلى أن يستقل بمذهب في علم الحديث. يقول عنه أخوه الصغير الشيخ محمود محمد شاكر: «إمام من أئمة علم الحديث في هذا القرن، وهو أحد الأفذاذ القلائل الذين درسوا الحديث النبوي في زماننا دراسة وافية قائمة على الأصول التي اشتهر بها أئمة هذا العلم في القرون الأولى، وكان له اجتهاد عرف به في جرح الرجال وتعديلهم، أفضى به إلى مخالفة القدماء والمحدِّثين، ونصر رأيه بالأدلة البيِّنة، فصار له مذهب معروف بين المشتغلين بهذا العلم، على قلَّتهم. وقد تولى القضاء في مصر أكثر من ثلاثين سنة، فكانت له أحكام مشهورة في القضاء الشرعي، قضى فيها باجتهاده، غير مقلد ولا متبع، وكان اجتهاده في الأحكام مبنيًّا على سعة معرفته بالسنَّة التي اشتغل بدراستها منذ نشأته إلى أن لقي ربه».

وكان في دراسته وتعليقاته على النصوص يدافع عن أحكام الإسلام وآدابه دفاعاً تفرَّد به، ونطق بالحق الذي يراه غير متهيب ولا متلجلج، بحيث أعلن رجوعه عن بعض آرائه القديمة، وعلى سبيل المثال: أنَّ الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر، كان يرى أن يكون الحساب الفلكي بديلاً عن الرؤية الشخصية في إثبات أوائل الشهور العربية، فنهض لمخالفته والد الأستاذ أحمد شاكر، وهو محمد شاكر، من كبار العلماء لعهده، وكان الشيخ أحمد ممن يعتقد بدءاً بصحَّة فتوى والده، فكتب مقالات تؤيِّد منحاه عن ثقة جازمة، ثم بدا له بعد التحقيق والتريُّث ما يخالف وجهة نظره ونظر والده، فخرج على الناس برسالة كتبها في حياة أبيه يعلن فيها انتصاره لرأي الإمام المراغي. (انظر: البيومي، ٤/١٢٦ ــ ١٢٧).

أعماله العلمية:

وقد اشتغل الشيخ أحمد محمد شاكر بنشر نصوص التراث الإسلامي بدراسة

كثيرة وتعليقات قيِّمة، وإلى جانب ذلك ألَّف بعض الكتب المفيدة، منها:

١ ــ نظام الطلاق في الإسلام، دلَّ فيه على اجتهاده وعدم تعصُّبه لمذهب من المذاهب، واستخرج فيه نظام الطلاق من نص القرآن ومن بيان السُّنَّة في الطلاق، وترك هذا الكتاب عاصفة من النقد، فنهضت فئة من المجلات الأسبوعية والشهرية لمعارضته، كما ألَّف الأستاذ الإمام محمد زاهد الكوثري رسالته: «الإشفاق في أحكام الطلاق» ردّاً على ما ورد فيه.

٢ ــ كلمة الحق. (القاهرة ١٤٠٧هـ)، هذا الكتاب عبارة عن جمع بعض مقالاته التي كانت قد نشرها في مجلة «الهدي النبوي» التي كان يرأس تحريرها.

وأما ما نشره من نصوص التراث الإسلامي: ففي الحديث:

١ ــ مسند الإمام أحمد. (القاهرة ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧). وهو يعتبر أهم أعماله العلمية التي عمل عليها إلى أن وافته المنيَّة، ونشر خمسي الكتاب في ١٥ مجلَّداً. وقد بلغت الأحاديث التي ضبطها وحققها ٨١٠٠ حديث من المسند الذي يبلغ عدد أحاديثه حوالي ٤٠,٠٠٠ حديثاً. وتوفَّاه الله بعد أن حقَّق جزءًا من ٦٨٠ حديثاً من المجلَّد السادس عشر، وأتمَّ ما بقي من هذا المجلَّد الدكتور الحسني عبد المجيد هاشم. ويحتوي ما كتبه الشيخ في مقدمة الكتاب المعنونة بـ «طلائع الكتاب» معلومات قيِّمة. وقد جعل لأحاديث الكتاب أرقاماً متتابعة، وخرَّجها من حيث إسنادها صحَّة وحسناً وضعفاً، وحقَّق أسماء المحدِّثين وأعلام الإسناد، وذكر الأحاديث التي تقوي الأحاديث الضعيفة من حيث الإسناد.

٢ ــ الجامع الصحيح، للترمذي. وهو من أعماله التي لم يتمكَّن من إكمالها، ونشر المجلَّد الثاني مع مقدمة تبلغ ٩٦ صفحة، ومعلومات هامشية واسعة النطاق. (القاهرة ١٣٥٧ ــ ١٣٥٩هـ = ١٠٣٨ ــ ١٩٤٠م).

٣ ــ معالم السنن، للخطابي. شارك الشيخ محمد حامد الفقي في نشره. (القاهرة ١٩٤٨م).

٤ ــ اختصار علوم الحديث، لابن كثير. وقد قام بشرح هذا الكتاب القيِّم في

علم أصول الحديث ونشره باسم: «الباعث الحثيث إلى معرفة علم الحديث». (القاهرة ١٣٥٥هـ).

وفي التفسير:

١ ــ جامع البيان، للطبري. شارك أخاه الشيخ محمود محمد شاكر في نشره، فتولّى جزءاً من تخريج أحاديثه إلى الجزء التاسع، وعلّق على بعضها إلى الجزء الثالث عشر. (القاهرة ١٩٥٥ ــ ١٩٦٠م).

٢ ــ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير. وقد شرع في اختصار هذا التفسير وسمَّاه «عمدة التفسير» وأصدر منه خمسة أجزاء بينما كان يفكر أن يتمه في عشرة أجزاء. (القاهرة ١٩٥٦ ــ ١٩٥٧م). ولم يذكر أثناء اختصاره أسانيد الأحاديث كما لم يذكر الإسرائيليات، والأحاديث الضعيفة والمكررة، وبعض المباحث الفقهية والكلامية.

وفي الفقـه:

١ ــ الرسالة، للإمام الشافعي. ويعدّ تحقيقه لهذا الكتاب أكبر دليل على إتقانه وبراعته في إخراج النصوص القديمة على أعدل المناهج وأقومها، بل إنَّ تحقيق هذا الكتاب يعد إيذاناً ببدء مرحلة جديدة تماماً من النشر العلمي العربـي المستكمل لكل أسباب التوثيق والتحقيق والموصول بما سنَّته الأوائل وأصَّلوه. (القاهرة ١٩٣٨م).

٢ ــ جماع العلم، للشافعي. (القاهرة ١٩٤٠م).

٣ ــ المحلّى، لابن حزم. شارك في نشره الشيخ محمد حامد الفقي. (القاهرة، بدون تاريخ، دار التراث، بيروت).

٤ ــ كتاب الخراج، ليحيى بن آدم. (القاهرة، ١٣٤٧هـ).

وفي الأدب:

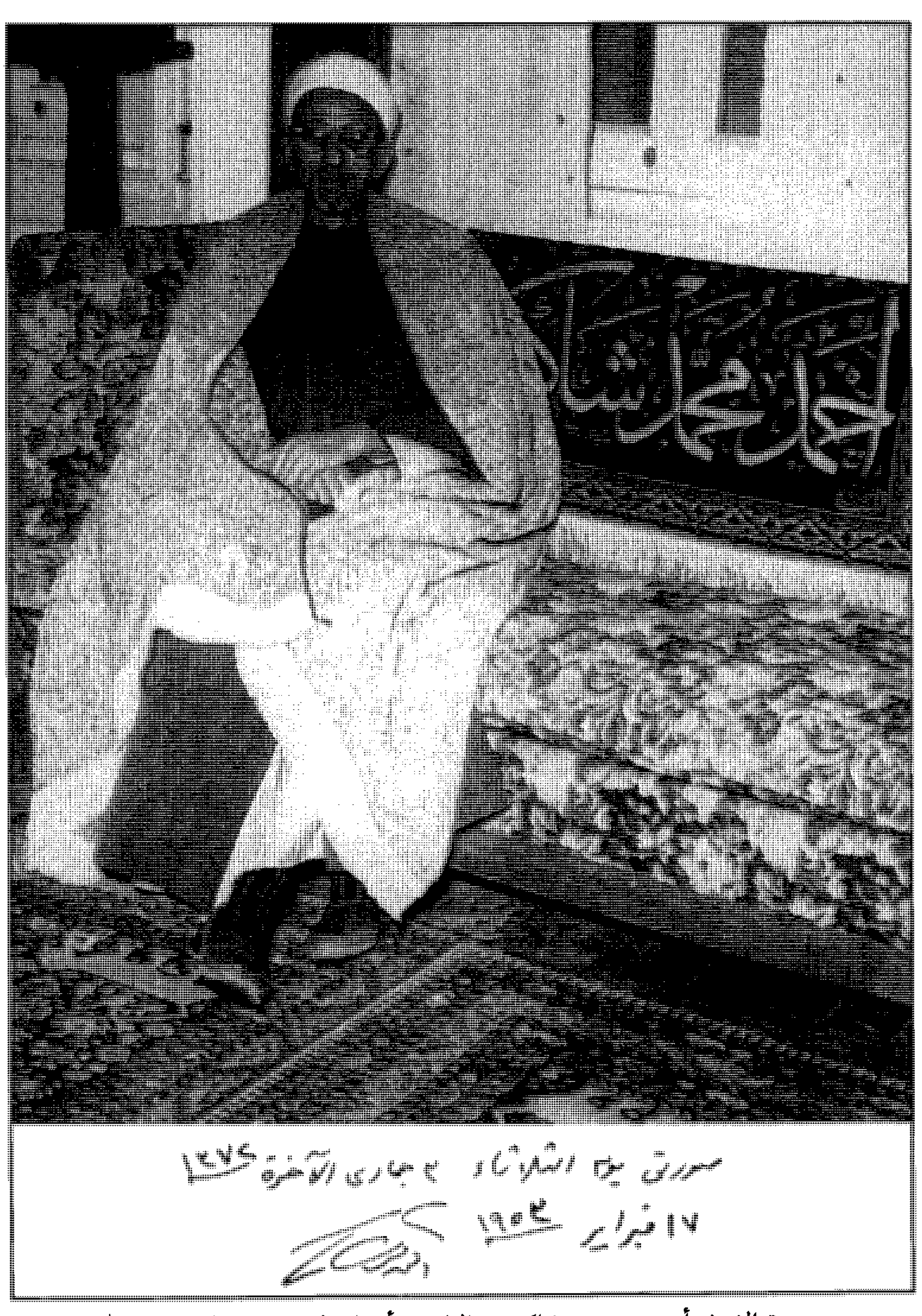
١ ــ الشعر والشعراء، لابن قتيبة. (القاهرة ١٣٦٤ ــ ١٣٦٦هـ).

٢ ــ المعرب، لأبـي منصور الجواليقي. (القاهرة ١٩٤٢).

٣ ــ المفضليات، للمفضل الضبِّي. (القاهرة ١٩٥٢م).

٤ ــ الأصمعيات، للأصمعي. (القاهرة ١٩٥٥).

وشارك في نشر الكتابين الأخيرين ابن خاله الأستاذ عبد السَّلام محمد هارون.



صورة الشيخ أحمد محمد شاكر، والتاريخ أسفل الصورة بخطه رحمه الله

فؤاد سيِّد.. العالِم الذي فقدناه[1]

في صباح يوم الأحد الثاني من رمضان سنة ١٣٨٧هـ ـ الثالث من ديسمبر سنة ١٩٦٧م دعي الأستاذ فؤاد سيِّد فأجاب وخسرت مصر والعالم العربي بوفاته عالماً فرداً، ظل يعمل في دنيا المخطوطات العربية قرابة الأربعين عاماً، درساً وتمثلاً وتصنيفاً؟.

إن حياة هذا الرجل صورة فذة، جمعت أجزاؤها كل جلال النبوغ الفطري والتحصيل الذكي الدؤوب والعصامية التي استعلت على قسوة المنشأ وباركتها عناية الله حتى استوت علماً نافعاً فيه خير وبركة ونماء.

ولد الأستاذ فؤاد سيِّد عمارة في القاهرة (بدرب الأغوات في حي الدرب الأحمر) يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٩١٦م لأب رقيق الحال، توفي عنه سنة ١٩٣٢م، ولم تكن له عمومة يعتزي إليها ويشرف بها، أو خؤولة تصونه وترعاه، فدب على الطريق وحيداً إلا من دعاء أم لا تملك سوى الدعاء وقد أشقاها الترمل وأرَّقها الخوف على الصبي اليتيم، ولم يصب الفتى من التعليم غير مرحلة «الكتاب» ثم أربع سنوات قضاها بمدرسة عبد الباقي الشوربجي الأولية بشارع جامع البنات، ويترك الصبي المدرسة ليعمل بمطبعة كانت تسمى المطبعة الملوكية، بجوار دار الكتب المصرية على يمينك وأنت تريد ميدان العتبة.

وفي سنة ١٩٢٩م يلتحق الصبي بدار الكتب المصرية عاملاً بمطبعتها في تصفيف الحروف، ثم يدلف الفتى على استحياء إلى مخازن الدار وفهارسها العربية

---

(١) مجلة «المجلة»، مارس ١٩٦٨م.

فتبهره صفوف الكتب ويعيش مع ترابها أحلى قصة كفاح نسجت خيوطها موهبة فذة ورفدتها عبقرية نادرة.

استمع إلى الأستاذ المحقق محمد عبد الجواد يصفه في هذه المرحلة من حياته في كتابه: «تقويم دار العلوم الذي صدر عام ١٩٥٩م» يقول: «من أكثر من ربع قرن مضى توجهت إلى دار الكتب المصرية، أبحث عن موضوع لغوي، فصادفني بين ولدانها فتى في منتصف العقد الثاني من عمره، طلب إليه الأمين أن يجيب طلبتي، فإذا بـي أمام مطلع عالم بالموضوع، وأضاف إلى إجابته ذكر جملة من المظان التي يصح الرجوع إليها فيه. فعجبت لهذا الشاب وتمنيت لو أن «دار الكتب» يكون بين موظفيها عدد من المرشدين من مثله، والذين أدعوهم «فهارس ناطقة»».

وبعد أن يعدد الأستاذ عبد الجواد آثار الفقيد يضيف: «وترى فؤاداً هذا ــ في تحقيق المخطوط «حـ» (يقصد طبقات الأطباء والحكماء) ــ عالماً من كبار العلماء بدقائق الحقائق التاريخية، وكتب السير والطبقات، فضلاً عن سعة الاطلاع والتمكن من المادة التي يبحث عنها ويفحص عن صحتها. أما المباحث اللغوية وتحقيق الأسماء والمصطلحات، فتعجب عند اطلاعك على مجهوده، كيف يتكلم عن اليونانية واللاتينية، إلى الفرنسية والألمانية والتركية وغيرها، واثقاً مما يقول مرجحاً مضعفاً». انتهى كلام الأستاذ محمد عبد الجواد.

وفي هذه الحقبة من التاريخ كانت دار الكتب المصرية تضم نفراً من العلماء الأفذاذ الذين نذروا حياتهم لخدمة التراث العربـي والفكر الإسلامي في صمت معجب، حيث قدموا شوامخ النصوص العربية، كتفسير القرطبـي والأغاني والنجوم الزاهرة ونهاية الأرب، على أدق ما يكون الإخراج ضبطاً وتحقيقاً. ومن هؤلاء العلماء أذكر الأساتذة عبد الرحيم محمود وزكي العدوي وحسن حسين وعبد المجيد الأقدمي ومحمود إمام. ويبرز من بين هذا النفر الكريم الشيخ محمد عبد الرسول، وكان رحمه الله حجة في المخطوطات العربية، وتتوثق صلة الفتى به ويتتلمذ له فيصيب على يديه خيراً كثيراً.

وقد اضطر فقيدنا في هذه المرحلة من حياته إلى أن يأكل من نسخ الكتب، فنسخ كثيراً من المخطوطات. وقد حدثني أن يديه لا تزالان ترتعشان من طول ما نسخ. وحقاً ما قال، فقد كنت إذا حدقت فيه وهو يكتب لا تخطىء رعشة خفيفة في يديه. ومن الذين كان ينسخ لهم ـ كما حدثني ـ الدكتور محمود الخضيري أستاذ الفلسفة الإسلامية رحمه الله، والمستشرق الفرنسي شال كونس المشتغل بتحقيق كتاب «الجيم» لأبي عمرو الشيباني.

وكان رحمه الله يفخر بنسخ الكتب ويقول لي: إنه مهنة العلماء كياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء. وبفضل هذا النسخ حصَّل كثيراً من المعارف، ووعت ذاكرته ما لا يحصى من أسماء الكتب. وحين أصبح قادراً على تمييز الخطوط وردها إلى العصر الذي كتبت فيه، استناداً إلى نوع الحبر وكثافة الورق وطريقة الكتابة، من إهمال للنقط أو إعجام. أضف إلى هذا أن خطوط العلماء كانت متميزة في عينه، فهذا خط الصلاح الصفدي، وذاك قلم ابن حجر العسقلاني. وكان يقول لي: إن خط الصفدي لا تخطئه العين، فهو خط منسق جميل، ومن خصائصه كيت وكيت، وإن قلم ابن حجر لا يتوقف فتكاد كلماته تتشابك. وكذلك كان.

وكان غفر الله له نسيج وحده في قراءة ما يكتب في صدر المخطوط من إجازات أو تملكات أو توثيق، ثم كان حجة في تقويم كل ذلك وبيان زيفه من صحيحه، مع قدرة فائقة على قراءة الكلمات المصحَّفة وتقويم العبارات المزالة عن وجهها. ويا لحسرة القلب، لقد مات بموت هذا الرجل علم كثير. وكم كنا نتمنى أن ينسأ الله في أجله حتى نستطيع نحن أبناء هذا الجيل أن نعي شيئاً من هذا العلم الكثير، كما كان هو يتمنى أن يمتد به العمر ويُكفى السعي المضني وراء الرزق ليدوِّن هذا المحصول فتخرج تلك المعرفة إلى الناس في كتاب مقروء.

أجل، كان الأستاذ فؤاد سيِّد وريث تلك المدرسة الجليلة التي أحبت المخطوطات العربية ووقفت عليها مالها ومنحتها كل حياتها، مدرسة محمد محمود الشنقيطي وأحمد تيمور وأحمد زكي.

ونعود إلى الخط الوظيفي للفقيد، فنراه يظل يعمل في قسم الفهارس العربية إلى أن منح في سنة ١٩٥١ لقب أمين المخطوطات بصفة شرفية، وكان حينئذ يقوم بفهرسة المخطوطات وتصنيفها. ولما قامت دار الكتب بفصل المخطوطات عن المطبوعات في جناح خاص بها أصدر مدير الدار (وكان في ذلك الوقت الأستاذ السيِّد فرج وكيل وزارة الثقافة الآن) قراراً بتسليمه عهدة مكتبة المخطوطات والقيام بشؤونها، وصار أول أمين للمخطوطات بالدار. وقد قام في عمله الجديد بالأعمال الآتية:

١ ــ الخدمة المكتبية وإرشاد الباحثين.

٢ ــ اختيار جميع المخطوطات والوثائق التي تحتاج للتجليد والترميم ووضع المواصفات الفنية اللازمة لذلك حفاظاً عليها وصوناً لها، لما لهذه المخطوطات من معالم تاريخية وفنية.

٣ ــ اختيار المخطوطات القيمة والنادرة لتصويرها بالميكروفيلم أو التكبير.

٤ ــ تزويد المكتبة بصورة من بطاقات جميع المخطوطات المحفوظة بالدار لتيسير وسائل البحث والمراجعة لجمهورها من المستعيرين.

٥ ــ إعداد دفتر خاص للكتب المعارة داخل هذه المكتبة أو عند موظفي الدار أو في الخارج، وإصدار إحصائيات شهرية سنوية بحالة الإعارة فيها.

٦ ــ المشاركة في إعداد سجلات خاصة للمخطوطات تكون صورة مطابقة لما في مخازن المخطوطات من الكتب، لتصير أساساً لجرد هذه المكتبة وحصر محتوياتها.

وقد كان من أثر هذه التنظيمات التي تمت لأول مرة في تاريخ دار الكتب أن حققت هذه المكتبة رسالتها العلمية على خير ما يجب من النفع للمترددين عليها من الباحثين والعلماء العرب والمستشرقين.

ولما كان رحمه الله سكرتيراً للجنة شراء المخطوطات ولجنة حماية

المخطوطات وصيانتها، فقد يسر له إشرافه على هذه المكتبة إنجاز أعمال هاتين اللجنتين بصورة مباشرة كان لها أثر كبير في النتائج الإيجابية التي حققتها هاتان اللجنتان.

ومع ذلك فإن عمله في أمانة المخطوطات وسكرتارية هذه اللجان وإعداد جداول أعمالها وتنفيذ قراراتها لم يحل دون مساهمة فعالة مع قسم حماية التراث في فهرسة المخطوطات وتصنيفها. وقد قام فعلاً في هذا الصدد بالأعمال الآتية:

١ ــ إخراج فهرست مخطوطات مصطلح الحديث، على منهج علمي مفصل للمرة الأولى في تاريخ دار الكتب. صدر سنة ١٩٥٦.

٢ ــ فهرسة جميع ما يرد للدار تباعاً من المخطوطات والمصوَّرات.

٣ ــ إعداد فهرست لجميع ما أضيف لمخازن الدار من الكتب الخطية من سنة ١٩٣٦م إلى سنة ١٩٥٥م ويحوي ما يقرب من ثمانية آلاف كتاب ورسالة. وقد ظهر في ثلاثة أقسام: القسم الأول (أ ــ س) وصدر سنة ١٩٦١م. القسم الثاني (ش ــ ل) وصدر سنة ١٩٦٢م. القسم الثالث (م ــ ي) وصدر سنة ١٩٦٣م.

٤ ــ نشرة عن مؤلفات ابن سينا وشروحها الموجودة بالدار. صدرت سنة ١٩٥٠ بمناسبة العيد الألفي لابن سينا.

ولم يقف نشاط الفقيد محصوراً داخل دار الكتب المصرية، بل تعداه إلى كل الهيئات المعنية بالتراث العربـي، فحين أنشىء معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ظل رحمه الله على صلة به ومشاركة في أعماله، حتى انتدب ابتداء من سنة ١٩٥٣م ليكون خبيراً بالمعهد. وقد أنجز لهذا المعهد عدة فهارس، صور أولها عام ١٩٥٤م وهو فهرس عام لمقتنيات المعهد. والفهرس الثاني خاص بعلم التاريخ، وجاء في مجلدين، ظهر الأول سنة ١٩٥٧م، والثاني سنة ١٩٥٩م. ثم عمل فهرساً ثالثاً للمعارف العامة نجز سنة ١٩٦٦م.

ولم يكن إخراجه للفهارس جافاً واقفاً عند حدود المادة المكتبية، بل كنت

تحس فيه بدقة العالم وتصرف المتثبت المحقق. استمع إليه في مقدمة الفهرس العام لمعهد المخطوطات: «وقد عنيت عناية شديدة بذكر اسم المؤلف كاملاً مصحوباً بكنيته ولقبه ونسبه، مع التحري الدقيق لتاريخ وفاته، أو تعيين القرن الذي عاش فيه معتمداً في ذلك على كتب التراجم والطبقات. وكنت حريصاً على التعريف بالكتاب ومحتوياته وتبويبه وذكر ما يشمله من موضوعات، ما وافتني بذلك المصادر والأصول. وعنيت أيضاً بعمل إحالات متعددة للكتب التي لها أسماء مختلفة، أو اشتهرت بعناوين معينة، أو كانت اختصاراً أو شرحاً لكتب أخرى، كما أن الكتب التي تبحث في أكثر من موضوع كررت ذكرها في فنونها المتعددة، كل ذلك تيسيراً للباحث وعوناً له على الوصول إلى طلبته من أية مظنة».

وكان رحمه الله على صلة ومشاركة في أعمال معاهد الاستشراق بمصر وعلى وجه الخصوص المعهد الفرنسي. ولما أنشأ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالجمهورية العربية المتحدة فرعاً لنشر التراث الإسلامي عام ١٩٦٠م كان رحمه الله عضواً فيه من أول جلسة.

وفي العام الفائت أنشأت وزارة الثقافة معهداً ملحقاً بدار الكتب المصرية لتحقيق النصوص ونشرها يلتحق به خريجو الجامعات. وقد اختير رحمه الله ليحاضر في هذا المعهد.

رحلاته العلمية:

حجَّ رحمة الله عليه مرَّتين، زار خلالهما مكتبات مكة والمدينة، واطَّلع على نفائس المخطوطات هناك، وتوثَّقت صلاته بعلمائهما.

وفي سنة ١٩٥٧م، انتدب ضمن بعثة لزيارة مكتبة دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء، لدراسة ما تحويه من مخطوطات أثرية وتقديم تقرير بما يجب اتباعه لحفظ هذه المخطوطات وحمايتها.

ثم كانت رحلتاه إلى اليمن، الأولى سنة ١٩٥٢م، والثانية ١٩٦٤م، في بعثة برياسة الدكتور خليل نامي أستاذ فقه اللغة بآداب القاهرة. وفي هاتين الرحلتين

اكتُشف لأول مرة تراث طيب لفكر المعتزلة، تطاول عليه العمر، مختبئاً في سراديب الظلام. وقد نشر من هذا التراث المكتشف ثلاثة نصوص للقاضي عبد الجبار: المغني، والمجموع المحيط بالتكليف، ثم شرح الأصول الخمسة. ولا يزال هناك الكثير من تراث المعتزلة مما صور من اليمن ينتظر الدراسة والنشر. وكان الموجود من هذا التراث بين يدي الناس لا يزيد على الكتب الثلاثة. وترجع أهمية هذا التراث ــ كما كان يحدثني الأستاذ رحمه الله ــ إلى أنه يعرض لفكر المعتزلة بأقلام أئمة الاعتزال أنفسهم، وكان كل ما يكتب قبلاً عنهم إنما يأتي من قبل خصومهم، وفي هذا ما فيه.

وفي شهر مايو من العام الماضي كانت آخر رحلاته رحمه الله، حيث دعاه المعهد الجامعي الشرقي بنابُلي للقيام بدراسات علمية في التراث الإسلامي والمخطوطات العربية. وقد لقي هناك ترحيباً كريماً من جمعيات الاستشراق ولبث شهرين يعاون طلبة الدراسات العليا على فهرسة محتويات المعهد من المخطوطات العربية، ويرشد ويوجه أصحاب الدارسات والبحوث إلى المراجع العلمية التي تخدم بحوثهم.

آثاره العلمية:

من الناس من يشغل بغيره عن نفسه، وتستعلن آثاره أو تتوارى في جهود سواه، وهو في كل ذلك سعيد بما يبذل من وقته وفكره، وسواء أذاع الناس فضله أم جحدوا فهو حيث هو، لا يتحول ولا يريم، لأنه يرضي سخاء نفسه الراغبة في البذل والعطاء.

وقد كان الأستاذ ــ آجره الله ــ من هذا الصنف من الناس، فقد فرضت عليه ظروفه الوظيفية في الإرشاد والتوجيه، ثم قبل كل ذلك قلبه المحب للناس الراغب فيهم المستزيد من صداقتهم، فرض عليه كل ذلك أن يعيش لغيره وأن يقف وقته لتلبية الرغبات وقضاء الحاجات. وقد كنت أرى الرسائل أكواماً تلاحقه في مكتبه وفي بيته من الدارسين والمحققين، وقد تأخذ الرغبات بتلابيبه فيبدو منه بعض الضجر، ولكنه

سرعان ما يثوب إلى نفسه السخية المعطاء فيلبـي ويجيب. وافتح أي كتاب شئت من نصوص التراث المنشور لترى آثار علمه وفضله، يذكرها الناشرون تكريماً للرجل وتزكية لعملهم.

لكن الله بارك له في وقته وسُنِّي له أن يُخرج بعض النصوص حاملة اسمه، وقد أبان فيها عن علم كثير. ففضلاً عن الفهارس العلمية التي صنعها لدار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، حقق رحمه الله هذه النصوص، وهي بحسب ترتيبها الزمني:

١ ــ طبقات الأطباء والحكماء، لأبـي سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جُلجُل (بجيمين مضمومتين) من علماء القرن الرابع الهجري. وقد كان الفقيد رحمه الله يعتز كثيراً بهذا الكتاب وبعمله فيه. وقد قدم له بمقدمة علمية قيمة، قال فيها: «هذا كتاب يعتبر وثيقة هامة في تاريخ العلوم وتطور حركة التأليف والترجمة في القرن الرابع الهجري الذي يعد بحق العصر الذي ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية ونمت وبلغت غايتها من الإنتاج الواسع في شتى ميادين العلوم والآداب.

ولعل ميزة هذا الكتاب الأولى التي جعلت له قيمة علمية خاصة ونصاً قديماً له خطره في تاريخ العلم أن مؤلفه يعتمد فيما رجع إليه من مصادر على تراجم عربية لأصول لاتينية تاريخية. فقد عهدنا دائماً أن أكثر الكتب التي نقلها العرب أو غيرهم من المترجمين كانت عن أصول يونانية، والقليل منها عن اللغات الفارسية والسريانية والهندية، وأنهم أكثروا من النقل والترجمة عن هذا الطريق، ولكنا لم نظفر ــ إلا قليلاً جداً ــ بنصوص عربية ترجمت عن اللغات اللاتينية. وربما كان كتابنا هذا أول كتاب استفاد من هذه الترجمات التي نرجح أنها تمَّت في عصره أو قبله بقليل».

ثم يمضي الأستاذ في مقدمته متحدثاً عن مصادر الكتاب، وعن هذا اللون من التصنيف، متتبعاً المسار الزمني له. وقد وقف رحمه الله عند بعض النصوص التي أوردها ابن جُلجُل، والتي تذكر صراحة قدم حركة النقل والترجمة في صدر الدولة الأموية. وكان الشائع أنها تمت في العصر العباسي وفي عصر المأمون بالذات.

وهذا النص هو ما جاء في صفحة ٦١ من الكتاب أثناء ترجمة ماسرجويه الطبيب البصري الذي عاش في الدولة الأموية، وتولّىٰ أيام حُكْم مروان بن الحكم (٦٤ ــ ٦٥هـ) ترجمة كتاب «أهرن بن أعين القس» إلى العربية. وكان أهرن من الأطباء الذين عاشوا في الإسكندرية في عصر هرقل (٦١٠ ــ٦٤١ م) في صدر الإسلام، ووضع «كناشة» باللغة اليونانية ثم نقله إلى السريانية، إلى أن قام بترجمته إلى العربية ماسرجويه المذكور. وقد ذكر ابن جُلجُل في هذه الترجمة أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ ــ ١٠١هـ) وجده في خزائن الكتب (الأموية) وأنه استخار الله في إخراجه إلى المسلمين.

وكثيراً ما كان الأستاذ رحمه الله يدلني على قيمة هذا النص، ويكثر من الحديث حوله. وقد طبع هذا الكتاب أول مرة بمطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٥٥، ثم أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه بالأوفست منذ ثلاث سنوات، بعد أن عزّت نسخه، فقدمت بذلك خدمة جليلة للعلم والعلماء.

٢ ــ طبقات فقهاء اليمن، لابن سمرة الجعدي، عمر بن علي المتوفى بعد سنة ٥٨٦هـ، وهو أول كتاب يظهر خاصاً بعلماء اليمن. وترى في آخره فهرساً لبلاد اليمن، صنعه الفقيد، آية في التثبُّت والتحرِّي والاستقصاء. وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٥٧م، وجعله الأستاذ الحلقة الأولى في سلسلة «المكتبة اليمنية» التي كان يريد أن يمضي في نشرها.

٣ ــ شروط المؤرخ في كتابة التاريخ (مجموعة فتاوى لبعض العلماء فيما يشترط في المؤرخ لكتابة التاريخ من الجرح والتعديل)، نشرت بمجلة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية سنة ١٩٥٧.

٤ ــ إعارة الكتب عند الأقدمين (نصان قديمان لليزيدي والسيوطي)، نشرت بمجلة معهد المخطوطات سنة ١٩٥٨م.

٥ ــ الوسيط في تراجم أدباء شنقيط (موريتانيا) للشنقيطي أحمد بن الأمين. أشرف الفقيد على طبعه وقدم له. طبع بالقاهرة سنة ١٩٥٩م.

٦ ــ العبر في خبر من عبر[1]، للحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ، وهو مختصر لكتابه الكبير «تاريخ الإسلام»، حقق الأستاذ منه الجزئين الثاني والثالث. وطبعا بالكويت سنة ١٩٦١م.

٧ ــ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (مكة) لتقي الدين الفاسي المتوفى سنة ٨٣٢هـ وهو أكبر موسوعة في تاريخ مكة ومن عاش فيها أو دخلها أو سكنها من العلماء والفقهاء والشعراء والأدباء وغيرهم. حذا فيه مؤلفه حذو الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، والحاكم النيسابوري في تاريخ نيسابور، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والسمعاني في تاريخ مرو. والكتاب في ثمانية أجزاء، حقق الفقيد العزيز منه الأجزاء من الثاني إلى السابع، وأعجلته المنية عن إتمام الثامن. وقد كان في نيته رحمه الله أن ينشر «ذيل العقد» لابن فهد المكي تلميذ الفاسي. وقد رأيت بعيني مدى ما كابده الأستاذ من جهد في تحقيق الكتاب. ومكة البلد الأمين مهوى الأفئدة ومطمح الأنفس، ارتبطت أرضها الحرام بأداء ركن من أركان الإسلام، فلن تجد عالماً من علماء الإسلام إلا وردها حاجّاً مجاوراً. ومن هنا كثرت تراجم هذا الكتاب، وانفسح مجال القول أمام الفاسي، فأكثر من النقول والنصوص، ونقل أسماء المترجمين ووفياتهم من أحجار القبور (وتلك منزلة عليا في درجات التأريخ). فكان لزاماً على من يتصدى لتحقيق مثل هذا العمل أن يشارف ذلك المستوى في التحقيق والتوثيق. وقد فعل الرجل، ورجع إلى مصادر الفاسي، مطبوعها ومخطوطها ــ وما أكثره ــ وصحح كثيراً من الأسماء والبلدان.

وقد كان رحمه الله حجة في ضبط الأعلام والأنساب. وعلى هذا الذكر أقول إن الأستاذ كان كثير الرجوع في ضبط الأعلام إلى «تاج العروس» للمرتضى الزبيدي، وكان دائم الإشادة بالتاج فيما يتصل بذكر الأعلام والأنساب والألقاب والبلدان. وكان يقول لي كثيراً: إن هذه فضيلة للتاج عري عنها «لسان العرب» لابن منظور. وقد ابتدأ طبع العقد الثمين بالقاهرة سنة ١٩٥٩م، وحقَّق الفقيد الجزء الثاني عام ١٩٦٢م.

---

(١) انظر في ضبط اسم الكتاب ص ٢٩٧، في مقالة الطناحي حول الهجرة وكتابة التاريخ الإسلامي.

وحين توفي رحمه الله كان في برنامجه تحقيق جملة صالحة من الكتب أذكر منها :

١ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، للإدريسي. وكان يقوم على طبع هذه الموسوعة الجغرافية إحدى جمعيات الاستشراق بإيطاليا، عهدت إلى الفقيد تحقيق القسم الخاص باليمن، ووزعت بقية الأجزاء على خمسة عشر عالماً ومستشرقاً، وكان رحمه الله على نية العمل في هذا الكتاب خلال شهر رمضان الذي لقي ربه فيه.

٢ ـ طبقات المفسرين، للداودي تلميذ السيوطي.

٣ ـ فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار، وهو من التراث الذي اجتلبه من رحلتي اليمن.

٤ ـ جزء من مختصر تاريخ دمشق لابن منظور، الذي يخرجه معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية.

ثقافته :

لم ينل فقيدنا من إجازات التعليم سوى الشهادة الابتدائية، حصل عليها سنة ١٩٤٣م بعد أن سلخ من عمره ٢٧ عاماً، وقد اضطر إلى الحصول على هذه الإجازة الصغيرة لينتقل من طبقة العمال والسعاة إلى طبقة الكتبة والموظفين بدار الكتب المصرية.

ثم التحق بمدرسة «برليتس» ليصيب طرفاً من اللغة الفرنسية. هذا هو كل تعليمه المدرسي، لكنه رحمه الله كان ذا نفس طلعة، حببت إليه المعرفة في كل فروعها فراح ينشدها من بطون الكتب وأفواه الرجال. وكان حصاد هذا كله سعة أفق ورحابة صدر ومضاء عقل ونفاذ بصيرة.

اتَّصل رحمه الله بالتراث الإسلامي صبيّاً بحكم عمله في دار الكتب المصرية، وتلمذ هناك لمشيخة جليلة ـ أسلفت الحديث عنها ـ شدته إلى التحصيل، فحفظ المعلقات السبع وعيون الشعر العربي فاستقام لسانه.

على أن هناك شخصية كريمة بهرت الفقيد العزيز فأقبل عليها وأفاد منها الخلق

الرضي والعلم النافع، وما كان رحمه الله يذكر هذه الشخصية إلا وتطفر من عينيه الدمعة، تلك هي شخصية الشيخ محمد زاهد الكوثري علامة وقته ونادرة زمانه، ولد رحمه الله بشرقي الآستانة ونزل القاهرة فراراً من اضطهاد الكماليين، حيث توفي بها سنة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م، وقد أجاز الشيخ الكوثري فقيدنا في ليلة الجمعة ٢٠ من رمضان سنة ١٣٧١هـ في السنة التي توفي فيها، وكانت آخر إجازة يمنحها الشيخ لتلاميذه. ونص الإجازة: «وممن استجازني الأستاذ الفاضل البحاثة الواسع الاطلاع السيِّد فؤاد السيِّد عمارة، كان الله له حيثما يكون، ورعاه في كل حركة وسكون. وبعد أن اطلع على كثير من مؤلفاتي وسمع مني حديث الرحمة المسلسل بالأولية، أجزته أن يروي عني جميع ما تصح لي وعني روايته من حديث وتفسير وفقه وأصول وتوحيد ومصطلح وتاريخ وحكمة وعربية».

وفي آخر المطاف تركز علم الفقيد في نقطتين اثنتين لا يشركه فيهما سواه: فكر المعتزلة، والإحاطة بجغرافية اليمن وعلمائها. هاتان النقطتان فرَّغ لهما نفسه وصرف إليهما جهده، حتى ملك القول فيهما غير مدافع ولا مزاحم. وقد قدر لي ــ وأنا آخذ عنه وأتلقى منه ــ أن أشهده وهو يخطط لتحقيق «فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة»، و «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» فرأيت عجباً، يرحمه الله.

أما الحديث عن ظرفه وخفة ظله فيرجع إلى أنه تعرف في شبابه على أعلام الظرف والفكاهة في ذلك العصر، من مدرسة الشاعر الزجال حسين شفيق المصري، وكان رحمه الله أمة في الرواية والحفظ ــ ومعارضاته للمعلقات السبع معروفة ــ وكانت لفقيدنا خصوصية بهذا الشاعر الكبير، أفاضت عليه الكثير من خفة الروح وعذوبة الحديث. ووعت حافظته كثيراً من شعر حسين شفيق، لم يدون.

وقد حدثني رحمه الله عن جماعة من ظرفاء الأدباء كانت تلتقي بدار الكتب في ذلك الوقت في حلقة يسمونها «البعكوكة» على يسارك وأنت تدخل الدار الآن. وحول هذه الحلقة رويت أشعار ورنت ضحكات. وقد لا يعلم الكثيرون أن للأستاذ فؤاد أزجالاً طيبة. ولولا اشتغاله بالتراث لكان له في عالم الزجل شأن كبير.

من هذه الروافد الخصبة تكونت ثقافته ونمت معارفه، وبارك الله في أيامه فجعل أفئدة من الناس تهوي إليه تفيد وتستفيد، وكانت الرسائل ترد عليه من كل رجا تصل إليه الكلمة العربية، وأصبح مكتبه وبيته مثابة لكل طالب علم. وكنت أرى الناس حوله من مختلف الأسنان وشتى المذاهب وكلهم دان منه، قريب إليه، فأتمثل:

تمل الندامى ما عداني فإنني بكل الذي يهوى نديميَ مولع

فقد كانت كلماته حبيبة إلى كل قلب، خفيفة على كل سمع، يمزج الفائدة العلمية بالنكتة العذبة، مع نقاء طبع وصفاء روح، فلم يكن رحمه الله يصبر على خصومة أو يطيل جفاء، فإذا بدرت منه البادرة فهو سريع الأوبة مزيل الجفوة. وظل رحمه الله يعيش أجمل وفاء للناس، حتى مات في لحظة وفاء، حين رأى أم ولده ورفيقة عمره تصاب بشلل مفاجىء، فاجتاحته المصيبة، ولم يعش بعدها سوى يوم واحد، ليتركنا في يوم حزين، وتطوى صفحة مضيئة من صفحات النبوغ والمعرفة لفتى نحيل دخل دار الكتب عام ١٩٢٩ عاملاً يصفِّف الحروف في المطبعة، وقبل وفاته بأربعة أشهر ذهب يحاضر في معاهد إيطاليا عن المخطوطات العربية، وبين هذا وذاك جهد دائب وعلم نافع.

اللّـٰهُمَّ إنا نسألك أن تتغمَّد ذنبه، وأن تمهد عذره، وأن تنير قبره، وأن تجعله مع الذين أنعمت عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين وحسن أولئك رفيقاً.

* * *

رشاد عبد المطلب.. والديار التي خلت[1]

كان ملء السمع والبصر، وكانت حياته بهجة للقلب والعقل جميعاً، وحين نعاه الناعي كادت النفس أن تفيض عليه، وغشي القلب حزن أسود كئيب، من هول الرزء وفداحة المصاب، ولم يجد محبوه وعارفو فضله إلا قول أبي الطيب المتنبي:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر　　فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً　　شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

ولد محمد رشاد عبد المطلب في حي الجمالية بالقاهرة يوم الأربعاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ١٣٣٥هـ ـ ١٤ من مارس سنة ١٩١٧م، وتوفي بالقاهرة يوم الأحد ٢٩ من ذي الحجة سنة ١٣٩٤هـ ـ ١٢ من يناير سنة ١٩٧٥م.

وبين هذين التاريخين حياة غريبة موغلة في الغرابة، عجيبة مسرفة في العجب، وما ظنك بامرىء لم ينل من الشهادات ـ فاتحة الأبواب ومانحة المناصب ـ إلا الشهادة الابتدائية، ثم هو مع ذلك باسط سلطانه على كل من كتب سطراً في التراث الإسلامي طيلة ثلاثين عاماً، غيبة أو حضوراً، يفزع إليه الدارسون، وترد عليه الفتاوى من كل مكان، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ولأمر أراده الله كانت خطوات فقيدنا الأولى في حي الجمالية، حيث الأزهر الشريف مهوى الأفئدة ومطمح الأنفس، وحيث الوِراقة والورّاقون، والكتب الصفراء صانعة الرجال، وحيث القاهرة بكل عطائها السخي وعطرها الأخاذ.

---

(١) مجلة «الثقافة»، يوليو ١٩٧٥م.

ويختلف فقيدنا إلى حلقات الأزهر الشريف، وكانت في ذلك الوقت متاحة لكل راغب علم وطالب معرفة، ثم كانت تضيء بالكوكبة اللامعة من مشايخ هذا العصر، أمثال الشيخ الدلجموني، والشيخ السمالوطي، والشيخ محمد بخيت المطيعي، ومن إليهم.

فإذا ما أصاب من هذه المائدة الحافلة ما شاء الله له، خرج إلى أسواق الكتب المنتشرة في جنبات هذا الرحاب الكريم، يجمع نوادر الكتب، ثم يعرج على مطابع الحي، أمثال مطبعة الحلبي، ومطبعة الخشاب، يتسقط أخبار الجديد من المطبوعات، وقد بلغ حرصه وتتبعه ـ كما أخبرني ـ أنه كان يمر على هذه المطابع كل أسبوع، ليأخذ ملزمة ملزمة من كل ما يطبع، وكأنه لا يصبر حتى يتم طبع الكتاب.

فإذا كان الليل هرع إلى حلقات قراء القرآن الكريم، أمثال الشيخين علي محمود وأحمد ندا، وأضرابهما من هذا النفر الكريم، الذين جمعوا إلى حسن الصوت خشوع الأداء. فكان له من كل ذلك هذه الشخصية النادرة التي بهرت الناس وملأت حياتهم خيراً وبركة.

على أن هناك عالمين جليلين، كان لهما أكبر الأثر في حياة رشاد عبد المطلب وتبصيره وتوجيهه إلى هذا الفن الذي أخلص له عمره، ووقف عليه جهده، لا يصرفه عنه صارف، ولا يزهده فيه مزهِّد:

أولهما: الشيخ محمد زاهد الكوثري، العالم التركي الجليل، الفار بدينه وعلمه إلى القاهرة، والمتوفى بها سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م.

وثانيهما: الشيخ أحمد محمد شاكر، محدث العصر، وواضع أصول نشر التراث بتحقيقه لكتاب «الرسالة» للإمام محمد بن إدريس الشافعي. وقد توفي هذا الشيخ العلامة بالقاهرة سنة ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.

عرف رشاد عبد المطلب هذين العالمين وهو في طراوة الصبا وأوائل الشباب،

وقد رأيا فيه نبوغاً صالحاً، فقرَّباه منهما وأحلَّاه من نفسيهما محلاً كريماً. وفي مجلسهما عرف أصول الكتب، ووقف على طرائق المصنفين، وألمَّ بمصطلحات الفنون، ثم تلقى عنهما علماً كثيراً. والتلقي كان سمة عصور ازدهار العلم، فهو الطريق الصحيح لتحصيل المعرفة، وآفة العلم في زماننا أنك قلَّ أن تجد من تستفتيه أو تتلقى عنه، وليس أمامك إلاَّ أن تضرب في بحر لجي غير آمن من زيغ البصر وضلال التأويل.

ولقد أحبَّ رشاد عبد المطلب الكتاب العربـي حباً ملك عليه نفسه وحسه، ولم يصرف عنه بشيء من مطالب الصبا ونوازع الشباب. أحب الكتاب وحرص عليه كأنه ولده رآه على يأس، وعرفه كما يعرف الناس آباءهم. وقد دفعه هذا الحب وذلك الحرص إلى أن يتلمسه: مطبوعاً في مطبعة درست وذهب رسمها، أو منشوراً في مجلة نسي الناس اسمها، أو مخطوطاً في خزانة عامة أو خاصة خفي على الدارسين مكانها. وقد وهب الله له ذهناً صافياً، سريع اللمح قوي الإدراك، وذاكرة محيطة جامعة تعرف الشاردة والواردة.

ولقد كان من صنع الله لي وتوفيقه إياي أني عرفته منذ خمسة عشر عاماً، قضيت منها عشرة كوامل، لصيقاً به مجاوراً له، وقد رأيت منه العجب: يأتيه الدارس ويطرح أمامه موضوع دراسته، وما بين يديه من مصادر وموارد، ولم يكد يفرغ الدارس من كلامه حتى يندفع رحمه الله يهدر كالشلال، ذاكراً ما لا يحصى كثرة من المراجع مما لم يخطر للطالب على بال، فإذا رأى علامات الرضا وأمارات السرور على وجه صاحبه، قنع بذلك سعيداً جذلان، وإذا ما أسرف صاحبه في مديح أو ثناء، قال له بصوت ودود ولهجة حانية: حسبك، فهذا شيء علقناه عن مشايخنا، ثم قال: وما أوتيته على علم عندي. ثم لم يزل بصاحبه يغريه بموضوعه، ويمده بالمراجع من مكتبته، ثم يقدمه إلى أستاذه المشرف عليه، ويعرفه بالصفوة من العلماء. وأشهد ــ ويعلم الله ــ أن كثيراً من الرسائل الجامعية صنعت في بيت رشاد عبد المطلب، ووضعت خطوطها الأولى على مكتبه، ولكن الناس يجحدون.

وكان رحمه الله إذا تكلم في فرع من فروع التراث اعتقدت أنه لا يحسن غيره:

وكـــان مـــن العلـــوم بحيـــث يقضـــى لـــــه مـــــن كـــــل علـــم بـــالجميـــع

ثم كان آية في إدراك العلائق بين الكتب والمؤلفين: تأثراً أو نقداً أو شرحاً أو اختصاراً أو تذييلاً، وأعجوبة في معرفة أسماء المؤلفين بكناهم وألقابهم، والتمييز بين من اشتركوا منهم في شهرة أو كنية، كالسخاوي القارىء والسخاوي المؤرخ. وهذا فن غاب رجاله، فما أكثر ما نرى في هذه الأيام خلطاً بين أبـي حيان التوحيدي الأديب، وأبـي حيان الأندلسي النحوي. والأمثلة في هذا المجال كثيرة والإمساك بنا أولى.

وقد تعدى تأثير رشاد عبد المطلب توجيه الدارسين وإفادة العلماء ــ إلى الطابعين وناشري الكتب، فكان على صلة دائمة بهم، يشير عليهم بطبع أصول الكتب، ويغريهم بالتأنق في إخراجها.

ولقد كان عمل رشاد عبد المطلب بمعهد المخطوطات علامة بارزة في تاريخ نشر التراث في عصرنا الحديث.

ومعهد المخطوطات أنشىء بجامعة الدول العربية سنة ١٩٤٦م، وهذا المعهد يقوم بعمل جليل، يستهدف استنقاذ تراثنا الإسلامي من عوادي الزمن وغوائل الناس والأيام، وذلك بتصويره من أماكن وجوده في شتى مكتبات العالم، ثم فهرسته وتصنيفه وتقديمه للدارسين.

وقد التحق به رحمه الله سنة ١٩٤٧م، فشارك في إرساء قواعده، وواكب نشاطه وتطوره، وخرج في بعثاته ينتقي ويختار، وتضم مكتبة المعهد الآن مجموعة نادرة من نفائس المخطوطات في مختلف العلوم والفنون، كان لرشاد عبد المطلب فضل اختيارها والتعريف بها، مع الرواد الأوائل: يوسف العش، ومحمد بن تاويت الطنجي، وصلاح الدين المنجد. وحين وضعت أصول نشر التراث في العصر الحديث ــ وفي مقدمتها جمع نسخ الكتاب ــ واندفع العلماء ينشرون ما لم ينشر،

ويعيدون نشر ما طبع غير محقق، كان لهذه المجموعة التي يقتنيها معهد المخطوطات فضل كبير على العلم والعلماء، وأخص بالذكر مخطوطات تركيا والهند.

والمشتغلون بالتراث يعلمون أن المخطوطات تتفاضل فيما بينها قيمة ونفاسة، وكان رحمه الله ذا حس دقيق وبصر نافذ حين يتعامل مع المخطوطات، وقد رافقته في رحلتين من رحلات معهد المخطوطات: الأولى إلى تركيا سنة ١٩٧٠م، والثانية إلى المغرب سنة ١٩٧٢م، ولقد رأيت منه في الرحلتين عجباً، وأفدت منه علماً كثيراً.

كان رحمه الله أعجوبة في معرفة قصة المخطوطات: المفقود منها والناقص والنادر، وذلك أن الكتاب المخطوط إما أن يكون مفقوداً، بمعنى أنه يتردد ذكره في المراجع، لكنه لا تعرف له نسخة في مكتبات العالم، وإما أن يكون ناقصاً، بمعنى أنه يوجد منه قطعة أو جزء لا غير، وثالث أحواله أن يكون نادراً، لا توجد منه إلا نسخة واحدة. عرف ذلك كله وأحصاه عدداً.

ثم كان أثابه الله آية في تحديد الزمن الذي كتب فيه المخطوط، فقد نظر كثيراً في المخطوطات، وألف أقلام القرون المتقدمة والمتأخرة، ثم عرف قواعد المشارقة والمغاربة في الكتابة، وبهذا الإلف وتلك المعرفة كان يستطيع أن يحدد على وجه التقريب تاريخ كتابة هذه المخطوطات الخالية من تاريخ النسخ، ثم كان قادراً على أن يكشف زيف هذه التواريخ المكذوبة التي تكتب في آخر المخطوط لترويجه أو التكسب به.

وفيما عدا هاتين الرحلتين اللتين رافقته فيهما، سافر رحمه الله في بعثات المعهد إلى المملكة العربية السعودية والقدس وسوريا ولبنان والهند وإيران وإسبانيا والبرتغال. وفي داخل جمهورية مصر العربية جمع مخطوطات نادرة من مكتبات الإسكندرية وطنطا ودمياط وسوهاج. وهو في كل هذه الرحلات كان يلبي حاجة العلماء والدارسين لمعرفته بالكتب التي يُعنون بها.

وقد حرصت هيئات الاستشراق على الإفادة من علمه وخبرته، ففي عام ١٩٦٤م دعي لإلقاء محاضرات في عدد من جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، حيث قضى هناك ستة أشهر. وفي عام ١٩٧٢م سافر إلى لندن بدعوة من المجلس الثقافي البريطاني للاستعانة بخبرته في شؤون المخطوطات والمكتبات، وقد أمضى هناك ستة أسابيع زار خلالها جامعات لندن وكمبردج وأكسفورد ولانكستر.

وفي كل اللجان التي شُكِّلت في مصر لقضايا التراث كان رحمه الله عضواً فيها، فشارك في لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

إنتاجه العلمي:

حقيق بمن طوَّف كل هذا التطواف بالمكتبة العربية، مخطوطها ومطبوعها، أن يكتب شيئاً يحمل اسمه، وقد عرف تاريخ التأليف العربي كثيراً من الورَّاقين الذين وظفوا خبرتهم في الجمع والتأليف، مثل ياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء ومعجم البلدان، وابن شاكر الكتبي صاحب فوات الوفيات وعيون التواريخ، ولكن الرجل أعظم الله أجره شغل بالناس، يجمع لهم أصول علمهم، ويهيىء لهم مادة دراستهم، وكم كنت أغريه بأن يعيد نشر فهرست ابن النديم، وفهرست ابن خير الإشبيلي، ومفتاح السعادة، وكشف الظنون، ونحو ذلك من هذه الكتب التي عنيت برصد النتاج العربي في شتى الموضوعات، وهو الميدان الذي لا يزاحمه فيه مزاحم. ومع كل ذلك فقد أصدر عام ١٩٥٣م ــ بالاشتراك مع المغفور له الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ــ فهرساً جامعاً لكتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه. وقد تضمن هذا الفهرس اثني عشر نوعاً من الفهارس الفنية، كشفت عن كنوز هذا السفر العظيم من تراثنا الأدبي، وقد أفرد لهذا الفهرس الجزء السابع من الطبعة التي أخرجتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة.

وفي عام ١٩٧٠م حقق كتاب: «ذيول العبر في خبر من عبر» للذهبي

والحسيني، وهو في تراجم رجال القرن الثامن الهجري. وقد نشرته وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت.

وفي سنة ١٩٧٣م صنع فهرساً لمؤلفات العرب المخطوطة والمطبوعة، في الطب والصيدلة، وقدمه إلى مؤتمر الطب والصيدلة عند العرب، الذي عقدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية. وقد أثنى أعضاء المؤتمر على هذا الفهرس وأوصوا بطبعه.

وفي عام ١٩٧٤م نظمت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ندوة عن «الجبرتي المؤرخ»، وقدم رحمه الله في هذه الندوة بحثاً عن «آثار الجبرتي المخطوطة والمطبوعة».

وحين استوت لرشاد عبد المطلب هذه المعرفة الجامعة المحيطة خلال حياته المصابرة المثابرة، حسده الحاسدون بغياً وعدواً، وما نقموا منه إلا أنه حصَّل ما لم يحصله غيره، وفقه ما لم يفقهه سواه من هؤلاء الذين ينتسبون إلى التراث وجاهة أو منصباً، وحين كلَّت خطاهم وقعدت بهم هممهم عن اللحاق به سلقوه بألسنة حداد:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسداً وبغياً إنه لدميم

وقد صبر على ما كذب وأوذي حتى أتاه أمر الله.

والآن وقد ذهب الرجل إلى رحاب ربه ــ تاركاً في القلوب حسرة لا تنقضي، وفي فن معرفة المخطوطات فراغاً يبعد أن يُشغل ــ نسأل الله العليّ القدير أن يغفر له ويرحمه، وأن يجعل كل ما قدمه لتراث هذه الأمة، في موازينه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحضراً.

* * *

التراث العربي في المغرب..[1]
وقضية التواصل بين المشرق والمغرب[2]

ـ ١ ـ

من مكرور القول ومُعاد الكلام أن الأمة العربية قد احتشدت لتسجيل تراثها وجمعه في جهاد دائب لم تشهده أمة من الأمم، ولم تعرفه ثقافة من الثقافات، ولم يقف هذا الجهاد عند مصر من الأمصار، أو يكتفِ بقطر من الأقطار، بل امتد إلى كل بلد طالته يد الإسلام.

وقد اقتضت طبائع الزمان والمكان أن تشهد بلاد المشرق الخطوات الأولى لذلك التسجيل والجمع، ابتداء من منتصف القرن الثاني الهجري.

ولم يكد المغاربة والأندلسيون يتسامعون بأنباء هذا النشاط الذي كانت تغلي به حلقات الدرس ومجالس العلماء في البصرة والكوفة، وصرير أقلام النساخ في مكة والمدينة ومصر والشام حتى ولوا وجوههم شطر المشرق العربي بنفس مشوقة وقلب لهيف.

والمتتبع لحركة التأليف العربي في خطواته الأولى يروعه هذا الحشد الهائل

(١) زار كاتب المقال المغرب مرَّتين عضواً في بعثة معهد المخطوطات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وقد نشر مقاله هذا في حلقتين بمجلة «الثقافة» القاهرية، العددان ٢٧ و ٢٨، ديسمبر ــ يناير ١٩٧٥م.

(٢) مجلة «دعوة الحق»، العدد ٩، السنة ١٧، نوفمبر ١٩٧٦م، المغرب.

من العلماء وطلاب المعرفة. فأي بركان هذا الذي فجَّره كتاب الله المنزل علي النبيّ الأميّ، ففتح به آذاناً صُمّاً وقلوباً غلفاً؟ وأي ضياء وهاج ذلك الذي جاء به الدين الجديد، فأزاح ظلمات القرون والأحقاب؟

انسالت أفواج المغاربة على المشرق، يشافهون العلماء ويروون العلم ويستنسخون الكتب، وقد استفاضت كتب التراجم والرجال بأخبار هذه الرحلات، وقد بدأت رحلات المغاربة والأندلسيين إلى المشرق منذ أواخر القرن الثاني الهجري، مواكبة لحركة الجمع والتدوين، مصاحبة لنشأتها.

ذكر أبو بكر الزبيدي الأندلسي، في ترجمة الغازي بن قيس، المتوفَّى سنة ١٩٩هـ، قال: «كان ملتزماً للتأديب بقرطبة أيام دخول الإمام عبد الرحمن بن معاوية رضي الله عنه الأندلس، ثم رحل إلى المشرق، وشهد تأليف مالك للموطأ، وهو أول من أدخله الأندلس، وأدرك نافع بن أبي نعيم ـ أحد القراء السبعة ـ وقرأ عليه، وهو أول من أدخل قراءته»[١].

وفي ترجمة جودي النحوي المتوفى سنة ١٩٨هـ، قال: «هو جودي بن عثمان، من أهل مورور ـ قريباً من قرطبة ـ ورحل إلى المشرق، فلقي الكسائي والفراء وغيرهما، وهو أول من أدخل كتاب الكسائي، وله تأليف في النحو»[٢].

وهذا قاسم بن أصبغ محدث الأندلس الكبير، يرحل إلى المشرق مع محمد بن عبد الملك بن أيمن، ومحمد بن زكريا بن أبي عبد الأعلى، فيسمع بمكة ومصر من علمائهما، ويدخل العراق فيسمع من المبرد وثعلب، ويروي عن ابن قتيبة كثيراً من كتبه»[٣].

وقد رأيت بخزانة القرويين بفاس نسخة عتيقة جداً من كتاب ابن قتيبة المسمَّى:

---

(١) طبقات النحويين واللغويين، صفحة ٢٥٤، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) المرجع السابق، صفحة ٢٥٦.

(٣) تاريخ علماء الأندلس، لابن الفرضي، صفحة ٣٦٥، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة.

«تأويل مشكل القرآن» برواية قاسم بن أصبغ هذا، عن ابن قتيبة، بمنزله ببغداد، في شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين ومائتين.

وتصور لنا كتب التراجم إقبال أهل المغرب على علمائهم العائدين من المشرق، لسماع ما تلقوه عن علماء مكة والعراق ومصر والشام[1]. ولقد بلغ من حرصهم وشدة تتبعهم أنهم كانوا يسألون كل قادم من المشرق، ولو كان من التجار. روى الزبيدي عمن أخبره عن عبد الوهاب بن عباس بن ناصح، قال: «كان أبـي لا يقدم من المشرق قادم إلا كشفه عمن نجم في الشعر بعد ابن هرمة، حتى أتاه رجل من التجار، فأعلمه بظهور حسن بن هانىء»[2]، يعني أبا نواس.

وقد كان لاستيلاء بني أمية على بلاد المغرب بعد ذهاب دولتهم في المشرق، أثر كبير في إذكاء روح العربية بتلك البلاد، ويؤثر عن عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل أول خلفاء بني أمية بالأندلس، الكثير من البر بالعلماء والإجلال لهم، وكذلك سار بنوه من بعده، دعماً لقواعد الملك، واستكمالاً لمظاهر الخلافة. وقد تناهت أنباء هذا البر وذلك الإجلال إلى المشرق، فسعى أدباؤه إلى هناك، حيث عطايا الخلفاء موصولة بهبات الوزراء. ذكر ياقوت في ترجمة أبـي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني صاحب كتاب «الأغاني»، قال: «وله بعد تصانيف جياد فيما بلغني كان يصنفها ويرسلها إلى المستولين على بلاد المغرب من بني أمية، وكانوا يحسنون جائزته، لم يعد منها إلى الشرق إلا القليل. والله أعلم»[3]. وقد سمى هذه التصانيف الوزير جمال الدين القفطي[4].

وهذا أحد أعلام الأدب العربـي في المشرق: أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي القالي، صاحب كتاب «الأمالي» يفد على القيروان سنة ٣٢٩هـ، وقد جلب في قافلته أحمالاً كثيرة من نفائس المؤلفات المشرقية، ما بين لغوية وأدبية وتاريخية،

(١) طبقات النحويين واللغويين، صفحة ٢٧٥ (ترجمة عفير بن مسعود).
(٢) المرجع السابق، صفحة ٢٦٢، وأيضاً: تاريخ علماء الأندلس، صفحة ٢٩٦.
(٣) معجم الأدباء ١٣٠/ ١٠٠، طبعة دار المأمون.
(٤) إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢/ ٢٥٢، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

ودواوين الشعراء الجاهليين والمخضرمين والمولَّدين، فباع منها في مدة عام كامل ما شاء أن يبيع لأهل إفريقية، ثم تحول بعد ذلك في سنة ٣٣٠هـ إلى الأندلس بما بقي له منها. وقد حفظ لنا أبو بكر بن خير الإشبيلي قائمة بأسماء هذه الدواوين في فهرست ما رواه عن شيوخه[١].

تواصل أدباء المشرق والمغرب، وإن ظلت رحلات المغاربة إلى المشرق أكثر وأدوم لأسباب كثيرة، من أبرزها أن المشرق كان ولا يزال طريق المغاربة للحج، الركن الخامس من أركان الدين الحنيف.

وحين انتدب المغاربة للتصنيف والكتابة ظهر في إنتاجهم مشابه من مناهج المشارقة وطرائقهم في الكتابة، مما حدا ببعض النقاد والمؤرخين أن يربطوا بين الإنتاج المشرقي والمغربي، على نحو يريد أن يثبت دائماً أن المغاربة قد تأثروا بالمشارقة في كل ما يعالجون، فهم يقولون: إنَّ ابن زيدون بحتري المغرب[٢]، وإنَّ أبا بكر الزبيدي الإشبيلي، صاحب كتاب «مختصر العين» في المغرب بمنزلة ابن دريد في المشرق[٣]، وإنَّ أبا الحسن بن بسام الشنتريني صاحب كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» قد تأثر بأبي منصور الثعالبي ونسج على منواله في كتابه: «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»[٤]. إلى غير ذلك من الأمثلة.

---

(١) فهرست ما رواه عن شيوخه أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي، صفحة ٣٩٥ ــ ٣٩٧، نشر المكتب التجاري ــ بيروت، وانظر ما كتبه العلاَّمة حسن حسني عبد الوهاب، عن العناية بالكتب وجمعها في إفريقيا التونسية، من القرن الثالث إلى الخامس للهجرة ــ مجلة المخطوطات العربية بمصر، المجلد الأول، صفحة ٧٢.

(٢) ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه، للأستاذ علي عبد العظيم، صفحة ٥٠٨، وانظر أيضاً: الذخيرة لابن بسام ــ الجزء الأول من القسم الأول، صفحة ٣٢٦.

(٣) مقدمة تحقيق كتاب مختصر العين، صفحة (هـ)، للأستاذين علال الفاسي ومحمد بن تاويت الطنجي، طبعة الرباط.

(٤) مقدمة تحقيق اليتيمة، صفحة ١٣، للأستاذ الشيخ محمد محيي الدِّين عبد الحميد، ومقدمة تحقيق الذخيرة، صفحة (أ، ب)، للأستاذ الدكتور طه حسين.

ولئن قبلت هذه المقالة في القرون الأولى للتصنيف، فإنها بحاجة إلى مراجعة فيما تلا ذلك من قرون. ولقد كان ظهور القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي المولود بمدينة سبتة ــ رد الله غربتها ــ سنة ٤٧٦هـ، والمتوفى بمدينة مراكش سنة ٥٤٤هـ، إيذاناً باستقلال الشخصية المغربية وامتلاكها لناصية البيان وإسهامها في جلاء وجه الثقافة الإسلامية، وعياض ركن من العلم باذخ، وله طرائق في العلم مأنوسة، كتب الكثير، وتمثل تآليفه إضافات هامة في تاريخ الفكر الإسلامي، وقد رزقت مصنفاته من الحظوة وحسن القَبول والتلقِّي ما لم يرزقه مؤلف مغربي آخر[1]. ومما يشيع على ألسنة المغاربة قولهم: «لولا عياض لما ذكر المغرب». ويقول شاعرهم:

كلهم حاولوا الدواء ولكن ما أتى بالشفاء إلا عياض

والمعنى الثاني المراد من التورية في قوله: «بالشفاء» هو كتاب عياض الجليل: «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى»، أشهر وأسير كتب الشمائل النبوية.

تتابعت جهود المغاربة في التصنيف عالية شامخة وبدءاً من القرن السادس لم يعد للمشارقة فضل سبق عليهم، بل نراهم قد زاحموا المشارقة على فنين عظيمين من فنون التراث: علم القراءات، وعلم النحو.

أما علم القراءات فعنايتهم به قديمة، وتصانيفهم فيه مبسوطة، ويرى الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني أن: هذا هو الميدان الوحيد الذي سيطر عليه المغاربة سيطرة تامة[2].

وبحسبنا أن نذكر من فرسان هذا الميدان: أبا عمرو الداني ومكي بن أبي طالب وأبا العباس المهدوي وإسماعيل بن خلف، وغيرهم كثير تراهم في فن

---

(١) مقدمة تحقيق كتاب «التعريف بالقاضي عياض» للأستاذ الدكتور محمد بن شريفة، ومقدمة تحقيق كتاب: «ترتيب المدارك» للقاضي عياض، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي، والكتابان من مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط.

(٢) كتب برامج العلماء في الأندلس، مجلة معهد المخطوطات، المجلد الأول، صفحة ١١٨.

القراءات من فهارس المكتبات. وبحسبنا أيضاً أن نعرف أن أشهر نظم في هذا الفن، وهو المسمَّى: حرز الأماني ووجه التهاني، والمعروف بالشاطبية، صاحبه مغربي أندلسي، وهو: القاسم ابن فِيرُّه بن خلف الرعيني الأندلسي الشاطبي، وقد صار نظمه هذا العمدة في ذلك الفن، وتعاقب عليه الشراح من المشرق والمغرب، ولا يزال يتصدر برامج الدراسة في معهد القراءات بالأزهر الشريف.

ولم تفتر عناية المغاربة بعلم القراءات على امتداد الأيام وتصرف الأحوال، وقد تعرفت أثناء رحلتي الأولى إلى المغرب، على شاب من ريف المغرب، في منزل الأستاذ العلامة محمد المنوني بمدينة الرباط، وكان هذا الشاب آية في معرفة القراءات العشر بطرقها ورواياتها المختلفة، يحفظها ويستشهد لها من الكتاب العزيز في سهولة ويسر. وقد أخبرني الأستاذ المنوني أن لهذا الشاب نظائر كثيرة في بلاد المغرب، وبخاصة في الريف.

وأما علم النحو فللمغاربة احتفال به زائد، وقد ظهر اهتمامهم له مبكراً. هذا أبو عبد الله حمدون بن إسماعيل، من قدماء المغاربة القرويين، كان يحفظ كتاب سيبويه، وقد توفي حمدون هذا بعد المائتين[(١)]. وقد وقف المغاربة على قدم واحدة مع المشارقة في العناية بكتاب سيبويه إمام النحاة: شرحاً أو تعليقاً أو اختصاراً[(٢)].

ذكر جلال الدين السيوطي في آخر كتابه: «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» وهو يسرد موارده في تأليف الكتاب، قال: «وأما المغرب فأهله أصحاب اعتناء شديد بذلك، والنحاة به جم غفير»[(٣)].

ويورد جمال الدين القفطي كلاماً جيداً يشهد لذلك، يقول في ترجمة أبي محمد عبد الله بن علي بن إسحاق الصَّيْمري النحوي: «قدم مصر، وحفظ عنه شيء

---

(١) طبقات النحويين واللغويين، صفحة ٢٣٥.

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، للحاج خليفة، صفحة ١٤٢٧، طبعة استانبول.

(٣) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، الجزء الثاني، صفحة ٤٢٨، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

من اللغة وغيرها، وصنف كتاباً في النحو سمَّاه «التبصرة» وأحسن فيه التعليل على مذهب البصريين، ولأهل المغرب باستعماله عناية تامة، ولا يوجد به نسخة إلا من جهتهم»[1].

ويقوي كلام القفطي هذا أني عرفت ثلاث نسخ مخطوطة من هذا الكتاب، كلها مكتوبة بخط أندلسي مغربي عتيق: النسخة الأولى محفوظة بمكتبة الإمبروزيانا بميلانو، كتبت سنة **٥٨٢**هـ، والثانية بالخزانة العامة بالرباط، نسخت سنة **٥٩٧**هـ، والثالثة بخزانة القرويين بفاس، وهي من خطوط القرن السادس في أكبر الظن. وبقي من هذا الكتاب نسخة رابعة، ذكر المستشرق كارل بروكلمان أنها محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس، ولا أعلم من حالها شيئاً فأذكره.

وقد ذهبت مؤلفات المغاربة النحوية بالذيوع والشهرة في معاهد الدرس والتعليم مشرقاً ومغرباً، فهذه ألفية ابن مالك الجياني الأندلس تحظى بالشهرة، ويتلقاها الناس بالقَبول، ويرجعون إليها في ضبط قواعد النحو والصرف، ويأخذون بها ناشئتهم وصبيانهم[2].

وهذا متن الآجرومية، لم يطاوله متن آخر: ضبطاً لقواعد النحو وحصراً لمسائله ويسراً في صياغته، ولا يزال موضع التلقِّي والقَبول إلى يوم الناس هذا. وصاحب هذا المتن هو: أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، عرف بابن آجروم، ومعناه بلغة البربر: الفقير الصوفي. وهو من أهل فاس.

وفيما عدا هذين الفنين شارك المغاربة في سائر فنون التراث، درساً وتصنيفاً، ثم كان لهم فضل إظهار آثار المشارقة: شرحاً لها وكشفاً لغوامضها.

---

(١) إنباه الرواة، الجزء الثاني، صفحة ١٢٣، والصَّيْمَري: بفتح الصاد وسكون الياء وفتح الميم.

(٢) على الرغم من غلبة ألفية ابن مالك على معاهد الدرس مشرقاً ومغرباً، فقد رأيت الصبيان في مسجد الجامع الكبير بمدينة صنعاء ــ أثناء رحلتي في العام الماضي إلى اليمن ــ يتدارسون «ملحة الإعراب» للحريري صاحب المقامات. وهذه «الملحة» أشهر نظم نحوي قبل ألفيتي ابن معطي وابن مالك.

فهذا أبو عبيد البكري الأندلسي يعمد إلى نصين جليلين من تأليف المشارقة، بالشرح والبيان: الأول كتاب «الأمثال»، لأبـي عبيد القاسم بن سلام البغدادي ويسمي البكري شرحه لهذا الكتاب: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال. وهذا الشرح قد «احتوى على أكمل تعليقات وتفاسير قديمة ومهمة على ذلك الكتاب، كما احتوى مادة رائعة لا توجد في غيره من كتب الأمثال الأخرى»[1].

والثاني: كتاب «الأمالي»، لأبـي علي القالي البغدادي. ووسم أبو عبيد شرحه لذلك الكتاب: اللآلي في شرح أمالي القالي. ونشره العلامة عبد العزيز الميمني باسم: سمط اللآلي.

ثم يتصدى ابن السِّيد (بكسر السين) البطليوسي، بالشرح والبيان لأحد أصول الأدب الأربعة، وهو كتاب ابن قتيبة البغدادي المسمَّى: «أدب الكاتب»، أو: «أدب الكتاب». واسم هذا الشرح: الاقتضاب في شرح أدب الكتاب. وهو من أجل شروح الكتاب، كما يقول صاحب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.

وحين فرغ أبو محمد الحريري البصري من إنشاء «مقاماته» الأدبية المعروفة، تعاقب عليها الشراح بالتفسير والبيان، حتى بلغت شروحها أكثر من خمسة وثلاثين شرحاً، ما بين مشرقي ومغربـي. ومن أعظم هذه الشروح وأجمعها للغرائب والفرائد شرح أبـي العباس الشَّريشي الأندلسي.

ولم يعرف للسيرة النبوية التي صنفها محمد بن إسحاق شرح أوعب وأكثر جمعاً للفوائد والشوارد، من شرح أبـي القاسم السهيلي الأندلسي المسمَّى: الروض الأُنُف، والمشرع الرّوىٰ في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة واحتوى.

والمشتغلون بتاريخ المذاهب الفقهية الإسلامية يعرفون أن أهم شروح مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه، إنما جاءت من قبل العلماء المغاربة الذين أكثروا

(١) راجع كتاب الأمثال العربية القديمة، تأليف المستشرق الألماني رودلف زلهايم، ترجمة الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب، صفحتي ١٥١، ٢١٩، طبعة بيروت.

التصنيف فيه، ما بين مختصر ومبسوط. وذلك لغلبة مذهب مالك على أهل هذه الديار.

ولن يتسع المقام لأكثر من هذه المثل، وهي كثيرة مفرطة في الكثرة. وحسبنا أن نختم بذكر أثر خطير من آثار الفكر الإسلامي، نشط له المغاربة، وتناولوه بالشرح والتعليق، على حين قصر غيرهم، استعظاماً لشأنه، وتهيباً من مسالكه، ذلك هو كتاب «البرهان» في أصول الفقه، لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (بضم الجيم وفتح الواو: نسبة إلى جوين، بلدة من نواحي نيسابور) من أئمة علماء الشافعية في القرن الخامس.

يقول تاج الدين السبكي عن هذا «البرهان»: «اعلم أن هذا الكتاب وضعه الإمام في أصول الفقه، على أسلوب غريب، لم يقتد فيه بأحد، وأنا أسميه لغز الأمة لما فيه من مصاعب الأمور، وأنه لا يخلي مسألة عن إشكال، ولا يخرج إلا عن اختيار يخترعه لنفسه، وتحقيقات يستبد بها. وهذا الكتاب من مفتخرات الشافعية، وأنا أعجب لهم، فليس منهم من انتدب لشرحه ولا للكلام عليه، إلا مواضع يسيرة تكلم عليها أبو المظفر بن السمعاني في كتاب «القواطع» وردها على الإمام، وإنما انتدب له المالكية، فشرحه الإمام أبو عبد الله المازري شرحاً لم يتمه، وعمل عليه أيضاً مشكلات، ثم شرحه أيضاً أبو الحسن الأنباري من المالكية، ثم جاء شخص مغربي، يقال له: الشريف أبو يحيى، جمع بين الشرحين».

ويقول السبكي في موضع آخر عن المازري: «هذا الرجل كان من أذكى المغاربة قريحة وأحدهم ذهناً، بحيث اجترأ على شرح «البرهان» لإمام الحرمين، وهو لغز الأمة الذي لا يحوم نحو حماه، ولا يدندن حول مغزاه، إلاَّ غواص على المعاني، ثاقب الذهن، مبرز في العلم»[1].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق أخي الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، وكاتب هذا المقال، الجزء الخامس، صفحة ١٩٢، والسادس ٢٤٣.

ـ ٢ ـ

ويداول الله الأيام بين الناس، فتتهاوى عروش، وتسقط دول، وتتطاول أمم تريد أن تنقض كيداً ومكراً، وتتعرض الأمة الإسلامية مشرقاً ومغرباً لخطوب وفتن كقطع الليل المظلم تسعى لتغتالها اغتيالاً.

وفي غمار تلك الأحداث التي صكت المسامع وخلعت القلوب لم تذهل هذه الأمة عن تراثها الذي شرفت به، ولم ترض أن تسلم حتى يسلم معها، كالأم تحضن طفلها وسط الحريق المدمر، لا يهمها أن تنجو حتى تنجو به.

ولقد كان من صنع الله ولطفه أن هذه الغزوة التترية الكاسحة على المشرق العربي منتصف القرن السابع، لم تمد شواظها إلى بلاد المغرب، فظلت خزائنها عامرة بالكتب، ومجالسها مأنوسة بالعلم والعلماء.

وتتمادى الأيام ولا يفتر حماس المغاربة لجمع المخطوطات وتعهدها بالصيانة والرعاية، ثم تتطور وظيفة الزوايا المغربية، من مكان معد للعبادة وإيواء الواردين المحتاجين، إلى دور تجمع العلماء والكتب، وتدعو إلى الجهاد ومقاومة الأجنبي.

وفي القرن الثامن تكاثرت الزوايا وانتشرت فيما بين المغرب ومصر، إيناساً وعوناً لحجاج بيت الله الحرام ليأووا إليها في مراحل سفرهم الطويل، وقد نمت حول هذه الزوايا مدارس استقر فيها طلبة العلم، الأمر الذي حدا بملوك بني مرين أن يشيدوا كذلك مدارس بجانب المراكز التعليمية الكبرى خصوصاً جامع القرويين بفاس[١].

ومن أشهر الزوايا في المغرب: الزاوية الدلائية والناصرية والحمزاوية، وتضم هذه الزاوية الأخيرة مجموعة من نوادر المخطوطات، كتب عنها وعرَّف بها الأستاذ العلامة محمد المنوني، في العدد الثامن من مجلة تطوان. ومن أنفس مخطوطات

---

(١) الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، للأستاذ محمد حجي، صفحة ٢٥، طبعة الرباط.

هذه الخزانة الجزء الرابع من كتاب «غريب الحديث» لابن قتيبة، بخط أندلسي؟ وقع الفراغ من نسخه سنة ٥١٧هـ، وهذا الكتاب نادر جداً في مكتبات العالم. وتنبيهات وتعاليق على كتاب «الكامل» للمبرد، من تأليف أبي عبيد البكري، والوقَّشي، والبطليوسي، وهذه التنبيهات والتعاليق لا توجد في مكان آخر من مكتبات العالم، فيما انتهى إليه علمي.

وفي العصر الحديث لم يستطع الاحتلال الفرنسي أن يطمس الوجوه العربية في المغرب فيردها على أدبارها بربرية أو أعجمية. فهذا مسجد القرويين يموج بالعلم والمعرفة، وينهض في المغرب بما ينهض به الأزهر في المشرق. وقد أدرك المغاربة المعاصرون جلال هذا الموروث الضخم الذي آلَ إليهم، فتلقوه بكلتا اليدين، وشدوا يد الضنانة عليه، ولقد بلغ من احتفالهم به وحرصهم عليه أن أقاموا حوله الجدر، وبنوا عليه الحيطان، حذراً عليه في بعض الأماكن التي خيف عليه فيها من بطش الباطشين واعتداء المعتدين.

ويبرز من بين رجالات هذا العصر عالم فحل، قدم للتراث العربي يداً باقية، حين سعى جاهداً وعمل مخلصاً في جمعه وحفظه، ذلك هو محمد عبد الحي ابن عبد الكبير الحسني الإدريسي الكتاني الفاسي، عرف باسم: عبد الحي الكتاني.

كان هذا الرجل شغوفاً بالكتب مولعاً بجمعها، مع علم غزير واطلاع واسع، وقد وقف حياته على الكتب، ونذر نفسه للعلم، فطوف الكثير، ولقي العلماء، وكاتب واستجاز من لم يلقهم.

يقول رحمه الله عن نفسه، في مقدمة كتابه «فهرس الفهارس»: «فرحلت لأقاصي البلدان وشاسع الأطراف والسكان، من حجاز ومصر وشام، وتونس والجزائر وبلاد المغرب الأقصى حواضره وبواديه، وكاتبت أهل الجهات البعيدة كالعراق واليمن والهند واسطنبول وصحراء إفريقية شنقيط (موريتانيا الآن) وغيرها، رغبة في الاستكثار، فحصل لي من ذلك ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر

على قلب أحد من أهل جيلنا وأقراننا»[1]. ولن تصدق هذا الكلام حتى ترى ذلك القدر الهائل من المخطوطات التي عمرت بها مكتبة الرجل، والتي ضمت إلى الخزانة العامة بالرباط[2].

وقد قام هذا الرجل في المغرب بما قام به العلامة أحمد تيمور في مصر، فقد جمع هذا أيضاً غرائب ونوادر من المخطوطات حفلت بها مكتبته العامرة التي ضمت إلى دار الكتب المصرية وعرفت بمكتبة تيمور.

المكتبات العامة والخاصة في المغرب:

زرت المغرب مرتين، عضواً في بعثة معهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، من منظمات جامعة الدول العربية، وكانت المرة الأولى في صيف عام **١٣٩٢هـ ــ ١٩٧٢م**، والثانية في صيف هذا العام. وقضيت في الزيارتين ستة أشهر رأيت فيها من عناية المغاربة بالمخطوطات وحرصهم عليها وصيانتهم لها، ما يبهج النفس، ويدل على أن الخير باق، وأن الله جلت قدرته لن يضيع تراث هذه الأمة مهما تناوشها الأعداء وأحاط بها الماكرون.

والمخطوطات في المغرب تحتفظ بها المكتبات العامة التي تشرف عليها الدولة، والخزائن الخاصة لدى العلماء. وتوجد المكتبات العامة في الرباط وفاس ومكناس ومراكش وتطوان. وقد أتيح لي أن أرى مكتبات الرباط وفاس وتطوان.

ففي الرباط مكتبتان عامرتان: الخزانة الملكية الملحقة بالقصر الملكي. والخزانة العامة التابعة لوزارة الثقافة.

---

(١) فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، الجزء الأول، صفحة ٣، وهذا الكتاب النفيس جعله مؤلفه قاموساً عاماً لتراجم المؤلفين في السنَّة النبوية الشريفة من القرن الثامن حتى أواسط القرن الرابع عشر، وقد أراده ذيلاً على طبقات الحفَّاظ، لابن ناصر والسيوطي.

(٢) ينظر عن نفائس هذه المكتبة: مجلة معهد المخطوطات، المجلد الخامس، صفحة ١٧٤.

وتزخر الخزانة الملكية بنوادر المخطوطات، ومن أنفس ما تضمه هذه الخزانة نص نادر لأبـي العلاء المعري، لا يعرف في مكتبة أخرى من مكتبات العالم إلى يومنا هذا، ذلك هو كتاب «الصاهل والشاحج» يتكلم فيه أبو العلاء على لسان فرس وبغل. وقد كان لظهور هذا الكتاب دوي هائل في الأوساط الأدبية، وقد كتبت عنه الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) أكثر من مرة بجريدة الأهرام. ونسخة هذا الكتاب مخطوطة سنة ٦٣٨هـ، بقلم أندلسي، وفي الخزانة نسخة أخرى من خطوط القرن العاشر تقديراً، وهي منقولة عن نسخة مكتوبة سنة ٦٩٣هـ.

وإلى جانب هذا الكتاب النادر، توجد مخطوطات أخرى نفيسة في الخزانة الملكية، منها:

إصلاح المنطق ــ لابن السكيت، بقلم أندلسي نفيس سنة ٥٩١هـ.

الأصول في الهندسة ــ لإقليدس، بقلم أندلسي نفيس سنة ٦٨٣هـ.

البارع في أحكام النجوم ــ لابن أبـي الرجال، الجزء الأول بقلم أندلسي نفيس سنة ٧٠٦هـ، والجزء الثاني من نسخة أخرى بقلم أندلسي نفيس سنة ٣٦١هـ.

بغية الآمل في ترتيب «الكامل» للمبرد، لمؤلف مجهول. والكتاب مرتب على الفنون، ومقسم على أربعين باباً. والنسخة بقلم مغربـي سنة ١٢٨٣هـ، منقولة عن نسخة مكتوبة سنة ٦٤٦هـ.

تاريخ علماء الأندلس ــ للخشني، بقلم أندلسي عتيق سنة ٤٨٣هـ.

تاريخ مكة ــ للأزرقي، بقلم نسخي قديم من خطوط القرن السادس تقديراً.

تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ ــ للخزاعي. بقلم أندلسي جيد سنة ٨٧٦هـ. وهذا الكتاب هو الأصل الذي بنى عليه العلامة عبد الحي الكتاني السابق ذكره، كتابه العظيم المسمَّى: التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلية. وهو مطبوع في الرباط سنة ١٣٤٦هـ.

دلائل الإعجاز ــ لعبد القاهر الجرجاني، نسخة بقلم نسخي نفيس من خطوط القرن السابع تقديراً، وبأولها توقيع لابن هشام النحوي، ولابن الصائغ.

ديوان أبـي تمام ــ برواية الصولي، بقلم نسخي نفيس سنة ٦٦٤هـ، منقولة عن نسخة مكتوبة سنة ٣٨١هـ.

ديوان جرير ــ برواية السكري. نسخة نفيسة كتبها الخطاط المبدع ياقوت المستعصمي سنة ٦٨٩هـ.

ديوان سبط ابن التعاويذي، بقلم أندلسي نفيس سنة ٧٢٤هـ.

ديوان ابن سهل الإسرائيلي ــ وهو إبراهيم بن سهل الإشبيلي، كان يهودياً وأسلم ــ نسخة بقلم أندلسي من خطوط القرن التاسع. والديوان مرتب على حروف الهجاء، وعني بترتيبه وتهذيبه ابن الدهان.

ديوان ابن مكانس ــ وفيه نثره أيضاً ــ بقلم نسخي سنة ٩٨٩هـ.

السيرة النبوية ــ لابن إسحاق. رواية ابن هشام. جزء منها بقلم أندلسي نفيس سنة ٥٣٣هـ.

شرح الجمل في النحو ــ للزجاجي. تأليف ابن الصائغ الكناني، بقلم مغربـي سنة ٨٩١هـ.

شرح دواوين الشعراء الستة الجاهليين ــ الجزء الأول بقلم أندلسي جميل سنة ٥٩٤هـ، وبهامشه حواش وتعليقات.

طبقات النحويين واللغويين ــ لأبـي بكر الزبيدي الأندلسي. نسخة بقلم أندلسي قديم من خطوط القرن الخامس تقديراً، وهذه هي النسخة الثانية من الكتاب، فلم يكن يعرف منه إلا نسخة وحيدة بمكتبة نور عثمانية بمدينة استانبول بتركيا. وعنها أصدر الأستاذ الجليل محمد أبو الفضل إبراهيم نشرته الأولى للكتاب، ثم أعاد تحقيقه ونشره على هذه النسخة الثانية وصدر عن دار المعارف بمصر منذ سنتين.

العباب في اللغة ــ للصاغاني. خمسة أجزاء تمثل نحو ثلثي الكتاب، منها

أربعة أجزاء بخط المؤلف نفسه، سنة ٦٥٠، وخطه نسخي جيد. وهذا الكتاب من كتب اللغة المعتبرة، ويعد من المراجع الأساسية للمعجم المعروف «تاج العروس في شرح القاموس».

ووجود هذه الأجزاء الخمسة من «العباب» في الخزانة الملكية بالرباط يعد كسباً كبيراً، فإن هذا الكتاب لا تكاد توجد منه نسخة كاملة في أي من مكتبات العالم إلى الآن.

فضائل الشام ـ لأبي سعيد السمعاني. نسخة بقلم نسخي نفيس سنة ٦٤٩هـ، وعليها قراءة للإمام الصاغاني المذكور، في سنة كتابة النسخة. وحسب معرفتي لا أعلم لهذا الكتاب إلا نسخة واحدة بدار الكتب المصرية.

كليلة ودمنة ـ ترجمة ابن المقفع ـ نسخة بقلم نسخي نفيس من خطوط القرن الثامن، وبها أشكال ملونة تحكي أحداث القصة.

مختصر شرح مسائل حنين بن إسحاق في الطب، لمؤلف مجهول. نسخة بقلم نسخي حسن من خطوط القرن الثامن.

المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ـ للفيومي نسخة بخط المؤلف، كتبها سنة ٧٣٧هـ. والمصباح المنير هو ذلك المعجم اللغوي المحرر الذي كان مقرراً على تلاميذ المدارس الثانوية في مصر إلى عهد ليس ببعيد.

المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ـ لابن حيان. جزء منه بقلم أندلسي جيد من خطوط القرن السادس تقديراً. وهذا «المقتبس» نادر وعزيز جداً في مكتبات العالم، ويشتغل به الآن الأستاذ الدكتور محمود علي مكي.

المنتخب من مسند عبد بن حميد الكشي ـ لمؤلف مجهول. نسخة بقلم مغربي دقيق سنة ٧٢٠هـ، ويوجد المسند نفسه بخزانة القرويين بفاس.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ للمقَّري المتوفى سنة ١٠٤١هـ، نسخة بخط المؤلف.

هذه مثل قليلة مما تضمه الخزانة الملكية من نفائس المخطوطات.

أما الخزانة العامة بالرباط فتمثل المخطوطات المحفوظة بها: الرصد العام للخزانة، ثم مخطوطات الخزائن الخاصة التي ضمت إلى الخزانة العامة، حفظاً لها وحرصاً عليها، ويأتي في مقدمة هذه الخزائن الخاصة: مكتبة عبد الحي الكتاني، وبعدها مجموعة الجلاوي والحجوي، ثم حصيلة الزاوية الحمزاوية والزاوية الناصرية.

وإذا كانت الخزانة الملكية تحتفظ بأثر نادر من آثار المشارقة، وهو كتاب «الصاهل والشاحج» الذي ذكرت لك خبره من قبل، فهذه الخزانة العامة تحتفظ أيضاً بكتاب نادر للجاحظ، ذلك هو كتاب «البرصان والعرجان والعميان والحولان» الذي سجل فيه الجاحظ أدب أصحاب العاهات، مستطرداً على جاري عادته إلى ذكر النوادر والغرائب.

لقد ظل هذا الكتاب المعجب يتردد في بطون الكتب القديمة دون أن تعرف له نسخة في مكتبات العالم، حتى اكتشفه الشيخ البحاثة السيد المختار السوسي، صاحب كتاب «المعسول» رحمه الله. وقف المختار السوسي على هذا الكتاب منذ نحو أربعين سنة، قابعاً في الزاوية العياشية ببلدة بزو، بين تادلة والسراغنة جنوب شرقي الدار البيضاء. وتتوالى الأيام ولا يفرط المغاربة في ذلك الأثر النادر، حتى كانت زيارة الدكتور صلاح الدين المنجد إلى بلاد المغرب، منذ نحو عشرين سنة، وهو إذ ذاك مدير معهد المخطوطات، ويصحبه عالم المخطوطات الكبير الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني، إلى بزو، ويقدم له نفائس المخطوطات ومن بينها هذا الكتاب الفريد، الذي يقدم المغاربة صورة منه هدية للمشارقة تحفظ بخزانة معهد المخطوطات بمصر، ثم يقوم الأخ الدكتور محمد مرسي الخولي بتحقيق هذا الكتاب ونشره على تلك النسخة الوحيدة، منذ ثلاثة أعوام بمصر، وكتب عنه نقداً عالم تطوان الكبير الأستاذ محمد بن تاويت في مجلة دعوة الحق المغربية، عدد جمادى الأخيرة من هذا العام.

وليس كتاب الجاحظ هذا هو الأثر الوحيد الذي تنفرد الخزانة العامة بالاحتفاظ به دون مكتبات العالم، فمن ذلك أيضاً:

تعليق من أمالي ابن دريد، نسخة بقلم نسخي جيد، سنة ٦٤١هـ.

الوسيط في الأمثال ــ للواحدي المفسر، نسخة بقلم نسخي نفيس من خطوط القرن السادس تقديراً، ولا يعيب هذه النسخة الوحيدة إلا أن بها سقطاً في وسطها.

وهذا الكتاب لم يرد له ذكر في فهارس المكتبات، ولعل ذلك هو الذي دفع المستشرق الألماني رودلف زلهايم إلى أن يقول: «ولا ندري المقصود بما ذكره البغدادي في الخزانة ٤/ ١١٠، من قوله: قال الواحدي في أمثاله»[١].

منال الطالب في شرح طوال الغرائب (أي الأحاديث الطويلة المأثورة عن رسول الله ﷺ، والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم) ــ لمجد الدين بن الأثير، صاحب كتاب «النهاية». نسخة بقلم نسخي نفيس جداً. وقد اجتمع لهذه النسخة من أسباب التوثيق والقَبول ما لا يكاد يجتمع في نسخة أخرى: فناسخها هو محمد بن نصر الله، وهو ابن أخي المؤلف، والده ضياء الدين ابن الأثير صاحب كتاب: «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر». وقد فرغ محمد من نسخ الكتاب سنة ٦٠٦هـ، ثم قرأه وسمعه وصحَّحه على عمه المؤلف، وكتب صورة القراءة والسماع عمه الثاني عز الدين بن الأثير المؤرخ صاحب كتاب «الكامل».

ديوان شعر ــ لعبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي الأندلسي، كان حيّاً سنة ٨٣٦هـ، وليس لهذا الشاعر ولا لديوانه ذكر في أي مكان، وتتجلى أهميته البالغة في أنه عاش في الأندلس أواخر أيام دولة الإسلام هناك، وقضى حقبة من حياته أسيراً عند الإسبان، وقال في هذه الأثناء كثيراً من شعره، كما سجل في شعره كثيراً من الأحداث في عصره، ورثى كثيراً من المراكز الإسلامية التي عاصر سقوطها في يد الإسبان[٢].

(١) كتاب الأمثال العربية القديمة المتقدم قريباً، صفحة ٢١٥.

(٢) قائمة لنوادر المخطوطات العربية المعروضة في مكتبة جامع القرويين بفاس، بمناسبة مرور مائة وألف سنة على تأسيس هذه الجامعة، صفحة ٥٨، طبعة الرباط.

وإلى جانب هذه المخطوطات الوحيدة التي تحتفظ بها الخزانة العامة في الرباط: رأيت نفائس أخرى. منها: إعراب القرآن الكريم ـ لأبـي إسحاق الزجاج، نسخة في عشرة أجزاء، بقلم نسخي جيد سنة ٣٨٣هـ.

مجموع بقلم نسخي نفيس جداً، كتب سنة ٣٥١هـ ـ فيه من الكتب:

الموجز في النحو ـ لابن السراج.

الموفقي في النحو ـ لابن كيسان.

كتاب النحو ـ للغدة الأصبهاني.

شرح ما يكتب بالياء من الأسماء المقصورة والأفعال ـ لابن درستويه.

المقصور والمدود ـ لأبـي عمر الزاهد.

كتاب الكتاب (أي الكتابة والخط والإملاء، وفيه كلام عن المذكر والمؤنث) لابن درستويه.

المذكر والمؤنث ـ للمفضل بن سلمة.

كتاب الخط، وكتاب القلم، وكتاب العروض ـ الثلاثة لابن السراج.

مختصر في فك دوائر العروض ـ لبعض العروضيين.

كتاب القوافي ـ لأبـي القاسم الطيب بن علي التميمي.

الاشتقاق ـ لابن دريد، نسخة بقلم نسخي جيد، كتبها العالم المعروف أحمد بن عبد القادر بن مكتوم المتوفى سنة ٧٤٩هـ. وهذه النسخة هي الثانية المعروفة في مكتبات العالم من هذا الكتاب إلى الآن. والنسخة الأولى محفوظة بمكتبة ليدن بهولندة، وعليها كان اعتماد المستشرق الألماني وستنفلد في نشرته سنة ١٨٥٤م، ثم عول عليها أيضاً أستاذنا الجليل عبد السلام هارون في تحقيقه للكتاب.

التعازي والمراثي ـ للمبرد، نسخة بقلم نسخي نفيس سنة ٧٥٧هـ، وهذه هي النسخة الثانية أيضاً من الكتاب. والنسخة الأولى محفوظة بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا.

أنساب الأشراف ـ للبلاذري، نسخة كاملة في مجلد واحد، تم نسخها سنة ٦٦١هـ، وهي أقدم نسخة معروفة من الكتاب.

مقالة في الأدوية المضمونة المجربة ـ لجالينوس، ترجمة حنين بن إسحاق. نسخة كتبت سنة ٦٨٣هـ.

وتحتفظ الخزانة العامة بعدة مخطوطات بخطوط مؤلفيها، عرفت منها:

غريب الحديث ـ لابن الجوزي، فرغ من تأليفه سنة ٥٧٦هـ، وخرجه من مبيضته سنة ٥٨١هـ.

ميزان الاعتدال في نقد الرجال ـ للحافظ الذهبي وفي آخر النسخة سماعات على المؤلف، سنة ٧٤٣، ٧٤٥هـ.

مجموع يحتوي على عدة تآليف ـ لتقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٥٦هـ، وعلى بعض هوامشه خط صلاح الدين الصفدي.

قطعة من كتاب طبقات الشافعية الكبرى ـ لتاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ، ومن الغرائب أن هذه القطعة من نفس النسخة التي يوجد منها جزء بدار الكتب المصرية، برقم ٦٤م (تاريخ مصطفى فاضل)، فانظر كيف تفرقت أجزاء النسخة الواحدة في مكتبات العالم!

وفي فاس العاصمة القديمة للمغرب توجد خزانة جامع القرويين، مفخرة البلاد المغربية على الإطلاق، في رحابه تكون رجال وازدهرت معارف، وقد وقف كثير من الملوك والأمراء والعلماء، على خزانة هذا الجامع، العدد الوفير من المخطوطات في شتى العلوم والفنون، وتزخر هذه الخزانة بالنوادر والنفائس، ولا سبيل إلى ذكر كل ما رأيته من هذه وتلك، فحسبي أن أجتزىء ببعض المثل، فمن ذلك:

سير الفزاري ـ ويسمى كتاب السير في الأخبار والأحداث ـ لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحارث الفزاري المتوفى سنة ١٨٨هـ، والموجود من هذا الكتاب الجزء الثاني، في ١٨ ورقة، وهو مكتوب على رق الغزال، وتم نسخه في

شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٠هـ (مائتين وسبعين)، وهذا تاريخ له خطره وجلاله عند المشتغلين بتاريخ المخطوطات، وعلى هذا الجزء خط خلف بن عبد الملك بن بشكوال، المؤرخ المشهور، صاحب كتاب «الصلة» في تاريخ علماء الأندلس، ثم توجد عدة أجزاء من نسخة أخرى كتبت سنة ٣٧٩هـ، وتقع في ٥٩ ورقة.

أجزاء من نسخ مختلفة من تفسير الإمام أبـي جعفر الطبري، على رق الغزال، وبعض هذه الأجزاء مكتوب سنة ٣٩١هـ.

مختصر أبـي مصعب أحمد بن أبـي بكر الزهري ــ في فقه المالكية ــ نسخة بخط أندلسي عتيق سنة ٣٥٩هـ.

النوادر والزيادات ــ لابن أبـي زيد القيرواني، في فقه المالكية، جزء منها على رق الغزال، بقلم أندلسي قوبل على نسخة المؤلف وهو على قيد الحياة سنة ٣٨٣هـ.

كتاب الزهد والرقائق ــ لابن المبارك، نسخة بقلم أندلسي سنة ٤٦٥هـ.

السيرة النبوية ــ لابن إسحاق، برواية يونس بن بكير، وهي رواية عزيزة جداً، فإن المطبوع المتداول من سيرة ابن إسحاق إنما هو من رواية عبد الملك بن هشام، ولم تعرف رواية ابن بكير هذه إلا من خلال النقول عنها، عند ابن سعد وابن الأثير وابن كثير[١]، والموجود من رواية ابن بكير في الخزانة الأجزاء: الثاني والثالث والرابع والخامس، وأحد هذه الأجزاء مكتوب سنة ٥٠٦هـ.

الألفاظ في اللغة ــ لابن السكيت، رواية ثعلب، نسخة بقلم أندلسي على رق الغزال، قرئت على العالم اللغوي ابن السيد البطليوسي في منزله بمدينة بلنسية سنة ٥١١هـ.

السماء والعالم ــ في اللغة ــ لأبـي عبد الله محمد ابن أبان اللخمي القرطبـي المتوفى سنة ٣٥٤هـ، الموجود منه الجزء الثالث بخط أندلسي قديم، وبآخره وقفية

(١) راجع مقدمة تحقيق مغازي الواقدي، للمستشرق الإنجليزي الدكتور مارسدن جونز، صفحة ٢٦، طبعة دار المعارف بمصر.

سنة ٨٥٥هـ، ولا تعرف من هذا الكتاب نسخة في أي من مكتبات العالم، وهو من مراجع ابن سيده في كتابه «المخصص».

البيان والتبيين ــ للجاحظ، الجزء الثالث من نسخة جليلة، على رق الغزال بقلم أندلسي نفيس جداً ضارب في القدم، والنسخة مقابلة على أصول صحيحة: أصل الوقشي، وابن سراج، وعطاء بن البادش، وبحواشيها تعليقات قيمة من كتاب الموالي، وكتاب الحيوان للجاحظ.

الإبانة في الوقف والابتداء، في القرآن الكريم ــ لأبـي الفضل محمد بن جعفر الخزاعي، نسخة عتيقة بخط ابن البادش النحوي المعروف، فرغ من نسخها سنة ٥٢٠هـ.

كتاب مشتبه النسبة، ومعه المؤتلف والمختلف في أسماء وألقاب رواة الحديث ــ كلاهما للحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي المصري، نسخة بخط نسخي جيد سنة ٥٣٦هـ.

كتاب خلق الإنسان، وكتاب الفرق، في اللغة، كلاهما لثابت بن أبـي ثابت، نسخة بخط أندلسي سنة ٦٠٠هـ، وفي الخزانة نسخة أخرى من خلق الإنسان، بها بعض النقص، وهي بخط أندلسي قديم، وهذا «خلق الإنسان» كان قد نشره الأستاذ المحقق عبد الستار أحمد فراج بالكويت منذ عشر سنوات، عن نسخة وحيدة محفوظة بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية.

تاريخ رواة الحديث ــ لابن أبـي خيثمة، الموجود منه الجزء الثالث، بقلم أندلسي سنة ٦١٠هـ، وهذا الكتاب عزيز جداً، وقد عرفت ورأيت منه قطعتين صغيرتين: الأولى بالخزانة العامة بالرباط، والثانية بالمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

مختصر تفسير أبـي زكريا يحيـى بن سلام التيمي المتوفى سنة ٢٠٠هـ، تأليف أبـي عبد الله محمد بن عبد الله ابن أبـي زمنين المتوفى سنة ٣٩٩هـ، نسخة بخط أندلسي سنة ٦١١هـ.

كتاب الأخلاق المسمى: نيقوماخيا ــ لأرسطو، بخط مغربـي سنة ٦١٩هـ، وبآخره مقالة في المدخل إلى علم الأخلاق يظن أنها من تأليف نيقولاوش.

مجموع بخط أندلسي سنة ٦٣٦هـ، فيه كتاب الأضداد للتوزي، وكتاب الفرق بين الحروف الخمسة، وكتاب المثلث في اللغة، كلاهما لابن السيد البطليوسي.

البيان والتحصيل ــ في فقه المالكية ــ لابن رشد الجد، نسخة مزينة بخط أندلسي دقيق على رق غزال، كتب سنة ٧٢٠هـ، وتفيد هذه النسخة المعنيين بدراسة الخطوط وتطورها، فقد كتبت بقلم أندلسي دقيق ومنسّق جداً، وبلغ عدد صفحاتها ٤٦٠ صفحة، في كل صفحة ٧٥ سطراً، وهذا نمط في الكتابة قل أن يوجد في المخطوطات العربية، وأوراق النسخة كلها من بطن الغزال، وهو أرق شيء فيه، ولك أن تقدر كم من الغزلان استخدم في كتابة هذه النسخة.

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)، الموجود منه الجزآن الثالث والخامس من النسخة ذات الأجزاء السبعة التي وقفها ابن خلدون على خزانة جامعة القرويين، بتاريخ شهر صفر سنة ٧٩٩هـ، وعليها خط يده.

كتاب في السياسة ــ لأبـي بكر محمد بن الحسن المرادي المتوفى سنة ٤٨٩هـ، نسخة مكتوبة سنة ٨٤٣هـ.

منظومة رجزية في علم الطب العام ــ لابن الطفيل الفيلسوف، الرجز مرتب على سبع مقالات تتجاوز عدد أبياته ٧٧٠٠ بيت، ويقول بعض المغاربة الذين قرأوا هذه الأرجوزة أن ابن الطفيل تكلم فيها على مرض السكر.

شرح أرجوزة ابن سينا في الطب ــ لابن رشد الحفيد ــ نسخة بخط أندلسي قديم.

هذه مختارات مما تفيض به هذه الخزانة العريقة من الذخائر والتحف، وقد رأيت بعض النفائس وقد عبثت بها الأرضة والرطوبة عبثاً شديداً، ولولا غيرة القائمين على الخزانة ــ وعلى رأسهم العلامة محمد العابد الفاسي ــ لأتت الأرضة والرطوبة

على الكثير من نوادرها، وهذا رجاء أبعث به إلى الحكومة المغربية الرشيدة ــ وأياديها على التراث مذكورة مشكورة ــ أن تولي مزيد اهتمام بهذه الخزانة، فتبادر بتصوير كل مقتنياتها تصويراً فنيّاً بعد أن ترممه وتجلده، ثم رجاء آخر إلى العلامة العابد الفاسي أن يخرج إلى النور هذا الفهرس العلمي القيم الذي صنعه لمحتويات الخزانة، والذي وظف فيه علمه الغزير وخبرته النادرة، فلقد رأيت كثيراً من التعليقات الجيدة على أغلفة المخطوطات بقلمه، آجره الله وجعله في موازينه.

وفي تطوان رأيت مخطوطات المكتبة العامة، وعددها قليل بالقياس إلى مخطوطات الرباط وفاس، ومن أهم ما تضمه هذه المكتبة ديوان أبـي الطيب المتنبـي ــ بقلم مغربـي جميل، وتمتاز هذه النسخة بأن بها زيادات من شعر المتنبـي ليست توجد في سائر نسخ الديوان المعروفة، فضلاً عما بها من ذكر مناسبات القصائد، وشرح بعض الألفاظ اللغوية، والتنبيه على المعنى المراد، والديوان مرتب على حروف المعجم، وبأوله مقدمة للأديب أبـي جمعة المراكشي الماغوسي، في بيان أهمية شعر المتنبـي، وما له من الحظوة عند ملوك السعديين.

وقد كتب عن مخطوطات تطوان العلامة عبد الله كنون، مقالة مستفيضة تراها في مجلة معهد المخطوطات ــ الجزء الثاني من المجلد الأول.

هذا ما كان من أمر المكتبات العامة التي عرفتها في المغرب. أما المكتبات الخاصة فتنتشر في حواضر المغرب وبواديه، وقد أشار إلى بعضها الدكتور صلاح الدين المنجد في الجزء الأول من المجلد الخامس، من مجلة معهد المخطوطات.

وقد عرف المغاربة المعاصرون قيمة ما انتهى إليهم من ذلك الإرث الكريم، فتناولوه بالدرس والبيان، واكتشفوا من خلاله تاريخ الحضارة في بلادهم، ونفر منهم طائفة تفقهوا في فن المخطوطات، فجروا وراءها يجمعونها من الزوايا والصحراء، ويقيمون حولها الدراسات، ثم يقدمونها للناس ميسورة الجنى دانية القطاف.

وقد عرفت ثلاثة رجال من أعلام هذه الطائفة: محمد المنوني ومحمد إبراهيم الكتاني في الرباط، ومحمد العابد الفاسي في فاس، وهذا تقدمت الإشادة بفضله عند

الحديث على القرويين. أما المنوني والكتاني فقد قدما للتراث العربي في المغرب يداً باقية وأثراً مذكوراً، فكم اكتشفا من مخطوطات، وكم صحَّحا من نسبة كتب لغير أصحابها، ولولا خوف الإطالة لذكرت من هذا وذاك الشيء الكثير، ثم كانت مساعدتهما المخلصة وعونهما الكريم لكل من يرد المغرب أو يستفتيهما من خارجه، فلم يحجبا علماً ولم يبخلا بنصح.

ويمثل هؤلاء الأعلام الثلاثة الطبقة الأولى في الواقع الأدبي المغربي المعاصر، وهي الطبقة التي تخرجت في القرويين، واتصلت بالتراث في أصوله الأولى ومنابعه النقية بعيداً عن عبث المختصرين وضلال المتأولين.

وقد عاشت هذه الطبقة تجربة الحماية الفرنسية بكل مرارتها، فلم تخدع عن لغتها وتراثها، وظلت حفية به حريصة عليه مستزيدة منه.

وبجانب هؤلاء الأعلام الثلاثة عرفت من فحول هذه الطبقة: عبد الله كنون في طنجة، وسعيد أعراب، ومحمد داود، ومحمد بن تاويت ــ في تطوان، والرحالي الفاروقي في مراكش، وعبد السلام بن سودة في فاس، وفي الرباط: عبد الله الجراري، وعبد العزيز بن عبد الله، ومحمد الفاسي، وعبد الوهاب بن منصور، ومحمد بن العباس القباج، والحاج محمد باحنيني وزير الثقافة، وهذا الرجل نمط وحده، فهو أديب مترسل، تستمع إليه فيحملك إلى دنيا حافلة بالنغم الحلو واللفظ المعجب والمعنى الشريف. وقد أتيح لي أن أستمع إليه في أمسية شعرية بالرباط، قدم فيها الشاعر السوري الكبير عمر أبو ريشة، فخلتني مع بيان الجاحظ وترسل ابن العميد، ولا أعتقد أن لهذا الأديب نظائر كثيرة في المشرق والمغرب.

وما زالت هذه الطبقة تواصل عطاءها السخي، وعلى وقع خطواتها سارت الطبقة الثانية من أدباء المغرب، وهي طبقة أصابت من مائدة القرويين العامرة، ثم اتصلت بالمناهج الحديثة وحصلت على أرقى الشهادات الجامعية، واتخذت مكانها في قاعات الدرس بالجامعة والمعاهد العلمية، وهذه الطبقة هي أمل المغرب

المعاصر، لما عرفت من وقوفها على القديم واتصالها بالحديث، وقد أدركت منها:

الأساتذة الدكاترة: محمد بن شريفة، وعباس الجراري، وعبد الهادي التازي ــ في الرباط، والأستاذ الدكتور عبد السلام الهراس، وعبد الوهاب التازي، والشاهد البوشيخي ــ في فاس، والأستاذين حسن الوراكلي وإسماعيل الخطيب ــ في تطوان، وعباس الجراري أكثر هؤلاء اتصالاً بالحديث، مع روافد تراثية خصبة.

ونأتي إلى الطبقة الثالثة: كتاب الرواية والقصة والمسرحية والشعر والحديث، وكتَّاب هذه الفنون الأدبية في المغرب يعالجونها على النحو الذي تعالج به في مصر والشام والعراق وسائر بلاد المشرق سواء بسواء، من حيث البناء والمضامين والانتماءات الفكرية المختلفة.

وتطالعك من كتاب الرواية والقصة أسماء: عبد الكريم غلاب، وإدريس الخوري، وبوشتي حاضي. ومن كتاب المسرحية: عبد الكريم برشيد، ومصطفى الزباخ، ومن الشعراء: محمد الصباغ، وحسن الطريبق، وأحمد المجاطي، وعبد الكريم الطبال، ومحمد السرغيني، ومحمد بن ميمون، ولا شك أن هناك كثيرين غير ما ذكرت ممن عرفت خلال رحلتي الاثنتين إلى المغرب.

وهذه الطبقات الثلاث من علماء وأدباء المغرب تواصل إنتاجها بثراء وغزارة، ويجمعها كلها عتاب شديد على أدباء المشرق لإعراضهم وتجافيهم عما تنتجه القرائح المغربية، وهذا العتاب يأتيك هامساً رفيقاً من طبقة الشيوخ، وتسمعه صاخباً غاضباً من طبقة الشباب، فعلى حين يرى الشيوخ أن هذا الإعراض والتجافي إنما جاءا نتيجة عوامل اصطنعت في الأمة العربية اصطناعاً لتلفتها عما وجدت عليه آباءها، وهي إلى زوال وانقضاء، يرى الشباب أنهما ــ الإعراض والتجافي ــ نغمة من مقام التفوق الثقافي الذي يحس به المشارقة نحو المغاربة، وآية ذلك هذا السيل من الكتب التي تحمل عناوين توحي بالشمولية، مثل «دراسات في الشعر العربي المعاصر» من مصر، و«الشعر العربي الحديث وروح العصر» من العراق،

و«في الشعر العربي المعاصر» من سوريا، ثم تقرأ هذه الكتب فلا ترى فيها ذكراً لشاعر من شعراء المغرب.

وقد كتب الأديب عبد الجبار العلمي، يرد على الأديب السوري بندر عبد الحميد كلمته التي نشرها بجريدة الثورة السورية، عن التجربة الشعرية في المغرب، واتهامها بالانطواء والعزلة، ومما قاله العلمي: «وأحب أن أقول للسيد بندر عبد الحميد: إن المثقفين المغاربة من أشد الناس حرصاً على الاطلاع على النشاط الثقافي في كل الأقطار العربية، وأنهم يلتهمون كل ما يصل إلى المغرب من كتب ومجلات وصحف عربية، وأنهم يتمثلون كثيراً من التيارات الجديدة، سواء في القصة أو المسرح أو الشعر، وأن التجربة الحديثة لدينا تمتح من جميع الاتجاهات، سواء منها العربية أو الأجنبية... وهناك عديد من الأبحاث في كلية الآداب في السنة الأخيرة من الليسانس، كلها تتضمن شخصيات أدبية معاصرة، سواء في مصر أو في سوريا أو في العراق»[1].

وهذا الذي قاله الأديب عبد الجبار العلمي حق كله، وقد وقفت على أماراته وشواهده في كل المدن المغربية التي زرتها، فالمكتبات عامرة بآثار المشارقة، وإحالات الأساتذة الجامعيين وغيرهم من الباحثين على كتابات أدباء المشرق تملأ حواشي كتبهم، وعلى الجانب الآخر انظر ما يكتبه بعض المشارقة من دراسات أندلسية أو مغربية، وسترى خلطاً كثيراً واضطراباً بيِّناً، أدى إليهما قلة معرفة بالمراجع المغربية الأصيلة، وعدم متابعة لما يجري على الساحة المغربية من نشاط أدبي وفير.

وليسمح لي الأستاذ العلمي أن أنتقل بالقضية إلى ميدان أخطر وأجل من قضايا القصة والمسرح والشعر الحديث، إنها قضية الفكر العربي الشتيت، والأمة الغافلة عن ماضيها، الذاهلة عما يراد بها، ولقد كان هناك تواصل ولقاء بين أبناء هذه الأمة

---

(١) الملحق الثقافي لجريدة «العلم» المغربية، الجمعة ١٢ رمضان ١٣٩٥هـ ـ ١٩ سبتمبر ١٩٧٥م.

يوم كانت وسيلة الاتصال الناقة والسفينة، وحين تقاربت المسافات وطويت الآماد تقطعت أسباب التواصل وانصرف كل في واد، وقد حدثتك من قبل عن قاسم بن أصبغ الأندلسي الذي روى عن ابن قتيبة كتبه بمنزله ببغداد، ويا بعد ما بين الأندلس وبغداد.

ولم يعد هناك من صور التواصل إلا ما يكون من تلك المؤتمرات الأدبية التي تعقد في عاصمة من عواصم البلاد العربية كل عام أو عامين، تستغرق من الأيام سبعة أو عشرة، وتنتهي جلساتها ببعض القرارات والتوصيات التي تذروها الرياح، بل قد تكشف هذه المؤتمرات أحياناً عن تنافر موحش بين أعضاء الوفود، نتيجة اختلاف المشارب والأهواء، وإقحام قضايا تجافي روح الأدب والفكر.

وإذا كانت الأمة العربية تشترك كلها مشرقاً ومغرباً في مسؤولية التواصل هذه، فإني أشهد أن المغاربة لم يقصروا، وما برحوا يمدون أبصارهم إلى المشرق، تكريماً لعلمائه وإفادة منهم، فهذه الدروس الدينية الرمضانية التي تلقى بين يدي جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب، في قصره بالرباط، والتي تسمَّى: الدروس الحسنية، يدعى إليها كبار مفكري الإسلام من البلاد العربية، وقد دعي من علماء مصر هذا العام أستاذنا الجليل محمود محمد شاكر ــ ويسميه بعضهم هناك: شيخ العربية ــ والباحث الدكتور مصطفى محمود.

وقد حدَّثني أحد منظمي مهرجان ابن زيدون في الرباط أنَّ وزارة الثقافة المغربية قد دعت إلى هذا المهرجان كل من له أدنى صلة بابن زيدون في مختلف البلاد العربية، وقد دعي من أدباء مصر عدد وفير ليسوا كلهم على صلة بابن زيدون، بل إن بعضهم لا وجود له فيما يكتب من أدب في مصر هذه الأيام، وقد كانت له أيام، ولكنها رغبة المغاربة الدائمة في تكريم الأديب المصري، وإجلالهم لماضيه، وحين زالت الحواجز التي كانت تعوق حركة المصريين اندفع المغاربة في دعوة كثير من أساتذة الجامعات المصرية للإفادة من علمهم في قاعات الدرس بالجامعات المغربية.

والحق أن لمصر في الوجدان المغربي رصيداً ضخماً من الحب والإعزاز، تراه أنَّى سرت وحيثما توجَّهت، وقد رأيت من تعلق المغاربة بكل ما هو مصري ما لا يبلغ كنهه وصف واصف، ولا يسوء القوم إلا أننا نجهل عنهم الكثير، ولقد قال لي عالم مغربي كبير: إننا نعرف عنكم كل شيء وأنتم لا تعرفون عنا أي شيء.

وبعد: فإذا كان المغرب قد حافظ على التراث العربي، مخطوطات نادرة ونصوصاً قيمة، فإنه قد حافظ عليه أيضاً، سلوكاً وفضلاً ورعاية لواجب الأخوة مهما تباعدت الديار وتناءت الأمصار.

وهذه دعوة من فوق منبر «الثقافة» إلى أدباء المشرق عامة، وأدباء مصر خاصة أن يلتفتوا لفتة جادة إلى أدب إخوانهم في المغرب، درساً له وبحثاً عن مواطن الإجادة فيه، فما ينبغي أن يظل هذا الركن القصي من الوطن العربي غير محسوب في خريطة الفكر العربي.

* * *

عَيْنِيَّة ابن زريق[1]

ذهب الشعراء المكثرون بالذيوع والشهرة في مجال قراءة الشعر ودرسه، وبقي على ساحة القريض طائفة كبيرة من الشعراء الذين عرفوا بالشعراء المقلِّين، وقد قال هؤلاء من الشعر أحلاه، وصاغوا من النغم أعذبه، وتوزعت أغاريدهم وأنغامهم في المجاميع الأدبية والأمالي والمجالس، وكتب التاريخ والتراجم والبلدان، وموسوعات العلوم، كالتفسير والنحو واللغة والبلاغة.

ولن يستقيم درس الشعر العربي وتبرز صورته واضحة الملامح بيِّنة القسمات إلَّا إذا جمع شعر هؤلاء الشعراء المقلِّين، وأوتي حظه من البحث والتأمل.

وقد نشط إخواننا أدباء العراق هذه الأيام لجمع هذا الشعر وإذاعته في دواوين صغيرة، وعلى الرغم مما شاب عملهم من بعض العجلة والقصور في تخريج الشعر وتوثيقه، فإنه جهد طيب خليق بكل الاحتفال والمؤازرة والاقتداء.

وليت أساتذة الجامعات العربية يغرون تلاميذهم في الدراسات العليا بجمع هذا الشعر ودرسه، وليتجه هذا الجمع إلى البلدان في عصورها المختلفة، فيقال مثلاً: «شعراء مصر في القرن الرابع الهجري»، وهكذا في سائر البلدان العربية على امتداد العصور، ومن أعجب العجب أن ما كتبه أسلافنا لإقامة مثل هذه الدراسات كبير وفير، ولكنه يخفى على كثير ممن يتعاطون الأدب والشعر هذه الأيام، كأنه كتب بلغة غير لغتنا لأمة سوى أمتنا:

فدع عنك نهباً صِيح في حَجَراته ... ولكنْ حديثاً ما حديث الرواحلِ

وأقول: إن بعض هؤلاء الشعراء المقلين عرف بقصيدة واحدة تناقلها الرواة

---

(١) مجلة الشعر، العدد الأول، يناير ٧٦، القاهرة.

وأنشدها المنشدون. ومنهم ابن زريق صاحب القصيدة العينية البديعة التي يسمع المحب فيها رجع أناته، ويحس الغريب منها لذع الغربة يكوي فؤاده ويشده إلى مراتع صباه ومراتع لهوه، ويغذي الصوفي بها مواجيده وأشواقه، ثم يجد فيها قارىء الشعر متعته بما يسري فيها من نغم علوي وإيقاع آسر.

وقد شرَّقت هذه القصيدة وغرَّبت، وعُدَّ حفظها من أسباب الظرف. روى أبو عبد الله الحميدي المتوفى سنة ٤٨٨هـ، عن الإمام أبـي محمد بن حزم، قال: «يقال: من تختم بالعقيق وقرأ لأبـي عمرو وتفقه للشافعي وحفظ قصيدة ابن زريق فقد استكمل الظرف»[١].

وابن زريق صاحب هذه القصيدة هو: أبو الحسن علي بن زريق الكاتب البغدادي، عاش في بغداد ثم رحل إلى الأندلس وبها توفي. ولم أجد له ترجمة تعين تاريخ مولده أو وفاته. ويرى المستشرق الألماني كارل بروكلمان[٢] أنه توفي نحو سنة ٤٢٠هـ، وقد أورد له صلاح الدين الصفدي[٣] ترجمة موجزة جداً، ذكر فيها أنه أنشأ هذه القصيدة في مدح العميد أبـي نصر وزير طغرلبك. وأبو نصر هذا هو: عميد الملك الوزير محمد بن منصور الكندري المتوفى سنة ٤٥٦هـ[٤]، لكن أبا حيان التوحيدي أنشد بيتين من قصيدة ابن زريق لم ينسبهما، وهما قوله:

أستودع الله في بغداد لي قمرا ... بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودعته وبودِّي لو يودعني ... صفو الحياة وإني لا أودعه[٥]

---

(١) الظرف، بفتح الظاء: هو البراعة وذكاء القلب، وقيل: الظرف في اللسان: البلاغة، وفي الوجه: الحسن، وفي القلب: الذكاء.

(٢) تاريخ الأدب العربـي، الملحق ١/ ١٣٣، الطبعة الأوربية، ومعجم المؤلفين، للأستاذ عمر كحالة ٧/ ٩٥.

(٣) الوافي بالوفيات، مصوَّرة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، برقم ٨٦١ تاريخ.

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/ ٢٢٣، تحقيق الشيخ محمد محيـي الدين عبد الحميد، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٥/ ٢٦.

(٥) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ١٦٦، تحقيق الأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين.

وأبو حيان توفي نحو سنة ٤٠٠هـ، فيتطرق الشك إذن إلى أمرين: الأول كون القصيدة قيلت في مدح عميد الملك الذي تأخرت وفاته كثيراً عن وفاة أبي حيان. الثاني: نسبة البيتين لابن زريق. ولما كنا لا نملك ما ندفع به الأمر الأول، برغم أن القصيدة ليس فيها ذكر لعميد الملك، لا من قريب ولا من بعيد، فإن الشك ينحصر في الأمر الثاني، وهو أن البيتين ليسا لابن زريق، ويقوي هذا دليلان: الأول: أن أبا حيان لم ينسب البيتين لقائل، لا لابن زريق ولا لغيره. الثاني: أن أبا منصور الثعالبي[1]، نسبهما مع بيتين يأتيان بعدهما في ترتيب القصيدة إلى الوأواء الدمشقي المتوفى نحو سنة ٣٨٥هـ، والثعالبي حجة فيما يورده، لأنه يسجل أدب عصره، وقد أورد محقق ديوان الوأواء[2] هذه الأبيات الأربعة عن الثعالبي، ووضعها في الزيادات التي ليست بأصل الديوان، ثم ذكر أن الأبيات من قصيدة ابن زريق، وأحال على كتاب «الكشكول» للعاملي.

وإذا صح كلام الثعالبي فيكون ابن زريق قد ضمَّن هذه الأبيات الأربعة قصيدته التي لا شك في نسبتها إليه، أو أن بعض الرواة أقحم الأبيات على القصيدة، لاتفاق القافية والوزن والنفس الشعري.

ولعل مما يتصل بهذه القضية أني وجدت أبياتاً للتهامي المتوفى سنة ٤١٦هـ، شديدة الشبه بأبيات ابن زريق، أوردها أسامة بن منقذ[3]، أولها:

أستودع الله في أرض الحجاز رشا ... في روضة القلب مأواه ومرتعه

ونأتي إلى من أثبت قصيدة ابن زريق، فأول من عرفت: أبو سعد السمعاني المتوفى سنة ٥٦٣هـ، وذكر أبياتاً من القصيدة غير تامة، وبعده: أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤هـ، وذكر من القصيدة عشرة أبيات، وصلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤هـ، وتاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ، وأبو بكر بن حجة

---

(١) يتيمة الدهر ١/ ٢٩٣، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية.

(٢) ديوان الوأواء الدمشقي، ص ٢٧٣، تحقيق الدكتور سامي الدهان، طبعة دمشق.

(٣) المنازل والديار، ص ٢٢٠، تحقيق أخي الأستاذ مصطفى حجازي، ولم ترد هذه الأبيات في ديوان التهامي المطبوع في دمشق.

الحموي المتوفى سنة ٨٣٧هـ، وبهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٣٠١هـ[1]، وهؤلاء الأربعة ذكروا القصيدة كاملة، وانفرد السبكي وابن حجة بإيرادها بسندهما المتصل إلى ابن زريق.

ومما ينبغي التنبه له أن هناك شاعراً آخر في القرن الرابع، عرف أيضاً بابن زريق، وقد ترجم له الثعالبي في اليتيمة، وأورد له شعراً، ولم يذكر له اسماً، إنما ذكره بكنيته، فقال: «أبو محمد بن زريق الكوفي الكاتب»[2]، وأنشد له بيتين في مدح بغداد، في كتابه: «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب»[3]، وأنشد هذين البيتين أيضاً ياقوت الحموي في «معجم البلدان» عند كلامه على بغداد.

وقد أنشد ابن خلكان البيت: أستودع الله في بغداد... إلخ. ثم قال: وهذا البيت لمحمد بن زريق الكاتب الكوفي، من جملة قصيدة طويلة[4].

ومهما يكن من أمر فهذه رائعة ابن زريق، وقبل أن أخلي بينك وبينها، أقول: إن هذه القصيدة ليست كل ما تركه ابن زريق من إنتاج شعري، فقد وجدت له قصيدة جيدة في رثاء ديك، أوردها صلاح الدين الصفدي في كتابه «الوافي بالوفيات» ولعلي

(١) السمعاني في كتابه ذيل تاريخ بغداد، كما حكى عنه السبكي في الموضع الآتي من كتابه الطبقات، وأسامة بن منقذ في كتابه المنازل والديار المذكور من قبل، ص ٣٣، ٣٤، والصفدي في كتابه الوافي بالوفيات الذي مرَّ ذكره، والسبكي في كتابه طبقات الشافعية الكبرى ١/ ٣٠٨ ـ ٣١١، تحقيق أخي الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، وكاتب هذه المقالة، وابن حجة في كتابه ثمرات الأوراق ص ٤٧٥ ـ ٤٧٨، تحقيق الأستاذ الكبير محمد أبو الفضل إبراهيم، والعاملي في كتابه الكشكول ١/ ١١٨ ـ ١٢٠، تصحيح الشيخ طاهر الزاوي، وقد خمس قصيدة ابن زريق هذه طه أفندي أبو بكر، وسمى تخميسه: بث الشجن على عينية أبي الحسن، وطبع هذا التخميس بمطبعة بولاق سنة ١٣١٢، مع كتاب الدر الذي انسجم على لامية العجم، للشيخ سيد بن علي المرصفي، كما جاء في فهرس الأدب بدار الكتب المصرية.

(٢) يتيمة الدهر ٢/ ٢٧٧.

(٣) ثمار القلوب ص ٥١٢، تحقيق الأستاذ الكبير محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٤) وفيات الأعيان ٤/ ٤٢٠، ترجمة موسى بن عبد الملك الأصبهاني، و «أبو محمد» عند الثعالبي جاءت عند ابن خلكان «محمد» كما ترى.

أوفق في نشرها قريباً، ثم ذكر بروكلمان أن له أرجوزة في الأخلاق، مخطوطة في برلين، ومن يدري لعل له أشياء غير هذه وتلك، فكم في الزوايا من خبايا:

[«عَيْنِيَّة ابن زريق»]

لا تعذُليه فإنَّ العَذْلَ يُولِعُهُ ... قد قلت حقاً ولكن ليس يَسمَعُهُ[1]

جاوَزْت في لومِه حَدّاً أضرَّ به ... من حيثُ قَدَّرت أن اللومَ يَنفعُه

فاستعملي الرِّفق في تأنيبِه بَدَلا ... من عَذلِه فهو مُضنى القلب مُوجَعُه

قد كان مضطلِعاً بالبَيْن يحْملهُ ... فضُلِّعت بخطوبِ البين أضلعُهُ[2]

يكفيهِ من لوعةِ التفنيد أنَّ لَه ... من النَّوَى كلَّ يوم ما يُروِّعُه[3]

ما آب من سَفَر إلا وأزْعَجَهُ ... رأيٌ إلى سَفَر بالعَزم يجمعُهُ

كأنما هو من حَل ومُرتَحل ... مُوكل بفضاء الأرضِ يذرعُه[4]

إذا الزَّماع أراه في الرحيلِ غِنىً ... ولو إلى السِّنْد أضْحى وهو يزمعه[5]

تأبَى المطامعُ إلا أن تُجَشِّمَه ... للرزقِ كَدا وكم مِمن يُودِّعه

وما مُجاهَدة الإنسانِ واصِلةً ... رِزقاً ولا دَعَةُ الإنسان تقْطعُه

واللَّهُ قَسَّمَ بينَ الخلقِ رزقهمُ ... لم يخلق اللَّهُ مَخلوقاً يُضيِّعُه

لكنهم مُلِئوا حِرصاً فلستَ تَرى ... مستَرزِقاً وسوى الغايات تُقْنعُهُ

والحرصُ في الرزقِ والأرزاق قد قُسمت ... بَغْيٌ ألا إن بَغيَ المرءِ يَصرعُهُ

والدهرُ يُعطي الفَتى ما ليس يطلبُه ... يوماً ويُطمعه من حيثُ يمنَعُهُ

أستودع الله في بغدادَ لي قَمراً ... بالكَرْخ من فَلَك الأزْرارِ مطلعُهُ

---

(١) أشير هنا إلى أن هناك بعض اختلاف في رواية أبيات القصيدة، فمن أراده فليطلبه فيما ذكرت من مراجع.

(٢) ضلعت: أي أثقلت وتكسرت، يقال: داهية مضلعة: أي تثقل الأضلاع وتكسرها.

(٣) التفنيد: اللوم وتضعيف الرأي، وفي التنزيل العزيز، حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾، قال الفراء: يقول: تكذبون وتعجزون وتضعفون. معاني القرآن ٢/ ٥٥.

(٤) الحل: نقيض الارتحال، وهو بفتح الحاء، وكثير من الناس ينطقه بكسر الحاء، وهو خطأ.

(٥) الزماع، بفتح الزاي وكسرها: المضاء في الأمر والعزم عليه.

ودَّعته وبُودِّي لو يودِّعني ... صَفو الحياةِ وأنِّي لا أودعُهُ

وكم تشفَّع بي ألاَّ أفارِقَهُ ... وللضرورات حال لا تشفِّعه

وكم تشبَّث بي يومَ الرحيلِ ضحى ... وأدمعي مُستهلاَّت وأدْمُعُه

لا أكذِبُ اللَّهَ: ثوبُ العذرِ منخزق ... عنِّي بفُرقته لكن أرقِّعُه

إني أوسِّع عُذْري في جنايته ... بالبينِ عنهُ وقلبي لا يُوسِّعه

أعطيتُ ملكاً فلم أحسن سياسَته ... وكل من لا يَسوس الملكَ يُخلعه

ومن غَدا لابساً ثوبَ النعيم بِلاَ ... شكرٍ عليه فعنهُ اللَّهَ يَنْزِعُهُ

اعتضتُ من وجهِ خِلِّي بعدَ فُرقَتِه ... كأساً تجرَّع منها ما أجرَّعُه

كما قائل ليَ ذُقْتَ البينَ قُلتُ لَهُ ... الذنب واللَّهِ ذَنبي لستُ أدفعُه

ألا أقمت فكان الرشدُ أجمَعه ... لو أنني يومَ بان الرشد أتبعُه

إني لأقطعُ أيامي وأنفذُها ... بحسرة منه في قلبي تقطِّعه

بمَنْ إذا هَجَع النوامُ بِت له ... بلوعةٍ منه ليلي لست أهجعُه

لا يطمئن بجنبي مضجع وكذا ... لا يطمئن له مُذ بنت مَضجعه

ما كنت أحسَب ريْبَ الدهرِ يفجعني ... به ولا أنَّ بي الأيامَ تفجعُه

حتى جَرَى البينُ فيما بيننا بَيَد ... عَسْراء تمنعُني حظي وتمنعُه

وكنتُ من ريب دهري جازعاً فَرِقاً ... فلم أوَقَّ الذي قد كنت أجزَعُهُ

باللَّه يا منزل الأنسِ الذي درسَتْ ... آثارُه وعَفتْ مذ بنت أربعه

هل الزمان معيدَ فيكَ لذَّتنا ... أم الليالي التي أمضته ترجعه

في ذمةِ اللَّهِ من أصبحتَ منزله ... وجاد غيث على مغناكَ يُسرعُه

من عنده لي عهد لا يُضيعُه ... كما لَه عهدُ صِدْقٍ لا أضيِّعه

ومن يُصدِّع قلبي ذكرُه وإذا ... جَرَى على قلبه ذِكْري يُصدِّعه

لأصبِرنَّ لِدهر لا يُمتِّعني ... به ولا بيَ في حال يُمتعُه

علماً بأن اصطباري مُعْقب فَرَجاً ... فأضيقُ الأمر إن فكرت أوسعه

عَسى الليالي التي أضنَت بفرْقَتِنا ... جسمي ستجمعُني يوماً وتجمعُه

وإن تغُلْ أحداً منا مَنيتُه ... فما الذي بقضاءِ اللَّهِ يَصنعهُ

* * *

التحقيق[1]

تحقيق النصوص علم له قوانينه وأعرافه ومصطلحاته وأدواته، وله جانبان: جانب الصنعة، وجانب العلم.

فأما جانب الصنعة: فهو ما يتصل بجميع النسخ المخطوطة للكتاب المراد تحقيقه، والموازنة بينها واختيار النسخة الأم أو الأصل كما سنعرض له فيما بعد ــ ثم ما يكون بعد ذلك من توثيق عنوان المخطوط واسم المؤلف، ونسبة المخطوط إليه، ونسخه والتعليق عليه، وتخريج شواهده وتوثيق نقوله وصنع الفهارس الفنية اللازمة، فهذا كله جانب الصنعة الذي يستوي فيه الناس جميعاً، ولا يكاد يفضل أحد أحداً فيه، إلا بما يكون من الوفاء بهذه النقاط أو التقصير فيها.

وأما جانب العلم في تحقيق النصوص: فهو الغاية التي ليس وراءها غاية، وهو المطلب الكبير الذي ينبغي أن تصرف إليه الهمم، وتبذل فيه الجهود، ولاء لهذا التراث العريق، وكشفاً لمسيرتنا الفكرية عبر هذه الأزمان المتطاولة.

وتلخيص هذا الجانب الآن في هذه المحاضرة المحدودة عسر كل العسر، والتدليل عليه لا يكون إلا بالنظر في أعمال المحققين الأثبات، وقراءة حواشيهم، وسترون أن هؤلاء المحققين العلماء دائرون في قضايا العربية كلها التي يدور حولها النص، أصالة أو استطراداً، ثم تأملوا جريدة مراجعهم وستجدون أنها تكاد تغطي

---

(١) مجلة فن تحقيق التراث، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

المكتبة العربية كلها، فعدة المحقق هي الكتب في كل فن، لأنه في كل خطوة يخطوها مع النص مطالب بتوثيق كل نقل، وتحرير كل قضية، بل إن المحقق الجاد قد يبذل جهداً مضنياً لا يظهر في حاشية أو تعليق، وذلك حين يريد الاطمئنان إلى سلامة النص واتساقه، ولا يشفع له إذا كبا أو تعثر أنه متخصص في النحو فقط، أو في البلاغة فقط، فلا بد أن يكون على صلة باللغة والنحو والتفسير والحديث ــ متناً وسنداً ــ وعلم الكلام، والأصول والفقه، والأدب والبلاغة والعروض والتاريخ والبلدان (الجغرافيا) وسائر فروع العلم، إن لم يكن من طريق الإلمام الكامل ــ وهذا شاق بلا ريب ــ فمن طريق الأنس بكتب هذه الفنون، والدُّربة على التعامل معها والإفادة منها، ومعرفة مظنة العلم نصف العلم.

وعلى ذلك فإن طالب الدراسات العليا حين يحقق نصاً تراثياً على هذا النحو، إنما يقدم مادة علمية محررة، تقوم عليها دراسات الدارسين، فلا دراسة صحيحة مع غياب النص الصحيح المحرَّر. وكم رأينا من دراسات انتهت إلى نتائج غير صحيحة، لأنها اتكأت على نصوص محرفة، وأوضح ما نرى هذا في الدراسات الشعرية التي قامت على دواوين شعرية غير محققة.

والتحقيق في اللغة: التصديق أو قول الحق، والإحقاق: الإثبات، يقال: أحققت الأمر إحقاقاً: أي أثبته وأحكمته وصححته. والجاحظ يسمي العلماء الأثبات: العلماء المحقين. (رسالة فصل العداوة والحسد ــ رسائل الجاحظ ١/ ٣٣٩)، والشريف الرضي يسمِّيهم «العلماء المحققين» (حقائق التأويل ص ٢٠).

والتحقيق في اصطلاح نشر التراث: «هو أن يؤدَّى الكتاب أداءً صادقاً كما وضعه مؤلفه كماً وكيفاً بقدر الإمكان»، والكتاب المحقق: «هو الذي صح عنوانه واسم مؤلفه ونسبة الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه».

ولتحقيق هذه الغاية لا بد من إجراءات علمية تدور على النقاط التالية:

١ ــ تحقيق عنوان الكتاب.

٢ ــ تحقيق اسم المؤلف.

٣ ــ تحقيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه.

٤ ــ تحقيق متن الكتاب حتى يظهر بقدر الإمكان مقارباً لنص مؤلفه.

والخطوة الأولى في تحقيق الكتاب هي: جمع قدر معقول من مخطوطاته، والموازنة بين نسخ هذه المخطوطات لاختيار النسخة الأصل أو النسخة الأم، والنسخ المساعدة، ويتم اختيار هذه النسخة الأصل وفق معايير معينة، هي على هذا الترتيب:

١ ــ أن تكون النسخة بخط المؤلف، أو تكون من إملائه على أحد تلاميذه، أو تكون قد سمعت عليه، أو أجاز روايتها عنه، على أن يثبت في أول النسخة أو آخرها ما يدل على ذلك.

٢ ــ أن تكون النسخة مأخوذة عن النسخة السابقة التي هي الأصل، أو تكون فرع فرعها.

٣ ــ إذا فقدت نسخة المؤلف أو النسخة المنقولة عنها ــ وهي فرعها أو فرع فرعها ــ فيكون المعيار العام في تفضيل نسخة على أخرى هو قِدم تاريخ النسخ، وقربه من عصر المؤلف، مع سلامة المتن وصحة النسخ.

ويدور عمل المحقق بعد أن ينسخ الكتاب من الأصل المخطوط الذي اختاره وارتضاه، وبعد المقابلة على النسخ الأخرى، على جملة من التعليقات، هي:

١ ــ ذكر فروق النسخ، ولا يذكر من هذه الفروق إلا ما له وجه ومعنى.

٢ ــ تخريج النصوص (قرآن ــ حديث ــ شعر ــ مثل). وتخريج النصوص هو الدلالة على مواضعها في مصادرها.

٣ ــ توثيق النقول التي صرح المؤلف بنسبتها إلى أصحابها، أو التي سكت عنها، ثم عرف المحقق أصولها وأصحابها.

٤ ــ التعريف بالأعلام والأماكن، ولا يعرف منهما إلا ما كان مجهولاً أو قليل الشهرة.

٥ ــ الشروح اللغوية للألفاظ الغريبة، ويتصل بها شرح المصطلحات، والإشارات التاريخية.

وواضح أن تعليقات المحقق التي تقوم على هذه النقاط الخمس، ينبغي أن تكون في دائرة إضاءة النص وتوضيحه فقط، فلا يصح أن يتوسع فيها حتى تخرج إلى التفسير الكامل، فتحقيق النصوص ليس شرحاً لها.

ويسبق هذا العمل عمل ويقفوه عمل، فأما الذي يسبقه فهو ترجمة لمؤلف الكتاب، على المنهج المعروف عند أئمة التحقيق، ثم حديث عن الكتاب المحقق، ومكانه في الفن الذي يدور حوله، تأثراً وتأثيراً، ثم مكانة الكتاب في المكتبة العربية على وجه العموم.

وأما الذي يقفوه فهو فهارس فنية تكشف عن كنوز الكتاب وفوائده، وتجرى هذه الفهارس على النحو الذي عرف عند شيوخ صنعة التحقيق.

ويستعمل مصطلح التحقيق مرادفاً لمصطلح «التصحيح» أو «النشر»، وفي بداية الطباعة العربية لم يعرف هذا المصطلح «التحقيق»، ولعل أول من استعمله ووضعه على صدر الكتب التي نشرها هو: أحمد زكي باشا، شيخ العروبة، المتوفى سنة ١٣٥٣هـ ــ ١٩٣٤م، وذلك فيما نشره من هذه الكتب:

الأصنام، لابن الكلبي ١٣٣٢هـ ــ ١٩١٤م، والتاج في أخلاق الملوك، المنسوب للجاحظ، في السنة نفسها، وأنساب الخيل، لابن الكلبي، الذي طبع بعد وفاته سنة ١٣٦٥هـ ــ ١٩٤٦م.

وقد مرَّ تحقيق التراث أو نشره في الديار المصرية بأربع مراحل:

المرحلة الأولى:

مطبعة بولاق والمطابع الأهلية. وفي هذه المرحلة نشرت النصوص التراثية

فقط خالية من دراسة الكتاب وترجمة مؤلفه وذكر مخطوطاته وفهرسته، لكن النشر في تلك المرحلة اتسم بالدقة المتناهية والتحرير الكامل، وكان يقوم على التصحيح (التحقيق) فئة من أهل العلم، يأتي على رأسهم الشيخ نصر الهوريني، والشيخ محمد بن عبد الرحمن، المعروف بقطة العدوي، كما شمل النشر في تلك المرحلة أصول التراث العربـي كله، دون تحيز إلى مذهب أو اتجاه.

المرحلة الثانية:

عنيت هذه المرحلة إلى حد ما بجمع النسخ المخطوطة للكتاب المراد نشره، وذكر ترجمة المؤلف، وبعض الفهارس، وتعرف هذه المرحلة بهذه الأسماء: محمد أمين الخانجي، ومحب الدين الخطيب، ومحمد منير الدمشقي، وحسام الدين القدسي.

المرحلة الثالثة:

مرحلة دار الكتب المصرية. وفي هذه المرحلة أخذ تحقيق الكتب ونشرها يتجه إلى النضج والكمال، من حيث جمع النسخ المخطوطة من مكتبات العالم، وإضاءة النصوص ببعض التعليقات والشروح، وصنع الفهارس التحليلية الكاشفة لكنوز الكتب، وما يسبق ذلك كله من التقديم للكتاب وبيان مكانه في المكتبة العربية.

وقد تأثر هذا المنهج إلى حد ما بمناهج المستشرقين الذين نشطوا إلى نشر تراثنا وإذاعته من القرن الثامن عشر الميلادي. وقد وقف على رأس هذه المرحلة أحمد زكي باشا، شيخ العروبة.

المرحلة الرابعة:

مرحلة الأفذاذ من الرجال، وهي مرحلة الأعلام: أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، والسيد أحمد صقر. وقد دخل هؤلاء الرجال ميدان التحقيق والنشر مزوَّدين بزاد قوي من علم الأوائل وتجاربهم،

ومدفوعين بروح عربية إسلامية عارمة، استهدفت إذاعة النصوص الدالة على عظمة التراث، الكاشفة عن نواحي الجلال والكمال فيه. ومن أعظم آثار هذه المرحلة تحقيق هذه الكتب العالية: الرسالة، للشافعي، وطبقات فحول الشعراء، لابن سلام، والبيان والتبيين، والحيوان، للجاحظ، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، وإعجاز القرآن للباقلاني. وقد أثرت هذه المرحلة تأثيراً كبيراً، في كل مكان نشر فيه تراث عربـي.

وفـي العقـود الأربعـة الأخيـرة أفسحـت الجـامعـات العـربيـة صـدرهـا لتحقيـق المخطوطات سبيلاً للحصول على الشهادات الجامعية العليا (ماجستير ــ دكتوراه)، لكن الجامعات العربية حين فعلت ذلك لم تزود الطالب بما يعينه على تحقيق ذلك النص، من معرفة لمناهج التحقيق، وقراءة المخطوطات المشرقية والمغربية، وتوثيق النقول وتخريج الشواهد، وصنع الفهارس، وحدود التعليق على النص، والتقديم له، ثم الوقوف على أمهات المراجع العربية، في فنون التراث المختلفة، ومعرفة التعامل معها، والإفادة منها.

وكان مأمولاً أن تثمر تلك الجهود التي بدأها شيخنا عبد السلام هارون رحمـه الله، فـي دار العلـوم، والأستـاذ مصطفـى جـواد رحمـه الله، فـي كليـة الآداب بجامعة بغداد، تلك الجهود التي استهدفت تعريف الطلاب بفن تحقيق النصوص ومناهجه، من واقع تجارب الشيخين، ولكن تلك الجهود، لم تتم ولم يكتب لها الشيوع. ولم تبق إلا تلك الإشارات العاجلة الخاطفة عن تحقيق النصوص، والتي تجيء في ثنايا مادة «مناهج البحث» التي تدرس للطلبة في السنة المنهجية المؤهلة للدراسات العليا، ومعظمهما مما يسقط إلى أساتذة هذه المادة من الترجمات الغربية، ومن منظور استشراقي بحت. فلم يجد الطالب الذي يتصدى لتحقيق نص سبيلاً أمامه إلا أن يركض هنا وهناك، ويتخبط بين منهج ومنهج ولا يخرج بشيء، لأنه دخل بغير شيء.

وقد كان موقف بعض الجامعات العربية من تحقيق النصوص، موقفاً غريباً

متناقضاً، فهي قد قبلته طريقاً للحصول على الماجستير والدكتوراه، ثم رفضته في أعمال الترقيات العلمية (يحلُّونه عاماً ويحرِّمونه عامّاً) ـ . وليست الترقية العلمية أشد خطراً من إجازة الدكتوراه. وكانت حجة الرافضين أن تحقيق النصوص قد اتخذ مركباً سهلاً. وهذا حق، ولكن ما هكذا تكون الأحكام عامة مطلقة، والأولى أن يقال: إن تحقيق النصوص عمل من الأعمال العلمية، جيِّده جيِّد، ورديئه رديء.

ومهما يكن من أمر: فقد كانت مشاركة الجامعات العربية في تحقيق النصوص سبيلاً لإظهار بعض النصوص التي لا يقبل عليها الناشرون كثيراً، ولا يهتمون بها، لأنها لا تحقِّق ربحاً، لقلَّة جمهورها من القراء.

والله أعلم.

* * *

محمد مرسي الخولي.. والبنيان الذي تهدَّم(١)

جاء نعيه من القاهرة، فلفَّني حزن أسود كئيب، وغشي نفسي ما غشاها، ثم استرجعت وسألت ربي أن يُذهب عني ما أجد، من الجزع المردي، والأسى الماحق؛ فإن فقد الأحباب مما يكوي الفؤاد، ويهد النفس هدّاً! وسبحان من تفرد بالبقاء.

لقد كان محمد مرسي الخولي آخر حارس من حراس معهد المخطوطات، هذا الصرح الشامخ الباذخ، الذي قدم للتراث الإسلامي والعربي الكثير.

إن من أوجب الواجبات أن يكتب تاريخ هذا المعهد، الذي صان التراث وجمعه وحفظه، وإنه من حق الأجيال أن تعرف تاريخ أبنائها الأبرار، الذين عرفوا لتراثهم حقه من الإجلال والتكرمة.

نعم من حق الأجيال أن تعرف ماذا صنع: أحمد أمين، ويوسف العش، ومحمد بن تاويت الطنجي، وصلاح الدين المنجد، وعبد الحليم النجار، وخليل عساكر، وعبد العزيز الأهواني، وفؤاد سيد، ورشاد عبد المطلب، وحمد الجاسر، وخير الدين الزركلي، ثم عبد الفتاح الحلو، ومحمد مرسي الخولي. رحم الله من مضى، وأطال عمر من بقي، وعسى ألا يكون سقط علي من أسماء هؤلاء الرواد أحد؛ فإني أتكلم عن هؤلاء الذين عملوا في دائرة معهد المخطوطات، وظيفة فيه، أو قرباً منه، أو دعماً له.

لقد أنشىء معهد المخطوطات، منذ نحو خمسة وثلاثين عاماً، تابعاً للإدارة

---

(١) صحيفة «المدينة المنورة» بالمملكة العربية السعودية، العدد ٥٥٠٥، بتاريخ ٢٠ من جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ.

الثقافية بجامعة الدول العربية بالقاهرة، وقد كان يحدو المنشئين له، والقائمين عليه، غرض نبيل: وهو تلمس المخطوطات العربية في مظانها، وتصويرها، ثم فهرستها، ووضعها أمام الدارسين.

وقد رسم معهد المخطوطات لنفسه منهجاً دقيقاً، فأقام لجنة عكفت على موسوعة «بروكلمان» العظيمة «تاريخ الأدب العربي» واستخرجت نفائس المخطوطات، وأسماء المكتبات التي تحتفظ بها، وكان من أعضاء هذه اللجنة أستاذنا الكبير الدكتور خليل عساكر، والمرحوم الدكتور عبد الحليم النجار، وهما من هما في فقه العربية والألمانية، والدكتور عبد الحليم رحمه الله، كان من فضلاء هذا الزمان، وهو مترجم كتاب «العربية» ليوهان فك، وقد ترجم، أيضاً، للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، الأجزاء الثلاثة الأولى من «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان، ثم أعجلته المنية عن إتمامه، وهو أيضاً شقيق الشيخ محمد علي النجار، الذي كان يقال له: سيبويه العصر، وهو محقق «الخصائص» لابن جني، وقد أخبرني المرحوم فؤاد سيد ــ وكان مخالطاً للرجلين ــ أن معرفة الدكتور عبد الحليم بالنحو العربي قد تفوق معرفة أخيه، على جلالة قدره.

تنبيه: «ما أكتبه عن تاريخ معهد المخطوطات إنما أكتبه عن قرب ومعايشة؛ لأني قد عملت فيه نحو خمس عشرة سنة، لكن أستاذي الكبير الدكتور خليل عساكر أخبرني أن الذي اشترك معه في لجنة «بروكلمان» هو الدكتور عبد العزيز الأهواني، رحمه الله، وكان هذا من رواد الدراسات الأندلسية في العالم العربي».

وأعود إلى ما كنت آخذاً فيه، فأقول:

انصرف رجال معهد المخطوطات إلى عملهم الجاد في صمت وصبر، وكان المقابل المادي زهيداً جداً، وإن تعجب فعجب أن الواحد منا، الآن، يكتب صفحتين اثنتين، أو يذيع حديثاً مدته عشر دقائق عن التراث، ويتقاضى عن هذا وذاك ما كان يتقاضاه هؤلاء الأعلام في شهور! وسبحان من قدر الأرزاق، وقسم الحظوظ:

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ... ولكنْ أحاظٍ قسِّمت وجدودُ

انطلقت بعثات معهد المخطوطات إلى أماكن وجودها، فصورت نفائس مخطوطات الهند، وتركيا، والقدس، والشام، والمغرب، والمملكة العربية السعودية، واليمن، وسائر البلدان العربية، ثم ما أتيح لها من مكتبات أوروبا وأمريكا، وصورت نوادر مكتبات القاهرة: دار الكتب المصرية، والمكتبة الأزهرية، والبلدية بالإسكندرية، وسوهاج، ودمياط وطنطا.

ثم صبَّت كل ذلك في مكتبة المعهد بالقاهرة، وقدمت للدارسين زاداً طيباً، انتفع به المخلصون، وربح منه الرابحون. وحين أفسحت الجامعات العربية صدرها لتحقيق التراث، حصولاً على شهاداتها العليا، كان معهد المخطوطات ملجأ وملاذاً، فزع إليه الدارسون، فأمدهم بالأصول، ودلهم على المراجع، وربط بينهم وبين الهيئات العلمية خارج مصر.

وفي السنوات الأخيرة كاد عمل موظفي معهد المخطوطات يخلص لخدمة طلاب الدراسات العليا، وقد ذكرهم من ذكر، ونسيهم من نسي، وعند الله في ذلك الجزاء.

ولقد كان محمد مرسي الخولي واحداً من هذا النفر الكريم الذين أخلصوا لمعهد المخطوطات، وقدموا للمتردِّدين عليه أجل الخدمات.

تخرَّج، رحمه الله، في كلية اللغة العربية من كليات الأزهر الشريف، وبعد تخرجه عمل مصححاً بدار المعارف بمصر، وهناك أشرف على كثير من مطبوعات «سلسلة ذخائر العرب».

وتصحيح الكتب كان ولا يزال المدرسة الأصيلة لتخريج العلماء، وفي هذه المدرسة تخرج الأخوان الفاضلان الدكتور عبد الفتاح الحلو، والدكتور مصطفى عبد الواحد؛ فقد عملا زماناً بمطبعة عيسى البابي الحلبي، هذه الدار العريقة في نشر الكتب، وقد صحح الأخوان كثيراً من كتب التراث كانت لهما عدة وعتاداً فيما استقبلاه، بعد ذلك، من أعمال.

وفي دار المعارف، حيث عمل الفقيد العزيز، وقعت عليه عين فاحصة، هي عين الدكتور صلاح الدين المنجد، مدير معهد المخطوطات آنذاك ــ ولهذا الرجل أثر بارز في تاريخ المعهد ــ وقد التقطه الدكتور المنجد ليكون له عوناً وسنداً، فيما كان يرومه وينشده من أعمال المعهد.

وصار محمد مرسي الخولي عضواً نشطاً في معهد المخطوطات، وشارك في مختلف أعماله: مفهرساً لمصوراته، ودليلاً لزائريه، ومصححاً لمطبوعاته، ومحرراً لمجلته، ومسؤولاً عن نشرته، وموفداً في بعثاته.

وكان، رحمه الله، حلو الشمائل، رقيق الطبع، مرهف الحس، ولم يكن يضيق بالزائرين، على كثرتهم وإزعاج بعضهم، ولقد كان من قضاء الله عليه أن داهمته علتان منهكتان، واستبد به داءان عُضالان: القلب والربو، ولقد قاسى منهما كثيراً، وفي سنواته الأخيرة عرض عليه رؤساؤه أن يخلد إلى الراحة غير مقطوع عنه رزقه، ولا مسلوب منه حقه، ولكنه رفض، وظل متشبثاً بموقعه في معهد المخطوطات يفيد ويدل، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومن عجيب أمره ــ رحمه الله ــ أنه كان مع اشتداد العلة، وتفاقم الداء، متيقظ الحس، مشبوب الذاكرة، لم يسقط عليه شيء من كنوز المعهد، ما فهرس من هذه الكنوز، وما لم يفهرس، ولقد أخبرني من نعاه إلى أنه رآه في المعهد قبل موته بيوم واحد.

وقد حصل الفقيد، رحمه الله، على درجتي «الماجستير» و «الدكتوراه» من كلية اللغة العربية، وكانت أطروحته الأولى: تحقيق ديوان أبي الفتح البستي، وكانت الثانية: تحقيق الجزء الأول من كتاب «الجليس والأنيس» للمعافى بن زكريا الحريري، وقد أشار إليه العلامة الزِّركلي في الأعلام ٧/ ٢٦٠ «الطبعة الرابعة».

ثم كان له نشاط في تحقيق الكتب ونشرها، فمن ذلك:

١ ــ بهجة المُجالس وأنس المجالس ــ للحافظ ابن عبد البر، صاحب الاستيعاب، طبع في جزئين، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢ ــ أخبار الأذكياء ــ للحافظ أبـي الفرج بن الجوزي، نشر مؤسسة الأهرام بمصر.

٣ ــ الجزء الأول من محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ــ لابن عربـي، نشر مؤسسة الأهرام بمصر ــ أيضاً.

٤ ــ البرصان والعرجان ــ للجاحظ، نشر دار الاعتصام بمصر.

٥ ــ ديوان أبـي الفتح البستي ــ تحقيق؛ وهو أطروحته للماجستير، كما سبق، نشر ببيروت.

هذا إلى بعض المقالات والنصوص الصغيرة المحققة التي نشرها بمجلة المعهد.

رحمك الله أيها الأخ الصادق الإخاء، وجزاك خير ما يجزي به عباده المخلصين.

وبعد:

فقد رحل رشاد عبد المطلب، ورحل بعده محمد مرسي الخولي، ثم خرج عبد الفتاح الحلو ــ أطال الله بقاءه ــ وخرج معه من خرج، فهل نقول: إن بنيان معهد المخطوطات قد تهدم؟

نسأل الله أن يقيل المعهد عثرته ــ في أي مكان وجد ــ وأن يهيىء له من يواصل المسيرة التي تكاد تتعثر، ويقيم البنيان الذي يريد أن ينتقض، ورحمة ربنا وسعت كل شيء، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

صيحة من أجل اللغة العربية[1]:
هل يتحول التراث العربي إلى ألغاز وطلاسم؟!

لم يعد خافياً على أحد ذلك التدني الذي وصل إليه خريجو أقسام اللغة العربية في جامعاتنا خلال العقود الأخيرة، وهؤلاء الخريجون هم الذين يتولون تعليم أولادنا في المدراس، وهم أيضاً الذين يسمعوننا الكلمة العربية من خلال الإذاعة والتلفزيون، ولو ترك الأمر على ما هو عليه الآن فالله وحده هو الذي يعلم أبعاد الكارثة التي ستطبق على هذه الأمة، ونخشى أن تغشانا طوارقها ذات يوم وقد استحال تراثنا الذي ضَنِيَ به الأوائل خلال أربعة عشر قرناً من الزمان: ألغازاً وطِلَّسمات، كالذي تراه على جدران المقابر والمعابد ولفائف البردي، رموزاً قديمة تخفى على جمهرة الناس، ولا يعقلها إلا العالمون، ويومها سنقول:

استعجمت دار مي ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار

وها هي نذر الفتنة قد أطلت برأسها، فلن يستطيع أحد مهما غلا في تقدير كليته أو معهده أن يزعم أن طالباً متخرجاً في هذا المعهد أو تلك الكلية يستطيع الآن أن يقرأ سطراً من كتاب سيبويه، فضلاً عن أن يفهمه أو يحل رموزه، وإذا لم يستطع خرِّيج كلية تعنى باللغة العربية وآدابها أن يقرأ سيبويه، فمن ذا الذي يقرأه؟ وإذا لم يقرأه في سني دراسته فمتى يقرأه؟

إن الأخطاء اللغوية والنحْوية صارت تأخذ علينا الطرق وتأتينا من كل مكان؛

---

(١) مجلة «الهلال»، سبتمبر ١٩٩٠م.

وهي أخطاء بشعة مفزعة تشمل كل شيء: من الأخطاء في أبنية الأسماء وأبنية الأفعال ومخارج الحروف وصفاتها، وأسماء الأعلام والكنى والألقاب والأنساب، ولا تسأل عن غياب العلامة الإعرابية أو التخليط فيها، وقد كنت عنيت يوماً برصد هذه الأخطاء وتحليلها، ولكني رأيت الأمر قد اتسع اتساعاً عظيماً، وتشعب تشعباً مفزعاً، وأصبحت أنا وهذه الأخطاء كالذي قاله الأول:

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

وإن أبناءنا وبناتنا في معاهد العلم ليأتوننا كل يوم بكل غريبة وعجيبة من معلميهم ومعلماتهم، وكلما رتقت فتقاً تخرَّق عليك آخر، وكلما سددت ثلمة انفتحت أمامك أخوات لها أوسع وأبشع.

والسوأة السواء في تلاوة القرآن العزيز، فقد استعجم كلام ربنا عز وجل على ألسنة معلمي المدارس، وصاروا يتلونه على تلاميذهم محرفاً ومزالاً عن جهته، ثم أصبحت تسمعه من بعض المذيعين والمذيعات كذلك مغلوطاً ملحوناً. وهذه هي المصيبة التي تتضاءل دونها كل مصيبة، وهذا هو الخطر الماحق الذي يجب أن نقف جميعاً أمامه ندرأه وندفعه، فإن القضية بهذه المثابة قد صارت ديناً يغتال وشريعة تنتهك، ولا بد أن يقول فيها كل غيور على دين الله كلمته، لا يتتعتع ولا يتلجلج، لا يفزعه سخط الساخط، ولا يخيفه سلطان هؤلاء الذين يظنون أن بيدهم إغلاق الأبواب وفتحها، وقد قال سيدنا رسول الله ﷺ: «ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه».

عود على بدء:

ولقد تابعت هذه القضية منذ زمان بعيد، ورأيت أهل العلم يردونها إلى أسباب كثيرة، على أني لم أرَ من وضع يده على أصل البلاء ومكمن الداء إلا قارئاً كريماً هو الأستاذ طارق البوهي ـ بكَفْرِ الشيخ ـ . وقد علمت فيما بعد أنه من رجال التربية، وقد جاء رأيه هذا في سطر واحد منشور في باب (مجرد رأي) بجريدة الأهرام قال: «لا يجب أن نقسو كثيراً على الشباب، فهم نتاج البذور التي ألقيت والتعليم الذي

أعطي لهم ومجالات الثقافة التي تلقوها». وهذا رجل صادق، عرف الحق فقاله، ولم يضيع نفسه ويضيعنا في متاهات التفلسف والتنظير واللف والدوران.

ثم إنه أحسن الله إليه قد وضع القضية في حاق موضعها: ماذا يتلقى طالب العربية الآن في كليات اللغة العربية وأقسامها بالجامعات؟ أمشاج من قواعد النحو والصرف مطروحة في مذكرات يمليها الأساتذة إملاء أو يطبعونها طبعات تزيد عاماً وتنقص عاماً، واختفى الكتاب القديم لتحل محله هذه المذكرات والمختصرات، ودفع الطلاب دفعاً إلى الملل من قراءة الكتب، و «المللُ من كواذب الأخلاق» كما قال عمرو بن العاص رضي الله عنه.

إن هجر الكتاب القديم ـ وهو وعاء العلم ومستودع التراث ـ والاستعاضة عنه بالمذكرات والمختصرات، قد حجب عن هذا الجيل كوى النور، وحلأهم عن موارد العلم... وكان من أخطر الأمور ردُّ ذلك إلى التيسير والتسهيل والتخفيف على الناشئة، ولقد مضينا في التيسير والتسهيل خطوات وخطوات حتى انتهينا إلى هذا الذي نشكو منه ونضيق به، ونسأل الله السلامة منه.

على أن تيسير النحو قد سلك دروباً مظلمة، فليس من التسهيل والتيسير أن تدع «زيداً وعمراً» في التمثيل لتقول: «سمير وأشرف»، وليس من التسهيل والتيسير أن تترك التمثيل على القاعدة النحوية بالشاهد القرآني والحديثي وأشعار العرب وأمثالها لتكتب قصة متكلفة عن نزهة في القناطر الخيرية، أو زيارة إلى أهرامات الجيزة، أو حكاية عن الفلاح في الحقل، لتستخرج من كل ذلك شواهدك على القاعدة النحوية والصرفية.

وليس يشك عاقل في أن التمثيل لتقدم المفعول على الفاعل بمثل: «قطف الوردة طفل» ليس في قوة الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وقوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ [الحج: ٣٧]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:

٢٨]، وقوله ﷺ في الحديث السابق: «ألا لا يمنعن رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه»، وقول جرير:

جاء الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربَّه موسى على قدر

فأنت مع المثال الأول أمام تركيب تمثلت فيه القاعدة النحوية، لكنه كالتمثال الأصم، فاز من الوسامة والقسامة بأوفر الحظ والنصيب، ولكنه تمثال جامد فاقد الحركة والنطق. أما مع الأمثلة القرآنية والحديثية والشعرية فأنت أمام نماذج تتنغَّش بالحياة وتمور بالحركة، مع ما تعطيه من أنس وخبرة بالأبنية والتراكيب العربية. ومن هنا احتلت الشواهد التراثية في تقعيد النحو مكانة عالية.

على أنه ينبغي أن يكون واضحاً أن فكرة التيسير على الناشئة كانت ظاهرة بينة في فكر النحاة الأوائل رضوان الله عليهم: فابن السراج المتوفى ٣١٦هـ يؤلف كتاباً كبيراً في النحو هو «الأصول» ثم يضع إلى جانبه مؤلفاً صغيراً جداً هو «الموجز»، وأبو علي الفارسي ٣٧٧هـ يؤلف «الإيضاح» وهو متن صغير سهل العبارة إلى جانب كتبه الكبار: التذكرة والشعر والحجة والشيرازيات... وغلامه ابن جني العظيم ــ كما كان يصفه أستاذنا الطيِّب الدكتور كمال بشر أطال الله في النعمة بقاءه ــ يؤلف بجانب الخصائص والمنصف وسر صناعة الإعراب والمحتسب رسائل موجزة في النحو والصرف، مثل اللمع والملوكي في التصريف.

وأبو القاسم الزجاجي ٣٤٠هـ يصنف كتاباً في الفكر النحوي هو «الإيضاح في علل النحو» ثم يؤلف للناشئة كتابه الشهير «الجمل»، وهو كتاب سهل رهو، وقد جاء عنوانه في الأصل المخطوط هكذا: «كتاب الجمل في النحو... اختصار أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي» أرأيت إلى كلمة «اختصار»؟

وقد وقفت عند كتاب غريب أراه صورة واضحة الدلالة على أن علماءنا الأوائل كانوا مشغولين حقاً بتربية الناشئة والتيسير عليهم والتدرج معهم في تعليم النحو. وذلك هو كتاب «إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم» لأبي عبد الله الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠هـ. لقد كان المألوف في

زمن ابن خالويه والأزمان التي سبقته والتي جاءت بعده أن يتصدى العلماء لإعراب القرآن الكريم كله، ولكن الذي صنعه ابن خالويه شيء عجب: لقد وضع كتابه لإعراب ثلاثين سورة فقط، مبتدئاً بسورة الطارق، ومنتهياً بسورة الناس، ثم افتتح كتابه هذا بإعراب الاستعاذة والبسملة، وفاتحة الكتاب. . . ولا تفسير لصنيع ابن خالويه هذا وإيثاره لإعراب قصار السور هذه إلا أنه وضع الناشئة أمامه، لأن هذه السور من أوائل ما يحفظه الصبيان من الكتاب العزيز، وأنها كثيرة الدوران على ألسنتهم، وأن عرض قواعد النحو والصرف من خلال هذه السور القصار مما يثبتها ويمكنها في النفوس.

فتعليم النحو من خلال هذه الكتب القديمة الموجزة فيه تثبيت للعربية وتمكين لها في النفوس، مع التقاط معارف أخرى تأتي من خلال الشواهد والنصوص، وينبغي أن نحسن الظن بناشئتنا ولا نخشى عليهم من التعامل مع الكتاب القديم فإن فيهم خيراً كثيراً. . . ولقد كانت لي تجربة جيدة هذا العام، حين دعيت إلى تدريس النحو لطالبات السنة الأولى بكلية البنات بجامعة عين شمس، وقد قرأت معهن شيئاً من كتاب شذور الذهب على خوف مني ووجل، لكني صبرت نفسي معهن واحتشدت لهن احتشاداً، وكانت تجربة ناجحة جداً، وتلقت الطالبات كلام ابن هشام بقبول حسن، وقد رأيت من هؤلاء الطالبات نماذج مبشرة بخير كثير.

والغريب حقاً أن زملاءنا الأكرمين بالجامعات المصرية ينفرون من تدريس الكتاب القديم، وحين يخرجون إلى جامعات دول الخليج يحملون حملاً على تدريسه، وهناك يؤدونه بكفاءة عالية جداً، لأنهم بلا ريب أهل فقه وبصيرة، ولأنهم أيضاً ينتمون إلى جيل المتون الذي سأحدثك عنه.

جيل المتون:

على أن أخطر ما في هذه القضية أن يقترن تعليم النحو من خلال المذكرات والمختصرات بالطعن على أئمة النحاة والإزراء بتصانيفهم وغياب المنهجية في تآليفهم ومحاكمتهم إلى مناهج غربية ظهرت بعدهم بقرون.

ومما لا شك فيه أن أساتذتنا الأفاضل، وزملاءنا الأكرمين الذين يدورون في هذا الفلك إنما ينتمون جميعاً إلى الجيل العظيم: جيل المتون والحواشي، نعم كلهم من جيل الحفظة. . . حفظة القرآن الكريم والمتون والمنظومات، وهذا شيء أعرفه تماماً، وبخاصة عند أبناء كليتي: دار العلوم، من الجيل الذي سبقني والذي زاملني والذي جاء بعدي بقليل، فهؤلاء جميعاً قد تعلموا النحو من خلال الكتاب القديم، على هذا السياق، وبذلك الترتيب: التحفة السنية بشرح المقدمة الآجرومية ـ تنقيح الأزهرية للشيخ خالد الأزهري ـ قطر الندى وبلّ الصدى ـ شذور الذهب في معرفة كلام العرب، كلاهما لابن هشام ـ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ـ أوضح المسالك على ألفية ابن مالك لابن هشام ـ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك مع حاشية الصبان عليه.

وبهذه المسيرة الأصيلة الضخمة استطاع أساتذتنا وزملاؤنا أن يفقهوا النحو ويبرعوا فيه ثم يكتبوا مذكراتهم ومختصراتهم. وأيضاً نقدهم للفكر النحوي. ولو أنهم تربوا من أول أمرهم على المذكرات وتعلموا من المختصرات لما فقهوا ولما برعوا، ولما كتبوا «نحوهم الكافي والشافي والصافي والوافي».

ثم إن الخطر كل الخطر: أن يصدر التشكيك في النحو ومصطلحاته من أساتذة كبار لهم في النفوس مكان ومكانة، ولكلامهم في القلوب وقع وتأثير. ومن ذلك ما وقع في يدي ذات يوم، من كلمة للأستاذ الكبير الدكتور زكي نجيب محمود ـ متعه الله بالصحة والعافية ـ بجريدة الأهرام بتاريخ ١/ ١٢/ ١٩٨٨ بعنوان: «العربي بين حاضره وماضيه»، ضمن سلسلة مقالاته التي اختار لها عنوان: «عربي بين ثقافتين»، وقد أدار كلمته هذه حول تقييم الموروث الذي انتهى إلينا من ماضينا، وأنه ينبغي علينا أن ننتقي ونختار، وأن ننظر إلى «نوع الحصيلة التي اخترناها لتكون هي ماضينا المبثوث فينا، وذلك لأننا قد نسيء الاختيار ـ وكثيراً جدّاً ما نفعل ـ فنبث عوامل الضعف والشلل من حيث أردنا القوة وانطلاقة الحياة».

ثم دلل على سوء الاختيار هذا بنموذج من تجربته الشخصية مع مدرس اللغة

العربية الذي التقى به في السنة الثالثة الابتدائية، وذلك ما أملاه عليهم عن «إذا» و«أنها ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه». ثم تساءل الدكتور الفاضل عن جدوى تلك العبارة لا سيما والمتلقي طفل في الحادية عشرة من عمره؟ وعقب فقال: «وإني لأدعو القارىء إلى استعادة ما أسلفناه، وهو أن العربـي إذ يحيا حياته حاملاً في رأسه هذا الذي قيل له عن كلمة«إذا» وما تؤديه، فإنما هو يحيا حاملاً معه نتفة من الماضي، لكنها نتفة عسيرة الهضم، قد تصيب المعدة بالأذى، وأما اليقين عنها فهو أنها لن تنفع حاملها غذاء يقتات منه ليكون عربيّاً موصول الهوية بماضيه، فإذا تصورنا أن مئات الألوف ممن يعدون بين حملة العلم في بلادنا يحيون وهم يحملون في رؤوسهم أطناناً من أمثال هذه «المعرفة» التي إن صلحت في الأركان الأكاديمية المعزولة عن الهواء الطلق فهي لا تصلح لحياتنا الناهضة وسيلة حفز ودفع وتحريك».

هذا كلام الدكتور الفاضل، وفيه من سلطان الذكاء وقوة العارضة ومن بريق العذوبة والحلاوة ما ترى! ولكنه عند التحقيق منقوض ومردود عليه. والأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود رمز من رموز فكرنا المعاصر، وهو أيضاً واحد من هذا النفر الكريم الذين أسهموا إسهاماً واضحاً في نشاط «لجنة التأليف والترجمة والنشر»، هذه القلعة الضخمة من قلاع الفكر العربـي.

فأقول: إن هذا المثال الذي ذكره الدكتور، ورأى فيه أساس الداء ومدخل البلاء في تعلم العربية: «إذا. . . ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه». . . هذا المثال يستدعي ــ بلا ريب ــ عند بعض القراء أمثلة أخرى من بابه، ضاقوا بها أشد الضيق حين تلقوها أول مرة، وخاصة إذا لم يشتغلوا بالعربية وقضاياها فيما استقبلوا من أيام وما صرفوا من اهتمامات، لكنه في الوقت ذاته وبالقدر نفسه عند من اشتغلوا بالعربية، وجعلوها ميداناً لدراساتهم وأبحاثهم فيما بعد: يذكر بأيام زاهية جادة صارمة وضع فيها الأساس متيناً صلباً، فقام البناء عالياً شامخاً، «وإنما يمدح السوق من ربح» كما تقول العرب في أمثالها.

الضوابط الراسخة:

وإني سائل الدكتور الفاضل: أي بأس في ذكر هذا الضابط النحوي؟ وأي ضرر في أن يتلقاه الصغار فيما يتلقون في النشأة الأولى؟ والدكتور يعلم أن طبيعة تعلم العربية تقتضي حفظ كثير من النصوص والضوابط لترسيخ القاعدة، ولذلك لجأ المصنفون قديماً إلى المنظومات العلمية لضبط القواعد وتثبيتها، ثم كان من ذلك أيضاً تلك الضوابط النثرية لبعض القواعد، مثل «سألتمونيها» لحصر حروف الزيادة في الصرف، و«سكت فحثه شخص» لضبط الحروف المهموسة، و«لم أر على ظهر جبل سمكة» لبيان الأسباب والأوتاد والفاصلة في العروض.

ومن أطرف ما حفظناه من مشايخنا في الصغر قولهم «صن شمله» رموزاً لأسماء الأنبياء المصروفة، أي المنونة: فالصاد لصالح، والنون لنوح، والشين لشعيب، والميم لمحمد ﷺ، واللام للوط، والهاء لهود، عليهم السلام أجمعين. فهذه الأسماء الستة تنون وما عداها من أسماء الأنبياء يمنع من التنوين.

وكانوا يقولون لنا أيضاً: «لا تكسر الصحاح ولا تفتح الخزانة»، يريدون «الصَّحاح» للجوهري وأنه بفتح الصاد، وخزانة الأدب للبغدادي وأنها بكسر الخاء. وقالوا: «من حفظ المتون حاز الفنون»، ولا شك أن الأستاذ الكبير يعرف في جيله هذه المجموعة التي طبعت باسم «مجموع مهمات المتون»، يشتمل على ستة وستين متناً في مختلف العلوم والفنون، وتاريخ الطبعة الرابعة منه ١٣٦٩هـ ـ ١٩٤٩م.

ولا ينبغي أن يلتفت إلى ما يقال من أن هذا عيب في اللغة العربية أن تعتمد على الحفظ الأصم الأعمى، فهذا أمر معروف في سائر اللغات. يقول العالم الأديب الدكتور عبد الله الطيب، في دفع تلك الفرية: «ومساكين اللغة العربية ينفرون من الحفظ ليكونوا متمدينين». ثم يقول: «وأشهد على نفسي أني عندما كنت أدرس في الخارج (لندن) كنا ندرس بعض القطع المسرحية لشكسبير، فكان التلاميذ يسمع بعضهم لبعض القطع عن ظهر قلب، حتى أمثال «يدخل يطارده القتلة» أو «يخرج يطارده سبع»، وكانت لهذه المسرحيات القديمة شروح، وقد تكون الأبيات أربعة

أسطر في أعلى الصحيفة، بخط كبير، وسائر الصحيفة بخط دقيق، شرح لما فوق، ويقبل التلاميذ على ذلك ولا ينفرون، فإذا قدم لهم شيء يشبه ذلك بالعربية نفروا منه نفوراً شديداً. ومن عجيب الأمر أن الكتب التي كنا ندرسها بالإنجليزية كان ورقها أصفر، والورق الأصفر لعله ألين على عين القارىء من الورق الناصع الأبيض».

ملحق التراث بجريدة المدينة المنورة بالسعودية ــ ٢١ من ربيع الأول ١٤٠٨هـ = ١٢ من نوفمبر ١٩٨٧م.

فهذا الذي يراه الدكتور زكي نجيب محمود «نتفة من الماضي عسيرة الهضم قد تصيب المعدة بالأذى»، هو عند النظر والتحقيق أساس العلم ومدخله، بل هو الغذاء الذي تصح به المعدة، وتتكون عليه الأنسجة والخلايا، وما دخل علينا البلاء، واستبد بنا الضعف إلا يوم أن هجرنا هذه الضوابط الكلية، ونفرنا من الحفظ، واجتوينا النصوص، ثم غرقنا في البحث النظري الذي أسلمنا إلى التجريد والمطلق.

أما إشفاق الدكتور الفاضل على الصبي الذي هو في الحادية عشرة، أن يؤخذ إلى هذه التراكيب والمصطلحات المعقدة التي تصيب المعدة بالأذى فإن الدكتور الكريم يعلم علماً ليس بالظن أن من أصحاب هذه السن في جيله من أتم حفظ القرآن الكريم، وحفظ إلى جانبه شيئاً من المتون، مثل (متن نور الإيضاح) في فقه الحنفية، أو (متن العشماوية) في فقه المالكية، أو (متن أبي شجاع) في فقه الشافعية، أو (متن زاد المستقنع) في فقه الحنابلة، إلى جانب (متن الآجرومية) الشهير... وإني أعيد هنا ما ذكرته من قبل: أن أساتذتنا الذين كتبوا في الدراسات اللغوية والنحوية الحديثة وشرَّقت كتبهم وغرَّبت، ينتمون جميعاً إلى جيل الحفظة: حفظة القرآن والمتون والحواشي والمصطلحات، وما كان لهؤلاء الأساتذة أن يكتبوا ما كتبوا لو لم يحفظوا منذ الصغر: «إذا... ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه»، وأخواتها مثل: «لا يجمع بين العوض والمعوض عنه» و«اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء. وذلك في مثل سيِّد».

ولا زلنا نحن أبناء الجيل التالي الذي تستطيع أن تشم فيه رائحة العلم، لأننا وردنا الماء صافياً قبل أن تكدره الدلاء، ولأننا أدركنا معاهد العلم قبل أن يدهمها السيل، أقول: لا زلنا نذكر هذه المشاكل النحوية التي التقينا بها في طراءة الصبا وريق الشباب، مثل إعراب قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ وكيف رفع ﴿هَٰذَانِ﴾ وهو اسم ﴿إِنَّ﴾، وتوجيه الرفع في قوله تعالى ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ في الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ. . .﴾ [المائدة: ٦٩]، واختلاف المعنى باختلاف حركة الإعراب على الراء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدثر: ٦]، وعود الضمير على غير مذكور في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢﴾ [ص: ٣٢]، أي الشمس، والمصدر المتصيد في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، أي الشكر، وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا﴾ [الإسراء: ٦٠]، أي التخويف. وقوله: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠]، أي الإيمان، ثم في مثل قول الشاعر:

إذا نُهي السفيه جَرى إليه وخالف والسفيه إلى خلاف

أي جرى إلى السفه. .

كل هذا كنا نستظهره ونديره على ألسنتنا في سهولة ويسر، كانت أسناننا في تلك الأيام لا تتجاوز الخامسة عشرة. . . نعم كل هذا عرفناه وخبرناه، وجرى منا مجرى المحفوظات والمأثورات، فأورث ملكة في النحو، وأكسب إحساساً بالعربية في أبنيتها وتراكيبها، حتى إذا غَبِيَ علينا شيء من هذه الأبنية والتراكيب فزعنا إلى ذلك المذخور من أيام الصبا، فأسفر وجهه، ودان عصيه. . . فهل عند أبناء اليوم من ذلك شيء؟

ولا يصح أن يقال: إن هذا الذي ذكرته كان سمة التعليم الديني أو التعليم الذي تغلب عليه العربية، كالذي في الأزهر الشريف ودار العلوم، فإن الدكتور الفاضل يعلم علم اليقين مواد العربية التي كانت تقدم لتلاميذ المدارس في التعليم العام، أو الأميري.

وأمامي الآن طبعة ثانية من «معجم المصباح المنير» للفيومي المتوفى سنة

٧٧٠هـ، وتاريخ هذه الطبعة ١٩٠٩م، وكتب على صدرها «قررت نظارة المعارف العمومية طبع هذا الكتاب على نفقتها واستعماله بالمدارس الأميرية»، وكذلك يعلم الدكتور كتب التراث التي كانت مقررة على طلبة المدارس الثانوية، مثل «البخلاء» للجاحظ، الذي نشره أحمد العوامري بك، وعلي الجارم بك سنة ١٣٥٦هـ = ١٩٣٨م، و«نقد النثر» المنسوب إلى قدامة بن جعفر ـ وثبت فيما بعد أنه البرهان في وجوه البيان لابن وهب ـ الذي نشره الدكتور طه حسين، والأستاذ عبد الحميد العبادي سنة ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م، وقد قررته وزارة المعارف لطلاب السنة الخامسة التوجيهية إلى طائفة أخرى من الكتب المشحونة بالنصوص، مثل «مجموعة النظم والنثر» لعبد الله باشا فكري والمنتخب من أدب العرب.

هذا إلى أن الأزهر الشريف كان موجهاً لتعليم النحو في المدارس ومهيمناً عليه، فهذا الكتاب الشهير «الدروس النحوية» الذي ألفه حفني بك ناصف مع محمد أفندي دياب والشيخ مصطفى طموم ومحمد أفندي صالح: قررت نظارة المعارف العمومية سنة ١٣٠٤هـ طبعه على نفقتها بعد تصديق شيخ الجامع الأزهر. وهكذا كان تعليم النحو والعربية في مصر أيام عزها ومجدها من خلال الكتاب القديم أو الكتاب الحديث المؤسس على القديم والماضي في طريقه.

فهذه العبارة النحوية التي نقلها الدكتور زكي نجيب محمود عن شيخه ينبغي أن تؤخذ في إطار الجد والصرامة الذي كان يشمل تدريس سائر العلوم في ذلك الزمان. وما أخذت مصر مكانتها التي تزهو بها في العالمين في مختلف العلوم والفنون إلا بذلك الجيل الذي أخذ بالجد في كل أموره منذ النشأة الأولى والناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم.

ولا سبيل لنا إذا أردنا صلاح الحال وإصلاح الألسنة إلا إحياء جيل المتون والحفظة، وذلك لن يكون إلا بالعودة في تدريس النحو إلى الكتاب القديم والنص التراثي، فإن آخر هذه الأمة لن يصلح إلاَّ بما صلح به أولها.

* * *

الحفظ وأثره
في ضبط قوانين العربية[1]

كتب الأستاذ الدكتور محمود الربيعي كلمة في أسبوعيات الأهرام ٦/ ٧/ ١٩٩٠ م، بعنوان «ترتيب الأولويات»، قال فيها: «إن تلقين المناهج لطلاب العلم الذين يدرسون في الجامعات لدينا يجعلهم يتحدثون عن «أعوص» المناهج الغربية الأجنبية كأنهم أصحابها، فإذا طلبت إليهم أن يقرأوا (مجرد قراءة) نصاً إبداعياً باللغة التي يُعَدُّون للتخصص فيها (عربية أو أجنبية) لم يقيموا النص قراءة، فضلاً عن التعمق في فهمه بالتحليل والتركيب والتفكيك».

وهذا كلامُ حكيمٍ (بالتنوين والإضافة)، وهو أيضاً كلام ظاهر الوضاءة والحسن والتيقظ، لأنه يلخص المأساة التي نعيشها منذ نحو ثلاثين عاماً، في هذا المستوى المتدنِّي من علوم العربية: قراءة وكتابة، ثم هو كلام يفضي بنا إلى قضية ذات خطر، ليس في الأدب وحده، بل إن هذا الخطر يمتد ليشمل مختلف فروع التراث العربي، وأعني تلك الفجوة الواسعة بين النظرية والتطبيق، أو بين المحفوظ والملفوظ.

فأنت قد تصادف شخصاً دارساً للأدب: تاريخه ومذاهبه ومدارسه، وإذا فاتشته في قضية من قضاياه النظرية تلك، صال وجال، ولاك ومضغ، وخلط عربياً بعجمي، وأتاك بكل عجيبة وغريبة، فإذا أخذته إلى نص مما كتبه السابقون الأولون، وأردته على شيء من التفسير أو التحليل والتذوق حارَ وأبلس، «وصار لسانه قطعة

---

(١) مجلة «الهلال»، فبراير ١٩٩١م.

لحم خرساء تدور في جوبة الحنك» كما يقول شيخنا محمود محمد شاكر ــ في سياق آخر.

ومثل ذلك يقال في نحويّ خالطت بشاشة النحو قلبه، وخبر سواده وبياضه (زعم)، أسهر فيه ليله، وأدأب له نهاره، حتى ظن أنه ملك ناصيته: قواعد وخلافيات ونقداً، فإذا أخذ في كلام، أو أدار قلمه على بيان خلَّط واعتسف وأخطأ، وما أتي هذا النحوي وذلك الأديب إلا من قبيل الإغراق في النظريات والمناهج والقواعد، واطراح الحفظ، وهجر النصوص، وإهمال التطبيق.

وقد سرى هذا الداء الخبيث إلى علمين جليلين في تراثنا ــ وما كان ينبغي أن يسري إليهما، لأنهما ملاك الأمر كله ــ وهما التفسير والحديث، ففي ميدان التفسير قد تصادف دارساً يحدثك بإفاضة وإحاطة عن مدارس التفسير واتجاهاته، من تفسير بالمأثور إلى تفسير بالرأي، والتفسير الموضوعي للقرآن، والتفسير الفقهي، والتفسير الإشاري الصوفي، إلى آخر هذه القائمة، فإذا طلبت منه تفسير شيء من كتاب الله لم تظفر منه بشيء إلا شيئاً لا يُعبأ به... وقد اختفت تلك الصورة الجليلة النبيلة، حين كنت تستوقف شيخاً فاضلاً عقب صلاة الجمعة، أو في طريق عام، فتسأله عن آية من كتاب الله فإذا أنت أمام علم حاضر وإجابة شافية.

وقل مثل هذا في حديث سيدنا رسول الله ﷺ، فقد اشتغل به كثير من طلبة العلم الآن: دراسة نظرية، تعنى بتدوينه وعلومه وتصانيفه من الصحاح والمسانيد... إلى غير ذلك مما كان يعرف قديماً بعلم «الدراية»، لكنك قل أن تجد منهم من اعتنى بهذاالعلم الجليل «رواية» من حيث حفظ المتون وإتقان الغريب.

وقد أدى هذا الأمر إلى مصيبة كبرى اجتاحت بعض الشباب المسلم المحب لحديث المصطفى ﷺ، ومعرفة السنة المطهرة، فقد اتجه كثير منهم في هذه الأيام إلى طلب معرفة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وتجريح الرواة وتعديلهم ــ وهذا بحر لا ساحل له، ولا يقوى عليه إلا أولو العزم من الرجال ــ وقد صرفوا في ذلك جهوداً كثيرة كان الأولى أن تصرف إلى قراءة صحيحي الإمامين الجليلين: البخاري

ومسلم، وبقية الكتب الستة التي هي دواوين السنة، ثم بعض المسانيد الأخرى، قـراءة فهـم وبحـث وإمعـان، فـإذا أتقنـوا ذلـك كـان لهـم أن يبحثـوا فـي الضعيـف والموضوع، وقد بلغت السفاهة ببعضهم أن يقول عن حديث رواه الإمام الجليل أبو عبد الله البخاري: «صحَّحه فلان» يشير إلى أحد العلماء المعاصرين. أفبعد إخراج البخاري للحديث، يقال: صحَّحه فلان؟

إن الإسراف في النظريات والمناهج هو الذي أضعف إحساس أبنائنا بالعربية الأولى، وهو الذي أورثهم العجز الذي يأخذ بألسنتهم وأقلامهم، فلا يستطيعون قولاً ولا بياناً.

على أن هذا الذي ذكره الدكتور الربيعي، والذي ذكرته أنا، يرجع إلى أننا أهملنا جوانب ضرورية في تعلم العربية. ومن هذه الجوانب التي أهملت جانب النصوص أو الحفظ... فإنه يشيع في أيامنا هذه كلام عجيب، يبغض إلى طالب العربية «الحفظ» ويزهده فيه، بل إن الأمر قد تعدى ذلك إلى تثبيت قاعدة تجعل «الحفظ» مقابل «الفهم» وأن الطالب الذي يحفظ «صمام» وغير قادر على الفهم والاستيعاب، ونقرأ لمسؤول كبير عن التعليم في مصر قوله: «ولا بد أن يدرك الطالب أن زمن الحفظ والصمامين قد انتهى».

تراثنا قائم على الرواية:

وهذا الكلام إن صدق على العلوم المعملية والتطبيقية، لا يصدق على علوم العربية، من أدب وبلاغة ولغة ونحو، وذلك لأن تراثنا كله قائم على الرواية والدراية، والرواية مقدمة، ولذلك قالوا: «الرواية من العشرين والدراية من الأربعين». والجوهري صاحب «الصِّحاح» يقول في مقدمته: «قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة... بعد تحصيلها بالعراق رواية وإتقانها دراية».

وقد وصل إلينا تراثنا في أول أمره عن طريق الحفظ والرواية، فقد وعته صدور الرواة والنقلة، وسلَّمته أجيال إلى أجيال، حتى أظل زمان التدوين والكتابة، فالحفظ

هو الأساس، وقد حثوا عليه ومدحوا أهله، فروي عن الأصمعي أنه قال: «كل علم لا يدخل معي الحمام فليس بعلم». ويريد أنه حافظه ومستحضره في كل وقت وعلى كل حال. وقال محمد بن يسير ــ من شعراء الدولة العباسية الأولى:

أأشهد بالجهل في مجلس ... وعلمي في البيت مستودع
إذا لم تكن حافظاً واعياً ... فجمعك للكتب لا ينفع

وقال بعض أهل العلم:

حفظ اللغات علينا ... فرض كفرض الصلاة
فليس يُضبط دين ... إلا بحفظ اللغات

ولولا الحفظ في تاريخنا التراثي لما أمكن لهذه الطائفة من عباقرة العربية العميان أن يسجلوا لنا هذا القدر الضخم من المعارف الإنسانية، كالذي نقرأه عند أبي العلاء المعري ــ وأبو العلاء فوق شاعريته صاحب لغة ونحو وصرف وعروض ــ، وابن سيده صاحب المحكم والمخصص، والإمام الترمذي صاحب السنن، وغيرهم كثير، مما ذكره صلاح الدين الصفدي في كتابه الطريف «نَكْت الهِمْيان في نُكَت العميان». وحسبك بقراء القرآن وعلماء القراءات، كالشاطبي صاحب المنظومة الشهيرة في القراءات السبع المسمَّاة: «حرز الأماني ووجه التهاني». وفي هذا العصر الحديث يأتي الدكتور طه حسين ــ رحمه الله ــ على رأس أفذاذ العميان المعاصرين.

إن طبيعة تعلم العربية تقتضي حفظ كثير من النصوص لتثبيت القواعد والتمكين للأبنية والتراكيب في ذهن طالب العلم. وقد قيل ــ الحفظ الإتقان ــ وذلك ما رواه أيوب بن المتوكل قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: كان الرجل من أهل العلم إذا لقي من هو فوقه في العلم فهو يوم غنيمته، سأله وتعلم منه، وإذا لقي من هو دونه في العلم علمه وتواضع له، وإذا لقي من هو مثله في العلم ذاكره ودارسه. وقال: لا يكون إماماً في العلم من أخذ بالشاذ من العلم، ولا يكون إماماً في العلم

من روى كل ما سمع، ولا يكون إماماً في العلم من روى عن كل أحد، والحفظ الإتقان».

حفظ كلام العرب:

ويقول ابن خلدون: «ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم، من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضاً في سائر فنونهم، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم».

ويقول أيضاً: «وتعلم مما قررناه في هذا الباب أن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه، ويتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم، وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم».

ويقول أيضاً عن هذه الملكة التي تحصل بالحفظ والدُّربة: «... فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلَّة لذلك المحل. ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً وبلاغة أمر طبيعي، ويقول: كانت العرب تنطق بالطبع، وليس كذلك، وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادىء الرأي أنها جبلة وطبع. وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع، والتفطن لخواص تراكيبه... وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك، التي استنبطها أهل صناعة اللسان، فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها».

وهذا الكلام الأخير هو الذي ينتهي إليه كلام الدكتور الربيعي، وهو الذي

أدرت عليه مقالتي هذه. فإن «معرفة القوانين العلمية التي استنبطها أهل صناعة اللسان» هي «النظريات والمناهج» في أيامنا هذه. فكما أن الوقوف عند «معرفة القوانين العلمية» هذه لا يصنع ملكة أدبية لغوية، كذلك الاكتفاء «بالنظريات والمناهج» لا يكسب هذه الملكة.

ويقرر ابن خلدون أيضاً: «أنه لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربـي، وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ».

ويقول القاضي عبد الرحيم بن علي بن شيث الإسنائي القوصي، في سياق حديثه عن أدوات الكاتب وعدته: «والحفظ في ذلك ملاك الأمر، فإنه يؤهل ويدرب، ويسهل المطلوب ويقرِّب».

هل الحفظ مطلوب؟!

هذا وقد وقعت على نص خطير جداً، هو خير رد وأوفاه على هؤلاء الذين يشترطون للحفظ: الفهم، ويقولون: لا تطلبوا من الصبـي حفظ ما لا يفهم، فإن هذا غير مُجد في العملية التعليمية. يقول أبو الفتح عثمان بن جني: «قال لنا أبو علي ــ الفارسي ــ يوماً قال لنا أبو بكر ــ ابن السراج ــ : إذا لم تفهموا كلامي فاحفظوه، فإنكم إذا حفظتموه فهمتموه».

وهذا كلام صحيح، يصدقه الواقع وتؤكده التجربة، فإن الإلحاح بالحفظ الدائم المستمر مما يمهد للفهم لا محالة. وآية ذلك أن صغار التلاميذ في دور الحضانة والروضة يرددون مع إطلالة كل صباح النشيد الوطني لبلادهم، وهم بالقطع لا يعرفون شيئاً عن معاني مفرداته فضلاً عن تراكيبه، ولكنهم بمرور الأيام يدركون ويفهمون. والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى في اكتساب وإدراك المعارف. ونحن الذين حفظنا القرآن صغاراً نعرف هذا من أنفسنا، فما زلنا نذكر ألفاظ القرآن وتراكيبه الغريبة علينا في مطالع أيامنا، ثم إضاءة معانيه في نفوسنا بعد ذلك

بالتدريج، وإن كنا لا ندرك بالضبط متى تم هذا، كما لا يدرك الناظر في السماء انسلاخ النهار من الليل إلا حين يغشاه نوره ويغمره سناه.

وليس أدل على أهمية «الحفظ» في العملية التعليمية في تراثنا، من هذا القدر الهائل من المنظومات في اللغة والنحو والفرائض (المواريث)، والقراءات، وعلوم الحديث والأصول والبلاغة والمنطق والعروض والميقات والطب، وكل ذلك لضبط القواعد وتثبيت الأحكام. وما أمر «ألفية ابن مالك» ببعيد!

ومع المنظومات المطولة في النحو والصرف كان هناك البيتان والثلاثة والأربعة لضبط القاعدة وترسيخها. فهذا جمع التكسير ينقسم إلى جموع قلة وإلى جموع كثرة، وللأول أربعة أوزان، وللثاني سبعة عشر وزناً، ولصعوبة حصر هذه الأوزان صاغها بعضهم شعراً ليسهل حفظها، فجموع القلة جمعت في قوله:

بأفعُلٍ ثم أفعال وأفعلة ... وفِعْلة يُعرف الأدنى من العدد

كأفلس وكأثواب وأرغفة ... وغِلمة فاحفظنْها حفظ مجتهد

وجموع الكثرة جمعت في قوله:

في السفن الشهب البغاة صور ... مرضى القلوب والبحار عبر

غلمانهم للأشقياء عمله ... قطاع قضبان لأجل الفيلة

والعقلاء شرد ومنتهى ... جموعهم في السبع والعشر انتهى

وترتيب الخليل بن أحمد لمواد المعجم نظمها بعضهم في قوله:

عن حزن هجر خريدة غناجة ... قلبي كواه جوى شديد ضرار

صحبي سيبتدئون زجري طُلَّباً ... دَهشي تطلب ظالم ذي ثار

رغماً لذي نصحي فؤادي بالهوى ... متلهب وذوي الملام يماري

وواضح أن المراد الحروف الأولى من كلمات هذا النظم هكذا: ع ح هـ خ غ... الخ.

هذا إلى الضوابط النثرية، مثل «سألتمونيها» لضبط حروف الزيادة، و«سكت

فحثه شخص» لضبط الحروف المهموسة. فبهذه الضوابط الشعرية والنثرية تعلمنا الأدب واللغة والنحو، وتعلم من قبلنا، لأننا سلمنا ولأنهم سلموا من زلازل التطوير وأعاصير التيسير. وإنه لواجب علينا إذا أردنا الخير لهذا الجيل أن نحيي فيهم مهارات الحفظ، ونقدم لهم قواعد العربية من خلال النصوص التراثية الموثقة.

ولقد جاءني ابني بكتاب القراءة والنصوص الأدبية للصف الثالث الإعدادي للعام الدراسي ١٩٩٠م ــ ١٩٩١م، وفي ص ١٣ منه جاء هذا السؤال: (اختر الصواب مما بين كل قوسين: مقابل غضب (رضا ــ سرور ــ سكون) وطلب مني ابني الجواب الصحيح، فقلت له (رضا) وقال هو (سرور) وأصر على رأيه، لأنه لم يستسغ أن يكون «الرضا» مقابل الغضب ولأن أستاذه قال ذلك أيضاً والأستاذ لا يخطىء ولم يقتنع حتى ذكرت له حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما الذي أخرجه أبو داود في سننه ٣/٣١٨، والحاكم في مستدركه ١/١٠٥، أنه قال: «يا رسول الله، أكتب ما أسمع منك؟ قال: «نعم»، قلت: عند الغضب وعند الرضا؟ قال: نعم إنه لا ينبغي لي أن أقول إلا حقاً» ».

وهنا انفرجت أسارير ابني، ونظر إليّ (نظرة الرضا لا الغضب).

فهذا السؤال الذي جاء في ذلك الكتاب المدرسي سؤال جيد، لأنه يزيد المحصول اللغوي عند التلميذ لا محالة. ولكنه ينبغي أن يكون مؤسساً على نصوص محفوظة للتلميذ بها أنس ومعرفة سابقة. وأنَّى لتلميذ في هذه السن أن يختار بين هذه الكلمات القريبة المعاني دون نص يشهد وحفظ يؤيد، فالحفظ وسيلة ضبط وإتقان ينبغي أن تراعى من أول درجة من درجات سلم التعليم، ولا تشفقوا على الصغار والناشئة، فإن فيهم خيراً كثيراً، وانظروا إلى هؤلاء الصغار الذين يظهرون على شاشة التلفزيون من أعضاء «المسلم الصغير» وتأملوا حلاوة الأداء وسلامة مخارج الحروف، ثم حفظ نصوص القرآن والحديث عن ظهر قلب. ومن وراء ذلك كله فالحفظ عاصم من التخليط في أبنية الأسماء والأفعال.

وإذا كان القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، فإنه أيضاً كتاب عربية وبيان،

ويجب أشد الوجوب أن نشد أبناءنا إليه في كل مراحل تعليم العربية. وأن يكون اختيارنا لآياته في مقرر (القراءة والنصوص) قائماً على تلك الآيات التي تنمي الحس اللغوي والنحوي عند التلاميذ، ولا سيما تلك الآيات التي تأتي فيها الأفعال مضبوطة على وجهها الصحيح، وقد لاحظت أن كثيراً من أبنية الأفعال التي نخطىء نحن الكبار أيضاً في ضبطها، أو ننطقها على وجه من الوجوه الضعيفة غير الفصيحة، جاءت على وجهها الصحيح في الكتاب العزيز، وأكتفي هنا ببعض الأمثلة:

أمثلة من القرآن:

يقول الناس في كلامهم: «كبر الولد يكبر» فيضمون الباء في الماضي والمستقبل، والصواب بالكسر في الماضي، وبالفتح في المستقبل: «كبِر يكبَر» وهذا يكون في السن والعمر، يقال: كبر الرجل يكبر كبراً فهو كبير، أي طعن في السن، ومنه قوله تعالى عن أموال اليتامى والنهي عن أكلها: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء: ٦]، أما «كبر يكبر» بالضم في الحالتين، فليس من السن، وإنما هو بمعنى عظم، ضد صغر، وشواهده في الكتاب العزيز كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٣]، وقوله عز وجل: ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١].

ويقولون: نَقِمْت عليه كذا وكذا ــ أي عبته وكرهته ــ فيكسرون القاف في «نقمت» والأفصح الفتح: نقمت، وهذا الفعل من باب ضرب، وفي لغة من باب تعب، والأولى هي الأفصح، قال ابن السكيت: «وقد نقمت عليه أنقم، والكسر لغة ــ أي في الماضي ــ والفتح الكلام»، قلت: وبه جاء التنزيل، قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال تقدست أسماؤه: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨]، وقال تقدّست أسماؤه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩].

ويقولون: فلان ينقصني حقي، وينقص في الميزان، فيضمون ياء المضارعة، والأفصح والأكثر فتحها، ينقصني، وينقص، وهذا الفعل ثلاثي: يستوي فيه اللازم

والمتعدي، يقال: نقص الشيء، نقصته أنا، ونقصه هو. وفي لغة: أنقصه ونقَّصه، معدًّى بالهمزة والتضعيف، لكنها لغة ضعيفة، ولم تأت في كلام فصيح، وشواهد ذلك من القرآن المتلو المحفوظ، ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٤]. وقد جاء اسم المفعول من الثلاثي في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ [هود: ١٠٩].

ويقولون: حرِص فلان على كذا، وحرِصت على كذا، فيكسرون الراء، والأفصح فتحها، حرَص وحرَصت، وبالفتح جاء التنزيل، قال سبحانه وبحمده: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال عزَّ وجلّ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

ويقولون: صلُح حالي، وصلُح أمري، فيضمون اللام، والأفصح فتحها: صلَح، قال تعالى: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، وقال تقدَّست أسماؤه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ [غافر: ٨]، ومن شواهد ذلك في الحديث الصحيح قوله ﷺ من حديثه الطويل: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله»، قال الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر فتح العين في «صلح»: «وحكى الفراء الضم في ماضي صلح». وهذا بالفعل من باب قعد: صلح يصلح، وذكر ابن دريد أن ضم اللام في الماضي ليس بثبت.

وهكذا تكون النصوص التراثية ـ وأعلاها كلام ربنا عز وجل ـ وسيلة ضبط وإتقان، إذا اعتنينا بها قراءة وحفظاً.

ويبقى أمر لا بد من إثارته، لأنه يتصل بموضوعنا هذا بنسب وثيق، وإن كان في الظاهر دخيلاً عليه وبعيداً عنه، ولأنه أيضاً يتصل بالثقافة العامة وتنمية وجدان الأمة: وذلك أنك كنت تجد ـ في الزمان القريب ـ من أوساط الناس وعوامهم من يأنس للكلام الفصيح ويرتاح له، ويحفظ منه الشيء بعد الشيء، وذلك من خلال ما

يسمعونه من خطيب الجمعة، العالم المتمكن، من نصوص القرآن العزيز والحديث الشريف، والأدعية المأثورة. أما الآن فتكاد خطب الجمعة ــ ولا سيما على ألسنة الشبان المتحمسين ــ تتحول إلى ثرثرة وكلام عام مبهم عن «مدرسة محمد ﷺ»، و«الإسلام في خطر» و«الإسلام هو الحل» وهذا وهذان مما يصرف عن الاستشهاد بالقرآن والحديث وكلام العرب، وإذا أتاك شيء من ذلك فهو يأتيك في معظمه ملحوناً ومزالاً عن جهته.

وكل هذا إنما جاء من مقولات مضللة، وهي أن «خطب الجمعة لا بد أن تتفاعل مع الأحداث المعاصرة، وأن تشارك في صنع القرار». . . إلى آخر ما تعرف.

وليتنا نعود إلى خطبة الجمعة المكتوبة على الورق الأصفر، والتي كان الخطيب يدعو في آخرها للسلطان بالنصر ــ ونستغفر الله مما سخرنا من هذه الخطب ــ فمن خلال هذه الخطب المكتوبة حفظنا كثيراً من النصوص، وضبطنا كثيراً من أبنية الأسماء والأفعال. وربنا المستعان على ما يصفون.

* * *

حلقات مفقودة في تراثنا المطبوع[1]

كان إنجازاً حضارياً كبيراً ظهور المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي، على يد جوتنبرج الألماني (١٣٩٧م ـ ١٤٦٨م).

ولئن كانت الغاية من الطباعة هي تكثير عدد نُسخ الكتاب لكي تُتاح قراءته لكثير من الناس، فقد تحققت هذه الغاية بصورة محدودة عند العرب قديماً، بما تمثل في كثرة نسخ الكتاب المخطوطة، ورواج صنعة الوِراقة والنِّساخة. ويذكر الجاحظ أن يحيى بن خالد البرمكي لم يكن في خزانة كتبه كتاب إلا وله ثلاث نسخ، ويذكر المقريزي أنه كان في خزانة العزيز بالله ثلاثون نسخة من كتاب «العين» للخليل بن أحمد، ومائة نسخة من «الجمهرة» لابن دريد، وأنه كان في خزانة الفاطميين مائتان وألف نسخة من «تاريخ الطبري». والمشتغلون بعلم المخطوطات يعلمون أن هناك كتباً ذوات عدد، كثرت نسخها كثرة ظاهرة، بحيث لا تكاد تخلو منها مكتبة من مكتبات العالم.

وكأنما كان هذا الاختراع العجيب ــ اختراع الطباعة ــ من أجل فكرنا وتراثنا نحن العرب دون غيرنا من الأمم. فقد دارت المطابع شرقاً وغرباً لإخراج علمنا من مخطوطات محدودة إلى أسفار مطبوعة، بدأت بالمئين ثم انتهت إلى ما فوق الآلاف.

ففي الغرب كان مهد الطباعة العربية في إيطاليا ــ كما هو معروف ــ ومن أوائل

---

(١) مجلة «الهلال»، إبريل ١٩٩١م.

ما طبع هناك متن «الكافية» في النحو، لابن الحاجب، سنة ١٥٩٢م. و «القانون» في الطب، لابن سينا، سنة ١٥٩٣م. ثم تعددت المطابع العربية في أوروبا، وطبع فيها مئات الكتب العربية وأكثرها في لندن وباريس وليبزج وليدن وجوتنجن وروما وفيينا وبرلين وبطرسبورج. ومن أشهر هذه المطابع الأوروبية مطبعة بريل بمدينة ليدن بهولندة. وهذه المطبعة تشبه في شهرتها مطبعة بولاق بمصر، لكن ما يؤخذ على هذه المطابع الأوروبية أنها كانت تطبع نسخاً محدودة من الكتب العربية، وكأنهم كانوا يطبعون لأنفسهم.

أشهر المطابع:

وفي الشرق كانت الآستانة (استانبول) عاصمة الخلافة العثمانية أسبق مدن الشرق إلى الطباعة. وكان من أشهر مطابعها مطبعة الجوائب التي أنشأها أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤م ـ ١٨٨٧م) ونشر فيها طائفة صالحة من الكتب. ثم المطبعة العامرة التي نشرت كتباً ذوات عدد، منها شرح «كافية ابن الحاجب» للرضي الاستراباذي، سنة ١٢٧٥هـ، و «الكليات» لأبـي البقاء الكفوي، سنة ١٢٨٧هـ.

ثم كانت الصيحة المدوية في طبع الكتاب العربـي، في مطبعة بولاق بمصر، أو كما تُسمّى أحياناً «المطبعة الأميرية»، وهي قلعة ضخمة من قلاع المعرفة. لقد أخرجت هذه المطبعة مئات الكتب في التفسير والحديث، والأصلين: أصول الدين وأصول الفقه، واللغة والنحو والصرف، والبلاغة والأدب، والتاريخ والطب والرياضة والطبيعة والفنون الحربية، وغير ذلك من أصناف العلوم. . . إلى ألف ليلة وليلة، ورجوع الشيخ إلى صباه. . . فأيُّ علمٍ كان في ذلك الزمان!

وإلى جانب مطبعة بولاق ظهرت المطابع الأهلية، مثل مطبعة جمعية المعارف، والخيرية والعثمانية والأزهرية والشرفية أو الكاستلية والرحمانية والجمالية والمنار والمنيرية وكردستان العلمية وهندية والسعادة والتجارية وصبيح ثم المطبعة الميمنية التي كانت أساساً للحلبـي بفرعيه: مصطفى البابـي، ومحمد. ومطبعة دار الكتب المصرية، ولجنة التأليف والترجمة والنشر.

وقد خرج من هذه المطابع آلاف الكتب في كل علم وفن، مما لم تعرفه أمة من الأمم، ولم تشهده ثقافة من الثقافات.

خمسة كتب في كتاب واحد:

وقد شاعت ظاهرة غريبة جداً في طبع الكتب تلك الأيام. فقد جرى كثير من المطابع على طبع كتاب أو أكثر بهامش الكتاب الأصلي، أو بآخره لصلة ذلك بالكتاب. وكأن القوم كانوا في سباق لنشر الفكر العربي وإذاعته... وهذه الظاهرة لم تعرف إلا في مطابع مصر واستنابول. ومن أطرف ما يذكر هنا أنَّ هناك خمسة كتب مطبوعة في كتاب واحد، وفي صفحة واحدة اجتمعت الكتب الخمسة، في الصلب والهامش، مفصولة بجداول، دون أن يختلط بعضها ببعض، وذلك هو الكتاب المسمَّى: «شروح التلخيص» في علوم البلاغة، ويشتمل على:

١ ــ شرح سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح، للخطيب القزويني.

٢ ــ مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربي.

٣ ــ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي.

٤ ــ الإيضاح، للخطيب القزويني.

٥ ــ حاشية الدسوقي على شرح السعد.

والثلاثة الأولى طبعت في صلب الكتاب، والاثنان الآخران بهامشه، وهذا ما جعل بعض إخواننا الظرفاء يقول: لا بد من فض الاشتباك بين هذه الكتب.

ثم توالى طبع الكتاب العربي في بلاد أخرى خارج مصر، مثل الهند. ومن أشهر مراكز النشر فيها تلك الدار الكبرى «دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن»، ولهذه الدائرة نشاط ظاهر في نشر علوم الحديث ومتونه وتاريخ رجاله، إلى مجلدات ضخمة في علوم أخرى، مثل كتاب «الحاوي في الطب» لأبي بكر الرازي، في ٢٣ جزءاً، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي في ٢٠ جزءاً، ومن قبل ذلك فللهند تاريخ قديم في نشر الكتاب العربي، فقد طبع بها «كتاب سيبويه»

بمدينة كلكتا سنة ١٨٨٧م، و «مغازي الواقدي» سنة ١٨٥٥م، و «حماسة أبي تمام» سنة ١٨٥٦م، و «تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسِّير» لابن الجوزي، بمدينة دلهي سنة ١٢٨٦هـ.

وكذلك تعددت المطابع في المغرب العربي، والعراق وبلاد الشام، وأخرجت قدراً ضخماً من علومنا ومعارفنا، وفي السنوات الأخيرة دخلت الدول العربية الغنية الميدان، فأنشأت المراكز التراثية التي جمعت صور المخطوطات، وأنفقت بسخاء على تحقيق الكتب ونشرها. وتعددت دور النشر الصغيرة والكبيرة في جميع البلدان العربية.

الوفاء لتراثنا:

إذن نحن أمام قدر هائل من المطبوع العربي ملأ السهل والجبل في كل علم وفن، فهل يحق لقائل أن يقول: «امتلأ الحوض وقال قَطْنِي»، أي حسبي، ولسنا في حاجة إلى جمع المخطوطات والبحث عنها وتحقيقها ثم نشرها، فإن ما في يدنا من مطبوع التراث فيه مقنع وبلاغ، وبارك الله فيما رزق.

ونعم... كان حسبنا هذا وكافينا لو ظل تعاملنا مع تراثنا كما هو الآن: حَسْوة الطائر وقَبْسة العجلان، تأخذ حاجتك وتمضي لا تلوي على شيء. وليس الطريق هنالك! إن أكبر الآفات عندنا اليوم أننا نتعامل مع كتبنا تعامل المراجع، على قدر الحاجة ليس غير، وكأنها تَحِلَّة القسم أو إبرار اليمين، وقلّ من يقرأ منا كتاباً بأكمله. ومن هنا نقنع باليسير، وتظل الصورة الحقة لتاريخنا وفكرنا مغيّبة عنا تماماً.

إن الوفاء لتراثنا والكشف عنه ومعرفته يقتضي نفضه كله ومفاتشته كله، وكما يصنع الورثة الذين يبذلون أقصى الوسع والطاقة لمعرفة ما دقّ وجلّ من تركة مورِّثهم حتى لا تفوتهم منه فائتة، ولا يسقط عليهم منه شيء، كذلك ينبغي أن يكون بحثنا عما استودعه أهل العلم من أمّتنا بطون الكتب والدفاتر.

وفي هذا المجال ينبغي أن نستبعد من منهجنا ما يشيع في بعض الدراسات

الحديثة من أن كتب التراث ذات الموضوع الواحد تتشابه فيما بينها، وأن غاية اللاحق أن يدخل على ما تركه السابق، يدور حوله ويردد مباحثه وقضاياه، ثم أفضى ذلك الزعم إلى دعوة صاخبة تنادي بغربلة التراث وتصفيته، بالإبقاء على النافع المفيد، وترك ما عداه قابعاً في المتاحف، كمومياء الفراعنة، يذكر بتطور الخطوط وقواعد الرسم والكتابة وتاريخ صناعة الورق. وسوف نقول وقتها: إننا نحافظ على تراثنا من عوامل البلى والفناء، ونتعهده بالمبيدات والكيماويات الحافظة، فنؤكد بذلك انتماء كاذباً وولاء مدخولاً، ونكون كالذين يحتفظون في بيوتهم بصحيح البخاري التماساً للبركة وطرداً للعفاريت والأرواح الشريرة.

وفي هذا المجال أيضاً ينبغي أن نستبعد من منهجنا نظرية تقسيم عصور الفكر العربي إلى عصور علو وانحطاط، وألا ننظر إلى كتب المتأخرين وأصحاب المختصرات والذيول والحواشي على أنها من الفضول والحشو. فلو لم يكن في تصانيف السيوطي والبغدادي والخفاجي والمحبي والشوكاني إلا أنها حفظت لنا كثيراً من علم الأوائل الذي اغتالته غوائل الناس والأيام، لكان ذلك من أكبر الدواعي إلى حفظها والعناية بها. على أن تراثنا لم يأخذ مكانه ــ عند التأمل والإنصاف ــ إلا بما صنفه الأوائل، مضافاً إليه تلك الشروح والمختصرات والذيول والصلات والحواشي والتقريرات. وهذا حديث طويل.

وليست المختصرات عند علمائنا كما هي في تصورنا هذه الأيام: إيجازاً وضغطاً للكتاب الكبير، بحذف الأسانيد والمكرر. . . ونعم إنها قد تكون كذلك، لكن مع الرؤية الخاصة للمختصِر، بإضافته أو نقده، وإليك مثالاً واحداً على ذلك: كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني، اختصره ابن منظور صاحب «لسان العرب» فيما سمّاه: «مختار الأغاني». وفي الجزء الثالث من هذا «المختار» نجد ترجمة موسعة جداً لأبي نواس، تضمنت أخباراً وأشعاراً لأبي نواس، لا تجدهما في الأصل «الأغاني». وكذلك صنع ابن منظور في ترجمة «جميل بن معمر» حيث أورد له بعض أشعار وأخبار لم ترد في «الأغاني».

أهمية المكتبة العربية :

وفي هذا المجال ـ ثالثاً ـ ينبغي أن ننظر إلى المكتبة العربية نظرتنا إلى الكتاب الواحد. وذلك لأن كتب أهل العلم عندنا متشابكة الأطراف، متداخلة الأسباب، فمع الإقرار بنظرية التخصص في الإطار العام للتأليف، فإنك قل أن تجد كتاباً من هذه الكتب مقتصراً على الفن الذي يعالجه، دون الولوج إلى بعض الفنون الأخرى لدواعي الاستطراد والمناسبة، وهذا يؤدي لا محالة إلى أن تجد الشيء في غير مظانه. وأمامي الآن أمثلة ذوات عدد على هذا الذي أقوله، لا يتسع المقام لذكرها. . . وأكتفي هنا بمثالين:

١ ـ كتاب «دلائل الإعجاز» للشيخ عبد القاهر الجرجاني، يُعدّ أصلاً في علم البلاغة وإعجاز القرآن. وكان مما عالجه في كتابه هذا الرد على من يقولون: «إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، ولكن تظهر بالضم على طريقة مخصوصة».

وقد عرَّض الشيخ عبد القاهر بأصحاب هذه المقالة في مواضع كثيرة من كتابه، كان منها قوله: «واعلم أن القول الفاسد والرأي المدخول إذا كان صدره عن قوم لهم نباهة وصيت وعلو منزلة في نوع من أنواع العلوم غير العلم الذي قالوا ذلك القول فيه، ثم وقع في الألسن فتداولته ونشرته، وفشا وظهر، وكثر الناقلون له والمشيدون بذكره، صار ترك النظر فيه سُنة والتقليد ديناً. . . ».

ويسأل شيخنا محمود محمد شاكر ـ حفظه الله ـ : من يكون هؤلاء القوم الذي لهم نباهة وصيت. . .؟ يقول شيخنا أبو فهر: «وفتَّشت ونقَّبت، فلم أظفر بجواب أطمئن إليه، وتناسيت الأمر كله إلا قليلاً نحو من ثلاثين سنة، حتى كانت سنة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م، وطبع كتاب «المغني» للقاضي عبد الجبار، المتكلم المعتزلي. في تلك السنة صدر الجزء السادس عشر من كتاب «المغني» فإذا هو يتضمن فصولاً طويلة في الكلام على «ثبوت نبوة محمد ﷺ»، وفي إعجاز القرآن وسائر المعجزات الظاهرة عليه ﷺ. فلما قرأته ارتفع كل شك، وسقط النقاب عن كل مستتر، وإذا التعريض الذي ذكره عبد القاهر حين قال: واعلم أن القول الفاسد

والرأي المدخول. . . لا يعني بهذا التعريض وبهذه الصفة أحداً سوى قاضي القضاة المعتزلي عبد الجبار».

ثمَّ نقل شيخنا عبارة القاضي عبد الجبار من الجزء السادس عشر من «المغني»، وهي: «أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة». وهي التي حكاها الشيخ عبد القاهر، ولم ينسبها لأحد على التعيين.

أرأيت؟ هذا كتاب «المغني في أبواب التوحيد والعدل» كتاب في أصول فكر المعتزلة وهو داخل في علم الكلام، فما أبعده في تقسيم العلوم وفهارس الكتب عن علم البلاغة! ولكن الكتب العربية تتنادى وتتواصل، وهكذا يعلمنا أستاذنا محمود محمد شاكر كيف تلتمس المعرفة من مظانها ومن غير مظانها، ولن يكون ذلك إلا بالذي ذكرته لك من النظر للمكتبة العربية على أنها كتاب واحد، ثم بالصبر على القراءة، والأخذ في الكتاب قراءة ودرساً إلى غايته ومنتهاه.

٢ ــ والمثال الثاني: عرض لي في بعض تحقيقاتي هذان البيتان الشهيران:

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا   إن بر عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره   وقد أجلّك من يعصيك مستترا

وكانا عندي غير منسوبين فأردت نسبتهما. وأول ما يهرع إليه المحقق في ذلك كتب الأدب، لا سيما تلك التي تتحدث عن العفو والاعتذار. وفي مكتبتي كتاب بذلك العنوان «العفو والاعتذار» لأبي الحسن العبدي، صاحب ابن دريد اللغوي، فنظرت فيه، فوجدت البيتين، ولكن بغير نسبة أيضاً، فأخذت في البحث حتى انتهيت إلى أنهما لهلال بن العلاء الرقي، وذلك في ترجمته من كتاب «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي (وينسبان على ضعف للبحتري). وهذا كتاب «سير أعلام النبلاء» معدود في كتب التراجم، فيا بعد ما بينه وبين كتب الأدب في تصنيف العلوم!

وإذ قد انتهيت من تقرير هذه الحقائق، على سبيل الوجازة والاختصار أقول: إن هذا المطبوع من تراثنا ــ على ضخامته وازدحام المكتبات به ــ لا يمثل الصورة

الكاملة الحقيقية لتاريخ أمتنا وقضايانا الفكرية. فما زالت الأيام تظهرنا يوماً بعد يوم على نفائس من تراثنا المخطوط كنا نجهلها أو نعدها من المفقودات. وكم في الزوايا من خبايا.

وهذه المخطوطات التي تجود بها المكتبات الخاصة والعامة حيناً بعد حين ينبغي أن تنتهي بنا إلى الحذر في إصدار الأحكام الحاسمة وقول الكلمة الأخيرة. فإن القول الفصل في قضايا الفكر والأدب لا يصار إليه قبل استيفاء أدوات البحث، وأهم هذه الأدوات، بل عدتها الأولى: النصوص في مختلف عصورها.

وقد أتاح لي عملي بمعهد المخطوطات ـ جمعاً وفهرسة ـ وجلوسي إلى أشياخ العلم ونشري لبعض الكتب، ثم إشرافي على عدد من الرسائل الجامعية التي تدور في فلك تحقيق النصوص ـ أتاح لي ذلك كله أن أقف على غرائب وعجائب في بطون المخطوطات تنقض كثيراً مما استقر عند الباحثين والدارسين في تاريخنا الفكري، وذلك لاعتمادهم على مصادر محدودة، وغياب تلك المخطوطات التي لم تنلها أيديهم.

وإن في وجود هذا القدر الضخم من مخطوطاتنا التي تعج بها المكتبات العامة والخاصة شرقاً وغرباً، والتي تنتظر الهمم لبعثها ونشرها، ما يدل على أن هناك حلقات مفقودة في تراثنا المطبوع.

وخذ مثلاً «الكتاب» لسيبويه. وهو قرآن النحو، كما يقولون. مضى على طبعه أول مرة أكثر من مائة عام. وفي «الكتاب» من العسر والغموض على شداة العلم ما هو معروف ومتعالم، بل إن بعض إشارات سيبويه ومباحثه تدق على الخاصة، فكان ينبغي أن ينشر كل ما يتصل بهذا الكتاب الإمام، من شروح وتقييدات، وقد نشر شيء من ذلك، ولكن بقي أهم شرح له، وهو شرح أبـي سعيد السيرافي، أليست الأحكام على سيبويه وعلى «كتابه» ناقصة في غياب هذا الشرح الكبير؟ ثم «ألفية ابن مالك» أشهر نظم نحوي، نشر كثير من شروحها، ولكن بقي أهم شرح لها، وهو شرح الإمام الشاطبـي، صاحب «الموافقات»، و «الاعتصام». وكتاب «التسهيل» في النحو،

لابن مالك أيضاً، نشر شيء من شروحه، وبقي أضخم وأحفل شرح له، وهو شرح أبـي حيان المسمَّى: «التذييل والتكميل».

وعلى كثرة ما نشر من كتب علم القراءات القرآنية، فلا يزال هناك كتابان على غاية من القيمة والأهمية، أولهما في القرن الرابع، وهو كتاب «الحجة في علل القراءات السبع» لأبـي علي الفارسي، والثاني في القرن العاشر، وهو «لطائف الإشارات لفنون القراءات» للقسطلاني شارح البخاري. ويمثل الكتاب الأول قيمة كبرى في ميدان الدراسات اللغوية والنحوية والاشتقاق والأصوات ولهجات القبائل، وإلى الثاني المنتهى فيما يتعلق بالقراءات العشر والأربعة الزائدة عليها، وعلم الوقف والابتداء، ومرسوم الخط العثماني، مع ما عرض له من مباحث أخرى تتعلق بالذكر الحكيم.

حلقات مفقودة:

وفي ميدان تفسير القرآن الكريم ما زالت هناك أسفار ضخمة تمثل خير تمثيل تلك الحلقات المفقودة. ومن تلك الأسفار كتاب «البرهان في علوم القرآن» لأبـي الحسن الحوفي المصري المتوفى سنة ٤٣٠هـ. وكتابه هذا ضخم جداً، تقع مخطوطته في نحو ثلاثين مجلداً، ولا تقل إن «البرهان» للزركشي، و «الإتقان» للسيوطي يكفيان، فهذان بالنسبة إلى كتاب الحوفي قطرة في بحر، مع اختلاف المنهج والمادة العلمية. ومنها «البسيط» في التفسير، لأبـي الحسن الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨هـ، وكتابه كبير أيضاً (والبسيط هنا بمعنى المبسوط الواسع، فعيل بمعنى مفعول، وليس على ما سيظنه بعض العامة بمعنى الموجز المختصر). ومنها «الكشف والبيان في تفسير القرآن» لأبـي إسحاق النيسابوري الثعلبـي المتوفى سنة ٤٢٧هـ وهو كتاب كبير أيضاً، وقد رأيت منه نسخة نفيسة مكتوبة في السنوات ٦٢٦هـ ـ ٦٣٠هـ بمدينة الفيوم، وهذه النسخة المخطوطة محفوظة بالمكتبة المحمودية بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام، وصورتها لمعهد المخطوطات بالقاهرة سنة ١٩٧٣م.

وفي الحديث النبوي وعلومه ما زالت هناك طائفة كبيرة من مخطوطاته تنتظر التحقيق والنشر. أما الفقه وأصوله فلعلهما من أكثر علومنا غبناً في ميدان التحقيق والنشر. والعجيب حقاً أننا ما زلنا نعيش على كتب الفقه التي طبعت بمصر منذ زمن بعيد، مثل الأم للشافعي، والمهذب للشيرازي، والمجموع للنووي، وبدائع الصنائع للكاساني، وشرح فتح القدير لابن الهمام، وحاشية ابن عابدين، وبداية المجتهد لابن رشد «الحفيد»، والفروق للقرافي، والمغني لابن قدامة... ثم تنظر في فهارس المخطوطات فتجد ما لا يحصى كثرة من كتب الفقه وأصوله التي لم تطبع... ولا سبيل هنا إلى ذكر أسماء تلك المخطوطات فهي إلى الكثرة والتنوع ما هي!

وقل مثل هذا في مخطوطات أصول الدين وعلم الكلام والفلسفة. وإليك مثلاً كتاب «أبكار الأفكار» لأبي الحسن الآمدي. لماذا لم يطبع هذا الكتاب إلى الآن؟ وأساتذتنا وزملاؤنا الجامعيون يلجأون إلى مخطوطات هذه العلوم، ويجدون عناء باهظاً في الحصول على هذه المخطوطات، وفي التعامل معها، ويتمنون اليوم الذي يرون فيه هذه الآثار منشورة مطبوعة.

مخطوطات تاريخية كثيرة:

وتحتل كتب التاريخ مكانة عالية في المكتبة العربية. ولعل علم التاريخ أكثر ما صنف فيه من بين علومنا الأخرى، حيث يتنوع التأليف فيه بين التاريخ العام، كتصانيف الطبري وابن الأثير وابن كثير، وبعض تصانيف الذهبي والصفدي والعيني وابن شاكر الكتبي، إلى التاريخ الخاص، وهو ما يعرف بكتب الطبقات والتراجم، ثم التاريخ على البلدان كتواريخ مكة والمدينة والقدس وبغداد ودمشق ومصر. وتتسع بعض كتب الطبقات لمعارف تراثية أخرى غير التاريخ، كالذي نراه عند التاج السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى».

ومع هذا القدر الضخم المطبوع من كتب التاريخ فلا تزال هناك أصول مخطوطة كثيرة من هذا العلم ينبغي أن تنشر وتذيع، منها كتاب «عيون التواريخ» لابن شاكر الكتبي، ثم يأتي على رأس هذه الأصول التاريخية المخطوطة كتاب «تاريخ

الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام» لمؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي. وهذا الكتاب أضخم مؤلفات الذهبي التاريخية، ثم هو أوسع التواريخ العامة حتى عصره، تناول فيه تاريخ الإسلام من بدء الهجرة النبوية حتى سنة ٧٠٠هـ، فحصر مادة ضخمة في نطاقه الزماني الممتد عبر سبعة قرون كاملة، وفي نطاقه المكاني الشامل لجميع الرقعة الإسلامية التي امتد إليها الإسلام من الأندلس غرباً إلى أقصى المشرق، وقد شمل الحوادث الرئيسة التي مرت بها الجماعة الإسلامية منذ هجرة النبيّ ﷺ وتعاقب الأحداث والدول في شتى أنحاء العالم الإسلامي حتى نهاية القرن السابع الهجري، كما تضمن تراجم المشهورين في كل ناحية من نواحي الحياة، ولم يقتصر على فئة معينة منهم، وتقدر تراجم هذا الكتاب بأربعين ألف ترجمة، كما ذكر الدكتور بشار عواد معروف في دراسته عن «الذهبي»، وقد جمع مخطوطات هذا الكتاب العظيم.

ونأتي إلى كتب الأدب. والمطبوع منها يملأ الأرجاء، بحيث يظن الظان أنه لا زيادة لمستزيد، لكن المعنيين بجمع الكتب والمشتغلين بعلم المخطوطات، والمتابعين لما ينشر من فهارسها يعلمون أن هناك قدراً كبيراً من صغار كتب الأدب وكبارها لم يعرف طريقه للمطبعة. ولندع صغار كتب الأدب إلى كبارها ونذكر ببعض المجاميع الشعرية والنثرية التي ما زالت مخطوطة، فمنها كتاب جليل القدر هو «الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي» لأبي الفرج المعافى بن زكريا المتوفى سنة ٣٩٠هـ. ومنها كتاب «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» للشيزري المتوفَّى نحو سنة ٦١٧هـ. وهذا الكتاب مرتب على ستة عشر كتاباً في الفنون الأدبية، وفي كل كتاب عشرة أبواب.

أشهر مخطوطة شعرية:

ومن أحفل هذه المجاميع الأدبية كتاب «السفينة» لابن مبارك شاه المصري المتوفى سنة ٨٦٢هـ، وهو كتاب حاشد جمع فيه مؤلفه مختارات من دواوين الشعراء وأخبارهم وتراجمهم، ومن بدائع المنثورات والحكايات ومنتخبات من مئات الكتب

الطريفة في شتى الفنون والعلوم. ويقع مخطوط هذا الكتاب في أربعة عشر مجلداً ضخماً.

ونأتي إلى أشهر مجموعة شعرية مخطوطة، وهي كتاب «منتهى الطلب من أشعار العرب» لمحمد بن المبارك بن محمد ميمون، الذي كان حيّاً سنة ٥٨٩هـ. قال في مقدمته: «هذا كتاب جمعت فيه ألف قصيدة واخترتها من أشعار العرب الذين يستشهد بأشعارهم. وجعلته عشرة أجزاء، وضمنت كل جزء منها مائة قصيدة، وأدخلت فيها قصائد المفضليات وقصائد الأصمعي التي اختارها، ونقائض جرير والفرزدق، والقصائد التي ذكرها ابن دريد في كتابه الشوارد، وخير قصائد هذيل، والذين ذكرهم ابن سلام في الطبقات».

وقد استفاد ناشرو الشعر من هذه المجموعة، ورجعوا إليها في مخطوطتها عشرات المرات في جمع وتوثيق شعر الشعراء المقلين والمكثرين، ويوجد منها مجلدان مخطوطان.

وهذه المجموعات الأدبية المخطوطة فضلاً عما تحتويه من إضافة عزيزة لمواريثنا الأدبية، تكمل نقصاً ظاهراً في بعض ما انتمى إلينا من هذه المواريث، فإننا لا نعدم منها القطعة والبيت والبيتين والثلاثة من شعر الشعراء الذين طبعت دواوينهم المخطوطة، أو جمعت جمعاً.

وبعد... فهذا حديث موجز مقتضب عن تلك الحلقات المفقودة من تراثنا المطبوع. وهي حلقات توجد مخطوطاتها مفرقة في مكتباتنا ومكتبات العالم، تنتظر صلاح الأزمان وهمم الرجال لنشرها وإذاعتها.

* * *

دار الكتب.. ونشر التراث في مصر[1]

في أوائلِ الستينات أخذتُ طريقي إلى دار الكتب المصرية، طالب علم يلتمس رزقه في نسخ المخطوطات العربية، وكانت الدار يومئذ تقف في ذلك المكان المعروف بميدان باب الخلق، مهيبة شامخة، فكان الداخل إليها لا يملك إلا أن يُنشد قول الشريف الرضي، وقد نظر إلى مدينة الحيرة وآثارها:

شهدت بفضل الرافعين قبابها ويبين بالبنيان فضل الباني

ثم يترحم على رافع الدار وبانيها «علي باشا مبارك».

وكنت بالغدو والآصال أمر على قسم المطبوعات بالدار، فأجد أشتاتاً من نفائس المطبوعات التي أخرجتها الدار وعرضتها بأبخس الأثمان. وكنت أرى الناس أفواجاً ومن كل بقعة يتزاحمون على شراء هذه المطبوعات لنفاستها ورخصها.

وفي تلكم الأيام أيضاً رأيت بقية من هذه الطائفة الجليلة من أشياخ العلم التي كانت تقوم على تصحيح الكتب بالدار، فيما كان يعرف بالقسم الأدبي، وكان هناك رجل من أفاضل الناس، هو الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، رحمه الله، الذي كان يتعهد هذه الذُّبالة المرتعشة، ويمدها بالزيت حتى لا تنطفىء.

ثمَّ تمادت بي الأيام، فنسختُ وقرأتُ وأبصرتُ وسمعتُ وسألتُ. وكان مما عنيت به التأريخ لنشر التراث العربي، في ديارنا وغير ديارنا ــ على ضعفي وقلة حيلتي ــ وقد رأيت هذا التاريخ يسير في مراحل مختلفة، ورأيت مطبوعات دار

(١) مجلة «الهلال»، فبراير ١٩٩٢م.

الكتب المصرية تمثل من هذه المراحل مرحلة متميزة غاية التميز، هي بالقياس إلى ما سبقها من مراحل تمثل مرحلة النضج والكمال، من حيث استكمال الأسباب العلمية، واصطناع الوسائل الفنية المعينة على إخراج التراث إخراجاً دقيقاً، يقوم على جمع نسخ الكتاب المخطوطة، والمفاضلة بينها، ثم اتخاذ إحدى النسخ أُمّاً أو أصلاً، وإثبات فروق النسخ الأخرى، وما يتبع ذلك من إضاءة النص ببعض التعليقات والشروح، وصنع الفهارس التحليلية الكاشفة لكنوز الكتاب، وما يسبق ذلك كله من التقديم للكتاب وبيان مكانه في المكتبة العربية، وموضعه من كتب الفن الذي يعالجه، تأثراً وتأثيراً، ثم الترجمة لمؤلفه.

ولا بد من الاعتراف بأن ذلك المنهج الذي أصَّلته مدرسة دار الكتب المصرية للمحققين العرب، قد تأثر إلى حد ما بمناهج المستشرقين الذين شغلوا بتراثنا، ونشطوا لإذاعته ونشره، منذ القرن الثامن عشر الميلادي أو قبله بقليل.

المكتبة الزكية:

وكان صاحب الفضل في مد الجسور بين مصر وأوروبا ــ فيما يتصل بنشر التراث ــ أحمد زكي باشا، الذي اتصل بعلماء الاستشراق، ومثّل مصر في مؤتمراتهم. وهذا أحمد زكي باشا رجل من رجال مصر الأفذاذ، كان من كبار الكتاب والخطباء، ولد بالإسكندرية عام ١٨٦٧م. وتخرج بمدرسة الحقوق بالقاهرة، وأتقن الفرنسية، وكان يفهم الإنجليزية والإيطالية، وقام بفكرة إحياء الكتب العربية، وأحكم صلته برجالات العرب في جميع أقطارهم. وكان شديد الحب للعربية، ولقب نفسه بشيخ العروبة، وسمَّى داره بيت العروبة، وجمع مكتبة في نحو عشرة آلاف كتاب، ووقفها، فنقلت بعد وفاته إلى دار الكتب وسميت فيها: المكتبة الزكية، توفي سنة ١٩٣٤م.

يقول عنه شيخي عبد السلام هارون رحمه الله: «ولعل أول نافخ في بوق إحياء التراث العربي، على المنهج الحديث في مصر، هو المغفور له أحمد زكي باشا، الذي قام بتحقيق كتاب «أنساب الخيل» لابن الكلبي، و «الأصنام» له أيضاً، وقد

طبعا في المطبعة الأميرية ـ مطبعة بولاق ـ سنة ١٩١٤م باسم لجنة إحياء الآداب العربية التي عُرفت فيما بعد في دار الكتب المصرية باسم القسم الأدبـي، ولعل هذين الكتابين مع كتاب «التاج» للجاحظ الذي حققه أيضاً في السنة نفسها، من أوائل الكتب التي كتب في صدورها كلمة «بتحقيق»، كما أن تلك الكتب قد حظيت بإخراجها على أحدث المناهج العلمية للتحقيق، مع استكمال المكملات الحديثة، من تقديم النص إلى القراء ومن إلحاق الفهارس التحليلية.

ويضاف إلى ذلك أنه أول من أشاع إدخال علامات الترقيم الحديثة في المطبوعات العربية، وألف في ذلك كتاباً، سمَّاه: «الترقيم في اللغة العربية» طبع في مطبعة بولاق، سنة ١٩١٣م. ومما حققه شيخ العروبة أيضاً كتاب: «نَكْت الهِمْيان في نُكَت العميان» لصلاح الدين الصفدي. ونشره بمطبعة الجمالية سنة ١٩١١م، ثم قدمه إلى أعضاء المؤتمر الدولي الرابع لتحسين حالة العميان.

وعلى وقع خطوات أحمد زكي باشا، وبهدي من توجيهه وإرشاده، تكوَّن القسم الأدبـي بدار الكتب المصرية، امتداداً للجنة إحياء الآداب العربية التي أسسها شيخ العروبة، وطبع تحت شعارها «أنساب الخيل» و «الأصنام». وقد قام هذا القسم الأدبـي بعبء ضخم حين نشر عيوناً مما تركه أهل العلم من آبائنا الأولين.

ولقد كان هذا القسم مدرسة كبرى في القدوة المثالية للمحققين المعاصرين، وكان يضم مشيخة جليلة من العلماء الكرام البررة، الذين أخلصوا لله فيما أسند إليهم، أذكر منهم: أحمد زكي العدوي، والشاعرين أحمد الزين وأحمد نسيم، وعبد الرحيم محمود، ومحمد عبد الجواد الأصمعي، ومحمد عبد رب الرسول، والعالم الجزائري الشيخ إبراهيم أطفيش. ومما يُستطرف ذكره هنا أن الشيخ محمد الخضر حسين، العالم التونسي الجليل قد عمل زماناً مصححاً بدار الكتب المصرية. وهذا الشيخ الخضر حسين التونسي المولد والنشأة قد تولى مشيخة الأزهر، أول قيام الثورة المصرية. وهذا من أكبر الدلائل على أن مصر لا تعرف التعصب.

عناية بالتراث:

وقد بدأ القسم الأدبي نشاطه في إذاعة التراث ونشره من خلال مطبعة بولاق الكبرى، وكان من ذلك موسوعة «صبح الأعشى» للقلقشندي الذي ظهر في ١٤ مجلداً سنة ١٩٢٠م باسم دار الكتب المصرية، ثم أنشأت الدار مطبعة خاصة بها، جمعت لها كل أسباب الجودة والإتقان، فخرج الكتاب التراثي من هذه المطبعة في أبهى حلة وفي أنقى صورة، وتستطيع أن تقول في اطمئنان أنها أول مرة تحظى كتب التراث بتلك العناية الفائقة، وافتَحْ جزءاً من كتاب «الأغاني» أو «تفسير القرطبي» واعجَبْ ما شئتَ لهذا السخاء في جمال الحرف وتنسيق السطور واتساع حواشي الصفحات، ثم دقة التصحيح والمراجعة، ولا يكاد يشبه مطبوعات الدار هذه إلّا مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر، مثل: «سمط اللآلي»، و «إمتاع الأسماع» للمقريزي، و «شرح الحماسة» للمرزوقي، ومطبوعات دار المعارف في أيامها الأولى.

ولعل أول كتاب صدر عن القسم الأدبي عن مطبعة الدار هو «نهاية الأرب» للنويري الذي بدأت طبعه محققاً سنة ١٩٢٣م، وقد كانت الصيحة المدوية لدار الكتب المصرية تبنِّيها لطبع كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني، بعد طبعات سابقة في مصر وفي أوروبا، وقد تكفل بنفقات طبعه رجل من أعيان مصر هو «السيد علي راتب» المتوفى سنة ١٩٥٥م. وصدر الجزء الأول منه سنة ١٩٢٧م، وحظي بعناية كاملة، في إعداد الأصول، ودقة التصحيح، وصنع الفهارس التحليلية، في نهاية كل جزء من أجزائه.

وفي مطبعة دار الكتب المصرية، وعلى منهجها القويم، خرجت هذه النفائس: تفسير القرطبي (عشرين جزءاً)، والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لابن تغري بردي (١٢ جزءاً)، وكان صاحب الفضل في نشر هذا الكتاب، عبد الخالق ثروت باشا رئيس وزراء مصر، سنة ١٩٢٢م، فهو الذي أشار على الدار بطبع الكتاب، وكان لهذا الوزير عناية بالعلم ونشره، فقد كان عضواً في تلك الجمعية الخيرية التي قامت على نشر كتاب «المخصص» لابن سيده، سنة ١٩٠٢م.

ومن إصدارات دار الكتب في ذلك الزمان: شروح سقط الزند، لأبـي العلاء المعري (خمسة أجزاء)، والتعريف بآثار أبـي العلاء (مجلد ضخم)، وعيون الأخبار لابن قتيبة (أربعة أجزاء)، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيـى بن حمزة العلوي (ثلاثة أجزاء)، وأساس البلاغة للزمخشري (جزءان) والفاضل للمبرد، والمعرَّب للجواليقي، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، رحمه الله رحمة سابغة.

ومن دواوين الشعر: ديوان الهذليين (ثلاثة أجزاء)، ودواوين: مهيار الديلمي (أربعة أجزاء)، وزهير بن أبـي سلمى، وابنه كعب، وحميد بن ثور، وسحيم عبد بني الحسحاس، وجِران العَوْد، ونابغة بني شيبان، وتميم بن المعز لدين الله الفاطمي. ومن الموسوعات التي بدأت الدار طبعها ولم تتمه: مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، والمنهل الصافي لابن تغري بردي.

وتدور الأيام، وتضعف العزائم بضعف الرجال، ويدعو الداعي إلى شيء نُكُر، وهو إلغاء القسم الأدبـي، يقول شيخنا عبد السلام هارون، رحمه الله: «ثم ضعفت العناية بهذا القسم، إلى أن تولى الأستاذ أمين مرسي قنديل إدارة دار الكتب، فقام بمجهود ضخم جدّاً، إذ حاول أن ينقذ هذا القسم من الفناء، فدبَّت الحركة فيه، ولكن الظروف لم تسعفه بتنفيذ فكرته النشيطة، وكاد القسم الأدبـي في عهده يرتقي القمة في نشر موسوعات التراث، ولكن أطاحت بذلك فكرة خاطئة مغرضة، تزعم أن ليس من وظائف دور الكتب في أوروبا أن تضطلع بنشر التراث، وكأننا في جميع خطواتنا إنما نترسم أوروبا، في حقها وباطلها».

قلت: وحين تولى الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم أشلاء هذا القسم المذبوح، حاول أن ينفخ فيه، فصدر في أيامه: إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي، والخصائص لابن جني، ومعاني القرآن للفراء، والمعارف لابن قتيبة.

وفي منتصف الستينات أراد القائمون على دار الكتب إعادة القسم الأدبـي، فيما سمَّوه: «مركز تحقيق التراث»، وتكون غايته نشر أعمال تراثية، ثم إعداد جيل

يتلقى فن التحقيق بوجه عملي، على يد بقية شيوخه وأعلامه، في رحاب دار الكتب حيث تتوفر المراجع: مخطوطة ومطبوعة. وقد وفق هذا المركز في نشر بعض الكتب بتحقيق علماء لهم في تحقيق النصوص سابقة، ومعاونة نفر من الشباب أُريد تدريبهم على تحقيق النصوص. ومن هذه الكتب: ديوان ابن الرومي (ستة أجزاء)، ومقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، وكتاب الموسيقى الكبير للفارابي، والمذكر والمؤنث للمبرد، ولأبي البركات الأنباري، وكتاب الجواهر وصفاتها ليحيى بن ماسويه، ولا يزال هذا المركز قائماً، ولكن نشاطه قلَّ بصورة واضحة، ولعل الله يهيىء له من يقيل عثرته.

وقد أفسحت مطبعة دار الكتب المصرية مكاناً للهيئات العلمية من خارج مصر، فطبعت لحساب دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ــ الهند، كتابين جليلين، أحدهما: «معرفة علوم الحديث» للحاكم النيسابوري، سنة ١٩٣٧م، وثانيهما كتاب: «إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم» لابن خالويه، سنة ١٩٤١م.

وبعد... إن لدار الكتب المصرية تاريخاً عريقاً في نشر الكتاب العربي، ولكن عوامل كثيرة من الاستلاب والمسخ والتشويه تحجب هذا التاريخ أو تطمسه. لكن القضية أكبر من ذلك: إن تاريخ مصر يُغتال، وإن صفحات رجالها تطوى، وإن أيامها تُغَيَّب. وكل ذلك يتم بأيدينا وأيدي غيرنا، ثم نقول: إن هذا الجيل ضعيف الانتماء لمصر! واللّٰهُمَّ لا؛ إن في هذا الجيل خيراً كثيراً، لكن الذين يعرضون عليه أمجاد مصر يقفون به أحياناً عند مظاهر هينة جداً من تاريخ الأيام والرجال، ويذرون وراءهم أياماً عظيمة ورجالاً كباراً. وإن من أوجب الواجبات أن تنشر أمام هذا الجيل صفحاتنا المضيئة، ومن أهمها تاريخنا وجهادنا في طبع الكتاب العربي والإسلامي، فقد غبر زمان وجاء زمان وليس بين أيدي الناس ــ عرباً وعجماً ــ من جياد الكتب إلا ما طبع بمصر.

ثم جاء الزمان النكد، ودارت آلات الطباعة الغاصبة (الأوفست) تأكل تاريخ مصر أكلاً، وتغتال أيام الرجال اغتيالاً، فتنزع من فوق الأغلفة ومن خواتيم الكتب

زمان ومكان الطبع، ثم تمادت فأسقطت أسماء المصححين والمحققين، ليقال بعد ذلك إن الحركة الثقافية قد انتقلت من مصر إلى البلد الفلاني والبلد الفلاني، ثم ليقال أيضاً:

كـلا أبـويكـم كـان فـرعـا دعـامـة ولكنهـم زادوا وأصبحـت نـاقصـا

ويعلم الله... إنها ليست عصبية البلد تحملنا على ما نقول، ولكنها العصبية للحق المهدر، والغضب للتاريخ المهان، وربك يفعل ما يشاء.

* * *

لسان العرب لابن منظور[1]

خرج من مصر ــ تأليفاً وطباعة ــ أضخم معجمين في تاريخ المعاجم العربية: لسان العرب لابن منظور المتوفى ٧١١هـ، وتاج العروس من جواهر القاموس للمرتضى الزبيدي المتوفى في سنة ١٢٠٥هـ. ومع أن تاج العروس هو أغَزر المعاجم اللغوية مادة وأكثرها شمولاً، فإن لسان العرب قد ذهب بالشهرة كلها: لأسباب ودواعٍ يأتيك حديثها.

وابن منظور: هو أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرَّم بن علي الأنصاري الإفريقي المصري، ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل رُوَيْفع بن ثابت رضي الله عنه، وقد ذكر ابن منظور هذا النسب في مادة (جرب) من اللسان.

ولد ابن منظور يقيناً بالقاهرة سنة ٦٣٠هـ، ونشأ بها وتعلم وصنّف، وتوفي سنة ٧١١هـ ودفن بقرافتها. و «الإفريقي» في نسبه معناها التونسي، فقد كانت إفريقية في ذلك الزمان يراد بها تونس الآن. وقد وُلد جد ابن منظور «علي» في تونس، ثم غادرها إلى القاهرة، وبها ولد ابنه «مكرَّم» والد ابن منظور، ثم ولد هذا وإخوته بها. وقد ذهب بعضهم إلى أن ابن منظور وُلد بتونس، وذهب آخرون إلى أنه ولد بطرابلس الغرب.

يقول الدكتور إحسان عباس: «وقد ثار في السنوات الأخيرة جدل حول منتمى ابن منظور، أملته النظرة الإقليمية، أهو إفريقي أم مصري... ولو تأملت هذا الكلام من جميع هؤلاء الدارسين لتملكك العجب، ودهشت لهذا الذي يجري في

---

(١) مجلة «الهلال»، مارس ١٩٩٢م.

الدراسات والتحقيقات، من استنامة إلى السهول والتساهل، مع أن الأدفوي يقول في البدر السافر: محمد بن مكرَّم الإفريقي المحتِد القاهري المولد. وهذا ابن سعيد يروي نقلاً عن المكرَّم نفسه والد محمد، أنه أي المكرَّم ـ ولد بالقاهرة. فإذا كان الأب نفسه ولد بالقاهرة فبأي حق يفتش الدارسون عن عبقرية إفريقية (تونسية) ولدى ابن منظور؟».

ومهما يكن من أمر فقد عرف ابن منظور بالاشتغال بالأدب، نظماً ونثراً، مع معرفة بالنحو واللغة والتاريخ، وتولى كتابة الإنشاء بالدولة، وكان كثير النسخ، ذا خط حسن. وقد شهر باختصار الكتب.

التصنيف والتدوين:

ومع هذا النشاط الظاهر في الاشتغال بعلوم العربية واختصار مصنفاتها، فما عرف ابن منظور وما شهر إلا بكتابه العظيم: لسان العرب.

وقد جاء ابن منظور بعدما استقر التأليف المعجمي، واتضحت طرائقه ومدارسه. وقد بدأ التصنيف المعجمي ـ كما هو معروف ـ موازياً للتدوين في علوم العربية، في النصف الأول من القرن الثاني، وتمثل ذلك في تلكم الرسائل الصغيرة التي تناولت موضوعات بعينها، مثل ما كتب في خَلْق الإنسان والبهائم والحشرات، والإبل والخيل والنخل والنبات والمطر واللبن، وما كتب في نوادر الأبنية، ثم ما كتب في غريب القرآن والحديث. قام بهذا اللغويون الأوائل، مثل أبي خيرة الأعرابي، وأبي عمرو بن العلاء، وأبي مالك الأعرابي، وأبي زيد، والأصمعي، وأبي عبيدة معمر بن المثنى، وأبي عُبيد القاسم بن سلاّم.

وفي ذلك الزمان أيضاً قام الخليل بن أحمد بتصنيف أول معجم متكامل، وهو المعجم الرائد «العين» الذي رتّبه على مخارج الحروف. وبجانب هذا التأليف المعجمي الخالص الذي بدأه الخليل قام العلماء من النحاة واللغويين بصنع دواوين الشعراء وشرحها، من أمثال الأصمعي وتلميذه أبي نصر الباهلي، وأبي عمرو

الشيباني وابن السكيت وثعلب والسكري. وقد قدم هؤلاء مادة لغوية غزيرة من خلال شرح ما صنعوه وما جمعوه من شعر.

هذا إلى اهتمام علماء كل فن وعلم باللغة، يقدمونها أمام كل بحث، ويُعْنَوْن بها قبل كل كلام. ولا عجب في هذا، فاللغة هي المدخل الحقيقي لمعرفة علومنا كلها وتاريخنا كله، والاستهانة بها والتفريط في قواعدها ورسومها إنما هي استهانة وتفريط بمعارفنا وعلومنا كلها.

وقد انتهى إلى ابن منظور حصاد طيب في التصنيف المعجمي، نظر فيه واستصفى منه خمسة كتب بنى عليها معجمه، وهذه الكتب بحسب ذكره لها: تهذيب اللغة للأزهري (٣٧٠هـ)، المحكم لابن سيده (٤٥٨هـ)، والصَّحاح للجوهري (حدود ٤٠٠هـ)، والحواشي عليه لابن بَرِّي المصري (٥٨٢هـ) وتسمى هذه الحواشي: التنبيه والإيضاح عما وقع في الصَّحاح. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٦٠٦هـ).

وتمثل هذه المراجع الخمسة ثلاث مدارس في التأليف المعجمي: المدرسة الأولى، مدرسة ترتيب المواد اللغوية وفق مخارج الحروف، وهي مدرسة الخليل بن أحمد، ويمثلها من هذه الكتب: التهذيب والمحكم. والمدرسة الثانية: التي ترتب المواد على الجذور اللغوية (أصل الاشتقاق) واعتبار الحرف الأخير منها باباً، والحرف الأول فصلاً، مع مراعاة الترتيب الألفبائي فيما بين حرفي الباب والفصل. ويمثل هذه المدرسة الصَّحاح وحواشيه. والمدرسة الثالثة: التي ترتب المواد وفق الأول والثاني والثالث. ويمثلها النهاية.

وقد ارتضى ابن منظور من مناهج هذه المدارس منهج المدرسة الثانية، مدرسة الصَّحاح، ورتب كتابه على أساسها، وأخضع المدرستين الأخريين لها. وقد صدَّر ابن منظور معجمه بمقدمة أبان فيها عن منهجه، وأنبأنا أنه تغيَّا من تأليفه هذا غايات ثلاثاً:

الغاية الأولى تعليمية، وتمثلت في نقده لطريقة ترتيب المواد وفق المخارج، ويصف ذلك بقوله: إنه «مطلب عسر المهلك، ومنهل وعر المسلك، وكأن واضعه شرع للناس مورداً عذباً وحلأَّهم عنه».

غيرته على العربية:

والغاية الثانية غاية دينية، يقول: «إنني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية وضبط فضلها، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية».

وتأتي الغاية الثالثة، ويمكن أن نسميها غاية قومية وطنية، باعثها الغيرة على العربية والعصبية لها، بعد أن اطرح الناس الحديث بالعربية، وهجروها إلى اللغة الأعجمية وهي التركية في ذلك الزمان ــ يقول ابن منظور: «وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون، وصنعته كما صنع نوح الفُلك وقومه منه يسخرون».

هذا ما قاله ابن منظور منذ سبعمائة عام عن حال اللغة العربية بإزاء اللغة الأجنبية، فماذا نحن قائلون الآن؟.

ويصرّح ابن منظور في مقدمته بأن عمله في معجمه لم يخرج عن حدود ما في مراجعه الخمسة، فيقول: «وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمُتّ بها ولا وسيلة أمسك بسببها سوى أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم. . . فمن وقف فيه على صواب أو زلل أو صحة أو خلل فعهدته على المصنف الأول، وحمده وذمه لأصله الذي عليه المعول؛ لأنني نقلت من كل أصل مضمونه، ولم أبدّل منه شيئاً فيقال: «فإنما إثمه على الذين يُبَدّلونه».

وقد أغرى هذا الكلام كثيراً من الباحثين، وثبّت لديهم أن ليس لابن منظور في «اللسان» إلا الجمع والترتيب. والحقيقة أن هذا الكلام جرى على لسان ابن منظور على سبيل التواضع وهضم النفس، وهو نمط من الكلام معهود عند كثير من أهل العلم فينا الذين لا يذهبون عن أنفسهم، ولا يتعلقون بالباطل فيضعون أنفسهم فوق هامات السابقين، وإنما يظهر الكِبَر ويفشو العُجْب بالنفس عندما تضعف العزائم وتصغر النفوس.

فابن منظور لم يقف عند هذه الكتب الخمسة وحدها، فقد استطرد إلى ذكر فوائد من قراءاته وسماعاته، وحكى عن معاصريه من العلماء، ونقل نقد العلماء لما بين يديه من مواد.

هذا وقد ضمّ «اللسان» قدراً هائلاً من المواد اللغوية، ممزوجة بمعارف أخرى استمدها من مراجعه الخمسة المذكرة بمناهجها واهتماماتها المختلفة: فقد أخذ من تهذيب الأزهري هذا القدر الضخم من الأبنية والمترادفات والمشترك اللفظي، وشواهد القرآن الكريم والحديث الشريف، وأشعار العرب وأقوالها وأمثالها، إلى جانب ذلك الاهتمام المبكِّر بالناحية البلدانية الجغرافية التي استوعب بها الأزهري التعريف بكثير من بلدان ومواضع ومياه الجزيرة العربية، مما كان أساساً للجغرافيين العرب من بعد، مثل أبـي عبيد البكري في «معجم ما استعجم»، وياقوت في «معجم البلدان»، وللغويين الذين اهتموا بالمواضع والبلدان، من أمثال الفيروزآبادي في «القاموس المحيط»، والزبيدي في «تاج العروس».

ثم أخذ عن الجوهري وابن سيده ما ضمناه معجميهما من التوجيهات النحوية والصرفية وقضايا الاشتقاق.

ومن ابن بري أخذ عنايته الفائقة بتصحيح الشواهد الشعرية وتحريرها ونسبتها.

ومن ابن الأثير شرحه لغريب أحاديث رسول الله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

الأدب سبيل المعرفة:

أخذ ابن منظور هذا كله، وأضاف إليه قراءاته ومسموعاته، وأحسن جمعه وترتيبه، وأجاد عرضه، وأعانه على ذلك اشتغاله بالأدب. وقد كان الأدب ولا يزال خير سبيل لإيصال المعرفة، وسرعة انصبابها إلى السمع، واستيلائها على النفس، والبليغ يضع لسانه حيث أراد، ويمهّد لنفسه طريقاً إلى كل قلب، وإنك لتجد كثيراً من الدراسات قد جمعت فأوعت، لكنها لم تبلغ مبلغها من النفع والفائدة لجفافها وعُسْرها وتجافيها عن الأدب.

وبذلك أصبح «لسان العرب» كتاب العربية، يجد فيه طالبه كل ما يريد، وأصبحت قراءته متعة تطلب لذاتها، إذ سلم من جفاف المعاجم التي تقف عند حدود الدلالة وشرح اللفظ المفرد أو التركيب المعزول عن سياقه، وكم عرفنا من أدباء وعلماء يديمون قراءة «اللسان» كما يقرأ أحدهم كتاباً للشافعي أو الجاحظ أو أبي حيان.

وقد أخبرني شيخي محمود محمد شاكر ــ حفظه الله ــ أنه قرأ «لسان العرب» كله وهو تلميذ بالثانوي، ثم أخبرني أيضاً أن أمير الشعراء أحمد شوقي قرأ «اللسان» كله. قلت: ولعل هذا يفسر لنا «معجم شوقي الشعري» ــ والنثري أيضاً في أسواق الذهب ــ هذا المعجم الذي يدهشنا بهذه الألفاظ والتراكيب الضاربة في الفصاحة بعُرُوقها.

وما أحرانا أن ندفع أبناءنا في كليات الدراسات العربية والإسلامية، إلى قراءة المعاجم، وكثرة التفتيش فيها والصبر عليها، بدلاً من وقوفنا بهم عند حدود تلك الدراسات النظرية التي تتناول نشأة المعجم ومدارسها، ثم تنتقل إلى ذكر عيوب المعجم العربي. ولئن سلّمنا ببعض هذه العيوب فإنها مما لا ينبغي أن تعرض على طالب العلم في مراحله الأولى، بل يؤجل ذلك وأشباهه إلى مراحل الدراسات العليا، لأنه لا يصح بحال أن نكشف لصغار الطلبة ــ وهم في هذه المرحلة الجامعية الأولى ــ عن أبواب النقد هذه، وأن ندلهم عليها، فإن مداركهم تقصر عن إدراك تلك المرامي البعيدة، فضلاً عما يحدثه ذلك في نفوسهم من زلزلة وبلبلة قد تزهدهم في العلم كله.

ومن آدابنا في ذلك ما ذكره أبو داود في رسالته إلى أهل مكة، قال: «إنه ضرر على العامة أن يكشف لهم كل ما كان من هذا الباب فيما مضى من عيوب الحديث: لأن علم العامة يقصر عن مثل هذا»، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «وهذا كما قال أبو داود، فإن العامة تقصر أفهامهم عن مثل ذلك، وربما ساء ظنهم بالحديث جملة إذا سمعوا ذلك» ــ شرح علل الترمذي ص ٥٣٤.

طبعات اللسان:

كان من حظ كثير من آثارنا الكبرى أن تطبع في ذلك الزمان الرخيّ المهنيء، حيث كانت مصر تُشع علماً وحضارة، فعلماؤها مستقرون، ومكتباتها زاخرة، ومجالس العلم بها مشهودة، واحترام العربية باسط سلطانه، والحياء عاصم، والنقد بالمرصاد.

وكانت مطبعة بولاق الكبرى في ذلك الزمان منارة علم باذخ، ومركز ضوء باهر، وقد طبعت من أصول العلم وكبار الكتب ما أخرج الناس من الظلمات إلى النور. وكان من أجلّ مطبوعاتها «لسان العرب» ما بين سنتي ١٣٠٠هـ ــ ١٣٠٧هـ، وقد اجتمع لهذه الطبعة من آيات الإتقان والكمال ما لم يجتمع في كتاب: فالنسخ المخطوطة جيدة، والضبط كامل تغلب عليه السلامة، والتصحيح دقيق، حيث كان يتولى التصحيح بمطبعة بولاق مشيخة جليلة من علماء الأزهر الشريف. وقد جاءت هذه الطبعة في عشرين مجلداً من القطع الكبير، متوسط كل مجلد ٤٥٠ صفحة.

ثم كانت النشرة الثانية للكتاب بدار صادر ببيروت سنة ١٩٥٥م في ٦٥ جزءاً صغيراً جُعلت بعد ذلك في ١٥ مجلداً، ويقول عن هذه النشرة شيخنا عبد السلام هارون رحمه الله: «وكان من المتوقع أن تسلم هذه النشرة من كثير من أخطاء النشرة الأولى، ولكن من المؤسف أن الأخطاء والتحريفات التي وردت في النشرة الأولى، أي طبعة بولاق، قد زيد عليها كثير من أمثالها، وإن كان من الحق أن بعض الأخطاء القديمة قد عولج فيها بنسبة ضئيلة جداً» ــ تحقيقات وتنبيهات في معجم لسان العرب ص ٤، ٥.

وفي السنوات الأخيرة أصدرت دار المعارف بمصر طبعة ثالثة من اللسان بعد أن غيرت ترتيبه من نظام التقفية (الباب والفصل) إلى الترتيب على الحرف الأول والثاني والثالث، كما رتب الزمخشري معجمه «أساس البلاغة»، والفيومي معجمه «المصباح»، وإن كان هذا الترتيب أقدم من الزمخشري والفيومي، وتفصيل ذلك في غير هذا المكان.

عمل غير صالح!

وهذا الذي أقدمت عليه دار المعارف، في نظري عمل غير صالح؛ لأن فيه جرأة على أعمال السابقين، وقد قال أصحاب دار صادر في نشرتهم للسان: «وأشير علينا أن نغير ترتيب «اللسان»، ولكنا آثرنا أن يبقى على حاله حفظاً للأثر من أن يُغَيَّر» وهذا هو الحق والصواب، فإن ابن منظور ــ ومن قبله الجوهري ــ قد رتّب معجمه على اعتبار آخر الكلمة وأولها بعد تجريدها من الزوائد، لأسباب اقتضت ذلك، ومن أهم هذه الأسباب أن آخر الكلمة ثابت تصريفاً واشتقاقاً، وإنما تطرأ الزيادة والتغيير على الأول والحشو (الوسط). وإعادة ترتيب المادة المعجمية على الأول والثاني ينقض ذلك فضلاً عما يحدثه من تعريض منهج المؤلف للاضطراب، من حيث اختلال الإحالات والإرشادات تقديماً وتأخيراً، فالمؤلف يقول وفق منهجه: تقدم ذلك، أو: سيأتي، ولا يستقيم هذا على المنهج المقلوب، فقد يكون المقدم آتياً، والآتي مقدماً.

ويرتبط بتلك الدعوة دعوة أخرى خطيرة، وهي ترتيب المادة اللغوية داخل المعجم على ظاهر اللفظ، دون رعاية للتجريد والزيادة. وفي هذا إضاعة لعلم كبير من علومنا، هو علم الصرف والاشتقاق. ومما ينبغي التنبيه عليه هنا: أن بعض علمائنا الأقدمين قد ذكر في معجمه بعض الألفاظ على ظاهر لفظها لشيوع الكلمة بشكلها هذا، لكنه كان ينبه في كل مرة إلى أن أصل الكلمة هو كذا.

ومن هؤلاء العلماء ابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦هـ في معجمه: «النهاية في غريب الحديث والأثر»، وهو من المعاجم المتخصصة التي رتبت المادة على الأول والثاني والثالث، فقد ذكر في باب الحاء والدال والهاء حديث: «فجعلتُه في قبر على حدة» ثم قال: «أصلها من الواو، فحذفت من أولها وعوّض منها الهاء في آخرها، كعدة وزنة من الوعد والوزن، وإنما ذكرناها هنا لأجل لفظها».

لكننا إذا رتبنا معاجمنا كلها على هذا المنهج، ونبهنا في كل مرة على الأصل الاشتقاقي تضخمت تلك المعاجم جداً فيما لا غناء فيه ولا طائل تحته.

أما ما يقال عن التيسير والتسهيل فهو كلام من يظن أن أبناء العربية كلهم صاروا تلاميذ في مرحلة التعليم الثانوي أو ما هو دونه، وأننا قد تحولنا جميعاً إلى طبقة من العوام لا تقوى على المناهج الموروثة، ولا تطول يدها الكتب الكبار، واللهم لا! ولا ينبغي أن يكون التيسير والتسهيل سبيلاً إلى طمس المعالم وهدم الحدود.

ومن وراء ذلك كله فإن السالك هذا السبيل لا يأمن العثرة بعد العثرة، والزلة إثر الزلة، وما أريد أن أطيل بذكر الأمثلة والشواهد، لكنني أشير هنا إلى عملين تراثيين سلكا هذا المسلك، وما كان ينبغي لهما ذلك، أولهما: كتاب «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» لأبـي عبيد البكري الأندلسي المتوفى ٤٨٧هـ، وقد نشره الأستاذ مصطفى السقا رحمه الله سنة ١٩٤٥م. والكتاب في أصل وضعه مرتب على الأبجدية المغربية التي تخالف الأبجدية المشرقية في ترتيب الحروف، وحين نشره الأستاذ السقا أعاد ترتيبه على أبجديتنا المشرقية المعروفة، وقد أدى هذا إلى اختلال في إحالات المؤلف تقديماً وتأخيراً. قد تربك القارىء الذي لم يقرأ مقدمة الأستاذ المحقق. ثم إنه رحمه الله قد تصرف في الكتاب تصرفاً آخر أشار إليه في مقدمته.

ومن العجيب حقاً أن الناشر الأول للكتاب، هو المستشرق الألماني «وستنفلد» حافظ على ترتيب المؤلف للكتاب، وذلك في نشرته التي صدرت بجوتنجن بألمانيا سنة ١٨٧٦م، ثم أضاف إليه فهرسة على ترتيب أهل المشرق للحروف، فأحسن كل الإحسان.

والمثال الثاني: كتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» ــ الصحابة رضي الله عنهم ــ لابن عبد البر القرطبـي المتوفى ٤٦٣هـ. وقد رتب كتابه هذا أيضاً على ترتيب الحروف عند المغاربة، فجاء ناشره الأستاذ علي محمد البجاوي رحمه الله، وقلب هذا الترتيب ورده إلى الترتيب المشرقي، وقد أدى ذلك إلى سقوط بعض التراجم التي استدركها الناشر في آخر طبعته.

فالحق والصواب أن تترك الكتب كما وضعها مؤلفوها، ثم يلجأ إلى الفهارس

والكشافات تيسيراً وتسهيلاً، كما فعل «وستنفلد» في نشرته لكتاب البكري، وكما صنع شيخنا عبد السلام هارون رحمه الله في فهارس «تهذيب اللغة» للأزهري، ومن الطريف هنا أن شيخي محمود محمد شاكر حفظه الله لا يزال حريصاً على ترتيب مواد اللغة على طريقة الباب والفصل (أصل الاشتقاق).

إنَّ البرّ بتراث الآباء والأجداد، واحترام التاريخ، يقتضينا أن نأخذ بأيدي أبنائنا إلى ذلك الموروث، نخوض بهم لججه، ونسلك معهم دروبه، ونفتح لهم مقفله، وهكذا تتواصل أجيال المعرفة، فيحرص اللاحق على إرث السابق، ويصونه كما يصون كرام الأبناء ودائع الآباء. أما إذا لجأنا إلى إعادة الترتيب والاختصار وما أشبههما فإننا نباعد بينهم وبين تاريخهم، ونتركهم كالذي لا يعرف من النهر الكبير إلا ما يأتيه به الجدول الصغير.

* * *

الشيخ مصطفى إسماعيل وقرَّاء مصر[1]

كانت نفحة عطرة، تلك التي نشرها قلم الشاعر الناقد (السمِّيع) الأستاذ كمال النجمي ــ أطال الله في النعمة بقاءه ــ وذلك في كتابه «الشيخ مصطفى إسماعيل ــ حياته في ظل القرآن».

والحديث عن الشيخ مصطفى إسماعيل، رحمه الله، يستدعي تاريخاً عريضاً ممتداً عن إقراء القرآن وقراءته بمصر، وهو تاريخ حافل بكل عجيبة وغريبة. ولقد سمعنا من أهل العلم في ديارنا وغير ديارنا هذه الكلمة المأثورة: «القرآن الكريم نزل بمكة وقرىء في مصر وكتب في استانبول»، وهي كلمة حكيمة يصدقها التاريخ ويؤكدها الواقع، ولولا ضيق المقام لكان لي فيها تفسير وبيان.

ولقد أثرت طريقة أداء القرَّاء المصريين في قرَّاء الدنيا شرقاً وغرباً، وخاصة بعد شيوع آلات الإيصال الحديثة من المذياع والأسطوانات والأشرطة، ولقد أذكر أني دعيت إلى مؤتمر علمي في الموصل بالعراق سنة ١٩٨٢م، وذات يوم كنا نتجول في شوارع الموصل تلك المدينة صاحبة التاريخ، فانتهى إلى سمعي صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد يجلجل من بعض المحلات التجارية، فقلت بصوت مسموع: الشيخ عبد الباسط هنا! فرد علي العالم العراقي الكبير الدكتور حسين علي محفوظ: «يا أخي، نحن العراقيين كانت لنا لحون خاصة وأداء خاص للقرآن الكريم حتى كان عام ١٩٤٨م وتوفيت الملكة «عالية» وجاءنا قارئان من مصر لإحياء ليالي

(١) مجلة «الهلال»، يوليه ١٩٩٢م.

المأتم: الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي، والشيخ أبو العينين شعيشع، فأعجب الناس بها إعجاباً شديداً استحال إلى محاكاة وتقليد للأداء المصري وهجر القرَّاء العراقيون طريقتهم «المأثورة».

وفي سنة ١٩٧١م كنت في زيارة لمدينة «أدرنة» بشمال تركيا، وفي مسجد السلطان سليم استقبلنا مقيم الشعائر بالمسجد، وما أن علم أننا مصريون حتى هش وبش وقال بالحرف: ما شاء الله، مصر، أزهر شريف، أنا الشيخ يوسف، سلموا على الشيخ مصطفى إسماعيل، فأنا أحبه كثيراً، لقد جاء إلينا وقرأ في هذا المسجد، ثم انطلق يردد بصوت عال آيات من سورة آل عمران جهد أن يقلد فيها صوت الشيخ مصطفى.

واستمع إلى قرَّاء القرآن الآن في الباكستان والهند والصين، وبلاد جنوب شرقي آسيا، تجد لهذا الذي ذكرته من التأثير المصري أشباهاً ونظائر، بل إن التسجيلات التي ملأت مصر الآن لقرَّاء الحرمين الشريفين، والتي يعجب بها الناس إعجاباً شديداً، للمشايخ: علي الحذيفي، وإبراهيم الأخضر، وعلي باجابر، وعبد الرحمن السديس، إنما يظهر الأثر المصري فيها واضحاً جداً لمن يعرفون الأصوات وتاريخ الشعوب في قراءة القرآن، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

لكن الأمر كاد يخلص لمصر في القرنين الأخيرين، فتربع قراؤها على عرش الإقراء: رواية ودراية، وصارت الرحلة إليهم من الشرق والغرب، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة: منها بروز الأزهر الشريف قوة كبرى مؤثرة بعد الحملة الفرنسية، وتأثير رجاله على الحياة العامة: سياسيّاً واجتماعيّاً، ومنها استقرار الأوضاع وازدهار الحياة بمصر أيام محمد علي وذريته، ومنها ــ وهو الأهم ــ إنشاء مطبعة بولاق والمطابع الأهلية الأخرى، وفي هذه المطابع خرجت منظومات علم القراءات ومتونه: كالشاطبية وشروحها، وطيبة النشر، والمقدمة الجزرية، وغير ذلك مما لا يحصى الآن. ثم كان أبقى أثر وأخلده هو «مصحف الملك فؤاد» الذي طبع بمصر سنة ١٣٣٧هـ وقد قام بتصحيحه ومراجعته على أمهات كتب الرسم والضبط والقراءات:

الشيخ محمد بن علي بن خلف الحسيني، وحفني بك ناصف، والمشايخ مصطفى عناني، وأحمد الإسكندري، ونصر العادلي، وهذه الطبعة هي أصح طبعة للقرآن الكريم بشهادة أهل العلم والخبرة.

ثم كانت الوثبة الكبرى في طريق علم القراءات بمصر هي إنشاء معهد خاص للقراءات تابع لكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف عام ١٩٤٣م، وفي هذا المعهد تخرجت أجيال حافظة للقرآن ضابطة لقراءاته وعلومه.

ويذكر التاريخ أسماء عظيمة لمعت في سماء مصر في القرنين الأخيرين، وخدمت كتاب الله إقراء وتأليفاً، ورحل الناس إليهم من كل مكان لمشافهتهم والتلقي عنهم ومنهم.

نعمة من الله:

ثم نأتي إلى قرّاء مصر بالمعنى الثاني، وهم الذين يقرأون فيسمعهم الناس فيطربون لقراءتهم ويخشعون. وهم طائفة من الناس أنعم الله عليهم بحسن الصوت وجمال الأداء. ويبدو أن لمصر في ذلك تاريخاً قديماً، تأخرنا كثيراً في كتابة تاريخ قرّاء مصر، ومكتبتنا العربية خالية من هذا اللون من الكتابة إلا شيئاً يسيراً كتبه الأستاذ محمود السعدني (وهو سميع كبير) في أواخر الخمسينات سمّاه: «ألحان من السماء»، ثم ما يكتبه أشتاتاً متفرقات في بعض المجلات.

ثم كنت أقرأ بين الحين والحين كلاماً لأستاذنا كمال النجمي عن الشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفى إسماعيل ــ عرضاً فيما يكتبه عن الغناء والأصوات، ثم كنت أحدث نفسي: لماذا لا يفرد الأستاذ النجمي كتاباً عن الشيخ مصطفى إسماعيل، يقرأه الناس على مكث، يظهر عظمة هذا الرجل ومكانه الضخم في عالم القراءة والنغم. حتى كان هذا الشهر الكريم وصدق الأستاذ ما أملناه وجاء كتابه هذا مجلى لحياة الشيخ مصطفى وتقلبه في العالمين. وزاد على هذا أن ألبس كتابه زاهية من الورق المصقول والزخارف المعجبة، بما يليق بجلال المقروء وجمال القارىء.

أولى خطوات الشيخ مصطفى :

ولقد ردني هذا الكتاب الممتع إلى أيام غالية عزيزة عشناها في القاهرة قبل أن يدهمها السيل وتغشاها النوائب، «إذ الناس ناس والزمان زمان».

ولقد ذكر الأستاذ النجمي أن أولى خطوات الشيخ مصطفى في القاهرة كانت في حي المغربلين. نعم نزل الشيخ هذا الحي العريق وسكن بالمنزل رقم ١٨ بحارة العناني، بجوار قريبة له، وسكن أخوه الشيخ محمد بحارة قريبة تعرف بزقاق المسك، والمغربلين تتوسط الدرب الأحمر حيث العتاقة والتراث، والمساجد والمزارات: مسجد المؤيد والصالح طلائع بن رزيك، والسيِّدة فاطمة النبوية، والمارداني، وإبراهيم باشا آغا، وأم السلطان شعبان، وعلى مقربة: الأزهر الشريف والحسين والجمالية وباب النصر وباب الفتوح، فإذا أنت أيسرت وجدت مساجد السيِّدة زينب والسيِّدة سُكينة، والسيِّدة نفيسة والإمام الشافعي والإمام الليثي، وكانت هذه المناطق المتجاورة هي قلب القاهرة الذي يموج بالعلم والمعرفة والفن.

نزل الشيخ مصطفى إسماعيل القاهرة في أوائل الأربعينات، وترك وراءه طائفة من مشاهير القرَّاء: الشيخ محمد السعودي، والشيخ محمد العُقلة (بضم العين وسكون القاف) بطنطا، والشيخ منصور بَدَّار بالمنوفية، وفي القاهرة كانت هناك طبقتان من القرَّاء: الطبقة الأولى: محمد رفعت، وعبد الفتاح الشعشاعي، ومحمد الصيفي (وهو والد المخرج السينمائي حسن الصيفي)، ومحمد سلامة، والطبقة الثانية: علي حزين ومحمد عكاشة وزكي محمد شرف وأحمد سليمان السعدني ومدين منصور وعبد الرحمن الدروي ومحمود عبد الحكم وعبد العظيم زاهر وطه الفشني وأبو العينين شعيشع وعبد السميع بيومي ومحمد فريد السنديوني وكامل يوسف البهتيمي ومنصور الشامي الدمنهوري ومحمد قنديل وعبد الرحمن عبده وهاشم هيبة.

وكان المشايخ في ذلك الزمان يعرفون للقرآن حرمته وجلاله، فيقرأون بأدب وخشوع ورعاية لأصول التلاوة، ثم كانوا يقنعون بالقليل. ولقد حدثني الشيخ

عبد الرحمن الدروي المتوفى العام الماضي (وهو صهر عالم المخطوطات الكبير محمد رشاد عبد المطلب ــ أبو زوجته رحمه الله) حدثني أنه دعي هو والشيخان عبد العظيم زاهر وطه الفشني لافتتاح إذاعة العربية السعودية بجدة، وكان ذلك في موسم حج كان معهم من المذيعين الأستاذ عبد الحميد يونس، والأستاذ علي الراعي (الدكتور فيما بعد) وافتتح المشايخ الثلاثة الإذاعة السعودية، ثم سجلوا لها بعض التسجيلات لإذاعتها.

فيما بعد قال الشيخ الدروي: ثم جاءنا الأستاذ عبد الحميد يونس أو الأستاذ الراعي وقال لنا إنَّ الإخوة السعوديين يتركون لكم تحديد الأجر المناسب لما قرأتموه، يقول الشيخ الدروي: فبكيت وقلت: كيف نأخذ أجراً على قرآن قرأناه في البلد الذي نزل فيه القرآن؟ انتهى كلامه. وأقول: أين هذا من بعض قرَّاء هذا الزمان الذين لا يصعدون إلى دكة القراءة حتى يأتيهم إيصال الإيداع على رقم حسابهم بالبنك بالآلاف؟

وفي القاهرة أدرك الشيخ مصطفى إسماعيل طائفة من كبار المنشدين، أصحاب التواشيح الذين خلفوا الشيخين: إبراهيم الفَرَّان وإسماعيل، وعلى رأسهم الشيخ المتفنن علي محمود (صاحب الأذان الشهير) والشيخ درويش الحريري، والشيخ سيِّد موسى، ثم الشيخ محمود صُبْح، ذلك الرجل العجيب الذي كان يتحدى في أسطواناته أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، أن يأتيا بمثل ما يأتي به من الجواب وجواب الجواب، وكان يقطع إنشاده عقب كل «قفلة» ويتحداهما.

نزل الشيخ مصطفى إسماعيل القاهرة وهي تموج بهذه الأصوات: قراءة وإنشاداً، أصوات عجيبة مبدعة، جعل الله لكل منها شِرْعةً ومنهاجاً، حتى جاء الشيخ مصطفى فزلزلهم زلزالاً، فكان مثل المتنبي الذي جاء فملأ الدنيا وشغل الناس، نعم جاء الشيخ بأفانين من النغم، وتصرفات في المقامات لا قبل لهم بها، وهو لم يتلق أصول النغم عن أحد، ولم يحاك أحداً من أصحاب الأصوات، وإنما هي الفطرة والموهبة، وفضل الله الذي يختص به من يشاء من عباده. ولقد قوبل الشيخ مصطفى

بهجوم كاسح من المشايخ القرّاء وكان أشدهم عليه وأعنفهم به الشيخ محمد سلامة، وقد رفع عليه عصاه ذات ليلة زاعماً أنه يتلاعب بالقرآن.

حسد الحاسدين:

ولقد غَبَّرَ القرّاء في وجه الشيخ مصطفى، ورموه بتهم كثيرة، حسداً من عند أنفسهم، وهم وإن كانوا يتلون كتاب الله فهم بشر من البشر. وقد روي بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «استمعوا علم العلماء ولا تصدقوا بعضهم على بعض، فوالذي نفسي بيده لهم أشدُّ تغايراً من التُّيوس في زُرُوبها»، وعن مالك بن دينار قال: «يؤخذ بقول العلماء والقرّاء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض».

ومن التهم التي وجهت إلى الشيخ مصطفى أنه يترخص ويتساهل في قواعد التلاوة ليستقيم له ما يريد من نغم وتطريب. وهذه فرية كبرى، فالذي يسمع الشيخ بإنصاف يرى أنه ملتزم غاية الالتزام، على ما ذكر أستاذنا النجمي ص ١٥، وأحب أن أضيف إلى ما ذكره أن أكبر علماء القراءات في عصرنا: الشيخ عبد الفتاح القاضي، وسيدي الشيخ عامر عثمان، كانا من أشد الناس إعجاباً بالشيخ مصطفى، وهما مأمونان في أحكامهما، ومن حراس كتاب الله، ولقد سألت مرة سيدي الشيخ عامر عما يقال عن تساهل الشيخ مصطفى، فقال: لا تصدقهم، إنه على الجادة، ثم أضاف: إن خامة صوت الشيخ مصطفى تشبه خامة صوت الشيخ يوسف المنيلاوي.

ومما قالوه عنه: إنه لا يلتزم بالوقوف المنصوص عليها. وهذا غير صحيح، ونعم إنه كان يقف أحياناً على غير وقف لتصوير معنى، كما وقف على قوله تعالى: ﴿رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف: ٣١]، وليس موضع وقف، ولكنه حين وصل بعد ذلك تلا الجملة السابقة، فيكون وقفه هذا أشبه بالوقف لانقطاع النفس، وهو جائز، وأحب أن أشير هنا إلى أن الشيخ مصطفى كان أكثر تحرياً للوقوف من الشيخ محمد رفعت ـ وهو من هو ـ فالشيخ رفعت مثلاً يقف على قوله تعالى من سورة الكهف ﴿فَانطَلَقَا﴾ وليس موضع وقف، ويقف على قوله تعالى في سورة طه: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾، ثمَّ يستأنف ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ وليس موضع وقف.

ومما أخذوه عليه أيضاً أنه يكثر من اختلاف القراءات لإثارة مكامن الطرب، وليس هو وحده الذي كان يفعل هذا، فقد كان يفعله أيضاً الشيخ محمد رفعت، والشيخ محمد الصيفي. والجمع بين الروايات في القراءة الواحدة مكروه عند بعضهم، لكنه جائز عند بعض آخر، وبخاصة في مقام التعليم. على أن الحق يقتضيني هنا أن أشير إلى أن الشيخ مصطفى قرأ مرة آية على وجه من القراءات لم أجده في القراءات العشر المجمع على تواترها والقراءة بها، وذلك في قوله تعالى في سورة يوسف ــ في أحد تسجيلاتها ــ «وقال نُسوة» بضم النون، وهي في القراءة المتواترة بالكسر، ولم يقرأ بالضم إلا المفضل والأعمش والسُّلَمي وهي قراءة شاذة.

تسجيلات نادرة:

ومما اتهموه به أيضاً أنه يقرأ سوراً بعينها. وهذا غير صحيح، بل إن عكسه هو الصحيح فالشيخ يقرأ من سور القرآن كله، وليس كبعضهم الذي يؤثر السور التي تقصر آياتها، وتتماثل فواصلها.

من خصائص صوت الشيخ مصطفى إسماعيل:

درج كثير من القرَّاء على أن يخفضوا أصواتهم إلى ما يسمى بطبقة القرار حين يأتون إلى آية من آيات الإنذار أو جهنم أو الموت، فإذا جاءوا إلى آية بشارة ونحوها رفعوا أصواتهم إلى ما يعرف بطبقة الجواب، كما تسمعهم في آخر سورة الزمر، حيث يخفضون أصواتهم في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١]، فإذا جاءوا إلى قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، رفعوا أصواتهم عالياً.

ولم يؤثر عن الصحابة والتابعين في ذلك شيء إلا ما روي عن التابعي الجليل إبراهيم النخعي أنه قال: «ينبغي للقارىء إذا قرأ نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ونحو ذلك من الآيات أن يخفض بها صوته»، قال ابن الجزري: «وهذا من أحسن آداب القراءة»،

على أن الشيخ مصطفى يخالف قرّاء زمانه في خفض الصوت عند آيات الإنذار وذكر الموت.

واستمع إليه في تسجيل نادر لسورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فهو يرفع صوته عالياً في ﴿ذَآئِقَةُ﴾ ثم يقف على ﴿الْمَوْتِ﴾ بنفس الطبقة العالية في صراخ مُزَلزل كأنه صراخ ثكالى فقدن عزيزاً أو تذكرن غائباً وتكاد التاء المهموسة حين يصرخ بها تنقلب إلى حرف مجهور يكاد يخرق صماخ الأذن، ثم تأمل أيضاً وقفه على قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف: ٣١]، كيف وقف على الهاء في ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ وقفاً مضيئاً ساطعاً يجسد لك انبهار النسوة ودهشتهن لجمال يوسف عليه السلام.

ويبقى شيء، أرجو أن يأذن لي أستاذنا النجمي في مناقشته، وذلك ما ذكره في ص ٢٤: «أن المسلمين في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين كانوا يقرأون القرآن بحسب لغاتهم المتعددة، وأفصحها سبع لغات»، ثمَّ ذكر حديث: «إنَّ هذا القرآن نزل على سبعة أحرف»، ولي على ذلك بعض الملاحظات:

أولاً: إنَّ سياق الكلام على هذا النحو قد يوحي إلى بعض من لا معرفة لهم بعلوم القرآن أن المسلمين كانوا يقرأون بهذه اللغات السبع باختيارهم ومن عند أنفسهم تبعاً لما ألفوه من أعرافهم اللغوية، ومعلوم أن القراءة أثر واتباع، لا رأي واجتهاد، وأن جبريل عليه السلام قد نزل بهذه اللغات كلها فأقرأها الرسول ﷺ أمته.

ثانياً: أنَّ صحَّة الرواية «أُنزِل على سبعة أحرف» بالبناء للمجهول، وليست «نزل».

ثالثاً: أنَّ تفسير الأحرف السبعة الواردة في الحديث بأنها سبع لغات من لغات العرب، هو أحد التفسيرات، وهو مردود عليه. ويرى بعض المحققين أن أمثل ما جاء في بيان معنى الأحرف السبعة هو ما ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني، فقد قال في فتح الباري ٩/ ٢٣ (طبعة السلفية) «باب أنزل القرآن على سبعة أحرف: أي على

سبعة أوجه يجوز أن يقرأ بكل وجه منها، وليس المراد أن كل كلمة ولا جملة منه تقرأ على سبعة أوجه، بل المراد أن غاية ما انتهى إليه عدد القراءات في الكلمة الواحدة إلى سبعة».

رابعاً: إنَّ كتاب أستاذنا هذا يقع في أيدي الخاصة والعامة، فكنت أحب أن يشير هنا إشارة سريعة في الحواشي إلى أن الأحرف السبعة الواردة في الحديث ليست هي القراءات السبعة التي اختارها ابن مجاهد في أوائل القرن الرابع، وهي القراءات المنسوبة إلى: نافع وابن كثير وأبـي عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي.

وبعد. . . فأرجو أن يأذن لنا الأستاذ النجمي في القول بأن هذا الكتاب لم يُشبع نهمتنا ولم يرو غُلَّتنا في الوقوف على عبقرية الشيخ مصطفى إسماعيل، ولهذا فسوف نعتبر هذا الكتاب عن الشيخ مصطفى الجزء الأول، وهو عن حياته كما جاء بحق في عنوانه «حياته في ظل القرآن»، ويأتي الجزء الثاني إن شاء الله تحليلاً ودرساً لصوت هذا القارىء العظيم.



التصحيح اللغوي.. وضرورة التحرّي[1]

«من عَرف كلام العرب لم يكد يُلحِّن أحداً»، تذكرت كلمة الأصمعي هذه وأنا أقرأ صفحة «لغويات» في عدد مايو الماضي من الهلال، فقد جاء في هذه الصفحة: «تُوُفِّي فلان إلى رحمة الله فهو «مُتَوَفّىً» بضم الميم وفتح التاء والواو وتشديد الفاء المفتوحة وتنوين الحرف الأخير. وهذا من بديهيات اللغة التي كانت معروفة عند الصحف المصرية والعربية، ولكن إحدى الصحف المصرية الكبرى كتبت في صفحتها الأولى منذ أسابيع كلمة «مُتوف» بكسر الفاء وتنوينها بدلاً من «متوفى» التي بيناها، فكأنما أحدث الرجل الوفاة بنفسه، ولم يتوفه الله تعالى!».

وهذا الكلام صواب، ولكنه ليس الصواب الذي لا صواب غيره، ولأهل العلم في ذلك كلام طريف يصحِّحون فيه الوجه الآخر لذلك الاستعمال الذي يأتي على ألسنة العامة هذه الأيام، وهو الاستعمال الذي خطأه الكاتب الفاضل، مع أنه ضارب في العربية بعروقه، فإنه يقال: «تَوَفَّىٰ فلان فهو مُتَوَفٍّ» بفتح التاء والواو والفاء في الفعل، وكسر الفاء في اسم الفاعل، ويكون المعنى على هذا الضبط أنه استوفى أجله، واستنفد أيامه في هذه الحياة الدنيا، وعلى ذلك جاءت القراءة المروية عن علي بن أبي طالب، وعن المفضل عن عاصم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] بفتح الياء في «يَتَوَفَّون». قال ابن مجاهد: «ولا يُقرأ بها»، وقال ابن جني في المحتسب ١/ ١٢٥: «هذا الذي أنكره ابن مجاهد عندي مستقيم جائز،

---

(١) مجلة «الهلال»، أغسطس ١٩٩٢م.

وذلك أنه على حذف المفعول، أي: والذين يَتَوَفَّوْن أيامهم أو أعمارهم أو آجالهم، كما قال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧]، و ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [النحل: ٢٨]، وحذف المفعول كثير في القرآن وفصيح الكلام، وذلك إذا كان هناك دليل عليه، قال الله تعالى: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٢٣] ــ أي شيئاً ــ . انتهى كلام ابن جني.

وقد رُوي أيضاً عن الأعمش أنه قرأ قوله تعالى: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ [الحج: ٥] بفتح الياء، وحكاه أبو حاتم السجستاني، كما ذكر ابن خالويه في شواذ القراءات ص ٩٤، فهذا الذي يجري على ألسنة العامة ليس خطأً محضاً، وإن لم يكن هو الأفصح، قال ابن هشام اللخمي: «وإذا كان في الكلمة لغتان وكانت إحداهما أفصح من الأخرى فكيف تُلَحَّن بها العامة وقد نطقت بها العرب، وإنما تُلَحَّن العامة بما لم يُتكلم به».

على أن هذا التوجيه الذي يُسوغ استعمال «تَوَفَّى» مبنيّاً للفاعل لا ينبغي أن يُقبل إلا من عارف به مُطيق لوجه الكناية فيه. قال الإمام السكاكي في مفتاح العلوم ص ٩٨: «فإن جوهر الكلام البليغ مثله مثل الدرة الثمينة، لا ترى درجتها تعلو ولا قيمتها تغلو. . . ما لم يكن المستخرج لها بصيراً بشأنها، والراغب فيها خبيراً بمكانها، وثمن الكلام أن يوفى من أبلغ الإصغاء وأحسن الاستماع حقه، وأن يتلقى من القبول له والاهتزاز بأكمل ما استحقه، ولا يقع ذلك ما لم يكن السامع عالماً بجهات حسن الكلام، معتقداً بأن المتكلم تعمدها في تركيبه للكلام عن علم منه، فإن السامع إذا جهلها لم يُميز بينه وبين ما دونه، وربما أنكره، وكذلك إذا أساء بالمتكلم اعتقاده ربما نسبه في تركيبه ذلك إلى الخطأ، وأنزل كلامه منزلة ما يليق به من الدرجة النازلة، ومما يشهد لك بهذا ما يروى عن علي رضي الله عنه أنه كان يشيع جنازة فقال له قائل: من المتوفي؟ بلفظ اسم الفاعل، سائلاً عن المتوفَّى، فلم يقل: فلان، بل قال: الله، رداً لكلامه عليه مخطئاً إياه، منبهاً له بذلك على أنه كان يجب أن يقول: من المتوفَّى، بلفظ اسم المفعول. . . وما فعل ذلك كرم الله وجهه إلا لأنه

عرف من السائل أنه ما أورد لفظ «المتوفي» على الوجه الذي يكسوه جزالة في المعنى وفخامة في الإيراد، وهو وجه القراءة المنسوبة إليه ﴿وَٱلَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾، بلفظ بناء الفعل للفاعل، من إرادته معنى: والذين يستوفون مُدد أعمارهم».

قضية لغوية:

وهذا الذي رأيته من تسويغ «تَوَفَّى»، وإخراجه من دائرة الخطأ المحض يقودنا إلى قضية لغوية كبيرة شغلت اللغويين قديماً وحديثاً، وهي قضية التصويب اللغوي، وقد بدأ التصنيف فيها مواكباً لجمع اللغة وتدوينها، على نحو ما نرى عند الكسائي (١٨٩ هـ) في الكتاب المنسوب إليه «ما تلحن فيه العامة».

وتحت هذا العنوان كتب كثير من علماء اللغة الأوائل، مثل الفراء (٢٠٧هـ) وأبي عبيدة (٢١٠هـ) والأصمعي (٢١٦هـ) ومن في طبقتهم ومن جاء بعدهم، بل إن حركة التصحيح اللغوي هذه قد شارك فيها بعض علماء الترك في الدولة العثمانية الذين اتخذوا العربية قلماً ولساناً، فرأينا ابن كمال باشا (٩٤٠هـ) يؤلف كتابه «التنبيه على غلط الجاهل والنبيه»، ثم جاء علي بن بالي القسطنطيني (٩٩٢هـ) فصنف كتابه «خير الكلام عن أغلاط العوام».

ومعلوم أن حركة التصحيح اللغوي قد تغيت غاية كبيرة، هي المحافظة على سلامة اللغة، في أصواتها ومفرداتها وتراكيبها وإعرابها ودلالة ألفاظها. ومعلوم أيضاً أن التنبه للخطأ اللغوي قديم، وأن محاصرته والتوقي منه مما جاءت به السنة والأثر، فقد رُوي: أن رجلاً لحن بحضرة رسول الله ﷺ، فقال: «أرشدوا أخاكم»، وروي عنه عليه السلام أنه قال: «أنا من قريش ونشأت في بني سعد، فأنَّى لي اللحن؟».

وقال أبو بكر رضي الله عنه: «لأن أقرأ فأُسقِط أحب إليّ من أن أقرأ فألحن». وكتب كاتب لأبي موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: «من أبو موسى» فكتب إليه عمر: «أما بعد فاضرب كاتبك سوطاً واحداً وأخِّر عطاءَه ــ أي راتبه ــ سنة».

ومن أصدق وأدق ما قيل في استنكار اللحن واستبشاعه ما رُوي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «إن الرجل ليُكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فأرده عنها، وكأني أقضم حب الرمان الحامض، لبغضي استماع اللحن، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيُعرب ــ أي يتكلم كلاماً صحيحاً ــ فأجيبه إليها، التذاذاً لما أسمع من كلامه». وروي عنه أيضاً أنه قال: «أكاد أضرس إذا سمعت اللحن». وقال عبد الملك بن مروان: «اللحن في الكلام أقبح من الجُدري في الوجه».

وينتهي عصر الراشدين واللسان العربـي لا يزال صحيحاً محروساً لم يتداخله الخلل ولم يتطرق إليه الزلل، وتأتي الدولة الأموية، ومن بعدها العباسية، وتكثر الفتوح ويدخل الناس في دين الله أفواجاً، فتختلط الألسنة، وتتداخل الأصوات واللهجات، ويستعمل العربـي ما لا بد له منه في الحوار والخطاب اليومي، من أجنبـي ودخيل، فيضاف إلى عامل «اللحن» القديم عامل آخر، هو هذا الدخيل، فينهض له علماء اللغة، فتكثر الجهود والتصانيف في حركة التنقية اللغوية.

وفي عصرنا الحديث يطرأ عامل ثالث: هو الاستخفاف باللغة والنحو والصرف، وإشاعة أن الاشتغال بمثل هذه العلوم مضيعة للوقت والجهد الذي ينبغي أن يُصرف إلى الفكر وحده، ثم ظهرت بدعة «التفكير الموضوعي» الذي يرفض الاحتفال بهذه الشكليات من حركات الإعراب وأبنية الأسماء والأفعال، والرسم «الإملاء»، ثم يكون التخليط في هذه القواعد والضوابط سمة من سمات التحرر والانعتاق من ربقة التخلف وأكفان الموتى ورمائم القبور!

ويفزع لهذه الغاشية طائفة من علماء اللغة والنحو المحدثين، فيتصدون لهذا الانحراف عن سَنَن العربية، فيما عُرف بالتأليف في الأخطاء الشائعة. ومن أبرز ما كتب فيها «لغة الجرائد» لإبراهيم اليازجي، التي نشرها مقالات في مجلة الضياء التي أنشأها بمصر سنة ١٨٩٨م، و «حول الغلط والفصيح على ألسنة الكتاب» لأحمد أبـي الخضر منسي، و «تذكرة الكاتب» لأسعد خليل داغر، و «أخطاؤنا في الصحف والدواوين» لصلاح الدين سعدي الزعبلاوي، و «الكتابة الصحيحة» لزهدي جار الله،

ثم كتب العلامة النحوي الشيخ محمد علي النجار عدة مقالات في مجلة الأزهر، باسم: «لغويات» نشرها بعد ذلك مجموعة بمعهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية. وكتب العالم العراقي الدكتور مصطفى جواد عدة مقالات أيضاً بمجلة عالم الغد البغدادية، بعنوان «قل ولا تقل» نشرها بعد ذلك في كتاب، إضافة إلى ما ذكره في كتابه: «مباحث لغوية في العراق».

على أن هذه الجهود التي بُذلت في التنقية اللغوية وتصحيح اللسان العربـي، قد تعرضت في القديم والحديث لحركة نقدية واسعة، تبعاً لمقياس الصواب اللغوي وعلى أي صورة يكون؟ وهل يقتصر القياس على المشهور الشَّائع دون القليل النادر كما يرى البصريون، أم يقاس على الشاهد الواحد والشاهدين، كما يقول الكوفيون؟ وهل نقف عند أفصح اللغات ونلغي ما سواها، أم نجعل الشاذ والفصيح واحداً؟ وقد كان بعض اللغويين يتشدد ويحكم بالخطأ على ما لم يكن فصيحاً وإن جاءت به لهجة من لهجات العرب ولو كانت ضعيفة، وكذلك يعد صحيحاً كل ما رواه لغوي ولو كان منفرداً بروايته. ولعل أعدل منهج في القبول والرد هو ما أثر عن أبـي عمرو بن العلاء، وقال له أحدهم: «أخبرني عما وضعت مما سميته عربية، أيدخل فيها كلام العرب كله؟ فقال: لا، فقال: كيف تصنع فيما خالفك فيه العرب وهم حجة؟ قال: أعمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغات». فهذا منهج يقوم على اعتبار الأكثر، وعدم إنكار الأقل، فهو يقبله ولكنه يضعه في دائرة اللغات. واللغات عندهم تعني ما نسميه نحن الآن: لهجات.

ومن أشهر كتب نقد مؤلفات التصحيح اللغوي قديماً: ما صنفه ابن هشام اللخمي الإشبيلي (٥٧٧هـ) فقد ألف كتابه: «المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان»، وعرض فيه بالنقد لكتابين تقدماه في لحن العامة، هما: «لحن العامة» لأبـي بكر الزبيدي الإشبيلي (٣٧٩هـ)، و «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان» لابن مكي الصقلي (٥٠١هـ). وقد ذكر ابن هشام أن الزبيدي «تعسف على عامة زمانه في بعض الألفاظ، وأنحى عليهم بالإغلاظ، وخطأهم فيما استعمل فيه وجهان وللعرب فيه

لغتان»، وأنَّ ابن مكي الصقلي أنكر على العامة ما يحتمل التأويل أو يكون عليه من كلام العرب دليل».

لغة الجرائد:

وفي عصرنا الحديث أيضاً تعرض مؤلفو الأخطاء الشائعة إلى كثير من النقد والمراجعة، ومن ذلك ما كُتب من نقد حول «لغة الجرائد» لليازجي، وما أثير حول «قل ولا تقل» لمصطفى جواد. وقد دارت معظم هذه النقود والتعقبات حول معيار الحكم بالخطأ والصواب على هذا الاستعمال أو ذاك. ويكشف عن اختلاف معايير الحكم بالخطأ والصواب هذان المثالان: خطَّأ أبو بكر الزبيدي العامة في قولهم: امرأة سكرانة، وبيَّن أن الصواب: سكرى، ثم ذكر أن بني أسد كانوا يقولون: سكرانة. فرد عليه ابن هشام اللخمي: «فإذا قالها قوم من بني أسد فكيف تُلحن بها العامة، وإن كانت لغة ضعيفة، وهم قد نطقوا بها كما نطقت بعض قبائل العرب». ورُوي عن أبـي عثمان المازني أنه قال: «دخلت بغداد فألقيت علي مسائل، فكنت أجيب فيها على مذهبي، ويخطئونني على مذهبهم» مغني اللبيب (مبحث إذا).

على أن أعظم ما تعرض له الذين كتبوا في التصحيح اللغوي في القديم والحديث: هو التسرع وعدم الاستقصاء والتحري، والوقوف عند حدود القاعدة اللغوية والنحوية، دون التفات إلى المسموع والمأثور المتناثر في كتب العربية على اختلاف علومها وفنونها، فالمعاجم على تنوعها واتساع بعضها لم تُحص اللغة كلها، وآية ذلك ما تراه في فهارس أئمة تحقيق النصوص، من تلك الألفاظ والتراكيب التي جاءت في أشعار العرب وكلام أهل العلم من السابقين الأولين، مما لم يذكر في المعاجم اللغوية المتداولة، ومن ذلك ما ذكره شيخنا محمود محمد شاكر بآخر طبقات فحول الشعراء باسم «ألفاظ من اللغة أخلَّت بها المعاجم أو قصرت في بيانها».

وما تراه في فهارس أستاذنا عبد السلام هارون رحمه الله، للبيان والتبيين، والأصمعيات والمفضليات ومقاييس اللغة.

وليس غريباً أن تغيب بعض الألفاظ والتراكيب عن معاجمنا اللغوية، فإن لغتنا العربية أوسع من أن تحيط بها المعاجم وحدها.

وقد قال الإمام الشافعي: «لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي».

وعلى هذا فإن اللغة ينبغي أن تُلتَمس من كتب العربية كلها، لأنك واجد في كتب التفسير والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام والأدب والبلاغة والتاريخ والجغرافية وسائر فنون التراث، من اللغة ما لا تجد بعضه في كتبها المصنفة فيها المقصورة عليها، وذلك لأن العربية كتاب واحد.

وإذ قد ثبت هذا ــ إن شاء الله ــ فإنه من الواجب على من يتصدى للتصحيح اللغوي أن يتحلى بالأناة والتوقف والصبر، وألا يهجم على التخطئة دون سند قوي وحجة غالبة.

نماذج:

وقد كنت عُنيت في مطالع الشباب بتلك الكتب المصنفة في اللحن والأخطاء الشائعة، وكنت أحفظ منها مسائل ذوات عدد، أُديرها على لساني في مجالس المذاكرة والمطارحة، مزهوًّا بما أحفظ، إذ كان عندي هو الصواب الذي لا صواب غيره.

وحين أذن الله ــ وهو الذي بيده الخير كله ــ أن أتصل بما كتبه أهل العلم في كتب العربية، وبخاصة شروح الشعر وغريب القرآن والحديث، والأمالي والمجالس، وكتب التراجم والطبقات، ووقفت على تصرف أهل البيان في الأبنية والألفاظ والتراكيب، حين تم لي ذلك ــ على ضعفي وقلة حيلتي ــ أيقنت أن ليس الطريق هنالك، وأن التخطئة والتصويب لا يُصار إليهما إلا بعد عناء وجهد، لأن الأفق رحب، والمدى واسع، والشوط بعيد، وبخاصة أننا في زمن انقطعت دونه الرواية، وغاب الأشياخ، فأوصد بغيابهم باب ضخم من أبواب العلم، لأننا أبناء أمة

قام تراثها على الرواية والتلقي والمشافهة والتوقيف، والكتب وحدها لا تصنع عالماً.

وقد قال أبو الفتح ابن جني فيما وقع له من كلام شيخه أبـي علي الفارسي: «ولمثل هذه المواضع يُحتاج مع الكتب إلى الأستاذين» ـ شرح تصريف المازني ١/ ٢١٠ ـ ، وقال ابن قيم الجوزية: «ولمثل هذه الفوائد التي لا تكاد توجد في الكتب يُحتاج إلى مجالسة الشيوخ والعلماء» بدائع الفوائد ١/ ١٠١، وإذ قد وضح لي بعض الطريق جمعت طائفة من تلك الألفاظ والتراكيب التي خطَّأها الناس، ورأيت صوابها أو استعمالها عند بعض أهل العلم قديماً، وأكتفي من ذلك هنا ببعض النماذج التي تمهد لما أردته من ضرورة التحري والمراجعة أمام كل تخطئة أو تضعيف:

١ ـ يُخطىء بعضهم استعمال «النفس» في غير التوكيد، يريدون أنك تقول: «الشيء نفسه، ولا تقول: نفس الشيء». وقد وجدت استعمال هذا الذي يخطئونه في كتاب سيبويه ١/ ٢٦٦ ـ وحسبك به ـ وذلك قوله: «وتجري هذه الأشياء التي هي على ما يستخفون بمنزلة ما يحذفون من نفس الكلام»، وقوله أيضاً في ٢/ ٣٧٩ وذلك قولك: «نزلت بنفس الجبل، ونفس الجبل مقابلي».

وقال الجاحظ في الحيوان ١/ ٧٦: «ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة». وقال ابن جني في الخصائص ١/ ٣٤٨: «وإنما جاز ذلك في هذا الموضع لا لشيء رجع إلى نفس «أو» بل لقرينة انضمت من جهة المعنى إلى أو». وقال المرزوقي في شرح الحماسة ص ٨٩٢: «وأشار بقوله الأبد إلى نفس الدهر». بل إن هذا الاستعمال قد ورد عند من هو أقدم من هؤلاء جميعاً، وهو الخليل بن أحمد، شيخ العربية وشيخ سيبويه، وذلك قوله في كتاب العين ٨/ ١١٧ : «والترباء: نفس التراب».

٢ ـ يُخطىء بعض النحويين استعمال «قد لا يكون» لأن «قد» لا تدخل على النفي، والصواب أن يقال: «ربما لا يكون». وقد وجدته في كلام ابن جني، قال في الخصائص ١/ ٢٠ : «كما أن القول قد لا يتم معناه إلا بغيره»، وفي كلام للمرزوقي،

قال في شرح الحماسة ص ٥٧: «والاكتفاء به قد يقع وقد لا يقع». ثم وجدته كذلك عند المالقي في كتابه: رصف المباني في شرح حروف المعاني ص ٤٥٥، قال في (مبحث قد): «إن نفيت فقلت قد لا يقوم، توقعت العدم».

٣ ـ يرى بعضهم أن كلمة «مجاناً» مبتذلة وغير فصيحة وتوشك أن تكون عامية، وأنَّ الصواب أن يستعمل مكانها «بدون مقابل» ونحوه. وقد رأيتها عند ابن فارس، في مقاييس اللغة ٥/ ٢٩٩، قال: «والمجان: هو عطية الرجل شيئاً بلا ثمن». وقد استعملها ابن خلدون في مقدمته ص ٥٥٧، قال: «فليست اللغات وملكاتها مجاناً».

٤ ـ يستسقط بعضهم تركيب «عبارة عن كذا»، وقد رأيتُه في كلام ابن جني، قال في كتابه الخاطريات ص ٥٨: «ويؤكد ذلك أن لفظ الجبال قد وضع عبارة عما لا تُدركه المعاينة». وقد رأيت هذا التركيب كثيراً في كلام الفقهاء، وكُتُب التعريفات.

٥ ـ منع بعض النحويين دخول «أل» على «بعض» فلا يجوز أن تقول: أحبوا بعضهم البعض، وإنما تقول: أحب بعضهم بعضاً. وقد أدخل سيبويه «أل» على بعض، وذلك قوله في الكتاب ١/ ٥١: «وربما قالوا في بعض الكلام: ذهبت بعض أصابعه، وإنما أنث البعض لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه». وكذلك صنع ابن جني في الخصائص ١/ ٦٤، قال: «فلما كان الأمر كذلك واقتضت الصورة رفض البعض واستعمال البعض»، وكذلك استعملها ثلاث مرات في الخصائص ٣/ ٣٣٤. ومن قبل سيبويه وابن جني دخلت «أل» على «بعض» في الشعر الجاهلي، وذلك قول المرقش الأصغر، في إحدى رواياته، يصف فرسه:

شهدتُ به عن غارة مُسبطرة يطاعن بعض القوم والبعض طَوَّحوا

٦ ـ وكذلك منع بعضهم دخول «أل» على «غير»، لكني وجدتها في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢/ ٩٨، وكتاب الهوامل والشوامل، لأبي حيان

التوحيدي، ومسكويه ص ١١٧، ثم رأيتها قديماً في كلام لصاحب القاموس في موضع غاب عني الآن.

٧ ــ يخطىء بعضهم استعمال الفعل «ساهم» بمعنى «شارك» على أساس أنه لم يأت في المعاجم إلا: ساهم فلان القوم: أي دخل معهم في القرعة فقرعهم وغالبهم. لكنه قد جاء بمعنى «شارك» في شعر ينسب لزهير ولأبي الأسود الدؤلي، وهو قوله:

أبا ثابت ساهمت في الحزم أهله ... فرأيك محمود وعهدُك دائم

وعلى ذلك جاء في المعجم الوسيط، الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وهكذا نتبين صدق كلمة الأصمعي السابقة: «من عرف كلام العرب لم يكد يُلحن أحداً».

لكن هذه الكلمة على صدقها لا ينبغي أن تُتخذ سبيلاً للفوضى اللغوية أو الحرية في استعمال ما نشاء، وارتكاب الضرورات والمحظورات اللغوية، بدعوى أن من الأوائل من ارتكب الضرورة واستعمل الشاذ، ثم بزعم أننا يجب أن نرفع العوائق ونحطم الحواجز أمام الإبداع والمبدعين... ولهذا وأشباهه حديث آخر.

* * *

الكتب الصفراء.. والحضارة العربية[1]

كتب الشاعر الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي، كلمة في جريدة الأهرام بتاريخ ٢٦/٨/١٩٩٢م قدَّم فيها كتاب الأستاذ الكبير النبيل الدكتور مصطفى ناصف «صوت الشاعر القديم».

وقد ذكر الأستاذ حجازي في صدر كلمته أنه مدين لثلاثة أساتذة بما يعرفه عن الشعر الجاهلي: أولهم مفتش لغة عربية رآه أيام الدراسة، وقد دخل عليهم الفصل، وكان أستاذ اللغة العربية يشرح شيئاً من شعر الأعشى الكبير ميمون بن قيس، فلم تَرُقْ طريقةُ المدرس في شرح شعر الأعشى ذلك المفتش، فأخذ الكلام من المدرس، واندفع في شرح بلغ من الأستاذ حجازي مبلغاً كبيراً من الرضى والارتياح، ثم غاب ذلك المفتش، ولم يره الأستاذ حجازي، ولم يسمع به بعد ذلك.

ولا نعتقد أن مثل هذه اللحظة الخاطفة في حصة دراسية محدودة، أخذ فيها ذلك المفتش في شرح بيتين اثنين من شعر الأعشى على نحوٍ مطرب معجب، تضع هذا المفتش ـ حذْوَ القُذَّة بالقُذَّة ـ مع عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، والأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف، وتجعل الأستاذ حجازي مديناً لهؤلاء الثلاثة بما يعرفه عن الشعر الجاهلي! غاية ما يقال عن ذلك المفتش الحاذق اللبق أنه حبب إلى ذلك الفتى الصغير الشعر الجاهلي ومهَّد لأنغامه الشجية أن تنصب إلى سمعه وتتولَّج في قلبه.

(١) مجلة «الهلال»، نوفمبر ١٩٩٢م.

على أني أظن ظناً أن الأستاذ حجازي قد غَبَن نفسه، وحجَّر عليها واسعاً حين حصر طريق معرفته بالشعر الجاهلي في هؤلاء الثلاثة؛ فإني ألمح في شعره وفي كتاباته الأخيرة رصيداً طيباً من القراءة المتعددة المصادر والموارد.

والعميد الدكتور طه حسين ــ على جلالة قدره ونباوة محله ــ لم يكن وحده في ساحة الشعر الجاهلي، فقد سبقه سابقون، وعاصره معاصرون، ولحقه لاحقون، بذلوا لذلك الشعر الجاهلي من صفاء نفوسهم ونقاء أذواقهم، وذكاء ألسنتهم، ونصاعة أقلامهم، ما كشف هذا الشعر، ودل على أنه أنبل كلام العرب وأشرفه، وأنه مستودع أسرار العربي ومُستراحه، ومَجْلَى مواجعه وأشواقه.

أما الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف فما فتىء يصرّح بأن الشَّأو بعيد، والمدى أوسع مما يحيط به بَصَر، بل كثيراً ما يحدِّثني كفاحاً ومشافهة ليس بيني وبينه أحد، عن صعوبة طريق الشعر، ثم يقول لي بلهجته العذبة الودود: «يا مولانا، المسألة ما هش كده، احنا محناش واخدين بالنا، لازم نقرأ ونقرأ» ثم يثني على فلان، ويحيل على فلان من السابقين الأولين.

ومهما يكن من أمر فإن الذي يعنيني من مقالة الأستاذ حجازي هنا قوله عن الدكتور طه حسين: إنه يدين له «بهذا المنهج الذي أخرج به الشعر الجاهلي من سلطان النحاة والشراح وسدنة الكتب الصفراء». وهكذا يرسل الأستاذ حجازي الكلام إرسالاً، وكأن ذلك من الحقائق المؤكدة التي استقرت عند الناس، ولم يبق لأحد فيها مقال.

وسأؤخر الحديث عن سلطان النحاة إلى حين «وأحبب إلينا أن تكون المقدَّما». وآخذ في الحديث عن «سدنة الكتب الصفراء»، ولنفرغ أولاً من «سَدَنة» هذه على طريقة «تحرير المصطلح قبل الأخذ في المناقشة».

و «سدنة» من الكلمات التي يتساهل بعض الكتَّاب فيها، فيستعملونها في غير ما وُضِعت له، وهي جمع «سادن»، وهو خادم الكعبة خاصة، وخادم الأصنام في

الجاهلية، والفعل منه سَدَن يَسْدُن، من باب قَتَل يَقْتُل. قال ابن فارس في مقاييس اللغة: «السين والدال والنون أصلٌ واحد لشيء مخصوص. يقال: إن السدانة: الحِجابة، وسَدَنة البيت: حَجَبتُه» انتهى كلامه. وقوله: «لشيء مخصوص» قَطَع به طريق المجاز، وأراد أن العرب لم تستعمله في غير هذا المعنى، وأن مثل ذلك لا يُنقل إلى غير معناه الخاص إلا بسماعٍ صحيح ممن يُوثق بعربيته. فبطل إذن ــ بحمد الله ــ استعمال «سَدَنة» هنا.

ولم يبق إلا «الكتب الصفراء»، وهو وصفٌ عجيب، كنا نسمعه قديماً ونحن شبَبَبَةٌ صغار، فنفتتن به افتناناً، كما كنا نفتتن بمثل «الشعر المهموس»، و «الدَّفْقة الشعورية»، و «تراسُل الحواس»، و «المنولوج الداخلي» فلما أَفَقْنا من الغَشْية، وعرفنا الطريق، أدركنا أن ذلك كله مما لا غناء فيه، ولا طائل تحته، وأنه كما قال ابن قتيبة: «ترجمةٌ تروقُ بلا معنى، واسمٌ يَهُول بلا جِسم»، أو كما قال ابن الشَّجري: «تهاويلُ فارغةٌ من الحقيقة».

وقد اختفى هذا الوصف «الكتب الصفراء» زماناً، ثم عاد مرة أخرى، وإذا كنا لا نحفل به إذا جاء في كلام من لا يؤبه له، ولا يُعاج به من صغار الكتَّاب، فإن الأمر يختلف إذا ورد في كلام شاعر كبير مثل الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي، له قراء ومحبون، وأستاذ جامعي مثل الأستاذ الدكتور عاطف العراقي، له تلاميذ ومريدون، وذلك في كلمة له قريبة في الأهرام أيضاً.

وواضح أن ورود هذا الوصف في كلام الأستاذ حجازي والدكتور العراقي، ومن لَفَّ لَفَّهما، إنما هو في مقام الذم والسخرية، بحيث صار استعمال هذا الوصف مرادفاً للأدب الغث والفكر الهزيل المتخلّف.

وإذا كنا لا نرضى لأنفسنا أن نتغلغل إلى المطوي في ضمائر الناس؛ لأن ذلك عند علام الغيوب، وإذا كان الأستاذ حجازي والدكتور العراقي، وكل من استعمل هذا الوصف، لم يقدموا لنا نماذج محددة من أسماء هذه الكتب الصفراء وما تشتمل عليه من ألوان الفكر وضروب الأدب، إذا كان ذلك كذلك، فإن من حقنا أن نقف

عند الدلالة المجردة لهذا الوصف، فنقول ببداهة العقل وبمطلق الدلالة: إن كل فكر جاء في كتب صفراء مرفوض ومطَّرَح؛ لأن الوصف إذا جاء بغير قيد أو استثناء دخل تحته كل أفراد جنسه. ومعنى هذا ببداهة العقل أيضاً، وبمطلق الدلالة أن ديوان الأستاذ حجازي «مدينة بلا قلب» إذا جاءنا في ورق أصفر اجتويناه ورفضناه، وبمفهوم المخالفة: إذا جاءنا هذا الديوان على ورق كوشيه فاخر، كان ذلك رافعاً لخَسِيسَتِهِ ـ إن كانت فيه خسيسَةٌ ـ لا قَدَّر الله ولا قَضى.

ونحن نقولها بكل سلامة الصدر، وبكل خلوص النية لكل من عنده خبرٌ عن حقيقة هذا الوصف: نبِّئْنا بتأويله.

وبكل سلامة الصدر أيضاً وخلوص النية نسأل الأستاذ حجازي، نعم نسأله تعلُّماً لا تعنُّتاً: ما معنى قولك: إن الدكتور طه حسين أخرج الشعر الجاهلي من سدنة الكتب الصفراء؟ فمن هم هؤلاء السدنة ـ إن قبلنا هذا الاستعمال؟ ما هي أسماؤهم، ثم ما هي أزمانهم؟ ثم ما هذه الكتب الصفراء التي جاء فيها شرح الشعر الجاهلي محرَّفاً ومُزالاً عن جهته، حتى جاء عميد الأدب العربـي فنفخ فيه من روحه حتى نهض قائماً على سُوقه؟

إن الشعر الجاهلي قد جاءنا موثقاً مضبوطاً في دواوين أصحابه التي صنعها علماء الصدر الأول، مثل ابن السكيت وابن حبيب وثعلب والسُّكري، وفي الشروح الكبرى، مثل شرح المفضليات لأبـي محمد الأنباري، وشرح القصائد السبع لابنه أبـي بكر، وشرح القصائد التسع لأبـي جعفر النحاس، وجاءنا أيضاً في المجاميع والمختارات الأدبية التي صنفها فحول العلماء في الصدر الأول أيضاً كالمفضليات والأصمعيات والحماسيات والمختارات، وجاءنا أيضاً منثوراً ومفرَّقاً في كتب الأمالي والمجالس ودواوين الأدب ومعاجم اللغة، بل وفي كتب التاريخ والبلدانيات (الجغرافيا).

وحين ظهرت المطبعة، وتصدى علماء البعث والإحياء لشرح الشعر الجاهلي قرأناه في مؤلفات جلة العلماء، من أمثال الشيخ حسين بن أحمد المرصفي، والشيخ

سيد بن علي المرصفي، والشيخ حمزة فتح الله، ثم جاءت طبقة تلاميذهم من قراء الشعر الجاهلي وشراحه، مثل الأستاذ محمود محمد شاكر، والدكتور طه حسين، والطبقة التي جاءت بعدهما مثل الدكتور نجيب محمد البَهْبِيتي، والدكتور عبد الله الطيب المجذوب. . . وهلمّ جرّاً إلى أساتذة الأدب ودارسيه بالجامعات وغير الجامعات.

فأنت ترى أن الشعر الجاهلي تنقل في أصلاب كريمة، ووعته صدور حافظة، وحملته أيدٍ بارة، وأدَّته ألسن ذكية. وهؤلاء العلماء المحدثون الذين ذكرتهم إنما قرأوا الشعر الجاهلي وغير الجاهلي في الكتب الصفراء.

فإذا تركنا حديث الشعر الجاهلي ونظرنا في تراثنا كله المطبوع في مطبعة بولاق والمطابع الأهلية الأخرى بمصر وسائر بلاد الدنيا، وجدنا كله ــ وبخاصة أواخر القرن الماضي والربع الأول من القرن الحالي ــ قد جاءنا في الورق الأصفر، فقد قرأنا تفاسير القرآن الكريم ودواوين السُّنَّة المطهَّرة في الورق الأصفر، وكذلك كتاب الأم للشافعي، وكتاب سيبويه، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، وتاريخ الطبري وابن الأثير، ومقدمة ابن خلدون، والفتوحات المكية لابن عربي، ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ونفح الطيب للمقري، وألف ليلة وليلة. . . وسائر كتب الحضارة العربية والإسلامية. وكذلك الكتب المترجمة يومئذ إلى العربية في أنواع العلوم، كالطب والهندسة والفلك والرياضيات والعلوم الحربية. وكذلك كان الشأن في كثير من مطبوعات أوروبا من الكتاب العربي وغيره.

يقول العلامة الدكتور عبد الله الطيب المجذوب، صاحب الكتاب العظيم «المرشد إلى فهم أشعار العرب» في محاضرة ألقاها بنادي ناصر الثقافي بالخرطوم: «وأشهد على نفسي أني عندما كنت أدرس في الخارج ــ يعني لندن ــ كنا ندرس بعض القطع المسرحية لشكسبير، فكان التلاميذ معنا يُسَمِّع بعضهم لبعض القطع عن ظهر قلب، حتى أمثال «يدخل يطارده القتلة» أو «يخرج يطارده سبع». وكانت لهذه

المسرحيات القديمة شروح، قد تكون الأبيات أربعة أسطر في أعلى الصحيفة بخط كبير، وسائر الصحيفة بخط دقيق شرح لما فوق، ويقبل التلاميذ على ذلك ولا ينفرون، فإذا قدم لهم شيء يشبه ذلك بالعربية نفروا منه نفوراً شديداً. ومن عجب الأمر أن الكتب التي كنا ندرسها بالإنجليزية كان ورقها أصفر. والورق الأصفر لعله ألين على عين القارىء من الورق الناصع الأبيض» انتهى كلامه، ويؤكده أن مصابيح الإضاءة في شوارع وميادين المدن الكبرى غلب عليها الآن اللون الأصفر.

وقد شهدنا في الكتب الصفراء ظاهرة طباعية عجيبة، لم نشهدها في الكتب البيضاء، وهي ظاهرة طبع كتاب أو كتابين بهامش الكتاب الأصلي، أو بآخره إذا كان له صلة بالكتاب الأصلي. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، لا داعي للتطويل بذكرها، على أن أعجب ما في هذه الظاهرة أن نرى خمسة كتب مطبوعة في كتاب، وفي صفحة واحدة اجتمعت الكتب الخمسة، في الصلب والهامش، مفصولة بجداول، دون أن يختلط بعضها ببعض، أو يبغي بعضها على بعض. وذلك: كتاب شروح التلخيص في علوم البلاغة، ويشتمل على:

١ ــ شرح سعدالدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني.

٢ ــ مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي.

٣ ــ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي.

٤ ــ الإيضاح للخطيب القزويني.

٥ ــ حاشية الدسوقي على شرح السعد.

والثلاثة الأولى طبعت في صلب الكتاب، والاثنان الباقيان بهامشه. وكانت الطبعة الأولى للكتاب بمطبعة بولاق ــ على الورق الأصفر ــ سنة ١٣١٧هـ، أي منذ نحو مائة عام، وكانت هذه الطبعة على نفقة مصطفى أفندي المكاوي، المحامي بمدينة الفيوم، والشيخ فرج الله زكي الكردي، وكيل الشركة الخيرية لنشر الكتب العالمية الإسلامية، من طلبة العلم بالأزهر الشريف، وعبد الحميد أفندي الصمداني.

وقِفْ أيها القارىء الكريم عند اسم «مصطفى أفندي المكاوي المحامي»، وانظر إلى همم الرجال واهتماماتهم في تلك الأيام! رجل من رجال القانون ينهض للمشاركة في نشر أصول من كتب البلاغة! وأدعُ لك أيها القارىء العزيز التدبر في هذا الذي كان، وما نحن عليه الآن!

وظاهرة طبع الكتب بهامش كتب أخرى، ظاهرة عجيبة فريدة، وهي دالة بوضوح على أن القوم كانوا في سباق لنشر العلم وإذاعته. وما أعلم أن هذه الظاهرة عرفت في غير مطابع مصر واستانبول، في بداية الطباعة العربية على الأقل.

هذا وقد ارتبط الورق الأصفر عند عارفي الكتب وجامعيها، بجودة التصحيح وكمال الإِخراج ــ وتلك حقبة غالية من تاريخ الطباعة في مصر ــ فقلَّ أن تجد تصحيفاً أو تحريفاً، وجاءت النصوص كاملة موفورة، لا سقط فيها ولا خلل، وذلك لأن القائمين على تصحيح الكتب الصفراء في ذلك الزمان كانوا طبقة من فضلاء العلماء، وكانوا يقومون بعملهم هذا في أمانة تامة وحرصٍ شديد. ويذكر التاريخ من أسماء هؤلاء المصححين العلماء: نصر الهوريني، ومحمد بن عبد الرحمن، المعروف بقُطة العدوي، ومحمد الحسيني، وطه محمود، ومحمد عبد الرسول، ومحمد قاسم، ومحمد الزهري الغمراوي، وعبد الغني محمود.

وكان كثير من أساتذتنا الذين يجمعون الكتب يركضون خلف الطبعة الصفراء، ويسمحون فيها بأغلى الثمن، فإذا جئت أحدهم بطبعة من الكتاب القديم على ورق أبيض، نفر منها نفوراً شديداً، فإذا زيَّنتها له بأن فيها أوائل فقرات، وعلامات ترقيم، لجَّ في إعراضه، وقال: «بِطِينُه ولا غسيل البرك».

وإن تعجب فعجب: أن الورق الأصفر قد عاد إلى الطباعة مرة أخرى، وأمامي الآن طبعة جيدة جداً من «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، على ورق أصفر. وتقع هذه الطبعة في (١٧٥٠) صفحة، وقد أصدرتها مؤسسة الرسالة ببيروت ــ الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م. ثم طبعة محققة من كتاب «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصبهاني على ورق أبيض، ولكنه بياض خفيف يميل كل الميل إلى

الأصفر. وهذه الطبعة من منشورات دار القلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

هذا ولن تزول حيرتي، ولن ينقضي عجبي من حديث «الكتب الصفراء» والحط[1] عليها، إلا إذا جاءني كاتب بكلام محدد مبين موثق، بأسماء هذه الكتب الصفراء، والفنون التي عالجتها، والدلالة على مواضع الذم منها، وليس لي إلا شرط واحد: أن يرفق بي الكاتب، فلا يَهجم بي على دهاليز المنهجية والموضوعية والإشكالية، وحركة التاريخ، والحتمية الحضارية، وأن يأتيني الكلام واضحاً قاطعاً، لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً؛ فإن كثيراً مما نقرأه ونسمعه في هذه الأيام مما ينطبق عليه قول ذلك الأعرابي وقد حضر مجلس الأخفش فسمع كلاماً لم يفهمه، فحار وعجب، فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخا العرب؟ فقال: «أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا»... نعم إن كثيراً مما نقرأه ونسمعه الآن مما يدير الرأس ويجعل الأعلى أسفل والأسفل أعلى، وكأنك في مدينة ملاهٍ، أمام تلك الصناديق التي يجلس فيها الصغار: تعلو بهم ثم تهبط، ثم تعلو ثم تهبط، إلى أن يدركهم الدُّوار، أو يُنزل الله عليهم النعاس أمنة منه... والملجأ الله.

* * *

(١) كذا في الأصل، ولعلها: والحضّ عليها.

النحو.. والشعراء[1]

عرضت في عدد الهلال الماضي لكلمة الشاعر الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي المنشورة بجريدة الأهرام ١٩٩٢/٨/٢٦م، والتي قدم فيها كتاب الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف «صوت الشاعر القديم».

وقد وقفت عند قول الأستاذ حجازي إنه مدين لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين «بهذا المنهج الذي أخرج به الشعر الجاهلي من سلطان النحاة والشراح وسدنة الكتب الصفراء».

ثم ناقشته في «سدنة الكتب الصفراء»، ولم يبق لي من كلامه إلا قوله: إن الدكتور طه حسين «قد أخرج بمنهجه الشعر الجاهلي من سلطان النحاة».

وعوداً على بدء، فهذا أيضاً من الكلام الذي يُرسل إرسالاً، وكأنه من الحقائق المؤكدة التي استقرت عند الناس، ولم يبق لأحد فيها مقال.

فأي «سلطان» يا سيدي الشاعر، وأي «نحاة»؟ لا بد من تحديد هذا السلطان (الحائر) وبيان مداه الذي ينتهي إليه، وغايته التي يقف عندها. ولا بد أيضاً من تعيين هؤلاء «النحاة» بأسمائهم وأزمانهم، فإن هناك كثرة من النحاة الأوائل قد وقفوا مع الإبداع الشعري ــ كما يقال ــ ووجهوا تراكيب الشاعر التي خرجت في الظاهر عن سَنَن كلام العرب؛ فالتمسوا لها وجهاً، وطلبوا لها تأويلاً من لغات العرب التي تسمى الآن «لهجات».

(١) مجلة «الهلال»، ديسمبر ١٩٩٢م.

والقضية أقدم من عميد الأدب العربـي بأكثر من ألف عام. وإليك يُساق الحديث: قال أبو محمد بن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧هـ: إن أبا حاتم السجستاني قال: ليس الفرزدق أهلاً لأن يستشهد بشعره على كتاب الله، لما فيه من التعجرف. وقال ابن خشاب أيضاً: لم يَجْرِ في سَنَن الفرزدق من تعجرفه في شعره، بالتقديم والتأخير المخل بمعانيه، والتقدير المشكل إلا المتنبـي، ولذلك مال إليه أبو علي وابن جني، لأنه مما يوافق صناعتهما، ولا ينفع المتنبـي شهادة أبـي علي له بالشعر، لأن أبا عليٍّ مُعْرِب لا نقَّاد، وإنما تنفعه شهادة العسكريين (يعني أبا أحمد صاحب المصون، وأبا هلال صاحب الصناعتين وديوان المعاني)، وأبـي القاسم الآمدي، فإنهم أئمة يقتدى بهم في نقد الإعراب».

في قلب الحركة الشعرية:

أرأيت يا سيدي الشاعر! هذا أبو علي الفارسي شيخ النحاة في القرن الرابع وتلميذه العظيم ابن جني، كلاهما مع الإبداع الشعري، ولعلي أذكر شيئاً من تخريج أبـي علي لشعر الفرزدق الذي عابه عليه النحاة.

فذكر «النحاة» هكذا بصيغة التعميم غير صحيح. وأيضاً فإن وضع القضية على هذا الشكل يجعل النحاة ــ وبخاصة عند من لا يعرف تاريخ العلم والعلماء ــ بمعزل عن الشعر، بل في موقف المتربص به، الكاره له، البعيد عنه. وهذا غير صحيح أيضاً، فإن كثيراً من نحاة الصدر الأول لم يكونوا منظرين من بعد، بل كانوا في قلب الحركة الشعرية، وفي الصميم منها: فهذا أبو عمرو بن العلاء الإمام النحوي اللغوي، وأحد القرَّاء السبعة كان راوية لذي الرمة الذي يقال: إن شعره يمثل ثلث لغة العرب. وعناية أبـي عمرو بالشعر الجاهلي معروفة، وقد كان يعول مع السماع والرواية على الكتابة والتقييد. وكان يونس بن حبيب شيخ سيبويه شديد الاختصاص برؤبة بن العجاج. وكان نِفْطويه يحفظ نقائض جرير والفرزدق وشعر ذي الرمة.

أما أبو العباس ثعلب ــ وهو مع الكسائي والفراء، زعماء مدرسة الكوفة النحوية ــ فإن له علقة شديدة بالشعر والشعراء: فقد صنع دواوين الأعشى وزهير

وابنه كعب وعروة بن حزام والنابغة الذبياني والجعدي والطرماح وطفيل الغنوي، وشرح لامية الشنفرى:

أقيمــوا بنــي أميــة صــدور مطيكــم فــإنــي إلــى قــوم ســواكــم لأميــل

كما روى شعر ذي الرمة عن أبـي نصر الباهلي صاحب الأصمعي، وعن هذه الرواية كانت نشرة الدكتور عبد القدوس أبو صالح العظيمة لديوان ذي الرمة بمجمع اللغة العربية بدمشق، وفضلاً عن ذلك كله فإن لثعلب في علم الشعر كتاباً شهيراً هو «قواعد الشعر»، وهو على وجازته مفيد في بداية هذا العلم.

أما مسألة «سلطان النحاة على الشعر»، ووقوفهم في وجه الإبداع الشعري فهي من المسائل التي يتابع الناس بعضهم بعضاً فيها دون أن يعطوها حظها من النظر والتأمل.

تقعيد القواعد:

إنَّ النحو علم وصناعة، وقد قعَّد النحاة القواعد بناء على الجمهور الأعظم الذي انتهى إليهم من كلام العرب شعراً ونثراً، فهو نظام مستتب، مبني على الأكثر والشائع، ولذلك يقول ابن عصفور «إن أئمة النحويين كانوا يستدلون على ما يجوز في الكلام بما يوجد في النظام».

والنحوي حريص على هذا النظام، متشبث به، فما خرج عنه رفضه أو ضعَّفه أو شذّذه، ولا يبالي النحوي أي نص كان هذا الذي خرج عن النظام، ولذلك يضعف النحوي ــ بناء على نظامه ــ بعض القراءات القرآنية الآتية من طريق التواتر. فقد تكلم النحاة على قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ بتشديد نون ﴿ إِنَّ ﴾ مع رفع ﴿ هَٰذَٰنِ ﴾ بعدها، وحقه النصب. وتكلَّموا على حذف الفاء في جواب «أما» من قوله ﷺ: «أما بعد، ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله». وحقه: «فما بال...»، وتكلَّموا على حديث: «صلّى رسول الله ﷺ قاعداً، وصلى وراءه رجال قياماً» لمجيء «قياماً» حالاً، وقبله نكرة «رجال»، وحق

صاحب الحال في النظام النحوي أن يكون معرفة، وتكلَّموا أيضاً على قول العرب: «مكره أخاك لا بطل»، وحقه «أخوك».

فالنحوي يعرض كل ما يرد عليه من كلام ونصوص على نظامه، فما وافقه قبله، وما خالفه رفضه، فلئن كانت عداوة بين النحاة والشعراء لهذه العلة، وجب أن تكون هذه العداوة أيضاً بين النحاة وكل من تكلَّم بكلام خالف فيه النظام واتبع هواه.

علم التوجيه النحوي ودوره:

ومع كل هذه الصرامة النحوية، فقد قام نحاة آخرون بتوجيه هذا الكلام الخارج عن النظام، ورده إليه من طريق موافقته لبعض لغات العرب ــ أي لهجاتهم ــ أو من طريق الحذف والتقدير، والحذف من خصائص العربية، وهو سمة من سمات فصاحتها وبلاغتها، ويجعله ابن جني من «باب شجاعة العربية»، وعلم التوجيه النحوي هذا علم ضخم جداً، وبخاصة توجيه القراءات السبع.

ولما كان الشعر كلاماً من الكلام فقد عرضوه أيضاً على نظامهم، فقبلوا منه ورفضوا، لكنهم قد وقفوا منه موقفاً آخر غير موقفهم من النصوص النثرية ــ وهذا يدل على احتفالهم به، وإجلالهم له ــ فهم قد نظروا إليه من أول الأمر على أنه كلام ذو طبيعة خاصة ونسق متميز، وحيث كانت هذه حاله عومل معاملة مباينة لمعاملة منثور الكلام، فأجازوا فيه ما لا يجوز في النثر. وكان صنيع إمام النحاة سيبويه في ذلك دليلاً ومرشداً، فقد عقد باباً في أول الكتاب سمَّاه: «باب ما يحتمل الشعر» قال في أوله: «اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في غيره».

ويقول ابن عصفور: «اعلم أن الشعر لما كان كلاماً موزوناً يخرجه الزيادة فيه والنقص منه عن صحة الوزن، ويحيله عن طريق الشعر، أجازت العرب فيه ما لا يجوز في الكلام، اضطروا إلى ذلك أو لم يضطروا إليه، لأنه موضع أَلِفَت فيه الضرائر».

وتأمل جيداً قوله: «اضطروا إلى ذلك أو لم يضطروا إليه»، فهو كلام صريح

في الاعتراف بأن للشعر لغة خاصة، وأن الضرورة الشعرية ليست كما يفهمها بعض الناس: أنها الذي لا يجد الشاعر عنها محيصاً. وهذا ما عليه المحققون من العلماء، فإن الشاعر الذي قال:

تمـــرون الـــديـــار ولـــم تعـــوجـــوا كـــلامكـــمُ علـــيَّ إذن حـــرامُ

كان يستطيع أن يقول:

مـــررتـــم بـــالـــديـــار ولـــم تعـــوجـــوا

فيسلم له الوزن مع رعاية النظام النحوي في تعدية الفعل «مر» بالباء، ولكنها لغة الشعر، فيا بُعد ما بين «تمرون» و «مررتم» في المذهب الشعري! ومع التسليم بهذه الضرائر الشعرية وتصنيف العلماء فيها: فإنك لو أحصيت ما خرج به الشعراء جميعاً في كل عصور الاستشهاد والاحتجاج، وما بعدها، عن النظام النحوي، لوجدته قطرة في بحر، وأن جمهور شعرهم جار على هذا النظام، وما كان ذلك كذلك إلا لأن ذلك النظام النحوي فطرة وسليقة عند العرب، ألم يقل الشاعر القديم:

ولســـت بنحـــوي يلـــوك لســـانَـــه ولكـــن سليقـــيّ أقـــول فـــأعـــربُ

الضيق بالنحو:

أما ما تراه في كتب الأدب والتراجم من ضيق بعض الشعراء بالنحو والنحاة، وقولهم في ذلك الشعر الساخر المستهزىء فهو عندي من باب المعابثة والاستطالة بالذكاء، وكأنهم يريدون أن يقولوا: إن نحوكم أيها النحاة صنعة، ونحوَنا فِطْرة، وآية ذلك أن شعرهم الذي حمل سخريتهم من النحاة ليس فيه شيء خارج عن النظام، أو خارق لقواعده، وكأنها سخرية بالنحاة لا بالنحو. ولا يتسع المقام لذكر شيء من شعرهم الساخر هذا وتحليله، ولكني أشير إلى مقطوعة من تسعة أبيات، أوردها أبو حيان في الإمتاع والمؤانسة ٢/ ١٤٠، يقول الشاعر الساخر في أولها:

مـــاذا لقيـــتُ مـــن المستعـــربيـــن ومـــن تـــأسيس نحـــوهـــمُ هـــذا الـــذي ابتـــدعـــوا

وفي هذه المقطوعة يقول:

ما كل قولي معروف لكم فخذوا ... ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم ... وآخرين على إعرابهم طُبِعُوا

فهذان البيتان شاهدان على ما قلته من نحو الصنعة ونحو الفطرة. والشاعر بطبعه مختال تيّاه، وحُق له!

وما أظن الذين تكلَّموا عن «سلطان النحاة» على الشعراء قد أخذوا كلامهم إلا من قصة الفرزدق مع عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي: فقد سمع الفرزدق يقول:

وعَضُّ زمانٍ يا بن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحتاً أو مُجَلَّفُ

فقال له: بِمَ رفعتَ «أو مجلفُ»؟ فقال: «بما يسوءك وينوءك، علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا». وهذا البيت مما استفاضت به كتب العربية، وأطال النحاة فيه الكلام. قال البغدادي صاحب الخزانة: «وهذا البيت صعب الإعراب». وقال الزمخشري: «هذا بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه»، وقال ابن قتيبة: «رفع الفرزدق آخر البيت ضرورة، وأتعب أهل الإعراب في طلب الحيلة، فقالوا وأكثروا، ولم يأتوا فيه بشيء يُرْتَضى، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به احتيال وتمويه».

وقال أبو فهر محمود محمد شاكر: «وبيت الفرزدق مما اشتجرت عليه ألسنة النحاة، ولكنه بقي مرفوعاً حيث هو».

ومن أقرب تخريجات النحاة وأولاها بالقبول ما ذكره الخليل بن أحمد، عبقري العربية قال: هو على المعنى، كأنه قال: لم يبق من المال إلا مسحت، لأن معنى لم يبق ولم يَدَع واحد. ومثل ذلك قال أبو علي الفارسي، واستشهد للحمل على المعنى بشواهد أخرى.

وقد حكوا حكايات أخرى عن مخالفة الفرزدق لبعض قواعد النظام النحوي،

ومع هذا المأثور عن الفرزدق فقد بقي جمهور شعره على الجادة النحوية، وظل مدداً ثرياً للنحاة، ينتزعون منه شواهدهم في الدرس النحوي واللغوي بمستوياته الأربعة: المستوى النحوي (التراكيب)، والمستوى الصرفي (الأبنية)، والمستوى الصوتي، والمستوى الدلالي.

الضرورة الشعرية لا تبرر الخروج عن السّنن العربية:

على أنه مما ينبغي التنبه له والحذر منه أن الضرورة الشعرية ـ أو إن شئت لغة الشعر ـ لا تبيح للشاعر أن يخرج عن سَنَن العربية. قال أبو سعيد السيرافي، وهو يشرح كلام سيبويه في الضرورة الشعرية: «وليس في شيء من ذلك رفع منصوب، ولا نصب مخفوض، ولا لفظ يكون المتكلم فيه لاحناً، ومتى وُجِدَ هذا في شعر كان ساقطاً مطَّرَحاً، ولم يدخل في ضرورة الشعر».

والعميد الدكتور طه حسين، الذي قال عنه الأستاذ حجازي إنه أخرج الشعر الجاهلي من سلطان النحاة، يعيب على بعض الشعراء المحدَثين خروجهم على قواعد النحو، فيقول عن الشاعر إيليا أبي ماضي إنه اتخذ ضعفه في النحو مذهباً، وقد ردد هذا الرأي الناقد اللبناني صلاح لبكي، في كتابه «لبنان الشاعر» فرأى أن شعراء المهجر آنسوا ضعفهم في اللغة، ويأسَهم من إصلاحها، فلم يجدوا بداً من أن يتخذوا هذا الضعف مذهباً، وآية ذلك فصل للأستاذ ميخائيل نعيمة في «الغربال» عنوانه ضفادع الأدب.

فليست لغة الشعر، أو الإبداع الشعري، مجازاً إلى الفوضى اللغوية، أو رخصة ليقول بعضهم: «قد فوق وقد تحت»، ولعل ذلك يذكرنا بمقالة أخرى للأستاذ حجازي، نشرها بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٢/٣/٤م، بعنوان «حد الصواب وحد الخطأ»، وذكر فيها كلاماً عجيباً حول اللغة الاعتباطية، وأن القاعدة اللغوية ليست نموذجاً مثالياً لا يتغير ولا يتبدل، وأن اللغة إذا لم تكن تنزيلاً فكل شيء فيها مباح... إلى كلام آخر كثير مما يقال فيه: «وآخر من شكله أزواج»، وهو

كلام منقوض من جهاته كلها، لكن الذي يعنيني منه هنا استشهاده على تجاوز القواعد النحوية بالقراءة المنسوبة للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، برفع لفظ الجلالة ونصب ﴿العُلَمَاءُ﴾، وعندي في هذه القراءة كلام كثير لا يتسع له هذا الموضوع، لكني أوجزه فيما يلي:

أولاً: هذه قراءة منكرة، لا شاذة، كما ذكر الأستاذ حجازي، وفرق كبير في علم القراءات بين القراءة المنكرة والقراءة الشاذة، فالقراءة المنكرة مرفوضة، أما القراءة الشاذة فإن لها حدوداً ومعالم، وليس وصف القراءة بالشاذة غضباً منها أو تهمة لها، وإنما وصفت القراءة بالشذوذ لخروجها عن قراءة القرَّاء العشرة المعتبرين. ولذلك يقول ابن جني في مقدمة كتاب المحتسب، عن هذا الشاذ: «إلا أنه مع خروجه عنها ـ أي عن القراءات العشر ـ نازع بالثقة إلى قرائه، محفوف بالرواية من أمامه وورائه، ولعله، أو كثيراً منه، مساو في الفصاحة للمجتمع عليه. ونعم وربما كان فيه ما تلطف صنعته، وتعنُف بغيره فصاحته...».

القراءات الشاذة:

وقراء القراءات الشاذة أربعة من كبار علماء العربية وهم: ابن محيصن، ويحيى اليزيدي، والحسن البصري، وسليمان الأعمش. وقد ألّفت كتب في ذكر قراءتهم وتوجيهها، وعندي من كتب توجيه القراءات الشاذة هذه ثلاثة كتب، أولها: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جني المتوفى سنة ٣٩٢هـ، ومختصر في شواذ القراءات لابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠ هـ. والقراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب للشيخ عبد الفتاح القاضي، وهو عالم قراءات مصري كبير، توفي منذ عشر سنوات، سنة ١٤٠٣هـ، ولا ذكر لهذه القراءة المنسوبة لأبي حنيفة وللخليفة عمر بن عبد العزيز في هذه الكتب الثلاثة، وكذلك لم أجد لها ذكراً في كتاب الدمياطي: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر.

ثانياً: ذكر الآلوسي في كتابه روح المعاني ١٩١/٢٢: أن صاحب النشر ــ وهو ابن الجزري ــ طعن في هذه القراءة. وقال أبو حيان في البحر المحيط ٣١٢/٢٧ بعد أن ذكر نسبة هذه القراءة إلى عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة: «ولعل ذلك لا يصح عنهما، وقد رأينا كتباً في الشواذ ولم يذكروا هذه القراءة، وإنما ذكرها الزمخشري».

قلتُ: نعم ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣٠٨/٣، وعبارته: «فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللَّـهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ﴾، وهو عمر بن عبد العزيز ويحكى عن أبي حنيفة؟ قلتُ: الخشيةُ في هذه القراءة استعارة. والمعنى: إنما يُجلُّهم ويُعظمهم، كما يُجَلُّ المهيب المخشي من الرجال بين الناس من بين جميع عباده». انتهى كلام الزمخشري.

وتأمل قوله: «ويحكى عن أبي حنيفة»، فهو أسلوب غير قاطع بنسبة هذه القراءة إلى الإمام الأعظم. وأيضاً فإنَّ انفراد الزمخشري بذكر هذه القراءة وتوجيهه لها على أسلوب الاستعارة يتفق مع منهجه الذي غلب عليه في تفسيره، وهو العناية بالمجاز والاستعارة وتنزيل الكلام عليهما، وواضح أن تفسير الآية الكريمة على نصب لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ ورفع ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ إنما هو على الخشية الحقيقية، وتفسيرها على العكس، بالرفع والنصب إنما هو على المجاز، كما سبق. فليس معنى الآية واحداً في القراءتين، كما فهم الأستاذ حجازي!

ثالثاً: لم يلتفت إلى هذه القراءة المنكرة أئمة المفسرين الثقات: من أمثال أبي جعفر الطبري، وأبي الفرج ابن الجوزي، وأبي الفداء ابن كثير، فلم يأت في تفاسيرهم شيء عنها البتة.

رابعاً: هذه القراءة المنكرة المنسوبة لأبي حنيفة ليست أول حكاية عن مخالفته لقواعد اللغة والنحو، فقد رُوِي عنه غيرها، كما تراه في ترجمة الخطيب البغدادي له في تاريخ بغداد ٣٣٢/١٣، ويرى المحققون أن الحامل للخطيب على

ذلك هو عصبية المذهب، وهي آكلة القلب، ومغمضة العين، ومطلقة اللسان، لأن الخطيب كان شافعي المذهب، ولذلك عاب عليه ابن خلكان في وفيات الأعيان ٥/ ٤١٣ مَسْلَكه هذا في ترجمة أبي حنيفة، وقال إنه كان الأليق به تركه والإضراب عنه.

ومن وراء ذلك كله: فإن الكلام في القراءات القرآنية طريق مخوف العواقب، ليس من باب الديانة فقط ــ وهي عزيزة علينا ــ ولكن من باب اللغة أيضاً وضروبها المتشعبة الشائكة. ولعل الشاعر الكبير الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي يريح نفسه من الحديث في قضايا اللغة والنحو، فإنها مجلبة للهم، تكد الذهن وتصدع الرأس، والسالك فيها لا يأمن العثرة بعد العثرة، والزلة إثر الزلة، والسعيد من وفقه الله.

رجاء صادق:

ثم أختم برجاء صادق إلى الشاعر الأستاذ حجازي ــ وأنا أخاطبه بالشاعر قبل أي صفة ــ ألاَّ يحرم قرَّاءه ومحبيه من حديث الشعر والشعراء، وأن يخصص ذلك المكان المتاح له في «الأهرام» للشعر، فيمتعنا بشعره هو، أو يقدم لنا ما يختاره من شعر قديم أو محدث، بالتحليل والدرس والتذوق، فليس أقدر من الشاعر على شرح الشعر. وللشعر بهاء، وللنفس إليه نزوع، وللقلب به عُلْقة. وقد قال الأول:

الشعر نار بلا دخان ... وللقوافي رُقى لطيفه
كم من ثقيل المحل سام ... هَوَت به أحرف خفيفه

وكان أبو علي الفارسي إمام النحاة في القرن الرابع، يقول وقد جرى ذكر الشعر بحضرته: «إني لأغبطكم على قول الشعر! فإن خاطري لا يوافقني على قوله، مع تحققي بالعلوم التي هي من موادِّه».

ولم نر شاعراً اشتغل بقضايا اللغة والنحو والصرف، إلا أن يكون أبا العلاء، ومَن مثل أبي العلاء؟ ولقد أسعدني زماني بمعرفة الشاعر العظيم محمود حسن

إسماعيل، وكان يؤثرني بكلام حلو عال عن الشعر، وكيف يُكتب، وعن إحساسه بالحرف العربي.

وقد أكثر معي من الكلام حول معاني الشعر، وبخاصة عقب إصدار الشاعر العوضي الوكيل الجزء الثالث من «الديوان» ـ يعني ديوان العقاد والمازني ـ وعرَّض فيه تعريضاً شديداً بالشاعر محمود حسن إسماعيل، ويومها قلت له: لماذا لا تكتب يا أستاذ محمود هذا الكلام النفيس عن الشعر وحياتك معه وفهمك له؟ فقال: «إني شاعر» ولم يزد.

رحم الله الشاعر العظيم محمود حسن إسماعيل، وأطال في عمر الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي، وللنحو والنحاة كل الحب والإجلال.



العامة.. وقراءة التراث[1]

كتب الأستاذ الدكتور عبد العظيم أنيس، في العدد السابق من الهلال، مقالة عن العالم الرياضي الشاعر عمر بن إبراهيم الخيامي الفارسي النيسابوري، المعروف عند جمهرة الناس باسم: عمر الخيام، المتوفى سنة ٥١٥هـ ــ ١١٢١م. وكان الخيام عالماً بالرياضيات والفلك واللغة والفقه والتاريخ، وهو صاحب «الرباعيات» التي أذاعت اسمه وأكسبته الشهرة في الشرق والغرب.

وقد افتتح الدكتور أنيس مقالته بكلمات جياد، قال فيها: لا بد أن يكون عمر الخيام هو الرياضي البارز الوحيد الذي اقترن اسمه في هذا العالم بالأندية الليلية والفنادق ومحال بيع الفطائر. ومن الغريب أنه لم ينشأ ناد واحد في العالم العربي لمناقشة إنجازاته الفذة في الرياضيات والفلك، ولا حتى ناد واحد لمناقشة الرباعيات المنسوبة إليه والتي اشتهر بها في الغرب، وإنما ارتبط اسمه للأسف الشديد بأندية اللهو والمجون في الشرق والغرب على السواء.

وقد أثارت هذه الكلمات أشجاناً قديمة حول بعض رموزنا التراثية العظيمة التي ارتبطت عند عامة الناس بمفاهيم خاطئة وتصورات غير صحيحة.

ولا سبيل إلى ذكر كل ما تمتلىء به الجعبة من هذه الرموز التي خلط الناس في أمرها تخليطاً منكراً، فلنكتف بذكر مثالين يشتركان مع عمر الخيام، في هذا الارتباط الخاطىء بين اسميهما وبين اللهو والمجون. وهما: الخليفة العباسي أبو جعفر

(١) مجلة «الهلال»، فبراير ١٩٩٣م.

هارون بن محمد بن المنصور، المعروف بهارون الرشيد، المتوفى سنة ١٩٣هـ، ومعاصره وجليسه الشاعر أبو نواس، الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء، المتوفى سنة ١٩٨هـ.

فأنت قلما تدخل فندقاً إلا وجدت فيه قاعة أفراح باسم هارون الرشيد أو أبـي نواس، إلى ما تراه من أسماء الملاهي الليلية والمطاعم ومحلات الحلوى التي اختارت هذين الاسمين عنواناً وشعاراً، بحيث صار ذكر اسمهما جالباً للأفراح والليالي الملاح والمباهج والمسرات.

أما ما وراء ذلك من التاريخ العريض لهذين العلمين، وأثرهما في الحضارة العربية الإسلامية؛ فهو مما لا معرفة لعامة الناس به، بل إن الأمر قد تعدى العامة إلى بعض الخاصة، وإن كنا لا نستطيع في هذا الزمان أن نجد فرقاً حاسماً بين العامة والخاصة، فقد اختلط المرعى بالهمل. واسأل من شئت من طلبة الجامعة، أو من المتخرجين فيها، عن هذين العلمين، ولن تخرج إلا بما يدور حول اللهو والمجون، وما يفضي إليهما وما ينتج عنهما.

على أننا لا نستطيع ــ حقّاً وصدقاً ــ أن نحمل العامة وحدهم تبعة هذا الفهم الخاطىء لتاريخ الرجلين، فمن أين جاءهم هذا الفهم، وكيف تتابعوا عليه؟

إن الأمر متصل بقضية كبرى: هي قضية الجرأة على التاريخ، والاستخفاف بأيام الناس، ثم عدم إعطاء العقل حظه من الأناة والتتبع والتحري والصبر على تكاليف الحق والإنصاف، وقهر الهوى الجامح.

ولا تقل إن الأمر في هارون الرشيد وأبـي نواس متصل بالأدب الشعبـي الذي يستنزل من الشخصيات بعض صفاتها المثيرة فيضخمها ويتخذ منها مادة للتسلية والترويح، كما نرى في «ألف ليلة وليلة» وما إليها. لا تقل هذا؛ لأن التخليط في أمر الرجلين قد امتد إلى تلك الدراسات التي يفترض أن تكون قائمة على البحث الجاد، والنظر الصحيح؛ لأنها تحمل أسماء وعنوانات توحي بالجد والصرامة العلمية.

هارون الرشيد وصور شائهة:

ولن يتسع المقام هنا لذكر ما كان من هذا التخليط في كتابات الدارسين المحدثين، لكني أكتفي بذكر مثال واحد، من كتاب له عند الناس مكانة كبيرة، ذلكم هو كتاب «قصة الحضارة» لول ديورانت. يقول عن هارون الرشيد: «وتصور لنا القصص ـ وخاصة قصص ألف ليلة وليلة ـ هارون الرشيد، في صورة الملك المرح المثقف المستنير، العنيف في بعض الأوقات، الكريم الرحيم في أغلب الأحيان، المولع بالقصص الجميلة ولعاً يحمله على أن يسجلها ويحتفظ بها في ديوان محفوظات الدولة. وتبدو هذه الصفات كلها فيما كتبه عنه المؤرخون، إذا استثنينا منها مرحه، ولعل السبب في ذلك أن هذا المرح قد أغضب المؤرخين، فهم يصورونه أولاً وقبل كل شيء في صورة الرجل الورع المتمسك أشد التمسك بأوامر الدين، ويقولون إنه فرض أشد القيود على حرية غير المسلمين، وإنه كان يحج إلى مكة مرة كل عامين، وإنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة مع الصلوات المفروضة، ويقال: إنه كان يشرب الخمر، ولكن هذا لم يكن إلا سرّاً مع عدد قليل من خاصة أصدقائه. ويقال: إنه تزوج من سبع نساء. . .»، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد الرابع ص ٩٠، ٩١ ـ ترجمة الأستاذ محمد بدران. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٤م.

فهذه صورة شائهة مهزوزة لهارون الرشيد، تتأرجح بين المدح والذم، وقد استخدم فيها المؤلف «منهج العكس» حيث يقدم صورة الرشيد كما جاءت في ألف ليلة وليلة، وهي صورة «الملك المرح»، ولكن هذا المرح أغضب المؤرخين ـ وهو يقصد المؤرِّخين العرب المسلمين، بلا شك ـ فصوروه في صورة الورع المتمسك بالدين. فهؤلاء المؤرخون في نظر «ديورانت» كاذبون مزيفون، ساءهم مرح الرشيد، فاخترعوا له صورة معكوسة، عكس الواقع.

وفضلاً عن ذلك كله ففي كلام «ديورانت» خبط كثير، وجهل بتاريخ الأمة وشرعها. وتأمل قوله: «وتزوج من سبع نساء»، وقد علق على هذه العبارة مترجم

الكتاب رحمه الله، فقال في الحاشية: «لعل المؤلف يضيف الجواري إلى الأزواج؛ لأن الإسلام يحرم الزواج بأكثر من أربع»، وأقول: الصواب حذف «لعل» هذه.

ومن دقيق الفطنة هنا ما لاحظه الدكتور عبد العظيم الديب، قال: «إن ديورانت غيَّر عبارة المؤرِّخين، فهم يقولون: «كان الرشيد يحج عاماً ويغزو عاماً»، فغيَّرها إلى «يحج كل عامين» وأسقط الغزو، وفي هذا ما فيه. (المنهج في كتابات الغربيِّين عن التاريخ الإسلامي للدكتور عبد العظيم الديب ص ١٠٨ ــ كتاب الأمة ــ قطر ١٤١هـ ــ ١٩٩٠م).

ونعم كان الرشيد رجلاً لا ينسى نصيبه من الدنيا، مقبلاً عليها، آخذاً حظّه منها، قال الأصمعي: «كان الرشيد يحب السمر ويشتهي أحاديث الناس». لكن وراء ذلك دنيا حافلة بالغرائب والعجائب. قالوا: لم يكن أحد أحظى بالشعر منه، كما ذكر الجاحظ في الحيوان ٤/٣٨٣ ــ أي أكثر احتفالاً بالشعر، وقد اجتمع على مدحه من الشعراء ما لم يجتمع على أحد: أبو العتاهية، ومروان بن أبي حفصة، وسَلْم الخاسر، وابن مناذر، وأشجع السلمي، وكلثوم بن عمرو العتابي، ومنصور النمري، والعماني الراجز. وفوق هؤلاء جميعاً صديقه الأثير أبو نواس.

ومن وراء الشعر والشعراء كانت عناية الرشيد بالفقه والحديث واللغة والأدب، وما ظنك بملك يجتمع عنده الشافعي، وأبو يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض؟ وقد ألَّف له أبو يوسف «كتاب الخراج»، واقرأ مقدمة هذا الكتاب، وتأمل وصية أبي يوسف للرشيد، ففيها من الإخلاص في النصح، والصراحة في التوجيه ما لم يقدم عليه أبو يوسف إلا لأنه يعلم أنه سيجد من الرشيد صدراً واسعاً وأذناً واعية.

وما ظنك أيضاً بملك يجتمع عنده سيبويه والكسائي، ويتناظران بحضرته في المسألة النحوية الشهيرة، المعروفة بالمسألة الزنبورية؟ وبحضرته أيضاً تناظر الكسائي مع المفضل الضبي والأصمعي، وأبي محمد اليزيدي، وأبي يوسف (وانظر مجالس العلماء للزجاجي).

وقال الذهبي في وصفه: «وكان شهماً شجاعاً حازماً جواداً ممدحاً، فيه دين وسنة، مع انهماكه على اللذات والقيان، وكان أبيض طويلاً، سميناً مليحاً، وقد وخطه الشيب. وكان يصلي في اليوم مائة ركعة إلى أن مات، ويتصدق كل يوم من صلب ماله بألف درهم، وكان يخضع للكبار ويتأدب معهم». العبر في خبر من عبر ١/ ٣١٢. وقال في سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٩٠: «ومحاسنه كثيرة، وله أخبار شائعة في اللهو واللذات والغناء، والله يسمح له».

فهذا الذهبي مؤرخ الإسلام يذكر كل جوانب هارون الرشيد، فلا ينشر الحسنات ويطوي السيئات، وهكذا جمهور مؤرخي العرب المسلمين، لا ما يذهب إليه ول ديورانت ومن لفَّ لفَّه.

ويقول السيوطي عن الرشيد في تاريخ الخلفاء صفحة ٢٨٤: «وكان يحب العلم وأهله، ويعظم حرمات الإسلام، ويبغض المراء في الدين، والكلام في معارضة النص، وبلغه عن بشر المريسي القول بخلق القرآن، فقال: لئن ظفرت به لأضربن عنقه. وروي أن أبا معاوية الضرير حدثه بحديث: «احتج آدم وموسى» (انظر تمام الحديث في صحيح البخاري، كتاب الأنبياء ٤/ ١٩٢)، فقال رجل شريف من الحضور: فأين لقيه؟ فغضب الرشيد وقال: النطع والسيف، زنديق يطعن في الحديث! فما زال أبو معاوية يسكنه ويقول بادرة منه يا أمير المؤمنين، حتى سكن.

وقد سبق أنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً، وكان يلبس قلنسوة مكتوباً عليها: غاز حاج، قال أبو المعالي الكلابي:

فمــن يطلــبْ لقــاءك أو يُــرِدْه ... فبــالحــرميــن أو أقصــى الثغــورِ

وقد حكم الرشيد ثلاثاً وعشرين سنة، بلغت فيها الدولة الإسلامية شأواً عظيماً من الرقي والحضارة. يقول ابن دحية: «وفي أيامه كملت الخلافة بكرمه وعدله وتواضعه وزيارته العلماء في ديارهم».

وقد غزا الروم في القسطنطينية فصالحته الملكة إيريني، وافتدت منه مملكتها

بسبعين ألف دينار، تبعث بها إلى خزانة الخليفة في كل عام. ووثق علاقة الدولة ببعض ملوك الفرنجة، فكانت له صلات ومودة مع ملك فرنسا كارلوس الكبير الملقب بشارلمان، وكانا يتهاديان التحف، على ما هو معروف.

وبعد... فهل نطمع أن نرى اسم هارون الرشيد يتلألأ ويتضوَّأ على صدر جامعة عربية، أو يتزين به مركز بحث علمي، بدلاً من قاعة هارون الرشيد، وحلواني هارون الرشيد؟.

أبو نواس... صفحة مضيئة:

أما رفيقه أبو نواس فهو شاعر العربية في المائة الثانية بعد بشار بن برد، وهو يمثل صفحة مضيئة في كتاب الشعر العربي، جاء فملأ الأسماع وبهر الأنظار، واستوى في الإعجاب بشعره الجادون والهازلون؛ لأنه دار بين الجد والهزل. وقد خلط الناس في أمره قديماً وحديثاً. لكن المحنة في زماننا أن كثيراً من شباب هذه الأيام ممن نلقاهم أو نقعد منهم مقعد الدرس في الجامعة، لا يعرفون عنه إلا هذا الجانب الهازل الماجن، لأن بعض الدارسين يستهويهم هذا الجانب الماجن من حياة أبي نواس، فيطيلون الوقوف عنده، ويغدون ويروحون فرحين بما آتاهم علم التحليل النفسي. والإغراق في معطيات هذا العلم يحجب كثيراً من الحقائق، ويصد عن أبواب كثيرة من العلم، وقد يدخل الدارس في مضايق يعسر عليه التخلص منها إلا بخداع من القول وضروب من الاحتيال.

وشبابنا معذور أيضاً لأن ما يأتيه عن أبي نواس إنما يأتي كثير منه من تصورات العامة حول شخصية أبي نواس، وما تنسجه حوله من أخبار وحكايات يمتزج فيها الحق بالباطل، ويداخل الخير فيها الشر. ولست بحاجة إلى التذكير بما يسمونه «المعالجة الدرامية» في أفلامنا ومسلسلاتنا، وما يحدث في هذه المعالجة من اضطراب وتشويه للأحداث وتاريخ الرجال، ليسلم لهم ما يريدون من الإثارة والإمتاع.

وليس من غايتي هنا الحديث عن شاعرية أبـي نواس، فهذا مما يعرفه الناس، ويلتمس من مظانه. لكن الذي يعنيني هنا هو الكشف عن الوجه الآخر لهذا الشاعر العظيم، وأنَّ وراء هذه الشاعرية الجادة أو الماجنة عالماً كبيراً، هو من معالم هذه الأمة ومن رموزها العظيمة. وحسبك بشاعر يقف على بابه، ويخوض لججه، أئمة كبار، كابن السكيت، وابن جني، وأبـي بكر الصولي، وحمزة الأصفهاني، ومهلهل بن يموت بن المزرع، وأبـي هفان المهزمي!

قرأ أبو نواس القرآن الكريم على يعقوب بن إسحاق الحضرمي، أحد القراء العشرة، ولما حذق القراءة عليه رمى إليه يعقوب بخاتمه، وقال: اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة. وكتب الحديث عن أئمته: عبد الواحد بن زياد، ويحيى القطان، وأزهر السمان. ثم أخذ اللغة والغريب عن أبـي زيد الأنصاري شيخ سيبويه، ونظر في كتاب سيبويه، وأخذ عن خلف الأحمر معاني الشعر، وعن أبـي عبيدة معمر بن المثنى أخبار العرب وأيام الناس. وحفظ وحصل كثيراً، حتى روي عنه أنه قال: ما ظنكم برجل لم يقل الشعر حتى روى دواوين ستين امرأة من العرب، فما ظنكم بالرجال؟ وروي عنه أيضاً أنه قال: أحفظ سبعمائة أرجوزة، وهي عزيزة في أيدي الناس، سوى المشهورة عندهم.

والجاحظ يصفه بالعالم الراوية، الحيوان ٢/ ٢٧. وحكى ابن المعتز في طبقات الشعراء ص ٢٠١، قال: «كان أبو نواس عالماً فقيهاً، عارفاً بالأحكام والفتيا، بصيراً بالاختلاف (أي اختلاف الفقهاء في الأحكام) صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه. وقد تأدب بالبصرة، وهي يومئذ أكثر بلاد الله علماً وفقهاً وأدباً، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين».

وقال ابن منظور في مختار الأغاني ٣/ ١٧: «كان أبو نواس متكلماً جدلاً، راوية فحلاً، رقيق الطبع، ثابت الفهم في الكلام اللطيف».

وبعد... فهذه كلمات قلائل عن هارون الرشيد وأبـي نواس، سقتها على

سبيل الوجازة والاختصار، وهي كلمات يعرفها أهل العلم من أساتذتنا وزملائنا، ولكني أردت بها شباب هذا الجيل الذي غُيِّب عن تاريخه وتراثه بأسباب كثيرة من المسخ والتشويه والتضليل، وأردت بها أيضاً التنبيه إلى خطورة إخضاع رموزنا التراثية وقضايانا الفكرية لتوجيه العامة وسلطانها الغالب.

ومما ينبغي التنبه له أيضاً أن هذه العاميات قد مدت سلطانها الآن إلى تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر وسائر كلام العرب، ولست أعني بالعاميات: الألفاظ والأبنية والتراكيب، ولكني أعني عاميات الفكر والتصور، وما أريد أن أشق عليك أيها القارىء الكريم بذكر الشواهد والمثل، فهو أمر متعالم مشهور، لكني أذكر لك ما أراه الآن أمامي كتاب (الأدب العربي) المقرر على تلاميذ الصف الأول الثانوي. طبعة وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٩٢م/ ١٩٩٣م، وقد كتب على غلافه: «الكتاب الفائز في مسابقة الوزارة سنة ١٩٩٠م». وفي أول الكتاب قصيدتان لعنترة بن شداد العبسي، صدرتا بهذه العبارة «نماذج من الشعر الجاهلي»، ومطلع القصيدة الأولى:

سكتُّ فغرّ أعدائي السكوتُ وظنُّوني لأهلي قد نسيتُ

ومطلع الثانية:

يا طائر البان قد هَيَّجت أحزاني وزدتني طرباً يا طائر البان

وهذا شعر بارد خفيف سخيف، يبعد أن يكون من نمط الشعر الجاهلي، ويستحيل من كل الوجوه أن يكون من مذهب عنترة الشعري. وفي القصيدة الأولى نقرأ هذا البيت:

خلقت من الحديد أشدَّ قلباً وقد بَلِيَ الحديد وما بليتُ

وعجز البيت من العامية بمكان. وكنت في طفولتي بحي الدرب الأحمر أسمع بعض فتوات المغربلين يقولون: «الحديد بُلِيَ واحنا لم بلينا» (وهذا من المواضع القليلة التي يستعمل فيها العامة الفعل مبنيّاً للمجهول» على أن الحديد أكثر ما يوصف بالصدأ، لا بالبلى.

أما التكرير في مطلع القصيدة الثانية فهو إلى التفاهة والسخافة ما هو!

وقد ذكر الأساتذة المؤلفون في حواشي الكتاب أن القصيدتين من ديوان عنترة بن شداد. نعم يا سادة، هما في الديوان، ولكن أي ديوان؟ لقد طبع ديوان عنترة عدة طبعات، أولاها ـ فيما أعلم ـ طبعة بيروت سنة ١٨٦٤م، بعنوان «منية النفس في أشعار عنترة عبس»، وقام على هذه الطبعة اسكندر آغا ابكاريوس، ثم تناسلت من هذه الطبعة بعد ذلك طبعات كثيرة، في بيروت ومصر، وكان آخرها بمصر بالمكتبة التجارية، بتحقيق وشرح عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي، وتقديم إبراهيم الإبياري، وتشترك هذه الطبعات كلها، في أنها جمعت شعر عنترة كله، سواء ما كان منه صحيح النسبة إليه، أم ما جاء من طريق السيرة الشعبية لعنترة وهي التي يختلط فيها الغث بالسمين، والعالي بالنازل.

ثم يأتينا ديوان عنترة في دراسة علمية محققة على ست نسخ مخطوطة. من عمل الأستاذ محمد سعيد مولوي، وهو طالب علم سوري، حصل بهذا العمل المحقق الجيد على درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة القاهرة، بإشراف الدكتور شوقي ضيف، ومناقشة الدكتور عبد الحميد يونس، والدكتور يوسف خليف. وقد طبع هذا الديوان بالمكتب الإسلامي لصاحبه الأستاذ العلامة زهير الشاويش، دمشق ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، وقد نشر الأستاذ المحقق ديوان عنترة بشرح أبي الحجاج يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم الشنتمرى، مع زيادات الوزير أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي، وغيره من قدامى العلماء، ثم خلصه مما علق به من أخبار ومرويات السيرة الشعبية، فصار بهذا الديوان الذي لا ديوان لعنترة غيره. وتقرأ هذا الديوان الموثق المحقق من أوله إلى آخره، فلا تجد فيه أثراً لهاتين القصيدتين المقررتين على تلاميذ السنة الأولى الثانوية، وقد يكون من هؤلاء شاعر أو أديب...

وهكذا نقدم لأبنائنا في مراحل تعليمهم علماً غير موثق ولا مضبوط، ثم نصفهم بعد ذلك بالجهل والتسرع، وما هم إلا غرس الغارس، وبناء الباني:

ولـو أن قـومـي أنطقتنـي رمـاحهـم نطقــت ولكــن الــرمــاح أجــرَّتِ

(يقال: أجْررت الفصيل: إذا شَقْقت لسانه لئلا يرضع).

وروى الجاحظ في الحيوان ٥/ ١٨٠: «قيل لرجل: أبوك ذاك الذي مات جوعاً؟ قال: فوجد شيئاً فلم يأكله؟».

والشكر بعد ذلك كل الشكر للأستاذ الدكتور عبد العظيم أنيس، فهو الذي استخرج هذا الكلام من مجثمه، أحسن الله إليه، وأطال في عمره. لكن لي إليه رجاء:

أن يعتمد التاريخ الهجري في ذكر الأحداث والأعلام العربية؛ لأن مراجعنا التاريخية كلها (التاريخ العام والطبقات والحوليات) ثم أصول علمنا كلها منزلة على ذلك التاريخ الذي لا تاريخ لنا غيره. وكنا إلى عهد قريب نلتزم بذكر التاريخ الهجري وبعده الميلادي: على سبورة الفصل، وفي رأس الجريدة، وعلى غلاف الكتاب المطبوع، وفي الشهادات الرسمية، وبراءة الأوسمة. بل إننا كنا نلتزم بذكر التاريخ الهجري فقط، وإذا دخلت جامعة القاهرة، ووقفت أمام المبنى الرئيسي، قرأت هذه العبارة:

«وضع الحجر الأساسي للجامعة في حفل من وجوه الدولة وأعلام الأمة في يوم الثلاثاء لخمس عشرة خلت من شعبان سنة ست وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة».

* * *

إقراء القرآن بمصر(١)

(وفيه ترجمة الشيخ عامر عثمان)

في عدد يوليو ١٩٩٢م من «الهلال» كتبت كلمة عن «الشيخ مصطفى إسماعيل وقراء مصر»، جعلتها تحية وصلة لكتاب أستاذنا الكبير الناقد الشاعر كمال النجمي، عن الشيخ مصطفى إسماعيل رحمه الله.

والحديث عن قراءة القرآن وإقرائه بمصر، لا بد فيه من التفرقة بين «القارىء» و «المقرىء»، ومعروف أن لمصر في الفريقين تاريخاً عريضاً وأياماً زاهية.

فالقارىء: هو الذي يقرأ لنفسه وقد يسمعه غيره. والمقرىء: هو الذي يُقرىء غيره، تعليماً وتوجيهاً، وتقول اللغة: «رجل قارىء، من قوم قراء وقَرَأة ــ بوزن فَعَلَة ــ وقارئين، وأقرأ غيره يُقرئه إقراءً، ومنه قيل: فلان المقرىء». وبهذه التفرقة بين الفعل اللازم والفعل المتعدي يحسن أن نقول عن الذي يقرأ بصوت حسن في المناسبات وفي الإذاعة، كالشيخ مصطفى إسماعيل ومن إليه: قارىء، ونقول عن الذي يحفِّظ الصغار في الكتاتيب وجماعات تحفيظ القرآن: مقرىء.

على أنه قد يجتمع الفريقان في جمع التكسير، فيقال: «القُرَّاء» لمن يقرأ ولمن يُقرىء، وعلى هذا سمَّى الحافظ الذهبي كتابه: «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار»، وابن الجزري كتابه: «غاية النهاية في اختصار طبقات القراء».

---

(١) مجلة «الهلال»، مارس ١٩٩٣م.

على أن «للمقرىء» في تاريخنا التراثي معنى أوسع وأشمل من مجرد تحفيظ القرآن للصغار ومن فوقهم. فالمقرىء: هو ذلك العالم الذي يعرف القراءات القرآنية: رواية ودراية، بحيث يكون قادراً على جَمْع الطرق والروايات، ومعرفة وجوه الخلاف بين القراء، والاحتجاج للقراءات وتوجيهها من لغة العرب، ويكون أيضاً متقناً لطرق الأداء ــ وهو ما يُعرف الآن بعلم التجويد ــ ووقوف القرآن: الكافي منها والتام والحسن، ثم يتلقى الناس عنه ذلك كله مشافهة وسماعاً.

وقد نبغ في كل زمان ومكان من قاموا بهذا الأمر على خير وجه، فضلاً من الله وحياطة لكتابه وحفظاً له، ولم يكن لمصر على سواها من الدول العربية والإسلامية فضل وزيادة، فهو رزق الله المقسَّم على خلقه شرقاً وغرباً، ليتم وعده ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر: ١٧]، لكن الأمر كاد يخلص لمصر في القرنين الأخيرين، فتربع قراؤها على عرش الإقراء والقراءة: رواية ودراية وجمال صوت، وصارت الرحلة إليهم من الشرق ومن الغرب، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة ذكرتها في مقالتي عن «الشيخ مصطفى إسماعيل».

ويذكر التاريخ أسماء عظيمة لمعت في سماء مصر في القرنين الأخيرين، وخدمت كتاب الله إقراءً وتأليفاً. ومنهم الشيخ محمد أحمد المتولي المتوفى سنة ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م، والشيخ محمد مكي نصر المتوفى بعد سنة ١٣٠٨هـ، وهو صاحب أعظم كتاب في طرق الأداء وصفات الحروف ومخارجها «نهاية القول المفيد في علم التجويد»، والشيخ علي محمد الضبَّاع المتوفى سنة ١٣٨٠هـ = ١٩٦١م.

ومن المعاصرين: الشيخ المقرىء العالم عبد الفتاح عبد الغني القاضي المتوفى سنة ١٤٠٣هـ = ١٩٨٢م، والشيخ إبراهيم علي شحاتة المقيم الآن بسمَنُّود، والشيخ أحمد عبد العزيز أحمد محمد الزيات، الأستاذ بكلية القرآن بالمدينة النبوية الآن، ويقال: إن الشيخ الزيات هو أعلى القراء الآن إسناداً (وعلو الإسناد معناه قلة

الوسائط بين القارىء الآن، وبين القارىء الأول، وهو المصطفى ﷺ بما نزل به جبريل عليه السلام، عن رب العزة والجلال).

الشيخ عامر عثمان:

ويقف سيدي وشيخي الشيخ عامر السيد عثمان بين هؤلاء الكوكبة من القراء المعاصرين في مكان ضخم بارز، فهو أكثرهم إقراء للناس، واتصالاً بهم، وتأثيراً فيهم.

وقد عرفته منذ عشرين عاماً قبل وفاته حين بدأ العمل في تحقيق كتاب «لطائف الإشارات في علم القراءات» لشهاب الدين القسطلاَّني، شارح البخاري، المتوفى سنة ٩٢٣هـ، بالاشتراك مع الدكتور عبد الصبور شاهين.

وكان الشيخ يتردد على دار الكتب المصرية ومعهد المخطوطات ــ وكنت يومئذ أعمل به ــ فشدَّني إليه، ورغَّبني فيه، ودعاني إلى حلقته العامرة الممتدة على أيام الأسبوع كله، فوقفت منه على علم غزير جم، وتمثلت فيه وبه هذه الأوصاف الضافية التي تأتي في كتب التراجم والطبقات، ويظنها من لا علم عنده بتاريخ الأمة، وأحوال الرجال، من المبالغات والتهاويل التي يغص بها تاريخنا . . . زعموا!

نعم رأيت في هذا الشيخ الجليل كثيراً مما كنت أقرأه في طبقات القراء والمحدثين والفقهاء والأدباء: من سعة الرواية، وكثرة الحفظ، وجمع الطرق، ودقة الضبط، وتحرير الرواية، وحسن الإتقان.

وولد شيخنا الشيخ عامر، رحمه الله، بقرية «ملامس» مركز منيا القمح، محافظة الشرقية، في ١٦ مايو سنة ١٩٠٠م. وحفظ القرآن الكريم بمكتب الشيخ عطية سلامة، وأتمه ولم يتجاوز التاسعة من عمره، ثم أرسله والده إلى المسجد الأحمدي بطنطا، وتلقى القرآن بقراءة الإمام نافع المدني، من فم عالم القراءات الشيخ السعودي. وقد أُوتي الشيخ عامر في صباه حظاً من حسن الصوت أهَّله لأن يكون قارئاً مرموقاً بمحافظة الشرقية، يقرأ في الليالي والمناسبات، وهو طريق جالب

للرزق الواسع والشهرة المستفيضة، ولكنه عزف عن ذلك وولى وجهه شطر القاهرة، حيث الأزهر الشريف، وأئمة القراءة والإقراء.

وفي القاهرة أخذ في القراءة والتلقي والمشافهة والعرض والسماع، فتلقى القراءات العشر الصغرى من طريق الشاطبية والدرة، على الشيخ محمد غنيم، وهو على الشيخ حسن الجريسي الكبير، وهو على العلامة المقرىء أحمد الدري التهامي، وسنده إلى رسول الله ﷺ، معروف.

ثم تلقى القراءات العشر الكبرى على الشيخ علي عبد الرحمن سبيع، من أول القرآن إلى قوله تعالى في سورة هود (وقال اركبوا فيها)، ثم إن الشيخ علياً أرسل خلف الشيخ عامر يقول له: سوف نبدأ بعد ثلاثة أيام، فقال له الشيخ عامر: كيف سنبدأ بعد ثلاثة أيام يا سيدي ونحن قد وصلنا إلى قوله تعالى: (وقال اركبوا فيها)؟ فقال له الشيخ علي: «بعدين ح تعرف»، ثم توفي الشيخ بعد ثلاثة أيام من هذا الكلام. وكان شيخنا الشيخ عامر إذا ذكر هذه القصة اغرورقت عيناه بالدموع، ويقول: «فكان معنى كلام الشيخ علي أن أيام الآخرة بالنسبة له ستبدأ بعد ثلاثة أيام». وتوفي الشيخ علي سبيع هذا سنة ١٩٢٧م.

ثم إن الشيخ عامر شرع في ختمة جديدة على تلميذ الشيخ علي سبيع، وهو الشيخ همام قطب، فقرأ عليه ختمة كاملة بالقراءات العشر الكبرى، من طريق الطيِّبة بالتحرير والإتقان، وقرأ الشيخ همام على الشيخ علي سبيع المذكور، وهو على الشيخ حسن الجريسي الكبير، وهو على الشيخ محمد المتولي، وهو على الشيخ أحمد الدري التهامي، وسنده معروف.

حلقة للإقراء بالأزهر:

وهكذا عرف شيخنا الطريق ولزمه. وبعد أن رسخت قدمه في هذا العلم، رواية ودراية، اتخذ لنفسه حلقة بالجامع الأزهر سنة ١٩٣٥م للإقراء والتدريس، وكان في أثناء ذلك مكباً على مخطوطات القراءات بالمكتبة الأزهرية ودار الكتب

المصرية، يقرأ وينسخ، فظهر نبوغه ولفت إليه الأنظار، فاتصل به الشيخ علي محمد الضبَّاع، شيخ المقارىء المصرية يومئذ، واستعان به في تحقيقات القراءات العشر الكبرى.

وكان رحمه الله حجة في رسم المصحف الشريف، وقد شارك في تصحيح ومراجعة كثير من المصاحف التي طبعت بمطابع الحلبي والشمرلي، والمطبعة الملكية في عهد الملك فؤاد والملك فاروق رحمهما الله.

وحين أنشىء معهد القراءات تابعاً لكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف، سنة **١٩٤٣**م كان الشيخ على رأس مشايخه وأساتذته، فتخرَّجت على يديه هذه الأجيال الكريمة من خدمة كتاب الله والعارفين بعلومه وقراءاته بمصر وخارج مصر.

ولما أنشأت مصر ـ غير مسبوقة ـ إذاعة القرآن الكريم سنة **١٩٦٣**م، وقدمت من خلالها (المصحف المرتل) أشرف الشيخ على التسجيلات الأولى من هذا المشروع العظيم، وكانت بأصوات المشايخ: محمود خليل الحصري، ومصطفى إسماعيل، ومحمد صديق المنشاوي، وعبد الباسط عبد الصمد، ومحمود علي البنا، رحمهم الله أجمعين.

وعلى ذكر الإِذاعة فقد كان شيخنا عضواً بارزاً في لجنة اختيار القراء، وكان سيفاً بتاراً، حازماً صارماً في غربلة الأصوات وإجادتها، ولم يكن يقبل الميوعة أو تجاوز الأصول في القراءة والأداء، وطالما اشتكى منه القراء، ورموه بالتعسف والتشدد، وضغطوا عليه بوسائل شتى، ولكنه لم يلن ولم يضعف، وكذلك كان يفعل في لجنة اختيار القراء الذين ترسلهم وزارة الأوقاف المصرية إلى البلدان العربية والإِسلامية في شهر رمضان. وقد حُورِب كثيراً في لجنة اختيار القراء بالإِذاعة المصرية، وطُلب إقصاؤه أكثر من مرة، وكان الذي يقف وراءه مدافعاً ومنافحاً: الشَّاعر الفحل محمود حسن إسماعيل، إذ كان مستشاراً ثقافيّاً بالإِذاعة المصرية، رحمهما الله تعالى.

مؤلفات الشيخ :

شُغل الشيخ رحمه الله بالإقراء أيامه كلها، فلم يجد وقتاً متسعاً للتصنيف، ولكن الله سبحانه يسَّر له أن يترك بعض الآثار العلمية في فن القراءات، حتى تكون باعثاً لمن يطالعها أن يدعو له بالمغفرة والرضوان. فمما يحضرني الآن هذه التصانيف الآتية، ولست أدَّعي فيها الحصر:

١ ــ فتح القدير شرح تنقيح التحرير (في تحرير أوجه القراءات العشر من طريق الطيِّبة).

٢ ــ شرح على منظومة العلامة الشيخ إبراهيم علي شحاتة السمنُّودي، أبقاه الله، في تحرير طرق ابن كثير وشعبة. فرغ منه يوم الجمعة **٢٥** من صفر سنة **١٣٨٢**هـ.

٣ ــ تنقيح فتح الكريم في تحرير أوجه القرآن العظيم، بالاشتراك مع الشيخ إبراهيم علي شحاته والشيخ أحمد عبد العزيز الزيات. وهو نظم منقح من منظومة فتح الكريم في تحرير أوجه القرآن العظيم، للعلامة شيخ القراء في وقته الشيخ محمد بن أحمد المتولي، المذكور قبل.

٤ ــ كيف يُتلى القرآن، وهي رسالة موجزة محررة في تجويد القرآن: سمَّاها: إملاء ما منَّ به الرحمن على عبده عامر بن السيد عثمان في أحكام تلاوة القرآن. وقد أملاها على أحد تلاميذه الذين يحضرون مقارئه، وهو الطبيب الجراح الدكتور حسني حجازي، رحمه الله. وقد صدرت الطبعة الثانية من هذه الرسالة سنة **١٣٩٠**هـ = **١٩٧٠**م.

٥ ــ تحقيق الجزء الأول من كتاب «لطائف الإشارات» الذي ذكرته من قبل. صدر عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة عام **١٣٩٢**، ولعل المجلس ينشط في طبع بقيته.

٦ ــ أعان الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في تحقيق كتاب «السبعة» لابن

مجاهد، الذي نشرته دار المعارف بمصر أول مرة سنة ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م. وذلك بمراجعة كتابة آياته الكريمة على هجاء المصاحف المصرية المضبوطة، على ما يوافق رواية حفص عن عاصم، والمطابقة لما رواه علماء الرسم عن هجاء المصاحف التي بعث بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار الإسلامية.

٧ ــ وكانت آخر أعمال الشيخ مشاركته في لجنة طبع مصحف الملك فهد بن عبد العزيز، الذي صدر بالمدينة النبوية عام ١٤٠٥هـ.

فهذا ما يحضرني الآن مما تركه الشيخ من علم مسطور مكتوب. أما أبقى أثر للشيخ وأخلده وأرجحه في موازينه إن شاء الله تعالى، فهو تلك المقارىء التي جلس فيها جلوساً عاماً للناس، وقد شغلت هذه المقارىء أيامه كلها، وأشهر هذه المقارىء مقرأة الإمام الشافعي يوم الجمعة، وقد أسندت إليه مشيختها عام ١٩٤٧م وكان عدد الذين يحضرونها من القراء الرسميين أو المعتمدين من وزارة الأوقاف المصرية محدوداً جداً بجانب مختلف طوائف الناس التي كانت تحضر تلك المقرأة وغيرها من المقارىء، فكنت ترى الطبيب والمهندس والضابط والمحامي والموظف والتاجر والحرفي، والفتى الصغير، والشاب اليافع، والشيخ الفاني، مختلف الأعمار والمهن، يتحلقون حول الشيخ؛ يقرأون ويصحح، عيونهم مشدودة إلى شفتيه، وهو يروِّضهم على النطق الصحيح، يصبر على الضعيف حتى يقوى، ويرفُق بالمتعثر حتى يستقيم، لا يسأم ولا يمل، ولا زلت أذكره ــ رحمه الله ــ وهو يروِّض بعض إخواننا على ترقيق اللام من قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وكان عسراً على هذا الأخ أن يرقق اللام بعد الضاد، فكان شيخنا يقرأ أمامه (أضللن) على مقطعين هكذا: (أضْ) (لَلْن) ويكرر المقطعين منفردين ثم يقرأهما معاً حتى يخلص له الترقيق المراد. وكذلك لا زلت أذكره وهو يروِّضنا على الخروج من التفخيم إلى الترقيق وبالعكس، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فأنت هنا تفخم الراء وإن كان قبلها كسر؛ لأنه كسر عارض للتخلص من التقاء الساكنين، ثم ترقق التاء وتعود إلى تفخيم الضاد، وهكذا كنت تقضي العجب وأنت

تنظر إلى حركة فكيه وشفتيه وجريان لسانه في إعطاء كل حرف حقه ومستحقه: من الهمس والجهر والغنة والإظهار والإخفاء والإقلاب والفك والإدغام، وغير ذلك من دقائق الصوتيات، مما لا تستطيع معامل الأصوات أن تنقله بدقة إلى الطالب لأن هذا العلم ــ علم الأداء ــ قائم على التلقي والمشافهة.

ولو كان لي من الأمر شيء لأتيت بشيخ من علماء القراءات في كل قسم من أقسام اللغة العربية بجامعاتنا ليعمل على تدريب الطلبة على الأداء الصحيح والنطق السليم، بجانب معامل الأصوات الحديثة. وهؤلاء المشايخ (الغلابة) لن يأخذوا من الأجر أكثر مما تستهلكه هذه المعامل من طاقة وكهرباء، بل إني أذهب إلى أبعد من هذا في التمني: وهو أن يعين شيخ من هؤلاء القراء مشرفاً خارجيّاً مع المشرف الأكاديمي لكل رسالة علمية (ماجستير أو دكتوراه) تتصل بعلم القراءات من قريب أو بعيد.

ومن تفنن شيخنا في مجال الأداء الصوتي: أنه كان يأخذنا إلى تفرقة دقيقة لطيفة، في الوقف على الراء من قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر: ١٦]، وقوله عزَّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ [القمر: ٢٣]، فالراء في الآية الأولى يستحسن أن يوقف عليها بترقيق لطيف يشعر بالياء المحذوفة؛ لأن أصلها(ونُذُري) بإثبات ياء الإضافة، وقرأ بها ورش بن سعيد المصري، عن نافع المدني. ومن القراء المعاصرين الذين سمعتهم يراعون ذلك الترقيق اللطيف المشايخ: محمود خليل الحصري، ومحمود حسين منصور، ومحمد صديق المنشاوي.

أما الراء في الآية الثانية فيوقف عليها بالتفخيم الخالص؛ لأنها جمع نذير.

وأما «النَّبر» في مصطلح علم اللغة الحديث ــ وهو النظام المقطعي في قراءة الكلمة، فقد كان الشيخ رحمه الله آية فيه، وقد سألته عنه يوماً، فقال لي: «إن القراء لم يذكروا هذا المصطلح، ولكنه بهذه الصفة يمكن أن يُسمَّى «التخليص»، أي تخليص مقطع من مقطع». وها أنا ذا أضع هذا المصطلح أمام علماء اللغة المحدثين ليروا فيه رأيهم، ولعلهم يحلونه محل «النبر». وقد سمعت لهذا «التخليص» من

الشيخ أمثلة كثيرة جداً، أذكر منها قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، وقوله عزَّ وجلّ: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه: ١٠١]، فأنت لو ضغطت على الفاء في الآية الأولى صارت من الفسق لا من السقي، وإن لم تضغط على الفاء في الآية الثانية صارت من الفقس لا من القسوة. أما في الآية الثالثة فلا بد أن تخلص (ساء) من (لهم) حتى يكون من السوء لا من المساءلة، لو خطفتها خطفة واحدة. هكذا كان يعلمنا الشيخ، إلى أمثلة كثيرة لا أحصيها عدداً. لكني أذكر أن أحدهم قرأ مرة أمام الشيخ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٦]، وخطف (فلهم) خطفة واحدة ضاغطاً على الفاء، بحيث صارت الكلمة كأنها فعل ماض مسند إلى ضمير الجماعة، مثل: ضَرَبَهُمْ، فقال له الشيخ: (مَفَلَهُمْش) يريد رحمه الله أن يقول إنه ليس فعلاً واقعاً عليهم، وأن هذه البنية من مقطعين (ف) (لهم).

وكان الشيخ صاحب دعابة، فكان إذا قرأ أحدهم على غير الجادة يقول له مستفهماً مستنكراً: إنت جوّدت القرآن في ألمانيا؟ وقرأ بعضهم أمامه برواية خلف عن حمزة، ولم يكن متقناً للرواية، فقال له: «قُوم يا شيخ، دانا كنت باحْسِبَك خَلَف الحبايب»، وقرأ آخر أمامه وتحنن في صوته تحنناً ظاهراً في تكسر، فقال له الشيخ: «مافيش فايدة» يريد أنه يقلد صوت «فايدة كامل»، فقد كان في صوته تلك السمات التي عرفت بها هذه المغنية قبل أن تشتغل بالسياسة.

وكان للشيخ حس دقيق جداً في تقييم الأصوات والحكم عليها، وقد لا يعرف كثير من الناس أن الشيخ رحمه الله، درس علم الموسيقى بمعهد فؤاد الأول للموسيقى العربية أول إنشائه.

وكما كانت معرفة الشيخ بمخارج الحروف وصفاتها عظيمة، كانت عنايته بالوقوف: تامها وحسنها وكافيها، عالية جداً، وكان يأخذ على بعض كبار القراء تهاونهم في تعهد الوقوف ومراعاتها، وكان يصارحهم بذلك فيغضبون.

وكان شيخنا رحمه الله يتشدد في الوقوف على رؤوس الآي: لأنها سنة، ولو

تعلقت الآية بما بعدها. فإذا كانت الآية التالية مقول قول في الآية الأولى، وكان البدء بمقول القول هذا مما يوهم أن يكون إقراراً من القارىء وليس من المحكي عنه، وقف على رأس الآية الأولى اتِّباعاً للسُّنَّة، ثم يستأنف الآية الثانية تالياً الفعل السابق في الآية الأولى. مثال ذلك قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢]، يتلوها هكذا: ألا إنهم من إفكهم ليقولون. ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون. وما أكثر ما علَّمنا هذا الإمام الكبير!

ومع حرص الشيخ على كمال الأداء وحسن التجويد، فقد كان يعيب على بعض القراء المبالغة في ذلك، ويراه لوناً من التنطع والشقشقة. وللفائدة هنا فإني أذكر بأن مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي المتوفى سنة ٤٧٨هـ، قد أخذ على قراء زمانه مبالغتهم في التجويد والتقعر في إخراج الحروف، وذلك في رسالة له لطيفة مطبوعة، سمَّاها «بيان زَغَل العلم»، وهي رسالة نافعة، عرض فيها الذهبي لأخطاء أهل العلم.

نور القرآن:

وقد أضاء شيخنا القاهرة كلها بنور القرآن، فلم تكن مقرأة الإمام الشافعي هي المكان الوحيد الذي يجلس فيه للإقراء، فقد كان يبدأ يومه عقب صلاة الفجر بالإقراء بمسجد السيدة زينب، حيث يسكن الشيخ قريباً من المسجد الزينبي، وهناك مقارىء أخرى يحضرها الشيخ منها مقرأة بمسجد النقشبندي بجوار مستشفى أحمد ماهر بالقرب من باب الخلق، وكان موعدها يوم السبت، ومقرأة الجمعية التعاونية للبترول بشارع قصر العيني، يومي الاثنين والثلاثاء، ومقرأة يوم الأربعاء بمسجد بمنزل الحناوي بجاردن سيتي.

وقد تفرع من هذه المقارىء مقارىء أخرى، منها مقرأة الدكتور صادق بمنطقة الحلمية، بالقرب من القلعة. وهذا الدكتور صادق طبيب أطفال، وقد تلقى عن الشيخ القراءات السبع. وفي صوت هذا القارىء الطبيب صفاء وخشوع يأخذان بمجامع القلوب.

ومقرأة بمسجد يوسف الصديق بميدان الحجاز بمصر الجديدة، يقوم عليها القارىء الطبيب الدكتور عوض الأستاذ بكلية طب الأزهر، ومقرأة بمسجد مصطفى محمود بالمهندسين، يقوم عليها الحاج حسين، وهو صاحب معرض ملابس، وقد لازم الشيخ كثيراً بزاوية النقشبندي. وتلامذة الشيخ كثيرون، أذكر منهم الأديب الأستاذ عبد العزيز العناني، وهو مؤرخ للموسيقى العربية، لا تجد له في بابه نظيراً، ألبسه الله ثوب الصحة والعافية.

ومن الوزراء الذين قرأوا على الشيخ ولازموه ونَوَّروا به مجالسهم: السادة عبد المحسن أبو النور، وتوفيق عبد الفتاح، وعبد الرحمن الشاذلي، وإبراهيم سالم. ويأتي على رأس هؤلاء جميعاً الرجل التقي النقي ــ ولا نزكي على الله أحداً ــ الدكتور إبراهيم بدران. وكان من أبر الناس بشيخنا، وقد حمله وأعد له مكاناً رحباً بالمستشفى الذي يملكه بالمهندسين، وأقام عليه من يخدمه ويتولى أمره، وخصص له سيارة تحمله إلى حيث يشاء، وذلك بعد وفاة زوجته، رحمهما الله جميعاً.

وقد أفاد من علم الشيخ نساء كثيرات، منهن السيدة سميحة أيوب، وإذا تأملت أداءها في النصوص المسرحية الفصيحة رأيت أمارات ذلك. ومنهن السيدة مفيدة عبد الرحمن، المحامية الشهيرة. ولهذه السيدة الفاضلة بالقرآن وخدمته نسب وثيق، فأبوها هو: عبد الرحمن محمد، صاحب المطبعة الكائنة بحي الصنادقية بالأزهر الشريف. وقد تخصصت هذه المطبعة في طبع المصحف الشريف منذ زمن بعيد.

تلاميذ الشيخ في كل مكان:

على أن لشيخنا الشيخ عامر أثراً آخر مباركاً، غير التصنيف والإقراء: هو هذا العون الظاهر الذي قدَّمه لهذا النفر من الجامعيين الذين اتخذوا من علم القراءات ميداناً لدراساتهم الصوتية والتاريخية، يحضرني منهم الأساتذة: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، وأحمد علم الدين الجندي، وعبد الصبور شاهين، إلى كثير من المعيدين والمبتدئين الذين كانوا يختلفون إليه لتجلية غامض، أو كشف مبهم من هذا العلم الذي هو علم العربية بحق.

وعلى الجملة فتلاميذ الشيخ والمنتفعون بعلمه لا يُحْصَوْن، داخل مصر وخارجها، وكنت أرى كثيراً من أبناء الدول العربية والإسلامية، بل من المستشرقين، يأتون إليه، ويجلسون في حلقته، ويا ليتني أحصيتهم عدداً، وقيدت أسماءهم وأسماء بلدانهم وأعمارهم، إحياء لسنن قديمة في تراثنا التاريخي، من ذكر الواردين على البلاد، والمرتحلين إلى الشيوخ.

وفي سنواته الأخيرة اختار شيخنا المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ مستقراً ومُقاماً، حيث دعي إلى هناك لمراجعة مصحف الملك فهد، وللتدريس بكلية القرآن بالجامعة الإسلامية.

وفي مساء يوم الخميس، وقبيل فجر يوم الجمعة الخامس من شوال سنة ١٤٠٨هـ الموافق للعشرين من مايو سنة ١٩٨٨م، اختار الله إلى جواره عبده وخادم كتابه: عامر السيد عثمان، وصُلِّي عليه بالمسجد النبوي الشريف عقب صلاة الجمعة، ودُفن بالبقيع، مرحوماً مرضيّاً عنه إن شاء الله.

اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعفُ عنه، واجعل كل ما قدَّمه من خدمة كتابك في موازينه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً. وهيىء لهذه الأمة من يخلف هؤلاء الرجال العظام، ويقوم مقامهم، حياطة لدينك، وحفظاً لكتابك. إنك على ما تشاء قدير.

* * *

قصيدة نادرة في المديح النبوي(1)

جاء محمد بن عبد الله ﷺ على فترة من الرسل، فانتهت به الرسالات، وخُتمت به النبوات، وقد بعث إلى الناس كافة؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط ربه المستقيم.

وقد قضى ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة، بين مبعثه ووفاته يدعو الناس إلى التوحيد، ويبلغهم قرآن ربه الذي يشتمل على صلاح أمورهم في دنياهم وآخرتهم.

وكانت سنّته الشريفة، أفعالاً وأقوالاً وتقريراً هي المصدر الثاني للتشريع، وهي الحكمة في قوله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وقوله: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

ثم كانت سيرته العطرة مجلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم: ٤]. وتصديق قول عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فقد اصطفاه من بين خلقه اصطفاء وقرأ بعض القرّاء: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفَسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، بفتح الفاء على معنى: من خياركم، من قولهم: هذا أنفَسُ المتاع، أي أجوده وخياره ــ ثم هداه إلى الطيب من القول، والمرضي من السلوك، وعصمه من كل شبهة، وارتفع به عن كل نقيصة وبرأه من كل

(1) مجلة «الهلال»، سبتمبر ١٩٩٣م.

عيب، وحفَّه بالضياء، وغشّاه بالنور، فكان الإعجاب به والثناء عليه مما تقتضيه الفِطر السوية والطباع النقية إذ كان ﷺ صورة للكمال الإنساني.

هذا وقد كان الشعر أسبق من النثر في مديحه ﷺ والثناء عليه، فلئن كان النثر قد مدَّ أسبابه في الحديث عنه عليه السلام، فيما عُرف بكتب السيرة النبوية والشمائل والخصائص، فإن ذلك لم يكن إلا بعد وفاته عليه السلام، بل وانقضاء عصر الراشدين، وذلك في نهاية القرن الأول، وأوائل القرن الثاني.

أما الشعر فقد صحبه ﷺ منذ صَدَعَ بأمر ربه، ولقي من إعراض كفار قريش وأذاهم ما لقي، ولعل عمه أبا طالب هو أول من فتح هذا الباب العظيم: باب المدائح النبوية، وإن كانوا قد طعنوا في كثير مما قال فإنهم قد سلَّموا له بقصيدته اللامية الطويلة.

يقول محمَّد بن سلام الجمحي: «وكان أبو طالب شاعراً جيد الكلام، أبرع ما قال [قصيدتُه] التي مدح فيها النبيّ ﷺ:

وأبيضُ يُسْتَسْقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمةٌ للأراملِ

وقد زِيد فيها وطُوِّلَت، ورأيت في كتاب يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة: وقد علمت أن قد زاد الناسُ فيها ولا أدري أين منتهاها. وسألني الأصمعي عنها، فقلت: صحيحة جيدة! قال: أتدري أين منتهاها؟ قلت: لا». طبقات فحول الشعراء ص ٢٤٤.

ومن أقدم ما قيل في مديحه عليه السلام أيضاً قصيدة الأعشى الكبير ميمون بن قيس، التي مطلعها:

ألم تَغْتَمِضْ عيناك ليلةَ أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهَّدا

وفيها يقول:

نبي يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا

لــه صــدقــات مــا تُغِــبّ ونــائــل   وليــس عطــاء اليــوم مــانعــه غــدا

وللنقَّاد ومؤرِّخي الشِّعر في هذه القصيدة مقال.

ثم كان شعراء الصحابة المشاهير: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وقد اختلط مديحهم له عليه السلام بالحديث عن الدين الجديد ومناوأة المشركين، ولم يكن هؤلاء الثلاثة وحدهم على الساحة، فقد ذكر الحافظ ابن سيد الناس اليعمري المتوفى ٧٣٢هـ نحواً من مائة وتسعين صحابيّاً وصحابية عطروا ألسنتهم بمدحه ﷺ، وجمع ذلك في كتابه سمَّاه (مِنَح المدح) وهو مطبوع متداول.

وينقضي عصر الصحابة، ويداول الله الأيام بين الناس، فتذهب أيام وتأتي أيام، وتُثَل عروش وتقوم عروش، ويتقلب الناس بين قديم وجديد وطارف وتليد، ولا زال ذكره الشريف يؤنس الغريب، ويطب الجريح، ويرد الضال ويهدي الحائر، فلم ينقطع هذا المدد النبوي الكريم على ألسنة الشعراء وقالة القصيد: شعراً منغوماً، قد تتفاوت قيمه الفنية والتصويرية، لكنه في جميع أشكاله وضروبه يسري فيه هذا النفس المحمدي العظيم، طب القلوب ودواؤها، وعافية الأبدان وشفاؤها، ونور الأبصار وضياؤها.

وقد نهد إلى جمع شعر المدائح النبوية في مختلف العصور: الأديب العالم الجامع يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني الفلسطيني المولد، المتخرج في الأزهر الشريف، رئيس محكمة الحقوق في بيروت، المتوفى سنة (١٣٥٠هـ = ١٩٣٢م)، وقد سمَّى عمله هذا (المجموعة النبهانية في المدائح النبوية) وهو عمل ضخم اشتمل على (٢٥٠٦٦) بيتاً، وطبع في أربعة مجلدات كبار.

ومن أنفس ما قرأت في هذا الفن: ما أخرجه الأستاذ العالم الدكتور محمود علي مكي، بعنوان (المدائح النبوية) وقد صدر عام ١٩٩١م عن الشركة المصرية العالمية للنشر ــ لونجمان. وجهات الحسن في هذا الكتاب كثيرة، فهو على وجازته

قد عرض لتاريخ المدائح النبوية في فصول أربعة: الفصل الأول الرسول في شعر معاصريه، وهو ما يعرف بشعر الصحابة، الذي جمعه من قبل الحافظ ابن سيد الناس، على ما ذكرت. والفصل الثاني: المدائح النبوية في شعر الشيعة. والفصل الثالث: المولد النبوي والمولديات. ثم جاء الفصل الرابع عن المدائح النبوية في العصر الحديث.

قصيدة العباس بن عبد المطلب:

والعباس عم رسول الله ﷺ، وقصيدته هذه خالصة في مديحه عليه السلام، وهي بذلك تباين ما قاله الشعراء الصحابة، إذ كان هؤلاء قد خلطوا مديحهم له عليه السلام بالدعوة إلى الدين الجديد، والرد على المشركين والافتخار عليهم بوقائعهم معهم وانتصاراتهم عليهم، كما ذكرت من قبل.

وقد سكت الدكتور محمود علي مكي عن هذه القصيدة، فلم يوردها مع ما أورد من شعراء الصحابة ــ مع يقيني بأنه لا يخفى عليه مكانها ــ وكذلك يغفلها كثير ممن يكتبون عن شعر المدائح النبوية، فلم تحظ بما حظيت به قصائد حسان وكعب وابن رواحة: مع أنها قصيدة مروية مذكورة الإسناد، مع فخامتها الشعرية وشدة شبهها بالشعر الجاهلي، بل قل إنها صورة من الشعر الجاهلي في جلاله وبهائه.

وإليك أيها القارىء الكريم نص القصيدة، متبوعة بتوثيقها وشرحها وتحليلها: حدث أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، عن أبيه، عن يزيد بن عمرو الغنوي، عن زكريا بن يحيى الكوفي، قال: حدثنا عم أبي، زَحْر بن حصن، عن جده حُميد بن مُنْهِب، قال: سمعت جدي خُريم بن أوس بن حارثة، يقول: هاجرت إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة مُنْصَرَفَهُ من تبوك، فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول: يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك، فقال: «قل، لا يفضُض الله فاك». فقال العباس:

مِن قَبْلِها طِبْت في الظلال وفي ... مُسْتَوْدَع حيث يُخْصَفُ الورقُ

ثـــم هَبَطْـــت البـــلاد لا بَشَـــرٌ أنـــت ولا مُضْغَـــةٌ ولا عَلَـــقُ
بـــل نُطْفَـــةٌ تـــركَـــبُ السَّفِيـــن وقـــد أَلْجَـــمَ نَسْـــراً وأهلَـــه الغَـــرَقُ
تُنْقَـــل مـــن صـــالـــب إلـــى رَحِـــمٍ إذا مضـــى عـــالَـــمٌ بـــدا طَبَـــقُ
حتـــى احتـــوى بَيْتُـــك المُهَيْمِـــنُ مِـــنْ خِنْـــدِفَ عَلْيـــاء تحتَهـــا النُّطُـــقُ
وأنـــت لمَّـــا وُلِـــدْتَ أَشْـــرَقَـــت الـــ أَرضُ وضـــاءتْ بِنُـــورك الأُفُـــقُ
فنحـــن فـــي ذلـــك الضيـــاء وفـــي النْـــ ـــنُـــورِ وسُبْـــل الـــرَّشـــادِ نَخْتَـــرِقُ

غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٣٥٩.

فهذه أقدم رواية لقصيدة العباس بن عبد المطلب، إذ كان ابن قتيبة قد توفي سنة (٢٧٦).

وتلي هذه الرواية زمناً رواية أبـي القاسم الزجاجي المتوفى (٣٤٠)، قال: حدثنا إبراهيم الصائغ، قال: حدثني عبد الله بن مسلم بن قتيبة... ثم بقية السند السابق. اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجي ص ٢٣٠.

وثالث الروايات: رواية الحافظ أبـي الحسن الدارقطني المتوفى (٣٨٥)، قال: حدثنا عبدان بن أحمد وأحمد بن عمرو البزار، وحدثنا محمد بن موسى بن حماد البربري، قالوا: حدثنا أبو السكين زكريا بن يحيـى... ثم بقية سند ابن قتيبة، المعجم الكبير ٤/ ٢٥٢.

ورابعها: رواية أبـي عبد الله الحاكم النيسابوري المتوفى (٤٠٥) قال في كتابه المستدرك على الصحيحين ٣/ ٣٢٦، ٣٢٧، حدَّثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدَّثنا أبو البَختري عبد الله بن شاكر، حدَّثنا زكريا بن يحيـى... إلى آخر السند، وقال الحاكم: «هذا حديث تفرد به رواته الأعراب، عن آبائهم، وأمثالهم من الرواة لا يضعون». وجاء في رواية الذهبـي عن الحاكم، في سير أعلام النبلاء ٢/ ١٠٢: «ومثلهم لا يُضَعَّفُون»، والتعقيب في كلتا الروايتين ذو دلالة، فهو يريد أن يؤكد الثقة بالحديث، إذ كان رواته من الأعراب، يعني الذين يجرون في أحاديثهم ورواياتهم

على الصدق، فطرة وسليقة، وليسوا من المحدثين أصحاب الصنعة الذين تدور أحوالهم بين الجرح والتعديل.

ونأتي إلى آخر رواية من روايات الحفاظ، وهي رواية الحافظ أبـي بكر الخطيب البغدادي المتوفى (٤٦٣) فقد رواه في كتابه الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة ص ٤٤٩ ــ عن أبـي طالب يحيـى بن علي بن الطيب العجلي الدَّسْكَرِيّ، عن أبـي أحمد محمد بن أحمد بن الغطريف بن القاسم العبدي، عن يحيـى بن محمد بن صاعد، عن زكريا بن يحيـى. . . إلى آخر السند.

ثم تدور القصيدة بعد ذلك غير مسندة في كتب العربية، فتراها في: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٨، والزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري ١/ ٢٧٥، والاستيعاب لابن عبد البر ص ٤٤٧، والفائق في غريب الحديث للزمخشري ٣/ ١٢٣، وشروح سقط الزند لأبـي العلاء ص ٣٥٣، وشرح أدب الكاتب للجواليقي ص ٣٠٨، وأمالي ابن الشجري ٣/ ١١٤، والشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض ص ٢١٨، والوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي ١/ ٣٥، وعارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي لابن العربـي ١٣/ ٩٦، ومنال الطالب في شرح طوال الغرائب لمجد الدين بن الأثير ص ٤٤٠، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير ٢/ ١٢٩، والجوهرة في نسب النبـي وأصحابه العشرة للبري ٢/ ١٢، والحماسة البصرية ١/ ٦١٠، وتفسير القرطبـي ١٣/ ١٤٦، ومِنَح المِدح لابن سيد الناس ص ١٩٢، وزاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية ٣/ ٥٥١، والسيرة النبوية لابن كثير ٤/ ٥١، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين الهيثمي ٨/ ٢١٧، والخصائص الكبرى للسيوطي ١/ ٩٧، وسبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد للصالحي الشامي ١/ ٩٠، والمجموعة النبهانية في المدائح النبوية ١/ ٥٦.

ثم يأتي من هذه القصيدة البيت والبيتان في معاجم اللغة، ودواوين الأدب، شواهد على غريب اللغة ووجوه المعاني، مُنَزَّلاً ذلك على ترتيب المواد والمقاصد.

ويبقى أن أشير إلى أن أبياتاً أربعة من هذه القصيدة نُسبت إلى حسان بن ثابت ـ انظر ديوانه ص ٤٩٨ ـ ولا تصح هذه النسبة، وقد ردها الحافظ السيوطي في كتابه اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ١/ ٢٦٤، ٢٦٥.

بحر القصيدة:

جاءت هذه القصيدة على البحر المنسرح، وتفعيلاته:

مستفعلـــن مفعـــولاتُ مستعلـــن مستفعلـــن مفعـــولات مستعلـــن

مع ما تطيقه هذه التفعيلات من زحافات وعلل.

ويرى بعض الدارسين المحدثين أن النظم على هذا البحر قليل، لأن فيه عنتاً ومشقة، وقد قل النظم عليه، وكاد يهجر لاختلاف موسيقاه عن جنس الموسيقى الشائعة الأوزان، ويرى بعضهم أن إيقاع هذا البحر خافت يكاد يكون كلاماً منثوراً، بل إن بعضهم تنبأ بأنه سينقرض من الشعر في مستقبل الأيام!. وهذا كلام من لا يرتاح إلى هذا الوزن، وينفر منه بطبعه، فيجعل من ذوقه الخاص حكماً عاماً، ثم هو كلام يرسل إرسالاً، دون مراجعة أو إحصاء، فإن النظم على هذا البحر شائع في الشعر الجاهلي، وفيما بعده إلى يوم الناس هذا، وإن لصديقنا الشاعر عبد اللطيف عبد الحليم (أبو همام) أُنْساً بهذا البحر وولعاً، وقد أنشأ ديواناً، أداره كله على هذا البحر، وسمَّاه: (من مقام المنسرح)، ثم لا يزال يتعاهده في شعره بين الحين والحين.

ثم ذكر العلامة عبد الله الطيب المجذوب كلاماً عالياً حول هذا البحر المنسرح في كتابه الفذ: المرشد إلى فهم أشعار العرب ١/ ١٧٥ ـ ١٩١، وذكر أن هذا البحر في الجاهلية قد شاع في فنَّي الرثاء المراد به النَّوح، والنقائض، وأنشد قدراً صالحاً من الشواهد، ثم ذكر أن الخريمي الشاعر أنشأ قصيدة من هذا البحر، من مائة وخمسة وثلاثين بيتاً يصف فيها الفتنة ببغداد أيام الأمين والمأمون. وأنشد في كتابه بين النير والنور ص ١٦٩، هذا البيت:

وسَـرَّت النفـس أمـسِ ذات الفـرا   شـات التـي ريـمُ جيـدهـا صَنَـمُ

ثم قال: «هذا بحر المنسرح فاعرفه: بحرٌ طروب إلى جارية وحشية عروب».

وأقول: حسبنا أن نذكر من هذا البحر رائعة المتنبي التي أولها ـ وهو مما قاله في صباه:

أهـلاً بـدارِ سَبَـاك أغْيـدُهـا   أبْعَـدُ مـا بـانَ عنـك خُـرَّدُهـا

شرح القصيدة وتحليلها:

تبدأ القصيدة في روايتها المسندة، وفي سائر الكتب بهذا البيت:

مِـن قبلهـا طِبـت فـي الظـلال وفـي   مستـودع حيـث يُخصـف الـورق

ولا ينبغي أن يظن أن هناك نقصاً؛ فإن الرواية مجمعة على هذا الاستفتاح، وهو استفتاح غريب حقاً، وهو دال على حالة شعورية عجيبة، فكأن الشاعر طوى أشياء كثيرة في صدره، قفز منها إلى مقصوده الأعظم وشاغله الأقوى، أو كأنه لا يحفل بما تعارف عليه الشعراء في عصره من استفتاح القصائد، فكأنه لا يحب أن يرد طريقاً مسلوكاً. ولو وقع مثل هذا البدء في شعر شاعر من القوم في زماننا هذا لكان لنقادهم فيه ضجيج واحتفال...

وقوله: «من قَبلها» أي من قبل الخليقة، أضمر لغير مذكور، والعرب تفعل ذلك توسعاً واختصاراً وثقة بفهم السامع، وقد جاء منه في القرآن والشعر ما لا يُحصى كثرة، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن: ٢٦]، وقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، أضمر «الأرض» في الآيتين، وقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة: ٨٣]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾﴾ [القيامة: ٢٦]، أضمر «النفس والروح» في الآيتين، ومن ذلك إضمار «الخمر» في قول ابن المعتز:

ونـدمـان دعـوتُ فهَـبَّ نحـوي   وسلسلهـا كمـا انخـرط العقيـقُ

وقوله: «طبت في الظلال» أي في ظلال الجنة، حين كان في صُلب آدم لما كان في الجنة، وهو قوله: «في مستودع»، أي في صلب آدم قبل أن يهبط إلى الأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]، أي مستقر في الأرحام، ومستودع في الأصلاب.

وقوله: «حيث يُخصف الورق» يعني حيث خَصف آدم وحواء عليهما الورق حين بدت لهما سوءاتهما. والخَصْف: ضمُّ الشيء إلى الشيء وإلصاقه به، ومنه قولهم: خصفتُ النعلَ، أي رقعتها.

ثـــم هبطـــت البـــلاد لا بشـــر أنـــت ولا مضغـــة ولا علـــق

يعني هبوطه وهو نطفة في صلب آدم، لم يصر علقاً ولا مضغة.

بـــل نطفـــة تـــركـــب السفيـــن وقـــد ألجـــم نســـراً وأهلـــه الغـــرق

يعني في صلب نوح، كما جاء في التنزيل: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: ٤١]، والسفين: جمع سفينة، واستعمل الجمع في موضع الواحد، كقولهم: شابت مفارقه، وإنما هو مَفْرِق واحد.

وأراد بنسر: الصنم الذي كان قوم نوح يعبدونه. وإلجام الغرق: كناية عن وصول الماء إلى أفواههم التي هي موضع اللجام.

تنقـــل مـــن صـــالـــب إلـــى رحـــم إذا مضـــى عـــالـــم بـــدا طبـــق

الصالب: الصلب، وهو الظهر، قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٧]، والعالَم: بفتح اللام: قيل هو كل موجود سوى الله تعالى، وقيل: هم كل ذي روح، وقيل: هم الإنس والجن. والمراد به ها هنا: الإنس خاصة؛ لأن الذكر لهم. والطبق ها هنا: القرن من الناس؛ لأنهم كالطبق للأرض، يطبقون الأرض ثم ينقرضون، ويأتي للأرض طبق آخر. والمراد أنه ﷺ تنقل في أصلاب كريمة، وتناسخته أرحام مطهرة، فأدته زاكي الحسب، نقي الأصول، وعن ابن عباس

في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٩]، قال: «من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبيّاً».

حتى احتوى بيتك المهيمن من   خندف علياء تحتها النطق

المراد بالبيت ها هنا: الشرف والنسب. والمهيمن: الشاهد، وهو صفة هذا الشرف: أي حتى احتوى شرفك الشاهد على فضلك أفضل مكان وأعلاه وأرفعه من مجد خندف وسامي شرفها. وخندف: لقب ليلى، وهي امرأة إلياس بن مضر، وهو من أجداد النبيّ ﷺ. والنُّطق: جمع نطاق، وهو في الأصل: ما تشدّ به المرأة وسطها فوق الثياب، ومنه أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر رضي الله عنهما. وضرب هذا مثلاً في ارتفاعه وتوسطه في عشيرته وعزه، فجعله في علياء، وجعلهم تحته نطاقاً له.

وأنت لما ولدت أشرقت الـ   أرض وضاءت بنورك الأفق

هكذا يبدأ الشاعر بيته بالضمير المنفصل «أنت»، ومجيء مثل هذا الضمير في مثل ذلك الموضع لا يأتي إلا في فحولة شعر وجسارة شاعر، فإذا عدم تلك الفحولة وفقد هذه الجسارة عاد غثاً بارداً، وانظره في قول عدي بن زيد العبادي، في إحدى غرره الأربع، كما يقول ابن سلام:

أرواح مودع أم بكور   أنت فانظر لأي حال تصير

وقد أدار النحويون على «أنت» في بيت عدي كلاماً كثيراً، فابسط لهم العذر، ولا تظن بهم إلا خيراً؛ لأنهم أصحاب صنعة ونظام، وقد أربكهم هذا الشاعر إرباكاً عظيماً، بذلك الضمير في هذا الموضع. والشاعر الفحل مختال تياه، يتلعب بالكلام كما يشاء!

وعلى أن استعمال هذا الضمير «أنت» في الشعر كثيراً ما يدل على التحنن والأنس والود بين المخاطب والمخاطَب، وقد استعمله العباس في قصيدته هذه ثلاث مرات.

وأشرقت الأرض: إذا أضاءت وأنارت. ويقال: شَرَقت الشمس: إذا طلعت، وأشرقت: إذا أضاءت. ويقال: ضاء المكان وأضاء، وضاءت النار وأضاءت، لغتان فاشيتان. قال الراجز:

قـرِّب قلـوصَيْـك فقـد ضـاء القَمَـر

والأفق: واحد الآفاق، وهي أطراف السماء ونواحيها التي مع الأرض. والأفق مذكر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير: ٢٣].

وقال: «ضاءت بنورك الأفق» فأنَّث فعله حملاً على المعنى؛ لأنه أراد بالأفق الناحية، وقيل: إنه استعمل الواحد في موضع الجمع، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]، أي أطفالاً، وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم: ٤]، أي ظُهَراء، وكقول الشاعر:

كلـوا فـي نصـف بطنكـمُ تصحُّـوا ... فـإن زمـانكـم زمـن خميـصُ

أي بطونكم.

فنحـن فـي ذلـك الضيـاء وفـي النْـ ... ـنُـورِ وسُبْـل الـرَّشـادِ نَخْتَـرِقُ

السُّبل: الطرق، جمع سبيل، واختراقها: السير فيها.

ويبقى بيتٌ من القصيدة جاء من زيادات بعض الكتب، وقد جاء بعد البيت الرابع، وبعضهم يجعله آخر القصيدة. وقد رُوي هذا البيت بروايات ثلاث:

الرواية الأولى:

وردت نـار الخليـل مُكْتَتِمـاً ... تجـول فيهـا وليـس تحتـرق

والرواية الثانية:

وردت نـار الخليـل مُكْتَتَمـاً ... فـي صُلبـه أنـت؛ كيـف يحتـرقُ

والرواية الثالثة:

يـا بـرد نـارِ الخليـل يـا سَبَبـاً ... لعصمـة النـار وهـي تحتـرقُ

وأضعف الروايات الرواية الثالثة، أما الأخريان فهما من أزكى الكلام وأشرفه، وأعلاهما عندي الرواية الثانية؛ لأن فيها صريح الدلالة على أنه ﷺ كان سبباً لنجاة أبـي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام؛ ولأن الشطر الثاني فسّر «مكتتماً» في الأول، فضلاً عما في البيت من إحكام الصنعة الشعرية وتوهّجها، وتأمل مرة أخرى «أنت» كيف جاءت في البيت كالمنارة، مضيئة عالية، ومجيئها بعد الجار والمجرور وقبل الاستفهام يحمل القارىء والسامع على أن يقف عندها هنيهة، يندِّي لسانه ويرهف سمعه تشريفاً وإجلالاً للممدوح ﷺ.

وبعد: فهذه قصيدة العباس بن عبد المطلب، عم المصطفى ﷺ، في مديحه وتعظيمه، أرجو أن أكون قد وُفّقت في تحقيقها وجلائها، ولفت الأنظار إليها.

وبأبـي أنت وأمي يا رسول الله!.

* * *

مع بداية العام الدراسي الجديد:
من يقرأ هذه الكتب[1]؟!

قرأت شيئاً من الجاحظ في صدر الشباب، ثم أخذت أعاوده المرة بعد المرة لتوثيق نقل أو تخريج شاهد، فيما أعالج من تحقيق النصوص ونشرها. وفي السنوات الأخيرة رأيت أن أقرأه على مكث، وأن أعطيه حظه من النظر والتأمل، بل قل: لأعطي نفسي حظها من الإمتاع والمؤانسة، فخصصت له وقتاً من إجازة الصيف بالإسكندرية، أقرأ وأستخرج وأقيد؛ لنفسي ولطلبتي حين أستقبل معهم العام الدراسي الجديد، فإني وإن كنت أدرس علم النحو، فإني أرى أن الأدب لازم للنحوي إقراء وتدريساً حتى يجد لكلامه سبيلاً ومذهباً، ولتوجيهه مقنعاً وبلاغاً.

وهذا الجاحظ يحكي عن ابن عتاب قوله: «يكون الرجل نحوياً عروضياً، وقساماً فرضياً، وحسن الكتاب جيد الحساب، حافظاً للقرآن، راوية للشعر، وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهماً، ولو أن رجلاً كان حسن البيان، حسن التخريج للمعاني ليس عنده غير ذلك، لم يرض بألف درهم؛ لأن النحوي الذي ليس عنده إمتاع، كالنجار الذي يدعى ليعلق باباً وهو أحذق الناس، ثم يفرغ من تعليقه ذلك الباب فيقال له: انصرف، وصاحب الإمتاع يراد في الحالات كلها». البيان والتبيين ١/٤٠٣.

وقيل للشافعي: كيف شهوتك للأدب؟ قال: أسمع بالحرف منه مما لم

(١) مجلة «الهلال»، أكتوبر ١٩٩٣م.

أسمعه، فتوَدُّ أعضائي أن لها أسماعاً تتنعم به مثل ما تنعمت الأذنان. مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٤٣.

وكتب الجاحظ ــ كما يقول المسعودي ــ «تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان؛ لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة». مروج الذهب ٤/ ١٩٥.

ولا يخدعنك هذا الكلام ــ حسن النظم وحسن الرصف وجزالة اللفظ ــ فتذهب مع الذاهبين إلى أن كتب الجاحظ على شاكلته إنما هي كتب تسلية وسمر وإزجاء فراغ؛ لأنها تمثل الاهتمام بالجزئي دون الكلي؛ ولأن العقلية العربية غير قادرة على التركيب... وهو كلام ساقط مرذول، ورده ودفعه في غير هذا المكان.

لكني أعجل فأقول: إن زعماء (التنوير) ورموزه الذين يكثر الحديث عنهم هذه الأيام قد تكوَّنوا على هذه الكتب وتغذوا بهذا الزاد، ودع عنك طه حسين والعقاد فإن صلتهما بأصول الكتب العربية معروفة، وتأمل ما ذكره عميد المسرح العربي توفيق الحكيم في كتابه «عصفور من الشرق» من أنه كان يصطحب معه عند زيارته لباريس كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه، رفيق سفر، وزاد مغترب.

وذكر إبراهيم عبد القادر المازني ــ وكان من أبرع الناس في الترجمة عن الإنجليزية ــ ذكر لخير الدين الزِّركلي أنه حفظ في صباه «الكامل» للمِبْرد غيباً. يقول الزِّركلي: «وكان ذلك سر الغنى في لغته» الأعلام ١/ ٦٨، وأبو فهر محمود محمد شاكر قرأ «لسان العرب» كله وهو تلميذ بالثانوي، وكذلك قرأ في الوقت نفسه كتاب «الأغاني» في طبعة الساسي، وهي طبعة غير مشكولة ولا محققة.

وقراءة الجاحظ فوق أنها تمتع الوجدان، تحرك العقل، وتفتح أبواباً من النظر، وتستثير دفائن من الفكر. والكاتب العظيم ــ فوق إمتاعه ــ يستخرج من قارئه أشياء حبيسة، هي من صميم الموضوع الذي يعالجه الكاتب، وهي أشياء تظل كامنة مطوية، وكأن صاحبها مع إحساسه الضخم بها لا يستطيع كشفها والإبانة عنها، حتى

يجيء الكاتب القادر المبين، فإذا بهذه الأشياء الحبيسة تنطلق من عقالها، وإذا بالأفكار والخواطر تأتيه من كل مكان، وتنثال عليه انثيالاً، وتزدحم أمامه ازدحاماً، وكأنها قوافي سويد بن كراع التي وصفها:

أبيت بأبواب القوافي كأنما أصادي بها سرباً من الوحش نُزَّعا

فيقيد منها الشارد، ويستدني منها البعيد، فيكون فرح القارىء بما قرأ معادلاً لسروره بما استخرج.

الجاحظ والعربية:

وقراءة الجاحظ إذا أخذت بحقها قادت إلى المكتبة العربية كلها، بفنونها وعلومها المختلفة، إذ كان الجاحظ كثير الإلمام بالعلوم العربية، لا يكاد يشذ عنه منها شيء وبخاصة في «رسائله» التي لم تؤت ما تستحقه من الدرس؛ لأن الناس شغلوا عنها بكتبه الأخرى: البيان والحيوان والبخلاء والعثمانية. على أن أهم ما تستثيره عندي قراءة الجاحظ الآن هو: ما حظ شباب هذا الجيل من كتب الجاحظ ومن إليه؟

لقد قال ابن خلدون قولته الشهيرة: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن ـ علم الأدب ـ وأركانه أربعة دواوين: وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها».

ونعم، لقد أحسن كل الإحسان من عد هذه الكتب الأربعة أصول علم الأدب، فإن كتاب ابن قتيبة يدور حول اللغة، في تسمية الأشياء وخلق الإنسان والحيوان، وأصول الهجاء، وضوابط الأبنية، وتقويم اللسان ولحن العامة. وكتاب المبرد كتاب لغة ونحو وأخبار ـ وبخاصة أخبار الخوارج ـ وكتاب الجاحظ دائر حول البيان والبلاغة والخطابة، مع الاسترسال إلى المعارف الأخرى، وكتاب القالي المعروف بالأمالي والنوادر، كتاب لغة وغريب وشعر، فمن حصّل هذه الكتب، ثم أطال الوقوف عندها والنظر فيها فاز بأوفر الحظ والنصيب.

وهذه الكتب كانت متاحة لنا في صدر شبابنا: في دار الكتب المصرية بباب الخلق، وفي مكتباتها الفرعية داخل القاهرة، وفي عواصم الأقاليم، ثم كانت تغص بها مكتبات الكليات الجامعية، بل في كثير من مكتبات المدارس الثانوية، ثم كانت تلك الكتب قريبة إلى عقولنا وقلوبنا بذكر أساتذتنا لها، ونقلهم عنها، وحثهم لنا عليها وإغرائهم بها، ومطالبتهم إيانا باستظهارها، إذ كانوا يرون أنها أوعية العلم ولا أوعية غيرها، وكذلك كانت مألوفة لنا بإحالة الأدباء والكتاب عليها في المجلات والدوريات الثقافية.

والآن: جفت الينابيع، وصوَّح النبت، فدار الكتب أصبحت كبئر معطلة ومكتبات الكليات الجامعية تطايرت محتوياتها إلى بيوت بعض الأساتذة: غنيمة باردة، وعارية غير مستردة، أما تعامل الأساتذة والكتاب مع هذه الكتب فأنت تعرفه!

وأسأل طلبتي في السنة النهائية (الليسانس) عن هذه الكتب فلا أظفر إلا بصبابة قول، لا تكاد تتجاوز اسم الكتاب، مع تخليط كثير في بعض أسماء الكتب وأسماء أصحابها. . . ولا تلوموهم ولوموا أنفسكم.

ثم أعود إلى مكتبتي وأطيل النظر إلى قسم الأدب منها، وأكرر سؤالاً أعرف ألا جواب له: من يقرأ هذه الكتب، كبارها وأوساطها وصغارها؟ بدءاً بالمفضليات والأصمعيات، وانتهاء بالكشكول والمخلاة للعاملي، وقروناً بين ذلك كثيراً: دواوين الشعر ومختارات الأدب والحماسات والأمالي والمجالس، وكتب المعاني وكتب الأمثال: تجارب أمم، وعقول أقوام استودعوها بطون الكتب، وأدتها إلينا أجيال وفية من الرواة والحفظة والنساخ والمحققين، حفظوها وصانوها كما يصون كرام الأبناء ودائع الآباء.

وقل مثل هذا في سائر علومنا: تفسير القرآن وعلومه، ودواوين السُّنَّة، وكتب الفقه وأصوله، وعلم الكلام والتصوف والتاريخ والأنساب والبُلدانيات (الجغرافيا) والمعارف العامة، واللغة والنحو والبلاغة. فمن يقرأ هذه الكتب الآن فضلاً عن اقتنائها؟

ولا تقل طلبة الدراسات العليا؛ لأن باب الدراسات العليا باب ضيق جداً؛ ولأن الأصل أن تعرض هذه الكتب ــ الشيء منها بعد الشيء ــ على طلبة الجامعة، على امتداد السنوات الأربع، بل في المراحل التعليمية السابقة على الجامعة، ليأنسوا إليها ويألفوها ويعايشوها، فإذا قدر لأحدهم أن يمضي في دراسة عليا كان مستصحباً لأصول العلم وأساسه، وإذا انقطع بأحدهم الطريق كانت هذه المعرفة عوناً له وسنداً فيما يعالج من أمور التعليم والثقافة، وأعرف نفراً من زملائنا المعلمين الذين لم يستكملوا دراساتهم العليا يفوقون كثيراً من حملة الدكتوراه الآن، ولكنها حظوظ الناس:

متى ما يرِ الناس الغنى وجاره	فقير يقولوا عاجز وجليد
وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى	ولكن أحاظٍ قسمت وجدود

رموز التنوير:

وإنما كان زملاؤنا المعلمون على هذه الصفة لأنهم يأوون إلى ركن شديد من المعرفة التي أتاحتها لهم دراستهم الجامعية الجادة الصارمة في ذلك الزمان الرخي قبل أن يدهمنا السيل وتغشانا النوائب بذلك التنقص والاحتقار الدائم لتاريخنا وعلومنا، وإنك لا تجد أمة تستهين بتاريخها وعلومها ومعارفها كالذي تجده من بعض أفراد أمتنا الآن، وقد كان الهجوم على علومنا ومعارفنا يسمع من بعض من ينتسبون إلى الأدب، من أحلاس المقاهي وسمَّار الليالي، ثم صار الآن يسمع مجلجلاً في قاعات الدرس الجامعي: هجوماً كاسحاً أكولاً على الشعر العربي والنحو العربي والبلاغة العربية ــ «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه» ــ ويقول هؤلاء لتلاميذهم: إن الكتب القديمة حفائر وأكفان موتى، وقد غاب عن هؤلاء أمران:

أولهما: أن رموز (التنوير) وأعلامهم الذين يتحدثون عنهم الآن قد خرجوا من عباءة هذا القديم، كما ذكرت من قبل.

وثانيهما: أن هذه الكتب لو لم يكن فيها إلا أنها تعلم الجد وتقود إلى الصرامة لكان في ذلك ما يغري باقتنائها وطلب العلم منها.

يقول مصطفى صادق الرافعي: «ومما ترده على قارئها تلك الكتب في تربيته للعربية أنها تمكن فيه للصبر والمعاناة والتحقيق والتورُّك في البحث والتدقيق في التصفح، وهي الصفات التي فقدها أدباء هذا الزمن فأصبحوا لا يتثبتون ولا يحققون، وطال عليهم أن ينظروا في العربية، وثقل عليهم أن يستبطنوا كتبها، ولو قد تربوا في تلك الأسفار وبذلك الأسلوب العربـي لتمَّت الملاءمة بين اللغة في قوتها وجزالتها، وبين ما عسى أن ينكره منها ذوقهم في ضعفه وعاميته، وكانوا أحق بها وأهلها.

وذاك بعينه هو السر في أن من لا يقرأون تلك الكتب أول نشأتهم لا تراهم يكتبون إلا بأسلوب منحط، ولا يجيئون إلا بكلام سقيم غث، ولا يرون في الأدب العربـي إلا آراء ملتوية، ثم هم لا يستطيعون أن يقيموا على درس كتاب عربـي فيساهلون أنفسهم، ويحكمون على اللغة والأدب بما يشعرون به في حالتهم تلك، ويتورطون في أقوال مضحكة، وينسون أنه لا يجوز القطع على الشيء من ناحية الشعور، ما دام الشعور يختلف في الناس باختلاف أسبابه وعوارضه، ولا من ناحية يجوز أن يكون الخطأ فيها، وهم أبداً في إحدى الناحيتين أو في كلتيهما». مقدمة شرح أدب الكاتب للجواليقي ص ٣.

فهذه إحدى الطوام: الطعن في كتبنا واجتواؤها والإزراء بها. وثانية أشد وأعجب ــ وكل الأمور عجب ــ: يأتيني أحد طلبتي فيعرض علي شيئاً من شعره فأقول له: يا بني، ليس هذا شعراً، هذا عجن وتخليط، فيحاجني بنماذج كثيرة تعج بها جرائدنا ومجلاتنا، مصحوبة هذه النماذج أحياناً بتحليل وثناء لبعض كبار أدبائنا وأساتذتنا وزملائنا الجامعيين، يرفعون بكلام حلو خسيسة كلام هزيل:

فـي زخـرف القـول تـزييـنٌ لبـاطلـه	والحــق قــد يعتــريــه ســوء تعبيــرِ
تقـول: هـذا مجـاج النحـل تمـدحـه	وإن تَعِـبْ قلـت: ذَا قَـيْءُ الـزنـابيـر
مـدحـاً وذمـاً ومـا جـاوزت وصفهمـا	حُسْـنُ البيـان يُـرِي الظلمـاءَ كـالنـور

ونعم... لقد جاوز الأمر حده، وأصبح واجباً على كل ذي عقل أن يقف أمام هذا السخف، إن هذا الذي ينشر على أنه شعر إنما هو امتهان للعقل؛ من حيث كان

استخفافاً باللغة وهزءاً بنظامها وأعرافها. لقد قرأت ذات يوم في جريدة كبرى كلاماً لشاعر يقول فيه: «نرفو أعراف الديكة فوق شرائح السمك البلطي» هكذا قال، وأنا أقول: لماذا سمك البلطي بالذات؟ ألأنه عريض؟ إن «سمك موسى» أعرض منه!

كلام ليس من كلامنا:

وفي العدد السادس من «أخبار الأدب» الجديدة، وفي الصفحة الثامنة والعشرين ترى هذا العنوان: الفتوحات: شعر... وفي أحد مقاطعه يقول تحت عنوان: الخليل بن أحمد: «حملت الدلاء على كتفي، وكنت أبص على جسد كالنديف، ولكنها كانت الأرض باردة، تتخللنا وتحيط أصابعنا باليقين، وتتركنا، قلت: أمشي وراء المظنات، أطرح ما حسبت أنه رعوي، ومنسدل، مثل مهر جميل على جسد الصحراء، وأدعك أطراف جسمي ببعض الغيوم، وأنفضها، فاكتشفت بأن الدم العبّ يحتجب الروح في جسد من رقائق طينية.. أن جسراً من الريح، يعلو على الأرض كي نتغطى به كالمرايا، وحين نفر إلى الله، نشهد أنفسنا، رائعين، ومجتلبين إلى الكون نحصر فيه الفساد، نبوبه في سجلات أعراضنا، ثم نردمه خلف بحر قديم تداركنا، فاعلن فاعلن».

ما هذا يا قوم؟ إني والله أسأل تعلماً لا تعنتاً عن معنى هذا الكلام! إن هذا الكلام وأمثاله مما يطلق عليه شعر، إنما هو كما قال ذلك الأعرابي وقد حضر مجلس الأخفش فسمع كلاماً لم يفهمه، فحار وعجب، فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخا العرب؟ فقال: «أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا»، أو كما قال القاضي الفقيه ابن دقيق العيد، عن الصوفي الشهير ابن سبعين: «جلست معه من ضحوة إلى قريب الظهر وهو يسرد كلاماً تعقل مفرداته ولا تفهم مركباته».

ثم إن السلامة اللغوية مطلوبة في كل عمل أدبي، بل هي مطلوبة بداهة في كل كلام يجري بين العقلاء، فما معنى «أبصّ» في هذا الكلام؟ لم يرد هذا الفعل في كلام العرب بمعنى النظر، وإنما يقال: بص الجرو ــ وهو ولد الكلب ــ أي فتح عينيه، وفتح العينين غير النظر. فهي إذن عامية مُعْرِقة. قال المرتضى الزَّبيدي في تاج

العروس: «والبصاصة: العين في بعض اللغات، صفة غالبة، قيل: لأنها تبص، أي تبرق، ومنه قول العامة: هو يبص لي».

وما موضع هذه الهاء في قوله: «ولكنها كانت الأرض باردة»؟ فهل هي ضمير الشأن والقصة؟ إن كان يريدها كذلك فما أبردها في هذا المكان!

ثم ما قيمة «فاعلن فاعلن» ها هنا؟ ألأنه قد ذكر قبلها كلمة «بحر» وكلمة «تداركنا» فيريد أن يعلمنا أن تفعيلات بحر المتدارك؟ فاعلن فاعلن؟ فها نحن قد علمنا وانبسطنا: مستفعلن فاعلن، ولا داعي لكل هذا الكلام الطويل: فعولن مفاعيلن!

ويعلم الله، أننا لا نصدر عن عصبية للقديم، فالشعر هو الشعر، ليس فيه قديم ولا جديد، وإنما مداره على الإمتاع واللذة، وما أصدق قول أحمد شوقي من قصيدته في أمين الريحاني:

والشعر في حيث النفوس تلذه   لا في الجديد ولا القديم العادي

وإننا نطرب لمحمود حسن إسماعيل طربنا لامرىء القيس وذي الرمة، بل إننا نطرب لشعر فؤاد حداد طرباً لا مزيد عليه، وتأخذ النشوة منا مأخذها حين نسمع أشعار صلاح جاهين في «الليلة الكبيرة».

فكيف يسكت أساتذتنا الكبار وزملاؤنا الجامعيون على هذا العبث المسمى شعراً؟ بل كيف يزينونه؟ ويحسِّنونه، ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها تعليق للأستاذ الشاعر الناقد كمال النجمي (الهلال ـ سبتمبر ١٩٩٠م) على ما كتبه الدكتور شكري عياد حول كتاب «المستحيل والقيمة» للأستاذ بدر الديب، يقول الأستاذ النجمي: «والعجب الأكبر من أديب ناقد ثاقب البصيرة نافذ الفهم ـ الدكتور شكري عياد ـ يشغل وقته بالكتابة المطولة عن شعر وهمي يزعمه لأنفسهم ناثرون أمثال الأستاذ الديب، وهو كاتب فاضل كنا نرجو له الستر، أعترف أنني لم أفهم لا كلام بدر الديب ولا كلام شكري عياد، ففيم يتحدث هذان الفاضلان؟ وهلاَّ نزلا إلينا لنفهم عنهما أو نحاول أن نفهم؟».

لقد كتبت وكتب غيري عن المستوى المتدني للغة العربية على ألسنة المتكلمين وأقلام الكاتبين: من شباب هذا الجيل، لكننا نعالج هذه القضية بكثير من التخوف والتردد والمصانعة والحذر من إغضاب الناس، والتحسب لردود الفعل التي قد تعطل مصالح العباد، وتقصي القريب وتقرِّب البعيد:

وفي النفس أشياء وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب

والقضية لا بد أن توضع في حاق موضعها إن كنا صادقين:

أولاً: إعادة النظر في مناهج تدريس العربية بدءاً من الابتدائي وانتهاء بالجامعة، بحيث تكون مناهج ترد التلاميذ إلى تاريخهم، وربطهم بعلم الآباء والأجداد ــ ولا أقول تراثهم؛ فإن هذه الكلمة قد أصبحت بغيضة عندي جداً، لما توحي به هذه الأيام عند بعض الناس من الماضي السحيق والفولكلور والمتحفيات ــ ولعلي أفرد لذلك مقالة، إن شاء الله.

لقد كنا في طفولتنا وصدر شبابنا نحفظ الشعر الجاهلي ومتون العلوم في الصباح، ونلعب الكرة الشراب عند العصر، فجرت اللغة في عروقنا واختلطت بلحمنا وعظمنا، وما أمر «مجموعة النظم والنثر» لعبد الله باشا فكري، و «المنتخب من أدب العرب» للسكندري وأصحابه، ببعيد، وهكذا الشأن عند سائر الأمم، فتلاميذ المدارس الإنجليزية يقرأون «شكسبير» ويعرفونه جيداً، وتلاميذ المدارس الألمانية يقرأون «جوته» ويعرفونه جيداً، مع الاحترام الزائد والتوقير الشديد.

ثانياً: تنقية الجو الأدبي خارج المدرسة والجامعة من الأوشاب والأخلاط. فالمدرسة والجامعة لا يعملان بمعزل عن الحياة العامة، لقد كان طلاب ذلك الزمان السعيد يقرأون أصول العلم في معاهدهم، ثم يقرأون مرة أخرى على صفحات الرسالة والثقافة والمقتطف والهلال. ألم ينشر طه حسين «حديث الأربعاء» منجماً في «البلاغ»؟ ألم ينشر أبو فهر محمود محمد شاكر كتابه العظيم عن المتنبي عدداً خاصاً من «المقتطف»؟

وما يستقيم أن تبني المدرسة والجامعة، وتهدم المقاهي والأتيليهات والمجلات، على ما قال الأول:

فكيف بناء خلفه ألف هادم وألف وألف ثم ألف وأعظم

وأنتم يا أساتذنا الفضلاء ــ وأنتم من بقية حملة الحجة ــ ويا زملاءنا من أساتذة الجامعة الأعزاء ــ وأنتم من بقية جيل الحفظة ــ لا تتعاملوا مع هذا الذي ينشر ويذاع باسم الشعر، فإنه غريب المنبت مُر المذاق، وليس بأرض قومكم فالفظوه وعافوه، ثم قفوا للأدعياء وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد، حفاظاً على تاريخكم واحتراماً للغتكم، وقياماً بحق هذه الأجيال عليكم، أن يردوا الماء الذي وردتم، ويطعموا الطعام الذي طعمتم.

ثالثاً: إن هذه الأمة العربية محفوظة، ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة، ولا زال فينا أهل علم وأهل صدق، ولكنهم قلوا عدداً فأفسحوا لهم الطريق، ولا يصدنكم عنهم جهالة أمرهم، فإن النفيس غريب حيثما كان، كما قال أبو الطيب، ومكنوا لهم أن يظهروا بعلمهم، ولا تضيقوا عليهم فتصيبوهم بالإحباط، والإحباط قديم، قال أبو بكر ابن العربي المتوفى سنة (٥٤٣هـ): «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد، عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عزَّ وجلّ لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه». البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٣٦.

ووقع مثل هذا لجلال الدين السيوطي (٩١١هـ) قال: «ولما شرعت في إملاء الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، وجددته بعد انقطاعه عشرين سنة، من سنة مات الحافظ أبو الفضل ابن حجر، أردت أن أجدد إملاء اللغة وأحييه بعد دثوره، فأمليت مجلساً واحداً، فلم أجد له حملة ولا من يرغب فيه فتركته». المزهر في علوم اللغة ٢/ ٣١٤.

وتبقى كلمة: لقد قلت إن هذه الأمة العربية محفوظة. واللهم نعم، فإن من آيات ذلك أني أصادف من طلبتي بين الحين والحين نماذج جيدة، تحب العربية وتحرص عليها وتتزوَّد منها، بل إن منهم من يفتح علي أبواباً من الفهم حين يجاذبني الكلام، وأنا أقول لطلبتي دائماً: إنني جئت أتعلم العلم معكم مرة أخرى، فالعلم رحم بين أهله، والشيخ يستفيد من تلميذه، كما يستفيد التلميذ من شيخه، وكذلك أجد من زملائي المعيدين والمدرسين المساعدين مصابيح علم تتلألأ وتتوهج وسط هذا الظلام الموحش، لكن هؤلاء وهؤلاء في حاجة إلى معلم وموقِّف، لأن الأصل في علومنا الرواية والمشافهة والتوقيف، ونحن في زمن انقطعت دونه الرواية، وانصرف فيه الأشياخ، وترك طالب العلم وحده يضرب في أرض يهماء، لا ماء فيها، ولا عَلَم بها.

وأنا أقول لهؤلاء المعيدين دائماً: إنكم في جيلكم أحسن منا في جيلنا؛ لأننا أدركنا الزمن الرخي، وأنتم جئتم في الزمان النكد، فنحن وأنتم كما قال أبو الطيب:

أتى الزمان بنوه في شبيبته ... فسرَّهم وأتيناه على الهرم

وربك يفعل ما يشاء.

* * *

من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن(١)

من علوم القرآن التي اعتنى بها الأئمة، وأفردوها بالتصنيف علم «إعجاز القرآن»، وقد بدأ الكلام في هذا العلم: شذرات ونتفاً في كتب التفسير، كشفاً لمواطن الكمال والجلال في كلام ربنا عزَّ وجلّ.

وقد دخل المفسرون إلى الإعجاز من طريق تلك الآيات التي أمر بها المولى تباركت أسماؤه رسوله الأمين ﷺ أن يطلب من مشركي قريش الإتيان بمثل ما أُنزل عليه، تدرجاً وتنزلاً، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، ثمَّ قضى عليهم بالعجز وأيأسهم أن يأتوا بشيء من ذلك، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومعلوم أن مشركي قريش الذين سمعوا كلام الله يُتْلَى على لسان رسوله الأمين كانوا أرباب فصاحة وبيان، وكانوا يعرفون مواقع الكلام وحلاوة البيان، ولذلك أدهشهم القرآن حين سمعوه، ودَلَّه عقولهم بعظمة بيانه وروعة معانيه، ودقة نظمه واتساقه، وحين لم يجدوا في الطعن إليه سبيلاً لم يسعهم إلا أن يقولوا: إنه شعر، وإنه سحر، وإنه أساطير الأولين اكتتبها محمد ﷺ فهي تُمْلَى عليه بكرة وأصيلاً. وهذا كله إقرار بعظمة ما سمعوا، وإذعان لأنه كلام مباين لكلام البشر، لكن ما انغمسوا فيه من العناد والمكابرة صدهم عن الاعتراف بأنه وحي يوحى، نزل به الروح

(١) مجلة «الهلال»، يناير ١٩٩٤م.

الأمين على قلب المصطفى المختار ليخرج الناس به من ظلمات الوثنية والشرك إلى نور الإيمان وصفاء التوحيد.

ثم كان أن هدى الله بهذا القرآن العظيم أقواماً، فأقبلوا على تلاوته، وتدبر أغراضه ومراميه، وتمثلوا أوامره، وانتهوا عن نواهيه. وكان هو كتابهم الذي يعتصمون به ويلجأون إليه فيما دق وجل من أمورهم.

وبقيت طائفة ــ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ــ لم تهتد ولم تذعن، وظل عداؤها للقرآن قائماً، فأخذت تنقر وتنقّب، التماساً للمعابة في هذا الكتاب المحكم، باتباع متشابه، وتحريف كلم عن مواضعه، وتخيل فساد نظم، أو لحن أسلوب، أو تناقض معنى، وقد أخذت هذه الطائفة تدب دبيباً في القرنين الأولين، تستخفي بآرائها مرة، وتُصحِر بها أخرى. لكنها في كلتا حالتيها لم تترك أثراً يذكر، إذ لم تكن لها شوكة، وكانت العقيدة على صفائها، لم تكدرها مقولات المتكلمين، ولا خلافات المتأولين، ثم كان اللسان العربي لا يزال صحيحاً محروساً لم يتداخله الخلل، ولم يتطرق إليه الزلل.

لكن الصغير يكبر ويشب، والزرع الضعيف يستحصد ويقوى، وتأتي أيام كالحات، تنجم فيها الفتن بدواعٍ كثيرة: منها اختلاط اللسان العربي بغيره من الألسنة، وانتشار الكتب المترجمة بغثها وسمينها، وتغلغل أهل المذاهب والنِّحل الأخرى في صلب العقيدة الإسلامية، وإغرائها بالجدل وعلم الكلام، وأصْحَر أهل العداء القديم بآرائهم، وإذا الذي كان بالأمس هَمْساً ونجوى يصبح اليوم وله دويّ وصليل، فأخذت المجالس وحلقات الدرس تموج بتلك الآراء وتضطرب، وإذا بالذي كان مشافهة ومسامرة يسطر ويكتب وتتعاوره الأيدي.

ولم يكد المسلمون يدخلون في النصف الثاني من القرن الثالث حتى انكشف كل خبيء وظهر كل مكنون، واستعلن العداء للقرآن وللعربية ملفَّقاً في ثياب الخلاف الفلسفي والكلامي، ثم ما جر إليه كل ذلك من القول بفتنة خلق القرآن وأشباه لها من الكوائن والطامَّات.

لكن الله الذي تكفل بحفظ كتابه وفَّق طائفة من عباده ذادةً منافحين، قاموا لهذه المطاعن والشبهات، وألقوا بحججهم وبراهينهم فإذا هي تلقف ما يأفكون. ولعل أول حامل لهذا اللواء هو الإمام الجليل أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، خطيب أهل السنة، المولود سنة ٢١٣، والمتوفى سنة ٢٧٦، فقد انتدب لهذه الشكوك والمطاعن التي تثار حول القرآن، فجمعها ثم سدد إليها سهامه وأعمل فيها معاوله، فاقتلعها من جذورها، وكان مجلى ذلك كتابه العظيم «تأويل مشكل القرآن» إلى ما نثره في كتبه الأخرى، مثل «تأويل مختلف الحديث».

ثم ظهرت مسألة «إعجاز القرآن» مبحثاً قائماً بذاته، يقصد إليه قصداً. وكانت تلك المسألة «من أبرز المسائل التي تعاورها العلماء بالبحث أثناء تفسيرهم للقرآن، وردهم على منكري النبوة، وخوضهم في علم الكلام، كعلي بن رَبَن كاتب المتوكل في كتاب «الدين والدولة»، وكأبـي جعفر الطبري في تفسيره «جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن»، وكأبـي الحسن الأشعري في «مقالات الإسلاميين»، وأبـي عثمان الجاحظ في كتابه: «الحجة في تثبيت النبوة».

وكان علماء الاعتزال أكثر المثيرين للكلام في إعجاز القرآن، فقد ذهب النظَّام ــ من بينهم ــ إلى أن القرآن نفسه غير معجز، وإنما كان إعجازه بالصَّرفة، وقال: «إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه، لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك، وسلب علومهم به».

وذهب هشام الفُوَطي، وعباد بن سليمان إلى أن القرآن لم يُجعل علماً للنبـي، وهـو عَـرض مـن الأعـراض، والأعـراض لا يـدل شـيء منهـا علـى الله ولا علـى نبـوة النبـي. وكان ذلك وغيره من أقوال أئمتهما منبعاً غزيراً للقول في إعجاز القرآن. وقد انبرى كثير منهم للرد على من أنكر إعجازه جملة، كأبـي الحسين الخياط وأبـي علي الجبَّائي، اللذين نقضا على «ابن الراوندي» كتابه: «الدامغ» الذي طعن فيه على نظم القرآن وما يحتويه من المعاني، وقال: إن فيه سفهاً وكذباً. وكذلك رد كثير منهم

على من خالف عن قول جماعتهم، بأن تأليف القرآن ونظمه معجز، وأنه علم لرسول الله ﷺ، كالجاحظ الذي رد على النظَّام رأيه في الصَّرفة في كتاب: «نظم القرآن».

ثم أُفرد علم «إعجاز القرآن» بالتصنيف، ومن أشهر ما صُنف فيه مما هو مطبوع ومتداول:

١ ــ النكت في إعجاز القرآن، لأبـي الحسن علي بن عيسى الرّماني المتوفى سنة ٣٨٦.

٢ ــ بيان إعجاز القرآن، لأبـي سليمان حَمْد بن محمد الخطابـي البُسْتي المتوفى سنة ٣٨٨.

٣ ــ إعجاز القرآن، لأبـي بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣.

٤ ــ الرسالة الشافية، للشيخ أبـي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١، وهو صاحب «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة».

ويعد كتاب أبـي بكر الباقلاني من أوعب ما أُلف في هذا العلم. قال ابن العربـي: «ولم يصنَّف مثله».

«هذا الكتاب»:

ويأتي كتابنا هذا في «علم إعجاز القرآن» نمطاً وحده، فقد أداره مؤلفه ــ محمود رؤوف أبو سعدة ــ على وجه من إعجاز القرآن جديد، لم يسبقه إليه سابق، ولم يفطن إليه باحث، وكأن كعب بن زهير، رضي الله عنه، لم يكن مصيباً حين قال:

مـــا أُرانـــا نقـــول إلا مُعـــاراً أو مُعـــاداً مـــن قـــولنـــا مكـــروراً

إلا أن يكون أراد الشعر وحده!

فقد يفتح الله على الأواخر بما لم يفتح به على الأوائل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا أيضاً وجه من وجوه إعجاز القرآن، وأنت ترى هذا من نفسك، فقد

تتلو الآية أو السورة في صلاتك، أو في مَغْداك ومراحك، وعند أخذ مضجعك، وتمر عليها مراً، ثم تتلوها نفسها في ساعة أخرى من ساعاتك، وفي حالة مباينة من حالاتك، أو تسمعها من قارىء غيرك، فإذا هي تهزك هزاً، وإذا هي تملأ كل ما حولك بهجة وضياء، ثم تفجر أمامك ينابيع من الحكمة والهدى لم يكن لك بهما عهد، وتعجب، كيف غُيِّب عنك كل هذا الخير فيما سلف لك من أيام!

وكل الكلام يُملُّ إلا كلام ربنا عزَّ وجلّ، وصدق رسول الله ﷺ في وصفه ــ وهو المنزل عليه: «ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه».

وهذا الوجه من الإعجاز القرآني الذي قام له المؤلف ونهض به، وجه قاطع باتّ، لا تصح فيه لجاجة، ولا تسوغ معه مخالفة، لأنه قائم على قواعد اللغة، ومستند إلى أحكام التاريخ، وليس للهوى فيه حظ أو نصيب.

وعنوان الكتاب كما ترى (من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن) ــ العَلَم الأعجمي في القرآن مفسراً بالقرآن ــ وهو عنوان دال على موضوعه صراحة، متجه إليه مباشرة، ومنهج الوضوح دائر في هذا الكتاب كله، فالمؤلف يمضي إلى قضاياه ويعالجها دون ثرثرة أو تلكؤ أو فضول.

يقرر المؤلف أن القرآن يفسر في ثنايا الآيات المعنى الدقيق لكل اسم أعجمي عَلَم ورد في القرآن، أيّاً كانت اللغة المشتق منها هذا الاسم الأعجمي العلم، وإن كانت لغة منقرضة يجهلها الخلق أجمعون عصر نزوله.

وأسلوب القرآن في ذلك ــ كما يقول المؤلف ــ «المجانسة على الاسم العلم بما يفسر معناه أبين تفسير»، ومثال ذلك ما ذكره في تفسير اسم «زكريا» عليه السلام: يقول ربنا عزَّ وجلّ: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ ﴾ [مريم: ٢]، وقول المؤلف: زكريا في اللسان العبراني معناه حرفياً «ذاكر الله»، ثم يدعوك المؤلف إلى أن تتأمل المجانسة بين قوله تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ ﴾ وبين «ذاكر الله»، وكأنه عزَّ وجلّ يقول ــ وهو أعلم بما يريد ــ ذكر الله ذاكرَ الله، أو: ذكر الله فذكره الله، أو: ذكر الله فذكرته رحمة الله.

وقد يأتي تفسير العلم العجمي في القرآن بذكر المرادف العربي لمعناه بغير العربي: ومن ذلك أن معنى «جبريل» في العبرية: الشديد القوي، وجاء التعبير عنه في القرآن بذلك، قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم: ٥،٦]. والمِرَّة بكسر الميم وتشديد الراء: بمعنى القوة أيضاً. وكذلك قوله تعالى عن جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠].

ومثل ذلك ما انتهى إليه المؤلف في أمر «نوح» عليه السلام، فقد رده بعض مفسري القرآن إلى «النواح» فقالوا: هو من ناح ينوح، وجاء المؤلف فطبق عليه منهجه فرده ــ اعتماداً على قواعد اللغة العبرية ــ إلى معنى التلبث والإقامة، ثم فسره بالسياق القرآني الكاشف، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، وقوله عزَّ وجلّ: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١]، وقوله تباركت أسماؤه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ [الصافات: ٧٧].

وثالثة: يذكر المؤلف أن «إسماعيل» يُنطق في العبرية «يشمعيل» ومعناه: سَمِـع الله، أو سميع الله، ثم التمس هذا المعنى في سياق القرآن الكريم، فوجده في قوله عزَّ وجلّ على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وفي قوله عزَّ وجلّ على لسان الخليل أيضاً وابنه إسماعيل عليهما السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة: ١٢٧].

وهكذا يمضي المؤلف بهذا المنهج في تفسير أسماء الأعلام الأعجمية وما يشبهها من أسماء الأجناس والمواضع، وقد أحصى في ذلك واحداً وستين علماً أعجمياً أو مختلفاً في عجمته في القرآن، فسرها من القرآن نفسه، تعالى مُنْزِله. ثم ذكر أن القرآن لا يفعل هذا فقط، ولكنه يصحح أيضاً لعلماء العبرية وعلماء التوراة، وقت نزوله وإلى يوم الناس هذا، تفسيراتهم اللغوية لمعنى هذا العَلَم العبراني

أو ذاك، من مثل أسماء بني إسرائيل الواردة في القرآن وغيرها من أسماء المواقع، مثل «مدين» فيخطىء أصحاب اللغة ويصيب القرآن.

فهذا هو عمود صورة الكتاب، كما أقامه مؤلفه، وكما أراد له أن يكون، ولكنه من وراء ذلك ومن قدامه قد استطرد إلى قضايا كثيرة، عقيدية ولغوية وتاريخية.

ومن أنفس ما في هذا الكتاب ــ وكله نفيس إن شاء الله ــ ما ذكره المؤلف حول تاريخ كتابة التوراة والإنجيل، وأن نص التوراة مستنسخ من الذاكرة بعد نحو ثمانية قرون من وفاة موسى عليه السلام، وكذلك الأناجيل الأربعة المتداولة لم يخطها عيسى عليه السلام بيده، ولم يملها على حوارييه، وبهذا تكون سلسلة السند في التوراة والإنجيل منقطعة، وليس كذلك القرآن.

ومما يتصل بالتوراة: ما سجله المؤلف من قصورها وتقصيرها في ذكر الأنبياء الذين هم من قبل إبراهيم عليه السلام، فتكون بذلك «توراة بني إسرائيل» ليس غير.

وقد أفضى ذلك بالمؤلف إلى أن طعن كثيراً في «سفر التكوين» الذي بين أيدينا الآن، وكذلك شنَّع على كاتب التوراة وكشف تدليسه وكذبه في أكثر من موضع، بل إنه نبه على تناقضه مع نحو اللغة العبرية ومعجمها.

أما بنوة عيسى لآدم عليهما السلام، وعبوديته لله عزَّ وجلّ فقد عالجها المؤلف في غير مكان من الكتاب.

والكتاب في تسعة فصول، خصص المؤلف الفصول الثلاثة الأولى منها لما يمكن أن نسميه تسمية علماء القراءات: الأصول، والفصول الستة الباقية جعلها لما يسمى عندهم الفَرْش، وهو تنزيل الكلام على أسماء الأعلام: عَلَماً عَلَماً، كما ينزل الكلام في اختلاف القراء على سور القرآن: سورة سورة.

أما الأصول، فقد أدار المؤلف عليها كلاماً عالياً شريفاً، حول أصناف الملاحدة ومناقشتهم، ثم تكلم عن خصائص اللسان العربي وعبقرية العربية وقدمها، وأوجه التقابل والتغاير بينها وبين العبرية، ليجيب بعد ذلك: لماذا كانت العربية هي أم الساميات جميعاً؟

وأشار إلى لغات العالم المعروفة وقت نزول القرآن، ثم أورد كلاماً عزيزاً عن القرآن، وأورد اجتهادات في لغة آدم عليه السلام، التي تكلم بها على الأرض مَهبطه من الجنة.

وتحدث عن استعارة معاني الأفعال، وحدود الأخذ والاستعارة من اللغات الأخرى.

ولهذا المؤلف اجتهادات جيدة في الاشتقاق، وتأصيل عربية بعض ما يظنه الناس أعجمياً، مثل «جهنم» وتخطئة بعض اللغويين العرب في أصل «إبليس» واشتقاقه.

وهناك أمر لا يزال المؤلف يعتاده ويُلم به كثيراً، وهو الرد على المستشرقين ومن إليهم من متحذلقة الأساتيذ في هذا القرن، الذين أدركتهم عجمة العلم واللسان... أو كما قال. وقد ردّ على المستشرقين في طعنهم على القرآن، وأنه وحي من الله يوحى على خاتم الأنبياء ﷺ.

ولعل أغنى بحث فيما وقع لي من أصول هذا الكتاب: هو الكلام على اسم أبـي إبراهيم عليه السلام، وهو «آزر» في القرآن، و «تارح» في التوراة، وقد تختلف مع المؤلف في بعض ما انتهى إليه من الربط بين «آزر» و «تارح» ولكنك تكبر فيه صدق الجهد وقوة الحجة.

وهكذا تتوالى القضايا في هذا الكتاب النفيس. على أني أحب أن أسجل ها هنا أن كلام هذا الكاتب ــ وأنا لا أعرفه ــ لا تستطيع أن تفرق فيه بين أصل وحاشية، بل إن كثيراً من حواشيه ينبغي أن تنقل إلى صلب الكتاب أو متنه، وتأمل مثلاً حاشيته في الفصل الأول عند حديثه عن صور المغايرة بين العربية والعبرية، في توجيهه لتسميته ﷺ «محمداً» ومظهر الحمد فيه، وما تلا ذلك من حديثه عن «الموابية» والمقارنة أو الموازنة بين «ساذج» و «سادة»، و «كيسر» المعرب إلى «قيصر»، والاسم الإسباني «رذريجو» المعرب إلى «لذريق»... وغير ذلك من العلم المنثور في حواشي الكتاب.

ومع غزارة هذه المعارف التي يقدمها لنا الكاتب، ونفاستها، فهو لا يدل بها على قارئه، ولا يسوقها في موكب تتقدمه الخيالة، ويحف به راكبو الدراجات، وتكتنفه دقات الطبول، كما يفعل كثير من الكتاب الآن، وإنما يأتيك كلامه سهلاً رهواً، يتهادى في إهاب الكرامة والتواضع والإسماح، وعليه من العلم بهاؤه، ومن الجد أماراته، بأسلوب عذب مصفى، أسلوب كاتب يحترم عقل قارئه، ويريد إمتاعه لا التعالي عليه.

يقول في الفصل الثاني ــ الأعجمي المعنوي والأعجمي العلم ــ في مناقشة المفسرين الذين اعتمدوا في تفسير أسماء أنبياء بني إسرائيل على المعجم العربي وحده، يقول: «وأنا أيها القارىء العزيز ــ إن كنت لا تعرف عبرية التوراة أو يونانية الأناجيل ــ، بما في هذه وتلك من أعلام آرامية بل ومصرية أحياناً ــ لا أريد أن يفوتك شيء من حلاوة بحث أريد أن أحبره لك تحبيراً: أريد منك أن تشترط علي توثيق ما أحدثك به، فلا أكيل لك القول جزافاً آمناً ألا تكشف زيفي، لأنك لا تعلم شيئاً من أمر تلك اللغات التي ذكرت لك، ليس هذا من العلم في شيء، وإنما هو من التدليس».

إن في هذا الكتاب علماً كثيراً، وإن فيه خيراً كثيراً، وإن عليه نوراً كثيراً، وما أظن ذلك كله قد كان إلا لأن مؤلفه قد تغيَّا به غايات نبيلة: هي خدمة كتاب الله، بالكشف عن نواحي إعجاز جديدة فيه، والأمور بمقاصدها، يقول تاج الدين السبكي: «ولقد حصل أبو زُرعة على أمر عظيم ببركة حفظه للحديث، وهكذا رأينا من لزم باباً من الخير فُتح عليه غالباً منه».

ويقول عبد اللطيف البغدادي: «اعلم أن للدين عَبْقة وعَرْفاً ينادي على صاحبه، ونوراً وضيئاً يشرف عليه ويدل عليه».

ويقول أبو الحسن العامري: «إن الدين كريم الصحبة، يعز من لجأ إليه، ويستر عيوب من اتصل به، مع ما يُذخر له في عاقبته من الغبطة الأبدية».

قلت: وقد رأينا كثيراً ممن تطاولوا على الدين وهزأوا به وسخروا منه في مجالسهم، أو في أعمالهم الأدبية ـ شعراً أو نثراً ـ قد انتهى أمرهم إلى خسار وبوار، بل إن منهم من رأى فقره بين عينيه، ورأى عافيته تتفلت من بين يديه، مع ما تراه من ظلام في وجوههم... ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحج: ١٨].

وتبقى بعد ذلك كلمة:

ـ لقد قلت من قبل إن أسلوب هذا الكاتب عذب مصفّى، واللَّـٰهُمَّ نعم! لكن شاب هذا الصفاء، وعكر هذه العذوبة بعض أوشاب مما يخالط الأساليب الشريفة، تتسلل إليها لواذاً، وكأنها العدوى المهلكة، تتخلل ذرات الهواء، لا تحس بها إلا وقد داهمتك في خلايا بدنك ـ عافاك الله ـ فلا تستطيع لها دفعاً ولا مرداً.

ومن ذلك ما جاء في كلام المؤلف الفاضل من هذا التركيب «موسيقى القرآن» وهو تركيب رخو لين، لا يليق بجلال القرآن وبهائه، ولا تقل: لا بأس علينا من تقارض مصطلحات العلوم، لأن فيه إثراء للغة، لا تقل هذا ولا تغتر به، لأنه مدخل لبلاء عظيم، ولو فتحنا هذا الباب لفسد علينا كل شيء، فإن للكلام حدوداً ومعالم ينتهي إليها، أَنَسِيت أن منا من قال: إن القرآن رسم لوحة صفتها كيت وكيت؟ فجعل المولى عزَّ وجلّ فناناً تشكيلياً يحمل فرشاة يغمسها في ألوان، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

لقد غيَّروا «النظم القرآني واتساقه» فجعلوه «موسيقى القرآن»، ثم غيَّروا «العَرُوض» فجعلوه «موسيقى الشعر»، ثم غيَّروا «علم الصرف» فسمّوه «علم الصوتيات»، وثم وثم وثم، وبالله نستدفع البلايا!.

* * *

الشيخ الشعراوي.. واللغة[1]

الشيخ محمد متولي الشعراوي ظاهرة غريبة عجيبة في زماننا، وإن كان له أشباه ونظائر فيما سلف لنا من أيام، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وقد عرف جمهور الناس هذا الشيخ الجليل في أوائل السبعينات الميلادية، وكان صاحب الفضل في التعريف به وتقديمه للناس الأستاذ الفاضل النابه: أحمد فرَّاج، وذلك من خلال برنامجه التلفزيوني المعروف يومئذ: «نور على نور»، وللتاريخ نقول: إن الذي قدم الشيخ الشعراوي للأستاذ أحمد فرَّاج هم طائفة من أدباء السعودية ووجهائها، عرفوا للشيخ قدره وأنزلوه منزلاً كريماً أيام تدريسه بكلية الشريعة بمكة المكرمة، وللشيخ هناك أصداء عالية الرنين.

وقد بهر الشيخ الشعراوي آنذاك أسماع الناس وأبصارهم بثلاث حلقات تلفزيونية حول: الإسراء والمعراج، والقضاء والقدر، وحديث هند بن أبي هالة في صفة خَلْق رسول الله ﷺ.

ويومها أدرك الناس ــ كل الناس ــ أنهم أمام صوت جديد يدعو إلى الله على بصيرة، بأسلوب مباين لكل ما ألفه الناس من أساليب الدعوة والتوجيه، وأنماط الوعظ والإرشاد، وإنما كان ذلك لأن الشيخ سلك في وعظه دَرباً غير مطروق، وورد ماء مهجوراً، وانتجع كلأ غير مرعيّ.

تكررت لقاءات الشيخ بالناس في البرنامج التلفزيوني المذكور، على فترات

---

(١) مجلة «الهلال»، فبراير ١٩٩٤م.

متباعدة حول بعض القضايا التي يسأل عنها الشيخ فيجيب، إلى أن استقر أمره على هذا اللقاء الأسبوعي: تفسير القرآن العظيم.

وفي هذا اللقاء، ويوماً إثر يوم اتضح منهج الشيخ، وتحدَّدت ملامحه. ويهمني في هذا المقام الكشف عن هذا المنهج، وإقامة حدوده ومعالمه، وتلمس أسبابه وبواعثه؛ فإن الشيخ يمثل عندي أنموذجاً ينبغي أن نجلوه للناس، بعد أن ندل على جذوره وأصوله، وإن في ذلك كله بعثاً لتاريخ عزيز غاب عنا، أو أريد له أن يغيب.

وإذا كان لكل عالم أو مفكر مفتاح، فإن مفتاح شخصية هذا الشيخ هو «اللغة»، واللغة هي الباب الأول في ثقافات الأمم، وإهمالها أو التفريط فيها، أو السخرية منها هدم لتاريخ الأمم، ومحو لها من الوجود.

العناية باللغة:

وعناية الشيخ باللغة تتجلى في مستوياتها الأربعة: أصواتاً وصرفاً ونحواً ودلالة. وفي طريق هذه المستويات الأربعة صال الشيخ وجال، ومما يُحْسب في موازينه، ويسجل له: هذه الجسارة والجرأة في معالجة تلك القضايا وجمهوره الأعظم من عامة الناس، ولكن الشيخ يرى أن هذا ضروري لتفسير كلام الله والكشف عن مراده.

وقد استطاع الشيخ على هذا المدى الطويل أن يأخذ العامة وأوساط الناس إلى قضايا التذوق والبلاغة واللغة والأدب، وخاض بهم لجج هذه العلوم، واستكثر من شواهد الشعر والأمثال وكلام الفصحاء، وأحب أن أسجل ها هنا أن عوام الناس يستجيبون لذلك ويستمتعون به، وإن كانوا لا يستطيعون التعبير عنه، فيجب أن نحسن الظن بهم، فإن لبعضهم ذوقاً قد يجفو عنه بعض الخاصة، ومن غريب ما كنت ألاحظ في أحيائنا الشعبية أن خطيب الجمعة كان إذا اندفع في الكلام الخفيف العامي على المنبر ضاق به الناس وخرجوا ساخطين يقولون: «إيه الهيافه دي؟ يا عم سيبك منه دا بيتكلم زيّنا»!

إن الشيخ الشعراوي قد نجح فيما عجز عنه غيره، فإننا على كثرة ما كتبنا عن الإعجاز القرآني وعبقرية اللغة العربية لم نستطع أن ننزل بهذه القضايا إلى عامة الناس، وظلت هذه القضايا دائرة بيننا، يدخل اللاحق على السابق، وكأننا نحدِّث بعضنا بعضاً.

وبَدْءة ذي بدء، فإن الشيخ يصرح بضرورة استقبال القرآن بملكة اللغة، ليخرج المستشرقين وأمثالهم من أعاجم العرب الذين كتبوا في الدراسات القرآنية وهم بمعزل عن فقه اللغة، ثم يقول: إن هؤلاء أخذوا اللغة صناعة، ولم يأخذوها ملكة.

وما من آية من كلام ربنا عزَّ وجلّ يعرض لها الشيخ بتفسير وبيان إلا وأفاض في قضايا اللغة، بادئاً بتأصيل الكلمة صرفاً واشتقاقاً، على المنهج الذي أصله ابن فارس في «مقاييس اللغة»، وابن جني في «الخصائص» بالقدر الذي تطيقه العامة وتدركه الخاصة، وقد نجح في ذلك نجاحاً ظاهراً. وعلى سبيل المثال فحين عرض لتفسير قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٦٣]، ذكر أن القفو اتباع شيء لشيء، وقال: إن من ذلك «القفا» هذا المعروف، لأنه يقفو الوجه، أي يتبعه، وقافية البيت في الشعر؛ لأنها تقفو سائر الكلام أي تتبعه.

ويقف الشيخ كثيراً عند معاني الحروف وأثرها في الدلالة، ووضع بعضها مكان بعض، كقوله تعالى: ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [التوبة: ٣٨]، فإن معنى «من» ها هنا معنى «بدل»، وقوله تعالى: ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة: ٥]، فتعدى الفعل هنا باللام، مع أنه جاء معدى بإلى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل: ٦٨]، وقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد: ٦]، ولم يقل «مع ظلمهم». و «علم معاني الحروف» علم ضخم من علوم اللغة، والمؤلفات فيه كثيرة، والعناية به واجبة، والشيخ دائم الحديث فيه.

وللشيخ احتفال زائدٌ بالفروق اللغوية، في الأبنية: كعالم وعليم، وشاكر وشكور، وهو الفرق بين اسم الفاعل، وأمثلة المبالغة المأخوذة منه، وكعَدْل وعادل

وهَدْي وهادٍ، وهو الفرق بين الوصف بالمصدر والوصف باسم الفاعل. ثم الفروق فيما يبدو مترادفاً من اللغة، كالفرق بين الشك والريب، والحزن والبث، والرجاء والتمني، والحسد والغبطة، وهو باب معروف من أبواب اللغة، وممن ألف فيه أبو هلال العسكري. ويفرق الشيخ كذلك في جموع التكسير بين العباد والعبيد.

وإذا كنت لا أستطيع أن أُلم ها هنا بكل ما قيدته من قضايا اللغة التي يُعنى بها الشيخ ويدير الكلام حولها، فإني لا أستطيع أن أغفل جانباً مهماً جداً من جوانب اللغة، يتعهده الشيخ دائماً ويحرص عليه، وهو «غريب اللغة»، وهو مصطلح يراد به الكلمات الغامضة القليلة الاستهلاك في كلام الناس، وتأتي غالباً في الكلام العالي الفصيح. وليست الغرابة في اللغة كالغرابة في البلاغة، لأن هذه يراد بها الكلام الحوشي المُسْتكره، أصواتاً ودلالة. أما الغرابة في اللغة فتقال في مقابل الوضوح، وشاهد هذا ما ذكره الخليل بن أحمد في مقدمة كتابه العين، قال: «بدأنا في مؤلفنا هذا بالعين، وهو أقصى الحروف، ونضم إليه ما بعده حتى نستوعب كلام العرب الواضح والغريب» كتاب العين ١/ ٦٠ (طبعة العراق).

وقد دارت على هذا العلم مؤلفات كثيرة، وبخاصة: ما يُسمى غريب القرآن وغريب الحديث. وهذا العلم ــ علم الغريب ــ مما أهمله الناس في زماننا هذا إهمالاً يوشك أن يكون تاماً، فقد هجره الناس هجراً طويلاً، بل إن بعضهم إذا صادف شيئاً منه في نص قديم، غيَّره إلى مرادف له مما يسهل على الناس، كالذي رأيته يوماً عند أحدهم من تغيير «وكان عمر بن الخطاب رجلاً طُوالاً» بضم الطاء، أي بالغ الطول، غيره إلى: «رجلاً طويلاً جداً». وأشد من هذا أن بعضهم أنكر استعمال كلمة «لُغوب» لعدم جريانها على ألسنة الناس هذه الأيام، مع مجيئها في القرآن العزيز!

قال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨].

وهكذا ينكر كثير من الكتاب الآن ألفاظاً وتراكيب كثيرة ضاربة في الفصاحة

بعروقها. ولست تجد هذه الألفاظ والتراكيب في النصوص الأدبية فقط، من شعر ونثر، بل إنك واجدها في علم الأنساب والتاريخ والجغرافيا، وكتب الفلك والطب والفلاحة والزراعة، وسائر ما كتب الأوائل.

وينادي بعضهم الآن بهجر هذه اللغة القديمة وتبني لغة واقعية كالتي تقرأ في الصحافة ووسائل الإعلام، حتى لا يشعر التلميذ بفجوة بين الذي يقرأه في النصوص القديمة، وبين ما يسمعه في واقع الحياة من تلك اللغة التي تلبي احتياجاته.

وحجة هؤلاء أن لكل عصر لغته وأعرافه، وهي حجة داحضة [تنبيه: حجة داحضة هذه من التعبيرات القرآنية، فلا بأس علي في استعمالها إن شاء الله]، ومردود عليها من أكثر من وجه. لكني أسأل: إذا نحن ربّينا أبناءنا على هذا المنهج المقترح، وسلخ التلميذ من عمره ما سلخ في المراحل: الابتدائية والإعدادية والثانوية، ثم دخل كلية جامعية تعنى باللغة والأدب، مثل دار العلوم أو الآداب، فماذا هو صانع مع مناهج هذه الكليات، التي تدور حول قضايا اللغة قديماً وحديثاً؟ نعم ماذا يصنع ذلك التلميذ مع مناهج هذه الكليات، وقد دخلها مُفَرَّغاً خالي الوفاض؟ إلا إذا غيرنا مناهج اللغة أيضاً في هذه الكليات حتى نُضيِّق الثغرة بين اللغة العربية كما تقدمها النصوص وبين اللغة العربية في واقع الحياة ــ كما جاء في أخبار الأدب ــ العدد التاسع ١٢ سبتمبر ١٩٩٣ ص ٢٦.

إن للغة جانباً تاريخياً يجب الحرص عليه ومعرفته، ثم إن اللغة ممتدة مع أصحابها لا تموت ولا تفنى، وليست اللغة للتفاهم وقضاء المصالح فقط، وإلا لكان القَدْر اللازم لنا منها محدوداً جداً، ولكان الذي يعرف خمسمائة كلمة إنجليزية تلبّي احتياجاته في متاجر لندن وشوارعها عالماً باللغة الإنجليزية.

ولقد كان غريب اللغة الذي هو الفصيح الرفيع مألوفاً للناس إلى عهد قريب، في خطبة الجمعة، وفي الكتاب المدرسي والكتاب الجامعي، ثم على ألسنة المحاضرين وأقلام الكاتبين، ثم هجره الناس هجراً غير جميل، ثم جاء الشيخ

الشعراوي فردنا إليه رداً جميلاً، وكان أول عهد الناس معه حين عرض لحديث هند بن أبي هالة في وصف خَلْق رسول الله ﷺ.

وفي هذا الحديث غريب كثير كشفه الشيخ غاية الكشف، وأبان عنه غاية الإبانة. وبعض ما يعرفه الشيخ من غريب الكلام مما يدِق ويغمض على كثير من الناس، بل إن بعض المثقفين يُصَحِّفه لخفاء معناه عنده: سمعت الشيخ ذات يوم في حلقة من حلقات يوم الجمعة يُنْشِد قول الشاعر الأموي عروة بن أُذينة:

لقد علمت وما الإشراف من خُلُقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنِّيني تطلُّبه ولو قعدت أتاني لا يعنِّيني

هكذا أنشد الشيخ «وما الإشراف» بالشين المعجمة، وهو صواب إنشاده، ومعناه: إني لا أستشرف ولا أتطلع إلى ما فاتني من أمور الدنيا ومكاسبها ولا تتبعها نفسي. وبعضهم لا يعرف هذا المعنى الغريب فينشده: «وما الإسراف» بالسين المهملة مُصَحَّفاً ومُزالاً عن جهته، وكأن الذي زين له ذلك وجود الكلمة في سياق الرزق.

وقد امتدت عناية الشيخ أيضاً إلى النحو، وهو علم التراكيب، وشأنه خطير، يقول أبو العباس ثعلب: «لا يصح الشعر ولا الغريب إلا بالنحو، النحو ميزان هذا كله»، والشيخ لا يكاد يخلي حلقة من حلقاته من شيء من دقائق هذا العلم الجليل.

ففي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ﴾ [التوبة: ٤٠]، حيث جاءت «كلمة» الأولى بالنصب، و «كلمة» الثانية بالرفع، يقول: لماذا لم تُعطف الثانية على الأولى فتكون منصوبة مثلها؟ ثم يجيب: لأن كلمة الله أصلاً عالية ثبوتاً ولزوماً، فهي لا تُجعل. وهكذا يربط الشيخ بين الإعراب والمعنى في هذه الآية الكريمة، وفي غيرها من الآيات.

ومن وراء اللغة وقضاياها يتقدم الشيخ إلى الناس بثقافة العالم الأزهري المتمكن من علوم العربية كلها، لأن العربية عند أهل العلم كتاب واحد، فيُلم الشيخ

كثيراً بقضايا البلاغة من معان وبيان وبديع، فحين فسَّر قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ذكر أن هذا من باب المشاكلة. واستشهد بقوله عزَّ وجلّ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، وبقول أبي الرقعمق:

قالوا اقترح شيئاً نُجِدْ لك طبخه   قلت اطبخوا لي جُبَّة وقميصاً

ومن جرأة الشيخ، بل قل: إنه من وفائه لعلومنا وتاريخنا، وأيضاً من بره بالعامة والارتقاء بأذواقهم وتوسيع مداركهم: ذكره لبعض مصطلحات العلوم الدقيقة، كأصول الدين أو علم الكلام، كالفرق بين صفات الذات وصفات الأفعال، وصفات الربوبية وصفات الألوهية، وكأصول الفقه، من مثل قولهم: لَمْح الأصل ــ لا يُعتد بالعارض ــ دلالة الاقتضاء واللزوم... وهكذا كان حال علمائنا وواعظينا في كل الأزمان، كانوا يرون أن للعامة حقاً ونصيباً مفروضاً في هذه المعارف، إن لم يكن من طريق العلم والإحاطة، فمن باب الأنس بها والارتياح إليها.

وتذكر كتب التراجم والرجال أن حلقات الدرس والإملاء كانت تجمع أشتاتاً من الناس، من العلماء وممن دونهم، بل إن الآباء كانوا يُحضرون أطفالهم مجالس الإملاء ويثبتون أسماءهم في طبقات السماع، بل كانت حلقات الدرس بالجامع الأزهر إلى عهد ليس ببعيد تجمع عوام الناس يجلسون إلى كبار العلماء، كتفاً إلى كتف مع طلبة العلم من أهل الاختصاص.

الشيخ وعلوم القرآن:

علوم القرآن: مصطلح يراد به الأبحاث المتعلقة بالكتاب العزيز، من حيث معرفة أسباب النزول، وعلم القراءات والرسم، والمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والغريب والإعراب إلى غير ذلك. وهذه القضايا مبثوثة في كتب التفسير، على منازلها ومناسبتها في سور القرآن الكريم، لكن العلماء أفردوها بتآليف خاصة، من أشهرها البرهان في علوم القرآن للزركشي، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي. ويطوف الشيخ كثيراً بهذه العلوم.

أما أبرز علم من علوم القرآن يقف عنده الشيخ ويطيل الوقوف، ولا يزال يعتاده يوماً بعد يوم فهو «علم الأشباه والنظائر» أو «علم الوجوه والنظائر»، وهو علم يتناول دوران الكلمة أو التركيب في القرآن على أوجه مختلفة، من حيث اختلاف المعنى الدلالي للكلمة، أو اختلاف التركيب بالتقديم والتأخير. وقد أفرد هذا العلم بالتأليف كثير من العلماء، منهم مقاتل بن سليمان، والدامغاني، وابن الجوزي، ومن أمثلته ما يذكره الشيخ حول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣].

ومن القضايا القرآنية التي يحتشد لها الشيخ احتشاداً: قضية دفع التعارض والتناقض بين آي الذكر الحكيم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، مع قوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، وكقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، بإزاء قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

أما أسرار النظم القرآني، وإيثار أسلوب على أسلوب، فهو مما يفيض فيه الشيخ كثيراً، وهو يرجع فيه إلى محصول وافر ومحفوظ واسع من ثقافته الأزهرية الغنية، لا إلى ما يقوله بعض مستمعي الشيخ ومريديه من أنه يُلْهم به إلهاماً، ويحدث به تحديثاً، وكأنه غير مسبوق أو مشارك، ونحن لا ننكر أنَّ الله يفتح على بعض عباده فتحاً، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، لكننا نقرر أن كثيراً مما يذكره الشيخ معروف ومذكور ومسطور في الكتب، وفضل الشيخ أنه يذكره إذ نسيه الناس، ويرعاه إذ أهمله الناس، فهو يحيي ما درس، وينفخ فيما خمَد.

ولعل القارىء الكريم يسمح لي بالتذكير بصورة مما سبق به علماؤنا مما يذكره الشيخ، وذلك ما ذكره الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي

المتوفى سنة ٦٦٠هـ ـ وهو صاحب مختار الصَّحاح ـ قال في كتابه أنموذج جليل في بيان أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، في توجيه الآية ٣٢ من سورة الإسراء: «فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولم يقل: ولا تزنوا؟ قلنا: لو قال: ولا تزنوا، كان نهياً عن الزنا لا عن مقدماته، كاللمس والمعانقة والقبلة ونحو ذلك، ولما قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ﴾ كان نهياً عنه وعن مقدماته؛ لأن فعل المقدمات قربان للزنا».

الشيخ وإنشاد الشعر:

الشيخ الشعراوي شاعر طويل النفس، شجي النغم، وإن كان هو لا يذكر هذا، لكن زملاءه وعارفيه يذكرونه، ويروون أنه أنشد قصيدة طويلة أمام الدكتور طه حسين رحمه الله يوم أن قدم إلى جدة في الخمسينات الميلادية في اجتماع الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، ويذكرون أن الدكتور طه حسين طرب كثيراً لهذه القصيدة.

والشيخ ـ كما هو معروف ـ متخرج في كلية اللغة العربية من كليات الأزهر الشريف، وكانت مناهج الدراسة فيها في ذلك الزمان مما يُغذي الملكات ويُنَمِّي المواهب، مع تلك الصفوة من العلماء المدرسين المشايخ إبراهيم حمروش ومحمد علي النجار ومحمد الطنطاوي ومن إليهم.

والشعر يخفُّ على لسان الشاعر اللغوي فيحفظه ويرويه. ومحفوظ الشيخ من الشعر عال وغزير جداً، ويأتي في مقدمة محفوظه: ذلك الشعر المعروف بشعر الشواهد، كشواهد اللغة والنحو والبلاغة والعروض، وشعر الشواهد هذا ينثال على لسان الشيخ انثيالاً، فما ذكر معنى لغوياً، أو توجيهاً نحوياً، أو تفسيراً بلاغياً إلا واستشهد له بالبيت والبيتين.

وإلى جانب شعر الشواهد هذا يتدفق الشيخ بعيون الشعر العربي من كل العصور، من الجاهلي إلى أحمد شوقي ومحمد إقبال، وله بشعر شوقي عناية خاصة، وكأنه يستظهره استظهاراً، ولا يقف إنشاد الشيخ عند الشعراء المكثرين

المشاهير فقط، بل يشمل أيضاً الشعراء المقلين المغمورين، وقد سبق استشهاده بشعر عروة بن أذينة، أما ذلك الشعر الذي يُعرف بشعر المذاكرة والمجالسة، وهو ما يُتَمَثَّل به في المواقف وأحوال الناس وتقلبات الزمان، فعند الشيخ منه الكثير من مختلف العصور، وأذكر أن الشيخ في بعض دروسه ولقاءاته وقف عند ما يلقاه الناس من العداوات وبَغْي بعضهم على بعض، وعلى عادة الشيخ في استخراج الحسن من السيىء، واستنباط الخير من الشر، قال: إن عداوة الناس قد تأتي بالخير... واندفع في كلام طويل، وهنا قفز إلى ذهني بيتان في صميم ذلك الكلام لأبي حيان النحوي، وإذا بالشيخ يُنشدهما، وذلك قول أبي حيان:

عِداتي لهم فضل علي ومنة فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

فقلت: سبحان الله! أي قراءة قرأ هذا الشيخ؟

وحفظ الشعر واستدعاؤه ضروري في تفسير كلام الله عزَّ وجلّ. يقول الإمام مجد الدِّين ابن أبي الفرج الرُّوذْراوري المتوفى سنة ٦٦٧هـ: «ومن ظن أن القرآن يُفهم كما ينبغي من غير تحقيق كلام العرب وتتبع أشعارهم وتدبرها كما يجب فهو مخطىء. كان ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ حبر هذه اللأمة ومفتيها ومفسر القرآن، وقد قال تلميذه عكرمة: إنه كان إذا سئل عن مشكل في القرآن يفسره ويستدل عليه ببيت من شعر العرب، ثم يقول: «الشعر ديوان العرب». وانظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ١/ ٣٠.

وبعد: فهذا شيخ جليل جاء على حين فترة من العلماء الحفاظ الضابطين، وهو يمثل صورة زاهية للعالم الأزهري المؤسس على علوم العربية وقوانينها، من حفظ المتون، وإتقان التعريفات، والصبر على المطولات، والنظر في الحواشي والتعليقات والتقريرات، فإذا ثبت هذا ــ وهو ثابت إن شاء الله ــ فلم ينصف الشيخ من يقول عنه: إنه ملهم لا غير، وإن ما يقوله إنما هو من باب العلم اللدنيِّ، فهذه

(دَرْوَشة) في تقييم الرجال والحكم عليهم، وإنما الصواب أن يقال: إنه رجل مثقف مؤسس، واسع الاطلاع، غزير الرواية، سريع اللمح، ذكي اللسان.

وكذلك لم يُنصف الشيخ من يقول عنه: إنه وُهب حسن العرض، والقدرة على توصيل المعلومات، مع خفة ظل واضحة. فهذا من الدس الخفي، فإذا كانت البضاعة مزجاة فماذا يجدي حسن عرضها؟ كما قيل في أمثالنا العامية: «إيش تعمل الماشطة في الوش العكر؟»، وللناس في اصطناع وسائل الذم والتنقص دبيب وخداع، وهو ما قاله سادتنا البلاغيون: تأكيد الذم بما يشبه المدح.

وإن تعجب فعجب أن بعض مثقفينا وأدبائنا يُعرض عن الاستماع إلى الشيخ، لاجتماع العامة عليه، وانبهارهم به، وهذا خَلْف من الرأي وفساد في الحكم، فما ينبغي أن يكون إقبال العامة على الشيخ وإعجابهم به صارفاً للخاصة عن الأخذ عنه والإفادة منه، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها، وقد كانت العامة تصرخ ويغشى عليها في مجلس وعظ الإمام أبـي الفرج ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ ولم يصرف هذا الخاصة عن الإفادة منه والأخذ عنه، بل إن كتبه وتصانيفه تعد من الأصول في الفكر العربـي الإسلامي، مثل زاد المسير، وتلقيح فهوم أهل الأثر، وتلبيس إبليس، والمنتظم وغيرها.

يقول الرحالة ابن جبير، واصفاً مجلساً من مجالس ابن الجوزي، وقد حضره: «ثم إنه بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الأنفس احتراقاً، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقى ناصيته بيده فيجزها، ويمسح على رأسه داعياً له، ومنهم من يُغشى عليه فيُرفع في الأذرع إليه، فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة. . . » رحلة ابن جبير ص ١٩٧، ١٩٨.

أرأيت أيها القارىء الكريم؟ هذا شبيه ونظير للشيخ الشعراوي منذ ما يزيد على ثمانمائة عام، فلا تعجبنّ إذا رأيت مستمعي الشيخ على شاشة التلفزيون، وهم بين

فاغر فمه دهشة، وبين مادٌ بصره عجباً، مخلوطاً ذلك كله بصيحات التكبير والتهليل، وما أكثر الأشباه والنظائر!

ولم يبق إلا أن أدعو للشيخ بطول العمر وتمام السلامة والعافية، ثم أهمس في أذنه ــ ولم يقدر لي أن أراه أو أجالسه ــ ببعض الملاحظات:

أولاً: أرجو من الشيخ الجليل أن يترفق في رد آراء العلماء السابقين حين يرى رأياً يخالف رأيهم، ومن ذلك إنكاره عليهم أن في القرآن حروفاً زائدة، مثل «ما» في قوله تباركت أسماؤه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، فالزيادة ها هنا زيادة نحوية، والحرف الزائد عند النحاة هو الذي يكون دخوله وخروجه سواء، أو هو الذي لا يخلّ حذفه بالمعنى، وقد جاء منه أمثلة من القرآن العزيز، منها قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٥]، وجاء كذلك في كلام العرب، ومنه قولهم: غضبت من غير ما جُرم، وقولهم: سمعت كلاماً ما، وجئت لأمر ما. ومولانا الشيخ يعلم هذا جيداً، فتسمية ذلك زيادة لا غبار عليه، بل إن إمام المفسرين أبا جعفر الطبري يسمي ذلك أحياناً «لغواً»، فهل يعتقد مؤمن أن في القرآن لغواً، ولكنها الصناعة النحوية، فيجب أن ينص الشيخ على أن هذا من اجتهاداته الخاصة، حتى لا يتجرأ الناس على أهل العلم.

ثانياً: نعترف أن للشيخ معرفة جيدة بالسيرة النبوية وأحوال الرجال وتراجمهم وضبط أسمائهم وكُناهم وألقابهم، ولكنه يَنِدُّ عنه أحياناً أشياء لعدم المراجعة، ومن ذلك أنه نطق مرة اسم «حِبان بن العَرِقَةَ» أحد المشركين الذين قاتلوا المسلمين في غزواتهم، نطقه «العرفة» بفتح الراء بعدها فاء، والصواب «العَرِقة» بفتح العين وكسر الراء بعدها قاف.

وكذلك ذكر وصية بعضهم لابنه حين أراد الزواج: «لا تتَّخذها حنَّانة ولا أنَّانة ولا منَّانة ولا عشبة الدار ولا كيَّة القفا»، نطقها الشيخ: «كُبَّة» بضم الكاف بعدها باء موحدة، والصواب: «كَيَّة» بفتح الكاف بعدها ياء منقوطة باثنتين من تحتها. قال ابن

سيده: «وأما كيّة القفا: فهي التي يأتي زوجها أو ابنها القوم، فإذا ما انصرف من عندهم قال رجل من خبثاء القوم لأصحابه: قد والله كان بيني وبين زوجة هذا المولِّي أو أمه أمر. فتلك كية القفا، من أجل أنه يقال في ظهر زوجها أو ابنها القبيح، حين يولِّي» المخصص ٤/ ٢٣، ٢٤.

ثالثاً: الشيخ حفظه الله مسموع متبوع، فنرجوه أن يتحرَّى صفات الحروف ومخارجها وبخاصة الحروف الثلاثة: الثاء والذال والظاء في القرآن الكريم.

وهذه الملاحظات وغيرها مما لا يكاد يسلم منها بشر، إنما هي في حق الشيخ الجليل: تَعْويذةٌ من عين الكمال، فإن الكمال لله وحده والمعصوم من عصمه الله.

* * *

الهجرة وكتابة التاريخ الإسلامي(1)

[١]

مكث رسول الله ﷺ بمكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، ثم أمره ربُّه بالهجرة إلى المدينة. وروى الشيخان في صحيحيهما أنه ﷺ قال: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب»، ــ وَهَلي، بفتح الواو والهاء: أي وهمي واعتقادي ــ .

وروى الشيخان أيضاً، ومالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرتُ بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خَبث الحديد». وقوله: «أُمرت بقرية»، أي أمرني ربي بالهجرة إليها. وقوله «تأكل القرى»، أي تغلبها، وكنَّى بالأكل عن الغلبة، و «تنفي الناس»، أي الخبيث الرديء منهم.

وقد اتخذ رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة مستقراً ومقاماً، وبدأ عهد جديد في الدعوة، سمي العهد المدني، أكمل الله فيه للمسلمين دينهم، وأتم عليهم نعمته، ورضي لهم الإسلام ديناً. وقد بدأ تاريخ الإسلام والمسلمين يُعَد ويحسب بالسنة الأولى من الهجرة.

ويقال إن أول من كتب التاريخ من الهجرة، عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة. وكان سبب ذلك أن أبا موسى الأشعري

---

(١) مجلة «الهلال»، يونيو ١٩٩٤م.

عامل عمر على البصرة كتب إليه: إنه يأتينا من قِبَل أمير المؤمنين كتب، لا ندري على أيها نعمل، قد قرأنا صكاً منه محله شعبان، فما ندري أي الشعبانين: الماضي أم الآتي؟ فعمم عمر رضي الله عنه على كتب التاريخ ــ أي كتابته ــ وأراد أن يجعله أول شهر رمضان، فرأى أن الأشهر الحرم تقع حينئذ في سنتين، فجعله في المحرم، وهو آخر الأشهر الحرم، فصيّره أولاً لتجتمع الأشهر الحرم في سنة واحدة. ذكر ذلك أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل ١/ ٢٢٧.

وروى الطبري في تاريخه ٢/ ٣٨٨ ــ طبعة دار المعارف ــ أن عمر حين جاءه كتاب أبي موسى الأشعري جمع الناس للمشورة، فقال بعضهم: أرِّخ لمبعث رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: أرِّخ لمهاجر رسول الله ﷺ، فقال عمر: لا بل نؤرخ لمهاجر رسول الله ﷺ، فإن مهاجره فرق بين الحق والباطل.

وهكذا كانت بداية حضارتنا وثقافتنا فوق هذه الأرض، على الوجه الذي تُبين عنه آثارنا المكتوبة التي لا يدخل عليها الشك من أي باب تدخل منه الشكوك، لا على وجوه الاجتهاد والتخمين والحدس والاستنتاج التي تقوم أحياناً على استنطاق نقوش ورموز على جدران معابد وهياكل، قد تتأثر بعوامل التعرية وتقلبات الحرارة والرطوبة، فتصدق مرة وتكذب أخرى، مع تقدير كل الجهود العظيمة التي قام بها علماء الآثار واللغة في هذا الباب.

وحين أخذ العلماء المسلمون في تدوين العلوم وتسجيل المعارف، كان علم التاريخ من أول ما كتبوا وصنفوا، وكانت الريادة في ذلك لعَبيد بن شَرِيَّة الجُعفي، ذلك المعمَّر الذي أدرك الإسلام فأسلم، وقدم على معاوية وألف له تأليفاً حول أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها وقد طبع باسم «كتاب الملوك وأخبار الماضين» بحيدر آباد بالهند سنة ١٣٤٧هـ، مع كتاب «التيجان في ملوك حِمْيَر» لوهب بن منبه المتوفى نحو سنة ١١٤هـ، ويعد كتابه هذا أيضاً من أوائل ما صنف في علم التاريخ عند المسلمين.

وقد توفي عَبيد بن شَرِيَّة نحو سنة ٦٧هـ، ويعد أيضاً أول من كتب في الأمثال

العربية. ويزعم المستشرق الألماني كرنكو أن «عَبيد بن شَرِيَّة شخصية وهمية اخترعها ابن النديم، وكتب بذلك إلى خير الدين الزركلي، وقد نفت نبيهة عبود الشكوك التي ثارت حول أخباره ـ انظر تحقيق ذلك في: الأعلام للزركلي ٤/ ٣٤١، وتاريخ التراث العربـي لمحمد فؤاد سزكين: المجلد الأول. الجزء الثاني. التدوين التاريخي ص ٣٢، ومصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد ص ٢٤٠، والأمثال العربية القديمة للمستشرق الألماني زلهايم ص ٥١.

ولا يزاحم التاريخ في أولية التصنيف في علومنا إلا ما ذكر به من ذلك التأليف النحوي الذي قام به أبو الأسود الدؤلي بتكليف من أمير المؤمنين علي بن أبـي طالب، حين فشا اللحن بين الناس وخيف على القرآن الكريم، وذلك في الخبر الذي ذكره الوزير القِفطي المتوفى سنة ٦٢٤هـ، قال: «ورأيت بمصر في زمن الطلب بأيدي الورَّاقين ـ أي باعة الكتب أو النُساخ ـ جزءاً فيه أبواب من النحو، يجمعون على أنها مقدمة علي بن أبـي طالب التي أخذها عنه أبو الأسود الدؤلي». إنباه الرواة على أنباه النحاة ١/ ٤٠.

نصف الكتب العربية:

ومهما يكن من أمر فإن علم التاريخ عند المسلمين من العلوم الضخمة، ويوشك هذا العلم أن يكون نصف المكتبة العربية. وانظر تصديق ذلك في: علم قوائم الكتب (الببليوجرافيا العربية) مثل الفهرست لابن النديم، ومفتاح السعادة لطاش كبري زاده، وكشف الظنون للحاج خليفة، وذيله المسمَّى: إيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادي، ثم انظر من المصنفات الحديثة في هذا العالم ـ علم قوائم الكتب ـ: «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع» لإدوارد فنديك، و «معجم المطبوعات العربية والمعربة» ليوسف إليان سركيس، و «تاريخ الأدب العربـي» للمستشرق الألماني كارل بروكلمان، و «تاريخ التراث العربـي» للدكتور محمد فؤاد سزكين، ثم انظر في فهارس المكتبات العامة الكبرى الموزعة على الفنون، بل ادخل مكتبة من المكتبات الخاصة التي يُعْنى أصحابها بجمع الكتب، وسترى في ذلك كله غلبة ظاهرة لعلم التاريخ.

وتفسير هذا أن علم التاريخ عند المسلمين ليس هو فقط تلك الكتب الحَوْلِية، مثل تواريخ الطبري وابن الأثير وابن كثير، أو كتب الأحداث العامة، مثل مروج الذهب، والتنبيه والإِشراف للمسعودي، وإنما يدخل فيه، بل يمثل الجانب الأكبر منه «فن التراجم والطبقات» وهو بحر خضم.

وينبغي أن يكون واضحاً أن «فن التراجم» عند المؤرخين المسلمين لا يُعْنى فقط بذكر أحوال المترجم من حيث مولده ووفاته، وشيوخه وتلاميذه، وعلمه وتآليفه، بل إنه غالباً ـ وبخاصة في الموسوعات ـ يمتد ليشمل الحوادث والأحداث العامة التي يكون العَلَمُ المترجم قد شارك فيها، أو عاصرها، أو كان منها، أو كانت منه بسبب، بل إن بعض مصنفي كتب التراجم يعرض للحوادث والأحداث بدواعي الاستطراد ليس غير، والاستطراد سمة من سمات التأليف عند كثير من علمائنا ومؤرخينا.

وعلى سبيل المثال فإن كتاباً موسوعيّاً مثل «طبقات الشافعية الكبرى» لتاج الدين السبكي، يضعه مصنفو العلوم في فن التراجم والطبقات، إذ كان مؤلفه قد أقامه على تراجم الفقهاء الشافعية منذ إمامهم محمد بن إدريس الشافعي في أوائل القرن الثالث، إلى منتصف القرن الثامن، ولكن النظر الصحيح يضعه في المكتبة العربية كلها، إذ كان مؤلفه قد أداره على علوم كثيرة، فهو لا يكاد ينتهي من ترجمة الرجل على رسمها المعروف حتى يخلص إلى مسائل من علم الرجل وفقهه، تُفْضي به إلى استطرادات ومداخلات كثيرة تكاد تأتي على جمهور علوم العربية، ثم كان لأحداث التاريخ عنده النصيب الأوفى، فأنت تجد عنده أحاديث ضافية عن حادثة الصليبيين، وكائنة التتار، وقصة جنكيزخان وحفيده هولاكو، (انظر مثلاً الطبقات: ١/٣٢٨ ـ ٣٤٣، ٧/ ٣٤٤ ـ ٣٦٩، ٨/ ٢٦٨ ـ ٢٧٧).

وقُل مثل هذا في كثير من موسوعات كتب التراجم، مثل وفيات الأعيان لابن خلكان، وسير أعلام النبلاء للذهبي، ونفح الطيب للمقَّري.

مناهج كتب التراجم:

ولقد تفنن المؤرخون المسلمون في كتب التراجم تفنناً عجيباً، وأخذت

تصانيفهم في هذا الفن طرائق شتى: فبعد كتاباتهم الأولى في السيرة النبوية والشمائل والمغازي، جاءت تصانيفهم موزعة مفرقة على تراجم الصحابة والتابعين، والقراء والمفسرين، والمحدثين والرواة، وفقهاء المذاهب الأربعة، والأصوليين، والشيعة والمعتزلة، والزهاد والصوفية، والوعاظ والقصاص والمذكرين، والأدباء والشعراء، واللغويين والنحاة، والأطباء والحكماء والفلاسفة، والقضاة، والخلفاء والوزراء، والمؤرخين والنسَّابين، ثم تراجم النساء، ولكل طائفة من هذه الطوائف كتب تراجم خاصة بهم.

ثم يأتيك هذا الفن أيضاً في التراجم على البلدان، مثل أخبار مكة والمدينة والقدس ومصر واليمن وبغداد والموصل والشام، وجرجان وأصبهان، وإربل وواسط، والمغرب والأندلس، والكتب في هذين القطرين فيض زاخر.

وكذلك في التراجم على القرون: كالدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين السخاوي، وما جاء بعد ذلك إلى القرن الرابع عشر (انظر هذه السلسلة من التراجم على القرون في كتابي: «الموجز في مراجع التراجم والبلدان» ص ٧٤، وانظر كتب التاريخ بمناهجها المختلفة في: «الوافي بالوفيات» للصفدي ١/ ٤٧).

ثم تأتي التراجم العامة ــ وهي كتب التاريخ عند بعض الناس ممن يظنون أنها كتب التاريخ فقط، ولا كتب للتاريخ غيرها ــ وهذه التراجم العامة على قسمين:

(أ) التراجم المرتبة على السنين، وذلك في كتب التاريخ المعروفة بالحوليات، كتاريخ الأمم والملوك للطبري، والكامل لعز الدين بن الأثير، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء الملك المؤيد صاحب حماة، والعبر في خبر من عبر (بالعين المهملة وليس بالغين المعجمة) للذهبي، والسلوك للمقريزي، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، وشذرات الذهب لابن العماد الحَنْبَلي.

(ب) التراجم المرتبة على الأسماء، ومن أبرزها وأشهرها: وفيات الأعيان

لابن خلكان، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبـي، والوافي بالوفيات للصفدي، وسير أعلام النبلاء للذهبـي.

ثم تأتيك التراجم أيضاً في كتب أنساب العرب، مثل جمهرة النسب لابن الكلبـي، ومختلف القبائل ومؤتلفها لابن حبيب، والاشتقاق لابن دريد، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، والإيناس بعلم الأنساب للوزير المغربـي، وعجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب لأبـي بكر الحازمي.

وفي كتب الأنساب بوجه عام: إلى قبيلة، أو بلد، أو صناعة، أو مذهب، أو شيخ. ومن هذه الكتب: الأنساب، لأبـي سعد السمعاني ــ والتراجم في هذا الكتاب غنية جداً ــ، واللباب في تهذيب الأنساب، لعز الدين بن الأثير، ولب اللباب في تحرير الأنساب، للسيوطي.

وفي كتب ضبط الأعلام والكُنى والألقاب والأنساب، مثل: المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة، لابن جني، والإكمال في رفع الارتياب عن المختلف والمؤتلف من الأسماء والكنى والأنساب، للأمير ابن ماكولا، وتكملة الإكمال، لابن نقطة البغدادي الحنبلي، والمشتبه في الأسماء والأنساب والكنى والألقاب، للذهبـي، وتوضيح المشتبه، للحافظ ابن ناصر الدين، وتبصير المنتبه بتحرير المشتبه، لابن حجر العسقلاني.

وفي كتب البلدان (الجغرافيا العربية) مثل: «معجم ما استعجم» للبكري، و «معجم البلدان» لياقوت الحموي، و «الروض المعطار في خبر الأقطار» للحِمْيَري.

وتأتيك التراجم أيضاً في علم قوائم الكتب (الببليوجرافيا العربية) التي حدثتك عنها قريباً.

ومن هذا الفن فرع مهم جداً، وهو ما يُعرف بالمعاجم والفهارس والمشيخات والأثبات والبرامج: وهو لون من التأليف يجمع بين الشيوخ والكتب، فقد جرى كثير من العلماء على أن يصنع لنفسه معجماً أو فهرساً أو مشيخة أو ثَبْتاً أو برنامجاً، يذكر فيه شيوخه الذين أخذ عنهم العلم، والكتب التي سمعها منهم، مسندةً إلى مؤلفيها.

ومن فوائد هذا اللون من التأليف أنك ترى من حياة الشيوخ في تلك الكتب وخاصة أمرهم، ودقائق سلوكياتهم ما لا تراه في كتب التراجم العامة والخاصة، وما ظنك بتلميذ يكتب عن شيخه؟ والكتب في هذا اللون كثيرة، ومن أشهرها كتاب «فهرسة ما رواه عن شيوخه أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي»، وأحب أن أسجل هنا أن عناية العلماء المغاربة بهذا الفن أظهر وأبين من عناية العلماء المشارقة. وقد كتب في ذلك كلاماً جيداً الدكتور عبد العزيز الأهواني يرحمه الله، في العدد الثاني من مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة.

ثم تأتي التراجم أيضاً في ذلك اللون من التأليف الذي يديره المصنفون حول عَلَم واحد أو اثنين أو ثلاثة، ثم يستطردون من ذلك إلى تراجم أخرى بالتبعية أو المناسبة، كما ترى في: مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد ابن الحسن الشيباني، للذهبي، ومناقب الشافعي، للبيهقي، ومناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي، والانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء: مالك والشافعي وأبي حنيفة، لابن عبد البر، وتبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر، وسيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، وسيرة عمر أيضاً، لابن الجوزي، والمصباح المضيء في خلافة المستضيء لابن الجوزي ــ وسأعيد حديثاً عنه مرة أخرى ــ ومحاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، لأحد رجال القرن التاسع، كما ذكر محققه وناشره الأمير شكيب أرسلان.

وتأتيك التراجم أيضاً فيما يُسمى بكتب الحضارة الإسلامية، مثل المعارف لابن قتيبة، والمحبَّر والمنمَّق، كلاهما لابن حبيب، ومروج الذهب والتنبيه والإشراف، كلاهما للمسعودي، والأوائل، لأبي هلال العسكري، ولطائف المعارف، لأبي منصور الثعالبي.

وتأتي التراجم أيضاً في تلك الكتب التي يُظن أنها من كتب المسامرات والمفاكهات والطرائف، مثل: أخبار الأذكياء، وعقلاء المجانين، وأخبار الحمقى والمغفلين، وأخبار الظُرَّاف والمتماجنين، وكل أولئك لأبي الفرج ابن الجوزي،

ومحاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، والمستطرف من كل فن مستظرف للإبشيهي، والفلاكة والمفلوكين للدلجي، والكشكول والمخلاة، كلاهما للعاملي.

وهناك باب عظيم أيضاً من باب التراجم: هو ما يعرف بالسؤالات، وذلك أن يسأل عالم عالماً عن جملة من الرجال، مثل سؤالات أبي عبيد الآجرِّي: أبا داود السجستاني، وسؤالات عثمان بن سعيد الدارمي: يحيى بن معين، وسؤالات أبي عبد الرحمن السُّلمي صاحب طبقات الصوفية: الدارقطني، وسؤالات الحافظ السلفي: خميساً الحَوزي عن جماعة من أهل واسط.

وواضح أن هذه «السؤالات» تدور حول علم الرجال ـ وهو علم الجرح والتعديل ـ لكنها مع ذلك اشتملت على تراجم لغير المحدثين، ثم تضمنت فوائد جليلة في التاريخ وغيره، كما ترى مثلاً في «سؤالات الحافظ السِّلَفي» المذكورة (طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق).

كتاب واحد:

ومن وراء ذلك كله: فإن التراجم تأتيك في غير مظانها ـ وهو في تراثنا باب طويل جداً ـ حسبي أن أشير إلى شيء منه هنا، رغبة في إفادة طالب العلم المبتدىء الذي قد تقع هذه المقالة في يده، أما أهل العلم وخاصته فهم أقدر مني على ذلك وأبصر، ثم إنِّي أريد أيضاً أن أؤكد على أن المكتبة العربية كتاب واحد، وأن العلوم يحتاج بعضها إلى بعض، وأنه لا يغني كتاب عن كتاب.

معلوم أن تراجم الصحابة تُلْتَمس من مصادرها: الطبقات الكبرى، لابن سعد، والاستيعاب، لابن عبد البر، وأسد الغابة، لعز الدين بن الأثير، والإصابة، لابن حجر. ولكنك إذا أردت ترجمة صحابي على نحو كامل مستوعب، فلا بد لك من النظر في كتب أخرى، منها دواوين السنة: صحاحها ومسانيدها، فقد أفرد أصحاب السنن في دواوينهم كتباً وأبواباً تسمى: المناقب أو الفضائل، ويسميها الحاكم النيسابوري في المستدرك: معرفة الصحابة. ولا غنى لك أيضاً عن النظر في كتاب

«هدي الساري مقدمة فتح الباري» لابن حجر، فقد أفرد فيه ابن حجر مكاناً ضخماً لتراجم الصحابة والتابعين، لا تقل إنه سيكرر في كتابه هذا ما ذكره في كتبه الأخرى مثل الإصابة أو تهذيب التهذيب، ولا تقل هذا، لأن في كل كتاب من الفوائد ما ليس في الآخر (وانظر على سبيل المثال ترجمة: عكرمة مولى ابن عباس في «تهذيب التهذيب» ٧/ ٢٦٣، وفي «هدي الساري» ص ٤٢٥، وتأمل الفرق بين مساق الترجمة في الكتابين).

ومن باب التماس التراجم من غير مظانها: ما تراه من تراجم اللغويين والنحاة الأوائل في مقدمة معجم «تهذيب اللغة» للأزهري، وفي كتاب «المزهر» في علوم اللغة للسيوطي، ثم ما نثره العلامة عبد القادر بن عمر البغدادي في موسوعاته: خزانة الأدب، وشرح أبيات مغني اللبيب، وحاشيته على شرح قصيدة «بانت سعاد» لابن هشام، وشرحه على شواهد شرح التحفة الوردية. وباب التراجم عند البغدادي باب واسع جداً لأن مكتبته كانت ضخمة جداً.

وقُلْ مثل هذا في كتاب المرتضى الزبيدي الضخم «تاج العروس» شرح القاموس، ففي هذا الكتاب أنساب وتراجم كثيرة جداً، وبخاصة ما يتصل بالمتأخرين.

وعلى ذكر اللغويين والنحاة، فإن أوسع ترجمة وأشملها لواضع النحو أبي الأسود الدؤلي، تراها في كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني، وما أبعد كتاب الأغاني عن طبقات اللغويين والنحاة! وقد جاءت ترجمة أبي الأسود في الأغاني طويلة جداً استغرقت ٣٨ صفحة من القطع الكبير ــ انظر: «الأغاني» ١٢/ ٢٩٧ ــ ٣٣٤ (طبعة دار الكتب المصرية).

والعلة في ذلك واضحة، وهي جامعة «التشيع» التي تجمع بين أبي الأسود وأبي الفرج. على أنه مما ينبغي التنبه له أن صلاح الدين الصفدي قد اعتبر «كتاب الأغاني» من مصادر كتب التاريخ، ووضعه في قائمة «التواريخ الجامعة» كتاريخ الطبري وما إليه (انظر: الوافي بالوفيات ١/ ٥٠).

وكلك تجد أجود ترجمة وأحسن كلام عن أبـي سعيد السيرافي النحوي الكبير في «كتاب الإمتاع والمؤانسة» لأبـي حيان التوحيدي، وكان هذا شديد الإعظام لأبـي سعيد، والتوقير له (انظر: الإمتاع والمؤانسة ١/١٠٨).

وتنتشر التراجم أيضاً في معارف القوم وعلومهم: ففي موسوعات التفسير والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام، وكتب اللغة والأدب وشروح الشعر ــ بصورة خاصة ــ وسائر فروع العلم استطرادات مهمة في تراجم الرجال.

وأريد أن أذكِّر بما قلته في صدر هذه الكلمة، من أن علم التاريخ الإسلامي بمعنى الحوادث والأحداث قد اختلط بعلم التراجم والطبقات، كما أن هذا العلم اختلط أيضاً بكتب التاريخ القائمة أساساً على الحوادث والأحداث؛ دخل كل منهما في نسيج الآخر والتحم به، بل إن علومنا كلها يجذب بعضها بعضاً، على نحو ما قال سفيان بن عيينة: «كلام العرب بعضه يأخذ برقاب بعض».

إن علم التاريخ عند المسلمين ليس كعلم التاريخ عند الأمم الأخرى؛ أحداثاً وتقلبات أيام ودول فقط، إن كتب التاريخ عندنا هي مجلى حضارتنا وثقافتنا العربية والإسلامية كلها.

إن علماء الحديث يخرجون الأحاديث من «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي، وأهل الأدب يجمعون أشعار الشعراء من «تاريخ دمشق» لابن عساكر، وكذلك يجمعون الشعر من كتب الجغرافيا العربية: معجم ما استعجم للبكري، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، والروض المعطار في خبر الأقطار للحِمْيَري، كما جمعوا منها التراجم من قبل.

بل إن اللغة والشعر يجمعان من كتب النبات وكتب الهيئة، كالذي تراه في كتاب النبات لأبـي حنيفة الدينوري، وكتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوقي، والحديث في هذا ونحوه مما يطول جداً.

* * *

الهجرة وكتابة التاريخ الإسلامي(١)

[٢]

[كتابة التاريخ الإسلامي من الموضوعات المهمة التي حرص «الهلال» على إلقاء الضوء عليها، وقد تناولنا في الجزء الأول أبرز ما في هذا المجال، ويواصل د. الطناحي في الجزء الثاني كيفية إعادة كتابة التاريخ الإسلامي حيث يقول:]

وهذا الذي ذكرته في الجزء الأول من هذا المقال والذي نشرته الهلال في الشهر الماضي على سبيل الوجازة والاختصار ــ وقد فاتني منه الكثير ــ يدلك، إن شاء الله، على اتِّساع دائرة علم التاريخ عند المسلمين: أحداثاً وتراجم، ولعله يُزَهِّدُك في تلك الدعوة التي تثار بين الحين والآخر: وهي دعوة «إعادة كتابة التاريخ الإسلامي» على ما يرى بعضهم من نبذ الكتاب القديم، بعد استخلاص مجمله، وتخليصه من الشوائب التي فيه، ثم تقديمه بلغة العصر، وذلك كله مركب صعب وطريق مخوف، وهو مما يخبط الناس فيه خبطاً شديداً، وليس هنا موضوع الرد على هذه القضية، لكن لا بأس من التذكير ببعض الأمور:

أولاً: إذا ثبت عندك اتِّساع دائرة التاريخ الإسلامي، فإن من يحاول إعادة كتابة ذلك التاريخ لا بد أن يكون على معرفة بمراجع التاريخ الإسلامي بفرعيه: الأحداث والتراجم، ثم ما يتناثر منه في تضاعيف الفنون الأخرى، كما حدثتك.

ثانياً: اللغة هي الباب الأول في ثقافة أية أمة من الأمم، فواجب على من

---

(١) مجلة «الهلال»، يوليه ١٩٩٤م.

يتصدى لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي أن يكون متضلعاً ــ أو على الأقل عارفاً ــ من اللغة: مألوفها وغريبها، ونحوها وصرفها، ليس على سبيل الإتقان والإحاطة، فهذا غير وارد وغير ممكن، ولكن على سبيل المعرفة التي تعصم من الأخطاء الشنيعة البلقاء.

يقول الحافظ أبو الحجَّاج المِزِّي في مقدمة كتابه «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» ص ١٥٦: «وينبغي للناظر في كتابنا هذا أن يكون قد حصل طرفاً صالحاً من علم العربية، نحوها ولغتها وتصريفها، ومن علم الأصول والفروع، ومن علم الحديث والتواريخ وأيام الناس». فهذا شأن الناظر في الكتاب، فما بالك بمن يحاول إعادة كتابته أو اختصاره؟

وكذلك يجب التنبه للأعراف اللغوية لكل عصر من العصور، وتظهر المحنة في هذا الأمر واضحة جلية عند من يتصدون للتاريخ المملوكي، وهو زاخر بالأعراف اللغوية والمصطلحات غير المألوفة إلا لمن جمع مراجع ذلك العصر: لغة وأدباً وتاريخاً.

ثالثاً: إن من يعيد كتابة تاريخ من تواريخ السابقين، أو يحاول اختصار كتاب في علم من العلوم، أو تهذيبه، لا بد أن يكون في علم صاحب الكتاب الأصلي، أو على درجة مقاربة له؛ لأن المعيد أو المختصر أو المهذب حينئذ يكون سميعاً بصيراً، يعرف ماذا يأخذ وماذا يدع، ولذلك قَبِل أهل العلم «مختصر صحيح مسلم» للحافظ المنذري، و «مختصر تفسير الطبري» لأبي يحيى محمد بن صمادح التجيبي، وتهذيب أنساب السمعاني؛ المسمَّى «اللباب» لعز الدين بن الأثير، و «مختصر الأغاني» للأصفهاني، و «مختصر تاريخ دمشق» لابن عساكر، وكلا المختصرين لابن منظور صاحب «لسان العرب».

وفي عصرنا الحديث قَبِلْنَا «تهذيب الأغاني» للشيخ محمد الخضري، و «عمدة التفاسير» لمحدث العصر الشيخ أحمد محمد شاكر، الذي اختصر فيه بعض أجزاء من «تفسير ابن كثير»، و «تهذيب سيرة ابن هشام»، و «تهذيب الحيوان» للجاحظ، كلاهما لأستاذنا عبد السلام محمد هارون.

رابعاً: إن الخدمة الحقيقية لتاريخنا إنما تكون بجمع مخطوطاته التي لم تنشر، ثم تحقيقها وتحقيق ما نشر من قبل غير محقق، وفق الأصول العلمية الصحيحة، ثم فهرسته الفهرسة العلمية الفنية، التي تضم النظير إلى النظير، وتقرن الشبيه إلى الشبيه، وستكون هذه الفهارس الفنية الكاشفة عدة وعوناً للدراسات والبحوث التي لا تقوم إلا على النص الموثق المحرر.

أما ما يقال عن غربلة التاريخ الإسلامي وتصفيته من الأخطاء والأوهام، وتخليصه من محاباة الحكام والملوك، وتنقيته من مظاهر الإسراف والمبالغات، ثم ما يقال لك من أن ماضينا غارق في الظلمات، وأن تاريخ الدول يكتب في غير أوانه، كتاريخ الدولة الأموية الذي كتب في أيام الدولة العباسية: فكل أولئك من الكلام الذي يرسل إرسالاً؛ لتملأ به مجالس السمر، ويتخذ سبيلاً لادعاء العلم.

الهجوم على التاريخ والمؤرِّخين:

لقد تعرَّض التاريخ الإسلامي والمؤرخون المسلمون لكثير من الحيف والعدوان، وكان أعجب ما قيل: «إن التاريخ صنع للحكام والملوك، ولم يرصد نبض الشعوب وأشواقها»، وبمثل هذه الألفاظ البراقة الخادعة يستميلون الشباب ويوقعونهم في قرار مظلم من الافتتان الكاذب والشك الموبق.

إن هذه القضية ينبغي أن تناقش على وجهها الصحيح، ويبدو أن كثيراً من كتابنا المعاصرين قد خلطوا بين كتب التاريخ العام ــ أحداثاً وتراجم ــ وبين كتب المناقب. فكتب التاريخ العام إنما ترصد الحوادث والأحداث بصورة عامة وشاملة، ويدخل في نسيجها أخبار الخلفاء والملوك لا محالة، ويظهر لك هذا المنهج بوضوح في كتب التاريخ المرتبة على السنين «الحوليات»، وكذلك في كتب التراجم العامة، وتأمل مثلاً كتاب «سير أعلام النبلاء» للذهبي، و «الوافي بالوفيات» للصفدي، و «وفيات الأعيان» لابن خلكان، وسترى أن تراجم الخلفاء والوزراء إنما تأتي في ترتيبها الألف بائي ليس غير، بل إن بعض تراجم هؤلاء الخلفاء والوزراء تأتي أحياناً خافتة وموجزة إذا قيست بترجمة عالم معاصر لهم، كالإمام أحمد بن حنبل مثلاً،

الذي تملأ ترجمته صفحات كثيرة، فضلاً عما يتعرض له بعض هؤلاء الخلفاء أو الوزراء من نقد شديد، وإحصاء دقيق لأخطائهم وزلَّاتهم، ولست هنا بسبيل التمثيل لهذا أو ذاك.

أما كتب المناقب فهي كتب خاصة تدور حول شخصية واحدة، خليفة أو وزيراً، ولا بأس في ذلك ولا نكران؛ فإن من حق أي كاتب أن ينحاز إلى شخصية حاكمة ومؤثرة، ويفرد لها كتاباً يأتي على تاريخها وأعمالها، وهذا ما نشاهده إلى يوم الناس، نحن نقبله ولا نرفضه، ثم إن ما كتب في تراجم الأفراد خاصة ومناقبهم لم ينفرد به الحكام والخلفاء فقط، فقد ذكرت لك من قبل: مناقب أبي حنيفة، ومناقب الشافعي، ومناقب أحمد، وسيرة عمر بن عبد العزيز.

ويبدو أيضاً أن بعض من خاضوا في قضية «صنع التاريخ للحكام والملوك» قد خدعوا بتلك العنوانات التي تحمل أسماء الملوك والوزراء، مثل كتاب الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس، نسبة إلى الصاحب ابن عباد، الوزير الشهير، والإيضاح العضدي في النحو، لأبي علي الفارسي، نسبة إلى عضد الدولة بن بويه حاكم فارس والموصل وبلاد الجزيرة، واللامع العزيزي ـ وهو شرح ديوان المتنبي ـ لأبي العلاء المعري، نسبة لعزيز الدولة فاتك بن عبد الله الرومي، الذي كان من رجال الحاكم بأمر الله الفاطمي، والمستظهري ـ وهو فضائح الباطنية ـ لأبي حامد الغزالي، نسبة إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله، أحمد بن عبد الله.

فليس للصاحب بن عبَّاد، ولا لعضد الدولة، ولا لعزيز الدولة، ولا للمستظهر بالله، ذكر في تلك الكتب إلا ما يكون من إشارة في المقدمات، فيها إشادة بهؤلاء الكبار أصحاب السلطة؛ لأن لهم عوناً ظاهراً للمؤلف ومساندة، كما نقول الآن: إن الكتاب الفلاني طبع بدعم من جامعة كذا، أو هيئة كذا، وتأمل الكتب التي تصدر تحت عنوان «سلسلة جب التذكارية» ونحوها، لأن هذه الجامعات والهيئات موَّلت الكتاب وأنفقت على طبعه، وهات لي الآن أميراً أو تاجراً ثريّاً يعينني على طبع كتاب من كتبي، وأنا زعيم، أن أسمي كتابي باسمه الشريف، بل أجعل اسمه يتقدم

اسمي، ثم أكيل له المديح والثناء منظوماً ومنثوراً. على أن هؤلاء الملوك والوزراء الذين جاءت أسماؤهم عنوانات للكتب كانت لهم مشاركة واهتمام باللغة والأدب وفروع العلم عموماً، ويكفي أن تعلم أن مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي حين ترجم لعضد الدولة البويهي وصفه بالنحوي.

ولعل من أشد العنوانات خداعاً: ذلك الكتاب الذي ألفه ابن الجوزي وسمَّاه: «المصباح المضيء في خلافة المستضيء»، فهذا الكتاب وإن كان في ظاهره أنه في مناقب الخليفة العباسي المستضيء، فإنه ليس خالصاً له، وإنما استطرد ابن الجوزي فيه إلى تراجم كثيرة للصحابة وللخلفاء العباسيين، مع عناية ظاهرة بالوعظ والتذكير، يقدمها ابن الجوزي للسلطان أو للحاكم، لكي يستضيء بها في معالجة الأحوال السياسية والاجتماعية، كما ذكرت محققة الكتاب وناشرته العراقية الدكتورة ناجية عبد الله إبراهيم.

وكذلك كتاب: «الدر الفاخر في سيرة الملك ناصر» لابن أيبك الدواداري من مؤرخي المماليك في القرن الثامن الهجري، فهذا ابن أيبك وإن كان منحازاً للسلطان محمد الناصر بن قلاوون؛ لأنه كان يعمل في بلاطه، فإن كتابه هذا يعد وثيقة مهمة في تاريخ مصر والشام في ذلك الوقت، وهو بمثابة يوميات لهذين القطرين الكبيرين وجهادهما مع فلول الفرنجة من التتار.

فليس صحيحاً إذن ما سمعته ــ في برنامج تلفزيوني ــ من الدكتورة الأديبة الفصيحة نعمات أحمد فؤاد من قولها: «إن التاريخ يخطىء حين يقول: هرم خوفو، وخوفو لم يبن هرمه، وإنما بناه المهندس المصري».

إنَّ التاريخ لم يخطىء يا سيدتي الدكتورة، ولكن هذا هو المعروف والمألوف في نسبة الأعمال الكبيرة، تنسب إلى عصورها، وإلى رموز هذه العصور، وهم الملوك والحكام، إن علماء البلاغة يمثلون لمجاز الحذف بقولهم: «بنى الأمير القصر»، ثمَّ يقولون: وإنما بناه عماله. ألم نقل «مصحف الملك فؤاد» لهذه الطبعة المحررة العالية من القرآن الكريم، وهي أصح طبعة للكتاب العزيز بشهادة مشايخ

الإقراء بمصر وغير مصر، من حيث الالتزام بالرسم العثماني، والضبط، وعلامات الوقف. وقد كتبه بخطه الشيخ محمد علي خلف الحسيني، ثم شاركه شرف ضبطه وتصحيحه: حفني ناصف ونصر العادلي ومصطفى عناني وأحمد الإسكندري. وطبع هذا المصحف الكريم بالمطبعة الأميرية عام ١٣٣٧هـ في عهد الملك فؤاد، فنسب إليه.

وتبقى قضية «تخليص التاريخ الإسلامي من الأخطاء والمبالغات»، وهي أيضاً من القضايا التي يعالجها الناس بكثير من الخفة والسهولة والمتابعة.

ومما لا شك فيه أن لبعض مؤرخينا الأولين أوهاماً وأخطاء، في رصد الأحداث وتسجيلها وتحليلها، وهذه الأوهام والأخطاء مما ينبغي التنبه لها والتنبيه عليها. على أنه ينبغي أن يكون واضحاً أن علومنا كلها ومعارفنا كلها منقودة من داخلها، ومدلول على الخطأ والوهم فيها منذ اللحظة الأولى لتدوين العلوم والمعارف، فالنقد عندنا سار مع التأليف خطوة خطوة، وهذا المنهج المعروف عند علماء الحديث، من القبول والرد، والتعديل والتجريح، قد امتد أثره إلى سائر العلوم الأخرى، وإن باب النقد في تراثنا وعلومنا باب واسع جداً، وضخم جداً، وينبغي أن يكون واضحاً أيضاً أن هذه الأمة لم تغفل عن تراثها هذه الآماد الطوال حتى يجيء فلاسفة هذا الزمان لينقدوا ويجرحوا ويخطئوا، ونعم، ليس لأحد ــ بعد الأنبياء ــ عصمة، فانقد ما تشاء، وحلل ما تشاء، واستنتج ما تشاء، ولكن بعد أن تجمع للأمر عدته، وتأخذ له أخذه، من القراءة المستوعبة المتأنية، والنظر الصحيح، وترك المتابعة إلا بعد ثبوت الدليل، على ما قالت العرب في كلامها الحكيم: «ثَبِّتْ نسباً واطلب ميراثاً»، وعلى ما قال أبو الفتح ابن جني: «فكل من فرق له عن علة صحيحة وطريق نهجة كان خليل نفسه وأبا عمرو فكره. . . إلا أننا مع هذا الذي رأيناه وسَوَّغْنا مرتكبه لا نسمح له بالإقدام على مخالفة الجماعة التي قد طال بحثها وتقدم نظرها. . . إلا بعد أن يناهضه إتقاناً، ويثابته عرفاناً، ولا يخلد إلى سانح خاطره، ولا إلى نزوة من نزوات تفكره» الخصائص ١/ ١٩٠.

ويريد ابن جني أن يقول: إن من اهتدى إلى وجه من النقد صحيح، أشبه الخليل بن أحمد، وأبا عمرو بن العلاء، ولا ينبغي لأحد أن يخالف السابقين في آرائهم لشهوة الخلاف فقط، وأنه ليس من حقه أن يخالفهم إلا إذا وصل إلى مرتبتهم أو فاقها: علماً وبحثاً ونظراً، على ألا يسرع إلى الرأي بمجرد الخاطرة السانحة، والنزوة الفكرية الطارئة.

فهذا هو كلام أهل العلم، أما التخييل بالمنهج والتفكير العلمي، للهجوم على تخطئة الأقدمين بالحق وبالباطل، فليس من العلم في شيء، ولا من العقل في شيء، وليس من الأدب أيضاً مع تاريخ الأمة أن يقول كاتب كبير معاصر، عن الإمام المفسر المحدث المؤرخ أبـي جعفر محمد بن جرير الطبري: «المؤرخ الأبله».

ولو سألت هذا الكاتب الكبير عن ترجمة الطبري: حياة وعلماً وتصنيفاً، ووفاة، لما ظفرت بشيء، بل لو سألته عن عدد طبعات كتابه «تاريخ الأمم والملوك»، والفرق بين هذه الطبعات لما أجابك بشيء. ويقرأ الناس هذا ويسكتون؛ لهوان الماضي عليهم، وخفة الموروث في موازينهم، وقل: سبحان ربـي!

لو تعرَّض أحد لبعض كتابنا ومفكِّرينا المعاصرين، لاهتزَّت الأرض بمن عليها، ولسمعت دويّاً هائلاً وجلبة صاخبة حول رموزنا العظيمة التي لا ينبغي أن تنال، وأعلام التنوير التي لا يصح أن تطال، أما الهجوم على الأوائل، والسخرية منهم، والتطاول عليهم، فلا نكرة فيه ولا غضب منه؛ لأن «حمزة لا بواكي له»:

أتغضب أن أُذْنَا قتيبةَ حُزَّتا ... جهاراً ولم تغضب لقتل ابن خازم

والموعد الله.

* * *

الجامعة المصرية إلى أين؟
الكتاب الجامعي والطريق الصحيح[1]

ذات يوم ضمَّنا مجلس علمي لقسم اللغة العربية بإحدى الكليات، وطرح رئيس المجلس قضية محالة على القسم من عميد الكلية، توصي بأخذ رأي الطالب في تقييم عمل الأستاذ وترقيته. ولم يكد رئيس القسم ينتهي من قراءة هذه التوصية حتى هبت ريح عاصفة كادت تدمِّر كل شيء، ومادت بنا الأرض، وعلا ضجيج، واختلطت أصوات، وجحظت عيون، وانطلقت ألسن تدفع الضيم وترد الحيف عن الأستاذ الجامعي، وتريد أن ترفعه إلى مكان عليٍّ لا ينال ولا يطال، وكأنه ذلك النبي المرسل المصطفى المختار من عباد الله، المؤيد بالوحي، الذي لا ينطق عن الهوى، المعصوم من الخطأ، المبرأ من الهوى، أو كأنه تلك الصخرة التي شبه بها سفيح بن رباح الفرزدق، في قوله:

إن الفـــرزدق صخـــرة ملمـــومـــةٌ طـــالـــت فليـــس تنـــالهـــا الأوعـــالا

(وانتصاب الأوعال بطالت: أي طالت هذه الصخرة المشبه بها الفرزدق الأوعال. وإنما قال هذا؛ لأن مأوى الوعل أعالي الجبال. والوعل: هو التيس الجبلي)، وسمعنا في هذه الجلسة كلاماً ضخماً فخماً عن كرامة العلم وهيبة الجامعة. أما ذلك الطالب المسكين فقد جاءه الذم من كل مكان، ونال حظه موفوراً من التنقص والمعابة، وسوء الرأي وضعف التدبير.

---

(١) مجلة «الهلال»، أكتوبر ١٩٩٤م.

وتركت القوم حتى سكنت فورتهم، وهدأت ثائرتهم، ثم قلت لهم: على رِسلكم يا قوم، ارْبَعُوا على أنفسكم، ولا تغضبوا ولا تفزعوا، وتعالوا إلى كلمة سواء: أليس الطالب هو أساس العمل الجامعي كله؟ أليس هو قطب الرَّحى وعمود الصورة؟ فلماذا نحقر شأنه وإنما نحن أساتذة به؟ ونحن حين نعلمه ونخرجه إنما نتعلم العلم معه مرة أخرى، ولولاه لصدئت عقولنا وتقصفت أقلامنا، والطالب النابه ــ ولا زال موجوداً بجامعاتنا ومعاهدنا والحمد لله ــ يستخرج من أستاذه علماً خبيئاً حين يدارسه ويفاتشه، وقد يفتح عليه أبواباً من النظر والعلم كانت موصدة دونه لولا مذاكرة ذلك الطالب ومدارسته.

وفي موروثنا الثقافي كان التلميذ النابه يسمى صاحباً لشيخه: فأبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني صاحبا أبي حنيفة، والربيع بن سليمان صاحب الشافعي، وهو ناسخ كتابه العظيم «الرسالة»، وكان الشافعي يقول له: «أنت راوية كتبي»، وابن جني صاحب أبي علي الفارسي، بل قد تتوثق العلاقة وتشتد الآصرة فيصير التلميذ غلاماً لشيخه، كما ترى في أبي عمر الزاهد غلام ثعلب، فالتلاميذ أصحابٌ لشيوخهم، وتأمل عبارة الشافعي في الليث بن سعد رضي الله عنهما: «الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به».

فينبغي أن ينظر إلى الطالب على أنه صاحب ومشارك؛ لأن العالم لا يكون عالماً إلا بمتعلم، وينبغي أيضاً أن نحتشد لهذا الطالب احتشاداً، وأن نحبّر له الكلام تحبيراً؛ تأليفاً ومحاضرات، وقد أدركنا جيلاً من الأساتذة والأشياخ ــ في مراحل تعليمنا كلها ــ كانوا يلقوننا بكثير من الجد والإسماح، ومنهم من كان يدور بعينيه علينا واحداً واحداً، في أثناء المحاضرة، يعطي كلاًّ منا حظه من العناية والنظر، وكأنه يلتمس أمارات الرضا عما يقول، ومواقع القَبول لما يلقي، بل إن منهم من كان يصرح فيقول: إيه رأيكم يا ولاد؟ كلام حلو؟ عليه نور؟ وكان أستاذنا عباس حسن رحمه الله إذا خاطب أحدنا في المحاضرة قال: «يا حضرة الأستاذ»، مع أنه كان صاحب كِبْر وبَأْوٍ، مع كثير من زملائه، كما كنا نرى ــ ولا تحتجنَّ علينا بقلة عدد

الطلبة آنذاك، وكثرتهم الآن، فلو ظفر طلاب الصفوف الأولى في المدرجات الآن بهذه العناية لكفى.

الرأي الجمعي:

على أن قضية أخذ رأي الطالب في تقييم عمل الأستاذ وترقيته لا ينبغي أن تؤخذ على ظاهرها هذا السهل الساذج، فنحن لا نتوجه إلى الطلبة واحداً واحداً، نسألهم رأيهم في أستاذهم، على طريقة قوائم الاستبيان المعروفة، فذلك أمر مرفوض ومطّرَح، ولكن المسألة أبعد من هذا، ولعل أقرب صورة لتحقيق هذه الغاية هي الرأي الجمعي للطلاب، فحين نرى إجماعاً أو شبه إجماع من الطلبة على حضور محاضرات ذلك الأستاذ فهذه شهادة له، وحين نلمس حرص الطالب على كتاب أستاذه وحفاوته به واحترامه له، فذلك إقرار بعلم ذلك الأستاذ ــ ودعك من مسألة الاستلطاف أو الارتياح الشخصي بتأثير خفة ظل الأستاذ أو تودده إلى طلبته بحلو الكلام ومعسوله، أو سخاوته في درجات الامتحان، على قاعدة: «إنما يمدح السوق من ربح»، فهذه أمور إن دامت أسبوعاً فلن تدوم شهراً، وإن تجاوزت الشهر فلن تبلغ العام.

ودعك أيضاً من الوشايات والإشاعات والسعايات لرفع خسيس أو وضع عال، فهذه كلها أمور مكشوفة مفضوحة، ولا يصح إلا الصحيح. وحين نرى إعراضاً من الطالب عن محاضرات أستاذ، واستخفافه بما يكتب، وزهده فيما يقول، فذلك إيذان بضعف ذلك الأستاذ.

والعجيب أن ذلك كله ــ مدحاً وذمّاً، وإقبالاً وإعراضاً ــ لا يخفى على عمداء الكليات ورؤساء الأقسام بها، بل لا يخفى على الزملاء أنفسهم، ولكنها المداراة والمصانعة. وفي آخر الأمر فإن الطالب النابه هو شاهد الصدق على علم الأستاذ وإخلاصه؛ لأنه يبدي رأيه في أستاذه وهو سليم الصدر، منزه عن الغرض، بريء من الشبهة، ولا يجد الهوى إلى نفسه سبيلاً، فينبغي أن يصار إلى رأي ذلك الطالب:

شهادة تزكية إلى جانب تقرير اللجان العلمية التي يقول عنها بعض الناس ما يقولون، وربك يعلم ما تُكنّ صدورهم وما يعلنون.

وهذا الذي قرأته أيها القارىء الكريم إنما هو مقدمة ومدخل لأمرٍ جلل وشأن عظيم، وهو الكتاب الجامعي: منهجاً وإخراجاً. إن الكتاب الجامعي هو حامل العلم إلى الطالب، وهو الصورة الماثلة الثابتة للأستاذ أمام الطالب، فإما أن يحرص على هذه الصورة، يستصحبها معه ويتمثلها في مستقبل أيامه، وإما أن يستهين بها، ويتخلص منها ساعة فراغه من حاجته إليها.

إن الأصل في الكتاب الجامعي أنه يقدم علماً قائماً على منهج، وهذا المنهج وضعه بعناية أساتذة كبار منذ اليوم الأول لقيام الجامعات والمعاهد العليا، وفي داخل هذا المنهج مفردات ومقررات تغطي على مدار سنوات الطلب أصول كل علم، وهذه المفردات والمقررات وضعها هؤلاء الكبار أيضاً. وقد طرأت على هذه المناهج بعض التغييرات والإضافات نتيجة لتقدم بعض فروع العلم، باستحداث مواد لم تكن موجودة، أو تطوير بعض ما هو قائم، لكن هذه التغييرات أو الإضافات لم تمس أصول ذلك المنهج القائم على تزويد الطالب بأصول العلم وجوهر المعرفة، ويظل الأستاذ الجامعي مهما علا شأنه وارتفع قدره مشدوداً إلى هذا المنهج، ملتزماً بمفرداته ومقرراته، دائراً في مراجعه ومصادره، فإذا حاد عنه رد إليه رداً جميلاً أو غير جميل، من رئيس قسمه أو عميد كليته.

هكذا كانت الأمور، وهكذا مضت، وفي ذلك الطريق تخرجت أجيال من الجامعيين مؤسسة على العلم الصحيح. ويداول الله الأيام بين الناس، فتحدث أمور تفضي إلى أمور، ويترخص الناس فيما لا يترخص فيه، وتقل المرجعية في العلم، ويتصرف بعض المعلمين من عند أنفسهم استبداداً واستقلالاً، فتضيع المعالم، ويختلط المرعي بالهمل، وتتداخل النوايا والمقاصد «وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض» على ما قال ابن الرومي.

وكان ما كان مما لست أذكره، وإذا نحن بين يوم وليلة أمام بعض الكتب

الجامعية لبعض الأساتذة الذين أباحوا لأنفسهم أن يبتعدوا قليلاً أو كثيراً عما كان مستقرّاً وثابتاً في أصول المنهج ومفرداته التي درجت عليها الأجيال، بل إن بعض مفردات هذه المناهج قد اختفت فعلاً لتحل محلها بحوث الأساتذة التي حصلوا بها على شهاداتهم العليا (الماجستير والدكتوراه)، ثمَّ ما قدموه من بحوث للترقيات العلمية، وبعض ذلك يقدم بعنوناته الأصلية، وبعضه يغير ويوضع تحت مسميات جديدة، ويقدم كل ذلك للطالب ويطلب منه تحصيله وفهمه وأداء الامتحان فيه.

لقد أصبح محتوى المقرر الدراسي خاضعاً لمشيئة المدرس ومزاجه، وفضلاً عن وعورة هذا المسلك وجهد المشقة فيه، فإن الطالب لن يعود منه بشيء ذي بال، في هذه المرحلة من العمر، ولن يفيده في معرفة أصول العلم وقواعده، وخذ مثلاً علم النحو، وهو علم التراكيب الذي لا غنى عنه لطالب العربية في أي فرع من فروعها، هذا العلم يقوم على التعريفات والقواعد والشواهد ــ وقد قيل بحق: النحو شاهد ومثل ــ فكل جهد يبذل فيه في السنوات الجامعية الأربع ينبغي أن يدور حول هذه الأركان الثلاثة، لا يتجاوزها ولا يتعداها إلى غيرها من النظر في أصول النحو، من قياس وسماع وعلة، بل يؤجل ذلك كله إلى ما بعد المرحلة الجامعية الأولى لمن أراد أن يتم الطريق، ولكن الأمر قد جرى على غير هذا ــ وبخاصة في العقدين الأخيرين ــ وليت الأمر قد وقف عند هذا الحد، فإن بعض زملائنا يفتح على الطلبة أبواباً من النظر في فلسفة النحو تضرهم ولا تنفعهم؛ لأنها تورثهم الشك والحيرة.

جاءني يوماً أحد الطلبة يسألني: يا دكتور، ما الفرق بين الموقع الإعرابي والحالة الإعرابية؟ فقلت له: من أنبأك هذا؟ قال: الدكتور الفلاني في الكتاب الفلاني، فقلت له: يا بني، هذا الدكتور رجل من أهل العلم، وكلامه هذا للكبار من أهل العلم، أما أنت فلا زلت في أول الطريق، وقد جئت إلى هذه الكلية تدرس فيما تدرس علم النحو، لكي تقرأ قراءة صحيحة وتكتب كتابة صحيحة، فاشتغل بذلك ودع ما سواه.

ومن أخطر الأمور أيضاً ما يقوم به بعض زملائنا من نقد للفكر اللغوي

والنحوي أمام هؤلاء الشباب، ويحدثنا بعض الطلبة أن أستاذاً يخصص نصف المحاضرة لعرض القاعدة النحوية، ثم يصرف النصف الآخر لنقدها ونقضها، وبعضهم يبدأ حديثه عن المعاجم العربية بذكر عيوب المعجم العربي، من تكرار المادة وتشويشها وتضارب النقول فيها، ثم يأتي حديثه عن مناهج هذه المعاجم ومدارسها وطريقة التعامل معها، خافتاً ضعيفاً في آخر الكلام.

الحاجة الملحة للمعلم:

لقد تحول كثير من الأساتذة الآن إلى مُنظِّرين وفلاسفة، وبعضهم يستخدم مصطلحات وتراكيب لامعة براقة، تأسر الطالب أسراً، وتجعله دائم التطلع إليها والتشبث بها، يريد أن يحاكيها، وقد يصده ذلك عن التماس العلم الحقيقي.

إنَّ الطالب في حاجة إلى مربٍ ومعلم، لا إلى منظر وفيلسوف، فكل ما يلقى على الطلبة في هذه المرحلة الجامعية الأولى، وكل ما يكتب لهم ينبغي أن يقوم على أساس ثابت من أصول العلم وحقائقه، وما فوق ذلك من نقد وتحليل وتتبع ينبغي أن يؤجل إلى مرحلة الدراسات العليا، كما قلت، فمناهج تدريس النحو والصرف واللغة والبلاغة والأدب يجب أن تدور في فلك القاعدة والشاهد، ولا بأس من الإلمام بشيء من النقد والتحليل، يُشْرِف ولا يتوغل، ويحوم ولا يواقع؛ لأنه لا يصح بحال أن نكشف لصغار الطلبة في هذه المرحلة الجامعية الأولى، عن أبواب النقد هذه، وأن ندلهم عليها، فإن مداركهم تقصر عن إدراك تلك المرامي البعيدة، فضلاً عما يحدثه ذلك في نفوسهم من زلزلة وبلبلة قد تزهدهم في العلم كله.

وقد نبَّه أهل العلم إلى ذلك من قديم، فقد ذكر أبو داود في رسالته إلى أهل مكة «أنه ضرر على العامة أن يكشف لهم كل ما كان من هذا الباب فيما مضى من عيوب الحديث؛ لأن علم العامة يقصر عن مثل هذا»، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «وهذا كما قال أبو داود؛ فإن العامة تقصر أفهامهم عن مثل ذلك، وربما ساء ظنهم بالحديث جملة إذا سمعوا ذلك» شرح علل الترمذي ص ٥٤٣، وروى أبو سعد السمعاني بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «إن الرجل

ليحدّث بالحديث فيسمعه من لا يبلغ عقله فهم ذلك الحديث فيكون عليهم فتنة» أدب الإملاء والاستملاء ص ٥٩، ٦٠، وروى ابن عبد البر عن هشام عن عروة بن الزبير بن العوام، قال: «قال لي أبي: ما حدَّثْت أحداً بشيء من العلم قط لم يبلغه علمه إلا كان ضلالاً عليه» جامع بيان العلم وفضله ١/ ١٣٤.

وقال بدر الدين بن جماعة، فيما يجب على المعلم نحو طلبته: «وكذلك لا يلقي إليه ما لم يتأهل له؛ لأن ذلك يبدد ذهنه ويفرق فهمه، فإن سأله الطالب شيئاً من ذلك لم يجبه، ويعرفه أن ذلك يضره ولا ينفعه، وأنَّ منعه إياه منه لشفقة عليه وعطف به، لا بخلاً عليه، ثم يرغبه عند ذلك في الاجتهاد والتحصيل، ليتأهل لذلك وغيره، وقد روي في تفسير «الربَّاني» أنه الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره». وقال أيضاً: «ولا يشير على الطالب بتعليم ما لا يحتمله فهمه أو سنه، ولا بكتاب يقصر ذهنه عن فهمه» تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ص ٥١ ـ ٥٢ و ٥٥، وذكر جلال الدين السيوطي من أدب الرواية والتعليم، قال: «ومن آدابهما الإخلاص، وأن يقصد بذلك نشر العلم وإحياءه، والصدق في الرواية، والتحري والنصح في التعليم، والاقتصار على القدر الذي تحمله طاقة المتعلم». المزهر ٢/ ٣٣٠.

على أن بعض الأساتذة قد هُدِي إلى صراط مستقيم، فوضع بين يدي طلبته ذلك الكتاب الجامعي القائم على الكشف عن أصول العلم، وعرض القاعدة مؤيدة بالنصوص والشواهد؛ دون إغراق في النقد والتحليل، لكنه كان من المؤسف والمحزن حقّاً أن ينظر إلى مثل ذلك العمل على أنه كتاب مدرسي، وصار هذا الوصف «الكتاب المدرسي» علامة على الخفة والسهولة، وصار مجلبة للتنقص وطريقاً إلى المعابة، بل بلغت الجرأة مداها أن يصف بعضهم ما كتبه أحد أعلامنا الكبار ـ متعه الله بالصحة والعافية ـ في تاريخ الأدب العربي في عصوره المختلفة، بأنه عمل مدرسي، غايته الجمع والتبويب، وأنه خال من التحليل والموازنة والنقد.

ومعنى هذا أنه إذا جاءك أحدهم بعمل قائم على الثرثرة بتلك المصطلحات

الخادعة: التحليل ــ الموازنة ــ النقد، ثم قَمَش علماً من هنا وسلخ علماً من هناك، واختار عنواناً أخَّاذاً برَّاقاً. أقول: معنى هذا أن ذلك العمل يفوق أعمال هذا الأستاذ الكبير، الذي قدم أعمالاً ضخمة في تاريخ الأدب العربي وعصوره، أفنى فيها عمره، وأطاب بها ذكره.

إن مصطلح «التحليل» وما أثير حوله من صخب وطنطنة قد عطل علماً كثيراً، ودفع إلى كثير من التهويل والتضخيم، وغمط فضلاً كثيراً، ولقد ذكرني هذا الحديث بكتابين عظيمين التقيت بهما في أوائل الستينات، إذ كنت طالباً بكلية دار العلوم، أولهما كتاب «أسس النقد الأدبي عند العرب» للدكتور أحمد أحمد بدوي رحمه الله، وثانيهما: كتاب «البيان العربي» للدكتور بدوي أحمد طبانة، أطال الله في عمره.

وهذان الكتابان مشحونان بالتعريفات والنصوص، لأعلام النقد والبلاغة كالجاحظ، وابن قتيبة، وأبي هلال العسكري، والآمدي، والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، والشيخ عبد القاهر الجرجاني، وابن سنان الخفاجي، وابن طباطبا العلوي، وضياء الدين بن الأثير، وأذكر أننا كنا شديدي الضيق بهذين الكتابين، وكنا نشكو منهما كل الشكوى، ولعل مما أغرانا بالضيق والشكوى من هذا اللون من التأليف: ظهور جيل جديد من صغار النقاد، بدأوا يثرثرون من خلال المقاهي الأدبية التي كانت في تلك الأيام، مثل مقهى الإنديانا بميدان الدقي، ومقهى ريش بشارع طلعت حرب، وكنا صغاراً قليلي الخبرة، ولم يتح لنا أن نعيش أيام «رسالة الزيات» و «ثقافة أحمد أمين»، فكان يسهل خداعنا بمثل هاتيك المصطلحات: الوحدة الموضوعية، والمعاناة والتجربة الشعورية، وتراسل الحواس، والمونولوج الداخلي، والدفقة الشعورية، والتعبير بالصورة، والألفاظ الموحية، والشعر المهموس، وكانت هذه الكلمات الضخمة تهزنا هزاً، فإذا رحنا نلتمسها في كلام الجاحظ وابن قتيبة والآمدي لم نجدها، فيشتد ضيقنا بكتابي الدكتورين الفاضلين، ونذم زماننا، ونلعن حظوظنا، ونود لو ضرب بيننا وبين أمثال هذه الكتب بسور ليس له باب.

ولقد بلغت السفاهة ببعضنا أن ذهب إلى ناقد ناشىء في تلك الأيام وحرضه على كتاب الدكتور أحمد بدوي، ثم استكتبه مقالة طائشة بجريدة الجمهورية، تطاول فيها تطاولاً فارغاً على الكتاب، فكانت كما قالت العرب في أمثالها: «أوسعتهم سباً وأوْدَوا بالإبل»، وهو مثل يضرب لمن لم يكن عنده إلا الكلام. والآن وبعد مضي هذا الزمان أستغفر الله مما كان مني من طيش وزلل في حق ذلك الكتاب، فقد كنت أيضاً من الساخرين العابثين، وإنما هي غفلة الصبا وغرارة الشباب، ولا أملك الآن إلا أن أنشد قول الشاعر:

رُبَّ يـــوم بكيـــتُ منـــه مـــراراً　　ثـــم لمـــا مضـــى بكيـــت عليـــه

وقول الآخر:

فليـــت أن زمـــانـــاً مَـــرَّ دام لنـــا　　وليـــت أن زمـــانـــاً دام لـــم يَـــدُمِ

وقول الثالث:

عتَبْـتُ علـى سَلْـمٍ فلمـا فقـدتُـه　　وجَـرَّبْـتُ أقـوامـاً بكيـت علـى سَلْـمِ
رجعـتُ إليـه بعـد تجـريـبِ غيـره　　فكـان كبُـرءٍ بعـد طـولِ مـن السُّقْـمِ

وأعتقد أن كتاب الدكتور أحمد بدوي قد خرجت منه رسائل جامعية كثيرة، وكذلك كتاب الدكتور بدوي طبانة، فكانا أيضاً كما قالت العرب في أمثالها: «أكلاً وذمّاً».

ومرة أخرى: لا بد من إعادة النظر في هذا المصطلح «الكتاب المدرسي» وإعادة التوقير له والهيبة. إنَّ متون النحو الأولى مثل الموجز لابن السراج، والإيضاح لأبي علي الفارسي، واللمع لابن جني، وإعراب ثلاثين سورة لابن خالويه، والفصول الخمسون لابن معطي، والآجرومية، وقطر الندى لابن هشام، كلها تآليف صغيرة عملت للمبتدئين في دراسة النحو، فهي كتب مدرسية، ولكنها علامات بارزة في طريق العلم، ونازعة بالثقة في أصحابها واحترامهم وإنزالهم المنزلة العالية. ولم يقتعد ابن جني هذه الذروة الضخمة بكتابه الفذ «الخصائص»

وحده، بل كان إلى جانبه كتبه الصغار المدرسية، مثل «اللمع» الذي ذكرته، والكتاب «الملوكي في التصريف».

ومن جناية هذا الوصف «الكتاب المدرسي» أن ذلك الكتاب القائم على أصول العلم وحدها دون إغراق في التحليل والتفلسف يرفض من أبحاث الترقيات ويستبعد من الجوائز الأدبية؛ لأنه كتاب مدرسي عمل للطلبة ليس غير، وهذا خلف من القول، وخطأ في الحكم. والكتاب المدرسي عمل من الأعمال العلمية: جيدهُ جيد، ورديئه رديء، فلا يصح أن يُستبعد جيده من أبحاث الترقيات، بل إني أتوق إلى اليوم الذي أرى فيه ترقية علمية يقصد بها الطالب قصداً، فإن بعض أبحاث الترقيات تدور غالباً في فلك بعيد عن الطالب، بل إن منها لما يشقق فيخرج منه كلام مفصل تفصيلاً على أعضاء لجان الترقيات، من حيث السير في طريقهم، والاستكثار من الرجوع إلى مؤلفاتهم بحق وبغير حق.

إن هذه النظرة المستخفة إلى الكتاب المدرسي قد دفعت كثيراً من الأساتذة المجيدين إلى شيء من الملل، فلم يعطوا الكتاب الجامعي حظه من الإجادة والإتقان، وكأن هذا الذي يقدم للطالب حُسْوة الطائر أو قَبْسة العَجْلان، لا تروي غليلاً ولا تضيء ظلاماً، ولا تنضج طعاماً، فجاء الكتاب الجامعي الآن ـ أو قل الكثير منه ـ في صورة مهلهلة: طباعة سيئة وورق رديء، فضلاً عن المادة العلمية الخفيفة، وتنظر إلى هذه الكتب الجامعية والمذكرات على أبواب لجان الامتحانات وقد ألقاها الطلبة إلقاء على الأرض بعد أن نظروا فيها النظرة الأخيرة، فتراها وقد تحولت إلى شيء مكور مستدير كالذي يتقاذفه الأطفال بأرجلهم شبيهاً بالكرة التي يسمونها «الكرة الشراب». وابكِ ما شاء الله لك أن تبكي على هذا العلم الملقى على الأرض، على ما قال الشاعر:

ويُفَتُّ المِسْكُ في التُّرْبِ فيُوطا ويُداسُ

إن أزمتنا الحقيقية أن الملل يسيطر على حياتنا الجامعية كلها، وإن أضعف جوانب الأستاذ الجامعي الآن هو ما يظهر للطالب في أثناء المحاضرة ومن خلال

الكتاب الجامعي، أما الجوانب المضيئة لذلك الأستاذ فهي مُدَّخرة ومصونة ليوم تشخص فيه الأبصار، وهو يوم المؤتمرات والندوات والحلقات.

إن الجامعة ينبغي أن تتدخل ـ ممثلة في عمداء الكليات ورؤساء الأقسام، بالنظر في المادة التي يضمها الكتاب الجامعي، وفي الصورة التي يخرج بها ذلك الكتاب، وفي هذا الطريق ينبغي أن يكون لرؤساء الأقسام الهيمنة الكاملة على ما يقدم للطلبة، وليس فقط النظر في تلك الأعمال الإدارية النمطية المعروفة، ولا يعتصمنَّ أحد بكرامة الأستاذ الجامعي، وهيبة الأستاذ الجامعي، فهذه الكرامة وتلك الهيبة تثبتان للأستاذ ما لزم الجادة واستوى على الطريق، فإذا زاغ أو مال سقطت الكرامة وضاعت الهيبة، على ما قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظَّموه في النفوس لَعُظِّما

إن الهيبة التي تمنحها الجامعة للأستاذ ليست حقّاً إلهيّاً لا ينازع صاحبه فيه ولا يغلب عليه، إن الهيبة الجامعية تبقى ما بقيت دواعيها، فإذا سقطت الدواعي تبعتها الهيبة، على ما قال ابن زريق في عينيته الشهيرة:

أُعطيتَ مُلكاً فلم تُحسن سياسته ... وكل من لا يسوسُ المُلك يُخْلَعُهُ

والسَّعيد من عصمه الله.

وعوداً على بدء أقول: إن الطالب هو أساس العمل الجامعي كله، فهو قطب الرَّحى وعمود الصورة، فيجب أن نحتشد له؛ تأليفاً ومحاضرات، وأن يكون هو المقصد والغاية، ثم يكون حظ الأستاذ من التقدير والترقية والاحترام قائماً على ما يقدمه للطالب ورفعة شأنه.

* * *

تركيا.. والمخطوطات العربية[1]

زرت تركيا مرتين: الأولى في شتاء عام ١٩٧١م، والثانية في صيف هذا العام، ويا بُعد ما بين اليومين في حياة الكاتب، وفي عالم المخطوطات:

ففي المرة الأولى كنت عضواً صغيراً في بعثة معهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم غداة إنشائها، وكان هذا المعهد من قبل تابعاً للأمانة العامة لجامعة الدول العربية منذ قيامها سنة ١٩٤٥م.

وفي هذه المرة الثانية كنت مدعواً من قبل مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، التي يرعاها ويدعمها معالي الشيخ أحمد زكي يماني، وزير البترول والثروة المعدنية السابق بالمملكة العربية السعودية، وذلك لإلقاء محاضرات عملية في الدورة التدريبية الثانية على تصنيف وفهرسة المخطوطات الإسلامية.

وقد دُعي إلى حضور هذه الدورة نفر من الشباب المشتغلين بالمكتبات والاستشراق، من تركيا وألبانيا وبلغاريا وزغرب والبوسنة والهرسك، وكاشغر (الصين الشعبية)، وبعض جمهوريات آسيا الوسطى: أذربيجان وأوزبكستان، وقازقستان وطاجكستان، وشارك في إلقاء المحاضرات طائفة من العلماء المشتغلين بعلم المخطوطات، كان منهم من مصر: الدكتور عبد الستار الحلوجي، والأستاذ نصر الله مبشر الطرازي.

وكذلك اختلف حال المخطوطات اليوم عن حالها بالأمس اختلافاً كبيراً،

---

(١) مجلة «الهلال»، ديسمبر ١٩٩٤م.

وبخاصة في ديارنا المصرية، ففي ذلك الزمان كانت المخطوطات في مصر مصونة متاحة، وكان القائمون عليها والمتصرفون فيها أولي علم وبصر، يعرفون أسماء المخطوطات في كل علم وفن، كما يعرف الناس آباءهم، وكانت لديهم القدرة على قراءة العَسِر المُعمَّى من المخطوطات، وتمييز الصحيح من الزائف، والعتيق من المحدث، إلى معارف أخرى تتصل بهذا العلم، كالمخطوط النادر، ومقاييس هذه الندرة: من خطوط المؤلفين أنفسهم، وحظوظ بعد الكتب من كثرة مخطوطاتها أو قلتها، ومعرفة مظان المخطوطات وأماكن وجودها. وقد ذهب هذا كله، إلا بقية خافتة الصوت ضعيفة الأثر.

ويشتد بي العجب ـ وقد قضيت مع هذا العلم خمسة وثلاثين عاماً: ناسخاً ومفهرساً ومحققاً ودارساً ـ حين أقرأ لبعض الناس الآن كلاماً أَخَّاذاً برَّاقاً عالي النبرة عن المخطوطات وسرقتها والغيرة عليها، مع يقيني الذي لا يداخله الشك أنهم لم يعانوا هذا العلم ولم يعرفوا شيئاً عن أسراره وخباياه، فضلاً عن أنهم لم يجالسوا شيوخه وأعلامه، وأساس العلم التلقي والمشافهة، فهي حماسة كاذبة، وولاء مدخول:

وكلٌّ يدَّعي وصلاً بليلى وليلى لا تقرُّ لهم بذاكا

وهذا الحديث مما يطول جداً فلنتركه إلى حين، ولنعد إلى تركيا هذا الجزء العزيز من العالم الإسلامي، وحديث المخطوطات فيها، وهو حديث غريب عجيب.

وقبل أن نتكلم على فضل الأتراك العثمانيين على هذا التراث الإسلامي، بجمعه وحفظه وصيانته، لا بد من التذكير بفضلهم في نشر الإسلام بأوروبا، لأن هذا من ذاك، ومعلوم أن كلمة «تركي» كانت في وقت من الأوقات مرادفة لكلمة «مسلم» في أذهان الأوروبيين الغربيين، وكان زحف الأتراك العثمانيين على بلاد البلقان وتوغلهم فيها، ثم اتجاههم إلى قلب أوروبا، ودخول محمد الفاتح القسطنطينية وفتحها سنة ٧٥٧هـ = ١٤٥٣م، كان ذلك كله بمثابة الضربة الثانية للمسلمين في

أوروبا، وكانت الأولى يوم أن عبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد بوغاز جبل طارق سنة ٩٢هـ ــ ٧١٠م.

يقول الدكتور عبد العزيز الشناوي في كتابه القيّم «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها» ص ٤٣: «وقد نظرت أوروبا إلى الفتوح العثمانية على أنها فتوح إسلامية، وكان الأتراك العثمانيون ــ في تقدير أوروبا ــ هم الرمز الحي المجسد للإسلام، واختلط الأمر على الأوروبيين في ذلك الوقت، فكانوا يطلقون على المسلم لفظ تركي». وانظر بقية كلامه، فإنه عال نفيس، ثم انظر الدَّوي الهائل الذي أحدثه فتح السلطان محمد الفاتح للقسطنطينية في كتاب شيخنا أبـي فهر محمود محمد شاكر «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، واقرأ أيضاً ما كتبه المستشرق الروسي كراتشكوفسكي في كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي العربـي» ص ٤٥١، عن أثر فتح السلطان سليم العثماني لمصر سنة ٩٢٣هـ، وأن استانبول أخذت منذ ذلك الحين تجتذب إليها بشكل مطرد أنظار العرب الذين أخذت أوطانهم تدور في فلك الدولة العثمانية بطريق مباشر أو غير مباشر، وفي ذلك الوقت بالتحديد بحث البابا ليون العاشر الإيطالي مع فرنسوا الأول ملك فرنسا، في عام ١٥١٥م، مشروع حملة صليبية ضد الترك العثمانيين لوقف زحفهم وتوغلهم.

ثم اقرأ أيضاً ما قاله المؤرخ ابن العماد الحنبلي، في كتابه شذرات الذهب ٨/ ١٤٣، في ترجمة السلطان سليم العثماني هذا، يقول: «هو من بيت رفع الله على قواعده فسطاط السلطنة الإسلامية، ومن قوم أبرز الله تعالى لهم ما ادخره من الاستيلاء على المدائن الإيمانية، رفعوا عماد الإسلام وأعلوا مناره، وتواصوا باتباع السنة المطهرة، وعرفوا للشرع مقداره» ــ ويلاحظ أنَّ ابن العماد قائل هذا الكلام توفي سنة ١٠٨٩هـ، فهو قريب العهد بأحداث زمان دخول السلطان سليم مصر، وأنه ولد بدمشق وأقام بالقاهرة مدة طويلة، ومات بمكة، فلم يكن عثمانياً يميل بهواه إلى أبناء جلدته، ولم يدخل بلاد الروم ــ استانبول وما حولها ــ حتى يكون له فيها حظ من جاه، أو نصيب من نفع، يحملانه على الثناء والمدح ــ فاقرأ هذا كله وتدبره،

ودع عنك ما يقال عن الغزو العثماني لمصر أو الاحتلال العثماني لمصر، فهذا كله من حديث السياسة، وللسياسة دروب ومضايق، يضيع فيها الحق، ويضل معها الحكيم، وهذه كلها من آفات المتابعة وعدم التحري، على ما قال الجاحظ: «وإنما يؤتى الناس من ترك التثبت وقلة المحاسبة».

ولقد قال الناس وأكثروا عن أخذ السلطان سليم للصناع والمهرة من مصر، وسلب المخطوطات، ولقد ــ والله ــ رأيت هذه المخطوطات بعيني بالمكتبة السليمية الوطنية في «أدرنة» بشمال تركيا، حيث مات ودفن السلطان سليم، فرأيتها محفوظة مصونة، لم تمس بسوء.

نشاط علمي وثقافي:

ومهما يكن من أمر فقد واكب نشاط سلاطين آل عثمان في الجهاد والفتوح، نشاط آخر في العلم والكتب، وآية ذلك أن كل سلطان أو صدر أعظم كان يحرص على أن يبني بجوار المسجد مدرسة ومكتبة تابعتين له وملحقتين به، ولما كان الناس على دين ملوكهم، فقد اقتدى بالسلاطين في ذلك الوزراء ومشايخ الإسلام، وعلى ذلك، فمجموعات المخطوطات في تركيا تنسب إلى ثلاث طوائف: السلاطين، مثل مكتبة السلطان سليم الأول ــ وهي المكتبة السليمية بأدرنه التي حدثتك عنها ــ ومكتبات السلطان محمد الفاتح والسلطان بايزيد، والسلطان أحمد الثالث، والمكتبة السليمانية نسبة إلى السلطان سليمان القانوني ــ أو المشرِّع ــ وكلها باستانبول.

والطائفة الثانية: الوزراء، مثل راغب باشا، وشهيد علي باشا، وكوبريلي باشا. والمكتبات الثلاث باستانبول، وكوبريلي باشا هذا، هو الوزير الفاضل أحمد بن محمد، وهو من كبار الرجال في الدولة العثمانية، يقول عنه المحبي في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ١/ ٣٥٣: «ولم يكن في الوزراء من يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله، صعباً شديداً في أمور الشرع، سهلاً في أمور الدنيا، وكان حاذقاً مدبراً للملك، قائماً بضبطه، وملك من نفائس الكتب وعجائب الذخائر ما لا يدخل تحت الحصر، ولا يضبط بالإحصاء».

قلت: وممن اتصل به من العلماء: العلامة عبد القادر بن عمر البغدادي، صاحب «خزانة الأدب» فأكرمه وحظي عنده بمكانة رفيعة، وقد أهدى له البغدادي مؤلفه «حاشية على شرح بانت سعاد».

والطائفة الثالثة: مشايخ الإسلام، مثل: أسعد أفندي، وعاشر أفندي، وولي الدين أفندي، وعاطف أفندي، وفيض الله أفندي، وعلي أميري أفندي، ووهبي أفندي، وشيخ مراد أفندي ـ ومكتبته غير مكتبة مراد ملا ـ وكل هذه المكتبات باستانبول. وإسماعيل صائب أفندي ومكتبته بأنقرة.

ومع هذه الطوائف الثلاث ظهرت طائفة النساء اللائي عنين بجمع المخطوطات، فأنشأن لها مكتبات نسبت إليهن، مثل مكتبة طرخان، وصالحة خاتون، وأسما خان، وجلنوش، وبرتونيال، وكثير من المكتبات التي تسمَّى «والدة باشا» ثم تضاف إلى ابنها السلطان.

حفظ العلم:

ولعل هذا التنافس في جمع المخطوطات وإنشاء المكتبات بهذا الحشد الكبير في استانبول كان مبعثه رغبة سلاطين آل عثمان والوزراء ومشايخ الإسلام والوجهاء، أن يكون لاستانبول تلك المكانة التي كانت لدمشق عاصمة الأمويين، وبغداد عاصمة العباسيين، ومصر عاصمة الفاطميين والأيوبيين والمماليك.

هكذا يقول بعض الدارسين والمحللين، أما أنا فإني أرى أن هذا كله من تسخير الله بعض عباده لحفظ العلم وبقاء الكتب، ولعل كثيراً من الذين جمعوا المخطوطات وأنشأوا لها الخزائن والمكتبات لم يخطر ببالهم عاصمة كذا وعاصمة كذا، وهل نظن أن امرأة تركية من الفضليات اللائي جمعن المخطوطات وأنشأن المكتبات كانت تفكر في مثل هذا الذي يذكره المحللون؟ إنها عناية الله وتسخير الله، وكلٌّ ميسَّر لِمَا خُلِق له، ألست ترى بعض الكتاب الآن يكتبون في موضوعات غاية في الخصوصية، ويعكفون على تحقيقات وبحوث، لا تحقق شهرة، ولا تجلب مالاً، ولكنه التسخير الإلهي، ولله في خلقه شؤون.

على أن اللافت للنظر حقاً أن المخطوطات العربية ليست توجد في استانبول وحدها ـ العاصمة القديمة لتركيا ـ كما هو الشأن في المخطوطات التي تقتنيها الدول، أن تكون في عواصمها فقط، فإنك واجد مخطوطات كثيرة في غير استانبول، من أنحاء تركيا كلها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وقد أورد الأستاذ أحمد آتش في مقالة له بمجلة معهد المخطوطات العربية (المجلد الرابع ـ الجزء الأول) بعنوان: «المخطوطات العربية في مكتبات الأناضول» أورد إحصائية عن المكتبات الكائنة خارج استانبول، قال بعد أن أشار إلى المؤسسات العلمية في أنحاء تركيا: «ولما اضطرت الدولة العثمانية بعد القرن السابع عشر الميلادي إلى مدافعة قسم كبير من العالم الإسلامي ضد عدوان أوروبا، طرأ على هذه المؤسسات العلمية نوع من الإهمال، ومع ذلك فإنه قد بذل بعد منتصف القرن الماضي على عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) مجهود عظيم لإحياء هذه المؤسسات العلمية، وحسب إحصاء سنة (١٣١١ ـ ١٣١٢) المطبوع في استانبول من قبل وزارة المعارف، في سنة ١٣١٨، فقد ثبت أنه كان موجوداً في المملكة العثمانية ما عدا استانبول ٢٧٢ مكتبة، تحتوي على ٧٦,٧٧٣ نسخة مخطوطة»، ثم ذكر أسماء هذه المكتبات ومكانها من بلدان تركيا، وعدد المخطوطات بها. ثم ذكر أنه يوجد الآن في الأناضول وضواحيها ٥٩ مكتبة، أوردها بأسمائها وبلدانها وعدد المخطوطات بها.

وقد زرت أنا من هذه المدن ورأيت مخطوطاتها: أدرنه ـ بورسة ـ إسكي شهر ـ كوتاهية ـ أماسية ـ قيسارية ـ سمسون ـ قونية، وهي بلد الصوفي الكبير جلال الدين الرومي، صاحب «المثنوي» وبها قبره، وبها أيضاً قبر صدر الدين القونوي الفقيه الشافعي الصوفي.

وعلى ذلك فَقَلَّ أن تجد مدينة من بلاد تركيا المتراحبة الواسعة ليس بها مكتبة مخطوطات، وهذا فرق ما بين تركيا وبين سائر الدول التي تضم مخطوطات في عواصمها فقط، أو مدنها الشهيرة، كما ذكرت من قبل. وتستطيع أن تقول باطمئنان

إن تركيا تعد أول دولة، من حيث تجميع المخطوطات وعددها، ولئن كان كثير من المشتغلين بعلم المخطوطات يقدرون عدد المخطوطات في مكتبات العالم بنحو ثلاثة ملايين مخطوط، فإني أرجح أن ما تضمه تركيا يبلغ نحو ثلث هذا العدد.

ومن بين مدن تركيا على امتدادها واتساعها تنفرد مدينة استانبول بثلثي التراث المخطوط في تركيا، فهي بحق مدينة المآذن والمخطوطات، وقد حدثتك من قبل عن مكتباتها المنسوبة إلى السلاطين والوزراء ومشايخ الإسلام، وهناك مكتبات أخرى غير هذه المكتبات المنسوبة، مثل طوبقبوسراي، ونور عثمانية، ومراد ملا، والبلدية، وجامعة استانبول وملّت كتبخانه، وسليم أغا بأسكودار، في البر الأسيوي من استانبول، ويوصل إليها بالباخرة من أمينون في قلب استانبول، أمام مسجديني جامع، إلى مكتبات أخرى ضمت إلى المكتبة السليمانية، وتعد هذه المكتبة أضخم مكتبات استانبول، وقد أمر بإنشائها السلطان سليمان القانوني ـ أو المشرّع ـ ابن السلطان سليم الأول فاتح مصر، وقد قام بتصميمها وبنائها «معمار سنان» وهو ذلك المعماري الشهير الذي بنى عشرات المساجد والتكايا والحمامات، وقد انتهى من بناء المكتبة سنة ٩٦٤هـ ـ ١٥٥٧م، وتقع هذه المكتبة العريقة بالقرب من مسجد السليمانية، وتتوسط المكتبة حديقة صغيرة مزدانة بالورد والزنابق، وتظللها شجرة صنوبر ضخمة تغطي الحديقة كلها بأغصانها المتناسقة.

وفي جانب من المكتبة ـ وفي القسم الثاني منها ـ كتبت لوحة تقول: «أنشأ هذه المكتبة المعمار سنان بين ١٥٤٩ ـ ١٥٥٧ ميلادي، بأمر السلطان سليمان القانوني ابن السلطان سليم الأول. يوجد اليوم في مكتبتنا ١٠١ خزانة كتب. أما المخطوطات الموجودة في مكتبتنا فهي ٦٣٩٤٧ مجلداً، والمطبوع ٣٨٥٠٠ مجلداً فقط، منها المخطوطات التركية ١١٤٥١ مجلداً ـ المخطوطات العربية ٤٨٨٥٤ مجلداً ـ المخطوطات الفارسية ٣٦٤١ مجلداً. وبلغ مجموع عدد المخطوطات الموجودة في المكتبة أكثر من ١٠٠,٠٠٠ كتاب ورسالة».

وتضم المكتبة أقسام التصوير والفهرسة، وتعقيم المخطوطات وترميمها

وتجليدها، ثم تسجيلها على الكمبيوتر. ويشيع في هذه المكتبة جو من السكينة والجلال لم أحسهما في مكتبة من مكتبات المخطوطات شرقاً وغرباً.

أما الخدمة المكتبية في هذه المكتبة فشيء معجب حقاً، تطلب المخطوط فتأتيك به الموظفة تحمله بين يديها في حنو وحدب وإشفاق، وكأنه وليد طال انتظاره، على ما قال ساعدة بن جُؤيَّة الهذلي:

أتاها على هون وقد شاب رأسها وحين تصدَّى للهوان عشيرها

ثم تظل عيناها معلقة بك وبه، فإذا رأت منك جفاء مع المخطوط، كاتكاء بيدك عليه، أو بلِّ إصبعك لتقليب صفحة من صفحاته، أو اتخاذه سِناداً لما تكتب ردَّتك عن ذلك ردّاً جميلاً، ولهذا ترى كثيراً من المخطوطات محتفظة بروائها وجمالها، وكأنها خرجت من يد النساخ للتو واللحظة.

وتوشك هذه المكتبة السليمانية أن تكون المكتبة المركزية العامة للمخطوطات، فإن وزارة الثقافة التركية تعمل على نقل المخطوطات إليها من الأقاليم البعيدة لتكون قريبة من الباحثين.

وإذا كانت تركيا تملك أكبر قدر من المخطوطات في العالم، فإنها كذلك تحتفظ بأكبر قدر من النفائس والنوادر، وللنفاسة والندرة في عالم المخطوطات معايير كثيرة، من أبرزها وأظهرها قدم المخطوط، ونجد في مخطوطات تركيا كتباً ذوات عدد يرجع تاريخ نسخها إلى القرون المتقدمة: كالثالث والرابع والخامس والسادس، فضلاً عن المخطوطات التي كتبت بأقلام مؤلفيها أو تلاميذهم، والمخطوطات الفريدة التي لا تُعرف لها نسخ أخرى في مكتبات العالم، كل ذلك وأشباهه مما تغص به مكتبات تركيا، فمن نماذج القدم والعتاقة هذه المخطوطات:

المأثور عن أبي العميثل الأعرابي، في اللغة، المتوفى سنة ٢٤٠، نسخ سنة ٢٨٠، بخط نسخ مشكول بالحركات شكلاً جيداً، وهذا يفيد في معرفة تاريخ الشكل بالحركات، كيف كان في ذلك الزمان المتقدم. والنسخة بمكتبة ولي الدين باستانبول ــ دستور ثابت بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ ــ وهو كتاب في آلات الساعات ــ نسخ

سنة ٣٧٠، مكتبة كوبريلي باستانبول ــ رسالة مدح الكتب والحث على جمعها للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥، بخط علي ابن البواب الخطاط الشهير، سنة ٤١٣، متحف الأوقاف باستانبول ــ تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، للبيروني المتوفى سنة ٤٤٠، نسخ سنة ٤١٦، (أي في حياة المؤلف) مكتبة الفاتح باستانبول ــ شرح كتاب أرسطوطاليس للفارابـي المتوفى سنة ٣٣٩، نسخ سنة ٥٣٨ ــ مكتبة أحمد الثالث باستانبول.

وليست النفائس والنوادر في مكتبات استانبول وحدها، بل هي في سائر المكتبات التركية، ومما رأيته بعيني من تلك النفائس: نسخة من «جامع معمر بن راشد» المتوفى سنة ١٥٣، وكتابه هذا في الحديث، وهو أقدم من «موطأ مالك» كما يقول ابن سمرة في طبقات فقهاء اليمن ص ٦٦، والنسخة بخط مغربـي على رق غزال سنة ٣٦٤، وقد رأيتها في مجموعة إسماعيل صائب أفندي بمكتبة كلية الآداب بجامعة أنقرة، ومجموعة إسماعيل صائب هذه تحتوي على كثير من النفائس، لأن جامعها هذا كان يعمل مديراً لمكتبة بايزيد باستانبول، وقد جمع هذه المكتبة لنفسه خاصة لتحمل اسمه، وقد ظلت هذه المجموعة حبيسة الصناديق نحو عشرين عاماً، ولهذا لم تتضمنها موسوعة «تاريخ الأدب العربـي» للمستشرق الألماني كارل بروكلمان، ومن نفائسها أيضاً كتاب «حلية الفقهاء» لابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥، نسخ سنة ٥٨٩، وترجع نفاسة هذه النسخة ــ مع قدم نسخها ــ إلى أنها النسخة الوحيدة في العالم إلى الآن. وعنها كانت نشرة الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي وزير الدعوة والشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية.

ومن النفائس التي رأيتها بمكتبة قونية: نسخة من «المقصور والممدود» لابن ولّاد المتوفى سنة ٣٣٢، ونسخة من «المذكر والمؤنث» لأبـي حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥، وكلتا النسختين من خطوط القرن الرابع. ثم رأيت في قونية أيضاً نسخة من «غريب القرآن» لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦، من خطوط القرن السادس، ولم ير أستاذنا السيد أحمد صقر رحمه الله، هذه النسخة عند نشره للكتاب سنة

١٧٧٨هـ = ١٩٥٨، وإنما كان تعويله على نسخة وحيدة كانت صورتها في مكتبة المحدث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر.

ومما رأيت من النفائس مجموعة شعرية كتبت بخط نسخي جيد من خطوط القرن السابع تقديراً، تشتمل على أشعار بشر بن أبي خازم، وتميم بن أُبَيّ بن مقبل، والطرمّاح بن حكيم. وهذه المجموعة الشعرية محفوظة في مدينة صغيرة تسمَّى «جوروم» تقع في هضاب الأناضول في الوسط، إلى الشمال الشرقي من أنقرة العاصمة، وعن هذه المجموعة نشر الدكتور عزة حسن دواوين الشعراء الثلاثة بدمشق.

أما نسخ المصاحف القرآنية، والمخطوطات الخزائنية ــ وهي التي جودت وزينت لخزائن السلاطين والملوك، والمخطوطات المزوَّقة، فشيء بالغ الكثرة.

وهكذا امتلأت خزائن تركيا بالمخطوطات العربية التي تنافس في جمعها السلاطين والوزراء ومشايخ الإسلام، ووجهاء الناس حتى النساء، جمعوها من البلاد التي طالها حكمهم ثم حفظوها وصانوها، كما يصون كرام الأبناء ودائع الآباء، وهذا الحفظ وتلك الصيانة قامت بهما تركيا العثمانية (الخلافة) وتركيا العلمانية (الجمهورية) سواء بسواء.

وليس فضل الأتراك العثمانيين على اللسان العربي، وعلى الفكر العربي محصوراً فقط في هذا القدر الكبير من المخطوطات العربية التي جمعوها وحفظوها، بل قد جاءنا منهم خير كثير: جاءنا منهم أعظم وأجمع ما كتب في علم أحوال الكتب، أو قوائم الكتب (الببليوغرافيا العربية)، وهو كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لمصطفى بن عبد الله، كاتب جلبي، المعروف بالحاج خليفة، أو: حاجي خليفة، المولود باستانبول سنة ١٠١٧هـ = ١٦٠٩م، والمتوفى بها سنة ١٠٦٧هـ = ١٦٥٧م، وهذا الكتاب «من أوسع ما بأيدي الباحثين اليوم من الكتب المؤلفة في استقصاء ذكر المؤلفات في الإسلام، وأنفعها في بيان أحوال الكتب، كما يقول بلديُّه العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري، وكيل المشيخة الإسلامية في دار الخلافة العثمانية، والمتوفى بمصر سنة ١٣٧١هـ ــ في كتابه مقالات الكوثري ص ٤٧٨.

ولهذا الكتاب ــ كشف الظنون ــ قيمة كبرى في رصد حركة التأليف العربـي، وتتبع مساره منذ بداية التدوين حتى القرن الحادي عشر الهجري. ومادته العلمية غزيرة جداً، فقد ذكر نحو (٢٠٠) علم وفن، ونحو (١٥٠٠٠) عنوان كتاب، ونحو (٩٥٠٠) مؤلف.

وجاءنا من تركيا العثمانية أيضاً «الخط العربـي»، هذا الفن الجميل الذي يعد معلماً بارزاً من معالم الإبداع الفني عند المسلمين، وخاصية حضارية ينفردون بها عن سائر الشعوب.

وإذا كان تاريخنا يذكر أسماء عظيمة كان لها أثر واضح في تزيين الخط العربـي والإبداع فيه، مثل ابن مقلة الوزير الشاعر البغدادي (٣٢٨هـ)، وابن البواب البغدادي (٤٢٣هـ) وقد هذّب طريقة ابن مقلة، وكساها رونقاً وبهاء، ويقال: إنه كتب القرآن بيده ٦٤ مرة، ومن حسن حظنا أن يبقى من خطه أثر، وهو «شعر سلامة بن جندل» في مخطوطة كتبها بقلمه الجميل سنة ٤٠٨، وهي محفوظة بمكتبة بغداد كشك باستانبول. وكذلك بقي من خطه رسالة «مدح الكتب والحث على جمعها» للجاحظ، وقد ذكرتها من قبل. وياقوت المستعصمي الرومي (٦٨٩هـ) وآثار هذا الخطاط كثيرة، في تركيا وفي غيرها، وبخاصة المصاحف الشريفة. وفي مكتبة السليمانية وحدها نسختان من المصحف الشريف بخطه.

أقول: إذا كان تاريخنا قد سجل هذه الأسماء التي أبدعت وجوَّدت في الخط العربـي، فإن الخطاطين الأتراك العثمانيين قد ارتقوا بهذا الفن إلى أعلى درجاته، وتألقت أقلامهم وأبدعت تشكيلات هي الغاية والمنتهى، وسيظل تاريخ الخط العربـي يردد أسماء الخطاطين الأتراك العثمانيين، مثل الحافظ عثمان، وأسعد اليساري، وقاضي العسكر مصطفى عزت، والحاج حسن رضا، وحقي، وسامي، وخلوصي، وعثمان أوزجاي، ومحمد أوزجاي، وقنوي، وحمد الله المعروف بابن الشيخ، وأحمد كامل المعروف برئيس الخطاطين، ثم العلم الكبير: حامد الآمدي. وقلَّ أن تجد واحداً من هؤلاء لم يكتب المصحف الشريف، فكان كلام ربنا عزَّ وجلّ

مجلى فن هؤلاء الخطاطين الذين أجادوا في كتابته غاية الإجادة، ما بين كتابته كاملاً، أو كتابة بعض آياته، حتى قيل بحق: «إن القرآن الكريم نزل بمكة، وقرىء في مصر، وكتب في استانبول».

وهذا الإبداع في فن الخط العربي ليس في المسطور بين دفتي كتاب فقط، فأنت تراه أيضاً يزين جدران وقباب المساجد كلها صغارها وكبارها، بأقلام الخط الستة المعروفة، وإن كان أكثر ما رأيته في المساجد: الثلث والفارسي، ومن المألوف في أكثر المساجد أن تجد مكتوباً: الله جل جلاله ــ محمد ﷺ ــ الصحابة الأربعة الراشدين، ثم الحسن والحسين، وأحياناً الصحابة الستة الذين تتم بهم العشرة المبشرون بالجنة.

ومن أنفس وأبدع المجموعات الخطية ما رأيته في مسجد السليمانية باستانبول، والمسجد الكبير بمدينة بورسة، وهو المسمَّى «أولوجامع»، فالخطوط في هذين المسجدين من وراء الوصف، فهي من الأشياء التي تحيط بها المعرفة ولا تدركها الصفة. ولست أدري كيف كتب ذلك الخطاط التركي العظيم تلك القافات الثلث في مدخل جامع بورسة، فقد كتب بها سورة العلق: «قافات كبيرة جداً على شكل دائرة ثم وصل بينها ببقية الآيات بالحرف الصغير، وكذلك صنع بالسينات التي تنتهي بها سورة الناس».

لفظ الجلالة:

على أن أبدع وأجمل ما رأيته في كتابة لفظ الجلالة «الله» و «محمد» ﷺ، ما رأيته في صدر كنيسة آيا صوفيا التي حولها السلطان محمد الفاتح إلى مسجد، وقد تحوَّل هذا المسجد الآن إلى متحف، وقد راعني ما رأيت: قباب عالية تملؤها خطوط تخطف البصر بجمالها، وعلى جانبي الكنيسة آثار إسلامية، مستحدثة على هذا البناء الكنسي العتيق، وفي مكان الهيكل وبعيداً عنه شيئاً ما أقيم المحراب، وعلى يمينه نهض منبر فخم، ومن وراء المحراب بقيت صورة السيدة مريم عليها السلام في صدر الهيكل. ومما يلفت النظر في هذه الكنيسة أن الآثار المسيحية لم تمح فبقيت كما هي، ثم استحدثت أبنية إسلامية كبعض الإيوانات ومصلى النساء.

ومما ينبغي التنبه له والتنبيه عليه أن عناية الأتراك بالخط العربي وتحسينه لا زالت باقية إلى الآن في تركيا (الجمهورية)، ومن الخطاطين الأتراك المعاصرين: داود بكتاش، وإيدين أركون، وعثمان أونال، وأفضل الدين فيلج، وعلي طوى، وتحسين قورت، وآي تكين أرسلان، ثم يتقدم هؤلاء كبيرهم الأستاذ حسن جلبي خطاط الجمهورية. فما برح النهر يجري متدفقاً زخاراً.

ورغم أن لمصر تاريخاً في فن الخط العربي، فإن أثر الخطاطين الأتراك كان واضحاً على هذا الفن في مصر، وحين أنشأ الملك فؤاد مدرسة تحسين الخطوط الملكية عام ١٩٢٠م ـ ومقرها كان ولا يزال بمدرسة خليل آغا الثانوية بشارع الجيش ـ قام بالتدريس فيها الخطاطون المصريون المعروفون آنذاك: الشيخ علي بدوي، والشيخ محمود رضوان، ومحمد إبراهيم، ونجيب هواويني، وهو سوري عاش ومات في القاهرة، ثم استقدم الملك فؤاد خطاطاً تركيّاً كبيراً من استانبول هو «الشيخ محمد عبد العزيز الرفاعي» الذي يوقع أحياناً على خطوطه باسم «عزيز»، وهو من تلاميذ الخطاط الحاج أحمد العارف الفلبوي، والخطاط حسن حسني القرين آبادي، كما ذكر هو في بعض لوحاته.

وقد أثر الشيخ عبد العزيز تأثيراً كبيراً في تلاميذه الذين درسوا على يديه وارتقى به فن الخط في مصر ارتقاءً عظيماً، وظهر أثره واضحاً في سيد إبراهيم، وبخاصة في خط الثلث، وفي محمد حسني، وبخاصة في الخط الفارسي.

وقد جمعت روائع الشيخ عبد العزيز الرفاعي في كتالوج فخم جداً، وفيه ترجمة لحياته وأسفاره، وطبع هذا الكتالوج في استانبول سنة ١٩٨٨، وفيه صورة رسالة بخط الشيخ عبد العزيز الرفاعي إلى شيخ الأزهر، وهي وثيقة مفيدة، في تاريخ نزوله بمصر ومحل إقامته.

وهذه صورة الوثيقة: «حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر الشريف. أعرض لفضيلتكم أني دعيت من الآستانة العلية لكتابة المصحف الشريف لحضرة مولانا صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول، وقد كتبت نموذجاً لطلبة المدارس

والأزهر، وها هو مرفق طيّه للاطلاع عليه حتى إذا حاز القبول يكرم باعتماد تقريره بالأزهر، وإني مستعد لتقديم الكمية اللازمة، وفي الختام تفضلوا بقبول فائق الاحترام ـ في ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٢٣ الشيخ محمد عبد العزيز الرفاعي الخطاط المقيم بتكية المولوية بشارع السيوفية نمرة ٣١ قسم الخليفة».

توفي الشيخ عبد العزيز ودفن في استانبول يوم ١٦ من أغسطس سنة ١٩٣٤م وقبره قريب من مسجد الفاتح، وهو أكبر خطاط في هذا الجيل، وترى نماذج من خطه في عنوانات بعض الكتب التي طبعتها دار الكتب المصرية: الأغاني للأصفهاني، وذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ونهاية الأرب للنويري. ورأيت في الستينات بعض لوحات بخطه في قاعة المعارض بدار الكتب المصرية، لا أعرف مصيرها الآن.

وإلى جانب هذا الكتالوج الخاص بالشيخ عبد العزيز الرفاعي، رأينا عملاً رائعاً آخر أصدره مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وهو كتاب «فن الخط» وهو ثمرة جهود طويلة قام بها فريق من الباحثين تحت إشراف الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي مدير عام المركز، ويضم الكتاب مقدمة تاريخية حول نشأة الكتابة العربية وأعلام الخطاطين القدامى، إلى أن يصل إلى الخطاطين العثمانيين، ويحتوي الكتاب على ١٩٢ لوحة وصورة بالألوان.

ويقوم هذا المركز بجهود عظيمة في مجال التاريخ والفنون الإسلامية، ومن صور نشاطه إقامة مسابقات دولية لفن الخط العربي توجه منها الدعوة لخطاطي العالم كله. ومن إصداراته الجيدة «فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي» في ثلاثة مجلدات ضخام ـ استانبول ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م، وفهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م، ويدير هذا المركز ويوجه نشاطه شاب مثقف، يتوقد ذكاء، ويتوهج حماسة، هو الأستاذ الدكتور «أكمل الدين إحسان أوغلي» وهو تركي، ولكنه مصري المولد والنشأة والتعليم، تخرج في كلية العلوم، وعين معيداً بجامعة الأزهر في أول

سني التطوير، ثم أكمل تعليمه العالي في لندن، وعاد إلى موطنه تركيا.

ووالده الشيخ «إحسان» من علماء الأتراك الذين نزلوا مصر، واتخذوها داراً ومقاماً، وكان رئيس قسم الفهارس الشرقية بدار الكتب المصرية إلى أوائل الستينات. رأيته شيخاً مهيب الطلعة، حسن السمت، صالح الوجه.

ولا يبقى إلا أن نلتفت التفاتة جادة إلى تجربة الأتراك في حفظ المخطوطات وصيانتها، وأن ننقلها إلى ديارنا، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها. وكذلك ينبغي أن نستفيد من جهودهم في فن الخط العربي، جمعاً لروائعه ونشراً لها، وإني أدعو ورثة الخطاطين المصريين الكبار، من أمثال سيد إبراهيم ومحمد حسني ومحمد إبراهيم ويوسف أحمد، والخطاطين الأحياء أمثال محمد عبد القادر وحسين أمين، ومن إليهما، أدعو هؤلاء جميعاً إلى جمع ما لديهم من خطوط، ونشرها بين دفتي كتاب يحفظها، أثراً يبقى ونموذجاً يحتذى، بل إننا لو جمعنا فقط عنوانات الكتب التي خطها سيد إبراهيم ومحمد حسني لأظهرنا كنزاً من الفن العالي، ولأحيينا تاريخاً عزيزاً كاد يضيع بتأثير الكمبيوتر وتشكيلاته المستحدثة التي لا تقوم على قواعد، ولا تستند إلى أصول، كما ذكر الأستاذ حامد العويضي في مقالته الجيدة «جماليات الخط العربي أمام مخاطر الكمبيوتر» ـ عدد أكتوبر الماضي من الهلال.

والحق أن هذا الذي نراه من الكمبيوتر الآن من تخليط واضطراب إنما سبقه ومهد له، وأغرى به ما قام به بعض الرسامين وخريجي الفنون الجميلة منذ زمن، من اللعب بقواعد الخط العربي وتجاوزها، في هذه الخطوط الصاعدة والهابطة، والمنتصبة والمضطجعة، وقد قالوا وقتها: إنه الخط الحر، على مثال الشعر الحر، وكلها فتن ومصائب يأخذ بعضها برقاب بعض، ولا ننتبه لها في بدايتها ونتركها حتى تعظم ويتطاير شررها، على ما قال الحارث بن وَعْلة الذهلي:

والقول تحقِره وقد يَنمي ... وبالله نستدفع البلايا

* * *

في كم يُتلى القرآن؟[1]

القرآن كلام الله، تنزيل من حكيم حميد، نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين، وقد أمر عليه السلام بتلاوته على أمته، وأمرت أمته بتلاوته وتدبر آياته والعمل بها، وقد أثنى ربنا عزَّ وجلّ على عباده التالين له، فقال تقدَّست أسماؤه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر].

ويأتي رمضان كل عام مذكراً بهذا النور المبين، فقد نزل القرآن الكريم في ليلة مباركة منه. والمسلم وإن كان مأموراً بقراءة القرآن في كل وقت وحين، فإنه يجد لذة وأنساً حين يقرؤه في رمضان لا يجدهما في وقت آخر، ونعم إن القرآن يطيب به الفم ويزكو به العمل في كل آن، ولكن الله يجعل لبعض الأيام ولبعض المواضع خصوصية ليست لغيرهما، وقد روي عن محمد بن مسلمة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرَّضوا لها»، مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٢٣١.

ولقد حفظت القرآن صغيراً، واشتغلت بعلومه كبيراً، وقرأته على فحول شيوخه واستمعته من كبار مقرئيه، ولا زلت مغموراً بنوره وضيائه، فهو معي في مغداي ومراحي، وفي حلِّي وترحالي، والحمد لله، ولكن حلاوته تعظم في فمي، ونغمه يعذب في سمعي حين أقرؤه في رمضان، وفي الحرمين الشريفين، وكم كان

---

(١) مجلة «الهلال»، فبراير ١٩٩٥م.

قلبي يخشع وكياني يهتز، ودموعي تجري حين أقرأ ــ وأنا في الروضة الشريفة ــ تلك الآيات التي تخاطب الرسول ﷺ وتناديه، فأقرأ وأتمثل وأستحضر وأنا بقرب النور وفي كرم الجوار، فأي جلال وأي جمال!

وما دخلت المسجد النبوي مرة إلا وقرأت سورة النساء، لأستحضر تلك الصورة الغالية الخاشعة لرسول الله ﷺ وابن مسعود يقرأ عليه سورة النساء وذلك ما رواه البخاري عنه قال: قال لي النبيّ ﷺ: «اقرأ علي»، قلت: يا رسول الله، أأقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نعم»، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ قال: «حسبك الآن». فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان. صحيح البخاري (باب قول المقرىء للقارىء حسبك من كتاب فضائل القرآن) ٦/ ٢٤١.

وهكذا تكون معرفة التفسير وأسباب النزول معينة على فهم القرآن وتدبره، فإذا انضم إلى ذلك معرفة غريبه ووجوه قراءاته ونحوه وإعرابه ومعانيه، كان ذلك أعون على معرفة أسراره والوقوف على دقائقه، ثم التلذذ بتلاوته، واستصغار لذائذ الدنيا كلها بجوار آية واحدة من آياته يتلوها المؤمن مستجمعاً لها فكره مخلّياً لها قلبه، ولذلك يقول أحمد بن أبي الحوارى الصوفي المتوفى سنة ٢٣٠: «إني لأقرأ القرآن فأنظر في آية فيحار عقلي فيها، وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الرحمن؟ أما لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه، وتلذذوا به، واستحلوا المناجاة به، لذهب عنهم النوم، فرحاً بما رزقوا ووفقوا». طبقات الصوفية للسلمي ص ١٠٢.

والقرآن مؤنس لتاليه، مزيل لوحشته، يقول الراغب الأصفهاني في مقدمة كتابه «حل متشابهات القرآن»: «فاتفقت خلوة سطوت على وحشتها بالقرآن، ولولا إنه لم يكن لي بها يدان. . وكانت هذه الخلوة خلوة عين لا خلوة قلب، واضطرار لا عن اختيار، بل لقهر وغلب». والظاهر أن المراد بهذه الخلوة السجن. مقدمة تحقيق كتاب المفردات في ألفاظ القرآن ص ٢٩.

والمسلم حين يتلو القرآن ليس لساناً يضطرب في جوبة الحنك فقط، ولكنه لسان يتلو، وقلب يخشع، ونفس تموج، وعزم ينهض، ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه كلام نفيس، في أن المسلم مطالب بأن يجمع القرآن ويحفظه ويحيط به ويجعله إمامه في جوارحه كلها، وفي عمله كله، وذلك ما أخرجه ابن جرير الطبري عن الحسن «أن ناساً لقوا عبد الله بن عمرو بمصر، فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله، أمر أن يعمل بها، لا يعمل بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك. فقدم وقدموا معه، فلقيه عمر رضي الله عنه فقال: متى قدمت؟ قال: منذ كذا وكذا، قال: أبإذن قدمت؟ قال: فلا أدري كيف رد عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ ناساً لقوني بمصر فقالوا: إنا نرى أشياء من كتاب الله تبارك وتعالى، أمر أن يعمل بها لا يعمل بها؛ فأحبوا أن يلقوك في ذلك. فقال: اجمعهم لي، قال: فجمعتهم له... فأخذ أدناهم رجلاً، فقال: أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم، قال: فهل أحصيته في نفسك؟ قال: اللَّـهُمَّ لا، ـ قال: ولو قال «نعم» لخصمه ـ، قال: فهل أحصيته في بصرك؟ هل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أثرك؟ قال: ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم، فقال: ثكلت عمر أمه! أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات. قال: وتلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء] ـ هل علم أهل المدينة ـ أو قال: هل علم أحد ـ بما قدمتم؟ قالوا: لا، قال: لو علموا لوعظت بكم) تفسير الطبري: ٨/ ٢٥٤، ٢٥٥.

قال شيخنا أبو فهر محمود محمد شاكر: «وقوله: «لوعظت بكم»، أي: لأنزلت بكم من العقوبة ما يكون عظة لغيركم من الناس، وذلك أنهم جاءوا في شكاة عاملهم على مصر، وتشددوا ولم ييسروا، وأرادوا أن يسير في الناس بما لا يطيقون هم في أنفسهم من الإحاطة بكل أعمال الإسلام، وما أمرهم الله به، وذلك من الفتن الكبيرة، ولم يريدوا ظاهر الإسلام وأحكامه، وإنما أرادوا بعض ما أدب الله به خلقه، وعمر أجل من أن يتهاون في أحكام الإسلام. إنما قلت هذا وشرحته مخافة أن يحتج

به محتج من ذوي السلطان والجبروت، في إباحة ترك أحكام الله غير معمول بها، كما هو أمر الطغاة والجبابرة من الحاكمين في زماننا هذا».

ولهذه الغايات كلها أمرنا بترتيل القرآن، في قوله عزَّ وجلّ مخاطباً وآمراً نبيه ﷺ ــ والأمر لأمته معه ــ ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ٤]، قال القرطبي: «أي لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مهل وبيان، مع تدبر المعاني. والترتيل: التنضيد والتنسيق وحسن النظام، ومنه ثغر رتل ورَتَل، بكسر التاء وفتحها: أي حسن التنضيد». تفسير القرطبي ١٩/ ٣٧، وحكي عن أبي بكر بن طاهر قال: «تدبر في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه».

وروي أن علقمة بن قيس قرأ على عبد الله بن مسعود، فكأنه عجل، فقال ابن مسعود: «فداك أبي وأمي، رتل فإنه زين للقرآن» المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي شامة المقدسي ص ١٩٨.

لكن قوماً من أهل الصدق والإخلاص ــ في زماننا ومن قبل زماننا ــ حسنت نياتهم، وسلمت صدورهم، يرغبون في إحراز الأجر ومضاعفة الثواب، يشتدون في هذا الشهر المبارك، ويبالغون في ختم القرآن أكثر من مرة، ويتباهون في ذلك، فيقول أحدهم: ختمته عشرين مرة، ويقول آخر: بل ختمته ثلاثين، ثم يزيد بعضهم وينقص بعضهم، وما يدرون أنهم بذلك يبتعدون عن السنة المأثورة عن رسول الله ﷺ، وعن صحابته الأكرمين.

فقد روى البخاري ومسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال لي رسول الله ﷺ: «ألم أخبر أنك تصوم الدهر، وتقرأ القرآن كل ليلة؟»، قلت: بلى يا نبي الله، ولم أرد بذلك إلا الخير، قال: «فصم صوم داود ــ وكان أعبد الناس ــ [كان يصوم يوماً ويفطر يوماً]، واقرأ القرآن في كل شهر»، قال: قلت يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فاقرأه في كل عشرين»، قال: قلت:

يا نبـي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فاقرأه في كل عشر»، قال: قلت: يا نبـي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «فاقرأه في كل سبع، لا تزد على ذلك»، قال: فشددت، «فشدد علي»، وقال لي: «إنك لا تدري، لعلك يطول بك عمر». قال فصرت إلى الذي قال لي النبـيّ ﷺ، فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبـي الله ﷺ. جامع الأصول في أحاديث الرسول، لمجد الدين بن الأثير ٢/ ٤٧١، ٤٧٢، وجمع للحديث طرقاً أخرى.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال «لأن أقرأ سورة أرتلها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله»، وروي عنه أيضاً أنه قال: «لأن أقرأ القرآن في ثلاث أحب إلي من أن أقرأه في ليلة كما يقرأ هذرمة». والهذرمة: السرعة في الكلام والمشي، وقال: هذرم في كلامه هذرمة: أي خلط، ويقال للتخليط: الهذرمة.

وثبت عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أن رجلاً قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال عبد الله بن مسعود: أهذّاً كهذّ الشعر؟ إن أقواماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»، أراد: أتهذّ القرآن هذًّا فتسرع فيه كما تسرع في قراءة الشعر؟ والهذّ: سرعة القطع. والمفصل من سور القرآن: من سورة الحجرات إلى سورة الناس، وقيل غير ذلك، وسمي مفصلاً لكثرة الفصول بين سوره، أو لقلة المنسوخ فيه، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ٤/ ١٩٤.

وسئل مجاهد عن رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة، قيامهما واحد، وركوعهما واحد، وسجودهما واحد، وجلوسهما واحد، أيهم أفضل؟ فقال: الذي قرأ البقرة، ثم قرأ: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وانظر بيان ذلك كله في: المرشد الوجيز ص ١٩٧، والتبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص ٧١.

وإذا كان كثيرمن الناس يشتدون ويجتهدون في ختم القرآن في رمضان أكثر من

مرة، فإن كثيراً منهم أيضاً كان على السنة، وعلى المنهج الراشد المقتصد. فقد روي أن أبا رجاء العطاردي ـ وكان إماماً كبيراً من المخضرمين ـ كان يختم بأصحابه في قيام رمضان القرآن كل عشرة أيام. حلية الأولياء لأبـي نعيم الأصبهاني ٢/٣٠٦، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٣/ ٢٢١.

وقال القرطبـي في كتاب التذكار في أفضل الأذكار ص ٦٧: «وذهب كثير من العلماء إلى منع الزيادة على سبع، أخذاً بظاهر المنع في قوله: «فاقرأه في سبع ولا تزد ـ يعني في حديث عبد الله بن عمرو السابق ـ واقتداء برسول الله ﷺ، فلم يرو عنه أنه ختم القرآن كله في ليلة، ولا في أقل من السبع، وهو أعلم بالمصالح والأجر، وفضل الله يؤتيه من يشاء، فقد يعطي على القليل ما لا يعطي على الكثير».

وروي أن عبد الله بن مسعود كان يقرأ القرآن في غير رمضان من الجمعة إلى الجمعة، ويقرؤه في رمضان في ثلاث، وكذلك كان تميم والأعمش يختمان في كل سبع، وكان أُبَـيّ يختمه في كل ثمان، وكان الأسود يختمه في ست، وكان علقمة يختمه في خمس، جمال القراء وكمال الإقراء لعلم الدين السخاوي ١/ ١٠٧.

وقد عقد أبو عمر الداني باباً في (كم يستحب ختم القرآن وما روي عن الصحابة والتابعين في ذلك)، في كتابه البيان في عد آي القرآن صفحة ٣٢١.

بل إن بعض الصحابة والتابعين كان يقف في قراءته عند سورة بعينها، يظل يرددها، أو آية بخصوصها، فلا يزال يكررها، طلباً للتدبر، وخشوعاً لجلال المعنى، وكان إمامهم في ذلك وقدوتهم رسول الله ﷺ.

فقد روي عن أبـي ذر رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قام ليلة من الليالي يقرأ آية واحدة الليل كله حتى أصبح، بها يقوم، وبها يركع، وبها يسجد ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة: ١١٨]، وعن تميم الداري أنه أتى المقام ـ في الكعبة الشريفة ـ ذات ليلة، فقام يصلي، فافتتح السورة

التي تذكر فيها الجاثية، لما أتى على هذه الآية: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية: ٢١]، لم يزل يرددها حتى أصبح، وعن ابن مسعود أنه لم يزل يردد: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه]، حتى أصبح. وعن عامر بن عبد القيس أنه قرأ من سورة المؤمن ـ غافر ـ فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ ﴾ [غافر: ١٨] لم يزل يرددها حتى أصبح. وروي عن أسماء بنت أبـي بكر الصديق رضي الله عنهما أنها افتتحت سورة الطور فلما انتهت إلى قوله تعالى: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الطور] ذهبتُ إلى السوق في حاجة، ثم رجعت وهي تكررها، وهي في الصلاة أيضاً.

وعن سعيد بن جبير أنه ردد هذه الآية في الصلاة بضعاً وعشرين مرة: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة]، وعنه أيضاً أنه استفتح بعد العشاء الآخرة بسورة: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾، فلم يزل فيها حتى نادى منادي السحر. المرشد الوجيز ص ١٩٥ ـ ١٩٧.

فمدار الأمر في تلاوة القرآن على التدبر واستحضار المعاني، وتأمل الإشارات وتبين الدلالات، فمن أنس في نفسه قدرة وجلادة، مع تحقيق هذه الغايات وتعهد الواجبات الأخرى من الفرائض والنوافل، ومن سعى في أمور المعاش وإعمار الحياة، فليقرأ ما شاء الله له أن يقرأ، على ألا يزيد على السنة المأثورة.

وللحافظ الذهبـي هنا كلام جيد، ينبغي ذكره وتأمله، قال رضي الله عنه، تعقيباً على حديث عبد الله بن عمرو بن العاص السابق: «وصح أن رسول الله ﷺ نازله إلى ثلاث ليال، ونهاه أن يقرأه في أقل من ثلاث، وهذا كان في الذي نزل من القرآن، ثم بعد هذا القول نزل ما بقي من القرآن. فأقل مراتب النهي أن تكره تلاوة القرآن كله في أقل من ثلاث. فما فقه ولا تدبر من تلا في أقل من ذلك، ولو تلا ورتل في أسبوع، ولازم ذلك لكان عملاً فاضلاً، فالدين يسر، فوالله إن ترتيل سُبع القرآن

في تهجد قيام الليل، مع المحافظة على النوافل الراتبة، والضحى، وتحية المسجد، مع الأذكار المأثورة الثابتة والقول عند النوم واليقظة، ودبر المكتوبة والسحر، مع النظر في العلم النافع، والاشتغال به مخلصاً لله، مع الأمر بالمعروف، وإرشاد الجاهل وتفهيمه، وزجر الفاسق، ونحو ذلك، مع أداء الفرائض في جماعة بخشوع وطمأنينة وانكسار وإيمان، مع أداء الواجب، واجتناب الكبائر، وكثرة الدعاء والاستغفار والصدقة وصلة الرحم، والتواضع، والإخلاص في جميع ذلك: لشغل عظيم جسيم، ولمقام أصحاب اليمين وأولياء الله المتقين، فإن سائر ذلك مطلوب، فمتى تشاغل العابد بختمه في كل يوم، فقد خالف الحنيفية السمحة، ولم ينهض بأكثر ما ذكرناه، ولا تدبر ما يتلوه.

هذا السيد العابد الصاحب ــ يعني عبد الله بن عمرو بن العاص ــ كان يقول لما شاخ: ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ، وكذلك قال له عليه السلام في الصوم، وما زال يناقصه حتى قال له: «صم يوماً وأفطر يوماً، صم صوم أخي داود عليه السلام»، وثبت أنه قال: «أفضل الصيام صيام داود»، ونهى عليه السلام عن صيام الدهر، وأمر عليه السلام بنوم قسط من الليل، وقال: «لكني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وكل من يزم نفسه ــ أي يمنع ويكبح ــ في تعبده وأوراده بالسنة النبوية يندم ويترهب ويسوء مزاجه، ويفوته خير كثير من متابعة سنة نبيه الرءوف الرحيم بالمؤمنين، الحريص على نفعهم، وما زال ﷺ معلماً للأمة أفضل الأعمال، وآمراً بهجر التبتل والرهبانية التي لم يبعث بها، فنهى عن سرد الصوم أي تواليه وتتابعه ــ ونهى عن الوصال ــ في الصوم ــ وعن قيام أكثر الليل إلا في العشر الأخير ــ يعني من رمضان ــ ونهى عن العزبة ــ عدم الزواج ــ للمستطيع ونهى عن ترك اللحم، إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي.

فالعابد بلا معرفة لكثير من ذلك معذور مأجور، والعابد العالم بالآثار المحمدية المتجاوز لها، مفضول مغرور، وأحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن

قلَّ. ألهمنا الله وإياكم حسن المتابعة، وجنبنا الهوى والمخالفة». سير أعلام النبلاء ٣/ ٨٤ ــ ٨٦.

وذكر الذهبـي أيضاً في ترجمة «أبـي بكر شعبة بن عياش، أنه مكث نحواً من أربعين سنة يختم القرآن في كل يوم وليلة مرة، وعلق على ذلك فقال: «وهذه عبادة يخضع لها، ولكن متابعة السنة أولى، فقد صح أن النبـيّ ﷺ نهى عبد الله بن عمرو أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث، وقال عليه السلام: «لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث». سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٤٢.

وكذلك ذكر في ترجمة «وكيع بن الجراح» أنه كان يصوم الدهر، ويختم القرآن كل ليلة، وعقب على ذلك فقال: «هذه عبادة يخضع لها، ولكنها من مثل إمام من الأئمة الأثرية مفضولة، فقد صح نهيه عليه السلام عن صوم الدهر، وصح أنه نهى أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث، والدين يسر، ومتابعة السنة أولى». سير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٣.

ومن قبل الذهبـي، ذكر خطيب السنة الإمام الجليل أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، في كتابه تأويل مشكل القرآن ص **٢٣٣**، قال: «ولم يفرض الله على عباده أن يحفظوا القرآن كله، ولا أن يختموه في التعلم، وإنما أنزله ليعملوا بمحكمه ويؤمنوا بمتشابهه، ويأتمروا بأمره، وينتهوا بزجره، ويحفظوا للصلاة مقدار الطاقة، ويقرءوا فيها الميسور. قال الحسن ــ البصري ــ نزل القرآن ليعمل به فاتخذ الناس تلاوته عملاً.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم ــ وهم مصابيح الأرض وقادة الأنام ومنتهى العلم ــ إنما يقرأ الرجل منهم السورتين والثلاث والأربع، والبعض والشطر من القرآن، إلا نفراً منهم وفقهم الله لجمعه، وسهل عليهم حفظه، قال أنس بن مالك: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا، أي جل في عيوننا، وعظم في صدورنا».

وفي تفسير القرطبـي ١/ ٤٠، عن ابن عمر قال: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرأون القرآن، منهم الصبـي والأعمى، ولا يرزقون العمل به».

اللَّـٰهُمَّ حبب إلينا القرآن، وأذقنا حلاوته، وارزقنا تلاوته وفقهه والعمل به آناء الليل وأطراف النهار ــ واجعله أنيساً لنا في هذا الزمان الذي ذهب فيه من يؤنس به ويستراح إليه، واجعله اللَّـٰهُمَّ ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجِلاء ــ بكسر الجيم ــ حزننا، وذهاب ــ بفتح الذال ــ همِّنا، واجعلنا ممن يرعاه حق رعايته، ويقوم بقصده، ويوفي بشرطه، ولا يلتمس الهدي في غيره، ويرحم الله عبداً قال آمينا.

* * *

البيان.. والطريق المهجور[1]

[١]

من أجلِّ نعم الله على عباده: نعمة البيان، وقد امتنَّ الله على عباده بهذه النعمة، فذكرها في أشرف سياق، فقال تقدَّست أسماؤه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾.

ولا ينبغي أن يكون المراد بالبيان هنا مجرد الكشف عما في النفس لقضاء الحاجات واتصال مصالح العباد، لأن الكشف عما في النفس يؤديه الكلام وهيئة الحال والإشارة والعلامة، وليس المراد أيضاً بالبيان مطلق الكلام، لأن هذا مما يستوي فيه الناس جميعاً، ولا يفضل بعضهم بعضاً فيه إلا بما يكون من سلامة مخارج الحروف، واستواء النطق، والبراءة من أسباب العِيّ والحصَر والحُبسة.

لكن المراد بالبيان: الإحسان في تأدية المعاني، يقول أبو الحسن الرماني: «وليس يحسن أن يطلق اسم بيان على ما قبُح من الكلام، لأن الله قد مدح البيان واعتد به في أياديه الجسام، قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾، ولكن إذا قيد بما يدل على أنه يعني به إفهام المراد جاز»، النكت في إعجاز القرآن ص ٩٨.

وقد مدحوا البيان وعظموا شأنه، فقالوا: البيان بصر والعي عمى، كما أن العلم بصر والجهل عمى، والبيان من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهل، وقال

---

(١) مجلة «الهلال»، مارس ١٩٩٥م.

يونس بن حبيب: «ليس لعيي مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حكّ بيافوخه أعنان السماء»، راجع البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٧٧، ثم انظر مقالة الشيخ عبد القاهر الجرجاني في فضل البيان، في دلائل الإعجاز ص ٥.

ووجوه الإحسان في تأدية المعاني كثيرة، ومنادحها واسعة، ولا يكاد يظفر بها إلا من وهب لطافة الحس وخفة الروح ورحابة النفس، والارتياح والطرب لمظاهر إبداع الله عزَّ وجلّ في هذا الكون، وما بثه في ملكوت السموات والأرض، وما أجراه على ألسنة خلقه، أما «أهل الكثافة» وهم الذين امتحنهم الله بثقل الظل وركود الهواء، فما أبعدهم عن البيان والإحسان:

وهُلْك الفتى ألاّ يَراح إلى الندى   وألا يرى شيئاً عجيباً فيعجبا

ثم إن هذه المواهب التي يمتن الله بها على من يشاء من عباده، لا بد لها لكي تؤتي ثمارها عند الأدباء وأرباب البيان، من طول دربة ومعالجة يأتيان بكثرة النظر في الأساليب العالية الشريفة، من بديع الشعر وكريم النثر، ثم معاشرة الأصفياء أصحاب الفطر السوية والطبائع النقية والفرار من مخالطة «أهل الكثافة»، فإن مجالسة الثقلاء حمّى الروح كما قال بختيشوع بن جبريل للخليفة المأمون، لطائف الظرفاء لأبي منصور الثعالبي ص ٧٠.

ونحن أمةَ العرب أمة بيان وفصاحة، ولغتنا معينة على ذلك بما أودع فيها من خصائص شعرية في الحروف والأبنية والتراكيب، ثم هذه الثروة الهائلة من الأسماء والأفعال، والمترادف والمشترك والأضداد، ولغتنا معينة أيضاً على البيان والفصاحة بهذه القوانين الرحبة الواسعة من الحقيقة والمجاز، والسماحة في تبادل وظائف الأبنية، كالذي يقال من مجيء فعيل بمعنى فاعل وبمعنى مفعول وبمعنى مُفْعِل، وتبادل وظائف الإفراد والتثنية والجمع ووقوع بعضها موقع بعض، والتساهل في التعبير عن الأزمنة، كالتعبير عن الماضي بالمستقبل، وبالمستقبل عن الماضي، إذا اقترن بالفعل ما يدل على زمانه، ووقوع بعض حروف الجر مكان بعض، وتذكير ما حقه التأنيث وتأنيث ما حقه التذكير، والحمل على المعنى، والحمل على اللفظ،

وحرية التعامل مع الضمائر، غيبة وحضوراً فيما يعرف بالالتفات، والتعويل على القرائن والسياق في تخليص الكلام من كثير من الفضول والزوائد، وهو باب الحذف الذي يجعله ابن جني من باب «شجاعة العربية» وهو تعبير عجيب، انظره في كتابه الفذ: الخصائص ٢/ ٣٦٠، إلى سائر قوانين اللغة وأعرافها، حتى علم النحو الذي يظن به العسر والتشدد، ولو تأملته حق التأمل لوجدت فيه كثيراً من الرخص والإباحة، على ما قاله الأصمعي: «من عرف كلام العرب لم يكد يلحِّن أحداً».

ولقد تضوأت هذه اللغة العربية الشريفة على ألسنة الشعراء والخطباء، شعراً شجي النغم، ونثراً حلو الوقع، فيما بقي لنا من أدب الجاهلية. ثم كان مجلى هذه اللغة العزيزة كلام ربنا عزَّ وجلّ، بما نزل به جبريل الأمين على خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ، في هذا البيان الذي لا يطاوله بيان، ثم ألقى ربنا تباركت أسماؤه على لسان نبيه المصطفى بياناً عالياً آخر، هو ما نطق به ﷺ من جوامع الكلم: فصاحة صافية المورد، وبلاغة عذبة المشرع، ومنطقاً صائب الحجة.

وقد جرت لغتنا العربية بما حملته من أدب الجاهلية، وبيان الكتاب العزيز، والحديث الشريف، على أقلام الكتاب وألسنة المتكلمين وقصائد الشعراء: بياناً يأخذ منه الناس بما قدر لهم من رزق الله المقسم على خلقه، فتفاوتت حظوظهم في ذلك، فمنهم من أحسن، ومنهم من قارب، لكن البيان ظل هدفاً يسعى إليه، وغاية يشتد الناس في طلبها، ومعياراً يلجأ إليه النقاد في الحكم على الكلام وإعطاء الأدباء حقهم من التقديم والتأخير، ولعل أول من أصَّل هذا الفن هو أديب العربية الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، حين صنع كتابه الذي جعل عنوانه دالاً بصريح اللفظ على الغاية التي تغيَّاها منه، وكان كتاب الجاحظ هذا مع كتاب معاصره والراوي عنه أبي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة «عيون الأخبار»، هما الأساس الأول في إرساء قواعد هذا الفن «البيان» بذكر الأدوات الموصلة إليه والمعينة عليه، من ذكر كلام العرب وخطبها وشعرها ومحاوراتها وأجوبتها المسكتة، وتوالت الكتب في هذا الطريق، ككتب الأمالي والمجالس والمختارات

والحماسات، مع عناية ظاهرة باللغة والغريب، تمثلت في أمالي أبـي علي القالي ومجالس أبـي العباس ثعلب.

ولم تكن كتب هذا اللون من التأليف قاصرة على الأدباء واللغويين فقط، بل دخل فيها الحفاظ والفقهاء أيضاً، كالذي رأيناه من كتاب «بهجة المَجالس وأنس المُجالس وشحذ الذهن والهاجس»، لفقيه الأندلس الحافظ المحدث أبـي عمر بن عبد البر القرطبـي، صاحب كتاب «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، وصاحب «الاستيعاب في طبقات الأصحاب». وكتابه هذا «بهجة المجالس» من المجاميع الأدبية العظيمة، ويقول فيه ابن سعيد، بعدما ذكر مصنفاته في الفقه والحديث والتراجم: «مع أنه في الأدب فارس، وكفاك دليلاً على ذلك كتاب بهجة المجالس». المُعرب في حلى المَغرب ٢/٤٠٨، وهذا ابن عبد البر الفقيه المحدث هو الذي جمع ديوان أبـي العتاهية، وعن نسخته كانت نشرة الدكتور شكري فيصل رحمه الله.

وهكذا كان الأدب مشرعاً يرده الناس جميعاً، وغبرت أجيال ونشأت أجيال، حتى جاء ابن خلدون في القرن التاسع ليخبرنا أن كتب الأدب هي: أدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، والأمالي ــ أو النوادر ــ لأبـي علي القالي، ويريد ابن خلدون أن يقول: إن هذه الأصول هي مكونات الأديب.

البارودي والمرصفي:

وطويت أيام ونشرت أيام، حتى كان العصر الحديث، وجاء رجال البعث والإحياء، هؤلاء الذين ردوا الناس إلى أصولهم الأدبية، وكشفوا عن تلك المناجم الغنية الضاربة في التاريخ بعروقها، فكان الشاعر محمود سامي البارودي و «مختاراته»، والشيخ حسين المرصفي و «الوسيلة الأدبية»، والشيخ سيد بن علي المرصفي و «رغبة الآمل من شرح كتاب الكامل»، وما قرأه على تلاميذه من «شرح حماسة أبـي تمام»، وبعدهما كان الشيخ حمزة فتح الله وكتابه الجيد «المواهب الفتحية»، فكانت هذه الآثار كلها زاداً ومدداً للجيل التالي.

ولقد كان من حسن حظنا نحن أبناء هذا الجيل أننا فتحنا عيوننا وعقولنا في أوائل الخمسينات، ورأينا القاهرة قبل أن يدهمها السيل وتغشاها المحن والنوائب، وكان من صنع الله لنا أننا نعمنا بثمرات دار الكتب المصرية: قراءة في قاعة المطالعة الشهيرة بها، واستعارة باشتراك زهيد متاح لطلبة العلم. وأخذنا نتضلع بالقراءة لتلاميذ مدرسة البعث والإحياء المذكورة، وفيما يتصل بالبيان كان هناك اسمان كبيران: مصطفى صادق الرافعي، ومصطفى لطفي المنفلوطي، وقد شق علينا الرافعي في أول الأمر.

ووجدنا في المنفلوطي واحة خصبة عامرة بالندى والأزاهير، فأي جنة فتحها لنا هذا المنفلوطي في ذلك الزمان؟ وكم دموع أراقها، وكم قلوب خفقت على بيانه الحلو الآسر الذي انساب في «العبرات» و «الشاعر أوسيرانو دي برجراك» و «الفضيلة» و «ماجدولين»، ولئن كنا قد فرغنا من المنفلوطي بعد حين، فإن أثره الضخم الذي لا ينسى أنه حبب إلينا القراءة جملة، فإن هذه الليالي التي قضيناها مع بيانه المعجب الأخاذ لم تضع سدى، لأنها وثقت صلاتنا بالأدب عامة وبالبيان خاصة.

ومن عجب أن المنفلوطي هو الذي ردنا إلى الرافعي، وعند هذا الرافعي وجدنا دنيا أخرى حافلة بالغرائب والعجائب، لكن صورة الرافعي لم تأخذ حجمها الحقيقي عندي إلا بعد أن اتصلت بتراث الآباء والأجداد فيما قرأت وفيما نسخت وفيما حققت، وأيضاً حين توثقت علاقتي بصاحبه ووارث أدبه وعلمه أبي فهر محمود محمد شاكر، فعرفت أن هذا من ذاك، وأنها ذرية بعضها من بعض، وإن كنت أرى أن بيان أبي فهر لا يشبهه بيان، وأن علمه لا يقرن به علم، على ما فصلت في كلمتي عن كتابه الماتع «المتنبي» في الجزء الأول من «موسوعة عصر التنوير» التي أصدرها الهلال، ولو كتب أبو فهر الآن ــ وهو في هذه السن العالية ــ لزلزل الدنيا، ولرأيت ثم نعيماً وعلماً كبيراً، فهل تستجيب يا أبا فهر؟ وهل أنت مخرج ما عندك من «حديث الأحرف السبعة» و «مداخل إعجاز القرآن» و «كتاب الشعر»، شرح الله لك صدرك، وأمتع أهل الأدب ببقائك.

ولئن كانت مدرسة البيان قد عرفت يومئذ في كتابات الرافعي والمنفلوطي والزيات ومحمد صادق عنبر، فإن سائر الأدباء والكتاب لم يكونوا بعيدين عنها، لأن حسن البيان وتجويد العبارة كانا لازمين لكل كاتب يريد لكتابته أن تقرأ، ولكل مفكر يريد لأفكاره أن تذيع، فلقد كان الأدب ولا يزال خير سبيل لإيصال المعرفة، وسرعة انصبابها إلى السمع وتولجها في القلب واستيلائها على النفس، والبليغ يضع لسانه حيث أراد، وإنك لتجد كثيراً من الدراسات قد جمعت فأوعت لكنها لم تبلغ مبلغها من النفع والفائدة لجفافها وعسرها، و «حسن البيان يُرِي الظلماء كالنور» على ما قال الشاعر.

ولقد كنا في زمان الصبا نظن أن أسلوب «العقاد» معقد، حتى كبرنا واستطعنا أن نميز الخبيث من الطيب، فوقعنا عند «العقاد» على مناطق من البيان وحلاوة الأداء هي الغاية والمنتهى.

وكذلك سائر الكتَّاب والأعلام ممن لا يصنفون مع الأدباء كانوا أصحاب فصاحة وبيان، فمكرَم عبيد السياسي الشهير والمحامي الجهير كان أديباً وصاحب بيان، ثم كان كثير الاستشهاد بالقرآن الكريم، وفتحي رضوان المحامي الضليع وأحد أقطاب الحزب الوطني كان كاتباً صاحب بيان، والدكتور أحمد عمار طبيب النساء الشهير كان لغويّاً صاحب بيان، والدكتور محمد كامل حسين طبيب العظام الشهير كان أديباً صاحب بيان، وهو صاحب القصة الشهيرة في الخمسينات «قرية ظالمة»، والدكتور محمد الصياد الجغرافي الكبير كان شاعراً صاحب بيان، وسيد إبراهيم الخطاط العظيم كان شاعراً صاحب بيان، وهو أحد مؤسسي جماعة أبولو، والدكتور حسن حبشي عالم التاريخ شاعر وصاحب بيان، والدكتور محمد يوسف حسن الجيولوجي الكبير، وعميد كلية العلوم بجامع الأزهر سابقاً وعضو مجمع اللغة العربية الآن، أديب يحفظ شعر أبـي العلاء حفظاً عالياً، وله في اللغة نظرات جياد نسعد بها في لجنة المعجم الكبير بالمجمع.

ومن وراء هؤلاء طوائف لا تحصى من الأدباء المجيدين الأغفال أصحاب

البيان، كنت تقرأ لهم في الصحيفة اليومية والمجلة الأسبوعية، ثم كنت تراهم في فصول المدارس الابتدائية والثانوية، يروِّضون صغار التلاميذ على البيان، ويجمعون لهم «عناصر موضوع الإنشاء» الذي صار الآن «التعبير» ولا تعبير هناك ولا عبارة، ثم كانوا يخوضون بهم لجج بحار الشعر والنثر فيما كان يعرف بالمحفوظات والمطالعة.

حسن البيان:

وقد ذهبت تلك الأيام بحلاوتها ونضارتها وصرنا إلى هذا الزمان الذي زهد الناس فيه في حسن البيان، وهجروا طريقه هجراً يوشك أن يكون تاماً، وأصبحت أساليب كثير من الكتاب، ومن ينتسبون إلى الأدب الآن تدور في فلك ألفاظ مستهلكة تشبه العملة المعدنية الممسوحة، أو العملة الورقية التي تهرَّأت أطرافها من كثرة ما تداولتها الأيدي، أو كالعملة الزائفة التي ليس لها رصيد في مصرف النفس، وإنما هي ألفاظ وتراكيب تُسَوَّد بها الصحف، تروح وتجيء، تتجاوزها عينك على عجل، لا تقف عندها، لأنك لا تجد فيها إمتاعاً، ولا تحس معها أنساً، فضلاً عما تجده في بعضها من ثقل وغثاثة، تكاد تطبق على القلب وتسد مجرى النفس ـــ وما أمر «الزخم» منك ببعيد ـــ إلى هذه البلية المستحدثة، وهي بلية الغموض الذي يندفع فيه كثير من الأدباء الآن، وليس هو الغموض الذي يحرك النفَس لتستخرج بحسن التأمل خبيء الكلام ومطوي المشاعر، ولكنه الغموض المظلم الذي يكد العقل، ويكون مجلبة للغم والكآبة، غموض العجز والحيرة.

وهذه الألفاظ والتراكيب التي يستعملها بعض أدباء هذا الزمان، أشبه بتقاليع (الموضة) تظهر ثم تختفي، لا تعرف ثباتاً ولا استقراراً، فقد كنا نسمع في الستينات ـــ كما ذكرت في مقال سابق بالهلال ـــ الوحدة الموضوعية، والمعاناة، وعمق التجربة والخلق وتراسل الحواس، والمونولوج الداخلي، والدفقة الشعورية، والتعبير بالصورة، والألفاظ الموحية، والشعر المهموس. والآن نسمع: الإبداع وتكثيف التجربة، والزخم (والعياذ بالله) والطرح، والمنظومة والإشكالية والتناص والتماهي والتفجير والتفكيك... وهذا وأشباهه إنما هو كما قال ابن قتيبة منذ

(١٢٤٠) سنة في مقدمة أدب الكاتب: «ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم، فإذا سمع الغُمْر ــ أي الجاهل ــ والحدث الغِرُّ قوله: الكون والفساد وسَمِع الكيان... راعه ما سمع، فظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة، فإذا طالعها لم يحل منها بطائل»، أو كما قال أبو السعادات ابن الشجري: «تهاويل فارغة من حقيقة» الأمالي ١/ ٥٦، ولا يغرنَّك أيها القارىء المبتدىء اجتماع الكتاب على هذه الألفاظ، وكثرة استعمالهم لها، فإن الاستعمال ليس بدليل على الحسن، كما يقول ضياء الدين ابن الأثير في المثل السائر ١/ ٢٢١.

إن كثيراً مما يكتب الآن لا صلة له بالعربية إلا صورة الحروف والأبنية من الأسماء والأفعال، أما روح العربية وآمادها الرحبة الواسعة فلا تجدها في أسلوب مما تقرأ، ولا في كلام مما تسمع، إني أحس أحياناً أن هؤلاء الذين يكتبون أدباً عربيّاً لم يمروا بالقرآن ولا بالبيان النبوي، ولا بكلام العرب، فإن ثروتهم اللفظية محدودة جدّاً، وتصرفهم في وجوه الكلام قصير الخطو، منقطع النفَس، ولذلك تأتي معانيهم هزيلة خفيفة. لأن ضيق الألفاظ يؤدي إلى ضيق المعاني، كما يقول عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز.

ومن الكلام الحكيم للجاحظ في هذه البابة قوله: «والأصل في ذلك أن الزنادقة أصحاب ألفاظ في كتبهم، وأصحاب تهويل، لأنهم حين عدموا المعاني ولم يكن عندهم فيها طائل، مالوا إلى تكلف ما هو أخصر وأيسر وأوجز كثيراً» الحيوان ٣/ ٣٦٥.

وهؤلاء الذين يزعمون أنهم ورثة طه حسين لم يسيروا في طريق بيانه، ولم يحاكوا حلاوة أدائه، وكان له في ذلك مستراد ومذهب، فانتماؤهم لطه حسين إذن انتماء كاذب وولاء منقوص.

وأيضاً هؤلاء الذين يتحدثون عن التنوير ورموز التنوير، لم يمروا بأدب أعلام هذا التنوير، ولم يسلكوا طرائقهم في معرفة العربية ورعاية قوانينها في حسن الأداء وجمال العبارة.

إن الذين يشكون الآن من «الأغاني الهابطة» لا ينبغي أن ينسوا أن هذه القضية مرتبطة بألـوان الأدب الأخرى، وأن البيان كلـه من بـاب واحـد، فيوم أن كان عندنا أدبـاء بيـان كبـار، كالمنفلوطـي والزيـات، كان عندنـا كتاب أغان كبار، مثل أحمد رامـي وبيـرم التـونسي وعبـد الفتـاح مصطفـى وحسين السيد، لأن كلام الناس ينزع بعضه إلى بعض، ويأخذ بعضه برقاب بعض، وقد أنشدتك أيها القارىء الكريم من قبل قول ابن الرومي:

«وبعـض السجـايـا ينتسبـن إلـى بعـض»

ولن تجد مع كثرة الغبار إلا قذى العيون.

والآن إذا أردت أيها القارىء العزيز أن تعرف سر هذا التردي في الكتابة، ومجافاة حسن البيان، والإعراض عن جمال العبارة، أعجزك أن ترده إلى سبب واحد أو سببين اثنين، وإنما هي أسباب كثيرة تداخلت وتشابكت، وسيأتيك حديثها ــ إن شاء الله ــ في المقال التالي.



البيان.. والطريق المهجور[1]

[٢]

وقفت في المقال السابق عند أسباب التردي في الكتابة ومجافاة حسن البيان وجمال العبارة، وقلت إن ذلك يرجع إلى أسباب كثيرة، أرجأت الحديث عنها إلى هذا المقال.

وبدءة ذي بدء لا أحب لك أيها القارىء العزيز أن تقول كما يقولون: إنها طبيعة العصر، وسرعة إيقاع الحياة، لا يدعان للكاتب فرصة لأن يحسن ويزين ويتأنق، كما أني لا أرضى لك أيها الشاب المبتدىء أن تصدق ما يقولونه من أن لغتنا العربية هي لغة الخيل والليل والبيداء، وأن زمانها قد راح وولى، وأن هذا عصر الكمبيوتر، فافسحوا له الطريق، لا أحب هذا لقارئي ولا أرضاه له.

وذلك لأن حسن البيان قيمة جمالية، والقيم الجمالية باقية ثابتة، لا تتغير بتغير الأيام وتبدل الأحوال، والفطر السوية تطرب للكلمة الحلوة، كما تطرب لهديل الحمام وزقزقة العصافير، وحفيف الشجر في ليلة طيبة الهواء، والعطر الفواح ينعشك سواء ركبت جملاً أو طائرة، ولا زلنا مع تغير الأصوات وتحولات الموسيقى نستقبل رمضان بأغنية أحمد عبد القادر «وحوي يا وحوي» كما نستقبل العيد بشدو أم كلثوم «يا ليلة العيد أنِسْتينا» و «حبيبي يسعد أوقاته» وإن كانت هذه قد قيلت في عيد جلوس «فاروق» ملك مصر.

---

(١) مجلة «الهلال»، أبريل ١٩٩٥م.

ولا أظن أنه سيأتي يوم لا يطرب الناس فيه لصوت الشيخ مصطفى إسماعيل وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، إن الأنغام متوارثة في الأنفس، والجمال مصون في تلافيف القلوب، والطرب مركوز في الطباع، فلا يخدعنك عن الحق غلبة الباطل، ولا يزهدنك في الطيب كثرة الخبيث.

ثم أعود بك أيها القارىء الكريم إلى **أسباب محنتنا فيما نكتب وفيما نقول**، وقد جمعت لك أسباباً شتى، ولعلك جامع إليها أسباباً أخرى بصائب نظرك، وحسن تأتِّيك، وتهدِّيك إلى ما لم أهتد إليه:

أولاً: ذهاب الكبار بالموت أو بالملل أو بالمصانعة: والموت لا مردَّ له ولا حيلة فيه، وبموت الكبار يضيع الصغار ويذهب العلم، أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكنْ يَقْبِضُ العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتَوْا بغير علم فضلُّوا وأضلُّوا»، صحيح البخاري (باب كيف يقبض العلم، من كتاب العلم) ١/ ٣٦.

أما الملل فهو من كواذب الأخلاق، كما جاء عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، على أن بعض كبار أدبائنا معذورون فيما دفعوا إليه من الملل، لما يرونه من فساد لم ينشأوا عليه، ولما حاق بهم من أذى أضيروا منه.

وأما المصانعة فهي داء خبيث، لا معذرة له ولا مسامحة فيه، وبالمصانعة هذه خاض بعض كبارنا فيما يهزل به مدَّعو الأدب والحداثة، وكأن هؤلاء الكبار خشوا على أنفسهم آفة النسيان، وأرادوا أن يكونوا ظاهرين في الأرض، وكأنهم يقولون: لأن نكون في جلبة الأضواء خير من أن نكون في صمت الظلام، وهم يعلمون في دخيلة أنفسهم أن هذه الأضواء خادعة، وأن مدها منقطع، لأن مُولِّدها ضعيف، ولا ينقضي عجبي من بعض هؤلاء الكبار، وهم من تلاميذ طه حسين وأمين الخولي وأحمد أمين ومصطفى السقا وإبراهيم أنيس، وبقية هذا الجيل العظيم، كيف يسكتون على هذا العبث، بل كيف يتعاملون معه ويحضرونه

ويقدِّمونه، بل ويدافعون عنه، وهم يعلمون باليقين الذي لا يدخله شك أنه لا طائل تحته ولا غناء فيه.

ثانياً: قلة المحصول اللغوي عند الكتاب: والقلة تغري بالقلة، والفقر يقود إلى الفقر (وهذا كلام موزون وقع لي اتفاقاً من غير قصد كما ترى)، ولو تأملت ما يكتبه كثير من الأدباء الآن لوجدته يدور حول طائفة محدودة من أبنية الأسماء والأفعال والحروف، مع العجز عن تحريكها والتصرف فيها وفق قوانين العربية التي حدثتك عنها في المقال السابق، وإنما هي أبنية وأدوات ترص رصاً، بلا دم ولا روح، وكأنها الدمى، وكأن ذلك الأديب يكتب بلغة أجنبية ليس له بها أنس، ولا يشده إليها تاريخ وموروث.

وليس يخفى أن قلة المحصول اللغوي والعجز عن التصرف في الكلام إنما يرجعان إلى قلة القراءة وضعف الزاد، فالأديب لكي يكتب أدباً عالياً جميلاً لا بد أن يكون على صلة لا تنقطع بالقراءة، وأن يجعل من يومه نصيباً مفروضاً للمراجعة والاستزادة، فالإبداع ــ كما يقال في هذه الأيام ــ لا بد له من مدد، والمدد ليس له إلا طريق واحد، هو القراءة الرشيدة المستمرة، ثم التأمل.

وتقرأ في كتب التراجم والطبقات أن العالم الفلاني صنف الكتاب الفلاني بعد أن قرأ له كذا كتاباً، فالصالحي الشامي المتوفى سنة ٩٤٢، يذكر أنه ألف كتابه «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» من أكثر من ثلاثمائة كتاب، وروى عن إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٧٨، أنه قال: «ما تكلمت في علم الكلام كلمة حتى حفظت من كلام القاضي أبـي بكر وحده اثني عشر ألف ورقة»، طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ٥/ ١٨٥، وأبو بكر في هذا النص هو محمد بن الطيب الباقلاني، من كبار المتكلمين الأشاعرة، وصاحب «إعجاز القرآن»، فهذا أثر القاضي أبـي بكر وحده في محفوظ إمام الحرمين، فكيف يكون أثر العلماء الآخرين؟

لكن الملاحظ والمشاهد الآن أن الأدباء يتكلمون أكثر مما يقرأون، وأن ما تقرأه من مصطلحات في القصة والرواية والشعر والنقد، إنما هي مسموعات، تتردد في الندوات، يتلقفها بعض من بعض، ولا خير في ذلك كله، فقد قال ابن قيم الجوزية: «من لم تنفعه عينه لم تنفعه أذنه».

ثالثاً: تسويغ العجز باصطناع نظريات تمهد له وتسانده: وفي ذلك الطريق جاءت مغالطات شتى، وجاء خداع كثير، فقيل مثلاً: إن العناية بتحسين العبارة أصباغ وزخارف، وأنها تكون على حساب المعاني والأفكار، وأن التفكير والموضوعية يأبيان الزخارف والأصباغ، وأن غايتهما الحقائق ليس غير، وقد تبع ذلك التفرقة بين الأسلوب الأدبي والأسلوب العلمي، تفرقة تفضي في نهاية الأمر إلى التهوين من الأسلوب الأدبي، ووصف من يحسن البيان بأن كلامه «كلام إنشاء»، وقولهم في سياق المدح: إن فلاناً يكتب كما يتكلم.

وقيل أيضاً: لا ينبغي التعامل بالكلام المأثور، حتى لا يجد القارىء نفسه يتعامل في المنزل والشارع بلغة، وفي الكتاب بلغة الشعر الجاهلي، وأننا يجب أن نصطنع لغة تقرب الفجوة بين الشارع والكتاب، وهذا كلام غير صحيح ــ فضلاً عما فيه من لعب وخداع ــ لأن هذه الفجوة لا بد أن تكون قائمة وثابتة، ففي كل لغات الدنيا فرق بين لغة العامة ولغة الخاصة (وانظر مقالتي عن الشيخ الشعراوي واللغة ــ ص ٢٨٠، وتقديمي لكتاب الأستاذ محمود رؤوف أبو سعدة: من إعجاز القرآن ــ ص ٢٧٠).

وقيل أيضاً: إن أحسن الأساليب هو ما لا يحتاج معه القارىء إلى مراجعة معجم، وهذا مما يفتتن به الشباب المبتدئون، والكلام مقلوب، والقضية معكوسة، فإننا إذا لم نراجع لبعض ما نكتب شيئاً من المعاجم فإننا نكون قد وقعنا في حمأة العامية والكلام السوقي، واستوى في ذلك عالمنا وجاهلنا. ولماذا كانت المعاجم، ولأي غاية وضعت؟

حسن البيان:

ولقد كان من أشنع الخطأ هنا وأغلظه: الخلط بين المحسِّنات اللفظية وتحسين العبارة، وبينهما فرق لا يخفى، فالمحسِّنات اللفظية هي أنماط تعبيرية محصورة في قواعد محددة بشواهد معينة، أما تحسين العبارة الذي هو البيان، فمجاله واسع رحب، وهو قائم على أسباب كثيرة، من الغنى اللغوي، واختيار الأبنية الشاعرة المتجانسة، من الأسماء والأفعال والأدوات، وإحكام بناء الجمل وحسن تنسيقها، وإشاعة الألفة بينها، وقدرة الكاتب في ذلك كله على أن ينشىء علاقة أنس بين قارئه وبين ما يكتب، إن الكاتب المبين يجعلنا نحب بعض الكلمات ونعشقها، ترى هذا في أسلوب الجاحظ وأبـي حيان التوحيدي (إذا نسي مشاكله النفسية) ومصطفى صادق الرافعي، ومحمود محمد شاكر.

وحسن البيان لا يمنع من الإلمام بهذه المحسِّنات اللفظية إذا جرت على قلم الكاتب في حاق موضعها غير متكلَّفة ولا مستكرهة.

على أن هذه المحسِّنات اللفظية ليست سيئة السمعة، على نحو ما يلقيه بعض أساتذة البلاغة على طلبتهم، وأنها قائمة على التكلف والتزييف، إن المحسِّنات اللفظية باب ضخم من أبواب الجمال في البيان العربـي، وما يجيء منها متكلفاً يعاب ويذم، كما يعاب التكلف في كل شيء ويذم، وكيف تعاب المحسِّنات اللفظية جملة، وقد جاء منها في كلام ربنا عزَّ وجلّ وكلام نبيه ﷺ وكلام العرب وأشعارها، قدر صالح، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٦]، وقوله تباركت أسماؤه: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النمل: ٢٢]، ثم انظر «المجازات النبوية» للشريف الرضي، وشعر أبـي تمام على وجه الخصوص.

إن كثيراً من شواهد التورية والجناس تحدث إمتاعاً للنفس لا مزيد عليه، فضلاً عما يستخرجه بعضها من أسباب الضحك والبهجة، وكثير من نكاتنا المصرية تجري على هذا الباب، ولولا الجد الذي نحن فيه لأمتعتك بشيء منها.

وكأن هذه السمعة السيئة للمحسِّنات اللفظية قد استقرت عند بعض الناس ــ وهذا هو البلاء العظيم ــ فقد سمعت أحد الأساتذة في محاضرة له، وقد جاء على لسانه شيء من هذه المحسِّنات فغمغم بعض الجالسين، فقطع المحاضر كلامه كالملسوع وقال: «لا والله، دي جت كده، غصب عني!» وكأنه يبرأ من عيب يخشى أن يلحق به عاره.

وأقرأ لبعض النقاد، وأسمع لبعضهم فيما يذاع من ندواتهم تنفيراً شديداً من هذا اللون الأدبي، وتحذيراً للشباب منه، فلا أملك إلا أن أتلو قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧]، و [الحديد: ٢٤].

رابعاً: اقترن بتسويغ العجز عن جمال البيان: السخرية منه والإزراء بقائله: على ما قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١﴾ [الأحقاف: ١١]، أو كما قال أبو علي الفارسي: «من عرف ألف، ومن جهل استوحش». الأشباه والنظائر النحوية للسيوطي ٣/ ٤٦٤.

ومن أعجب العجب أن أكثر من يسخرون من البيان الآن هم بعض أساتذة العربية الذين يدرسونها في الجامعات (نحواً وأدباً وبلاغة)، وأرجو من قارئي العزيز أن يأذن لي مرة واحدة ــ إن شاء الله ــ بذكر بعض التجارب الخاصة، واستعمال ضمير المتكلم.

بين الدعابة والسخرية:

لي صديقان أحدهما طبيب والآخر صيدلي، يحبان الأدب حبّاً جمّاً، ويحرصان على قراءة ما أكتب، ويطربان جدّاً لما أجتهد فيه من ضروب البيان وتحسين العبارة، وعلى الجانب الآخر يقرأ بعض زملائي من أساتذة العربية هذا الذي أكتب، فيداعبونني بمثل قولهم: إيه الكلام ده؟ إيه الأساليب دي؟ ألفاظك كلها كلاكيع! وأعلم يقيناً أنه لولا المحبة لاستحالت هذه الدعابة سخرية لاذعة وإزراء شديداً.

ودعيت منذ خمس سنوات إلى ندوة عن «مستقبل التعليم في مصر» أقامها مشكوراً مأجوراً نادي أعضاء هيئة التدريس بجامعة أسيوط، وقدمت بحثاً عنوانه: «استثمار التراث في تدريس النحو العربي»، قدمت له بمقدمة أدرتها على شيء من البيان فتح الله به عليّ فتحاً، وقد طرب له كثير من الحاضرين، وكان أكثرهم من الشباب المعيدين والمدرسين المساعدين بكليات الطب والهندسة والعلوم والتجارة، وأخذ هؤلاء الشباب يلاحقونني فيما بين الجلسات، يطلبون المشورة والدلالة على كتب العربية التي يقرأون فيها مثل هذا الكلام الذي جرى على لساني.

أما أساتذة العربية الذين حضروا الندوة ــ ومنهم كبار في السن والدرجة ــ فقد سخروا مني سخرية شديدة، أعلنوها ولم يكتموها، وكان بعضهم يناديني هكذا: تعال يابتاع التراث، قول يابتاع التراث، ازيّك يابتاع التراث! (لكني أشهد في تلك الأيام أن الأستاذ الدكتور حامد عمار ــ وكنت قد اختلفت معه في هذه الندوة ــ قال لي ونحن في القطار من أسيوط إلى القاهرة بالحرف الواحد: يا أستاذ اثبت على ما أنت عليه، فإني سعيد أن أرى إنساناً يتحدث عن لغته وتراثه بهذه الحماسة)، وهذا إنصاف من الرجل، وهو شأن الكبار، أما الصغار فما أجرأهم على لغتهم وعلى تاريخهم، ومهما يكن من أمر فإنه من العار أن يذم الناس مذهبهم، ويهجِّنوا طريقهم، هل تعرف طبيباً يذم مهنة الطب؟ وهل تجد مهندساً يحتقر حرفة الهندسة؟ قد يشكوان إرهاقاً أو أعباءً، أما أن يكون ذم ومعابة فلا.

وقد انتقلت سخرية الأساتذة إلى تلاميذهم من معلمي العربية في مدارسنا الآن: سأل مدرس اللغة العربية التلاميذ في الثانوية العامة عن مرادف لعبارة «رغد العيش» فأجاب ابني «بُلَهْنِية» فضحك المدرس ضحكة عالية وسخر منه قائلاً: «إيه يا خويه؟» وحمدت الله أن وقف المدرس العابث بالسخرية عند هذا الحد، فإن لهذا التركيب الذي نطق به ذلك المدرس تكملة سوقية يعرفها أهل السخرية، ولعله قالها وكتمها ابني عني!

أرأيت أيها القارىء العزيز؟ إنه أمر محير فعلاً، وهو يحتاج إلى محلل نفسي لا إلى كاتب مثلي.

خامساً: الكسل والإخلاد إلى الراحة: أعرف نفراً من زملائي الجامعيين، أعرف نشأتهم العربية الأصيلة، وأقرأ لبعضهم شعراً عذب النغم، فصيح الأداء، آسر النغمة، وأحاورهم فأقع منهم على كل لطيفة ودقيقة من الفطنة والقول الحسن ولكنهم إذا كتبوا قرأت كلاماً خفيفاً يخدعك عن حقيقة أمرهم وما عندهم من العلم والأدب، ولا تفسير لذلك عندي إلا الكسل وطلب الخفة، و «طلب الخفة» مطلب نحوي، ولكنه لا يحمد في الأدب والبيان.

ويبقى أن أقول: إن إهمال البيان والتأنق في الكلام وتحسين العبارة قد أدى إلى هجر كثير من أبواب النحو، وقلة استعمال بعضها في كتابات الكاتبين الآن مثل البدل، وبخاصة بدل البعض وبدل الاشتمال، و «كان» التامة في مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، و «كان» الزائدة في نحو: ما كان أغناك عن هذا، وقول قتيلة بنت النضر بن الحارث، تخاطب رسول الله ﷺ:

ما كان ضرك لو مننت وربما ... منَّ الفتى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ

واسم الفاعل واسم المفعول العاملان في التركيب، والمصدر الميمي والمصدر المؤول، وبعض جموع التكسير الفصيحة، وزيادة الباء في خبر «ليس» وفي خبر «ما» مع كثرة ذلك في القرآن وكلام الفصحاء، ولا يزال ذلك يجري على ألسنة الناس في الخطاب اليومي في السعودية والكويت، يقولون: ما أنا بمبطىء عليك، وما أنا بناسي كلامك.

ومما أهمل أيضاً المفعول المطلق المؤكد للفعل، فأنت لا تكاد تقرأ لكاتب يقول: كلَّمته كلاماً، من غير أن يضيف إليه وصفاً، فيقول كلاماً شديداً ونحوه، مع مجيء ذلك بكثرة في الفصيح، ومنه قوله تعالى: ﴿ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء: ٦١]، ومن الغريب أن هذا المفعول المطلق مستعمل بكثرة

في عاميتنا المصرية، تقول: أكلت أكل ـ شربت شرب ـ نمت نوم ـ الأهلي لعب لعب.

ومن ذلك باب تعدي الأفعال بنفسها أو بحرف الجر، مثل شكرته وشكرت له، ونصحته ونصحت له، فلا يكاد الكتاب يستعملون إلا الأول... إلى أبواب نحوية أخرى كثيرة أهملت وعطلت.

على أن من أبوابِ النحو التي كادت تختفي الآن تماماً، باب التوكيد اللفظي، وهو إعادة الكلمة بلفظها ـ والاستغناء عنه بالتوكيد المعنوي، وهو التوكيد بالنفس أو بالعين أو بكل وجميع، مع أن التوكيد اللفظي أوسع مجالاً من التوكيد المعنوي، كما قال علم الدين اللورقي الأندلسي المتوفى سنة ٦١١، قال: «لأنه يدخل في المفردات الثلاث ـ يعني الاسم والفعل والحرف ـ وفي الجمل، ولا يتقيد بمُظهَر أو مُضْمَر، معرفة أو نكرة، بل يجوز مطلقاً»، الأشباه والنظائر النحوية **٢/ ٢٢٩**.

ولعل الذي زهد الناس في أيامنا في استعمال التوكيد اللفظي، هو ما تلقوه في دراسة النحو، من مثل: جاء جاء محمد، أو جاء محمد محمد، وهذه أمثلة تعليمية، وفي مثل هذا يقول سيبويه كثيراً: «وهو تمثيل ولا يتكلم به»، ويقول ابن جني: «التمثيل للصناعة ليس ببناء معتمد» الخصائص ٣/ ٩٧، ولو التمس معلِّمو النحو أمثلة التوكيد اللفظي من الكلام الفصيح لوجدوا منه أمثلة ذوات عدد تغري باستعماله واعتياده، من نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢]، ومن نحو قول عروة بن أذينة:

لقد علمت وما الإشراف من خلقي	أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيُعَنِّيني تطلُّبُه	ولو قعدت أتاني لا يعنِّيني
وكل حظ امرىء دوني سيأخذه	لا بد لا بد أن يحتازه دوني

ولعدم إلف الناس الآن لهذا التوكيد اللفظي يظن بعض من يقع إليه شيء منه أنه من باب التكرار الخاطىء.

كتبت مرة مقالاً بإحدى المجلات، وكنت قد كتبت فيه هذه العبارة: «والكلام هنا طويل طويل» وحين قرأته مطبوعاً وجدت «طويل» مرة واحدة، فأيقنت أن الأخ مصفف الحروف حذف الثانية لأنه ظنها تكراراً مني من باب السهو، وعذره في ذلك واضح، لأنه لم يتعود مثل هذا التوكيد اللفظي فيما يقدم له من كتابات، وعلى ذلك فإنني أنصح من يستعمل التوكيد اللفظي أن يستعمل اللفظ ثلاث مرات لا مرتين، فإن ذلك أبعد من مظنة التكرار وأنفى للبس.

وبعد: فإني أخشى أن تكون هذه الحقبة التي نعيشها هي أسوأ الحقب التي مرت بها العربية والبيان العربي. فإن اللغات تنتعش أو تذوي باحترام أهلها لها وممارستهم لها، وما أظن لغتنا العربية فيما يسمونه ـ خطأ وتسرعاً بعصور الانحطاط الأدبي ـ وهو العصر العثماني ـ لا أظنها في تلك الأيام إلا أحسن حالاً، وأجمل بياناً مما هي عليه الآن.

والرثاء كل الرثاء لشباب هذه الأيام الذين يخدعون عن تاريخهم وعن لغتهم فيما يقرأون وفيما يسمعون.

أما أنا وأنت ومن يجري معنا في حب العربية والبيان العربي، فليس لنا إلا الصبر نعتصم به ونفزع إليه، حتى يكشف الله الكربة، ويزيل الغمَّة، ويرد الغربة:

ما في الصحاب أخو وجدٍ نطارحه حديث نجدٍ ولا صَبٌّ نجاريه

* * *

المعاجم اللغوية.. والهجوم الذي لا ينتهي[1]

كتب أستاذنا الكبير الدكتور شكري محمد عياد، في عدد «المصور»، ١٧ من مارس الماضي كلمة جعل عنوانها «عاشق العربية» حيّا فيها شيخنا أبا فهر محمود محمد شاكر، وإذا اجتمع للكلمة شرف الكاتب وشرف المكتوب إليه كانت ذخيرة تحفظ وتصان، وأيضاً فإن الكاتب الجاد يفتح أمام قارئه أبواباً من النظر، ويستخرج منه ألواناً من الفكر كانت دفينة لولا إثارة هذا الكاتب الجاد.

وهكذا عوّدنا ذلك الأستاذ الجليل: يمتعنا بما يكتب، ثم يمد لنا من حبال الفكر والبيان، ويصلنا بأسبابه، فنمضي معه موافقين أو مخالفين، والكاتب العظيم لا يحفل كثيراً بموافقة أو مخالفة، فحسبه أنه يحرك الساكن، ويجري الراكد، ويهز المألوف، بل إن المخالفة قد تعجبه أحياناً، لأنها ترده إلى الرأي الأول، فيستدرك فائته ويكمل نقصه، فيزداد جلاء ووضوحاً، وقد يقتنع بالرأي المخالف إذا عرف صدقه، ولمعت أمامه أنواره، وثبتت لديه صحته، فيرجع عما قال راضياً سعيداً، على ما قال عمر بن الخطاب في كتابه إلى أبـي موسى الأشعري في القضاء: «لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم، فراجعت فيه عقلك، وهُديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل»، الكامل للمبرد ١/ ٢٠.

وكان مما قاله الأستاذ الكبير في كلمته عن أبـي فهر، وإعجابه بجهوده وجهاده

---

(١) مجلة «الهلال»، مايو ١٩٩٥م.

في قراءة الشعر الجاهلي وفهمه والإبانة عنه: «وليس بوسع أحد أن ينكر المصاعب التي تكتنف قراءة الشعر الجاهلي، وأولها ــ لا شك ــ صعوبة اللغة، فلا بد لنا أن نستصحب الشروح التي قام بها اللغويون القدماء، وربما غصنا في المعاجم القديمة ــ وهي على ما نعرف من سوء الترتيب ــ إن أعوزتنا تلك الشروح».

هكذا قال أستاذنا، وكنت أحب للعبارة أن تكون «عسر الترتيب» وليس «سوء الترتيب»، وليس يخفى فرق ما بين الكلمتين، على أن «عسر المعاجم» هذا لم يعرف إلا في زماننا هذا، لأسباب كثيرة يأتيك حديث عن بعضها إن شاء الله.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه العبارة من أستاذنا الفاضل تحمل على أحسن محاملها، على ما قال عمر بن الخطاب أيضاً: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك عليه» طوق الحمامة ص ٢٦٤، ونحن لم نعرف من أستاذنا إلا حبه للعربية وإجلاله لموروثها، ورأيه هذا في المعاجم العربية لا يطعن فيها جملة، ولا ينقصها قدرها بمرة، وإنما هو رأي من الرأي، يعرضه صاحبه فيناقش فيه فيقبل منه أو يرد عليه، وليس هو أول من نقد المعاجم العربية، ولن يكون آخره، فما برح أهل العلم منذ مطالع العصر الحديث ينقدون تلك المعاجم، ويكشفون عن جهات النقص فيها، وما يظهر من الاضطراب في ترتيب موادها، مع اختلاف مناهج ذلك النقد وغاياته.

يقول الدكتور عدنان الخطيب: «وإذا كان الكلام على عيوب المعجمات العربية يكاد يكون معاداً أو مكروراً، وإذا كان المهتمون بالمعجم العربي اليوم على شبه اتفاق حول كثير من تلك العيوب، إلا أن العلماء الذين تصدوا لنقد المعاجم القديمة، اختلفوا في أسلوب الكشف عن عيوبها، فكان لكل منهم أسلوبه ونهجه، لهذا كانت عيوب المعاجم عند اللغويين غيرها عند النحاة أو علماء الصرف أو الاشتقاق، وكذلك العيوب التي يراها علماء اللغات غير العيوب التي يراها علماء آخرون يهتمون بنواح تاريخية أو جغرافية أو طبية أو نباتية، أو غير ذلك من النواحي التي اشتملت عليها معاجمنا القديمة، ومن هنا نجد أن نقد الشدياق غير نقد الأب

الكرملي، ونقد أحمد أمين غير نقد الأمير الشهابي...»، المعجم العربي بين الماضي والحاضر ص ٦٣، وينظر أيضاً المعجم العربي ـ نشأته وتطوره ـ للدكتور حسين نصَّار ٢/٧٤٧، والمعجم العربي ـ بحوث في المادة والمنهج والتطبيق ـ للدكتور رياض زكي قاسم ص ٢٥٩.

نقد المعاجم العربية:

ولعل أول من نقب هذا النقب، وفتح ذلك الباب في نقد المعجم العربي، في عصرنا الحديث: هو: «أحمد فارس الشدياق» صاحب مطبعة الجوائب الشهيرة باستانبول، في كتابه المعروف «الجاسوس على القاموس»، وقد وضعه لاستدراك ما فات الفيروزآبادي من «قاموسه المحيط» ورد ما وهم فيه من الألفاظ إلى أصولها، وقد طبع باستانبول سنة ١٢٩٩هـ، وتوفي الشدياق سنة ١٣٠٤هـ = ١٨٨٧م، ثم تتابعت النقود في ذلك الطريق، وإن اختلفت فيما بينها شرعة ومنهاجاً، على ما تراه مفصلاً في المراجع الثلاثة المذكورة.

ولا ينبغي أن ننسى جهود العلماء القدامى في نقد المعاجم العربية، مثل نقد ابن بري المتوفى (٥٨٢) لصَحاح الجوهري، واسم كتابه: «التنبيه والإيضاح عما وقع في الصَّحاح»، ويعرف أيضاً بحواشي ابن بري على الصَّحاح، وكذلك نقد صلاح الدين الصفدي المتوفى (٧٦٤) للصَّحاح أيضاً، الذي سمَّاه: «نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهري من الوهم». ثم ما نثره الفيروزآبادي المتوفى (٨١٧) من نقد للصَّحاح، من خلال «القاموس المحيط»، لكن نقود هؤلاء اللغويين القدامى لم تمس أصول المعجم العربي وقواعده الأساسية، كما نرى في نقود المحدثين، وإنما هو نقد يدور حول التصحيف والتحريف ونسبة الشواهد، وذكر بعض الأبنية في غير أصولها، وإهمال بعض الأصول اللغوية.

وليس من غرضي هنا أن أناقش كل ما وُجِّه للمعجم العربي من نقد، فليس هذا في وسعي ولا في طاقتي، وليس هذا مكانه، وإنما أحب أن أقف عند وجه واحد من وجوه ذلك النقد. وهو ما يقال عن «سوء ترتيب المعجم العربي» أو «تشويش

مادته»، وهو كلام يتردد بين الكبار والمبتدئين، ولا يكاد يخلو منه نقد من نقود المعجم العربي.

وفي رأيي أن الحامل على هذا الوجه من النقد أمران: الأول: المقارنة أو الموازنة الدائمة بين معاجمنا العربية وبين المعاجم الأوروبية، مثل «معجم أكسفورد» و «معجم لاروس». والأمر الثاني: النظر في المعاجم الكبرى فقط، مثل «لسان العرب» لابن منظور المتوفى (٧١١)، و «تاج العروس من جواهر القاموس» للمرتضى الزبيدي المتوفى (١٢٠٥)، وهذا في رأيي هو أصل القضية وجوهرها، فالذين يصفون المعجم العربي بسوء الترتيب وتشويش المادة لا يفتأون يقارنون بين سهولة المعجم الأوروبي والوصول إلى المعاني فيه بيسر، وبين صعوبة المعجم العربي والتخبط في أبنيته وتراكيبه، وهي مقارنة ظالمة، بل هي غير صحيحة، للفرق الضخم بين العربية وبين غيرها من اللغات، فلغتنا لغة اشتقاقية، ومفرداتها بالغة الكثرة، وما زلنا نجد صدق كلمة الإمام الشافعي عن هذه اللغة في قوله: «ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي»، الرسالة ص ٤٢.

وما أظن الناظر في معجم أوروبي لمعرفة معنى كلمة أو تركيب يحتاج إلى العدة والأدوات التي يحتاج إليها الناظر في معجم عربي، فهناك مراحل معينة لا بد أن يمر بها الباحث في المعجم العربي ليجد بغيته في ذلك المعجم، وهي تقوم على معرفة الأصل الاشتقاقي للكلمة المراد البحث عن معناها. ومعرفة الأصل الاشتقاقي هذا ترتكز على أسس أربعة:

(أ) حذف الزائد.

(ب) رد المحذوف.

(ج) تصحيح المعتل.

(د) فك المدغم.

وتحت كل فقرة من ذلك كلام كثير، هو علم الأبنية المعروف بعلم الصرف،

وبخاصة أبواب المجرد والمزيد، والإعلال والإبدال، وقد يعرف المرء هذه الأبواب الصرفية، ثم يصعب عليه التهدي إلى موضع الكلمة من المعجم، لعدم المراس والدربة، كما يجد بعضهم صعوبة في موضع «تترى» و «ترقوة» من المعجم، وكذلك موضع ميناء، بل إن بعض الكلمات تأتي في موضعين من المعجم، كما ترى في «البازي» الصقر، يأتي في (بوز) وفي (بزي)، وكذلك كلمة «الصدد» التي تأتي في قولك «بصدد كذا» أو «في ذلك الصدد» تأتي في مادة (صدد)، وفي مادة (صدى)، وقالوا في قوله تعالى: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾ [عبس: ٦]، إن أصلها «تتصدد»، فلما كثرت الدالات قلبت إحداهن ياء، كما قيل إن قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ١٠]، أصلها «دسّسها» بثلاث سينات، فقلبت إحداهن ياء، تنطق ألفاً، ولذلك يأتي شرح هذه الكلمة في موضعين من المعجم، الأول (دسس)، والثاني (دسى)، ولهذا نظائر أخرى في الأبنية، ومنها: قصّيت أظفاري، والأصل: قصصت.

أغزر المعاجم اللغوية:

فهذا ما كان من الأمر الأول، أمر المقارنة بين المعجم العربي والمعجم الأوروبي. أما الأمر الثاني، وهو النظر في المعاجم الكبرى فقط، دون المعاجم الأوساط والصغار: فما أظن الذين حكموا على المعجم العربي بسوء الترتيب وتشويش المادة، قد انتهوا إلى هذا الحكم إلا بعد طول معاناة مع أكبر معجمين، وهما «لسان العرب» لابن منظور، و «تاج العروس» للمرتضى الزبيدي، وهذا الثاني هو أغزر المعاجم اللغوية مادة وأكثرها شمولاً، فقد بلغت جذوره اللغوية (١١٩٧٨) جذراً، على حين بلغت جذور لسان العرب (٩٢٧٣) جذراً ــ انظر دراسة إحصائية لجذور معجم تاج العروس، للدكتور عبد الصبور شاهين، والدكتور حلمي موسى، نقلاً عن حاشية كتاب الاستدراك على المعاجم العربية للدكتور محمد حسن جبل ص ٧.

ومما لا شك فيه أن البحث في هذين المعجمين متعب، ولا سيما لمن لم

يألف التعامل معهما وكثرة النظر فيهما، ولا تنتظر من طالب مبتدىء، أو من شخص محدود الثقافة، يريد معنى كلمة أو تركيب أن يرضى عن كتاب لغة موسوعي كهذين المعجمين، يمتد فيهما الكلام ويطول.

إن الحكم الصحيح على هذين المعجمين ينبغي أن يتم في إطار معرفة حال ابن منظور والمرتضى الزبيدي، ثم معرفة حال معجميهما المذكورين، فالرجلان ليسا من واضعي اللغة ولا من رواتها، لتأخر زمانهما كما تعلم، وتآليفهما الأخرى تدور حول شروح الكتب واختصاراتها. أما المعجمان اللذان صُنِّفا هما: لسان العرب وتاج العروس فهما تجميع موسوعي ضخم للمعاجم السابقة عليهما بمناهجها المختلفة وتباينها: اتساعاً وضيقاً، وقلة وكثرة.

ولقد صرح ابن منظور في مقدمة «اللسان» بأنه جمعه من أصول معجمية خمسة، هي بحسب ذكره لها: تهذيب اللغة للأزهري (٣٧٠هـ)، والمحكم لابن سيده (٤٥٨هـ)، والصَّحاح للجوهري (حدود ٤٠٠هـ)، والحواشي عليه لابن بري (٥٨٢هـ) وتسمَّى هذه الحواشي: التنبيه والإيضاح عما وقع في الصَّحاح. والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٦٠٦هـ).

وتمثل هذه المعاجم الخمسة ثلاث مدارس في التأليف المعجمي: المدرسة الأولى مدرسة ترتيب المواد اللغوية وفق مخارج الحروف، وهي مدرسة الخليل بن أحمد، ويمثلها من هذه المعاجم: التهذيب للأزهري والمحكم لابن سيده، والمدرسة الثانية: التي ترتب المواد على الجذور اللغوية (أصل الاشتقاق) واعتبار الحرف الأخير منها باباً يبنى عليه المعجم، والحرف الأول فصلاً، مع مراعاة الترتيب الألفبائي فيما بين حرفي الباب والفصل، وهذا النظام يعرف أيضاً بنظام التقفية. فكأن المادة اللغوية المشروحة قافية شعرية، ينظر إلى حرفها الأخير قبل كل شيء، ويمثل هذه المدرسة الصَّحاح وحواشيه. والمدرسة الثالثة ـ وهي المدرسة المألوفة لنا ـ التي ترتب المواد وفق الأول والثاني والثالث ـ ويمثلها النهاية لابن الأثير.

وقد ارتضى ابن منظور من مناهج هذه المدارس منهج المدرسة الثانية، مدرسة

«الصَّحاح» ورتب كتابه «اللسان» على أساسها، وأخضع المدرستين الأخريين لها، ويصرح ابن منظور في مقدمته بأن عمله في معجمه لم يخرج عن حدود ما في مراجعه الخمسة، وإن كان قد استطرد إلى ذكر فوائد من قراءاته وسماعاته، ثم تعقب في أحيان قليلة بعض ما وجده في مراجعه الخمسة المذكورة، كما أشرت إلى ذلك في مقالتي عن «لسان العرب» في الهلال (مارس ١٩٩٢م) [راجعها ص ١٧٧].

فقد ظهر إذن أن المادة المعجمية في «لسان العرب» مجموعة من مراجع خمسة، تخضع لمناهج ثلاثة مختلفة كل الاختلاف، وهذا هو سر ما يبدو من التشويش وعسر الترتيب عنده. فالتكرير وارد لا محالة في كتاب موسوعي صرح مؤلفه بأنه لم يخرج عن مراجعه الخمسة، فهو لم يبح لنفسه أن يغير شيئاً من المادة التي أمامه، غاية ما في الأمر أنه أخضعها لمنهج واحد في الترتيب، وترك كل شيء في الكتب على حاله، إلا أن يتدخل في أحيان قليلة جداً بنقد أو ترجيح، ولذلك قد تجد لديه شرحاً لشيء من غريب الحديث والأثر مختلفاً عن شرح آخر للحديث نفسه في المادة نفسها، لاختلاف مرجعه في ذلك، فقد ينقل في المرة الأولى عن «تهذيب اللغة» للأزهري، وفي الثانية عن «النهاية» لابن الأثير، بل قد تجد شاهداً شعريّاً غير منسوب لقائل في موضع من المادة، وبعد قليل تجد الشاهد نفسه منسوباً، وما ذلك إلا لاختلاف مرجعه في الحالين، وقل مثل هذا في اختلاف الشروح، والحظر اللغوي أحياناً والإباحة أحياناً أخرى، ولذلك يوصي كبار المحققين في الإحالة على ما في اللسان أن تقول: «جاء في اللسان كذا وكذا»، ولا تقول: «قال صاحب اللسان، أو قال اللسان».

فهذا هو «لسان العرب» كتاب موسوعي، جمع مادة لغوية ضخمة من خمسة كتب كبار مختلفة المناهج، أخضعها لمنهج واحد، وهو جهد شاق يحسب في موازين الرجل، ولم يكن عدلاً أن ننتظر من مؤلفه أن يصطفي من هذه المعاجم الخمسة معجماً يصنعه على هوانا ووفق مشيئتنا، وعلى حسب مواصفات العصر الحديث ــ عصر الحاسبات الآلية والكمبيوتر ــ يجلس الواحد منا متكئاً على أريكته

فيجد بغيته من أقرب طريق، ويعثر على ضالته بأقل جهد: الأفعال الثلاثية وحدها، وما زاد على الثلاثة وحده، والأفعال اللازمة وحدها والمتعدية بعدها، ولا بأس أن يميز بين المتعدي بنفسه، والمتعدي بالحرف، بل المتعدي لواحد ولاثنين وثلاثة، والجموع يأتي القياسي منها وحده، والسماعي وحده، وأبنية المصادر وحدها وأسماء المصادر وحدها، والمشتقات وحدها. وهذا كله منطق «اللُّقطة» تصيبها في عُرْض الطريق، أو «الغنيمة الباردة» تحوزها بغير حولٍ منك ولا قوة.

نحن والفهارس:

لقد صنع ابن منظور معجمه «اللسان» في أوائل القرن الثامن، ونحن نحاكمه بمنطق القرن الخامس عشر، وقد صنعه لقوم يقرأون الكتب من أولها إلى آخرها، ونحن نلزمه أن يكون قد نظر إلى أبعد من عصره، بل نريده أن يكون قد نظر إلينا على وجه الخصوص، ونحن الآن لا نتعامل مع الكتب إلا عن طريق الفهارس، ولأخذ حاجتنا فقط، وقَلَّ أن تجد منا من قرأ كتاباً كاملاً، للمعرفة وحدها، لا للمرجعية فحسب.

وما قيل عن ابن منظور و «اللسان» يقال عن المرتضى الزبيدي و «التاج»، فقد جمعه الزبيدي من مراجع كثيرة، منها اللسان، وجمهرة ابن دريد، ومقاييس اللغة لابن فارس، وأساس البلاغة للزمخشري، ثم كتب الصاغاني، وأخضعها جميعاً للمنهج الذي ارتضاه صاحب اللسان.

على أن ابن منظور والمرتضى الزبيدي لو كانا قد أرادا ترتيب المادة اللغوية على ما يريدها الناس الآن، لما استقام الأمر لهما ولا لغيرهما، فهناك أبنية لا تأتي إلا مقرونة بغيرها، كأبنية المصادر التي تأتي عقب الأفعال، وكالجموع التي تأتي مقترنة بالمفرد، ثم هناك الأبنية المرتبطة بالنصوص، والتي لو عُزلت عن سياقها في شاهدها وسلكت مع نظائرها لفقدت روح دلالتها، وعندي من هذا وذاك أمثلة كثيرة، لا يتسع المقام هنا لذكرها. وإن تفتيت المادة اللغوية على ما يريده الناس الآن يصادم روح اللغة ونظامها، ولذلك تعجبني كلمة الدكتور رياض زكي قاسم، في كتابه الذي ذكرته

من قبل، قال حين تحدث عن عيوب المعجم العربـي: «فهذه العيوب تنقسم إلى ثلاث مجموعات: منها ما يمكن تهذيبه، ومنها ما يمكن تطويره وتحديثه، ومنها عصي يرتبط بمسألة تدوين اللغة، وهو ما لا يمكن تهذيبه أو تحديثه»، المعجم العربـي ص ٢٦٠.

فهذا الذي يرتبط بمسألة تدوين اللغة هو روح اللغة ونظامها الذي لا ينبغي أن يُمس بحال، ومن ثم لا ينبغي أن يوصف بعسر ترتيب أو سوء ترتيب، وليس أمام الباحث الآن إلا مد حبال الصبر والاستمساك بعرى الأناة، والتدرج في مراقي الإِلف والعادة، لتنفتح له مغاليق هذه المعجمات الكبار، وأعرف أناساً من أهل العلم ثم من شداته والمبتدئين فيه، يقرأون اللسان والتاج في يسر وسهولة، ويقعون على حاجتهم منه في غير مؤونة ولا كلفة.

وليس يخفى الفرق بين شخصين، يطلب أحدهما معنى كلمة أو تركيب، ويريد الثاني تحرير قضية لغوية، تتصل بالأبنية أو الدلالة، فالأول يكفيه معجم صغير، مثل مختار الصَّحاح أو المعجم الوجيز أو الوسيط اللذين أصدرهما مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفيهما جهد كبير، أما الثاني فلا بدَّ له من أن يركب الصعب، ويأخذ نفسه بالجلادة والصبر، إن معرفة اللغة والوقوف على شيء من أسرارها لا يكفي فيها اللسان أو التاج، بل لا بد فيها من الرجوع إلى ما لا يُحصى من كتب اللغة الصغار والأوساط، وكتب الألفاظ، ومعاجم المعاني وشروح الشعر، وشروح غريب القرآن وغريب الحديث، وكتب الأمالي والمجالس، بل كتب التاريخ والبلدان والمعارف العامة.

ويبقى التنبيه على عدة أمور:

أولاً: ثبت ــ إن شاء الله ــ أن لسان العرب وتاج العروس هما أوسع المعاجم اللغوية وأغزرها مادة، وأنهما قائمان على أساس التجميع من المعاجم السابقة ليس غير، فهما بهذا الوصف داخلان في حيز الموسوعات، والتعامل مع الموسوعات له أدوات، منها الصبر وبذل الجهد، والنفس الطويل، والخبرة السابقة بكتب العربية في

فنونها المختلفة، فالعسر الذي يجده الباحث في هذين المعجمين الكبيرين لا ينبغي أن يعمم على سائر المعاجم العربية.

ثانياً: ابن منظور من علماء القرن الثامن والزبيدي من علماء القرن الثاني عشر، وقد سبقتهما جهود كثيرة في التأليف المعجمي، وهذه التآليف خضعت لمناهج مختلفة في المادة والترتيب، وكلها قائمة على اليسر والسهولة، مثل الصَّحاح ومختاره، وأساس البلاغة للزمخشري، والمصباح المنير للفيومي.

ثالثاً: هناك طائفة من المعاجم اللغوية قائمة على فكرة الأبنية، فالمنهجية تحكمها، والغاية فيها واضحة، مثل إصلاح المنطق لابن السكّيت (٢٤٤هـ) وديوان الأدب لأبي إبراهيم الفارابي (٣٥٠هـ) وهو غير الفارابي الفيلسوف، ومثل كتب الأفعال لابن القوطيّة (٣٦٧هـ)، وللسرقسطي (بعد ٤٠٠هـ) وابن القطّاع (٥١٥هـ) إلى جانب معاجم الأضداد والمشترك اللفظي، ومعاجم المعاني، والأجناس اللغوية، وأعلاها المخصص لابن سيده (٤٥٨هـ)، ثم معاجم الموضوعات الخاصة، مثل معاجم غريب القرآن وغريب الحديث، وما كتب في خلق الإنسان والبهائم والحشرات والإبل والخيل والنبات، والمطر واللبن، وما كتب في نوادر الأبنية.

رابعاً: مما ينبغي أن يضم إلى المعجم اللغوي تلك المؤلفات التي عنيت بشرح ألفاظ ومصطلحات العلوم، وهذه المؤلفات تقسم إلى قسمين:

(أ) مؤلفات عامة، تجمع المصطلحات المستخدمة في كافة العلوم الإسلامية ــ بما فيها علوم اللغة العربية ــ أو في أكثر هذه العلوم دون تمييز.

(ب) مؤلفات خاصة، يفرد كل منها لمصطلحات علم واحد، أو مجموعة قليلة من علوم متقاربة.

ومن أشهر مؤلفات القسم الأول: مفاتيح العلوم للخوارزمي (٣٨٧هـ)، والتعريفات للسيد الشريف الجرجاني (٨١٦هـ). والكليات لأبي البقاء الكفوي

(١٠٩٤هـ) ـ وهذا الكتاب من أعظم الكتب وأنفعها، وإني أنصح به كل طالب علم ـ وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، أتم تأليفه سنة (١١٥٨هـ). وأبجد العلوم لصدِّيق القِنَّوْجي (١٣٠٧هـ). أما مؤلفات القسم الثاني فشيء كثير، لا يتسع له هذا المقام، انظره في مقدمة الدكتور حسن محمود الشافعي لكتاب: المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين، لسيف الدين الآمدي (٦٣١هـ)، ثم انظر كتابي: الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم.

فهذا هو بناء المعجم العربي، بناء ضخم متماسك، واضح المعالم، قريب المورد، ميسور الاجتناء، ما لم تطبق عليه نظام المعجم الأوروبي، وتنتظر منه أن يعطيك ما يعطيكه ذلك المعجم.

وبعد: فإن من الخير والعدل أن نتوقف عن الطعن في معاجمنا اللغوية، ونُمسِك عن سوء الترتيب وتشويش المادة، نتجاوز هذا كله، ثم ننظر في أمر هذه المعاجم: نستدرك فائتها، ونكمل نقصها، ونبرز فوائدها، ونُيَسِّر سبيلها، وفي ذلك الطريق، أطرح هذه المقترحات:

أولاً: جمع اللغة التي جاءت في كتب العربية الأخرى غير المعاجم، وذلك ما تراه في أشعار العرب التي شرحها أئمة الأدب واللغة، من أمثال الأصمعي وتلميذه أبي نصر الباهلي، وأبي عمرو الشيباني، وأبي العباس الأحول، وابن السكيت وثعلب والسكري، وقد قدم هؤلاء مادة لغوية غزيرة من خلال شروحهم لما جمعوه من شعر، هذا إلى اهتمام علماء كل فن وعلم باللغة، يقدمونها بين يدي علومهم، كالذي تراه مثلاً في شرح أبي علي الفارسي لمفردات اللغة في كتابه: الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب، وكذلك ما صنعه ابن الشجري في كتابه: الأمالي النحوية. وبعض هذه الشروح اللغوية لم يرد في المعاجم اللغوية المتداولة، وقد تنبه إلى ذلك ونبَّه عليه مشايخنا فيما نشروه من كتب الأوائل، ومن ذلك ما ذكره شيخنا أبو فهر بآخر طبقات فحول الشعراء باسم «ألفاظ من اللغة أخلَّت بها المعاجم أو قصَّرت في بيانها»، وما ذكره أستاذنا عبد السلام هارون رحمه الله، من إحصاء

لهذه الألفاظ والكلمات التي لم ترد في المعاجم بآخر: البيان والتبيين، ومقاييس اللغة، والأصمعيات والمفضليات ومجالس ثعلب.

ومن تجاربي الشخصية في التماس الشروح اللغوية من دواوين الشعراء: أني كنت أبحث يوماً عن توثيق كلام في اللغة لأبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب (٢٩١هـ)، فنظرت في المطبوع من كتبه اللغوية، المجالس، والفصيح، فلم أجد فيها كلامه الذي نقله عنه الأئمة، ثم نظرت في شرحه على ديوان زهير بن أبي سُلمى، فوجدت بغيتي فيه، وما دلني على ذلك إلا فهرس اللغة الذي صنفه محققو الديوان من مشيخة دار الكتب المصرية.

ثانياً: استخراج المواد اللغوية المذكورة في المعاجم في غير أبوابها، كأن تجد مثلاً كلاماً على مادة (قلب) في أثناء مادة (بدأ) ومثل هذا كثير، فإننا نجد ألفاظاً وتراكيب قد ذكرت في غير موادها؛ لدواعي الاستطراد والمناسبة، ولا سيما في لسان العرب وتاج العروس، لاتساع مادتهما وكثرة نقولهما، كما عرفت من قبل.

ومن أنفع ما قرأت من ذلك ما صنعه الدكتور محمد حسن جبل، في كتابه الذي سمَّاه: «الاستدراك على المعاجم العربية في ضوء مئتين من المستدركات الجديدة على لسان العرب وتاج العروس». وقد نشره منذ تسع سنوات، ولعله يمضي في هذا الطريق إلى نهايته، هو ومن يختار من تلاميذه، ثم رأيت في نشرة دار العلم للملايين ببيروت لكتاب «الجمهرة» لابن دريد (٣٢١هـ) رأيت في هذه النشرة فهرساً نافعاً جداً في هذا المقترح، سموه: فهرس الجذور غير الواردة في أبوابها.

ومثل هذين المستدركين على المعاجم العربية ــ جمع اللغة التي جاءت في غير المعاجم، واستخراج المواد والجذور المذكورة في غير أبوابها من المعاجم ــ يمكن أن يقوم بها معيدو أقسام اللغة العربية بالكليات الجامعية، مع شيء من التحليل والدراسة، ويحصلوا بها على الماجستير والدكتوراه، بدلاً من تلك الموضوعات المكرورة المتشابهة التي يدخل فيها اللاحق على السابق.

ثالثاً: إعادة نشر معاجمنا العربية التي طبعت منذ زمن بعيد، بالاستفادة من التقدم الطباعي الحديث، باستخدام الألوان، والتوسع في علامات الترقيم وأوائل السطور والفقرات، وإبراز أوائل المواد وآخرها. ومن أعظم التجارب وأنفعها التي ينبغي الاستفادة منها في هذا السبيل: ما قام به الناشر السوري النابه «رياض دعبول» صاحب مؤسسة الرسالة، في تلك الطبعة العظيمة من «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (٨١٧هـ)، وقد جاءت هذه الطبعة العالية في مجلد واحد (١٧٥٠) صفحة، فاختصر المجلدات الأربع التي كان يطبع عليها القاموس قديماً، وقد اتبعت مؤسسة الرسالة هذه الخطوات ـ في إخراج تلك الطبعة الرائعة من القاموس، التي ظهرت الطبعة الثانية منها سنة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م ـ:

١ ـ تحلية النص وتنسيقه بإدخال علامات الترقيم.

٢ ـ وضع كل مادة جديدة من أول السطر، وتمييز ألفاظ المادة بالحرف الأحمر.

٣ ـ إثبات الحواشي أسفل الصفحة مع أرقام في المتن تشير إليها وتدل عليها.

٤ ـ إثبات إشارة خط هكذا ـ (باللون الأحمر) للدلالة على أن الكلمة كررت في ذاك الموضع لإيراد معنى آخر لها، فهذا الخط هو بديل عن إعادة كتابة الكلمة.

٥ ـ تخريج الآيات القرآنية وقراءاتها، وتبيين الشاذِّ من القراءات.

٦ ـ جُعلت الآيات القرآنية بين قوسين مزركشين، والأحاديث الشريفة والأمثال بين قوسين صغيرين.

٧ ـ أثبت في أعلى كل صفحة أول وآخر مادة فيها، تسهيلاً للعثور على المادة.

وعلى نحو من هذا الإخراج الميسّر طبع من «تاج العروس» ثمانية وعشرون

جزءاً، وبقي منه اثنا عشر جزءاً، والمأمول من وزارة الإعلام بالكويت التعجيل بإخراج هذه الأجزاء الباقية من الكتاب الذي ظهر الجزء الأول منه عام ١٩٦٥م.

رابعاً: إعادة نشر «لسان العرب» أشهر المعجمات العربية، وقد طبع أول مرة بمطبعة بولاق سنة ١٣٠٠هـ، فقد مضى على طبعه (١١٥) سنة، وقد آن الأوان لكي نظهره في طبعة تليق به، وتيسر سبيل الانتفاع به، باستخدام التطور الطباعي الحديث كما ذكرت، ثم تخليصه من شوائب التصحيف والتحريف التي مني بها، وذلك بجمع كل ما كتبه أهل العلم في ذلك، ومنهم العلامة المغفور له أحمد تيمور باشا، وقد نشر جزءين صغيرين في تصحيح اللسان، أحدهما في مطبعة الجمالية سنة ١٣٣٤هـ، والآخر في المطبعة السلفية سنة ١٣٤٣هـ، وكذلك صنع أستاذنا عبد السلام هارون، برَّد الله مضجعه، في كتابه الذي سمَّاه: «تحقيقات وتنبيهات في معجم لسان العرب»، وطبعه سنة ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م، وقد استدرك غيرهما شيئاً من ذلك على اللسان، فيُجمع ذلك كله، وينزل على منازله من المواد اللغوية، مع مراجعة الكتاب على مراجعه الخمسة التي ذكرتها من قبل، وقد طبعت كلها.

فهذه المقترحات وغيرها مما يخدم لغتنا، وييسر سبيل الانتفاع بمعاجمها، أما ما يقال في تغيير ترتيب المعاجم العربية، وإعمال يد الإصلاح فيها، بالحذف والتقديم والتأخير، فكلام لا يصدر إلاَّ عمَّن لا يحترم لغته، ولا يعرف تاريخه، وربنا المستعان.

* * *

الكتاب.. والتواصل العلمي[1]

تلقيت في بريدي مجموعة مختارة من مطبوعات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، وقد زان هذه المجموعة رسالة رقيقة من المدير العام للمنظمة الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، ولم أشرف بمعرفة هذا الرجل من قبل، وما دله علي إلا تلك المقالات التي أنشرها بالهلال، كما ذكر في رسالته الطيبة الزكية، التي فاضت بالثناء المستطاب علي والرضا الكامل عما أكتب، وهذه نعمة أحمد الله عليها، وأشكر من أسداها، ثم أُنشده قول أبـي نُخيلة السعدي:

شكـرتـك إن الشكـر حبـل مـن التقـى ... ومـا كـل مـن أوليتـه نعمـة يقضـي

ونوَّهتَ من ذكري وما كان خاملاً ... ولكـن بعـض الـذكـر أنبـه مـن بعـض

وكان الأولى بـي الإمساك عن ذكر هذا البيت الثاني، لولا حلاوة هذا الشعر، وقوة الآصرة بين البيتين، وإن أردت الكلمة كلها فاطلبها في أمالي أبـي علي القالي ١/ ٣٠، وانظر ما استخرجه منها الشيخ عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز ٤٨٤، ثم اقرأ أخبار أبـي نخيلة في الأغاني ٢٠/ ٣٩٠ (تنبيه: العرب تطلق الكلمة على القصيدة، وهو شائع مستفيض في كتبهم).

ثم أما بعد: فلنقف قليلاً عند هذه الرسالة التي شرَّفني بها المدير العام للمنظمة الإسلامية، وهي رسالة غريبة في زماننا هذا ذي التعاجيب، فهذا مدير مؤسسة علمية مقرها الرباط عاصمة المغرب الأقصى، يتابع ما يكتبه كاتب في مجلة الهلال

---

(١) مجلة «الهلال»، يوليه ١٩٩٥م.

بالقاهرة، ويرى في هذا الذي يُكتب ما يوجب تحية كاتبه وإهداءه شيئاً من مطبوعات المنظمة، وما أظن هذا المدير القارىء المتابع قد آثرني وحدي من بين الكاتبين بهذا الفضل، فلا شك أنه يقرأ لي ولغيري في الهلال، وفي سائر المجلات الثقافية، ليكون في ذلك عونٌ له على أداء رسالته وإنجاح عمل المنظمة التي يتولى إدارتها، ولولا ما جاء في رسالته مِن ثناء بالغ على كتاباتي، لوضعت رسالته كلها هنا؛ ليرى القارىء الكريم كيف يكون مدير المؤسسة الثقافية، على ما قال أبو زياد الأعرابي:

ولم يك أكثر الفتيان مالاً ولكن كان أرحبهم ذراعاً

فقد أتى على مؤسساتنا الثقافية حين من الدهر كانت مناصبها العليا توزع على أساس من التوازنات السياسية، وإرضاء جميع الأطراف، ولا ينبئك مثل خبير، فقد عملت بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم خمس عشرة سنة، ورأيت أنماطاً غريبة من أصحاب هذه المناصب العليا، وبعضهم لا صلة له بالثقافة، لا من قريب ولا من بعيد، حتى إنه كتب ذات يوم: «لقد حضرت فوجت الباب مغلق» هكذا كتب «وجت» وهو يريد «وجدت» وكأنه يكتبها كتابة صوتية، يكتب كما ينطق، وما رأيت هذا المدير إلا وأنشدت قول البحتري:

الآن أيقنت أن الرزق أقسام لما تقلد أمر البُرد حجام

«البرد: جمع البريد، والحجَّام: هو الذي يتولى الحجامة، وهي المعالجة بفصد الدم، أو امتصاصه بالمحجمة، وكان معروفاً ومستعملاً إلى عهد قريب»، وهذا كما ترى أحد مصائبنا الكبرى: أن يُوسَّد الأمر إلى غير أهله، ولو تتبعت مراكزنا العلمية ومنظماتنا الثقافية لوجدت فيها من هذه النماذج الكثير، على ما قالت العرب في أمثالها: «وفي كل واد بنو سعد».

ومهما يكن من أمر، فهذه المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة التي يديرها ذلك المدير المثقف المتابع، أنشئت في ٣ مايو ١٩٨٢م، واتخذت الرباط عاصمة المملكة المغربية مقراً لها، والمغرب الأقصى، حرسه الله، ثغر من ثغور

العربية والإسلام، وما زالت طائفة من أهله قائمة على حراسة موروثها من علوم الإسلام: حفاظاً على مخطوطاتها، وتحقيقاً لنفائسها، هذا إلى فضلهم القديم في شرح آثار المشارقة والعناية بها، فاتخاذ الرباط مقراً لهذه المنظمة الإسلامية، عمل صالح، إن شاء الله، على ما قال الزاهد الكبير يوسف بن أسباط رضي الله عنه: «وإنما يطيب الموضع بأهله».

كما كان من العمل الصالح أيضاً اتخاذ منظمة المؤتمر الإسلامي مدينة استانبول مقراً لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية. ولاستانبول في تاريخ الإسلام أيام بيض وصفحات مضيئة، ذكرت شيئاً منها في الهلال (ديسمبر ١٩٩٤) في كلمة عنوانها «تركيا والمخطوطات العربية» (راجع ص ٣٢١ من هذا الكتاب).

التعريف بالتراث الإسلامي:

وتعلن هذه المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة عن غاياتها وأهدافها التي تحرص على صيانة التراث الإسلامي ورعايته والتعريف به، كما تعمل على دعم الثقافة الإسلامية الأصيلة وحماية استقلال الفكر الإسلامي من عوامل الغزو الثقافي والمسخ والتشويه، ولتحقيق هذه الغايات تقوم المنظمة بعقد الندوات التي تتناول موضوعات بعينها، أو شخصيات بخصوصها، ثم تقوم بطبع حصيلة هذه الندوات في كتب يقرؤها الناس على مكث، وبجانب هذه المطبوعات الخاصة تقوم المنظمة بتحقيق ونشر ما تراه صالحاً ومفيداً من عيون المخطوطات العربية. ومن هذا وذاك وصل إليّ من مطبوعات المنظمة:

١ ــ الإمام الطبري في ذكرى مرور أحد عشر قرناً على وفاته (فقيهاً ومؤرخاً ومفسراً) جزءان.

٢ ــ الإمام الشافعي، الاحتفاء بمرور اثني عشر قرناً على وفاته.

٣ ــ أحمد بابا التمبكتي، بمناسبة مرور أربعة قرون ونصف على ولادته.

٤ ــ الأحكام الصغرى، لأبـي بكر ابن العربـي المتوفى سنة ٥٤٣هـ، وهو مختصر كتابه أحكام القرآن الذي نشر بمطبعة عيسى البابـي الحلبـي بالقاهرة سنة ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م بتحقيق الأستاذ علي محمد البجاوي، رحمه الله.

٥ ــ التقسيم والتبيين في حكم أموال المستغرقين ــ من الظَّلَمَة والغاصبين ــ لأبـي زكريا الشبلي، من علماء القرن الثامن الهجري. وهذا الكتاب خاص بوجوه الأموال الحرام، وطرق الكسب غير المشروع ــ كما يقال في أيامنا ــ من التعدي على الأموال، والغصب والإكراه، والربا والرشوة، والشركات الفاسدة، وكذلك ظلم أصحاب الوظائف العامة وغيرهم من أصحاب القوة والنفوذ والسلطان، مما يدخل في أحكام القانون المدني الإسلامي، أو أحكام القانون الدولي الإسلامي.

٦ ــ المهذّب في الكحل المجرّب، لعلي ابن أبـي الحزم القَرْشي المعروف بابن النفيس، المتوفى سنة ٦٨٧هـ (والقَرْشي هنا تضبط وتقرأ بفتح القاف وسكون الراء نسبة إلى «قَرْش» اسم بلد فيما وراء النهر ــ نهر جيحون، المسمى نهر أموداريا، بوسط آسيا)، وبعض الناس ينطقه «القُرشي» بضم القاف وفتح الراء، يظنه نسبة إلى «قريش» وهو ما أسميه أخطاء الإلف والعادة.

٧ ــ الكافي في الكحل، لخليفة بن أبـي المحاسن الحلبـي، من علماء القرن السابع الهجري، وقد ذكر محققا الكتاب أن من أهم ما يميز هذا الكتاب:

(أ) أنه أول كتاب يضم رسماً توضيحياً لتشريح الدماغ، وعلاقة العينين به، والطريق الذي يسلكه البصر بين العينين والدماغ.

(ب) أنه أول كتاب يضع رسوماً للأدوات الجراحية المستعملة في جداول أنيقة.

(ج) أنه أول كتاب يضع جداول منظمة أنيقة لأمراض الأجفان والعينين وآلية الإبصار.

(د) أنه أول كتاب يفرد فصلاً خاصاً عن المكاييل والأوزان والمقاييس

المستعملة في الطب آنذاك، وتعتبر هذه المقادير التي ذكرها أوفى من تلك المقادير التي ذكرها ابن سينا في آخر كتابه «القانون».

(هـ) أنه أول كتاب يفرد فصلاً خاصاً عن الفصد، ويعتبر ما ذكره المؤلف عن الفَصْد، أوفى مما كتبه عنه ابن سينا في الجزء الأول من كتابه «القانون».

وهذا الكتاب والذي سبقه، من تراث العرب العلمي، وهو من الفنون التي لا يقبل عليها الناشرون كثيراً؛ لأن جمهورها قليل، فلا تحقق لهم عائداً مادِّيّاً مجزياً أو غير مجزٍ، فلم يبق إلا هذه المنظمات الكبرى، والهيئات العلمية التي قامت في السنوات الأخيرة في أكثر دول الخليج، تابعة للجامعات هناك، أو مستقلة عنها، وقد أحسنت هذه المنظمات والهيئات في نشر طائفة كبرى من عيون التراث العربي، في مختلف العلوم والفنون، وبعض هذا التراث المنشور ذو أجزاء كبيرة، مما لا يقبل عليه الناشرون أيضاً.

وقد ضمَّت مكتبتي معظم هذه المطبوعات؛ لعلاقات خاصة بيني وبين القائمين على تلك المنظمات والهيئات، أو لأخذ رأيي أحياناً فيما ينشر. وأذكر من هذه الهيئات: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، والمجلس العلمي ـ إحياء التراث الإسلامي بالمدينة النبوية.

وبدولة الكويت: وزارة الإعلام، ووزارة الأوقاف، وقسم التراث العربي بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ومؤسسة الكويت للتقدم العلمي.

ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، وهو مركز نشط جداً، والقائمون عليه يعملون وفق خطة محكمة، ومنهج رشيد، وحماسة بالغة.

وإذا كانت هذه المطبوعات العظيمة لتلك المؤسسات والهيئات تتاح لي ولغيري ـ وهم قلة ـ ممن لهم صلات مشاركة وتوجيه أو صداقة مع هذه المؤسسات، فما هو حظ القارىء العربي وغير العربي من هذه المطبوعات؟

إن الكتاب المطبوع هو أساس التواصل العلمي، والأصل فيه أن يكون متاحاً لكل قارىء، إما بالشراء وإما بالإهداء وإما بالإيداع في دور الكتب العامة.

أما الشراء فليس متاحاً لكل الناس؛ لأمرين: الأمر الأول أن بعض هذه الهيئات لا تطرح مطبوعاتها للبيع، والأمر الثاني أن بعض هذه المطبوعات ذات أجزاء كبيرة، قد يصل بعضها إلى عشرة أجزاء، فلو عرض للبيع لشق ثمنه على كثير من أهل العلم.

وأما الإهداء فدائرته محدودة جداً، على أن في هذا الإهداء بعض الآفات، وهو أنه يوجه أحياناً لمن لا يعرف قدره، أو لا يدرك وجه النفع منه، وأعرف بعض من يهدى إليهم كانوا يتركونه في الفندق؛ استثقالاً لحمله، أو فراراً من مؤونة الوزن الزائد وتكاليفه في شركات الطيران.

أهمية إيداع المطبوعات:

فلم يبق إلا الوجه الثالث، وهو إيداع المطبوعات في المكتبات العامة، وهذه المكتبات العامة ينبغي أن ينظر إليها على أنها: إما أن تكون مكتبات الدولة القومية، مثل دار الكتب المصرية، والخزانة العامة بالرباط، وإما أن تكون مكتبات الجامعات (مكتبة الجامعة نفسها، ومكتبات كلياتها ومعاهدها العليا).

فواجب على المنظمات والهيئات العلمية التي تعنى بطبع الكتاب العربي، أن تتيحه لهذه المكتبات العامة، واجباً حتمياً ونصيباً مفروضاً، لا مسامحة فيه، ولا معذرة عنه. وكنت زمان عملي بمعهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أرى قوائم ثابتة بالمعهد للجامعات والمراكز العلمية، نهدي إلى هذه وتلك جميع مطبوعات المعهد، دون انتظار لطلب أو استهداء.

وعلى الجانب الآخر ينبغي أن يكون بمكتبات الجامعات والكليات متابعة دائمة يقظة لجهات النشر والطبع شرقاً وغرباً، مما يعرف في علم الكتاب بقسم التزويد، وهذا في رأيي جانب أساسي من عمل مدير المكتبة الجامعية أو أمينها: أن

يتابع ما يُنشر، ويستهدي جهات النشر، فليس عمله فقط هو استقبال الكتب وتصنيفها وتوزيعها على الأرفف، وفق نظام «ديوي» أو تنظيم القراءة أو الإعارة بالمكتبة.

ومما يقترح هنا أن تقوم بكل كلية لجنة دائمة، يختارها عميد الكلية بترشيح من رؤساء الأقسام، وتكون مهمة هذه اللجنة معاونة مدير مكتبة الكلية في متابعة ما ينشر، واستهداء المراكز والهيئات العلمية، وأقترح أيضاً أن يكون جمهور هذه اللجنة من المعيدين والمدرسين المساعدين؛ لأن هؤلاء وهؤلاء أقرب إلى الكتاب، وأكثر حاجة له.

ومن وراء الإهداء والاستهداء تبقى قضية بالغة الأهمية، وهي غياب مطبوعات هذه المنظمات والهيئات العلمية عن وسائل الإعلام، ففي كل صحيفة ومجلة من صحفنا ومجلاتنا صفحات للأدب والثقافة، ترى فيها أبواباً ثابتة عن «الإصدارات الجديدة»، لكنك لا تطالع من هذه الإصدارات إلا المجموعة القصصية لفلان، والديوان الشعري لفلان، وكأن دنيا العلم والمعرفة قد خلت إلا من هذه القصص وتلك الأشعار، على ما في بعض هذه وتلك من برد وغثاثة.

ويبدو أن هذه الإصدارات إنما يسعى بها أصحابها إلى صفحات الجرائد والمجلات، لتصنع لهم شهرة لا تقدم في طريق العلم أو الفن شيئاً.

ولو كانت الأمور تجري على وجهها الصحيح لكان المشرفون على هذه الصفحات الأدبية هم الذين يسعون بأنفسهم إلى جهات النشر، ويتابعون نشاط المطابع في كل مكان وفي كل علم.

وأذكر هنا بما كان يصنعه الشاعر المحقق حسن كامل الصيرفي رحمه الله، في مجلة الكتاب العربي، التي كانت تصدرها الدار المصرية للتأليف والترجمة في منتصف الستينات، فقد كان ــ وهو مدير تحرير هذه المجلة ــ يحرر باباً عنوانه: (أخبار الكتاب العربي في العالم)، وكان يبذل فيه جهداً طيباً في ملاحقة أخبار الكتاب شرقاً وغرباً.

ولو كانت الأمور تجري على وجهها الصحيح أيضاً لكان مندوبو الصحف في عواصم العالم هم الذين يزوِّدون صحفهم بالنشاط الفكري والطباعي في البلدان التي يقيمون بها، فما ينبغي أن يكون عمل مندوب الجريدة في الخارج هو متابعة أخبار السياسة، ليس غير. وبذلك كله يكون الكتاب هو الرافد الصحيح للتواصل العلمي بين الأفراد والجماعات.

ولم يبق إلا تقديم أصدق التحية إلى الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العام ــ المثقف المتابع ــ للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الذي فتح لنا هذه الأبواب من القول.

❊ ❊ ❊

المتنبي.. وعلم المخطوطات[1]

يبدو أن أبا الطيب سيظل يملأ الدنيا ويشغل الناس، فما يكاد الأدباء يفرغون من قضية من قضاياه حتى تظهر لهم قضية أخرى.

وكان من سوالف الأقضية أني دُعيت من قبل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض حاضرة المملكة العربية السعودية، للقيام بعمل هو من أحب الأعمال إلى نفسي وأعلقها بقلبي، وهو النظر فيما جمعته عمادة شؤون المكتبات بالجامعة، من نوادر المخطوطات ونفائسها، واستصفاء طائفة من تلك النوادر والنفائس، وتقديمها لأهل العلم؛ شاهداً ودليلاً على أنه لا يزال في الزوايا خبايا.

والنُّدرة أو النفاسة في علم المخطوطات ترجع إلى عدة أمور، منها:

(أ) أن يكون المخطوط بخط المؤلف، وهي الغاية التي ليس وراءها غاية.

(ب) أن يكون المؤلف قد أملى المخطوط على أحد تلاميذه فكتبه، وأثبت هو عليه خطه بصحة القراءة عليه، أو سماعه، أو إجازته.

(ج) أن يمتلك المخطوط أحد العلماء المشهورين، ويثبت عليه خطه بالقراءة أو التملك.

(د) أن يكون المخطوط وحيداً لا توجد منه إلا هذه النسخة.

(هـ) أن يكون المخطوط قديم النَّسخ.

وهذا هو المعيار العام في تقديم المخطوط، وهو القِدم والقرب من المؤلف.

---

(١) مجلة «العربي»، العدد ٤٤٠، يوليو ١٩٩٥م.

على أن هناك أسباباً أخرى للندرة والنفاسة، ولا يمكن حصرها والإحاطة بها هنا، وإنما يظهر منها الشيء بعد الشيء، ومعرفة ذلك موكولة إلى ثقافة المفهرس، ومعرفته بتاريخ الكتب وحال المطبوع منها، وعن أي أصول خطية حُقق الكتاب، ولا يتأتى هذا إلا بعد دربة وكثرة تفتيش، ومجالسة ومشافهة أهل العلم، وقد أدركت طائفة منهم كانت أحوال المخطوط والمطبوع من تراثنا عندهم على طرف الثُّمام.

وقد يُطبع الكتاب ويشيع، وتكثر إفادة الدارسين منه وإحالتهم عليه، ثم تظهر منه مخطوطة تشتمل على زيادات ليست في ذلك المطبوع منه، والأمثلة من ذلك كثيرة، أكتفي منها بمثال واحد: هو شرح ديوان المتنبي للواحدي، والواحدي هو: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد، المتوفى بنيسابور سنة ٤٦٨هـ، وهو عالم بالتفسير والأدب، ومن أشهر تصانيفه: أسباب نزول القرآن الكريم، وتفاسيره: البسيط والوسيط والوجيز.

ويعد شرحه لديوان المتنبي من أقدم شروحه وأحسنها، وقد تنبه له المستشرقون منذ زمن بعيد، فنشره المستشرق الألماني فريدرك ديترصي بمدينة برلين سنة ١٢٧٦هـ ــ ١٨٦٠م، أي منذ ١٣٥ عاماً، وما زالت هذه هي الطبعة الوحيدة التي بأيدي الناس.

مخطوطة نفيسة:

وقد رأيت من هذا الشرح مخطوطة نفيسة في أثناء عملي بعمادة شؤون المخطوطات بجامعة الإمام محمد بن سعود التي أشرت إليها. وهذه المخطوطة منسوخة سنة ٦٨٠هـ بخط نسخي جيد مضبوط، وكتبت أبيات المتنبي بخط الثلث الكبير.

وفضلاً عن قدم هذه المخطوطة وجودة خطها فقد اشتملت على خاتمة لم تأت في طبعة برلين المذكورة، وهذا نصها، يقول الواحدي:

«هذا آخر ما اشتمل عليه ديوانه الذي رتبه بنفسه، وهو خمسة آلاف وأربعمائة

وأربع وتسعون قافية. وكان الفراغ من هذا التفسير والشرح اليوم السادس عشر من شهر ربيع الآخر، سنة اثنتين وستين وأربعمائة. وإنما دعاني إلى تصنيف هذا الكتاب مع خمول الأدب وانقراض زمانه، اجتماع أهل العصر قاطبة على هذا الديوان، وشغفهم بحفظه وروايته، والوقوف على معانيه، وانقطاعهم عن جميع أشعار العرب، جاهليّها وإسلاميّها، إلى هذا الشعر، واقتصارهم عليه في تمثلهم ومحاضراتهم وخطبهم ومقاماتهم، وحتى كأن الأشعار كلها فُقدت، وليس ذلك إلا لتراجع الهمم وخلو الزمان عن الأدب، وتقاصر الرغبات، وقلة العلم بجوهر الكلام ومعرفة جيده من رديئه، ومطبوعه من متكلفه.

ومع ولوع الناس بهذا الديوان لا ترى أحداً يرجع في معرفته إلى محصول، أو يفي ببيان عن مودعاته وغوامض معانيه ومشكلاته، وإنما المَفْزَع فيه إلى فَسْر [أي تفسير] أبي الفتح ابن جني، وهو في ذلك كقول من قال:

أصبحت ترجو الغوث من قِبَلي والمُستغاث إليه في شُغُلِ

وأنه اقتصر في كتبه على تفسير الألفاظ، واشتغل بإيراد الشواهد الكثيرة والنحو والغريب، حتى اشتمل كتابه على عُظم نوادر أبي زيد، وجميع أبيات سيبويه وأكثر مسائله، وزهاء عشرين ألفاً من الأبيات الغريبة، وحشاه بحكايات باردة، وأخبار من العرب غريبة نادرة، لا يحتاج في فَسْر هذا الديوان إلى شيء منها. والله تعالى ذكره يتغمدنا وإياه بسعة رحمته، وجميل عفوه، إنه الغفور».

فهذه الخاتمة التي انفردت بها تلك المخطوطة أفادتنا عدة فوائد:

(أ) تاريخ فراغ الواحدي من شرحه، وأن ذلك كان قبل وفاته بست سنوات، فيكون قد ألفه وهو في تمام نضجه العلمي.

(ب) ذكره لدواعي تأليفه.

(ج) ما يفهمه الناقد البصير من خبيء هذا الكلام، وكشفه عن رأي الواحدي

في شعر المتنبي جملة، وكأنه يريد أن يقول: إن أبا الطيب لا يستحق كل هذه الضجة، وإنه لا ينبغي أن يحجب بشعره شعر الأوائل.

(د) نقده لشرح ابن جني لشعر المتنبي، وكأنه يريد أن يقول: إن إخضاع الشعر لقضايا النحو واللغة، على نحو ما يصنع ابن جني ومن على شاكلته، لا يكشف عن جوهر الشعر، ولا يستشرف آماده الرحبة الواسعة.

وهذه الفائدة التي جاءت بها مخطوطة شرح ديوان المتنبي، وأخلَّت بها مطبوعته، تقودنا إلى أهمية البحث الدائم عن المخطوطات العربية، وعدم الإخلاد إلى الراحة، والتعويل على ما بين أيدينا من المطبوعات.

حاجتنا إلى المخطوطات:

ويأتي السؤال المهم: هل نحن في حاجة إلى مخطوطات جديدة، تكشف عن تراثنا وتجلوه بعد هذا القدر الهائل من المطبوعات، منذ ظهور المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي؟

وأقول: نعم، نحن في حاجة لا تنقطع إلى المخطوطات، وحاجتنا هذه لغايتين:

الغاية الأولى: البحث عن تلك المخطوطات التي تتردد في كتب التراجم والببليوغرافيا، لعلمائنا، ويكثر النقل عنها والإحالة عليها في كتب اللاحقين، ولا نرى لها وجوداً في فهارس المكتبات، مطبوعة أو مخطوطة، والذي يُغرينا بدوام البحث وعدم اليأس: تلك المخطوطات التي تظهر بين الحين والحين وكنا نعدها من المفقودات، وحديث ذلك معلوم عند أهل الاختصاص، ولي في ذلك تجارب أيام عملي بمعهد المخطوطات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، فقد اكتشفت أشياء من المخطوطات لا يعلم الناس عنها شيئاً، وذلك من خلال رحلات معهد المخطوطات إلى البلدان التي تكثر فيها المخطوطات مثل تركيا والمغرب واليمن وإسبانيا.

والغاية الثانية: أن بعض مطبوعاتنا نشرت عن أصول مجهولة، وقد كان هذا في مراحل الطبع الأولى، قبل أن يستقر علم تحقيق المخطوطات، وقد يسأل سائل: كيف كانت هذه الأصول المخطوطة مجهولة؟ والجواب: أن ناشري الكتب في تلك المراحل الأولى من الطباعة لم يكونوا يُعنون بذكر وصف المخطوط الذي ينشرون عنه، بل إنَّ بعضهم كان يتخلَّص من المخطوط نفسه بعد الفراغ من طبعه، فإن العمال أحياناً كانوا يجمعون من المخطوط نفسه، ولقد رأيت مرة عند بعض باعة الكتب القديمة أوراقاً من كتاب مخطوط، ورأيت آثار يد وأحبار على هذه الأوراق في غير مكان منها، فتعجبت من ذلك، ولكن عجبي زال حين أخبرني ذلك الوراق أن هذه آثار يد الجمِّيع ـ يعني عامل المطبعة ـ الذي كان يجمع من المخطوطة مباشرة.

وأيضاً: فإن بعض أصول علمنا ـ على شهرتها ـ طبعت عن أصول ناقصة، ومن ذلك معجم الشعراء للمرزباني، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ومعجم الأدباء لياقوت الحموي.

ومن وراء ما ذكرته من نقص المطبوعات وجهالة أصلها، فإن هناك أمراً في غاية الأهمية، وهو أن بعض كتبنا المطبوعة قد ظهرت لها مخطوطات نفيسة توجب إعادة تحقيقها ونشرها، والأمثلة من ذلك بالغة الكثرة، أكتفي منها ببعض ما رأيته بعيني في رحلاتي وأسفاري، ومن ذلك: الكتاب لسيبويه، والصَّحاح للجوهري، والعمدة لابن رشيق، فهذه الكتب الثلاثة مطبوعة أكثر من طبعة، لكني رأيت منها نسخاً مخطوطة عالية جداً: فمن كتاب سيبويه رأيت أقدم مخطوطة منه، ترجع إلى القرن الرابع، بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء، ومن هذه النسخة نفسها قطعة في مكتبة الإمبروزيانا بميلانو بإيطاليا، وانتقال بعض المخطوطات من اليمن إلى الإمبروزيانا له قصة معروفة عند أهل الشأن والاختصاص.

والصَّحاح للجوهري أصل من أصول المعاجم العربية، وعلم الصرف بوجه خاص، وقد رزق حُظوة في كثرة مخطوطاته ونفاستها مما لم أره لكتاب آخر، ومن ذلك ما رأيته في مكتبات تركيا والمغرب واليمن والسعودية. ونسخة الصَّحاح

المطبوعة زاخرة بالأخطاء والتصحيفات، فيجب إعادة طبعه على هذه المخطوطات النفيسة منه.

والعمدة لابن رشيق رأيت منه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض مخطوطة تشتمل على الجزء الثاني ـ وهو آخر الكتاب ـ بقلم نسخي نفيس عتيق، لا يخرج عن القرن السادس، وكانت هذه المخطوطة في مِلك الأديب المصري الشيخ علي الليثي، ثم خرجت من القاهرة واستقرت بالرياض، وكلها بلاد الله، المهم أَلَّا تضيع المخطوطات، ودعك من حديث سرقة المخطوطات وبيعها فهو حديث خرافة.

ماذا عن علم المخطوطات؟

وهذا الذي ذكرته لك أيها القارىء الكريم هو جزء من علم ضخم هو «علم المخطوطات»، وهذا العلم ذو شعب كثيرة، وقد بدأ الاهتمام به حين استقر علم «تحقيق النصوص ونشرها»، فإن النصوص حين تحقق إنما تعتمد على أصول مخطوطة موثقة، ثم استقل الحديث عنه علماً قائماً بذاته، يتناول قضايا كثيرة: تبدأ بتاريخ التدوين بعد انحسار عصر الرواية، وأدوات الكتابة من أقلام وأحبار، وما يكتب عليه من عسب النخل، وعظام الإبل، واللِّخاف: وهي الحجارة البيض العريضة الرقيقة، والجلود والرَّق ـ بفتح الراء ـ وهو الجلد الرقيق الذي يؤخذ من بطن الغزلان، وتاريخ ظهور الورق وصناعته، وأماكن وجوده، وأنواعه من الصيني والسمرقندي والمصري والبغدادي والمملوكي، ثم ما يتبع ذلك كله من الإملاء والنَّسخ ومنازل النساخ وطبقاتهم، ثم معرفة منازل النُّسخ للكتاب الواحد، وتقديم نسخة على أخرى، وفق المعايير التي ذكرتها في مقدمة هذه الكلمة، ومعرفة الخط العربي بنوعيه: المشرقي والمغربي، وتطوره وسمات كل عصر في نوع الخط الذي يشيع فيه، وتوظيف ذلك كله في تقريب زمن كتابة المخطوط عندما يفقد المخطوط تاريخ كتابته، ومعرفة أمراض المخطوطات، من الرطوبة والأرضة، وهي تلك الحشرة الآكلة التي تسمَّى في بلادنا المصرية: السوس أو العُثَّة ـ وينطقها العوام

بكسر العين بعدها تاء مثناة من فوق، كما يقلبون الثاء تاء في بعض الكلمات، مثل قولهم: تعلب بدل ثعلب، والتوب مكان الثوب ــ وطرق الوقاية من مثل هذه الآفات، واصطناع الوسائل التي تحفظ المخطوطات من البلى، مثل فن الترميم.

ومن ميادين هذا العلم معرفة البلدان التي تكثر فيها المخطوطات، أصالة أو انتقالاً، وحديث المكتبات العامة والخاصة، وما فُهرس منها وما لم يفهرس.

مسار التأليف العربي:

وقد تنازع معرفة هذا العلم والاهتمام به طائفتان من الناس، الطائفة الأولى: هم العلماء المحققون الذين شغلوا بتحقيق المخطوطات ونشرها، والطائفة الثانية: هم نفر من الناس اشتغلوا بهذا العلم جمعاً وفهرسة ليس غير، كما يعنى جامع الآثار بتحصيلها وتهيئتها للدارسين ليس غير، ومن الناس من حاز الفضيلتين وجمع بين الاهتمامين: تحقيق المخطوطات وجمعها وفهرستها، وهذا الصنف من الناس قليل، ولا شك أن من يشتغل بعلم المخطوطات من العلماء المحققين يكون أقدر من غيره على تقييم ما يقع بين يديه من مخطوطات؛ لأنه يعرف مسار التأليف العربي وتطوره خلال العصور، كما أنه يدرك العلائق بين الكتب شرحاً أو اختصاراً أو نقداً أو تذييلاً، فضلاً عن معرفته بالموجود والمفقود من تراثنا، وتاريخ العلماء وتراجمهم وتقلبهم في العالمين، وقد أدركت نفراً من هذه الطائفة كانوا يعرفون أسماء الكتب ومداخلاتها، وأسماء العلماء وكُناهم وألقابهم وأنسابهم، وتاريخ وفيَاتهم ومبلغ أعمارهم، كما يعرف الناس آباءهم، إلى جانب تلك الحصيلة اللغوية التي تعين على قراءة العَسِر المعمَّى من المخطوطات، والخطوة الأولى في الحكم على المخطوط وتقييمه هو قراءته قراءة صحيحة مبرأة من التصحيف، سليمة من التحريف.

وقد كُتِبَتْ في علم المخطوطات دراسات كثيرة تناولت قضاياه كلها، وذلك في المجلات المتخصصة، مثل مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة، التي صدر العدد الأول منها سنة ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م وما زالت تصدر بحمد الله، برغم ما تعرض له

المعهد من هزات وتقلبات، ومجلات مجامع اللغة في القاهرة ودمشق وبغداد والأردن، ومجلة المورد العراقية، والمجلات العلمية في المغرب العربي، ومجلات الاستشراق، ثم صدرت فهارس كثيرة للمخطوطات في الشرق والغرب، ترصد المخطوطات وتصنفها وتعرف بها، إلى جانب العملين الكبيرين في هذا الميدان، وهما: تاريخ الأدب العربي للمستشرق الألماني كارل بروكلمان، وتاريخ التراث العربي للعالم التركي مولداً ونشأة، الألماني جنسية وإقامة، الدكتور محمد فؤاد سزجين.

وقد ارتبط هذا العلم بأسماء كبيرة، أحبت المخطوطات حباً شديداً، وسعت لها سعيها، فصرت لها الجهود، وبذلت في تحصيلها الأموال، تسخيراً من الله عزَّ وجلّ لحفظ ذلك التراث وحياطته وصيانته، ويبرز هنا عالمان جليلان، أحدهما في المشرق العربي، والثاني في المغرب العربي:

فأما الذي في المشرق: فهو العلامة أحمد تيمور باشا، وهو فرد زمانه وواحد عصره، نشأ في بيت عز ونعيم، ثم صرف همته إلى العلم والأدب، وجمع مكتبة قيمة حوت كثيراً من نوادر المخطوطات ونفائسها، ضُمَّت بعد وفاته إلى دار الكتب المصرية، وعرفت باسم: المكتبة التيمورية، وقل أن تجد مخطوطة من مخطوطات مكتبته إلا وفي أولها فهرس واف لما تضمه هذه المخطوطة بخطه الدقيق الواضح.

وأما الذي في المغرب: فهو العلامة محمد عبد الحي بن عبد الكبير، المعروف بعبد الحي الكتاني، صاحب «التراتيب الإدارية» و «فهرس الفهارس والأثبات» وهو في شيوخه ومروياته عنهم، سافر وارتحل، وحصَّل كثيراً من المخطوطات، جُمع بعضها في الخزانة العامة (دار الكتب) بالرباط، باسم: المكتبة الكتانية.

ومن وراء هذين العَلَمين تأتي أسماء كثيرة أيضاً في هذا العلم، مثل: محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي، وشيخ العروبة أحمد زكي باشا، وهو أول من

استخدم كلمة «تحقيق» في صدر الكتب المنشورة، وهو أيضاً ناشر كتاب «أنساب الخيل» وكتاب «الأصنام» كلاهما لابن الكلبي، وقد جمع مكتبة مخطوطات قيمة عرفت في دار الكتب المصرية بالمكتبة الزكية، ومحب الدين الخطيب العالم الناشر، وهو صاحب المكتبة السلفية، والناشر العظيم ذو الأثر الكبير محمد أمين الخانجي، والعالم التونسي الكبير حسن حسني عبد الوهاب، والفقيه التطواني بمدينة سلا بالمغرب، وأحمد عبيد بدمشق.

وقد أدركت من تلاميذ هذا الجيل العظيم وورثته اسمين كبيرين: فؤاد سيد عمارة، ومحمد رشاد عبد المطلب.

أما فؤاد سيد، فقد كان أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية، وكان هذا الرجل آية في معرفة المخطوطات وقراءتها، ومَيْزِ صحيحها من زائفها، وعتيقها من محدثها، مع اطلاع واسع وحافظة قوية. وأما محمد رشاد عبد المطلب فقد عمل بمعهد المخطوطات بالقاهرة منذ إنشائه سنة ١٩٤٦م إلى حين وفاته سنة ١٩٧٥م، وقد خرج في بعثات المعهد لتصوير المخطوطات، من القدس والهند وتركيا والمغرب والسعودية، وكان أعجوبة زمانه في معرفة المخطوطات ومظان وجودها، وكان يتحدث عنها حديث العاشق المدلّه بحبها، كما كان له معرفة واسعة بالكتاب المطبوع، زماناً ومكاناً، وفرق ما بين الطبعات.

وقد كان لهذين الرجلين فضل ظاهر على جمهرة الدارسين والباحثين، وأشهد ـ وقد جلست إليهما زماناً وتعلمت منهما الكثير ـ أنهما دلاَّ أعداداً كبيرة من طلبة الدراسات العليا على مصادر وموارد في أبحاثهم لم يكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس، بل لعلهم لم يكونوا يقفون عليها لولا عونهما ومساعدتهما.

علماء المخطوطات:

ثم عرفت من علماء المخطوطات غير هذين الكثير، من أمثال صلاح الدين المنجد، وهو سوري تولى إدارة معهد المخطوطات بالقاهرة سنوات، كانت من

أزهى سنوات ذلك المعهد، وكان من أنشط وألمع من تولوا إدارة المعهد، وهو الذي حرك المعهد في أنشطته المختلفة، من تصوير ونشر وفهرسة، وكان أول رئيس تحرير لمجلة المعهد.

ومن المغرب عرفت أسماء كبيرة في علم المخطوطات، مثل محمد العابد الفاسي أمين المخطوطات بمكتبة القرويين بفاس، وكان جبل علم، مات وفي صدره الكثير، ومحمد إبراهيم الكتاني أمين المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط، وله دراسات كثيرة حول علم المخطوطات، وله أيضاً اكتشافات جيدة في نسبة المخطوطات المجهولة إلى أصحابها، أذكر منها هنا اكتشافه لنسبة مخطوطة الجزء الثاني من كتاب «تذكرة النحاة» لأبي حيان الأندلسي، وعبد السلام بن سودة صاحب كتاب «دليل مؤرخ المغرب الأقصى»، والعلامة التقي النقي بقية السلف الصالح الشيخ محمد المنوني، زين المغرب الأقصى، ونور الرباط وبهجتها، جلست إليه ورويت عنه، وهو إلى جانب اشتغاله بعلم المخطوطات باحث عظيم، وله تحقيقات وتصانيف جياد ــ وبخاصة في تاريخ المغرب ومظاهر نهضته، ويبذل علمه في سخاء وأريحية لكل من يقصده أو يكاتبه، أطال الله في النعمة بقاءه.

وعرفت أيضاً من علماء المخطوطات: إبراهيم شبوح بتونس، ومحمد بن شريفة بالمغرب، ومن المملكة العربية السعودية علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر، وعبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ومن اليمن القاضي إسماعيل الأكوع، وأخاه القاضي محمد الأكوع، وعبد الله الحَبْشي، وهو باحث جيد، ومن العراق أسامة النقشبندي، وقاسم السامرائي، وله اهتمام خاص بتاريخ الورق وصناعته، ومن الكويت عبد الله يوسف الغنيم، وله اهتمام خاص بمخطوطات الجغرافيا العربية، ومن تركيا رمضان شَشَن.

وإنما استكثرتُ من ذكر هذه الأسماء ــ وقد عرفتها من خلال اشتغالي بهذا العلم سنوات ذات عدد ــ لأدلل على أن علم المخطوطات في عالمنا العربي يرتبط

بأسماء بأعيانها، ومعظم هذه الأسماء إنما ارتبطت بهذا العلم لاهتمامات خاصة، ومن مخاطر الاهتمامات الخاصة أنها تتوقف بتوقف أصحابها، بدواعي التوقف التي لا يمكن حصرها، ومعنى هذا أننا بحاجة إلى تأصيل هذا العلم، ولا سبيل إلى ذلك إلا الجامعات العربية، بأقسام المكتبات بها، أو بمراكزها العلمية، وأعلم أن أقسام المكتبات ببعض كليات الآداب تعنى بتدريس هذا العلم، ولكن بمناهج مخففة، وبالجوانب النظرية فقط، ثم بالاقتصار على أساتذة قسم المكتبات فقط، دون الاستعانة بخبراء هذا العلم الذين هم خارج الإطار الجامعي: أقول قولي هذا وأنا أعلم أن لبعض أساتذة أقسام المكتبات بالجامعات علماً بالمخطوطات ولكنهم قليلون، ولا بد من الإفادة من هذه الخبرات التي ليست من أعضاء هيئة التدريس.

كما أني أعلم أيضاً حديث هذه الحلقات التي تقام بين الحين والآخر لدراسة شئون المخطوطات وقد كثرت هذه الحلقات في السنوات الأخيرة كثرة ظاهرة، ولكن التنسيق بينها مفقود، كما أن الجهود اللاحقة فيها لا تستفيد من الجهود السابقة، فكل في فلك يسبحون.

وأعتقد أنَّ الحلقة المفقودة في مثل هذه الجهود أنها لا تتجه إلى تكوين جيل من الشباب يؤسَّس على المعرفة الصحيحة ليمضي في هذا الطريق على بصيرة، أما أن تلقى بحوث ومحاضرات يخاطب العلماء فيها بعضهم بعضاً، فهذا ما لا غناء فيه ولا طائل تحته. ومن جهات النقص في مثل هذه الحلقات أن الدول التي تدعى إليها والمؤسسات التي تشترك فيها ترسل في الغالب موظفين بدور الكتب وبالإدارات الثقافية بها، والموظف يحرص على أن يقدم تقريراً، لا أن يُحَصِّل علماً.

إن علماء المخطوطات يتناقصون يوماً إثر يوم، بالموت الذي لا يُرد، وبالصوارف التي لا تدفع. وقد مات كثير من علماء المخطوطات وفي صدورهم الشيء الكثير، فبعضهم ضنَّ واحتجن، وبعضهم تراخى وغرَّه طول الأمل. ولهذا

فإني أدعو كل من أنعم الله عليه بشيء من هذا العلم أن ينشره ويذيعه، فإن الموت لا موعد له، وعلمه عند علام الغيوب.

ثم إنه من أوجب الواجبات على جامعاتنا العربية أن تعتني بهذا العلم، وتجعل له من ميزانيتها نصيباً مفروضاً، وأن تستثمر من بقي من خبراء هذا العلم، لتتخرج عليهم أجيال جديدة، تمضي في الطريق وتكمل المسيرة، فلا ينقطع مدد هذا العلم الذي هو الأساس لاكتشاف المغيَّب من تراثنا، وتأكيد الثقة بما سلم لنا منه، من عوادي الناس والأيام.

* * *

تم القسم الأول من مقالات

العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي

ويتبعه القسم الثاني وفيه:

تتمة مقالاته رحمه الله تعالى

هذه النقطة.. وقضية التصحيف والتحريف[1]

كتب الأستاذ سامح كريم بصفحة الأهرام الأدبي ١/٨/ ١٩٩٥ كلمة أشار فيها إلى ذلك الخطأ الذي جاء في امتحان اللغة العربية (سؤال البلاغة) للثانوية العامة هذا العام، حيث جاء بيت أحمد شوقي:

ولم أخل من وجدٍ عليك ورقَّة   إذا حلَّ عيد أو ترحَّل عيد

بالعين المهملة في الكلمتين، والصواب «غيد» بالغين المعجمة.

وفي ظني وتقديري أن الذي أوقع في هذا الخطأ هو مجيء الفعل «حل» خالياً من تاء التأنيث، فظن واضع السؤال أن الكلمة لو كانت «غيد» بالغين المعجمة، للحقت التاء الفعل، فكان يكون «حلت»، لأن «الغيد» جمع «غيداء» وهي المرأة المتثنية من اللين، ومن ذلك: الغادة، وهي الفتاة الناعمة، ولو قال الشاعر «حلت» لاختل الوزن. وقد نسي واضع السؤال أو مراجعه أن الفاعل إذا كان مجازي التأنيث، جاز ترك تأنيث فعله.

ومهما يكن من أمر، فهذه النقطة التي سقطت من فوق الغين لها تاريخ في تراثنا الأدبي قديماً وحديثاً.

روي أن سليمان بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي كان غيوراً، فقيل له: إن المخنثين قد أفسدوا النساء بالمدينة، فكتب إلى أبي بكر بن عمرو بن حزم

---

(١) مجلة «الهلال»، سبتمبر ١٩٩٥م.

والي المدينة «أن أحصِ من قِبَلَك من المخنثين» يريد إحصاء بأسمائهم. فلما وصل الكتاب إلى ابن حزم صحف كاتبه فقرأ «اخصِ» بالخاء المنقوطة من فوق.

قال الراوي: فدعا ابن حزم بمن عرف من المخنثين ـ وكانوا ستة أو سبعة ـ فخصاهم، قال ابن جُعدبة: فقلت لكاتب ابن حزم: زعموا أنه كتب إليه: أن أحصهم. فقال: يا ابن أخي، عليها والله نقطة إن شئت أريتكها. وقال الأصمعي: عليها نقطة مثل سُهيل ـ وهو النجم المعروف ـ. ورُوي أن أحد المخنثين قال لما اختلفوا في الحاء والخاء، لا أدري ما حاؤكم وخاؤكم، قد ذهبت خُصانا بين الحاء والخاء. انظر لهذه القصة: تصحيفات المحدِّثين لأبـي أحمد العسكري ١/ ٧٢، وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، له أيضاً ص ٤٣، والتنبيه على حدوث التصحيف لحمزة بن الحسن الأصفهاني ص ١٠، وتصحيح التصحيف وتحرير التحريف لصلاح الدين الصفدي ص ١٧، والحيوان للجاحظ ١/ ١٢١.

ولا ينبغي التشكيك في هذه القصة، لأنها مروية بأسانيدها، ولأن هؤلاء الذين خصوا معروفون بأسمائهم، ويقال في ترجمة كل منهم: «وهو ممن خُصي بالنقطة». انظر مع المراجع السابقة الأغاني لأبـي الفرج ٤/ ٢٧٦ (طبعة دار الكتب المصرية).

فهذه أشهر نقطة، صنعت ما صنعت قديماً.

أما النقطة الثانية فكانت في أوائل الستينات من هذا القرن، حين كتب الدكتور لويس عوض في الأهرام، على امتداد شهري أكتوبر ونوفمبر ١٩٦٤م، سلسلة مقالات حول أبـي العلاء المعري ورسالة الغفران، وجعل عنوانها: «على هامش الغفران شيء من التاريخ»، وفي بعض هذه المقالات أورد الدكتور لويس من شعر أبـي العلاء قوله:

صلِيَت جمْرة الهَجِير نهاراً ثم باتت تَغِصُّ بالصُّلبان

هكذا أثبت الدكتور قافية البيت «الصلبان» بباء منقوطة بنقطة واحدة، على أنها جمع «صليب»، وكتب تحت البيت «سقط الزند في وصف حلب»، وساق الكلام كله في بيان غلبة نصارى الروم على أهل الإسلام.

وصحة رواية البيت كما جاء في سقط الزند ١/ ٤٥١ ــ وبها تمام وزنه ــ «الصِّلِّيان» بالصاد المكسورة بعدها لام مشددة، مكسورة أيضاً، ثم ياء مثناة من تحت، أي بنقطتين اثنتين. وأبو العلاء يذكر في هذا البيت الإبل، ويصف ما لاقته نهاراً في البيداء من هجير وظمأ، وما رعت ليلاً من صلِّيان، وهو نبت له جذور ضخمة في الأرض، تجتثها الإبل بأفواهها فتأكلها من شدة حبها لها، فإذا كانت رطبة أساغتها، وإذا كانت يابسة غصَّت بها، أي شرقت.

وقد فجرت هذه القضية بركان غضب عند شيخ العربية أبـي فهر محمود محمد شاكر، وأدار عليها كتابه الفذ الدامغ (أباطيل وأسمار).

فهذان مثالان على البلايا التي جرَّتها النقطة، زيادة أو نقصاً.

وفي الرد الذي أرسلته وزارة التربية والتعليم ونشر في الأهرام ٨/ ٨/ ١٩٩٥ اعتذار عن الخطأ في «غيد» التي كتبت «عيد»، وتسويغ له بأنه راجع إلى ظاهرة «التصحيف والتحريف»، وهذا خلط شديد ومغالطة صريحة كما ورد في تعقيب الأستاذ سامح كريم.

فهذا الذي جاء في سؤال البلاغة في امتحان الثانوية العامة، إنما يرجع إلى الغفلة وعدم المراجعة، وترك التثبت، ولا صلة له بقضية التصحيف والتحريف، لأن هذه القضية لها وجه آخر، وقد كتب فيها أهل العلم قديماً وحديثاً، ووضعت فيها مؤلفات كاملة، وأشهرها ما ذكرته في صدر هذه الكلمة في قصة خصاء المخنثين.

وأخطر ما في هذه القضية أن بعض الذين يكتبون فيها الآن يردون «التصحيف» كله إلى طبيعة الحرف العربـي الذي يتشابه مع عدم النقط، وهذا غير صحيح، لأننا نجد كلمات كثيرة منقوطة نقطاً واضحاً لا لبس فيه، ومع ذلك تقرأ على غير وجهها، وهذا هو مفتاح القضية، إن كثيراً مما يتصحَّف من الكلام إنما يأتي نتيجة للغفلة، أو الجهل بتاريخ أمتنا وعلومها، وتاريخ رجالها، وكل ما أبدعته وأنتجته، ومن قبل ذلك ومن بعده عدم إعطاء الكلام حقه من التأمل والأناة، يؤكد هذا قول

أبـي أحمد العسكري ــ وهو خال أبـي هلال صاحب كتاب الصناعتين، وكتاب ديوان المعاني ــ يقول أبو أحمد: «فالاحتراس من التصحيف لا يُدرك إلا بعلم غزير، ورواية كثيرة، وفهم كبير، وبمعرفة مقدمات الكلام، وما يصلح أن يأتي بعدها مما يشاكلها، وما يستحيل مضامته لها ومقارنته بها، ويمتنع من وقوعه بعدها، وتمييز هذا مستصعب عسر إلا على أهله الحاملين لثقله والمستعذبين لمرارته، وقد قالت الحكماء: العلم عزيز الجانب، لا يعطيك بعضه أو تعطيه كلك، وقالوا: لا يدرك العلم براحة الجسم»، شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص ١، ٢.

هذا وقد عرَّف العلماء التصحيف والتحريف بتعريفات شتى، أعدلها وأقربها إلى الصواب ما قيل من أن التصحيف: هو تغيير في نقط الحروف أو حركاتها مع بقاء صورة الخط، مثل كلمة «العيب» التي يمكن أن تقرأ هكذا، وتقرأ أيضاً: الغيث ــ العنب ــ الغيب ــ العتب. فلو أهمل النقط في هذه الكلمة لأمكنك تحديد المراد عن طريق السياق والقرائن والفطنة، على الوجه الذي بيَّنه أبو أحمد العسكري.

وأما التحريف: فهو العدول بالشيء عن جهته، قال عزَّ مِن قائل: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال تقدست أسماؤه: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾ [البقرة: ٧٥].

والتحريف قد يكون بالزيادة في الكلام أو النقص منه، وقد يكون بتبديل بعض كلماته، وقد يكون بحمله على غير المراد منه، فهو بكل هذه التعريفات أعم من التصحيف، وبعض القدماء لا يفرق بين التصحيف والتحريف، يجعلهما مترادفين. راجع الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير. شرح الشيخ أحمد محمد شاكر ص ١٧٢.

والمأخذ اللغوي لمصطلح «التصحيف» يرجع إلى الأخذ عن الصحف، دون التلقي من أفواه المشايخ، لأن علومنا في الأصل قائمة على التلقي والرواية والمشافهة.

وقد كتبت رسالة في «التصحيف والتحريف» حاولت فيها أن أجمع أسباباً لحدوث هذه الظاهرة، وقد انتهيت إلى عشرة أسباب، يدور معظمها حول الجهل بغريب اللغة ومعانيها ولغات القبائل ولهجاتها، وخداع السمع، وخفاء معنى الكلمة على الناسخ أو القارىء، فيعدل بها إلى كلمة مأنوسة مألوفة تتفق حروفها أو تتقارب مع الكلمة الغامضة، ثم الجهل بأنماط التعبير عند القدماء، والجهل بمصطلحات العلوم، وأسماء البلدان، ثم الإلف والعادة، وضربت لذلك كله الأمثال، من الكتب المطبوعة، وأحاديث الناس ومحاضراتهم، مما لا يتسع المقام لذكره هنا.

التصحيف. . وتغيير التنقيط:

وتبقى قضية خطيرة جدّاً، أرجو من قارئي الكريم أن يمنحني شيئاً من وقته واهتمامه، وأنا أدعو له بالسلامة والعافية إن شاء الله:

لقد جاء في رد وزارة التعليم الذي نشرته الأهرام يوم الثلاثاء ٨/٨/ ١٩٩٥م في الاعتذار عن الخطأ الواقع في شعر أحمد شوقي، هذا الكلام: ما حدث من خطأ يعود كما يعرف أهل اللغة إلى ظاهرة شائعة في تراثنا العربي تسمَّى «التصحيف»، وكما يعرف الجميع أن المقصود بالتصحيف هو تغيير التنقيط من حيث الوجود والعدم، وهي ظاهرة تتكامل مع ظاهرة أخرى تسمَّى «التحريف» وتؤدي إلى اختلاف موضع التنقيط بين حروف الكلمة، ومن أشهر الأدلة على ذلك في تراثنا القراءة المشهورة للآية الكريمة في سورة الحجرات رقم ٦: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦ ﴾، حيث تقرأ «فتثبّتوا» كما قرئت «فتبيَّنوا» أما في الشعر العربي فهناك الآلاف من الأبيات التي رويت بروايات متعددة جميعها صحيح من حيث الوزن وإن اختلفت من حيث الكلمة والشكل والمعنى والدلالة، ويتضمن ذلك بديهياً ظاهرتا التصحيف والتحريف».

وهذا كلام واه ضعيف، بل قل: إنه كلام لا وزن له، وأمسك القلم عن الاسترسال في وصفه، ولكني أحب أن أسأل: كيف يتأتى وصف ظاهرة «التصحيف»

بأنها شائعة في تراثنا العربـي؟ وما هو هذا الشيوع، وما هي نسبته أمام التراث العربـي المقطوع بصحته وسلامته؟ وما حقيقة هذه الآلاف من الأبيات التي رويت مصحَّفة؟ ألا يسقط هذا الكلام الثقة في تراثنا الشعري والنثري كله؟ ثم بأي وجه وبأي لسان نلقى أبناءنا وطلابنا في فصول المدارس ومدرَّجات الجامعات، بعد هذا التشكيك الذي نشر في أكبر صحفنا وأوسعها انتشاراً.

ولنترك هذا كله، ولنقف عند أبشع شيء وأغلظه، وهو ذلك الكلام: «ومن أشهر الأدلة على ذلك في تراثنا القراءة المشهورة للآية الكريمة في سورة الحجرات رقم ٦: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ . . .﴾، حيث تقرأ «فتثبتوا» كما قرئت «فتبيَّنوا»!!! لا يا قوم، توبوا إلى بارئكم، واتقوا ربكم واخشوا يوماً ترجعون فيه إلى الله.

إن إيراد الكلام على هذا النحو وفي ذلك السياق والاستدلال يعطي بصريح اللفظ أن القراءتين «فتبيَّنوا» ـــ «فتثبتوا» أثر من آثار التصحيف، ثم لنا أن نسأل: من الذي صحف في هذه الآية الكريمة؟ أو: من هو المصحِّف الأول الذي تبعه الناس منذ نزول القرآن الكريم إلى يوم الناس هذا؟ ثم ما هي القراءة الأصل وما هي القراءة المصحَّفة، فإن كل تصحيف له أصل عدل عنه؟ وثم وثم وثم. . .

يا أيها الناس، إن القراءة سنة وأثر ورواية واتباع، وليست لغة يلعب بها الناس مهما بلغ مبلغهم من العلم. روى الأصمعي عن أبـي عمرو بن العلاء، قال: «لو تهيأ لي أن أفرغ ما في صدري من العلم في صدرك لفعلت، لقد حفظت في علم القرآن أشياء لو كتبت ما قدر الأعمش على حملها، ولولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قرىء به لقرأت كذا وكذا، وذكر حروفاً»، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للحافظ الذهبـي ١/ ١٠٢، ١٠٣.

وأبو عمرو ابن العلاء هو أحد القراء السبعة، وكان إماماً في اللغة والنحو، ثم كان راوية لذي الرمَّة الشاعر المعروف الذي يقال إن شعره ثلث لغة العرب. وقول أبـي عمرو: «ليس لي أن أقرأ إلا بما قرىء به»، يريد: أي بما جاءت به الرواية

المسندة إلى رسول الله ﷺ، فليست القراءة عن رأي واجتهاد، ليقرأ كل قارىء بما يرتاح إليه أو بما يمشي مع قواعده، وليس كل ما يجوز في العربية والنحو تجوز به القراءة، وقد شدد أهل العلم في ذلك، وكان أكثرهم تشديداً ونكيراً أبو إسحاق الزجاج رحمه الله، وكرَّره في أكثر من موضع في كتابه (معاني القرآن وإعرابه) فممَّا قاله في الجزء الثالث ص ٢٨٨ : «والأجود اتباع القرَّاء ولزوم الرواية، فإن القراءة سنة، وكلما كثرت الرواية في الحرف وكثرت به القراءة فهو المتبع، وما جاز في العربية ولم يقرأ به قارىء فلا تقرأن به، فإن القراءة به بدعة، وكل ما قلَّت فيه الرواية وضعف عند أهل العربية فهو داخل في الشذوذ، ولا ينبغي أن تقرأ به»، وانظر أيضاً ص ٤٥ من الجزء الأول من كتاب الزجاج هذا، ففيه كلام عال نفيس عن اتباع السنة والرواية في قراءة القرآن الكريم.

وقال القرطبي في تفسيره ٥/ ٤ : «والقراءات التي قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبيّ ﷺ تواتراً يعرفه أهل الصنعة، وإذا ثبت شيء عن النبيّ ﷺ، فمن ردَّ ذلك فقد ردَّ على النبي ﷺ، واستقبح ما قرأ به، وهذا مقام محذور، ولا يقلد فيه أئمة اللغة والنحو، فإن العربية تتلقى من النبيّ ﷺ، ولا يشك أحد في فصاحته».

فإذا ثبت هذا ــ وهو ثابت إن شاء الله ــ فإن كلتا القراءتين في آية سورة الحجرات مروية عن رسول الله ﷺ، وهما في اصطلاح القراء قراءتان سبعيتان، بأيهما قرأ القارىء أصاب السنة وأحرز الأجر، وليست إحدى القراءتين مصحَّفة عن الأخرى، تعالى الله وتعالى كلامه عما يقولون علواً كبيراً.

وقد قرأ «فتبيَّنوا» بالتاء الفوقية والباء الموحدة والياء التحتية والنون: ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر، وقرأ «فتثبتوا» بالتاء الفوقية والثاء المثلثة والباء الموحدة والتاء الفوقية: حمزة والكسائي، قال الإمام الجليل أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: «والقول عندنا في ذلك أنهما قراءتان معروفتان مستفيضتان في قَرَأَة المسلمين بمعنى واحد، وإن اختلفت بهما الألفاظ، لأن «المتثبت» متبيِّن، و «المتبين» متثبت، فبأي القراءتين قرأ القارىء فمصيب صواب القراءة في ذلك»

تفسير الطبري ٩/ ٨١، وراجع: السبعة في القراءات لابن مجاهد ص ٢٣٦، والحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٣/ ١٧٣، وإعراب القراءات السبع وعللها لابن خالويه ١/ ١٣٦، والكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب ١/ ٣٩٤، والنشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ٢٥١، والبحر المحيط لأبي حيان النحوي ٣/ ٣٢٨، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٤/ ٧٣.

ويلاحظ أن علماء القراءات والاحتجاج يذكرون هاتين القراءتين عند الآية ٩٤ من سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾، وعند آية سورة الحجرات المذكورة يحيلون على موضع سورة النساء، وهذا هو منهجهم إذا تكررت القراءة، يذكرون اختلاف القراء في الموضع الأول، ثم يحيلون في الموضع الثاني إليه.

أرأيت أيها القارىء الكريم ــ نفعك الله بما تقرأ، وعمر قلبك باليقين، وأزال عنك الشبهة، وجنَّبك الضلالة، وحرسك بالتوفيق ــ هذا هو القول الحق في القراءتين: «فتبيَّنوا ــ فتثبَّتوا» قراءتان صحيحتان مرويتان بالسند الصحيح إلى رسول الله ﷺ، لا دخل للتصحيف أو التحريف فيهما، ولكل قراءة محمل ووجه من العربية، يذكرهما أهل الاحتجاج من علماء القراءات والعربية، لكن هؤلاء العلماء ــ وهذا مهم جداً ــ لا يحتجون للقراءة إلا بعد ثبوتها رواية، وقد ذكر مكي بن أبي طالب ــ وهو من علماء الفن ــ ضوابط القراءة المقبولة، وحصرها في ثلاث:

١ ــ أن ينقلها الثقات عن النبيّ ﷺ.

٢ ــ أن يكون لها وجه صحيح شائع من العربية.

٣ ــ أن تكون موافقة لخط المصحف الإمام، أي الرسم العثماني. راجع الإبانة عن معاني القراءات ص ١٨، ونظم ذلك الإمام ابن الجزري في مقدمة منظومته المسمَّاة: طيِّبة النشر في القراءات العشر، قال رحمه الله:

فكـــل مـــا وافـــق وَجْـــهَ نحـــو وكـــان للـــرســـم احتمـــالاً يحـــوي
وصـــحَّ إسنـــاداً هـــو القـــرآن فهـــذه الثـــلاثـــة الأركـــان

وبعد: فيا أيها الوزير الفاضل الهُمام الأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين، راعي التعليم في ديارنا المصرية: صبَّحك الله بكل خير إن قرأت هذا الكلام في الصباح، وختم يومك بكل خير إن قرأته في المساء، لقد أسعدتنا وأثلجت صدورنا حين أعلنت في صحيفة الأهرام أنك ستعاقب كل من اشترك في وضع أو مراجعة أو تقييم سؤال البلاغة الخاطىء، واليوم أسألك بل أطالبك ـ وأرجو أن تتقبل مني هذا التعبير برحابة صدرك المعروفة وسماحة وجهك المألوفة ـ نعم أطالبك أن توقع أشد العقاب وأقساه على من تجرأ على كتاب الله، وأقحم هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ في الاعتذار عن خطأ لا يعتذر عنه ولا يتسامح فيه.

نعم أطالبك يا معالي الوزير النبيل بتوقيع هذه العقوبة وإعلانها في صدر صحفنا الكبرى، لأن الأمر يتصل بكتاب ربنا عزَّ وجلّ، وهو أعز ما نملك، ثم هو من قبل ومن بعد كتاب العربية الأكبر.

وفَّقك الله وأنجح أعمالك كلها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

السيرة الذاتية.. والصدق مع النفس[1]

[١]

كتب الأستاذ صلاح عيسى في عدد الهلال «مايو ١٩٩٥» كلمة، جعل عنوانها: «السيرة الذاتية، السؤال الذي لم يجب عنه أحد»، وقد عرض في هذه الكلمة لقلة كتب السيرة الذاتية في المكتبة العربية، ورد هذا إلى أننا «نحن العرب نعيش في ظل منظومة معلنة من القيم الخلقية الاجتماعية تتصف بالتزمت، ونتظاهر جميعاً باحترامها، مع أنها تتناقض عادة مع منظومة القيم الخلقية الفردية التي يؤمن بها كل منا، ويمارس حياته على أساسها، ومع ذلك فهو يحرص على أن يقدم نفسه للآخرين في الصورة التي تكفل رضاءهم عنه، بصرف النظر عن حقيقته، حتى أصبح ذلك قاعدة يقنِّنها المثل الشعبي الذي يقول: «كل ما يعجبك، والبس ما يعجب الناس»، ثم استطرد بعد ذلك إلى صور من النفاق الاجتماعي، قال عقبها: «وهذا هو الذي جعل الأدباء والساسة العرب يعزفون عن كتابة سيرهم الذاتية بنفس الصراحة والصدق اللذين كتب بهما جان جاك روسو اعترافاته».

وهذا كلام يردده الناس كثيراً، ويعجبون به، ويرضون عن قائله، لكني قبل أن أستطرد إلى مناقشته وبسطه والزيادة فيه أحب أن أوضح أن المثل الشعبي «كل ما يعجبك، والبس ما يعجب الناس» ليس كما فهم الكاتب الفاضل مسوِّغاً «ولا تقل مبرراً» للنفاق الاجتماعي، وإرضاء الناس ليس غير، وإنما معناه عندي: أن يحرص

(١) مجلة «الهلال»، يناير ١٩٩٦م.

الإنسان في ملبسه على رعاية الذوق العام، وعدم مصادمة العرف الاجتماعي، وإن لم يصح هذا الفهم والتفسير يكون الكلام ساقطاً لا محالة، لأن إنساناً مهما جهد واجتهد لا يستطيع أن يلبس لباساً يرضي كل الناس.

مثل قديم:

وقد ذكر هذا المثل أحمد باشا تيمور، في كتابه الأمثال العامية، صفحة ٤٠٤، وقال في تفسيره: «لأن ما تأكله تابع لشهوة نفسك، وأما ما تلبسه فالمراد به التزين للناس، فليكن على ما يعجبهم». وأرى أن أحمد تيمور قد قصَّر أيضاً في بيان حقيقة معنى هذا المثل، حين أغفل قضية رعاية الذوق العام، وعدم مصادمة العرف الاجتماعي، وهما المقصد والغاية من هذا المثل.

فائدة: قد يظن بعض الناس أن هذا المثل الشعبي: «كل ما يعجبك، والبس ما يعجب الناس» مثل معاصر، أو قريب من المعاصرة، والحقيقة أنه كلام قديم عمره نحو «١٤٠٠ سنة» فهو من كلام أبي عمرو بن العلاء، إمام العربية، وأحد القراء السبعة، المتوفى ١٥٤هـ، مع اختلاف في بعض العبارات، فقد روي أنه نظر إلى بعض أصحابه وعليه ثياب مُشَهِّرة، فقال: «يا بني، كل ما تشتهي والبس ما يشتهي الناس»، والثياب المُشَهِّرة: الفاضحة المفضوحة، وقد نظم هذا المثل بعض الشعراء القدامى، فقال:

إن العيون رمتك من فجَآتها وعليك من شُهْرِ اللباس لباسُ
أما الطعام فكُل لنفسك ما اشتهت والبَس ثيابك ما اشتهاه الناس

انظر: المثل والشعر في لطائف الظرفاء، للثعالبي ص ٥٢، وبهجة المجالس لابن عبد البر ٢/ ٥٨، والكشكول، لبهاء الدين العاملي ٢/ ٤٠٤.

ثم لنعد إلى ما فتحه أمامنا الأستاذ صلاح عيسى، فأقول: إن حب النفس مركوز في الطباع، ثابت في أصل الخلقة، فطرة فطر الله الناس عليها، يستوي فيها العربي والعجمي. ولا بأس على الإنسان أن يستر عيوب نفسه، ما دام ذلك الستر

لا يضر غيره بإبطال حق أو إحقاق باطل، وما أصدق كلمة الأستاذ إحسان عبد القدوس رحمه الله: «إني لا أكذب ولكن أتجمل»، فالتجمل مطلوب، أما الكذب فمرفوض، ومن أسوأ مظاهر الكذب: الكذب مع النفس، بأن يطوي الإنسان نفسه على شيء، ويقابل الناس بشيء آخر، وهو داء معروف في كل الأزمان والعصور، لكنه زاد في أيامنا هذه، لأسباب ودواعٍ كثيرة، يعرفها الناس ولا يجهلونها.

على أن بعض الناس قد يتظاهر بأنه يجري في طريق الإنصاف وهضم النفس، فيزعم أنه يعرض على الناس شيئاً من عيوبه ومساوئه، ولكنه يترفق في ذلك ترفقاً واضحاً، بل إنه يخادع، فيقول: إن من أشد عيوبي الثقة الزائدة بالناس، أو إن من مساوئي التفريط في حقوقي، وبذل حبي لمن لا يستحقه من الناس، وهذه كلها ضروب وألوان من خداع النفس، لأنه كلام صدره ذكر العيوب والمساوىء، وعجُزه ضارب في مدح الذات بعروقه، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم، كما يقول سادتنا البلاغيون، ولعل كثيراً من السير الذاتية التي نقرأها في هذه الأيام من هذا الباب، فضلاً عما في بعضها من ثلب للآخرين وتجريحهم.

على أننا لا ننتظر ممن يكتبون سيرتهم الذاتية أن يكشفوا لنا عن عيوبهم الفاضحة، ويطلعونا على عوراتهم ومساوئهم القادحة، لأن هذا يصادم موروثاتنا الدينية وأعرافنا الأخلاقية، ثم إنه من النبالة والمروءة أن تسكت أنت عن ذكر سوءاتك، ويسكت الناس عن ملاحقتك واستنطاقك بما تكره، وفي هذا وذاك نعود إلى موروث ديني:

فمن الأول: ما أخرجه مسلم في صحيحه «باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه من كتاب الزهد والرقائق» من حديث أبي هريرة، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل أمتي معافاة إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً، ثم يصبح قد ستره ربه، فيقول: يا فلان، قد عملت البارحة كذا وكذا، وقد

بات يستره ربه، فيبيت يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه» صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢٢٩١.

ومن الثاني: ما أخرجه أحمد في مسنده، من حديث أبي برزة الأسلمي، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»، مسند أحمد ٤/ ٤٢١، وأخرجه مرة أخرى من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ، بلفظ: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيِّروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته»، مسند أحمد ٦/ ٢٧٩.

أما ما يطلبه الأستاذ صلاح عيسى، من أن يكتب العرب سيرهم الذاتية بنفس الصراحة والصدق اللذين كتب بهما «جان جاك روسو» اعترافاته، فهذا ليس عدلاً، وليس إنصافاً، مع ما فيه من إغفال للموروث الديني، فجان جاك روسو ومَنْ إليه من سائر القوم يرجع إلى بيئة مختلفة عن بيئتنا، وأعراف اجتماعية مباينة لأعرافنا، وموروث ديني يغاير موروثنا.

وليس يخفى أن مصطلح «الاعترافات» عند القوم له دلالة خاصة ترتكز على أساس ديني، وتتطلب إجراءات ووسائط يعرفها الناس، أما في موروثنا الديني فالأمر في غاية اليسر والسهولة، فما عليك إلا أن تكاشف نفسك في لحظة صدق، وحدك منفرداً، تبسط أخطاءك وخطاياك أمام عينك، ناوياً البراءة منها، والخلاص من أثقالها، طالباً من ربك ـ ليس بينك وبينه حجاب ـ العون على تجاوزها، معاهداً له على عدم العودة إليها، فإذا صح منك العزم واستجبت للبراءة والتوبة في ظاهر أمرك وباطنه، خرجت من ذنوبك كلها كيوم ولدتك أمك، وليس للناس بعد ذلك حاجة في أن يعرفوا ما كان منك وما صرت إليه، فحسبهم منك الوجه الطيب والعمل الزاكي.

ويبقى في كلام الأستاذ صلاح عيسى ما ينبغي الوقوف عنده، والاحتفال به، وهو «الصدق» فيما يكتبه الناس من سيرهم الذاتية.

والصدق فضيلة الفضائل، وعنوان الشرف والكمال، به يسمو الإنسان أمام نفسه، وعليه يعظم في أعين الناس وإليه يعود صلاح المجتمع، وجاء في الأثر: «الصادق يعطى ثلاث خصال: المُلْحة والمحبة والمهابة»، والمُلْحة بضم الميم وسكون اللام: البركة، يقال: كان ربيعنا مملوحاً فيه: أي مخصباً مباركاً، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤/ ٣٥٤، روي شبيهه عن الزاهد الكبير يوسف بن أسباط قال: «للصادق ثلاث خصال: الحلاوة والملاحة والمهابة»، سير أعلام النبلاء، للذهبي ٩/ ١٧٠.

وبعض الذين يكتبون سيرهم الذاتية يستطردون مع شهوة الحديث عن النفس إلى ذكر محاسن ومآثر لهم، في مواقف ووقائع، يضخِّمونها وينفخون فيها، غير مدركين أن هناك من الناس من شهد هذه المواقف، وعاش تلك الوقائع، وغير متنبِّهين إلى أنهم ربما نقضوا كلامهم ذلك في مكان آخر مما كتبوه في سيرهم الذاتية أو في غيرها، فكان واجباً عليهم أن يتذكروا هذا المثل الحكيم من أمثال العرب: «إن كنت كذوباً فكن ذَكوراً»، ويروى: «كن ذكوراً إذا كنت كذوباً» مجمع الأمثال للميداني ١/ ٧٤، ٢/ ١٧٣، وقد نظمه شاعر فقال:

تكـذب الكـذبـة جهـلاً ثـم تنسـاهـا قـريبـا
كـن ذكـوراً للـذي تَحْـكـي إذا كنـت كـذوبـا

جمهرة الأمثال، لأبـي هلال العسكري ٢/ ٣٩٦.

وأعلى مراتب الصدق: الصدق مع النفس، ومظاهر الصدق مع النفس كثيرة، وجماعها ألَّا يخالف الظاهر الباطن، وألا يصادم السر العلن.

ويقرأ الناس في تراثنا، على اختلاف علومه وفنونه، كلاماً كثيراً، منظوماً ومنثوراً، عن الصدق وفضائله، في نصوص عالية موثقة، لكنها تظل نصوصاً مجردة، يصدقها من يصدقها، ويكذبها من يكذبها، وتبقى ممارسات الناس وحدها شاهداً ودليلاً على التزامهم أبواب الصدق، وتحريهم وجوهه ودروبه.

الجزئي دون الكلي!

وهذه الممارسات مطروحة في كتب التاريخ: تراجم وأحداثاً، وفي كتب الأدب والأخبار، بل في سائر ما كتبه العرب في علومهم المختلفة، ومن المؤسف أن هذه الممارسات التي تمتلىء بها كتبنا ومعارفنا لا يقف الناس الآن عندها كثيراً بحسن التأمل والنظر، بل إنها عند بعض الناس ألوان من النوادر والمسامرات التي تستخرج الضحك ليس غير، بل إن بعضهم قد يسرف في «التفلسف» فيرى أنها ممارسات مصنوعة، في أخبار يراد بها إضحاك الخلفاء والملوك، للحظوة عندهم وأخذ عطاياهم، وأن هذه الممارسات والأخبار إن صدقت فهي لا تخرج عن اهتمام العقل العربي بالجزئي دون الكلي، وهو كلام قد مللنا من الرد عليه، وهو في جملته لا يدل إلا على عدم المعرفة بكتبنا وتاريخنا.

ولو أردت أن أكتب لك أيها القارىء الكريم ما وقفت عليه من هذه الممارسات المطروحة في الأخبار، لاحتجت إلى مجلَّدات وأسفار، فحسبي أن أجتزىء هنا ببعضها، لكن لي عليك أيها القارىء العزيز شرط واحد: هو أن تعطي هذه الأخبار حظها من التأمل والتدبر، وأن تتنبه لذلك الخيط الذي يربط بينها، وسيُفضي بك هذا الخيط ــ إن شاء الله ــ إلى روح هذه الحضارة العربية القائمة على الصراحة والوضوح، وشرط آخر: ألا تظن أني أريد أن أسلِّيك أو أضحكك بهذه النوادر، وإن كنت أدعو لك أن يضحك الله سنك، ويبسط أساريرك.

وبعض هذه الأخبار مما وعته صدور الرواة من عربية الجاهلية، وكثير منه من عربية الإسلام.

وإذا كانت مظاهر صدق النفس كثيرة، وصورها شتى، فإن أولاها بالعناية وأحقها بالتأمل: ما يتصل منها بالاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب، والإنصاف في الحكم، ولو كان مما يجر إلى الانتقاص من النفس، وهو ما يسميه الناس الآن: الموضوعية ونقد الذات.

ومن أقدم ما عُرف من صور الإنصاف في تاريخنا الأدبي، ما يسمى في تاريخ الشعر بالمنصفات، ويسميها الجاحظ «الأشعار المنصفة» البيان والتبيين ٤/ ٢٣. والأشعار المنصفة: «هي القصائد التي أنصف قائلوها أعداءهم فيها، وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلَوْه من حَرِّ اللقاء، وفيما وصفوه من أحوالهم في إمحاض الإخاء»، خزانة الأدب للبغدادي ٨/ ٣٢٧.

فالشاعر المنتصر لا يغره انتصاره فينسيه ما رآه من عدوه من بسالة في الطعن والضرب والرمي، فهو يزهو بانتصاره، لكنه يعترف لعدوه بالثبات والجلد، وهذا هو خلق الفرسان، وقد جمع الأستاذ عبد المعين الملوحي ست قصائد من هذه الأشعار المنصفة، ثم ضم إليها بعض المقطوعات الشعرية في الإنصاف، وقدم لذلك كله بشيء من الدراسة التحليلية لهذا اللون من الشعر العربي، وقد صدر هذا العمل عن وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي بدمشق ١٩٦٧م.

أما الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب ففي تاريخنا منه الكثير مكتوباً في أخبار، وممارساً في وقائع، وأكتفي هنا بخبرين من تاريخ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الأول من رسالته الشهيرة في القضاء التي بعث بها إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وهو على قضاء البصرة، وفيها يقول: «لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم، فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل»، الكامل للمبرد ١/ ٢٠.

فهذا خبر عن عمر، في الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب، ثم تأتي ممارسة عمر نفسه تصديقاً له في ذلك الخبر الذي يرويه المفسرون في سياق تفسير الآية ٢٠ من سورة النساء، وأصحاب السنن في أبواب النكاح. فقد روي أن عمر خطب يوماً فقال: «لا تغالوا صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله، كان أولاكم وأحقكم بها محمد ﷺ، ما أصدق امرأة من نسائه ولا أُصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، وإن الرجل ليُثقل صدُقة امرأته ــ أي مهرها ــ

حتى يكون لها عداوة في نفسه»، فقامت إليه امرأة فقالت: يا عمر، يعطينا الله وتحرمنا! أليس الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾، فقال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر، وفي رواية: «فأطرق عمر، ثم قال: كل الناس أفقه منك يا عمر!»، وفي أخرى: «امرأة أصابت ورجل أخطأ، وترك الإنكار» تفسير القرطبي ٥/ ٩٩، وسنن ابن ماجه (باب صداق النساء، من كتاب النكاح) ص ٦٠٧، والمصنف لعبد الرزاق بن همام الصنعاني (باب غلاء الصداق، من كتاب النكاح) ٦/ ١٧٥.

وهذا باب آخر من أبواب صدق النفس، وهو الصبر على تلك الأجوبة المسكتة التي يواجه بها مشاهير الرجال، من أوساط الناس وضعفائهم، وفي تلك الأجوبة أحياناً ما يكون مثل لذع النار أو نهش الأفاعي، يصبر لها كبار النفوس، لأنها تردهم إلى الحق، وتعيدهم إلى الصواب، وبعض من ذلك يسميه الناس الآن: الديمقراطية، يكتب الناس عنها كثيراً، ويمارسونها قليلاً.

ومن ذلك ما رواه الزمخشري، قال: حبس عمرو بن العاص عن جنده العطاء (أي الرواتب) فقام إليه رجل حِمْيري، فقال: أصلح الله الأمير، اتخذ جنداً من حجارة لا يأكلون ولا يشربون! قال عمرو: اسكت يا كلب، قال: إن كنت كذلك فأنت أمير الكلاب! فأطرق عمرو، وأخرج أرزاقهم (أي رواتبهم). ربيع الأبرار ١/ ٦٩٠. وحدث محمد بن حبيب، قال: أخبرني ابن الأعرابي، قال: شهد أعرابي عند معاوية بشهادة، فقال له: كذبت! فقال الأعرابي: الكاذب المتزمل في ثيابك! فقال معاوية وتبسم: هذا جزاء من عجل. الهفوات النادرة للصابي ص ٣٥٥، وربيع الأبرار ١/ ٦٦٥.

وروي عن الفرزدق أنه قال: ما استقبلني أحد بمثل ما استقبلني به نبطي ــ والنبط: جيل من الناس كانوا ينزلون سواد العراق، ثم استعمل في أخلاط الناس وعوامهم ــ قال: أنت الفرزدق الذي يمدح الناس ويهجوهم ويأخذ أموالهم؟ قلت:

نعم، قال: أنت في الكنيف من قدمك إلى أنفك، قلت: لم حاشيت العينين؟ قال: حتى ترى هوان نفسك، يقول الفرزدق: فبهت. ربيع الأبرار ١/ ٧١١.

وروي عن الجاحظ قال: «ما خجلتني إلا امرأة، حملتني إلى صائغ، فقالت: مثل هذا، فبقيت مبهوتاً، فسألت الصائغ، فقال: هي امرأة استعملتني (أي طلبت مني أن أعمل) صورة شيطان، فقلت: لا أدري كيف أصوره، فأتت بك، فقالت: مثله» أي اصنع مثله. ربيع الأبرار ١/ ٨٥٣، ومعلوم أن الجاحظ كان دميماً قبيح الوجه.

صحة العقل:

وروي أن المحدث الجليل سفيان بن عيينة بكى يوماً، فقال له يحيى بن أكثم: ما يبكيك يا أبا محمد؟ قال: بعد مجالستي أصحاب أصحاب رسول الله ﷺ بليت بمجالستكم! فقال له يحيى ـ وكان حدثاً ـ: فمصيبة أصحاب أصحاب رسول الله ﷺ أعظم من مصيبتك! قال: يا غلام، أظن السلطان سيحتاج إليك، ربيع الأبرار ١/ ٦٦٩، ويريد سفيان أن يصف يحيى بصحة العقل حين أحسن الدفاع عن نفسه وعن أبناء جيله، ثم رد المذمة عليه، وأن مثله جدير بأن يتخذه السلطان عوناً وسنداً، وفي رواية أخرى أن يحيى بن أكثم حين سمع هذا الكلام من سفيان بن عيينة قال له: أتنصف يا أبا محمد؟ قال: إن شاء الله، قال له: والله لشقاء من جالس أصحاب رسول الله ﷺ بك أشد من شقائك بنا، فأطرق وتمثل بشعر أبي نواس:

خل جنبيك لرام ... وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير ... لك من داء الكلام

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤/ ١٩٣.

وقد ألّف غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال الصابي المتوفى (٤٨٠هـ) كتاباً سمّاه «الهفوات النادرة» جمع فيه أخباراً عن سقطات الناس وأخطائهم التي أوقعتهم فيها الغفلة وسوء التقدير، وكان أول خبر يورده من ذلك ما وقع فيه هو

نفسه، يقول: «فأول ما أبدأ به ما خصَّني منه، وهو أنني كنت جالساً وإلى جانبي أبو سعد القادسي، أحد المتفيهقين المتشدقين، وجرى ذكر بعض ثقلاء الزمان المتعسفين، فقلت مسرعاً متبرعاً: إنه ليشبه ابن القادسي فيما يتعاطاه، مما يتجاوز فيه الصواب ويتخطاه. ثم استيقظت من رقدة زلتي، وانتبهت لهفوتي..

ثم ذكر بعد ذلك استدراكه على هذا الخطأ بتوجيه القول بعيداً عن ابن القادسي.

ولم أرَ في أدباء هذا الزمان من يكثر من الاعتراف بخطئه، والتنويه بمن دله على وجه الصواب، من شيخنا أبي فهر محمود محمد شاكر، وهو كثير عنده، ومنه ما ذكره في المستدرك بآخر كتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع، للمقريزي المتوفى (٨٤٥هـ)، فقد صحح ما ورد في ص ٢١٦ من الجزء الأول، من قوله: «لم أجد ذكر أبي عامر الفاسق في حديث بعد خبره يوم أُحد، إلا خبر موته عند هرقل، وذلك عام حجة الوداع»، فقال في الاستدراك: «وهذا خطأ مني، فيه نسيان وعجلة، إذ ليس يخفى خبر أبي عامر الفاسق في أمر مسجد الضرار».

فلم يكتف بنسبة الخطأ إلى نفسه حتى ضم إليه النسيان مقروناً بالعجلة، وهذا منهج شيخنا في كتاباته كلها، وفي تحقيقاته أيضاً، وإنما ذكرت هذا المثال بعينه، لأن كلام شيخنا هذا كان في سن الشباب، وهو زمن الخُيلاء والتيه، فقد صدر الجزء الأول من كتاب المقريزي سنة ١٩٤٠م.

نواصل في المقال القادم كلام الناس، وصدقهم في الإبانة عن دخائل نفوسهم.

* * *

السيرة الذاتية.. والصدق مع النفس(١)

[٢]

أثار الأديب صلاح عيسى سؤالاً محدداً حول «السيرة الذاتية»، وهو السؤال الذي لم يُجب عليه أحد، وتحدثنا في العدد الماضي من الهلال عن مدى الصدق مع النفس من الذين يكتبون سيرهم الذاتية، وهل يذكرون العيوب والنقائص بجانب ذكرهم للمحاسن والمآثر، واستعرضنا ألوان السير الذاتية وصور الاعترافات ومدى صدقها من زيفها.

وفي هذا المقال نتناول نماذج من كلام الناس وصدقهم في الإبانة عن دخائل نفوسهم، ومدى حرصهم على الحديث عن جوانب الضعف والقوة في شخصياتهم.

ونترك باب الأجوبة المسكتة، وباب الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الصواب، ودلالة ذلك كله على صدق النفس، وننظر ونتأمل في كلام الناس عن ذواتهم، وصدقهم في الإبانة عن دخائل نفوسهم وما تنطوي عليه قلوبهم، غير هيَّابين ولا وجلين، ولو كان ذلك في ظاهره مما يصادم العقيدة، أو يخالف المذهب:

روي أن عبد الله بن الزبير قطع ذِكر رسول الله ﷺ في خطبة الجمعة جُمعاً كثيرة، فاستعظم الناس ذلك، فقال: إني لا أرغب عن ذكره، ولكن له أُهَيْل سوء (تصغير أهل) إذا ذكرته أتْلَعوا أعناقهم (أي مدوها ورفعوها)، فأنا أحب أن أكبتهم»

(١) مجلة «الهلال»، فبراير ١٩٩٦م.

شرح نهج البلاغة لابن أبـي الحديد ٢٠/ ١٢٧، وروي أنه قال: والله ما تركت ذلك علانية إلا وأنا أقوله سرّاً وأكثر منه.

ومن هذا الباب أيضاً ما روي أن علويّاً قال لأبـي العَيْناء: أتبغضني وقد أمرت بالصلاة عليَّ؟ تقول: صلَّى الله على محمد وآله. قال أبو العيناء: إني أقول: «الطيِّبين الأخيار» فتخرج أنت. ربيع الأبرار ١/ ٧١٧.

وأبو العيناء هذا: اسمه محمد بن القاسم، كان أديباً فصيحاً، من ظرفاء الدنيا، ومن أسرع الناس جواباً، اشتهر بنوادره ولطائفه، وكان ذكيّاً جداً، حسن الشعر، مليح الكتابة والترسل، خبيث اللسان في سب الناس والتعريض بهم، نشأ بالبصرة وتوفي بها سنة ٢٨٣، كُفَّ بصره بعد بلوغه أربعين سنة، قال عنه الخليفة العباسي المتوكل: لولا أنه ضرير لنادمته، فبلغه ذلك فقال: إن أعفاني من رؤية الأهلة وقراءة نقوش الفصوص، فأنا أصلح للمنادمة، وَفَيَات الأعيان لابن خلكان ٤/ ٣٤٥، والأعلام للزركلي ٧/ ٢٢٦.

وروي عن الجاحظ أنه قال: كان رجل من أهل السواد ــ والسواد: ناحية بالعراق افتتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب، سميت بذلك لكثرة الزروع والنخيل والأشجار بها، والعرب تسمي الخضرة سواداً ــ كان هذا الرجل يتشيع، وكان ظريفاً، فقال ابن عم له: «بلغني أنك تبغض عليّاً عليه السلام (أي تدعو الناس إلى بغضه وكراهيته) والله لئن فعلت لتردن عليه الحوض ولا يسقيك! قال: والحوض في يده يوم القيامة؟ قال: نعم، فقال: وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس في الدنيا بالسيف وفي الآخرة بالعطش؟ فقيل له: أتقول هذا مع تشيعك ودينك؟ قال: والله لا تركت النادرة ولو قتلتني في الدنيا، وأدخلتني النار في الآخرة»، معجم الأدباء لياقوت الحموي ص ٢١٠٨ (طبعة الدكتور إحسان عباس، وهي طبعة عظيمة فاقت الطبعتين السابقتين: طبعة مرجليوث، وطبعة فريد رفاعي).

ومن باب الصدق مع النفس أيضاً قول دعبل بن علي الخزاعي، الشاعر

المعروف المتوفى ٢٤٦هـ: «ما كانت لأحد قط عندي منَّة إلا تمنيت موته» الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ٢٠/ ١٣٧، ولا تستبشع هذا القول من ذلك الشاعر، فهو رجل صادق، يستثقل منن الناس عليه، ويراها قيوداً على لسانه وعقله، وكثير من الناس يستصحب هذا الشعور، دون أن يصرّح به، بل إن بعض الناس يأنف من السؤال ويطوي نفسه على الحرمان مخافة المنع والخذلان، تقول الصوفية الكبيرة أم علي امرأة أحمد بن خضرويه البلخي المتوفى ٢٤٠هـ: «فَوْت الحاجة أيسر من الذل فيها»، كتاب ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات لأبي عبد الرحمن السلمي ص ٧٧، وقال شاعر:

لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكنّ ذا أشد من ذاك على كل حال

الحيوان للجاحظ ٣/ ١٣١، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر ص ٢٥٦.

ويبقى أن تلاحظ أيها القارىء الكريم ـ رجوعاً إلى الخبر السابق ـ أن أبا الفرج الأصبهاني ودعبلاً الخزاعي كلاهما شيعي، ولم تمنع هذه الجامعة بينهما أبا الفرج من ذكر ذلك الخبر الذي قد يسيء إلى صاحبه على نحو ما. وهذا من باب الصدق أيضاً.

الصراحة الكاشفة:

وهذا أبو العباس المبرد المتوفى ٢٨٥هـ وهو أحد أئمة العربية، كان معروفاً بالبخل، وكان هو يظهر ذلك للناس ولا يكتمه، يقول الوزير القفطي: «وكان المبرد ممسكاً بخيلاً، يقول: لا وزنت شيئاً بالدرهم إلا ورجح الدرهم في نفسي، هذا مع السعة التي كان فيها»، إنباه الرواة على أنباه النحاة ٣/ ٢٤٩.

وقصة المبرد هذه مع ما يشاكلها تعطيك دلالة أخرى؛ لأن الذي يتحدث عن نفسه بهذه الصراحة الكاشفة يصدق في كل ما يلقيه عليك بعد ذلك، لأن الشخصية لا تتجزأ، كما يقول الناس في هذه الأيام، ومن هنا تثق في كل ما كتبه أبو العباس

المبرد: في كتابه الكامل في الأدب والأخبار، وكتابه المقتضب في النحو، وكتابه في التعازي والمراثي.

ومع تظاهر كثير من الناس بالزهد في المال وعدم الحرص عليه، نرى الإمام الجليل سفيان بن سعيد الثوري المتوفى (١٦١هـ) وهو إمام الحفاظ، وأمير المؤمنين في الحديث، يقول: «لأن أخلف عشرة آلاف درهم، يحاسبني الله عليها أحب إلي من أن أحتاج إلى الناس»، وروي أنه سئل مسألة وهو يشتري شيئاً، فقال: «دعني فإن قلبي عند درهمي»، وروي عنه أنه قال: «كان المال فيما مضى يكره، فأما اليوم فهو ترس المؤمن»، ونظر إليه رجل، وفي يده دنانير، فقال: يا أبا عبد الله، تمسك هذه الدنانير؟ قال: اسكت، فلولاها لتَمَنْدَلَ بنا الملوك.

«كأنه يريد: اتخذونا مناديل يمسحون بها وجوههم وأيديهم»، سير أعلام النبلاء، للذهبي ٧/ ٢٤١، يقول سفيان الثوري هذا كله، وهو سيد العلماء العاملين في زمانه، وهو القائل أيضاً: «ما وضع رجل يده في قصعة رجل إلا ذل له».

وهذا الأحنف بن قيس، العالم الكبير المتوفى (٧١هـ) وهو أحد من يُضرب بحِلمه وسؤدده المثل يقول: «كذبت مرة واحدة، سألني عمر بن الخطاب عن ثوب: بكم أخذته؟ فأسقطت ثلثي الثمن»، سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٨٩.

وكان للأحنف هذا ولد، يقال له: بحر، وبه كني، وكان مضعوفاً (أي قليل العقل خاملاً) فقيل له: لم لا تتأدب بأخلاق أبيك؟ فقال: الكسل»، وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٥٠٦. وهذا من باب الصدق مع النفس أيضاً.

وهذا رجل يحب الشهرة وبعد الصيت، ولو ركب لهما الصعب، فيروى عن الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البناء، المقرىء المحدث الحنبلي المتوفى (٤٧١هـ) أنه قال: «هل ذكرني الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» في الثقات أو مع الكذابين؟ قيل: ما ذكرك أصلاً، فقال: ليته ذكرني ولو مع الكذابين»، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨/ ٣٨١، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، لشمس الدين السخاوي ص ٣٣.

على أنه ينبغي التنبه الدائم للفرق الدقيق بين صراحة هؤلاء الناس، وصدقهم في الإبانة عن أنفسهم، وبين كشف العيوب القادحة، ونشر المساوىء الفاضحة، التي تدخل في باب العورات، وهو ما نهينا عن الحديث عنه، أو تتبعه واستقصائه، كما ذكرت في صدر هذه الكلمة، وضم إليه ذلك الحديث العظيم الذي أخرجه الإمام مالك، وهو حديث من اعترف على نفسه بالزنا، وفي آخره يقول رسول الله ﷺ: «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه الحد» الموطأ (باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا، من كتاب الحدود) ص ٨٢٥.

ومن أحلى وأعذب صور الصدق مع النفس وإرسالها على سجيتها: قصة ذلك المحدث الجليل إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، أبو إسحاق القرشي الزهري العوفي المدني، المتوفى (١٨٣هـ) كان حافظاً كبيراً، وإماماً ثقة حجة، يقول الحافظ الذهبي في ترجمته من سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٧٢: «وكان ممن يترخص في الغناء على عادة أهل المدينة، وكأنه ليم في ذلك، فانزعج على المحدثين، وحلف أنه لا يحدث حتى يغني قبله»، أي قبل التحديث.

وروى الخطيب البغدادي هذا الخبر، برواية أخرى، قال: «وسئل عن الغناء فأفتى بتحليله، وأتاه بعض أصحاب الحديث ليسمع منه أحاديث الزهري، فسمعه يتغنى، فقال: لقد كنت حريصاً على أن أسمع منك، فأما الآن فلا سمعت منك حديثاً أبداً، فقال: إذاً لا أفقد إلا شخصك، عليّ وعليّ ــ يقصد الحلف بالطلاق ــ إن حدثت ببغداد ما أقمت حديثاً حتى أغني قبله... وذكر أن هذه القصة بلغت الرشيد، فاستدعاه، ودعا له بعود فغناه:

يا أم طلحة إن البين قد أفدا قل الثواء لئن كان الرحيل غدا

تاريخ بغداد ٦/ ٨٤، وهذا البيت لعمر بن أبي ربيعة، وروايته في ديوانه ص ٣٩١: «ألمم بزينب إن البين قد أفدا». ومعنى «أفد» دنا وقرب موعده.

فهذا محدث فنان. ومما يشاكل هذا الباب ما رواه الذهبي أيضاً، عن علي بن حرب الطائي المتوفى (٢٦٥هـ) قال: سمعت أبي يقول: أحب أن تكون لي جارية في غُنج سفيان بن عيينة إذا حدث»، سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٠٤ (والغنج في المرأة: حسنها وتدللها وترققها في الكلام).

ومثل هذه الأخبار ينبغي أن تفهم على حقيقتها، وهي أن القوم الذين كانوا يروون حديث رسول الله ﷺ، كانوا يروونه بانبساط نفس، وانشراح صدر (يعني في تعبيراتنا المصرية: يروونه بمزاج)، أما الورع الكاذب، والخشوع المصطنع فلا وجود له في عقيدتنا ولا في حضارتنا، واقرأ إن شئت كتاباً واحداً في آداب وأعراف التحديث بحديث رسول الله ﷺ وهو كتاب «أدب الإملاء والاستملاء» لأبي سعد السمعاني المتوفى (٥٦٢هـ) وتأمل على سبيل المثال ما يذكره عن وجوب نظافة المحدث وحسن ثيابه وتطيبه بالعطور حين يجلس لإملاء الحديث، وما نقله عن علماء الحديث من التعوذ من الثقل والثقلاء.

وهذه صورة من صور الصدق مع النفس، تسجلها كتب التاريخ والأدب، مع أن هذه الصور تجري في ذرائع الشر ومكروه الأخلاق، لأن هذه الكتب وثائق تسجل واقع البشر، فهي لا تنتقي من الأخبار ما يرضي الناس فحسب، وتحجب عنهم ما يسوؤهم، إن كتبنا في التاريخ وسائر المعارف شهود صدق وقضاة عدل.

فهذا «دُوَيد بن زيد بن نَهد» معمر جاهلي قديم، وشعره من قديم الشعر العربي، تقول كتب التاريخ والأدب: إنه جمع أولاده عند موته، ثم قال لهم: «أوصيكم بالناس شرّاً، لا تقبلوا لهم معذرة، ولا تقيلوهم عثرة، أوصيكم بالناس شراً، طعناً وضرباً، وما احتجتم إليه فصونوه، وما استغنيتم عنه فأفسدوه على من سواكم، فإن غش الناس يدعو إلى سوء الظن، وسوء الظن يدعو إلى الاحتراس». راجع أيها القارىء العزيز كتاب المعمَّرين لأبي حاتم السجستاني ص ٢٦، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٣١، وأمالي الشريف المرتضى ١/ ٢٣٦.

ومن وصايا الشر أيضاً التي سجلتها الكتب: ما وصَّى به أبو النجم العجلي الراجز الشهير المتوفى (١٣٠هـ) بناته الثلاث، قال للأولى:

أوصيتُ من بـرَّة قلباً حِـرّا ... بالكلب خيراً والحماة شَـرّا
لا تسأمي ضرباً لها وجـرّا ... حتى ترى حلو الحياة مـرّا
وإن كستك ذهبـاً ودُرّا ... والحيُّ عمّيهم بشرٍّ طُـرّا

وقال للثانية:

سُبِّي الحماة وابهتي عليها ... وإن دنت فازدلفي إليها
وأوجعي بالفهر ركبتيها ... ومرفقيها واضربي جنبيها

يقال: بهته بهتاً: أخذته بغتة، ولعلماء اللغة في قول أبي النجم «ابهتي عليها» كلام كثير انظره في الصَّحاح للجوهري، والتنبيه والإيضاح عما وقع في الصَّحاح لابن بري، والتكملة والذيل والصلة للصاغاني، وكلها معاجم لغوية.

الفِهْر: بكسر وسكون الهاء: الحجر يملأ الكف.

وقال للثالثة:

أوصيك يا بنتي فإني ذاهبُ ... أوصيك أن تحمدك القرائب
والجار والضيف الكريم الساغب ... لا يرجع المسكين وهو خائب
ولا تني أظفارك السلاهب ... منهن في وجه الحماة كاتب
والزوج إن الزوج بئس الصاحب

والأظافر السلاهب: الطويلة.

وروي أن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي سمع هذا الشعر من أبي النجم ثم قال له: ما هكذا أوصى يعقوب ولده! قال أبو النجم: ولا أنا كيعقوب، ولا بني كولده! راجع الكامل للمبرد ص ٩٩٨، والأغاني لأبي الفرج ١٠/ ١٥٦.

هكذا وصى دويد بن زيد، وأبو النجم. وسبحان خالق الطباع، ومصرِّف القلوب. وما أصدق كتبنا ومؤرخينا في تسجيل الحياة بخيرها وشرها وحسنها وسيئها!

فيا أيها القارىء الكريم، أنار الله بصرك وبصيرتك، اقرأ وتدبر ولا تعجل فترمي هذا الكلام بالوضع والانتحال، فقد عرفنا في زماننا هذا من يوصي أولاده بسوء الظن، والاستيحاش من الناس، والإمساك دونهم، والحرص على المال بتزيين البخل، فلا زلنا نسمع هذه الأمثال كل يوم: اللي معاه قرش يساوي قرش ــ اللي معاه قرش ابنه يزمّر ــ القرش الأبيض ينفع في النهار الأسود ــ وأنا ما لي يا عم هو أنا خلفته ونسيته ــ ويبقى ابني على كتفي وأدوّر عليه؟ ــ ويالله نفسي نفسي ــ ويا روح ما بعدك روح ــ واللي يعوزه البيت يحرم على الجامع ــ وخالتي وخالتك واتفرقت الخالات.

بل سمعنا أشد من ذلك كله في تسويغ البخل والإعراض عن نجدة الناس والبر بهم، والنظر إلى المصلحة الذاتية فقط، وهو قولهم: «عيش ندل تموت مستور»، فهي هي طبائع البشر في كل زمان ومكان، وإن اختلف التعبير عنها.

أما وصية أبـي النجم في التشديد على الحماة والإغلاظ للزوج، فما زلنا نسمع من هذا وذاك الشيء الكثير، وأظن أنه لا يغيب عنك: «يا مأمنه للرجال يا مأمنه للمَيّه في الغربال»، ولا زلت أذكر ما كنت أسمعه من نساء حي الدرب الأحمر ــ وهو الحي الذي نشأت فيه ــ فتقول الأم لابنتها قبل انتقالها لبيت الزوجية: «خلي بالك من المَرَة القرشانة اللي اسمها أمه، إدِّيها على دماغها أول بأول كده، مَتِسْكُتِلْهَاشْ أحسن تركبك»، أو تقول لها عن زوجها: «إوعي منُّه، ربنا يستر، والله أنا خايفه، دا باين عليه ابن أمُّه».

أما التوصية بنتف ريش الزوج حتى لا يطير، فلم يعد لها مكان الآن، لأن الزوج أصبح لا ريش له بعد اشتراك الزوجة معه في الوظيفة، ومساهمتها في دخل البيت ومزاحمتها له في اتخاذ القرار، وربنا المستعان، وحسبنا الله ونعم الوكيل!

ثم نعود إلى أخبار الصدق مع النفس: فمع حرص خلفاء المسلمين على أن يظهروا للناس وجه العفو والمسامحة، فإن بعضهم كان صادقاً مع نفسه كل الصدق حين أظهر الحزم والمخاشنة وسوء المعاملة، فقد روي أن عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب قال للخليفة العباسي المنصور ــ وكان

ابن أخيه ــ «لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو! قال: لأن بني مروان ــ يعني الأمويين ــ لم تبل رممهم، وآل أبـي طالب ــ يعني العلويين ــ لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة ــ أي من عامة الناس ــ واليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو، واستعمال العقوبة»، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٦٧، وهو كلام عال نفيس، فاقرأه مرة أخرى.

أما حديث الشعر في الصدق مع النفس فهو كثير جدّاً، ومنه قول حارثة بن بدر الغُدَاني التابعي الجليل المتوفى (٦٤هـ) وهو ما رواه أبو الفرج الأصبهاني، والشريف المرتضى، قالا: «اجتاز حارثة بن بدر الغداني بمجلس من مجالس قومه من بني تميم، ومعه كعب مولاه، فكلما اجتاز بقوم قاموا إليه وقالوا: مرحباً بسيدنا، فلما ولَّى قال له كعب: ما سمعت كلاماً قط أقرّ لعيني، ولا ألذ بسمعي من هذا الكلام الذي سمعته اليوم، فقال له حارثة: لكني لم أسمع كلاماً قط أكره لنفسي وأبغض إليّ مما سمعته! قال: ولم؟ قال: ويحك يا كعب، إنما سوَّدني قومي حين ذهب خيارهم وأماثلهم، فاحفظ عني هذا البيت:

خلت الديار فسُدت غير مُسَوَّد ... ومن البلاء تفرُّدي بالسؤدد

أرأيت موضوعية وصدقاً ونقداً للذات أبرع من هذا؟ وما أحرى كثيراً من أصحاب المناصب الآن أن يتمثلوا بهذا البيت لو رزقوا الصدق مع أنفسهم.

وانظر الخبر في الأغاني ــ ملحق الجزء الثامن ص ٢٤٢، من طبعة دار الكتب المصرية، وأمالي الشريف المرتضى ١/ ٣٨٨، ثم انظر شرح الحماسة لأبـي علي المرزوقي ص ٨٠٧، ففيه كلام عن التوجيه النحوي للبيت، إن كنت تحب النحو، وأود لك أن تحبه.

وهذا البيت الحكيم الذي أنشده وتمثل به حارثة بن بدر، هو من قطعة أوردها أبو تمام في حماسته، ونسبها لرجل من خثعم، لم يذكر اسمه ــ راجع الموضع المذكور قريباً من شرح الحماسة للمرزوقي ــ ونسبه ياقوت الحموي، ضمن ستة أبيات، إلى عمرو بن النعمان البياضي، معجم البلدان ١/ ٧٠٣، في رسم «البقيع»

ونسبه الجاحظ إلى حارثة بن بدر، فجعله منشئه لا منشده، في الحيوان ٣/ ٨٠، والبيان والتبيين ٣/ ٢١٩، لكنه في ص ٣٣٦ من ذلك الجزء أنشده من غير نسبة.

وقد كثر تمثل أهل العلم بهذا البيت، فيذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد ٢/ ٢٩٠ عن الهيثم بن عدي قال: لما انفرد سفيان بن عيينة (١٩٨هـ) ومات نظراؤه من العلماء تكاثر الناس عليه، فأنشأ يقول: خلت الديار... البيت. وذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان ٤/ ٢٢٠، في ترجمة «أبي بكر محمد بن أحمد الحسين الشاشي الفقيه الشافعي (٥٠٧هـ) أنه يوم جلس على كرسي التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد ــ وكان قد سبقه إلى التدريس فيها فحول العلماء ــ وضع منديله على عينيه وبكى كثيراً، وأنشد: خلت الديار... البيت، قال ابن خلكان: «وهذا إنصاف منه واعتراف لمن تقدمه بالفضل والرجحان عليه».

وروي أن التابعي الجليل إبراهيم بن يزيد النخعي (٩٦هـ) قال: لقد تكلمت، ولو وجدت بداً ما تكلمت، وإن زماناً تكلمت فيه لزمان سوء»، ثم أنشد البيت: خلت الديار... عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٢٦٨، والخبر رواه أبو نعيم الأصبهاني هكذا: «وإن زماناً أكون فيه فقيه الكوفة لزمان سوء»، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٤/ ٢٢٣.

وللشعراء وأهل الأدب كلام كثير، في فضيلة كتم السر وصونه وعدم إذاعته، لكن بعض الناس يضيق صدره عن كتمان السر، ويحس أنه يحمل هماً ثقيلاً على صدره، أو جبلاً ضخماً على ظهره، فهو يريد أن يتخلص من عبئه، فيدور به على الناس، لا يبالي أين يقع منهم، وليس بالضرورة أن يكون إفشاؤه السر لغاية من إفساد أو سعاية، ولكنها الثرثرة ليس غير، وإراحة النفس من هم مغالبة الكتمان ومرافعة الحفظ، وقد ترجم عن هذا شاعر، في لحظة صدق عالية، فيقول سحيم الفقعسي (لم أعرف تاريخه، وانظر من اسمه سحيم من الشعراء في خزانة الأدب للبغدادي ١/ ٢٦٦)، يقول سحيم هذا:

ولا أكتم الأسرار لكن أُذيعها   ولا أترك الأسرار تغلي على قلبي

وإنَّ قليـل العقـل مـن بـات ليلـه　　تقلبـه الأسـرار جنبـاً إلـى جنـب

وأنشد الأصمعي، قال: أنشدني أعرابـي:

ولا أكتـم الأسـرار لكـن أبثهـا　　ولا أدع الأسـرار تقتلنـي غمّـا

وإن سخيـف الـرأي مـن بـات ليلـه　　حـريبـاً بكتمـان كـأن بـه حمـى

وفـي بثـك الأسـرار للقلـب راحـة　　وتكشـف بـالإفشـاء عـن قلبـك الهمـا

وقال ثالث:

وأمنـع جـارتـي مـن كـل خيـر　　وأمشـي بـالنميمـة بيـن صحبـي

انظر هذه الأشعار في الحيوان للجاحظ ٥/ ١٨٥، وعيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٤١، والكامل للمبرد ص ٨٨٤، وبهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٤٦٠. وذكر الجاحظ أن ضيق الصدر بكتمان السر من أخلاق الصبيان والنساء، ومن أخلاق الخَصِيّ أيضاً ــ والخصي: هو المقطوع الخصية ــ قال في الحيوان ١/ ١٣٥: «ويعرض للخصي سرعة الغضب والرضا، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء، ويعرض له حب النميمة، وضيق الصدر بما أودع من السر، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء».

ومن رقيق شعر عزيز باشا أباظة قوله من قصيدته «همسة حائرة»:

يبيـت يـودع سمـع الليـل عـاصفـة　　ضـاق النهـار بهـا سـتـراً وكتمـانـا

فأثبت للنهار أيضاً ضيقاً بكتمان السر، كالإنسان سواء بسواء.

وبعد: فهذه صور من الصدق مع النفس، سلوكاً وكلاماً منثوراً ومنظوماً، امتلأت بها كتبنا وآثارنا التي تعرض الحياة كلها بخيرها وشرها، وبياضها وسوادها، وتلك طبيعة الحضارات العظيمة.

وتحية إلى الأستاذ صلاح عيسى، الذي فتح لنا هذا الباب من القول.

* * *

من حصاد الندوات:
أولية الطباعة العربية في مصر[1]

أقام مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبـي في أواخر أكتوبر الماضي ندوة عن «تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر»، وقد دارت محاور الندوة حول تاريخ الطباعة العربية في أوروبا وتركيا وبلاد الشام ومصر وشبه القارة الهندية والأمريكيتين والمغرب وبلاد فارس وشبه الجزيرة العربية، وروسيا وبلاد ما وراء النهر.

وقد دعيت إلى هذه الندوة وقدمت بحثاً مطولاً عن تاريخ الطباعة في مصر، في ذلك القرن الماضي. ويبدأ حديث الطباعة في مصر بتلك المطبعة الصغيرة التي أحضرها نابليون معه أيام حملته على مصر سنة ١٧٩٨م، ليبعث من خلالها برسائله إلى المصريين، ثم لينشر بها بعض الرسائل والنصائح الطبية، استمالة لقلوب المصريين، ثم رحل نابليون عن مصر، وترك مطبعته ليقيم على أنقاضها محمد علي باشا مطبعة سميت أول الأمر المطبعة الأهلية، ويقال: إن محمد علي أنشأ مطبعته إنشاء، ولم يقمها على أنقاض مطبعة نابليون، ومهما يكن من أمر فقد أنشأ محمد علي مطبعته هذه على ضفاف النيل ببولاق سنة ١٨٢١م، ثم تبعتها بعض المطابع الملحقة بإدارات الجيش والمدارس العليا، وبعد ذلك جاءت المطابع الأهلية، فهذه ثلاث مراحل في بداية الطباعة العربية في مصر، ولكل مرحلة قصة وتاريخ.

---

(١) جريدة «الأهرام» (مصر)، ٢٣ فبراير ١٩٩٦م.

مطبعة بولاق:

تمثل هذه المطبعة الباب الواسع الذي دخل منه العرب إلى النهضة الحديثة، كما تمثل في الوقت نفسه البعث الحقيقي لتراث الآباء والأجداد، وإذا كانت بعض البلدان قد سبقت مصر في الطباعة العربية، فإن الوجه العربي للطباعة لم يظهر إلا في مطبعة بولاق بمصر، لقد كان إنشاء هذه المطبعة صيحة مدوية أيقظت الغافلين، ومركز ضوء هدى الحائرين، وقد تدافعت مطبوعاتها من الكتاب العربي كالسيل الهادر.

وقد ذكر سركيس في مقدمة معجم المطبوعات أن مجموع ما طبعته مطبعة بولاق، منذ إنشائها سنة ١٨٢١م وحتى سنة ١٨٧٨م بلغ (٦٠٣٨٩٠) كتاباً، أرأيتم إلى هذا العدد الذي يزيد على نصف المليون في نحو (٥٠) عاماً، وهي مدة يسيرة لا تعد شيئاً في تاريخ الأمم والشعوب، مع ملاحظة ضعف الوسائل الطباعية في تلكم الأيام.

وفي مجال تقييم أعمال مطبعة بولاق تبرز هذه الحقائق:

أولاً: كان إنشاء محمد علي مطبعة بولاق متزامناً مع إرساله البعثات لتلقي العلم في أوروبا، ولا يستطيع الدارس أن يغفل العلاقة بين هذه البعثات ونشاط مطبعة بولاق، فقد عاد الدارسون المصريون في أوروبا برغبة عارمة في الإصلاح والنهوض، ولم يركنوا إلى الدعة وعجمة اللسان والاكتفاء بمدح الإفرنج، والطعن في أمتهم العربية والانتقاص من تاريخها وذم علومها ومعارفها، كما نرى ونسمع الآن.

ثانياً: يلاحظ في السنوات الأولى من نشاط مطبعة بولاق غلبة للكتب المترجمة في الشؤون الطبية والزراعية والهندسية وتدبير المعاش.

ثالثاً: إن الذين قاموا على نشر كتب التراث بتلك المطبعة كانوا يستهدفون غاية ضخمة، هي إبراز كنوز الفكر العربي والإسلامي، فعمدوا إلى نشر الأمهات

والأصول في كل علم، ولم يغلبوا جانباً على جانب، شأن دور النشر التجارية التي تتحسس حاجة السوق وتلبي رغبات عاجلة لخدمة بعض الاتجاهات.

فهم قد نظروا إلى التراث نظرة شمولية كلية، فنشرت مطبعة بولاق: منهاج السُّنَّة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ثم طبعت الفتوحات المكية لابن عربي، ويا بُعد ما بينهما، وطبعت من تراجم المشارقة وَفَيات الأعيان لابن خلكان، ومن تراجم المغاربة نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقَّري، وطبعت تفسير الطبري والفخر الرازي وصحيح البخاري وشرحه لابن حجر وللقسطلاني، ثم طبعت ألف ليلة وليلة، طبعتين.

رابعاً: تزامن نشاط مطبعة بولاق مع الدعوة إلى العامية التي تولى أمرها نفر من الأجانب الذين حلوا بمصر، وقد جاهد هؤلاء في الترويج لدعوتهم الخبيثة جهاداً لاهثاً، وقد صانعهم وظاهرهم قوم أغبياء من أهل جلدتنا.

ومما لا شك فيه أن طبعات بولاق من أصول التراث العربي في ذلك الوقت كانت خير وسيلة للوقوف في وجه تلك الأفكار، ثم إنها من وراء ذلك قد غذت عقول أرباب العلم وأهل الأدب، حين وضعت أمامهم زاداً شهيّاً من علوم الأوائل وآدابها، أعانهم على ما هم بسبيله من الإبداع والإحسان، فكانت البعث والتنوير الذي حمل لواءه رفاعة الطهطاوي ومحمود سامي البارودي، والشيخ حسين المرصفي، ومن سار في طريقهم.

خامساً: أقدمت مطبعة بولاق في ذلك الزمان المبكر على طبع الموسوعات الضخمة، مثل لسان العرب (٢٠) جزءاً، والأغاني (٢٠) أيضاً، وتفسير الطبري (٣٠) جزءاً.

سادساً: حرصت مطبعة بولاق في كثير من منشوراتها على طبع كتاب أو أكثر بهامش الكتاب الأصلي. وهذه الظاهرة دالة بوضوح على أن القوم كانوا في سباق لنشر العلم والمعرفة.

سابعاً: لم تكن مطبوعات بولاق كلها على نفقة الدولة، فقد رأينا جهود الأفراد والجماعات وأموالهم وراء كثير من مطبوعات تلك المطبعة العتيقة، وحديث هذا يطول جداً، ولكن حسبك أن تعلم أن طبعة «صحيح البخاري» العظيمة التي طبعتها بولاق سنة ١٣١٥هـ ــ ١٨٩٧م كانت على نفقة أحد التجار، وهو: محمد حسن عيد.

المرحلة الثانية:

مرحلة مطابع إدارات الجيش والمدارس الحكومية. وقد بدأت هذه المطابع نشاطها بعد قيام مطبعة بولاق بنحو عشرة أعوام، وقد دارت معظم مطبوعاتها حول الشؤون العسكرية والطبية والرياضية والجغرافية والهندسية، مع الإلمام بشيء يسير من العلوم النظرية. ومن أشهر هذه المطابع: مطبعة ديوان الجهادية والمدفعية والحربية السلطانية والمدرسة الطبية بأبي زعبل، والمهندسخانة الخديوية ومدرسة الفنون والصنائع.

المرحلة الثالثة: المطابع الأهلية:

وهي الصورة المكملة لمرحلة بولاق والماضية في طريقها. لقد سطع نور بولاق وتألق، ثم مد ظلاله على الأفراد والجماعات، فنشط هؤلاء وهؤلاء لطبع الكتاب العربي، مدفوعين بنفس الروح التي سرت في مطبعة بولاق، وحملت مطبوعاتها نفس السمات التي عرفت في مطبوعات بولاق.

وقد انتشرت عشرات المطابع في قلب القاهرة، وبالأخص في تلك المنطقة المتصلة بالأزهر ودار الكتب المصرية، وهو أمر طبيعي أن تنشأ المطابع والمكتبات حول دور العلم والفكر، وإذا أنت وقفت في ذلك الزمان في ميدان باب الخلق، ونظرت عن يمينك وشمالك، ثم من قدامك ومن ورائك، ثم سرت في هذه الاتجاهات الأربعة رأيت أعداداً كثيرة من المطابع: في الأزبكية والفجالة وباب الشعرية وشارع محمد علي ودرب الجماميز (بور سعيد الآن) وشارع حسن الأكبر

وعابدين وشارع عبد العزيز ودرب سعادة والحسين والأزهر والموسكي والدّرّاسة والخرنفش والجمالية، ومن دور هذه الشوارع الكبيرة ومن خلالها انتشرت أيضاً عشرات المطابع. وهذه المناطق التي انتشرت فيها تلك المطابع الأهلية على ما وصفت لك لا تزيد على عشرة كيلومترات مربعة، فمن هذه المناطق المتجاورة المحدودة من قلب القاهرة: شوارع وحارات وأزقة، مع المنطقة الصغيرة التي تقع فيها مطبعة بولاق على ضفاف النيل؛ خرجت ثقافة العالم العربي والإسلامي في القرن الماضي، فأي ضوء سطع، وأي نور أضاء؟

* * *

محمود محمد شاكر.. والتكريم المستحق(١)

في مساء يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شهر فبراير أقام اتحاد الناشرين المصريين والعرب حفلاً ضخماً كرم فيه أوائل الناشرين، ثم جعل على رأس المكرمين علماً من أعلام العربية وحارساً من حراسها الأوفياء في زماننا هو الأستاذ محمود محمد شاكر، وقد طلب إلي أن أقدم الأستاذ الجليل. فكانت هذه الكلمة:
هذا شيخ العربية وحارسها: الإمام أبو فهر محمود محمد شاكر، نقف حوله في ليلة تكريمه، محفوفاً بالمهابة، ملفعاً بالجلال، مصوناً في تلافيف القلوب، ويقف معنا ألوف الألوف من أعلام العرب وعلمائها، منذ أن نطق بالعربية ناطق وكتب بها كاتب إلى أن يأتي أمر ربك، وما كان ذلك إلا لأن كلام هذا الإمام موصول بكلام الأوائل، منتزع منه، ودال عليه ومكمل له، وشيخنا ــ حرس الله مهجته ــ لا تخرم مشيته مشية واحد من علماء الصدر الأول.

ولد شيخنا بمدينة الإسكندرية يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة ١٣٢٧هـ ــ أول فبراير ١٩٠٩م، ومنذ شب واستوى إلى يوم الناس هذا وهو يعيش حياة حافلة بالغرائب والعجائب. نعم لم يهدأ شيخنا يوماً واحداً خلال هذه الحياة المتطاولة، التي نرجو لها أن تمتد إن شاء الله، حياة صاخبة موّارة شديدة الحركة.

إن أقصى ما يعرفه كثير من الناس الآن ــ وبخاصة الشباب ــ عن أبـي فهر أنه صاحب الخصومة مع الدكتور طه حسين حول قضية الشعر الجاهلي وحول المتنبِّي،

(١) جريدة «الأهرام» (مصر)، ٢٩ مارس ١٩٩٦م.

وصاحب الخصومة مع الدكتور لويس عوض حول أبـي العلاء المعري والفتن الأخرى المنشورة في «أباطيل وأسمار»، ثم يعرفه المشتغلون بالدراسات الأدبية بقراءته الفذة وشرحه النفيس لطبقات فحول الشعراء لابن سلام، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ثم تحقيقه المعجب لتفسير الطبري وتهذيب الآثار، ويحمل بعضهم معرفته به في هذه العبارة الفضفاضة التي لا تدل على شيء «شيخ المحققين».

والحقيقة أن الرجل وراء ذلك كله، وفوق ذلك كله، إنه تاريخ ضخم لرجل تنبه منذ طراءة الصبا وأوائل الشباب إلى هموم أمته وما يراد بها ويكاد لها، وقد فطن منذ عقل إلى أن الطريق الوحيد للتغيير هو العلم والمعرفة، فانصرف إليهما، ولم يشغل بغيرهما، ثم أخذ نفسه، بأسلوب صارم حازم، فقرأ القرآن صبيّاً، وأقبل على الشعر مبكراً، يحفظه لا كما يحفظه الناس: مقطوعات للإنشاد والتسلي والمطارحة في المجالس، وإنما الشعر عنده باب العربية كلها، وقد قاده الشعر إلى كتب العربية كلها، فالمكتبة العربية كلها عند أبـي فهر كتاب واحد، والعلوم عنده علم واحد، فهو يقرأ صحيح البخاري كما يقرأ الأغاني، ويقرأ كتاب سيبويه قراءته لمواقف عضد الدين الإيجي، فهو بتعبيرنا المصري «خد البيعة على بعضها».

وهكذا خالط أبو فهر العربية منذ أيامه الأولى، وعرف مناهج الكتب والكتَّاب في مختلف فنون العربية، وخبر مصطلحات الأقدمين وأعرافهم اللغوية، وهذا فرق ما بينه وبين سواه، من الكتاب والنقاد، فأنت قد تجد ناقداً ذا ذوق وبصيرة، ولكن محصوله اللغوي على قدر الحاجة، وقد تصادفه جمع بين الذوق والبصيرة واللغة ولكن معارفه التاريخية لا تتجاوز الشائع العام الدائر على الألسنة، وقد تراه فاز من الثلاثة بأوفر الحظ والنصيب، ولكنك لن تجد عنده ما تجد عند أبـي فهر من الأنس بالمكتبة العربية كلها في فنونها جميعها، ودوران هذه الفنون في فكره وقلبه.

ولقد سارت حياة أبـي فهر في طريقين استويا عنده استواء واضحاً عدلاً: الطريق الأول طريق العلم والمعرفة، يعبّ منهما ولا يروى. والطريق الثاني التنبه

الشديد لما يحاك لأمتنا العربية من كيد ومكر، وما يراد لثقافتها وعلومها من غياب واضمحلال، وظل حياته كلها قائماً على حراسة العربية والذود عنها، يحب من أجلها ويخاصم من أجلها، وقد احتمل في حالتيه من العناء والمكابدة ما تنوء بحمله العصبة أولو القوة.

وقد حارب أبو فهر في جهات كثيرة، وخاض معارك كثيرة: حارب الدعوة إلى العامية، وحارب الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية، وحارب الدعوة إلى هلهلة اللغة العربية والعبث بها بحجة التطور اللغوي، وحارب الخرافات والبدع والشعوذة. وقد حارب في كل ذلك وحده غير متحيز إلى فئة، أو منتصر بجماعة، وهو صلب عنيد فاتك، ألقى الدنيا خلف ظهره ودبر أذنيه، فلم يعبأ بإقبالها أو إدبارها، واستوى عنده سوادها وبياضها. ولقد أقصي كثيراً عن محافل الأدب ومجال الشهرة فلم يزده ذلك إلا إصراراً وثباتاً، ووقف وحده في ساحة الصدق شامخ الرأس مرفوع الهامة.



النحو العربي.. والحِمى المستباح[1]

[١]

من أمثال العرب الشائعة قولهم: «ذكَّرتَني الطعن وكنتُ ناسياً»، ويضرب في الحديث يستذكر به حديث غيره، كما قال الزمخشري.

وقال أبو هلال العسكري: يضرب مثلاً للشيء ينساه الإنسان وهو محتاج إليه.

وقد ذكرت ذلك حين قرأت في جريدة الأهرام ٢٦/٦/١٩٩٦م مقالة للأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، عنوانها: «حين يستوي الصمت والكلام» وقد أعاد في هذه المقالة كلاماً قديماً عن اللغة والنحو، كان قد كتبه في الأهرام أيضاً بتاريخ ٤/٣/١٩٩٢م و ٢٦/٨/١٩٩٢م، وكنت قد رددت عليه في عددين من الهلال (نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٩٢م). (راجع ما مضى ص ٢٠٦، ٢١٤).

ويقول الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي في كلمته الأخيرة هذه: «وبعض الناس يظنون أن اللغة معناها النحو، ولهذا قد يستغربون هذه الضجة التي نثيرها؛ لأن القيامة في رأيهم لن تقوم إذا أخطأ أحدنا أو أخطأنا جميعاً، فجعلنا الفاعل منصوباً أو حتى مجروراً بدلاً من أن نجعله مرفوعاً كما يطالبنا النحاة به، والحقيقة أن هذا فهم بالغ السذاجة، فاللغة ليست النحو، والمبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائماً دليلاً على نهضة أدبية أو حاسة لغوية يقظة، بل ربما كانت بالعكس دليلاً على ضعف السليقة وانحطاط الملكة.

---

(١) مجلة «الهلال»، سبتمبر ١٩٩٦م.

هكذا رأينا أن عصور الانحطاط التي شهدتها الآداب اليونانية في المرحلة الهلِّينية أو السكندرية كانت مصحوبة بنشاط واسع لعلماء النحو والعروض، وكذلك في عصور الانحطاط التي شهدتها روما في القرن الرابع الميلادي، وكذلك في عصور الانحطاط التي شهدها الأدب العربي في العصر المملوكي، ففي ذلك العصر الذي تراجع فيه الشعر وتدهورت الكتابة ظهر ابن منظور وابن هشام».

هكذا قال الأستاذ حجازي، وقد قرأت كلامه هذا أكثر من مرة، وأعطيته حظه من النظر والتأمل، ثم قلّبته ظهراً لبطن، والتمست لكاتبه المعذرة، فما استقام على وجه، ولا كشف عن جديد مما يكتبه الأستاذ حجازي، وما يكتبه غيره الآن عن النحو، هذا العلم الذي هو مِلاك العربية وقِوامها، والذي يقول عنه أبو العباس ثعلب أحد أئمة العربية في القرن الثالث: «لا يصح الشعر ولا الغريب ولا القرآن إلا بالنحو، النحو ميزان هذا كله»، (مجالس ثعلب ص ٣١٠).

وكان ينبغي على أبي العباس ثعلب أن يضيف: «ولا الفقه»، فقد قال أبو بكر الشنتريني من علماء القرن السادس: «ولقد رأيت جماعة من الفقهاء المتقدمين الذين لم يبلغوا درجة المجتهدين قد تكلموا في مسائل من الفقه فأخطأوا فيها، وليس ذلك لقصور أفهامهم، ولا لقلّة محفوظاتهم، ولكن لضعفهم في هذا العلم ــ يعني علم النحو ــ وعدم استقلالهم به»، تنبيه الألباب على فضائل الإعراب ص ٦٣.

كتاب سيبويه والقياس:

ورُوي أن أبا عمر الجرمي ــ من نحاة القرن الثالث ــ قال: «أنا مذ ثلاثون سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه»، فحدَّث ابن شُقَير بهذا الحديث المبرد، على سبيل التعجب والإنكار! فقال المبرد: «أنا سمعت الجرمي يقول هذا ــ وأومأ بيديه إلى أذنيه ــ وذلك أن أبا عمر الجرمي كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يُتعلَّم منه النظر والتفتيش»، (كتاب سيبويه ١/ ٥)، وروى ياقوت هذا الخبر برواية أخرى، «قال الجرمي: أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه، فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: أنا رجل مكثر من

الحديث، وكتاب سيبويه يعلمني القياس، وأنا أقيس الحديث، وأفتي به»، (معجم الأدباء ص ١٤٤٣، طبعة د. إحسان عباس)، وهي أصح الطبعات.

هذا وقد روى الزجاجي قصة تؤكد هذا الخبر، قال: «وكان أبو عمر الجرمي يوماً في مجلسه، وبحضرته جماعة من الفقهاء، فقال لهم: سلوني عما شئتم من الفقه، فإني أجيبكم على قياس النحو، فقالوا له: ما تقول في رجل سها في الصلاة، فسجد سجدتي السهو فسها؟ فقال: لا شيء عليه، قالوا له: من أين قلت ذلك؟ قال: أخذته من باب الترخيم، لأن المرخَّم لا يُرخَّم».

ورويت هذه القصة أيضاً عن أبي زكريا الفراء، بإجابة أخرى شبيهة بالسابقة، وذلك قوله: «أخذته من كتاب التصغير؛ لأن الاسم إذا صُغِّر لا يُصغَّر مرة أخرى»، (مجالس العلماء للزجاجي ص ٢٥١، ٢٥٢).

ومما ينبغي التنبه له أن بعض علماء الفقه كانوا يلجأون إلى بعض علماء النحو؛ ليضبطوا لهم بعض مسائلهم الفقهية، ومن ذلك ما ذكره السَّرخسي صاحب كتاب المبسوط، في أثناء شرحه لكتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني صاحب الإمام أبي حنيفة، قال: «اعلم بأن أدق مسائل هذا الكتاب وألطفها في أبواب الأمان، فقد جمع بين دقائق علم النحو ودقائق أصول الفقه، وكان ــ أي محمد بن الحسن، يشاور فيها عليّ بن حمزة الكسائي رحمه الله تعالى، فإنه كان ابن خالته، وكان مقدماً في علم النحو»، شرح السير الكبير ١/ ٢٥٢.

وفي مكتبتنا العربية كتاب حاشد، يدور حول ربط الفقه بالنحو، هو كتاب: «الكوكب الدري في تخريج الفروع الفقهية على المسائل النحوية» لجمال الدين الإسنوي، من علماء القرن الثامن.

ولا أظنني بحاجة إلى الاحتشاد والاستشهاد على سلطان النحو على سائر علوم العربية، ودورانه في نسيج الثقافة العربية، فهذا شيء مسطور في الكتب، ومحفوظ في صدور الذين أُوتوا العلم، لكن لا بأس من الإشارة إلى بعض الأمثلة التي تؤكد سلطان النحو على اللغة وعلى الفكر والفن معاً، وهذه الأمثلة التي تأتيك أيها

القارىء الكريم مما لا يتنبه له كثير من الناس؛ لأنها مطروحة في أخبار لا يقف الناس عندها كثيراً: حكى المسعودي قال: «وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه في تفضيل صنعة الكلام ــ وهي الرسالة المعروفة بالهاشمية ــ أن الخليل بن أحمد من أجل إحسانه في النحو والعروض وضع كتاباً في الإيقاع وتراكيب الأصوات»، مروج الذهب ٤/ ٣٢٤.

أرأيت أيها القارىء العزيز، كيف قاد الإحسان في النحو والعروض إلى الموسيقى؟ ولعل هذا خير تفسير لما قاله الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى ناصف، فيما نقله الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف في كتابه الجيد: النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي. يقول الدكتور مصطفى ناصف: «فالنحو ليس موضوعاً يحفل به المشتغلون بالمثل اللغوية، والذين يرون إقامة الحدود بين الصواب والخطأ، أو يرون الصواب رأياً واحداً، النحو مشغلة الفنانين والشعراء، والشعراء أو الفنانون هم الذين يهتمون بالنحو، أو هم الذين يبدعون بالنحو، فالنحو إبداع».

نعم النحو إبداع، ولا يعرف هذا إلا من قرأ القرآن الكريم قراءة تبصر وإحسان، ثم أطال النظر في كلام العرب: نثرها وشعرها، وصبر نفسه على قراءة الكتب والسَّير في دروبها، وحمل تكاليف العلم وأعبائه.

ونعم إن في النحو مناطق فن وإبداع، فإذا أنت تركت نحو الصنعة المتمثل في التعريفات والإخراج بالمحترزات والحدود والقوالب والنظام والاطّراد، وما تقتضيه القسمة العقلية التي تفترض أشياء لا وجود لها؛ لاستواء الصنعة النحوية ليس غير، وسائر هذه الأمور التي جعلت أبا سعيد السيرافي يقول: «النحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة»، (الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ١/ ١١٥).

أقول: إذا أنت تركت هذا كله، وجئت إلى نحو التراكيب وبناء الجملة العربية وجدت ذلك النحو العربي الشامخ القائم على رعاية المعاني والدلالات، التي

خرجت بالنحو من دائرة القوالب والنظام والاطراد، إلى العلاقات بين أجزاء الكلام، وتلك المنادح الواسعة، من التقديم والتأخير، والحذف والتقدير، والإضمار والفصل، والاتساع والحمل، والتضمين والجوار، والاستغناء ورعاية الظاهر واعتبار المحل، ومعاني الحروف والأدوات ووقوع بعضها موقع بعض، وتبادل وظائف الأبنية، ثم لغة الشعر التي يسمونها الضرائر.

مقتضى المعنى وحق الإعراب:

وحين انفسحت هذه الآفاق أمام النحاة الأوائل فطنوا إلى ما قد يكون من تعارض بين مقتضى المعنى وحق الإعراب، الذي هو أبرز شيء في الصنعة النحوية، فحاولوا الإبقاء على الصنعة والنظام، مع إعطاء المعاني والدلالات حقها، وكان أبو الفتح ابن جني أسبق النحاة إلى هذا التوفيق، وقد عالجه في غير موضع من كتبه، وفي مقدمتها كتابه الفذ «الخصائص»، فعقد في ص **٢٧٩** من الجزء الأول منه باباً سمَّاه: (باب في الفرق بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى) قال فيه: «ألا ترى إلى فرق ما بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى، فإذا مر بك شيء من هذا عن أصحابنا، فاحفظ نفسك منه ولا تسترسل إليه، فإن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى، فهو ما لا غاية وراءه، وإن كان تقدير الإعراب مخالفاً لتفسير المعنى، تقبلت تفسير المعنى على ما هو عليه، وصححت طريق تقدير الإعراب، حتى لا يشذ شيء منها عليك، وإياك أن تسترسل فتفسد ما تؤثر إصلاحه».

وقال في (باب تجاذب المعاني والإعراب) الخصائص **٣/ ٢٥٥**: «هذا موضع كان أبو علي ــ الفارسي ــ رحمه الله، يعتاده ويلم كثيراً به، ويبعث على المراجعة له، وإلطاف النظر فيه، وذلك أنك تجد في كثير من المنثور والمنظوم، الإعراب والمعنى متجاذبين، هذا يدعوك إلى أمر، وهذا يمنعك منه، فمتى اعتورا كلاماً أمسكت بعروة المعنى، وارتحت لتصحيح الإعراب».

ثم كانت القفزة الثانية في ربط معاني الكلام ودلالته بالنحو على يد الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتابه العظيم «دلائل الإعجاز»، وكانت نظريته المعروفة في

النظم هي مجلى ذلك الربط، وبتأمل هذه النظرية نستطيع أن ندرك أن المنهج العقلي المحكم الذي سار عليه عبد القاهر «هو الذي قاده إلى اعتماد النحو التقعيدي (نحو الصنعة) أساساً لإدراك القيمة الحقيقية للصياغة، وما يمكن أن يتيحه هذا النحو من إمكانات تركيبية تقترب من الإنسان ومقاصده الواعية»، كما قال الدكتور محمد عبد المطلب في كتابه قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ص ٢٨٦.

ومما ينبغي التنبه له أن عبد القاهر الجرجاني هذا مع شهرته الواسعة في البلاغة بكتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، يُعرف عند الأقدمين بعبد القاهر النحوي.

فهذا النحو القائم على رعاية التراكيب والدلالات في الكلام العربي الملفوظ والمكتوب هو النحو الذي ينبغي معرفته وتأمله والاسكتثار منه؛ لأنه بهذا المفهوم مِلاك العربية وقِوامها، بل إنه كان يعبر عنه أحياناً في القديم بالعربية، حكى ابن جني عن أبي العباس ثعلب، قال: «وكان يعقوب ـ يعني ابن السكيت ـ وضيئاً عظيم الخَلْق، وكان ذكيّاً حافظاً عالماً بالشعر واللغة، صالح المعرفة بالعربية، وكان ابن قادم وغيره من أصحابنا يحتاجون إليه في الشعر واللغة، ويحتاج هو إليهم في العربية»، (الخاطريات ص ١٩٨)، وكذلك عبر ابن خلدون عن النحو بعلم العربية. (انظر: مقدمة ابن خلدون ص ٥٣٢).

وجهان للفعل الواحد:

ومن الشواهد على سلطان النحو على اللغة ما ذكره أبو حيان التوحيدي قال: «سمعت في مجلس أبي سعيد ـ يعني السيرافي ـ شيخاً من أهل الأدب يقول: ومن الأفعال ما له وجهان، كشيء ينصرف على معنيين: مثل: أصاب عبدُ الله مالاً، وأصاب عبدَ الله مالٌ، إذا أصابه مال من قسمة، ووافق زيد حديثَنا، إذا صادفهم يتحدثون، ووافق زيداً حديثُنا، إذا سره وأعجبه، وأحرز زيدٌ سيفَه، إذا صانه في غمده، وأحرز زيداً سيفُه، إذا خلّصه من القتل وشبهه. ولو قلت: أحرز امرؤ أجلَه لم يجز؛ لأن الرجل لا يحرز أجله، ولكن أجله يُحرزه، إلا أن تذهب إلى قولك: أحرزت أجلي بالعمل الصالح.

ثم يقول أبو حيان: انظر ــ فديتك ــ إلى أثر النحو في هذا القدر اليسير، وتعجب عنده من أبـي حنيفة الصوفي حين قال لك: إن الله عزَّ وجلّ أمرنا بالطاعة والإيمان، وإنه لم يأمرنا بالنحو، وإلا فهات أنه يدل على أنه أمرنا بأن نتعلم «ضرب عبد الله زيداً»، وقد رأيت روغانه عن تحصيل الحجة في معرفة ذلك: ألا يعلم أن الكلام كالجسم والنحو كالحلية وأن التمييز بين الجسم والجسم إنما يقع بالحلى القائمة والأعراض الحالّة فيه، وأن حاجته إلى حركة الكلمة بأخذه وجوه الإعراب حتى يتميز الخطأ والصواب، كحاجته إلى نفس الخطاب، وليس على كلامه قياس، ولا في ركاكة بني جنسه التباس، وإنما غرَّه من هو أنقص منه فطرة، وأخس نظراً وفكرة، أتراه يصل إلى تخليص اللفظ المبني على معنى دون اللفظ المبنى على معنى آخر، إلا بحفظ الأسماء وتصريفها؟ أو تراه يقف على تحصيل المعنى المدفون في هذا اللفظ دون المعنى المدفون في هذا اللفظ إلاَّ بتمييز وجوه حركات اللفظ؟»، (البصائر والذخائر ١/ ١٧٩ ــ ١٨٠).

وفي هذا النص ــ فوق ما أوردته له ــ إشارة إلى ضيق بعض الناس بالنحو من قديم، وهذا مما يرجع إلى ضعف الهمم وقصور الخطى ليس غير، على نحو ما قال ربنا عزَّ وجلّ: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف: ١١]، فما ينبغي أن يتخذ مثل ذلك حجة على اطراح النحو أو إهماله.

على أن مثل «أبـي حنيفة الصوفي» هذا لا ينبغي أن يهتم برأيه في النحو واستصعابه له، وذلك لجهالة شأنه وخفوت ذكره، أما أن يأتي شاعر ضخم مثل الفرزدق فيسخر من قواعد النحو، فيما أجاب به عبد الله بن أبـي إسحاق الحضرمي، في القصة المشهورة، وقوله: «علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا»، أو أن يؤثر عن الفيلسوف الشهير «ابن الراوندي ــ على زندقته وإلحاده ــ طعن في النحو ونقض على النحويين، فهذا الذي ينبغي الوقوف عنده والاحتفال به، وقد قلت رأيـي في قصة الفرزدق تلك، في الهلال (ديسمبر ١٩٩٢م)، وانتهيت يومئذ إلى أن قول الفرزدق وقول سواه من الشعراء الذين أظهروا سخطهم على النحو وقواعده إنما هو

من باب المعابثة والاستطالة بالذكاء، وكأنهم يريدون أن يقولوا: إن نحوكم أيها النحاة صنعة، ونحونا فطرة، وآية ذلك أن شعرهم الذي حمل سخريتهم من النحاة ليس فيه شيء خارج عن النظام النحوي، أو خارق لقواعده، وكأنها سخرية بالنحاة لا بالنحو.

ومع هذا المأثور عن الفرزدق من استخفافه بالنحاة وخروجه أحياناً قليلة عن النظام النحوي، فقد بقي جمهور شعره على الجادة النحوية، وظل مدداً ثريّاً للنحاة، ينتزعون منه شواهدهم في الدرس النحوي واللغوي والصرفي والصوتي.

وأما «ابن الراوندي» أحمد بن يحيى بن إسحاق (٢٩٨هـ) الفيلسوف المعروف، والزنديق المجاهر بالإلحاد، فقد عرف عنه الطعن على النحويين، وذلك ما ذكره أبو حيان التوحيدي قال: «وأما قوله ــ يعني أبا حنيفة الصوفي ــ : فقد نقض على النحويين ابن الراوندي نحوهم، فإنه ذاهب بهذا القول عن وجه الرشد؛ لأن ابن الراوندي لا يلحن ولا يخطىء، لأنه متكلم بارع، وجهبذ ناقد، وبحاث جَدِل، ونظار صبور، ولكنه استطال باقتداره على علل النحويين، ورآها مفروضة بالتقريب، وموضوعة على التمثيل؛ لأنها تابعة للغة جيل من الأجيال، ومقترنة بلسان أمة من الأمم، فلم يكن للعقل فيها مجال إلا بمقدار الطاقة في إيضاح الأمثال وتصحيح الأقوال»، (البصائر والذخائر ١/ ١٨١).

وهذا النص مهم جداً، وهو شاهد صريح على ما قلته أنا منذ أربع سنوات بمجلة الهلال، من أن الذين يهاجمون النحو قديماً لا يلحنون ولا يخطئون، وإنما هو الضيق بنحو الصنعة ليس غير، و «علل النحويين» التي ذكرها أبو حيان، إنما هي من أبرز نحو الصنعة، ومن التوافق العجيب أن هذا النص الشاهد لما قلته قد جاء فيه لفظ «الاستطالة» أيضاً، وقد استعملته أنا وصفاً لموقف الفرزدق من النحاة، واستعمله أبو حيان وصفاً لموقف ابن الراوندي من النحاة أيضاً.

وضح إذن أن النحو نحوان: نحو الصنعة، ونحو التراكيب، فالأول هو النظام

والقواعد والتعريفات والقوالب، وما صحب ذلك كله من العلة والعامل، ولبعض خلق الله الحق في أن يضيقوا بالنحو على هذا الوصف؛ لأن فيه أحياناً ما يكد الذهن ويصدع الرأس، مع ما في بعض النحويين قديماً وحديثاً من ثقل وغثاثة، ولكنه على كل حال علم ينبغي أن يعرف ويحاط به.

والنحو الثاني: نحو التراكيب، وهو الذي اتكأ على النظام وانطلق منه إلى إدراك العلائق بين أجزاء الكلام، وتلك المنادح الواسعة التي ذكرتها من قبل، وهذا تستطيع أن تدركه من أول كتاب سيبويه إلى النحو الوافي لعباس حسن، على تفاوت بين النحاة في ذلك، وتستطيع أن تدركه أيضاً في كتب أعاريب القرآن وتوجيه القراءات السبع والعشر والشواذ، وشروح الحديث النبوي وفي شروح الشعر وكتب الأمثال وعلوم البلاغة. والنحو بهذا الوصف لا يصح أن يُطعن فيه أو يُنتقص منه، لأن الطاعن فيه منتقص للعربية كلها، ذاهب عنها جميعها.

ومن أعجب العجب أننا لا ننتبه لمناطق العظمة في تراثنا إلا إذا نبَّهنا إليها غيرنا من الطارئين على ثقافتنا وفكرنا، وهم طائفة من المستشرقين الجادين الذين عملوا بإخلاص وتفان في الكشف عن كنوزها وإبرازها، فحين التفتوا إلى ابن جني وعبقريته الفذة التفتنا نحن أيضاً إليه، ويوم أن خرج اللغوي الأمريكي المعاصر «تشومسكي» بنظريته في النحو التحويلي التوليدي، وما قاله عن «البنية العميقة» و «البنية السطحية» فرح كثير من المشتغلين بالدراسات النحوية عندنا، وقالوا: إن ذلك يتشابه مع كثير مما قدمه النحويون العرب القدماء في معالجتهم لتفسير الجمل في العربية، وجهد بعضهم في المقارنة بين جهود عبد القاهر الجرجاني وجهود تشومسكي في هذا السبيل، ويرد الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف ذلك فيقول: «ومهما تكن أسباب هذا التشابه أو التقارب في أسس المعالجة فإنه ينبغي ألا نعد ذلك من جانبنا شهادة للنحو العربي، بل قد أبالغ فأقول وبغير تواضع كاذب أو ادعاء خادع إن العكس هو الصحيح، أي أن هذا التقارب أو التشابه قد يعد شهادة لنظرية تشومسكي»، (من الأنماط التحويلية في النحو العربي ص ٦).

اللغة ليست هي النحو:

وإذ قد فرغت من التفرقة بين نحو الصنعة الذي هو النظام، ونحو التراكيب الذي هو التراكيب والعلاقات بين أجزاء الكلام، أعود إلى ما كتبه الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، وأول ما يلقانا من كلامه ــ حفظه الله ــ قوله: «وبعض الناس يظنون أن اللغة معناها النحو، ولهذا قد يستغربون هذه الضجة التي نثيرها؛ لأن القيامة في رأيهم لن تقوم إذا أخطأ أحدنا أو أخطأنا جميعاً، فجعلنا الفاعل منصوباً أو حتى مجروراً، بدلاً من أن نجعله مرفوعاً، كما يطالبنا النحاة».

وأقول: أما أن اللغة ليست هي النحو، فهذا صحيح، وقد قاله أهل العلم من قديم، ومن أقرب ما قاله القدماء قول أمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوي اليمني (٧٤٥هـ)، قال في كتابه الطراز ٣/ ٤٤٢: «إن المقاييس النحوية تابعة للأمور اللغوية، فيجب تنزيلها على ما كان واقعاً في اللغة، فإذا ما ورد ما يخالف الأقيسة النحوية من جهة الفصحاء، وجب تأويله، ويُطلب له وجه في مقاييس النحو، ولا يجوز رده لأجل مخالفته للنحو».

ومع استقلال اللغة عن النحو وتبعيته لها، فإن له سلطاناً بضوابطه الإعرابية على دلالات اللغة، وقد مر بك كلام ذلك الأديب، الذي حكاه أبو حيان.

أما قول الأستاذ حجازي عن بعضهم: «إن القيامة لن تقوم إذا جعلنا الفاعل منصوباً أو حتى مجروراً، بدلاً من أن نجعله مرفوعاً كما يطالبنا النحاة»، فالأمر في العلامة الإعرابية ليس بهذه السهولة وذلك اليسر، والذين يقولون هذا إنما يستشهدون بجملة مثل «جاء محمد» ويقولون: إن الفاعل معروف، سواء سكَّنَّا الدال أو رفعناها أو نصبناها أو جررناها، وهو كلام ركيك، لأن جملة كهذه لا تكاد توجد، لا في الفصحى ولا في العامية، فالذي يستعملها فصيحة لا بد أن يضم الدال، ولا يُسَكِّنها إلا إذا وقف على الدال، أما في العامية ــ وبخاصة العامية المصرية ــ فلا يكاد الناس يستعملون في هذا الموضع إلا الجملة الاسمية «محمد جه» وعلى لهجة أهل دمياط وما حولها «إجَهْ» وفيها قلب مكاني، مثل جذب وجبذ، وأرانب وأنارب ومسرح ومرسح.

والعلامة الإعرابية هي قضية القضايا في النحو العربي بقسميه: نحو الصنعة ونحو التراكيب، وقد أكثر الدارسون القدامى والمحدثون من الكلام عنها، وعن العامل الذي جلبها، وهل هو عامل لفظي أو معنوي، مما لا يتسع المقام هنا لبسطه وشرحه، ومن أجمع ما كتب فيها كتاب: «العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث»، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف.

وهذه العلامة هي إحدى القرائن النحوية، ومهما اختلف الدارسون في وضع هذه العلامة مع القرائن الأخرى، سبقاً أو توسطاً أو تأخراً، فلن يستطيع الدارس المستند إلى قراءة واسعة في كتب النحو وفي غير كتب النحو، أن يغفل أثر هذه العلامة، وأنها أحياناً تكون حاسمة في تحديد المعاني والدلالات، لا يشركها معها غيرها، ولا يقوم شيء مقامها، وأمثلة ذلك مما يطول به الكلام جداً، وأظن أنه لا يخفى على القارىء اختلاف الدلالة في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣]، برفع اللام وجرها من (رسوله) وكذلك اختلاف تقدير عدد النسوة في قولنا: «جاء سبعة رجال ونسوة» بين جر «نسوة» ورفعها، فإذا قلنا و «نسوة» بالجر، كان عددهن سبعاً، لأن «نسوة» حينئذ تكون معطوفة على «رجال» وهم سبعة، وإذا قلنا «نسوةٌ» بالرفع، كانت على الابتداء، والخبر محذوف، وتقدير الكلام «ونسوةٌ لا يعلم عددهن».

سأترك هذا وأشباهه لأذكر مثالين اثنين على الإعراب وأثره في توجيه المعنى، وعلى المعنى وأثره في توجيه الإعراب، وإنما ذكرت هذين المثالين لأن الناس لا تلتفت إليهما ولا تقف عندهما.

الفرق بين الرفع والنصب:

المثال الأول، ذكره ابن هشام في المغني ٢/ ٥٢٨: «قال الشَّلَوْبين (٦٥٤هـ): حُكي لي أن نحويّاً من كبار طلبة الجُزُولي سُئل عن إعراب (كلالة) من قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾ [النساء: ١٢]، فقال: أخبروني ما

الكلالة؟ فقالوا: الورثة إذا لم يكن فيهم أب فما علا، ولا ابن فما سفل. فقال: فهي إذن تمييز». قال ابن هشام: «وتوجيه قوله أن يكون الأصل: وإن كان رجل يرثه كلالة، ثم حُذف الفاعل وبُني الفعل للمفعول، فارتفع الضمير واستتر، ثم جيء بكلالة تمييزاً»، ثم عقب ابن هشام برأيه في المسألة.

أما المثال الثاني: فهو ما ذكره معربو القرآن الكريم في الفرق بين الرفع والنصب في جواب «ماذا» من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النحل: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا ﴾ [النحل: ٣٠]، وواضح هنا أن سياق الآيتين واحد، في (قيل) المبني للمجهول، ثم في صورة السؤال (ماذا أنزل ربكم)، ومع ذلك فقد جاء الجواب في الآية الأولى برفع (أساطير)، وفي الثانية بنصب (خيراً).

وتوجيه الرفع في (أساطير) أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره «هو»، أما توجيه النصب في (خيراً) فهو أنه مفعول به لفعل محذوف، تقديره «أنزل».

قال المعربون: وإنما قُدر في الأول «هو» ولم يُقدر «أنزل»، لأن الآية إخبار عن الكافرين، والكافر جاحدٌ لإنزال القرآن، وإنما هو عنده كذب وأساطير، كما حكى القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٥]، وقدَّر في الثاني «أنزل» لأنه من جواب المؤمنين بأنَّ القرآن منزَّل من عند الله.

قال الزمخشري عقب تلاوة الآيتين: «فإن قلت: لِمَ نصب هذا ورفع الأول؟ قلت: فصلاً بين جواب المُقِرّ وجواب الجاحد، يعني أن هؤلاء لما سُئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بيناً مكشوفاً مفعولاً للإنزال فقالوا خيراً: أي أنزل خيراً، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال، فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء»، (الكشاف ٢/ ٤٠٧).

فهذا أثر العلامة الإعرابية في تحديد الدلالة والفصل بين المعاني، وسوف تقوم

القيامة فعلاً في هذا ونحوه لو رفعنا ما حقه النصب، أونصبنا ما حقه الرفع. وترى لذلك نظائر كثيرة في الشعر، وفي غيره من مأثور كلام العرب.

ثم يقول الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي: «والمبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائماً دليلاً على نهضة أدبية أو حاسة لغوية يقظة، بل ربما كانت بالعكس دليلاً على ضعف السليقة وانحطاط الملكة، هكذا رأينا أن عصور الانحطاط التي شهدتها الآداب اليونانية في المرحلة الهللينية أو السكندرية كانت مصحوبة بنشاط واسع لعلماء النحو والعروض، وكذلك في عصور الانحطاط التي شهدتها روما في القرن الرابع الميلادي...»، ويجيء بعد ذلك كلام نستبقيه إلى حين.

ضعف الحجة:

وهذا كلام غريب حقّاً، وبدءة ذي بدء، فليس صحيحاً ولا عدلاً أن نضع نحو أولئك القوم وعروضهم بإزاء نحونا وعروضنا، فالجهة منفكة كما يقول أهل المنطق. فإن الأمر على نحو ما قال أبو عمرو بن العلاء: «ما لسان حِمْير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا».

على أن الزج بهذه الكلمات: الآداب اليونانية، والمرحلة الهللينية والسكندرية، وروما في القرن الرابع... كل ذلك وأشباهه مما يلقيه الكاتب إلى القارىء أو السامع ـ وبخاصة المبتدىء ـ فيهزه هزاً، ثم يدهشه ويرعش عقله ويخيفه (ويخضه) فتضعف حجته في الرد عليه أو دفعه لو وجد إليهما سبيلاً، على ما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما: «ونصرت بالرعب مسيرة شهر».

ثم نعود إلى كلام الأستاذ حجازي الذي يقول إن المبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائماً دليلاً على نهضة أدبية... إلى آخر ما قال وانتهى إليه من أن الاهتمام بالنحو دليل على ضعف السليقة وانحطاط الملكة.

وليس بيننا وبين الأستاذ حجازي إلا التاريخ نلوذ به ونحتكم إليه: تاريخ نشأة

النحو وتاريخ الاهتمام به، ولنترك ونحن بسبيل ذلك القرن الأول وما قيل عن وضع النحو على يد أبـي الأسود الدؤلي بإشارة من أمير المؤمنين علي بن أبـي طالب، ففي تلك الحقبة بعض غموض لا يُفضي إلى الاطمئنان إلى رأي، ولنقفز إلى القرن الثاني، حيث نلقى الخليل بن أحمد، عبقري العربية، وتلميذه سيبويه الذي ترك لنا كتاباً مكتملاً محكماً لا سبيل إلى الطعن فيه أو الغض منه. وتوفي سيبويه على الأرجح سنة (١٨٠هـ) فكان هذا القرن الثاني هو بداية التصنيف النحوي الذي مهد لما بعده، فجرى الناس في أثره، ولنأخذ القرنين التاليين: الثالث والرابع وننظر في حال النحو في هذه القرون الثلاثة معاً: تأليفاً ومدارسة واهتماماً، وإنما اخترت تلك القرون الثلاثة لأنها تمثل البداية والتدرج والنضج، وسوف ننظر بعد ذلك في حال اللغة والأدب في تلك القرون الثلاثة أيضاً، لنرى أثر الاهتمام بالنحو فيها علواً أو انحطاطاً وفق رؤية الأستاذ حجازي.

على أنه مما ينبغي التذكير له أنه كان هناك اهتمام بالنحو في القرنين الأول والثاني قبل ظهور كتاب سيبويه، ولكنه كان اهتماماً بالنحو، لا من حيث هو علم ذو قوانين وضوابط، ولكن من حيث الاستعانة به في محاصرة اللحن الذي بدأ يطغى ويفشو نتيجة اختلاط اللسان العربـي بغيره من ألسنة الأمم الوافدة على المجتمع العربـي، ونستطيع أن نقول: إن النحو في تلك الفترة المبكرة كان نحو السليقة والفطرة العربية المتوارثة، وهي تلك السليقة التي عبر عنها الشاعر بقوله:

ولستُ بنحوي يلوك لسانَه ... ولكن سليقيٌّ أقول فأُعربُ

وأخبار التصدي للحن ومحاصرته في ذلك الزمان المبكر كثيرة، من أبرزها خبران يتصلان بلحنين وقعا من شخصيتين كبيرتين، لم يمنع مركزهما الاجتماعي من تنبيههما على ما وقعا فيه من خطأ:

الخبر الأول: ما وقع من الحجاج بن يوسف الثقفي «وقد سأل يحيى بن يعمر: أتسمعني ألحن؟ قال: حرفاً، قال: أين؟ قال: في القرآن، قال: ذلك أشنع له! فما هو؟ قال: تقول: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] ــ قرأها برفع (أحبُّ) وحقها النصب لأنها خبر كان ــ قال الحجاج: لا جَرَم، لا تسمع لي لحناً أبداً، فألحقه بخراسان»، (طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ١٣)، كأن الحجاج غَضِبَ فنفاه.

والخبر الثاني: عن الأخفش، قال: كان أمير البصرة يقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، برفع (وملائكتُه)، فمضيت إليه ناصحاً له، فزبرني وتوعدني، وقال: تُلَحِّنون أمراءكم.

وفي رواية أن اللاحن كان محمد بن سليمان الهاشمي أمير البصرة أيضاً، وأنه رضي عن الأخفش لتنبيهه إياه، وأجازه. (إنباه الرواة للقِفطي ٢/ ٤١).

وقد قلت إن القرون (الثاني والثالث والرابع) تمثل بداية التأليف في النحو وتدرجه ونضجه، ففي القرن الثاني ظهر كتاب سيبويه الرائد، وفي القرن الثالث جاء أبو بكر بن السراج بكتابه الأصول، الذي قيل فيه: «كان النحو مجنوناً حتى عقَّله ابن السراج بأصوله». وفي القرن الرابع جاء العَلَم الضخم أبو علي الفارسي، إمام الصناعة النحوية، وتلميذه العبقري أبو الفتح ابن جني، وفي وسط هؤلاء الأعلام ظهر نحاة كثيرون، في البصرة والكوفة وبغداد والشام ومصر والأندلس.

وفي تلك القرون الثلاثة ظهر النحو ظهوراً بيناً على ساحة الفكر العربي، وأخذ الاهتمام به أشكالاً كثيرة: تآليف في النحو خالصة، وأعاريب للقرآن الكريم، وكتباً في توجيه قراءاته والاحتجاج لها، مثل: معاني القرآن للفراء (٢٠٧هـ) ــ والمعاني في ذلك الوقت يراد بها الإعراب ــ ومجاز القرآن لأبي عبيدة (٢١٠هـ) ومعاني القرآن للأخفش (٢١٥هـ) ومعاني القرآن للزجاج (٣١١هـ) وإعراب القرآن للنحاس (٢٣٨هـ) والحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي (٣٧٧هـ) والمحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني (٣٩٢هـ).

ثم تجلى الاهتمام بالنحو أيضاً في شروح الشعر الجاهلي والإسلامي، وقد

عُنِيت هذه الشروح عناية فائقة بالنحو، مثل شروح الأصمعي، وأبـي نصر الباهلي وابن السّكّيت وأبـي العباس ثعلب، وأبـي العباس الأحول، وأبـي بكر بن الأنباري، وأبـي سعيد السكري.

مظاهر الاهتمام بالنحو:

ومن وراء ذلك كله كان هناك مظهر رابع للاهتمام بالنحو، وهو تلك المجالس التي كانت تعقد بين عالمين أو أكثر من علماء النحو واللغة، وقد عُرفت بالمجالس النحوية، ومن أشهرها مجلس سيبويه مع الكسائي، حول المسألة الزنبورية: «كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو هي، أو فإذا هو إياها»، وقد حضرها هارون الرشيد.

وقد جمع هذه المجالس ــ التي بلغت ١٥٦ مجلساً ــ أبو القاسم الزجاجي، في تأليف مستقل، باسم: مجالس العلماء، نشرها شيخنا عبد السلام هارون، برَّد الله مضجعه.

أرأيت اهتماماً بالنحو أكثر من هذا؟

البقية في المقال القادم.

* * *

النحو العربي.. والحِمى المستباح[1]

[٢]

الاهتمام بالنحو كان متزامناً مع النهضة العامة التي كانت آخذة في النمو والاتساع، في علوم العرب وفنونها في ذلك الزمان، لكن التركيز هنا يكون على النهضة اللغوية والنهضة الأدبية اللتين يرى الأستاذ حجازي أنهما لا يجتمعان مع الاهتمام بالنحو:

فالعلماء الرواة يغدون ويروحون لمشافهة الأعراب في البوادي، وكذلك رواة الشعر وجامعوه في نشاط دائب، واللغة تدوَّن في تلك الرسائل الصغار القائمة على الأجناس، مثل كتب خَلْق الإنسان والبهائم والحشرات والخيل والإبل والنخل والنبات والمطر والسحاب واللبن، والمذكر والمؤنث، ثم تظهر المعاجم في ذلك الوقت المبكر، مثل العين للخليل بن أحمد أو الليث بن المظفر، وكتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني.

ثم يتجه التأليف اللغوي وجهة أخرى، فينهض العلماء إلى تنقية اللغة، فيما عُرف بلحن العامة، وقد جاء ذلك صريحاً فيما صنفه الكسائي من «لحن العامة» أو ما جاء ضمناً كالذي صنعه ابن السكيت في «إصلاح

(١) مجلة «الهلال»، أكتوبر ١٩٩٦م.

المنطق»، وما صنعه ابن قتيبة في «أدب الكاتب».

أما النهضة الأدبية المواكبة لذلك الاهتمام النحوي في القرون الثلاثة المذكورة، فلست أعرف سبيلاً للتدليل عليها، ولا أحسب أن الأستاذ حجازي يخفى عليه مكان هذه الكتب واجتماع النحو واللغة والأدب فيها: البيان والتبيين للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والكامل للمبرد، وأمالي أبي علي القالي، ويبرز كتاب الكامل من بين هذه الكتب، بعنايته الفائقة بالنحو.

أما الشعر والشعراء فلا يخفى تألقهما في تلك القرون الثلاثة التي اهتم فيها أهل العلم بالنحو، وهاتان قائمتان بأبرز النحاة وأبرز الشعراء الذين تعاصروا في ذلك الزمان، أسوقهما تذكرة للمبتدئين، أما أهل العلم فهم أقدر مني على معرفة ذلك:

النحاة: سيبويه (١٨٠هـ)، الكسائي (١٨٩هـ)، الفراء (٢٠٧هـ)، المبرد (٢٨٦هـ)، ثعلب (٢٩١هـ)، الزجاج (٣١١هـ)، ابن السراج (٣١٦هـ)، السيرافي (٣٦٨هـ)، أبو علي الفارسي (٣٧٧هـ)، ابن خالويه (٣٧٠هـ)، ابن جني (٣٩٢هـ).

الشعراء: بشار بن برد (١٦٧هـ)، أبو نواس (١٩٨هـ)، مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغواني (٢٠٨هـ)، أبو العتاهية (٢١١هـ)، أبو تمام (٢٣١هـ)، ابن الرومي (٢٨٣هـ)، البحتري (٢٨٤هـ)، ابن المعتز (٢٩٦هـ)، المتنبي (٣٥٤هـ)، أبو فراس الحمداني (٣٥٧هـ)، الشريف الرضي (٤٠٦هـ).

ومن المعروف أنه كانت هناك خصوصية بين بعض هؤلاء النحاة وبعض هؤلاء الشعراء، أذكر منها ما كان بين أبي العباس المبرد والشاعرين البحتري وابن الرومي، فالبحتري يدعو المبرد إلى حضور مجلسه على النهر، في قصيدة يقول فيها:

ودوام المُدام يُدْنيك ممَّن كنت تهوى وإن جفاك الحبيبُ

فائتنا يا محمد بن يزيد في استتار كي لا يراك الرقيبُ

ثم يمدحه بشعر آخر، يقول فيه:

ما نال ما نال الأمير محمد　　إلا بيمن محمد بن يزيد

ديوان البحتري ص ١٣٢، ٧٧٤ (تحقيق حسن كامل الصيرفي).

وابن الرومي يمدح المبرد أيضاً في قصيدة طويلة، بلغت عدة أبياتها (٩٨) بيتاً، يقول في أولها:

طرقت أسماء والركبُ هُجودُ　　والمطايا جُنْحُ الأوزارِ قُودُ

ديوان ابن الرومي ص ٧٥١ (تحقيق د. حسين نصار).

ثم أذكر أيضاً الخصوصية التي كانت بين ابن خالويه وأبي فراس الحمداني، وقد شرح ابن خالويه ديوانه الذي نشره الدكتور سامي الدهان.

ومن أشهر الصلات بين نحوي وشاعر ما كان بين أبي الفتح ابن جني وأبي الطيب المتنبي، فقد اجتمعا معاً في بلاط سيف الدولة بن حمدان بحلب، وفي مجلس عضد الدولة بن بويه بشيراز، وكانا يتبادلان الإعجاب، ويتقارضان الثناء، وكان المتنبي يقول عن ابن جني: «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس»، وكان إذا سئل عن شيء من دقائق النحو والتصريف في شعره يقول: «سلوا صاحبنا أبا الفتح»، ثم كان إذا سئل عن معنى قاله، أو توجيه إعراب حصل فيه إغراب دل عليه، وقال: «عليكم بالشيخ الأعور ابن جني فسلوه، فإنه يقول ما أردت وما لم أرد».

الاستشهاد بالشعر:

وأما ابن جني فقد كان يُجلُّ المتنبي، وهو أول من شرح ديوانه، وقد شرحه شرحين: أحدهما كبير يسمَّى: «الفسر» أي التفسير، وقد طبع جزء منه بتحقيق الدكتور صفاء خلوصي، والشرح الآخر صغير يسمَّى: «الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي»، وقد طبع في جزء واحد بتحقيق الدكتور محسن غياض.

ومن وراء ذلك فقد كان ابن جني يثني على أبي الطيب ويستشهد بشعره، متجاوزاً بذلك ما حدده متشدِّدو النحاة من الوقوف بالاستشهاد عند الشاعر

إبراهيم بن هَرْمة (١٧٦هـ) ومما قاله ابن جني في ذلك عندما استشهد بشعر المتنبـي: «ولا تستنكر ذكر هذا الرجل ــ وإن كان مولَّداً ــ في أثناء ما نحن عليه من هذا الموضع وغموضه ولطف متسربه، فإن المعاني يتناهبها المولّدون كما يتناهبها المتقدمون» الخصائص ١/ ٢٤، ومن أقواله فيه أيضاً: «وحدثني المتنبـي شاعرنا، وما عرفته إلا صادقاً»، الخصائص ١/ ٢٣٩، «وذاكرت المتنبـي شاعرنا نحواً من هذا»، الخصائص ٢/ ٤٠٣، وكان يفاوضه في أمور من النحو والصرف، منها قوله: «ودار بيني وبين المتنبـي في قوله «وقلنا للسيوف هَلُمُّنا» كلامٌ فيه طول» سر صناعة الإعراب ص ٧٢٢.

وحين مات المتنبـي رثاه ابن جني بقصيدة أولها:

غـاض القـريـض وأودت نضـرة الأدب وصـوَّحـت بعـد ريّ دوحـة الكتـب

فهل تصدق بعد ذلك ما يقال عن عداوة ومُدابرة بين النحاة والشعراء؟

ثم هل بقي بعد ذلك موضع لقول الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي: «والمبالغة في الاهتمام بالنحو ليست دائماً دليلاً على نهضة أدبية أو حاسة لغوية يقظة، بل ربما كانت بالعكس دليلاً على ضعف السليقة وانحطاط الملكة»، هل بقي موضع لهذا الكلام؟ إلا أن يكون الأستاذ حجازي يريد نحواً آخر، وأدباً آخر غير اللذين يعرفهما الناس في تراثنا العربـي.

كلام فظيع جداً:

ثم نأتي إلى أخطر شيء في كلام الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، وهو قوله في سياق الحديث عن عصور الانحطاط التي يسود فيها الاهتمام بالنحو والعروض، يقول: «وكذلك في عصور الانحطاط التي شهدها الأدب العربـي في العصر المملوكي، ففي ذلك العصر الذي تراجع فيه الشعر وتدهورت الكتابة ظهر ابن منظور وابن هشام». انتهى كلام الأستاذ حجازي بنصه وفصِّه، وهو كلام فظيع جداً، مفزع جداً، وهو فظيع جداً، ومفزع جداً؛ لأنه دال بصريح اللفظ على أن ابن منظور

وابن هشام آيتان من آيات الضعف، ومظهران من مظاهر الانحطاط.

وأنا أسأل الشاعر الكبير، وأقول له: من أنبأك هذا؟ ثم ما هي جريرة ابن منظور وابن هشام عندك حتى تهوي بهما إلى مكان سحيق من التخلف والانحطاط؟ أهو شيء استنبطته أنت بقراءاتك، وقامت لك شواهده، ولمعت أمامك أدلته، فنبئنا بتأويله؟ أم هو كلام سقط إليك مما نقرأه من البلايا التي تصب علينا هذه الأيام، تريد أن تغتال تاريخنا اغتيالاً، تحت شعار: تنوير العقل العربي؟ فدُلَّنا على مصدر هذا الكلام، واخرج من العُهدة فيه.

وابن منظور هنا: هو جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الإفريقي المصري، ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل رُوَيْفع بن ثابت، والإفريقي في نسبه معناها التونسي، فقد كانت إفريقية في ذلك الزمان يراد بها تونس الآن.

ولد ابن منظور يقيناً بالقاهرة سنة ٦٣٠هـ، ونشأ بها وتعلم وصنّف، وتوفي بها أيضاً سنة ٧١١هـ، وخلاصة أمره أنه كان مشتغلاً بالأدب نظماً ونثراً، مع معرفة بالنحو واللغة والتاريخ، وتولى وظيفة كاتب الإنشاء بالدولة، وكان كثير النسخ ذا خط حسن.

وقد عُرف ابن منظور باختصاره للكتب، فاختصر كتاب الأغاني، وهذَّبه ورتبه على الحروف، وقد طبع هذا المختصر في ثماني مجلدات.

ومن الكتب التي اختصرها ابن منظور أيضاً: الحيوان للجاحظ، وزهر الآداب للحُصري، ويتيمة الدهر للثعالبي، والذخيرة لابن بسام، ونشوار المحاضرة للتنوخي، وتاريخ بغداد للخطيب، والذيل عليه لابن النجار، وصفة الصفوة لابن الجوزي، ومفردات ابن البَيطار، وسرور النفس بمدارك الحواس الخمس للتيفاشي، نشره الدكتور إحسان عباس، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ويقوم على تحقيقه الآن الدكتور رضوان السيد الأستاذ بالجامعة اللبنانية.

وقد تغيّا ابن منظور من تأليف معجمه هذا غايات، أبَنْت عنها في مقالة لي بالهلال (مارس ١٩٩٢م)، لكني أستأذن قارئي الكريم في أن أعيد ذكر غاية واحدة من تلك الغايات ــ لاتصالها بموضوعنا الآن ــ وهي غاية قومية وطنية، باعثها الغَيرة على العربية والعصبية لها، بعد أن اطرح بعض الناس الحديث بالعربية وهجروها إلى اللغة الأعجمية، وهي التركية في ذلك الزمان.

اختلاف الألسنة:

يقول ابن منظور في مقدمة اللسان: «وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفتخرون، وصنعته كما صنع نوح الفُلك وقومه منه يسخرون».

فهذا حديث ابن منظور، سقته على سبيل الوجازة والاختصار.

أما حديث ابن هشام فمُجمل القول فيه أنه: جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن أحمد... ابن هشام الأنصاري المصري، ولد بالقاهرة سنة (٧٠٨هـ) وتوفي بها سنة (٧٦١هـ)، حصّل علوم العربية، واشتغل بالتدريس والإقراء، وصنف تصانيف كثيرة، جمهورها في علم النحو، وقد بلغت تآليفه فيه نحو (٣٠) مصنفاً، ما بين رسالة صغيرة، إلى كتاب كبير، ومن أشهرها: الإعراب عن قواعد الإعراب، وقطر الندى وبلُّ الصدى، وشذور الذهب، وأوضح المسالك، وشرح ألفية ابن مالك، المسمَّى أوضح المسالك. ويأتي على رأس مصنفاته النحوية كلها: كتابه الماتع: «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب»، وهو الذي يقول عنه ابن خلدون: «ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها، وسمَّاه بالمغني في الإعراب».

وكان ابن خلدون قد وصف أمر ابن هشام على الجملة، فقال وهو يتحدَّث عن صعوبة تحصيل علم من العلوم من جميع جهاته، والإحاطة به كله، ومثَّل لذلك بعلم العربية، وهو علم النحو، فقال في سياق حديث طويل: «كيف يُطالَب به المتعلم وينقضي عمره دونه، ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل النادر، مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية، من أهل مصر، يعرف بابن هشام، ظهر في كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة، لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتهما لعظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحس تصرفه فيه، ودل على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين»، المقدمة ص ٥٣٢.

(تحقيق):

شاعت عن ابن خلدون في حق ابن هشام كلمة تناقلها مترجموه، وهي قوله: «ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية، يقال له ابن هشام، أنحى من سيبويه»، ولم أجد هذه الكلمة بسياقها هذا وحروفها في مقدمة ابن خلدون، وإن كان الكلام الذي نقلته من المقدمة يؤول إليها ويدلُّ عليها. وقد تتبعت الكلمة فوجدت أن الذي ذكرها بهذا النسق والسياق: هو ابن حجر العسقلاني، في ترجمة ابن هشام من الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٢/٤١٦، ويلاحظ أن ابن حجر صدَّر هذه الكلمة بقوله: «قال لنا ابن خلدون» فهو سماع إذن، وقد ذكر شمس الدين السخاوي في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٤/١٤٨، أن ابن حجر اجتمع بابن خلدون مراراً، وسمع من فوائده.

تعمق مذهب النحاة:

ويقول أستاذنا الدكتور شوقي ضيف عن ابن هشام: «وقد تحوَّل يتعمَّقُ مذاهب النحاة، وتمثلها تمثلاً غريباً نادراً، وهي مبثوثة في مصنفاته مع مناقشتها وبيان الضعيف منها والسديد، مع إثارته ما لا يحصى من الخواطر والآراء في كل ما يناقشه وكل ما يعرضه»، ويقول أيضاً عن مصنَّفاته: «وهو يمتاز فيها جميعاً بوضوح عبارته،

مع الأداء الدقيق إلى أبعد حدود الدقة، مسهباً مطنباً، أو موجزاً مجملاً»، المدارس النحوية ص ٣٤٦، ٣٤٧.

فهذا ابن هشام يراه الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي مظهراً من مظاهر الضعف والانحطاط، ويراه ابن خلدون وشوقي ضيف: محيـي صناعة النحو في تلك العصور الوسطى بعدما كادت تؤذن بالذهاب، وأنه قرين سيبويه وابن جني، وأنه قد تعمق مذاهب النحاة وتمثلها ثم أحسن عرضها ومناقشتها... وهذا على نحو ما قال ربنا عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج: ٦، ٧].

وهذا ابن منظور يراه الأستاذ حجازي مظهراً من مظاهر الانحطاط والضعف أيضاً، ويراه أهل العلم بالعربية صاحب أول معجم عربـي كبير، جمع جذور اللغة العربية بمناهج المعاجم المختلفة «لسان العرب» تذكره ولا تصفه، لأنه أحد معالم حضارتنا العربية.

على أن للقضية وجهاً آخر، هو ما ذكره الأستاذ حجازي ويذكره غيره من الدارسين الجامعيين وغير الجامعيين، من وَسْم العصر المملوكي بالانحطاط والتخلف لضعف الأدب والشعر فيه. ورد هذا الكلام ونقضه في غير هذا المكان، لكني أشير هنا إلى أنه لولا ما صنعه ابن منظور وابن هشام ومن إليهما من لغويي ونحاة وعلماء القرن الثامن (وهو العصر المملوكي) من هذه الأعمال الموسوعية لضاع علم كثير، ولضعفت ذاكرة الأمة العربية ثم تلاشت، وهو (الدور) العظيم الذي اضطلعت به مصر والشام في ذلك الوقت غداة سقوط بغداد، وإيذان شمس الأندلس بالغروب، فكانت القاهرة ودمشق ملاذاً وملجأ لعلماء بغداد والأندلس، فواصلوا المسيرة التي بدأوها في بلدانهم قبل أن تغشاها النوائب، وشاركوا قرناءهم من علماء مصر والشام في تلك الأعمال التجميعية الضخمة، كابن منظور وابن هشام وصلاح الدين الصفدي، وشمس الدين الذهبـي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأبـي الحجاج المزي، وأبـي حيان الأندلسي، وابن سيد الناس اليعمري، وشهاب الدين النويري، صاحب «نهاية الأرب في فنون الأدب» الذي يقول فيه المستشرق فازيليف: «إن نهاية

الأرب على الرغم من تأخر عصره يحوي أخباراً خطيرة عن صقلية، نقلها عن مؤرخين قدماء لم تصل إلينا كتبهم، مثل ابن الرقيق وابن رشيق وابن شداد وغيرهم».

فما ينبغي أن تكون بعض مظاهر الضعف في الشعر والكتابة الأدبية في العصر المملوكي، صارفة الأنظار عن مظاهر الحضارة العربية في ذلك العصر، فلنكف إذن عن ثَلْب هذا العصر وتجريحه. ومرة أخرى: لولا ابن منظور وابن هشام وأشباههما من الحَفَظة لضاع الإرث والورثة، ولم يجد الأستاذ حجازي عربية يقيم بها لسانه، وينسج بها شعره.

وليعلم الشاعر الكبير أن مكانته العالية التي اقتعدها في دنيا الشعر في زماننا هذا ليست مؤهلة له لأن يذهب هذه المذاهب في دنيا اللغة والنحو، فاللغة بحر لا ساحل له، والنحو صعب وطويل سُلَّمه، ولست آمن إذا ظل الشاعر الكبير ماضياً في هذا الطريق: طريق الجرأة على اللغة والنحو، لست آمن أن يقوم له أحد المعيدين الصغار الذين تخصصوا في هذين العلمين، فيقعد له كل مرصد، ويأتيه من كل مكان، حتى ينقض كلامه عُروة عُروة، «وأول راض سنة من يسيرها» كما يقول خالد بن زهير الهذلي.

هجوم وازدراء:

على أن هذا الذي ذكره الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي عن النحو العربـي إنما هو نفخٌ في نار خامدة، شبَّت في العقود الأخيرة من هذا القرن ثم طَفِئَت، ثم شبت ثم طفئت... وهكذا، على نحو ما قال ربنا سبحانه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: ٩٧].

وإذا كانت ثقافة هذه الأمة العربية كلها قد تعرضت للتنقص والتجريح، كقولهم في تفسير القرآن إن به إسرائيليات، وقولهم في الحديث إن به وضعاً وضعفاً، وإن في الشعر انتحالاً، وفي الأدب ذاتية، وفي البلاغة تكلفاً وزخارف وأصباغاً... إلى آخر هذا الكلام المعاد المموج، فإن النحو العربـي قد ذهب بالهجوم كله وبالازدراء كله.

على أن أغرب ما في الأمر أنه قد صار (مَلْطَشَة) يتكلم فيه من يعرف ومن لا يعرف، فإن بعض الذين يكتبون عن النحو الآن لا صلة لهم به، لا من قريب ولا من بعيد، وإنما هي نُقُول ومتابعات ينقلها لاحق عن سابق، ثم ينسبها إلى نفسه ويتنفَّخ بها على خلق الله، وهذا هو الزور بعينه، على ما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما: «المتشبِّع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبـي زور»، وهكذا تسير الأمور، وكأن الأمر في الكتابة عن النحو قد صار (على المشاع).

ومن ذلك ما كتبه الأستاذ بدر نشأت في الأهرام ١٩٩٦/٧/٥م بعنوان: «بين فصحى نعرفها وعامية نجهلها»، وفي هذه الكلمة ترديد لأقوال السابقين، مع تخليط كثير، وجرأة عجيبة، من مثل قوله: «إن القراءة الصحيحة السليمة تفتقد السرعة والمباشرة، فالقراءة بالتنوين تطيل الوقت، وتضاعف جهود النطق، وهي أمور ما عادت تتفق وإيقاع العصر وتتعارض مع النزوع البشري المطرد إلى الاقتصاد في الجهد والوقت، فاللغة كائن حي، لا بد لها من أن تلاحق إيقاع الحياة وتتكيف معه».

وأنا لا أفهم معنى القراءة بالتنوين هذه؟ هل التراكيب النحوية كلها تجري في نطقها على التنوين؟ فما بال الأسماء التي لا يجتمع معها التنوين، مثل الأسماء المعرّفة بأل، والأسماء المعربة المضافة، والأسماء المبنية، والأسماء الممنوعة من الصرف، والمثنى والمجموع؟ ثم ما بال الأسماء الموقوف عليها؟

ويقول الأستاذ بدر نشأت أيضاً: «ويجب أن يعلم النحويون عندنا أن علم النحو العربـي يحتاج في كثير منه إلى صياغة جديدة، فقد قام على رؤية معيارية، وعمد إلى الافتراض، واستنباط القواعد التي تضبط الجانب الكتابـي، وأهمل الجانب الصوتي الذي هو موطن اللغة الأصلي، وهو ما أدى إلى ما نشكو منه اليوم من تعقيد في اللغة العربية».

وهذا كلام مكرور ومُعاد، أعرف منابته ومغارسه، كما قالت العرب في

أمثالها: «شِنْشِنَةٌ أعرِفها من أخْزَم»، ولا تغرنك هذه العبارات: «إيقاع العصر، واللغة كائن حي، وصياغة النحو صياغة جديدة...»، أفبعد أربعة عشر قرناً من جهود الرجال الكبار تطلب للنحو صياغة جديدة؟ (صياغة إيه يا راجل؟ وحِّد الله وصلِّ على اللي حيشفع فيك!).

ولا بأس علينا إن شاء الله من الإلمام بشيء من العامية، فإنها تحلو في هذا الموضع، ولا تقوم الفصحى مقامها، وأيضاً فإن ذلك من باب المناسبة أو المشاكلة، كما يقول علماء البلاغة؛ لأن الأستاذ بدر نشأت قصاص بارع، ومكانه في الأدب معروف، وما زلت أذكر مجموعته القصصية الجيدة التي نشرها في الخمسينات «مساء الخير يا جدعان»، وقد مزج فيها بين الفصحى والعامية مزجاً رائعاً، مع تطويعه العامية المصرية لبعض المحسنات البديعية، كالجناس والتورية، على نحو ما كان يفعل الشاعر العظيم فؤاد حداد، رحمه الله، لكن أن يسلُك الأستاذ بدر نشأت تلك الدروب الضيقة في النحو والصرف واللغة، فهذا ما لا يجمل به، ولا يحسن منه.

أقول قولي هذا، وأنا أعلم يقيناً أننا جميعاً أصحاب هذه اللغة، لنا أن نتحاور حولها، وأن نبدي الرأي فيها، لكن الأمر مشروط بتقدم الأهلية وامتلاك الأدوات، كما قالت العرب في أمثالها: «ثَبِّت نَسَباً واطلُبْ ميراثاً».

ويبدو لي أن مجال الحديث مع من يهاجمون النحو العربي ينبغي أن يأخذ منحى آخر، ففي نيتي إن شاء الله أن أسأل من يكتب عن النحو الآن جملة من الأسئلة، فمثلاً أقول له: ماذا تعرف عن نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة؟ ماذا قرأت من كتب النحو الأولى؟ وماذا في مكتبتك الخاصة منها؟ ثم أسأله عن طائفة من المصطلحات النحوية التي تدور في كتب القوم، وبعد ذلك أضع أمامه بعض أبيات من الشعر وقطعة من النثر، وأطلب إليه أن يقرأ هذا وذاك قراءة صحيحة أو مقاربة، فإن جاءت الإجابة على ذلك كله وَفق المراد، قلت: أجل ونعمى عين، هات ما عندك، ومددت حبال الحديث بيني وبينه، وإن تعثر وكبا

قلت: حسبك فقد سقطت مؤونة الكلام بيني وبينك، فأنت غريب المحل، ناء عن الديار.

ثم أزيدك عجباً أيها القارىء الكريم ــ ومن يعش ير عجباً، كما قالت العرب ــ أن النحو العربي الآن يهاجم أيضاً من بعض الإسلاميين الذين يصرخون ليل نهار، دفاعاً عن الإسلام وخوفاً عليه، ولكن كيف يهاجم هؤلاء النحو؟ سمعت كبيراً منهم في محفل عام يقول: «إن المسلمين الأوائل شُغلوا بإعراب القرآن عن تطبيقه»، وقد غَفَل هذا الغبي ــ نستغفر الله من فاحش القول ــ عن أن كثيراً من كلام ربنا عزَّ وجلّ لا يُفهم ولا يطبق إلا إذا عُرف وجهه النحوي الصحيح، والأمثلة من ذلك كثيرة لا أريد أن أطيل بذكرها، وقد ذكرت شيئاً منها في صدر كلمتي.

وما بقي إلا الإشارة إلى أن النفخ في نار الهجوم على النحو العربي في هذه الأيام، إنما خرج من كير الزميل العزيز الدكتور أحمد درويش، الذي كتب خمس مقالات بجريدة الأهرام أيضاً، اختار لها عنواناً جذاباً هو «أنقذوا اللغة من أيدي النحاة»، وفي هذا العنوان من الإثارة وفتح الشهية ما ترى.

وأخطر ما في كلام الزميل العزيز أنه استطال فيه بذكائه، واحتشد له بتلك المصطلحات والتراكيب التي تخطف بصر القارىء وتهزه هزاً وتخيفه و(تَخُضُّه) على ما وصفت من كلام الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي من قبل. وهو نمط من الكلام إن أعجب بعض الناس فإنه عند كثير منهم خفيفٌ هين، كما قال الشاعر: «وخمرُ أبي الرَّوْقاءِ ليست تُسْكِرِ».

وليس من همي هنا أن أنقض كلام الزميل العزيز أو أرده، فلذلك موضع آخر، لكني أريد أن أذكره فقط بأن هذا النحو القديم الذي سخر منه ومن أعلامه، ثم دعا إلى إنقاذ اللغة منه ومنهم: هو الذي أنطق لسانه وفجَّر بيانه؛ فإن الزميل العزيز ممن ينتمون إلى جيل الحفظة: حفظة المتون، فقد التقى وهو في طراءة الصبا ثم في ميعة الشباب بالتحفة السنية شارحة الآجرومية، وتنقيح الأزهرية وقطر الندى وشذور

الذهب وابن عقيل وأوضح المسالك، ولو أن زميلنا العزيز تعلم النحو بعيداً عن هذه الكتب، ووفق منهجه الذي يقترحه اليوم لما استقام له بيان، ولا نهضت له حجة.

وهذا الإعلال والإبدال الذي يهزأ به زميلنا العزيز: هو الذي أعانه على معرفة المعجم العربي، بمعرفة الزوائد والأصول في الأبنية العربية، ولولا هذا الإعلال والإبدال ما عرف أن «تراث» من «ورث» وأن ميناء من «وَنَى»، وأن «تترى» من «وتر». . . وهلم جرّاً. فهذا موضع المثل «أكلاً وذماً».

وما ينبغي أن يكون في تسويغ الزميل العزيز لكلامه أنه يغار على النحو العربي، وأنه يريد له أن ينهض من كبوته، ويقوم من عثرته، لا ينبغي أن يقول هذا؛ لأنه نَقَب نقباً وأباح حمى، فاتكأ بعض الناس على ما قاله في مقالاته الخمس، واندفع يميناً وشمالاً، يحارب بسيفه وينزع عن قوسه، فالزميل العزيز شريك في هذه الحملة الشرسة على النحو العربي، شاء أم أبى، على ما قال الشاعر:

فإلَّا يكونوا قاتليه فإنه ... سواء علينا مُمْسِكاهُ وضارِبُه

ولو لم يكن إلا الوفاء لهذه السنوات التسع التي قضاها الأستاذ الدكتور أحمد درويش بالأزهر الشريف، فملأت شرايينه بدم العربية، وكست عظمه لحم الفصحى، لكان في ذلك ما يزعه عن الهجوم على النحو العربي، الذي هو ملاك العربية وسلطانها.

إن الأيام الأولى عزيزة علينا، نحرص عليها، ونذود عنها، ونفخر بها، أليس كذلك يا دكتور؟

ولشد ما يعجبني ويؤنسني كلام الأستاذ الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة، الذي ما يفتأ يذكر فضل الأزهر عليه، وعلى لسانه، فيقول: «كانت دراستي في الأزهر قد أمدتني بفيض من الأبيات المتناثرة في كتب النحو والبلاغة، وأصبح الشعر هم الليل والنهار»، تجربتي مع الإبداع (الهلال يونيه ١٩٩٤م)، وأشار إلى مثل هذا أيضاً في الأهرام ٢٥/٦/١٩٩٦م.

وبعد . . .

فقد كتب الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي كلامه هذا الذي أدرت عليه مقالتي، بجريدة الأهرام، يوم ٢٦/٦/١٩٩٦م، وتأخر ردي عليه إلى هذا الوقت، لأني كنت أريد أن أمهد له العذر، لعله يستدرك ما فرط منه، أو يفسر ما أشكل على الناس من كلامه، ولم يفعل الأستاذ حجازي شيئاً من ذلك، ولكنه على العكس حشد في صفحته في الأسابيع التي أعقبت مقالته، طائفة من كتابات القراء: رِضا عما كتب، وحفاوة بما قال! ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

هل أدلّكم على تجارة؟[1]

مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن ــ وراعيها معالي الشيخ أحمد زكي يماني ــ ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، وجائزة الملك فيصل العالمية، وجائزة محمد حسن فقي الشعرية، وجائزة سلطان بن علي العويس بالشارقة، ومؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بالكويت، وجائزة الشيخ عبد الله مبارك الصباح للآداب والفنون بالكويت: نجوم تلألأت في سماء الثقافة العربية، فبددت ظلمة غشيت أمتنا العربية، أطبقت عليها زمناً، وصيحات دوت في سمع الدنيا، فحركت جسداً خامداً ظنوا أنه ميت وما هو بميت، ولو قدر لهذه الجهود الطيبة الراشدة أن تنمو وتطرد، وألا تقف في أوائل الطريق أو منتصفه لكان الحال غير الحال.

ولما كانت هذه الشموس قد طلعت في أفق الجزيرة العربية ودول الخليج العربي، فقد يسرع إلى الخاطر أن هذا البذل وذلك السخاء مرتبطان بتلك الثروة البترولية التي أفاءها الله على القوم في العقود الخمسة الأخيرة، وهذا سبب معين بلا شك، ولكن ليس هو كل الأسباب، فإن الله جلت قدرته وعظمت حكمته حين يسَّر لتراث العربية من نذروا أنفسهم لتصنيفه وجمعه وتسجيله، في جهاد دائب لم تشهده أمة من الأمم، ولم تعرفه ثقافة من الثقافات، قد تمم الفضل وأكمل النعمة بأن هيأ لذلك التراث أيضاً من عملوا على نشره وإذاعته، وتكريم أهله، والأخذ بأيديهم، لا يضنون بجهد أو مال، فقد وقف كثير من أهل اليسار والسعة وراء أهل العلم،

---

(١) مجلة «العربي»، العدد ٤٥٨، يناير ١٩٩٧م.

وجعلوا من أموالهم نصيباً مفروضاً لطبع الكتب وتعميم النفع بها.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بدأ نهر الخير يتدفق على يد هؤلاء الأثرياء الأبرار الذين سعوا في طبع أصول الكتب العربية، ولن يتسع المقام هنا لذكر أولئك الأثرياء، فلنكتف بأبرزهم، وأولهم: العلامة أبو الطيب صديق بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني القِنَّوْجي البخاري، وهو أحد رجال النهضة الإسلامية المجددين، وصاحب المؤلفات الشهيرة: الدين الخالص، وأبجد العلوم، والتاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، وكان هذا الرجل مع اشتغاله بالعلم والتصنيف ميسوراً صاحب ثروة، فقد تزوج بملكة بهوبال، فعظم شأنه وكثرت ثروته، وقد كان من فضل الله على هذا الرجل أن وفقه لأن يطبع على نفقته أعلى كتاب في شروح الحديث، وهو «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» للحافظ ابن حجر العسقلاني المصري الشافعي.

ومن هذه الطائفة النبيلة: أحمد بك أحمد الحسيني الشافعي المحامي، المولود بالقاهرة سنة ١٢٧١هـ = ١٨٥٤م، اشتغل بالمحاماة ونبغ فيها، ثم انقطع للتأليف، فكانت له رسائل معظمها في الفقه الشافعي. وقد أنفق هذا السري النبيل الكثير على طبع كتاب «الأم» للإمام محمد بن إدريس الشافعي، وقد سمعت من مشايخي من أهل العلم، وعلماء المخطوطات أن السيد أحمد الحسيني هذا، باع «عزبة» من أملاكه للإنفاق على طبع كتاب «الأم».

ومن وراء هذين الاسمين الكبيرين نرى أسماء كثيرة مضت في ذلك الطريق العظيم.

ولم يقف الأفراد وحدهم لطبع الكتب على نفقتهم، فقد رأينا في ذلك الزمان قيام جماعات من أهل العلم ومحبيه لنشر الكتب الموسوعية، نذكر منها جمعية المعارف بمصر، التي أسسها محمد عارف باشا عام ١٨٦٨م، وقد وصل أعضاء هذه الجمعية إلى «٦٦١» عضواً، وشركة طبع الكتب العربية سنة ١٨٩٨م. بل إن جماعة من أهل الخير في مكة المكرمة قد نشطوا للإنفاق على طبع كتاب خزانة الأدب

لعبد القادر البغدادي، وهو أكبر وأهم كتاب في شرح شواهد العربية. وقد تم طبع هذا الكتاب بمطبعة بولاق سنة ١٢٩٩هـ = ١٨٨٢م، وجاء في أربعة أجزاء ضخام، وطبع بهامشه كتاب شرح الشواهد الكبرى لبدر الدين العيني.

وهذه أسماء أهل مكة الذين ساهموا في طبع هذا الكتاب الجليل، كما ذكرها مصحح الكتاب الشيخ محمد قاسم، قال: «هذا وكان حسن طبعه وزهر ثمر طلعه على ذمة عصابة أجلة نبلاء، لهم في نشر العلوم والمعارف اليد البيضاء، فاستحقوا بذلك الثناء الجميل. وهاك مقادير حصصهم على هذا التفصيل: فقيراط ونصف لتاج المفتين حضرة الفاضل الشيخ عبد الرحمن سراج، مفتي بلد الله الأمين، وثلاثة قراريط لحضرة العلامة الشيخ عبد الرحمن الشيبي عمدة الأماثل، وقيراط ونصف للسامي الماجد حضرة الشيخ أحمد المشاط عين الأماجد، وثلاثة قراريط لذي القدر السني حضرة الحاج عبد الواحد الميمني، وثلاثة قراريط لذي المورد الهني حضرة الحاج حسين بن عبد الله الميمني، وستة قراريط لذي المشرب الأدبي حضرة الفاضل الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد الباز الكتبي، وستة قراريط للمستعين بربه الغني حضرة الحاج أبي طالب الميمني».

وهنا تنبيهان: الأول: أن مصحح الكتاب لم يذكر أن هؤلاء الأعلام من أهل مكة المكرمة، ولكني عرفتهم من خلال إقامتي بالبلد الحرام، ورأيت أسماءهم تتردد في سلسلة أبنائهم وأحفادهم وعائلاتهم.

والثاني: أن هؤلاء الرجال المكيِّين الذين أنفقوا على طبع الكتاب سنة ١٢٩٩هـ = ١٨٨٢م، لم ينفقوا عليه من عائد البترول، فلم يكن البترول قد عرف يومئذ بتلك البلاد، فالأمر راجع إلى عزائم الرجال لا إلى كثرة الأموال.

وهكذا اجتمع على طبع التراث العربي بمصر، في أواخر القرن التاسع عشر، الهندي والمصري والحجازي والحضرمي، وغيرهم ممن لم يبلغنا خبره، وهو تجمع عربي إسلامي شامخ، قبل أن تكون للعرب جامعة، وقبل أن يوجد للإسلام منظمة.

نهر العطاء:

وعوداً على بدء، فإن هؤلاء الأثرياء النبلاء من أهل الجزيرة العربية والخليج الذين بدأت بهم حديثي، موصولون بنهر العطاء الذي شقه أهل الخير والفضل من أمتنا العربية والإسلامية، وهم ينفقون بسخاء لا حدود له، سواء في جمع المخطوطات وفهرستها والتعريف بها، أو في طبع الكتب وإذاعتها، أو في رصد الجوائز للعلماء والأدباء، وقد عرفت ذلك عن قرب، حيث شاركت في نشاط بعض هذه المؤسسات، فقد دعيت إلى التدريب على فهرسة المخطوط الإسلامي في ثلاث دورات أقامتها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي «أحمد زكي يماني» بالقاهرة واستانبول ولندن، ثم شاركت في ندوة عن تاريخ الطباعة العربية في القرن التاسع عشر، أقامها مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، وفي هذه وتلك رأيت أهدافاً نبيلة وخططاً محكمة راشدة، ورجالاً مخلصين أمناء، وإذا أتيح للعمل شرف المقصد ونبل الغاية وخلوص النية ونزاهة النصح، بلغ من النجاح مبلغه، وانتهى من التوفيق إلى مداه.

فهأنذا أيها السادة الأثرياء أدلكم على تجارة رابحة، وأفتح أمامكم باباً واسعاً من أبواب الخير، وأسأل الله أن تنشرح له صدوركم، وتهش له قلوبكم.

وذلك أني امرؤ شُغلت بالكتاب العربي، مخطوطاً ومطبوعاً، على امتداد سبعة وثلاثين عاماً، وكان اهتمامي بالكتاب العربي المخطوط من طريق اشتغالي بنسخ المخطوطات في صدر شبابي، ثم عملي بمعهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، فسافرت كثيراً لانتقاء المخطوطات وفهرستها. ثم كان احتفالي بالكتاب العربي المطبوع عن طريق اشتغالي بتحقيق الكتب، ومن أهم عدة المحقق معرفة المطبوعات وتمييز ما بين الطبعات حتى يقوم توثيق النقول وتخريج الشواهد على أساس صحيح.

ثم إني نظرت وأطلت النظر، فرأيت أننا، على مستوى الأمة العربية والإسلامية قد عنينا كثيراً بأمر المخطوطات، فأقمنا لها معهداً تابعاً لجامعة الدول العربية، عام

١٩٤٦م، كان رائداً في هذا المجال، فدل الناس على أماكن المخطوطات، وفتح أمامهم قضاياها ومشكلاتها، فتعددت بعد ذلك مراكز تجميع المخطوطات وصورها، في الجامعات العربية، أو في مراكز البحوث التابعة لها، ثم عقدنا للمخطوطات أكثر من مؤتمر، وأصدرنا أكثر من توصية، وهذا كله عمل صالح وجيد ومطلوب، وينبغي ألا نتوقف فيه عند حد، فلا يزال في الزوايا خبايا. لكننا في الوقت نفسه أهملنا شأن المطبوعات، إلا ما كان من بعض الرسائل الجامعية المحدودة التي تظهر هنا وهناك، وبعض الندوات التي أقيمت حول الطباعة العربية، ولعل أهمها وأبرزها تلك الندوة التي أقيمت في أكتوبر الماضي بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، لكن هذه الجهود كلها تدور حول تاريخ الطباعة العربية، والذي أدعو إليه اليوم شيء آخر، وهو باختصار شديد «تجميع الكتاب العربي المطبوع».

تفاصيل المشروع:

لقد بدأت الطباعة العربية بمدينة فانو Fano بإيطاليا، في أوائل القرن السادس عشر، ثم تعددت المطابع العربية بعد ذلك في أوروبا وبلدان الشرق، وفي مقدمتها الآستانة «استانبول» ثم كانت الوثبة الكبرى للطباعة العربية بمطبعة بولاق بمصر، التي بدأت نشاطها نحو سنة ١٨٢٠م.

وإذا كان من أقدم المطبوعات العربية كتاب «الكافية» في النحو لابن الحاجب، الذي طبع في روما بإيطاليا سنة ١٥٩٢م، و «القانون» في الطب لابن سينا الذي طبع في روما أيضاً سنة ١٥٩٣م، فإن هذه أربعمائة سنة في تاريخ الطباعة العربية، أخرجت المطابع خلالها ألوف الألوف من الكتب العربية الكبار والأوساط والصغار، في مختلف العلوم والفنون والآداب.

وهذه الكتب المطبوعة أودعت مكتبات عامة ومكتبات خاصة، فالذي أودع منها في المكتبات العامة سجل ودوِّن في فهارس، أما الذي أودع في المكتبات الخاصة فهو في غالب أمره محفوظ مرعي ما دام صاحب المكتبة حيّاً يرزق، فإذا ما جاء أمر الله ولم يكن له ولد من أهل العلم، تفرقت هذه الكتب بدداً.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن بعض هذه المكتبات الخاصة تحتوي على بعض المطبوعات النادرة التي ربما لا توجد في المكتبات العامة، وتعليل ذلك سهل، فإن صاحب المكتبة الخاصة يحرص على اقتناء النوادر والنفائس، وهو يجمع الكتب على عينه، ويتعهدها بالحفظ والرعاية، وأيضاً فإن قانون الإيداع الذي كان يلزم الناشرين وأصحاب المطابع بإيداع نسخ من المطبوعات في دور الكتب الوطنية، لم يكن معروفاً في تلك الأيام، وعلى هذا فكثيراً ما بحثنا عن كتاب مطبوع قديماً في دار الكتب المصرية فلم نجده فيها، على كثرة مخزونها ومحفوظها، ثم وجدناه في مكتبة شيخنا محمود محمد شاكر أو السيد أحمد صقر أو حسن كامل الصيرفي، ومن إليهم من محبي الكتب وجامعيها، وقل مثل هذا في سائر الأقطار العربية والإسلامية.

على أن هذه الكتب التي تقادم عهد طباعتها قد صارت الآن في حكم المخطوطات، في ندرتها وصعوبة الحصول عليها، ثم في قلة العارفين بها، وهذه مسألة في غاية الأهمية، فإن للمطبوعات علماء، كما أن للمخطوطات علماء، ويتجلى علم علماء المطبوعات في معرفة أماكن طبع الكتاب، وعدد طبعاته، وفرق ما بين هذه الطبعات، وقد أدركت جيلاً عظيماً من علماء المطبوعات هؤلاء، منهم محمد رشاد عبد المطلب في مصر، وأحمد عبيد بدمشق، والفقيه التطواني بمدينة سلا من المغرب، والحاج مظفر أوزاق باستانبول، وقد انتقلوا جميعاً إلى رحمة الله، ويخشى أن يوصد هذا الباب بموت هؤلاء العلماء، على ما جاء في الحديث الصحيح: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، فإذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهّالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا».

وقد بدأت آثار غياب هذا العلم تظهر، فأنت تقرأ الآن مثلاً رسالة جامعية في مصر، تتناول قضية من قضايا تاريخ الأندلس أو المغرب، فترى فجوات كثيرة ونقصاً ظاهراً لغياب بعض المراجع الأندلسية والمغربية عن ذلك الطالب الذي يعد رسالته في مصر، وأنَّى لمثل هذا الطالب أن يحصل على مرجع من مطبوعات تونس، أو مطبوعات فاس الحجرية القديمة؟

والذي يقال عن غياب بعض المراجع الأندلسية والمغربية المطبوعة في فاس أو تونس، قديماً، يقال أيضاً عن مطبوعات كثيرة في مختلف العلوم والفنون طبعت في مصر في أوائل الطباعة العربية بمطبعة بولاق، أو بالمطابع الأهلية التي انتشرت بالعشرات وبما فوق العشرات، في قلب القاهرة المعزية حول الأزهر والحسين، وكثير من طلبة العلم الآن لا يعلمون شيئاً عن هذه المطبوعات، ولذلك تأتي بعض دراساتهم وأبحاثهم وبها جهات من النقص كثيرة.

ولو أنك جئت الآن إلى معيد بإحدى الكليات الأدبية، وسألته مثلاً عن هذه الكتب الثلاثة: الفتح ـ أو الفيح ـ القسي في الفتح القدسي، والفلاكة والمفلوكون، والمكاثرة عند المذاكرة، لمن هي؟ ومتى طبعت وأين؟ لما عرف أن الأول للعماد الأصفهاني، وأنه طبع بمطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م، وأن الثاني لشهاب الدين الدلجي، وأنه طبع بمطبعة الشعب بمصر سنة ١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م، وأن الثالث لجعفر بن محمد الطيالسي، وأنه من مطبوعات معهد الشرقيات بجامعة استانبول سنة ١٩٥٦م... وهذا باب واسع جداً.

وإذا تركنا حديث الكتب العربية المطبوعة قديماً وغيابها عن طلبة العلم، وجئنا إلى الكتاب العربي المطبوع حديثاً، فإنا نجد هذه الظاهرة أيضاً: ظاهرة غياب الكتب عن طلبة العلم ودارسيه. لقد تعددت جهات طبع الكتاب العربي الآن، ولم يعد الأمر مقصوراً على الناشرين من التجار وأصحاب المطابع، فقد دخل إلى الميدان كثير من الهيئات والمراكز العلمية التابعة للجامعات العربية أو المستقلة عنها، يمولها نفر من أهل الخير الذين ذكرت بعضاً منهم في صدر حديثي، وكثير من مطبوعات هذه الهيئات والمراكز لا يعرض للبيع، وإنما يقصر على الإهداء، وهذا الإهداء دائرته محدودة جداً، وفيه بعض الآفات، وهو أنه يقدم أحياناً لمن لا يعرف قدره، أو لا يدرك وجه النفع منه، وأعرف بعضاً ممن تهدى إليهم الكتب كانوا يتركونها في الفندق استثقالاً لحملها، أو فراراً من مؤونة وزنها في شركات الطيران، وقد كتبت كثيراً في هذا الأمر، فلم يبق إلا الإيداع في دور الكتب العامة في البلدان

العربية، وهناك قانون ملزم بذلك الإيداع، لكني أحسب أن هذا القانون إنما يلزم الناشرين فقط من التجار وأصحاب المطابع.

غياب الكتاب العربي:

فأنت ترى أيها القارىء الكريم أن الكتاب العربي المطبوع قد غاب مرتين: المرة الأوى لتقادم عهد طباعته حتى صار كالكتاب المخطوط، والمرة الثانية لبعده عن أيدي الدارسين بمحدودية توزيعه وإذاعته.

ولقد أدى غياب الكتب الآن إلى غياب المرجعية في قضايا الفكر والأدب، وصار كثير من الناس الآن، وبخاصة المبتدئون من الدارسين يكتبون من رؤوسهم، وما تسرع إليه خواطرهم، وقديماً قال الجاحظ: «وإنما يؤتى الناس من ترك التثبت وقلة المحاسبة». وقال الشيخ عبد القاهر الجرجاني: «وتلك جريرة ترك النظر وأخذ الشيء من غير معدنه»، ولا يخفى أن من ترك التثبت وأخذ الشيء من غير معدنه غياب الكتب والتعويل على الرأي وحده.

إذن نحن مطالبون بأمرين: الأمر الأول: إنعاش ذاكرة الأمة العربية، وإنقاذ تاريخها من قرارة النسيان وبئر الضياع، باسترجاع مطبوعاتها العربية على امتداد الأربعمائة سنة التي أشرت إليها.

والأمر الثاني: رصد ومتابعة وجمع ما يطبع من الكتب العربية في كل بلدان العالم أولاً بأول، وبتحقيق هذين الأمرين نكون قد عملنا على تجميع الكتاب العربي المطبوع، وهو مقترحي الأساسي، وهدفي من هذه الكلمة كلها.

مكتبة العرب:

ولكن كيف يتم ذلك؟ وما السبيل إلى تحقيقه؟ والجواب وبالله التوفيق، دون تطويل أو ثرثرة، إنشاء مكتبة كبرى، تسمَّى «مكتبة العرب» ينشئها هؤلاء السادة الأثرياء النبلاء، مجتمعين أو متفرقين، ويختارون لها مكاناً كبيراً في بلد عربي يتوسط البلدان العربية، ويسهل على أبناء الأمة العربية النزول به والإقامة فيه،

ولا أحسب هذا البلد إلاَّ «القاهرة»، أقول قولي هذا وأنا آمن ــ إن شاء الله ــ من سوء الظن بعصبية البلد، فجمهور قراء «العربـي» ممن يحسنون الفهم، ولا تسرع إليهم الظنون.

وأعلم أن بعض أهل الخير من أبناء السعودية والخليج يقيمون الآن مساجد فخمة بالقاهرة، ولو كنت من أهل الفتيا لأفتيت بأن إقامة المكتبات الآن أولى من بناء المساجد، مع علمي بالأحاديث التي تحض على بناء المساجد وترغب في إقامتها.

وسوف يكون إنشاء «مكتبة العرب» بالقاهرة مذكراً بتلك القلعة الشامخة «دار الكتب المصرية» التي تتوسط ميدان «باب الخلق» الشهير، والتي كانت ملتقى لرجال الفكر والأدب، يجدون فيها بغيتهم من الكتاب العربـي المخطوط والمطبوع، ويذكر أساتذتنا الكبار من أبناء الأمة العربية الذين حصلوا على شهاداتهم العليا من جامعة القاهرة في الأربعينيات والخمسينيات فضل دار الكتب المصرية عليهم، وأثرها في تكوينهم الفكري. . . وسقى الله تلك الأيام!

وواضح مما قلته إن الغاية الأولى من إنشاء هذه المكتبة «مكتبة العرب» هي تحقيق فكرة تجميع الكتاب العربـي المطبوع، ولكن لن تكون هذه هي الغاية الوحيدة من إنشاء هذه المكتبة، فسوف تكون هناك غايات أخرى عظيمة مما تتيحه المكتبات الحديثة المؤسسة علمياً، والمستفيدة من مظاهر التقدم التكنولوجي المذهل الذي أتى به العلم الحديث في وسائل الاتصال والتكشيف واستدعاء المعلومات.

ومن هذه الغايات العظيمة أيضاً تجميع صور المخطوطات العربية التي صورت على «الميكروفيلم» مما صوره معهد المخطوطات العربية الذي أنشىء تابعاً لجامعة الدول العربية عام ١٩٤٦م، وكذلك صور المخطوطات التي صورتها الجامعات العربية والمراكز العلمية التابعة لها، ومراكز العلوم الأخرى غير التابعة للجامعات.

ولن أطيل بذكر هذه المراكز، فهي معروفة مشهورة، بحيث تكون «مكتبة العرب» هذه في آخر الأمر هي المكتبة المركزية للأمة العربية كلها التي جمعت الكتاب العربـي: مطبوعاً ومخطوطاً.

وإذا كانت منظمة اليونسكو تعمل الآن في مشروع «ذاكرة العالم»، فما أحرانا نحن العرب أن نعمل في مشروع «ذاكرة العالم العربي» الذي يكون مجلاه «مكتبة العرب» هذه.

أما كيف تقوم هذه المكتبة، وما هي الأسس التي تركز عليها، وما هي القواعد الصحيحة التي تضمن لها البقاء والنمو والازدهار؟ فكل ذلك وأشباهه موكول إلى لجنة عليا تختار من كبار رجال الفكر والأدب في عالمنا العربي، تخطط لهذا الصرح العربي الكبير، على أن ننبذ من تفكيرنا الإقليمية والفردية. وما أريد أن أمد في حبال الكلام عن هذه المكتبة وأهدافها، حتى لا يطول الحديث، والحديث إذا طال أمل وأضجر، وإذا جاء موضع الكلام تكلمنا، وأخرجنا ما عندنا من تصورات واقتراحات، لكني أريد أن أعجل وأقول: إن تكاليف إنشاء مثل هذه المكتبة لن تتجاوز ما ينفق على عشر ندوات تراثية لا تخرج إلى أبعد من التوصيات، وعشر جوائز سنية لا تتجاوز جيوب أصحابها.

ولا عليكم أيها المفكرون والشعراء والمبدعون من أن تبطىء عليكم الجوائز سنتين أو ثلاثاً، حتى يتحقق هذا الأمل الكبير، والله يعوضكم خيراً، وسوف يكون يوم افتتاح هذه المكتبة العظيمة إن شاء الله، عيداً لأولنا وآخرنا.

وبعد: فيا أيها السادة النبلاء، من أثرياء العرب الذين سخوا وجادوا، هذه تجارة رابحة، دللتكم عليها، وفتحت لكم أبوابها، وأقمت لكم سوقها، فامضوا على بركة الله وهداه، ونرجو أن يعود بكم وبفضل أموالكم تاريخنا العظيم، في إقامة دور الكتب وخزائنها التي حفظت لنا ما بقي من تراثنا، وأدته إلينا سالماً، واستنقذته من عوادي الناس والأيام، وسوف يكون في موازينكم إن شاء الله دعوة طالب علم أو معيد بإحدى الجامعات يتحرق شوقاً إلى مرجع قديم أو حديث لا تطوله يداه الكليلتان، يجده ميسوراً متاحاً في مكتبتكم «مكتبة العرب».

أما أنتم أيها السادة المستشارون الأمناء الذين عهد إليكم هؤلاء السادة الأثرياء بالإشراف على أعمالهم النبيلة هذه: لقد حملتم أمراً عظيماً فاصطبرتم له، وقد أديتم

الأمانة بإحسان النصح، وإخلاص المشورة، وطهارة اليد، وأنا أدعوكم اليوم لأن تقرأوا هذا الكلام وتتدبروه، ثم تقدّموه للسادة الأثرياء النبلاء، قدِّموه لهم ليقرأوه بأنفسهم، ولا تلخصوه لهم، فهم أهل فضل وأدب وعقل قبل أن يكونوا أصحاب ثروة وجاه، وبينهم وبين أهل العلم نسب أقاموه مقام الوالد، على نحو ما قال أبو تمام، وأنتم بعد ذلك شركاؤهم في إحراز الأجر وكمال المثوبة، فالدال على الخير كفاعله، كما جاء في الحديث الشريف.

قال محدِّث الشام أبو الفدا العجلوني: والمشهور على الألسنة: «الدال على الخير كفاعله، وفاعله من أهل الجنة».

والله من وراء القصد، وهو ولي التوفيق.

* * *

محمود محمد شاكر..
ومنهجه في تحقيق التراث(١)

تحقيق النصوص علم له قوانينه وأعرافه ومصطلحاته وأدواته، وله جانبان: جانب الصنعة وجانب العلم، فأما جانب الصنعة فهو ما يتصل بجمع النسخ المخطوطة للكتاب المراد تحقيقه، والموازنة بينها، واختيار النسخة الأم. ثم ما يكون بعد ذلك من توثيق عنوان المخطوط واسم المؤلف ونسبة المخطوط إليه، ونسخه والتعليق عليه، وتخريج شواهده وتوثيق نقوله، وصنع الفهارس الفنية اللازمة.

فهذا كله جانب الصنعة الذي يستوي فيه الناس جميعاً، ولا يكاد يفضل أحد أحداً فيه، إلا بما يكون من الوفاء بهذه النقاط أو التقصير فيها.

وأما جانب العلم في تحقيق النصوص فهو الغاية التي ليس وراءها غاية، وهو المطلب الكبير الذي ينبغي أن تصرف إليه الهمم، وتبذل فيه الجهود، ولاء لهذا التراث العريق، وكشفاً لمسيرتنا الفكرية خلال هذه الأزمان المتطاولة، وعدة المحقق في ذلك هي معرفة الكتب العربية في كل فن، وحسن التعامل معها والإفادة منها؛ لأنه في كل خطوة يخطوها مطالب بتوثيق كل نقل وتحرير كل قضية، بل إن المحقق الجاد قد يبذل جهداً مضنياً لا يظهر في حاشية أو تعليق، وذلك حين يريد الاطمئنان إلى سلامة النص واتساقه.

---

(١) مجلة «الهلال»، فبراير ١٩٩٧م.

وقد مرَّ تاريخ نشر التراث في ديارنا المصرية بأربع مراحل: المرحلة الأولى: مطبعة بولاق والمطابع الأهلية، ومرحلة الناشرين النابهين، ومرحلة دار الكتب المصرية، ومرحلة الأفذاذ من الرجال.

وفي المرحلة الأولى نشرت النصوص التراثية خالية من دراسة الكتاب وترجمة مؤلفه، وذكر مخطوطاته وفهرسته، وإن كان النشر في هذه المرحلة قد اتسم بالدقة المتناهية والتحرير الكامل، إذ كان يقوم على التصحيح فئة من أهل العلم منهم الشيخ نصر الهوريني، والشيخ محمد قُطَّة العدوي.

والمرحلة الثانية عنيت إلى حد ما بجمع النسخ المخطوطة للكتاب، وذكر ترجمة المؤلف وبعض الفهارس، وتعرف هذه المرحلة بتلك الأسماء: أمين الخانجي، ومحب الدين الخطيب، ومحمد منير الدمشقي، وحسام الدين القدسي، وكلهم من أهل الشام.

والمرحلة الثالثة هي مرحلة دار الكتب المصرية، وفي هذه المرحلة أخذ نشر التراث يتجه إلى النضج والكمال من حيث جمع نسخ الكتاب المخطوطة من مكتبات العالم، وإضاءة النصوص ببعض التعليقات والشروح، وصنع الفهارس التحليلية، وما يسبق ذلك كله من التقديم للكتاب، وبيان مكانه في المكتبة العربية، وقد تأثر هذا المنهج إلى حد ما بمناهج المستشرقين الذين نشطوا في نشر تراثنا وإذاعته منذ القرن الثامن عشر؛ وقد وقف على رأس هذه المرحلة أحمد زكي باشا شيخ العروبة.

أعلام في ميدان التحقيق:

أما مرحلة الأفذاذ من الرجال فهي مرحلة أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، وعبد السلام هارون، والسيد أحمد صقر، وقد دخل هؤلاء الأعلام ميدان التحقيق والنشر، مزوَّدين بزاد قوي من علم الأوائل وتجاربهم، ومدفوعين بروح عربية إسلامية عارمة، استهدفت إذاعة النصوص الدالة على عظمة التراث الكاشفة عن نواحي الجلال والكمال فيه، ومن أعظم آثار هذه المرحلة تحقيق هذه الأصول:

الرسالة للشافعي، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام، والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة.

وإن اتفق أعلام هذه المرحلة فيما ذكرت، فإن أبا فهر محمود محمد شاكر يقف وحده من بينهم، وينفصل عنهم بأمرين، الأول: أنه صاحب قضية صحبته وأرَّقته منذ النَّأنأة ــ أي منذ صباه ونشأته الأولى ــ وهي قضية أمته العربية، وما يُراد لها من كيد في لغتها وشعرها وتراثها كله، وقد أبان عن هذه القضية في كل ما كتب، وبخاصة في كتابيه: أباطيل وأسمار، ورسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ثم نثرها فيما دق وجل من كتاباته، وما برح يعتادها في مجالسه ومحاوراته، يهمس بها حيناً، ويصرخ بها أحياناً أخرى، لا تفرحه موافقة الموافق، ولا تحزنه مخالفة المخالف.

ولقد حكمت هذه القضية الضخمة أعمال أبـي فهر كلها، وهي التي وجهته إلى تحقيق التراث، فكان عمله في نشر النصوص جزءاً من جهاده في حراسة العربية والذود عنها، سواء فيما نشره هو، أم فيما حث الناس على نشره وأعانهم عليه.

الأمر الثاني: أن أبا فهر دخل إلى ميدان تحقيق التراث بثقافة عالية وقراءة محيطة أعتقد جازماً أنها لم تتيسَّر لأحد من أبناء جيله، سواء من اشتغلوا بتحقيق التراث، أم من انصرفوا إلى التأليف والدرس.

لقد ألقى هذا الرجل الدنيا كلها خلف ظهره ودَبْرَ أذنيه، واستوى عنده سوادها وبياضها، وخلا إلى الكتاب العربـي في فنونه المختلفة، والمكتبة العربية عند أبـي فهر كتاب واحد ــ فهو يقرأ صحيح البخاري كما يقرأ الأغاني، ويقرأ كتاب سيبويه قراءته لمواقف عضد الدين الإيجي، وقد قلت عنه مرة بالتعبير المصري: «إنه خد البيعة على بعضها»، وقد كشف هو نفسه عن ثقافته وأدواته، فقال بعد أن حكى محنته عقب ذلك الزلزال العنيف الذي رجه رجاً حين خرج المستشرق الإنجليزي «مرجليوث» بمقالته عن نشأة الشعر العربـي، وما أثاره من شك حول صحة الشعر الجاهلي، وما كان من متابعة الدكتور طه حسين لهذه المقالة، في كتابه: «في الشعر الجاهلي»، يقول في صدر رسالته في الطريق إلى ثقافتنا: «قد أفضى بـي... إلى

إعادة قراءة الشعر العربي كله أولاً، ثم قراءة ما يقع تحت يدي من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع من تفسير وحديث وفقه، وأصول فقه وأصول دين (هو علم الكلام) وملل ونحل، إلى بحر زاخر من الأدب والنقد والبلاغة والنحو واللغة، حتى قرأت الفلسفة القديمة والحساب القديم والجغرافية القديمة، وكتب النجوم وصور الكواكب، والطب القديم ومفردات الأدوية، وحتى قرأت البيزرة والبيطرة والفراسة، بل كل ما استطعت أن أقف عليه بحمد الله سبحانه، قرأت ما تيسَّر لي منه، لا للتمكن من هذه العلوم المختلفة، بل لكي ألاحظ وأتبين وأزيح الثرى عن الخبيء والمدفون».

فهذه هي ثقافة أبي فهر التي دخل بها ميدان تحقيق التراث، الذي اختار هو من عند نفسه نصوصه وأصوله، لم يملها أحد عليه، ولم يطلبها أحد منه، وكان من أبرز هذه النصوص: طبقات فحول الشعراء لابن سلام، وتفسير الطبري (١٦ جزءاً)، وتهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار، للطبري (ستة أجزاء)، وجمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار (جزء منه)، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، كلاهما للشيخ عبد القاهر الجرجاني، إلى نصوص أخرى نشرها قديماً: فضل العطاء على العُسْر لأبي هلال العسكري، والمكافأة وحسن العقبى، لأحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية، وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، للمقريزي (جزء منه).

ومما يستطرف ذكره هنا أن أول كتاب تراثي يضع فيه أبو فهر قلمه بالتحقيق هو كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، الذي أخرجه الشيخ محب الدين الخطيب عام ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م، أي منذ (٧٠) عاماً، وكان عمره إذ ذاك (١٨) عاماً، وقد شاركه تصحيح صفحات من الكتاب أستاذنا عبد السلام هارون، برّد الله مضجعه.

وفي هذه الأصول التراثية التي أخرجها أبو فهر، يظهر علمه الغزير الواسع الذي لا يدانيه فيه أحد من أهل زماننا، لأنه علم موصول بكلام الأوائل، منتزع منه

ودال عليه ومكمِّل له، والشيخ ــ حرس الله مهجته ــ يسير في طريق الفحول، لا تَخْرِم مِشْيَتُـهُ مِشْيَةَ واحد من الصدر الأول.

وقبل أن أستطرد إلى ذكر أمثلة من منهج أبـي فهر في تحقيق التراث؛ أحب أن أضع أمامك أيها القارىء الكريم مثالاً واحداً على دوران قضايا التراث في عقل هذا الرجل، وأنها شغله الشاغل وهمه الناصب.

أصل في علم البلاغة:

أخرج أبو فهر كتاب الشيخ عبد القاهر الجرجاني «دلائل الإعجاز» عام ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م، وكانت طبعته الأولى عام ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م، وقد أخرجها الشيخ محمد رشيد رضا. وهذا الكتاب يعد أصلاً في علم البلاغة وإعجاز القرآن، وكان مما عالجه الشيخ عبد القاهر فيه الرد على من يقولون: «إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، ولكن تظهر بالضم على طريقة مخصوصة»، وقد عرَّض الشيخ عبد القاهر بأصحاب هـذه المقالة في مـواضع كثيرة من كتابه، كان منها قوله: «واعلم أن القول الفاسد والرأي المدخول إذا كان صدره «أي صدوره» عن قوم لهم نباهة وصيت وعلو منزلة في أنواع من العلوم غير العلم الذين قالوا ذلك القول فيه، ثم وقع في الألسن، فتداولته ونشرته، وفشا وظهر، وكثر الناقلون له، والمشيدون بذكره، صار ترك النظر فيه سنة والتقليد ديناً»، الإعجاز ٤٦٤، ٤٦٦، وانظر مقدمة التحقيق.

ويسأل الشيخ أبو فهر: من يكون هؤلاء القوم الذين لهم نباهة وصيت... إلى سائر ما وصفهم به الشيخ عبد القاهر؟ يقول أبو فهر: وفتَّشت ونقَّبت، فلم أظفر بجواب أطمئن إليه، وتناسيت الأمر كله إلا قليلاً، نحواً من ثلاثين سنة، حتى كانت سنة ١٣٨١هـ = ١٩٦١م وطبع كتاب «المغني» للقاضي عبد الجبار الفقيه الشافعي المعتزلي، في تلك السنة صدر الجزء السادس عشر من كتاب «المغني»، فإذا هو يتضمن فصولاً طويلة في الكلام على «ثبوت نبوة محمد ﷺ، وفي إعجاز القرآن وسائر المعجزات الظاهرة عليه ﷺ». فلما قرأته ارتفع كل شك وسقط النقاب عن كل مستتر، وإذا التعريض الذي ذكره عبد القاهر حين قال: «واعلم أن القول الفاسد

والرأي المدخول. . . لا يعني بهذا التعريض وبهذه الصفة أحداً سوى قاضي القضاة المعتزلي عبد الجبار». وبعد ذلك نقل أبو فهر عبارة القاضي عبد الجبار، من كتابه: «المغني»، وهي: «أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة».

أرأيت أيها القارىء الكريم؟ هذه ثلاثون عاماً تصرَّمت من الزمان، والقضية في بال الرجل، كأنها هَمُّ الليل والنهار، قضية حية في عقله، جارية في دمه، لم تسقط بالتقادم، ولم تنسحب عليها ذيول النسيان! ومثل هذه القضية كثير في كل ما كتب أبو فهر في اللغة والشعر، وسائر علوم الأمة، ولا نفيض في هذا لأن القصد الآن الكشف عن منهج الشيخ في تحقيق التراث، وهو منهج صعب شاق، لأنه مباين لكل ما ألفه الناس الذين اشتغلوا بنشر الكتب من عرب وعجم، إذ كان قائماً على الجد والصرامة والإتقان، مستنداً إلى قراءة واسعة محيطة، مع الذكاء الشديد اللمح، والحفظ الجامع الذي لا يتفلَّت ولا يخون.

الشيخ واللغة:

وأول ما يلقانا من منهج أبـي فهر: اللغة، حروفاً وأبنية وتراكيب، فقد استولى من ذلك كله على الأمد. واللغة هي الباب الأول في ثقافات الأمم، وإهمالها أو التفريط فيها، أو السخرية منها، هدم لتاريخ الأمم، ومحوٌ لها من الوجود. وعناية أبـي فهر باللغة قديمة، ومن أقدم ما كتب فيها ما نشره بالمقتطف عام ١٩٤٠، بعنوان (علم معاني أسرار الحروف ــ سر من أسرار العربية)، وفي الفترة القليلة التي شارك فيها في إخراج مجلة «المختار» استطاع أن يقدم مستوى عالياً للترجمة الصحفية لم يُعرف من قبل؛ وأدخل جملة من المصطلحات الجديدة في اللغة للتعبير عن وسائل واختراعات حديثة من نوع «الطائرات النفاثة»، وما زال الجيل الذي عاصر «المختار» من الصحفيين المعاصرين يعتبرون عناوين «المختار» التي كان يصوغها نموذجاً يحتذى. وطالما ذكر صديق عمره يحيـى حقي، رحمه الله، فضله عليه في التنبه لأسرار اللغة وفنية استخدامها والتعامل معها.

وإجلال أبي فهر للغة والحذر في استعمالها واضح لائح في كل ما كتب وفي كل ما حقق. ويقول تعليقاً على كلام لأبي جعفر الطبري، في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾: «حجة أبي جعفر في هذا الفصل، من أحسن البيان عن معاني القرآن، وعن معاني ألفاظه وحروفه، وهي دليل على أن معرفة العربية وحذقها والتوغل في شعرها وبيانها وأساليبها، أصل من الأصول، لا يحل لمن يتكلم في القرآن أن يتكلم فيه حتى يُحسُنه ويحذقه». تفسير الطبري ٤/ ٤١٦.

ومعلوم أن من عدة المحقق معرفة غريب اللغة حتى يتمكن من تصحيح ما يصادفه من ذلك التصحيف والتحريف الذي مُنيت به بعض مخطوطاتنا، نتيجة لجهل النساخ، أو عوامل الزمن. ولأبي فهر في ذلك وقفات كثيرة وتصحيحات، منها: جاء في تفسير الطبري ٨/ ٥٢٨، من قول أبي جعفر الطبري، في الآية ٦٥ من سورة النساء: «وإذا قرىء كذلك فلا مَرْزِئَة على قارئه في إعرابه»، ويعلق أبو فهر: «المرزئة ـ بفتح الميم وسكون الراء وكسر الزاي ـ مثل الرزء والرزيئة، وهو المصيبة والعناء والضرر والنقص. . . وكان في المطبوعة والمخطوطة: «فلا مرد به على قارئه»، وهو شيء لا يفهم ولا يقال».

وجاء في طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ١٠٦، قول كعب بن زهير:

ألا أبلغا هذا المعرِّض آيةً أيقظان قال القول إذ قال أو حَلَمْ

ويشير أبو فهر في الحاشية إلى أن الرواية في ديوان كعب، والاستيعاب لابن عبد البر «أنه» مكان «آية» ثم يقول: وهي ضعيفة جداً، والصواب ما في مخطوطة ابن سلَّام، وقد جاء أبو جعفر الطبري بهذا البيت شاهداً على أن الآية: القصة، وأن كعباً عنى بقوله: «آية» رسالة مني وخبراً عني. قال أبو فهر: والآية بمعنى الرسالة لم تذكره كتب اللغة، ولكن شواهده لا تعد كثرة، ومن ذلك قول حجل بن نضلة:

أبلغ معاوية الممزِّق آية عني فلست كبعض ما يُتقوَّل

وقول أبي العيال الهذلي:

أبلغ معاوية بن صخر آية يَهْوِي إليك بها البريدُ الأعجلُ

وهذا تفسير واضح في الشعر، وأوضح منه قول القائل:

أتتنـــي آيـــة مـــن أم عمـــرو فكـــدت أغـــصُّ بـــالمـــاء القَـــراح

فمـــا أنســـى رســـالتهـــا ولكـــن ذليـــل مـــن ينـــوء بـــلا جنـــاح

لتصحيف[1]، يعد إضافة إلى مواد المعجم العربـي.

ومن هذا الباب ـ باب التقاط اللغة من كتب العربية، مما لم تقيده المعاجم المتداولة ـ ما جاء في تفسير الطبري ١٦/٢٤٨، يقول أبو جعفر: «وقوله تعالى: ﴿يأت بصيراً﴾ يقول: يعُد بصيراً»، ويعلق أبو فهر: «هذا معنى يقيد في معاجم اللغة، في باب «أتى» بمعنى «عاد»، وهو معنى عزيز، لم يشر إليه أحد من أصحاب المعاجم التي بين أيدينا».

ومن تصحيحاته اللغوية العجيبة ما جاء في تفسير الطبري ٩/ ١٨٢: «فجاء اليهودي إلى نبـي الله ﷺ يُهْنِفُ»، ويعلق أبو فهر فيقول: «في المطبوعة والمخطوطة ـ من تفسير الطبري ـ «يَهْتِف» بالتاء كأنه أراد يصيح ويدعو رسول الله ويناشده، ولكني رجحت قراءتها بالنون، من قولهم: أهنف الصبـي إهنافاً: إذا تهيأ للبكاء وأجهش. ويقال للرجل: أهنف الرجل: إذا بكى بكاء الأطفال من شدة التذلل. وهذا هو الموافق لسياق القصة فيما أرجح».

ومن ذلك أيضاً ما علق به على قول ابن سلاَّم في الطبقات ص ٥: «وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم»، يقول أبو فهر: «كتب في المخطوطة «صِناعة» بكسر الصاد، ثم ضُرب على الكسرة (أي شطب) ووُضع على الصاد فتحة، وكذلك فعل بعد في لفظ «الصناعات»، وقد خلت كتب اللغة من النص على «صَناعة» بفتح الصاد، إلا أني وجدت في كتاب «الكليات» لأبـي البقاء ما نصه: «والصَّناعة بالفتح تستعمل في المحسوسات، وبالكسر في المعاني»، ولكن إجماع كتب اللغة على ذكر

(١) هكذا ورد في الأصل، وهو غير مفهوم، والملاحظ أن كلاماً سقط من المقال في المجلة، ولم يسعفنا البحث والمراجعة لاستدراكه!!! ولعل الله يُيَسِّر ذلك لاحقاً.

«الصِّناعة» بالكسر، وأنها حرفة الصانع وعمله بيديه، دال على أن «الصَّناعة» بالفتح في المعاني دون المحسوسات، وأنها الحذق والدُّربة على الشيء».

وتأمل صنيع أبـي فهر، لقد أفاد من صاحب «الكليات» ضبط «الصناعة» بفتح الصاد، لكنه خالفه في توجيه معناه!.

تصحيح الكلام:

على أن من أعجب ما ألقاه الله على قلب هذا الرجل، من تصحيح الكلام الذي شاع خطأه في الكتب، ولم يتنبه له أحد، ما جاء في قصيدة عبد الله بن الزِّبَعْرَىٰ يوم أحد يرثي قتل المشركين (طبقات فحول الشعراء ص ٢٣٨):

حيـــن أَلْقَـــتْ بقَنَـــاة بـــركهـــا واستحـــرَّ القتـــل فـــي عبـــد الأشَـــلْ

يقول أبو فهر: «في جميع ما وقع في يديّ من الكتب «بقباء» ــ يعني مكان «بقناة» ــ وقباء قرية على ميلين أو ثلاثة من المدينة على يسار القاصد إلى مكة، فهي إلى جنوب المدينة. وهذا أمر مشكل كل الإشكال، فلم أر أحداً ذكر أن القتال يوم أحد نشب في قباء، وجبل أحد في شمال المدينة بينها وبينه ميل أو نحوه، ويقول البكري في معجم ما استعجم ١١٧: «أحد: جبل تلقاء المدينة دون قناة إليها»، وقناة هذه التي ذكرها البكري أحد أودية المدينة، وادٍ يأتي من الطائف حتى يمر في أصل قبور الشهداء بأحد. فأكاد أرجِّح أن في رواية هذا الشعر خطأ قديماً جداً، وأن صواب الرواية ما أثبته في الشعر»... وانظر بقية كلامه فإنه نفيس جداً.

وبعد ذلك البيت يقول ابن الزبعرى:

فقبلنـــا النصـــف مـــن ســـادتهـــم وعـــدلنـــا ميـــل بـــدر فـــاعتـــدل

ويقول أبو فهر: «وهذا أيضاً بيت تكثر روايته في سائر الكتب «فقتلنا النصف» أو «فقتلنا الضعف»وهو خطأ كله؛ فإن المشركين لم يقتلوا يوم أحد نصف المقاتلة، فإن من شهد القتال من المسلمين في يوم أحد سبعمائة، قتل منهم أربعة وسبعون من الشهداء، ولا قتلوا ضعف ما قتل المسلمون يوم بدر من المشركين، فإن عدة قتلى

بدر من المشركين سبعون أو أربعة وسبعون. وإنما أراد ابن الزبعرى أنهم قتلوا من المؤمنين في أحد مثل الذي قتله المسلمون منهم يوم بدر، فانتصفوا منهم، أي أخذوا حقهم كاملاً حتى صاروا على النصف سواء... يقول: قبلنا يومئذ العدل واكتفينا به، فقتلنا من سادتهم في أحد مثل عدة من قتلوا من سادتنا في بدر.

ويدل على ذلك قوله: «فعدلنا ميل بدر فاعتدل»، أي صار سواء لم ترجح كفة على كفة».

ويتصل باللغة النحو، ولأبي فهر فيه وقفات جياد، تدل على حسن نظر وتمام فقه، ويلقاك هذا في كثير من تعليقاته وحواشيه، وحسبك أن تقرأ في مقدمة كتابه: «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» شرحه لعبارة سيبويه التي جاءت في أول كتابه: «وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولما يقع، وما هو كائن لم ينقطع»، فقد أدار على هذه العبارة كلاماً عالياً لم يذكره أحد من شراح سيبويه، ولا من غيرهم من النحاة.

ويرى النحاة أن جَذِيمة الأبرش الشاعر الجاهلي القديم قد ارتكب ضرورة نحوية في قوله:

ربما أوفيت في علم ... تَرْفَعَنْ ثوبي شمالات

حيث أكد الفعل «ترفع» بالنون الخفيفة، وليس هذا من مواضع التوكيد؛ لأن الكلام موجب، فأنت لا تقول: «أنا أقومن إليك»، ويعلق أبو فهر: «ويقول النحاة: زاد النون في «ترفعن» ضرورة، وأقول إنها لغة قديمة لم يجلبها اضطرار»، طبقات فحول الشعراء ص ٣٨، وزاد ذلك في كتابه الفذ: أباطيل وأسمار، فقال في ص ٣٨٧: «وقال: «ترفعن ثوبي»، ولم يقل: «ترفع أثوابي»، وارتكب تأكيد الفعل بالنون في غير موضع تأكيده؛ لأنه جعله في حيز كلام مؤكد حذفه، ليدل على معنى ما حذف، كأنه قال: «ترفع ثوبي شمالات، ولترفعنَّه هذه الرياح الهوج، مهما جهدت أضمّ على ثوبي وأجمعه، فلما حذف «ولترفعنه» ارتكب تأكيد الفعل الأول في غير موضع تأكيد».

قلت: وقد دلَّنا شيخنا أبو فهر مشافهة ــ على موضع آخر لهذه الظاهرة النحوية، في شعر لحسان السعدي، وهو من أقدم ما قيل في الجاهلية، وهو قوله:

أرى الموت ممن شارك الماء غاية ... له أثر يجري إليه ومنتهى
فلا ذا نعيم يَتْرُكَنْ لنعيمه ... وإن قال قرِّطني وخذ رشوة أبى
ولا ذا بؤوس يَتْرُكَنْ لبؤوسه ... فتنفعه الشكوى إذا ما هو اشتكى

النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري ص ٣٥٨.

أما البصر بمعاني الشعر، والوقوف عند وقائعه، وترجيح رواياته، فقد أوفى فيه أبو فهر على الغاية، والشعر كان ولا يزال هو مدخله إلى ثقافة هذه الأمة وحضارتها، وكانت قضية انتحاله والشك فيه هي المفجر الأول لطاقاته وإبداعه، ثم كانت هي الدافع له إلى أن يظهر على فروع الثقافة العربية كلها، ولا سبيل إلى ذكر كل تجليات أبي فهر في فهم الشعر وتذوقه، وتخطئة الأقدمين والمحدثين في فهمه، فذلك مما يحتاج إلى سفر خاص، ولنكتف بذكر مثال واحد:

أنشد أبو جعفر الطبري في تفسيره ٩/ ٤٧٣ هذا الرجز المشهور لرشيد بن رميض العنزي ــ وهو الذي أنشده الحجاج بن يوسف الثقفي فيما بعد:

قد لفَّها الليل بسوَّاقٍ حُطم ... ليس براعي إبل ولا غنم
بات يقاسيها غلام كالزَّلم ... خدلَّج الساقين ممسوح القدم

ورواية الشطر الأخير مما استفاضت به كتب العربية، لكن أبا فهر يقول:

«خدلَّج الساقين: ممتلىء الساقين، وهذا غير حسن في الرجال؛ وإنما صواب روايته ما رواه ابن الأعرابي: «مهفهف الكشحين خفَّاق القدم»، أي ضامر الخصر».

تصحيح رواية الشعر:

وتصحيح اللغة وتصحيح رواية الشعر مما يفيض ويتسع في كتابات وتحقيقات أبي فهر كلها، وهو موصول بما كتبه الأوائل في ذلك، مثل التنبيهات على أغاليط الرواة، لعلي بن حمزة البصري (٣٧٥هـ)، والتنبيه على حدوث التصحيف لحمزة بن

الحسن الأصفهاني (٣٦٠هـ)، وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، لأبـي أحمد العسكري (٣٨٢)، وتصحيح التصحيف وتحرير التحريف، لصلاح الدين الصفدي (٧٦٤هـ)، ألم أقل لك إن الرجل ماضٍ في طريق الأوائل؟

والذين لا يقرأون محمود محمد شاكر قراءة جيدة، ولا يفهمون فكره حق الفهم، يقولون: إنه غارق في التراث إلى أذنيه، لا يكاد يدير وجهه عنه، وأنه شديد العصبية لآثاره ولرجاله، لا يقبل فيه ولا فيهم نقداً أو معابة، وهذا صحيح من وجه، لكنه باطل من وجه، فوجه صحته أنه شديد التمسك بذلك الإرث العظيم؛ لأنه قرأه وعرف مواضع العزة فيه، ثم إنه رأى أن الذين يعيبونه ويتنقَّصونه لا يصدرون عن علم ولا هدى، وإنما هو الهوى الجامح والمتابعة العمياء، والنظر لثقافات الأمم الأخرى بعين الذليل.

ووجه بطلانه أنه لا يسلِّم بالتراث كله، ولا يذعن لرجاله كلهم، فهو يعرف وينكر، وينفي ويثبت، وآية ذلك ما تراه من نقده لبعض كتب الأوائل، ثم من نقده لبعض رجال ذلك التراث، على جلالة قدرهم وعظم شأنهم، وهذه بعض أمثلة:

١ ــ وازن أبو فهر بين شرحين لأبـي جعفر الطبري والجاحظ، لبيت من شعر الكميت، ولم يرض تفسير الجاحظ له، وقدم عليه تفسير الطبري، ثم نقد الجاحظ نقداً مراً، فقال: «من شاء أن يعرف فضل ما بين عقلين من عقول أهل الذكاء والفطنة، فلينظر إلى ما بين قول أبـي جعفر في حسن تأتّيه، وبين قول الجاحظ في استطالته بذكائه. . . والجاحظ تأخذ قلمه أحياناً مثل الحِكَّة، لا تهدأ من ثورانها عليه حتى يشتفي منها ببعض القول، وببعض الاستطالة، وبفرط العقل، ومع ذلك فإن النقاد يتبعون الجاحظ، ثقة بفضله وعقله، فربما هجروا من القول ما هو أولى، فتنة بما يقول»، تفسير الطبري ٢/ ٤٨٦، ٤٨٧.

٢ ــ أبو الحسن المرزوقي شيخ من شيوخ العربية، وهو شارح حماسة أبـي تمام، وصاحب كتاب الأزمنة والأمكنة، وصاحب الأمالي، وقد خطَّأه أبو فهر في مواضع من شرحه لأبيات قصيدة تأبّط شراً «إن بالشِّعب الذي دون سَلع»، ومن تلك

المواضع قول أبـي فهر: «وأما ثاني اللفظين الطليقين، وهو «مُدِلّ»، فقد أساء الناس فهمه، وتبعوا في ذلك المرزوقي، حين فسره بأنه: «هو الواثق بنفسه وآلاته وعدته وسلاحه»، فهذا تفسير يذبح الشعر بغير سكين»، وقوله: «وأما «يجدي»، فقد ذهب المرزوقي وسائر الشراح إلى أنه من «الجدوى»، وهي العطية، وهذا لغو وفساد»، وقوله: «وهذا فساد كبير في تناول معاني الشعر، ولا يُعدُّ بياناً عنه، بل هو طرح غشاوة صفيقة من «الإبهام» ينبغي أن تزال، وإلا فقد الشعر بهاءه بانتقاص دلالات ألفاظه وإهمالها». ويصف بعض شروح المرزوقي بأنه كلام لا تحقيق له «وإنما هو كذب محض، وبذلك أباد المرزوقي معنى القصيدة إبادة من لا يرحم».

ويقول: «والمرزوقي إمام جليل من العلماء بالعربية، ولكنه ليس من العلماء بالشعر في شيء، وقد جزر البيت جزراً بسكين علم اللغة، واستصفى دمه بتفسيره الذي أساء فيه من جهتين»، ويصف بعض كلام المرزوقي، فيقول: «وهذا كلام بارد غثٌّ سقيم، فاختلسه التبريزي في شرحه، فلم يحس بشيء من برده؛ لأنه نشأ بتبريز من إقليم أذربيجان، وهو إقليم بارد جدّاً»، وراجع لهذه النصوص: كتاب أبـي فهر: «نمـط صعـب ونمـط مخيـف» صفحـات ١٨٢، ١٩١، ٢١٣، ٢٣٠، ٢٥٦، ٢٥٩، وهذا الكتاب من أوثق الدلائل على بصر أبـي فهر بالشعر واللغة والنحو.

٣ ــ ابن فارس من أئمة العربية، وله في التأليف المعجمي كتابان جليلا القدر: المقاييس والمجمل، وقد نقل أبو فهر بعض شروحه اللغوية التي لم يطمئن إليها، فقال: «ولا أدري هل يصح نقل ابن فارس أو لا يصح... وأنا لا أطمئن إلى أقوال ابن فارس إلا بحجة مؤيدة»، طبقات فحول الشعراء ص ٢٣٨.

٤ ــ مما نشره أبو فهر قديماً جزء من كتاب «إمتاع الأسماع» للمقريزي، نشره عام ١٩٤٠م، يقول المقريزي في مقدمة كتابه: «والله أسأل التوفيق لديمة العمل بالسنة»، ويعلق أبو فهر فيقول: «يريد لدوام العمل، فأخطأ، وشبّه عليه حديث عائشة وذكرت عمل رسول الله ﷺ فقالت: «كان عمله ديمة»، شبَّهته بالديمة من المطر في الدوام والاقتصاد».

وبعد: فهذا منهج محمود محمد شاكر، في نشر التراث، سُقْتُه على سبيل الوجازة والاختصار، وقد أدرته على علمه باللغة والنحو والشعر، وبقي بابان من أبواب العلم، ظهر عليهما أبو فهر ظهوراً بيناً، وامتلك أسباب القول فيهما والحكم عليهما امتلاكاً واضحاً: أعني علم التاريخ، وعلم الجرح والتعديل (قَبول روايات الحديث النبوي وردّها)، ولكن المقام لا يتسع الآن للإفاضة في الكلام على معرفته بهذين العلمين الكبيرين، فلعلي أفرد لهما مقالة أخرى، أستأنف بها كلاماً عن هذا الرجل الذي يعد رمزاً ضخماً من رموز حضارتنا العربية، ولكن أسباباً كثيرة حجزته عن الناس، وحجزت الناس عنه، وكان هو نفسه أحد الأسباب المعينة على ذلك، بهذه العزلة التي ضربها على نفسه، ثم بتلك الصرامة التي يعامل بها الأشياء والناس، والبشر منذ أن برأهم خالقهم يحبون الملاينة والملاطفة، ثم المصانعة التي أشار إليها زهير بن أبـي سلمى في معلَّقته الشريفة، ولكن أبا فهر اختار الطريق الأعظم، وترك الطرق التي تتشعب منه، وهي التي تسمَّى: «بُنَيَّات الطريق»، فكاشف وصارح فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين الناس، ومنذ أن ظهرت أمامه غواشي الفتن التي أحدقت بأمته العربية؛ فتح عينه، وأرهف سمعه، ثم شد مئزره وأيقظ حواسه كلها، يرصد ويحلل ويستنتج، ثم قال: «فصار حقاً علي واجباً ألا أتلجلج، أو أحجم، أو أجمجم، أو أُداري»، أباطيل وأسمار ص ١٠.

وكان أن دخل بيته بعد أن استتب الأمر له: علماً وفكراً، مئات من طوائف الناس، من شرق وغرب جالسوه واستمعوا له، فمنهم من آمن بمنهجه، ومنهم من صدّ عنه، وكان على الذين آمنوا بمنهجه أن يصبروا على لأواء الطريق، ويحتملوا أعباء المتابعة، على ما قال علي بن أبـي طالب رضي الله عنه: «من أحبَّنا أهل البيت فلْيُعِدَّ للفقر جِلباباً»، ولكن لأنه منهج صعب مكلف، وطريق عسر شائك، فما آمن معه إلا قليل!

هذا، وما أحب أن أختم كلمتي هذه قبل أن أؤكد ما بدأت به حديثي: أن أبا فهر إنما دخل ميدان تحقيق التراث خدمة وعوناً على قضيته الكبرى: قضية تاريخ أمته

العربية، ثم إزالة الغبار الذي طمس معالمها، وعلى هذا فلا ينصفه من يذكره في عداد المحققين والناشرين. إن تحقيق التراث بالنسبة له عمل هامشي، ولذلك تراه يكتب على أغلفة كثير من تحقيقاته هذه العبارات: قرأه وشرحه، أو قرأه وعلَّق عليه، أو قرأه وخرَّج أحاديثه.

سيدي أبا فهر: لئن عرف علمك العارفون، وغفل عن ذكرك الغافلون:

فلقد عُرِفْتَ وما عُرِفْتَ حقيقةً ... ولقد جُهِلْتَ وما جُهِلْتَ خُمولا

كتب الله لك السلامة والعافية، وأطال في النعمة بقاءك، وأمتع أهل العربية بحياتك، ويرحم الله عبداً قال آميناً.

* * *

دراسة في مصادر الأدب[1]

للدكتور الطاهر أحمد مكي

[١]

هذا كتاب جليل القدر، غَفَلْتُ عنه طويلاً، وأحسب أيضاً أن كثيراً من الناس قد غفلوا عنه طويلاً، ولعل أحداً كتب عنه أو أشاد به لم يبلغني خبره، لكني لم أجد له صدى عند أهل المذاكرة وأرباب المحاضرة.

«وحظوظ الكتب كحظوظ الناس، يصيبها ما يصيبهم من ذيوع أو خمول»، وتلك كلمة كنت قلتها في بعض ما كتبت منذ عشرين عاماً، ولا زلت أجد صدقها إلى يوم الناس هذا، لكن الأمر في هذا الكتاب الجليل القدر لا يعود إلى الحظ وحده، وإنما يعود إلى أنَّ مصنفه الفاضل كان قد صرح في خطبته، وهي التي يسميها أهل زماننا: المقدمة، صرح بأنه صنعه لطلبة قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم، فقضى على كتابه هذا الجليل بأن يجتويه الناس ويصدوا عنه صدوداً، إذ صار عندهم «كتاباً مدرسيّاً»، وقد أصبح هذا الوصف في زماننا علامة على الخفة والسهولة، وصار أيضاً مجلبة للتنقص والمعابة، وآية ذلك أنه لا يحسب في موازين الترقيات العلمية، ولا يقدم إلى الجوائز الأدبية، وقد كتبت في ذلك كلمة، في «الهلال ــ أكتوبر ١٩٩٤». وانتهيت إلى أن الكتاب الجامعي ــ أو المدرسي ــ عمل علمي، جيده جيد، ورديئه رديء.

---

(١) مجلة «الهلال»، يوليه ١٩٩٧م.

ومهما يكن من أمر فقد أدار المؤلف كتابه هذا على عشرة كتب، هي: طبقات فحول الشعراء لابن سلاَّم الجمحي، والبيان والتبيين للجاحظ، والحيوان له أيضاً، والكامل للمبرد، والشعر والشعراء لابن قتيبة، والأغاني لأبـي الفرج الأصبهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والفهرست لابن النديم، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، ونفح الطيب للمقَّري.

فهذه عشرة كتب كما ترى: سبعة منها في الأدب العربـي بمعناه العام، وقد خرجت من المشرق العربـي، وكتابان اثنان خرجا من المغرب العربـي، وكتاب واحد، هو أقدم ما عرفنا من علم الببليوجرافيا العربية.

على أنه مما ينبغي التنبيه عليه أن المؤلف الفاضل حين جاء إلى كتاب «الحيوان» للجاحظ أنبأنا أن هذه دراسة كتبها المستشرق الإسباني ميجيل أسين بلاثيوس، ونشرها في مجلة «إيزيس Isis» مايو ١٩٣٠، العدد رقم ٤٣، المجلد الرابع عشر، ثم نشرت بعد وفاته في أعماله المختارة، المجلد الثاني الصفحات ٢٩ ــ ٧٠، مدريد ١٩٤٨م.

وقد نقل المؤلف دراسة بلاثيوس إلى كتابه، وهذه أمانة العلماء.

وقد سلك المؤلف في عرض هذه الكتب سبيلاً راشداً، واتبع منهجاً محكماً، خرج بالكتاب من أن يكون للطالب المبتدىء الشادي، إلى أن ينتفع به كل قارىء للعربية، مبتدئاً كان أو متوسطاً أو منتهياً، وما ظنك بدراسة تعرض للكتاب في مخطوطاته بوصفها والدلالة على أماكن وجودها، ومطبوعاته والفرق بين طبعات الكتاب: التجارية منها والمحققة، ومنهج المؤلف في كتابه، ثم الإبانة عن مكان الكتاب في الفكر العربـي والإنساني، وذكر الدراسات التي قامت حوله قديماً وحديثاً: شرحاً أو اختصاراً أو نقداً وعرض نماذج كاشفة منه.

على أن المؤلف الفاضل قبل أن يدخل إلى موضوعه الذي عقد له الكتاب، وهو الحديث عن تلك الكتب العشرة، قدم بمقدمتين نفيستين جداً، شغلتا «١٥٣» صفحة من الطبعة السابعة للكتاب الصادرة عن دار المعارف ١٩٩٣م.

وتحدثت المقدمة الأولى عن تراثنا العربي من الرواية الشفوية إلى التدوين، وقد عالج في تلك المقدمة قضايا في غاية الأهمية، واستطاع بذكاء شديد وإحكام بالغ أن يجمع كل ما قيل عن نشأة الخط العربي، والنقوش العربية التي وصلت إلينا، وأقدم الكتابات الإسلامية وتطور الخط العربي وتاريخ النقط والإعجام، وترتيب الأبجدية العربية عند المشارقة، وعند الأندلسيين والمغاربة.

ثم عرض لعصر المخطوطات العربية، وتلك القصة الطويلة من استخدام البردي إلى صناعة الورق، ونشأة المدارس الإسلامية والمكتبات العامة والخاصة، والإملاء والنسخ والوراقة، ثم تطرق إلى قواعد النسخ واختلاف النسخ المخطوطة، ومنازل النسخ، وقواعد تحقيق المخطوطات.

ويعد ما ذكره المؤلف الفاضل حول قواعد النسخ والمقابلة ومنازل المخطوطات، يعد ذلك كله إضافة جيدة لما كتب في هذا الفن «فن تحقيق المخطوطات»، يوضع مع ما كتبه شيخنا عبد السلام هارون رحمه الله؛ وما كتبه غيره في هذا العلم.

ومن أنفس ما صنعه المؤلف هنا ما ذكره عن «طرق التدوين وشرائط النسخ»، فقد أورد ما ذكره الخطيب البغدادي وابن جماعة والعَلْموي، وبدر الدين الغزي، عن الضوابط والحدود التي يجب على النسَّاخ التزامها، في تقييد العلم وكتابته، وهي ضوابط وشروط صارمة جدّاً، تؤكد في مجملها الثقة في هذا العلم الذي انتهى إلينا محاطاً بكل هذه الأسوار والحدود.

وهذه المقدمة التي شغلت تسعين صفحة من الكتاب، من أنفع ما يقدم لطالب في الدراسات العربية، ولو كان لي من الأمر شيء لجعلتها مقرراً واجباً على كل طالب في جميع كلياتنا ومعاهدنا المعنية بالدراسات العربية والإسلامية، ليس في الدراسات العليا فقط، ولا في قسم الدراسات الأدبية فقط، ولا في كلية دار العلوم فقط.

وتأتي المقدمة الثانية للكتاب، وقد جعلها المؤلف للحديث عن مصادر الشعر الأولى، وعالج فيها جملة من القضايا حول جمع الشعر وتدوينه، فعرض لدواوين القبائل، ودواوين الشعراء، والمجاميع الشعرية، كالمعلقات وشروحها، والمجاميع المنسوبة لجامعيها، مثل المفضليات والأصمعيات، وجمهرة أشعار العرب للقَرْشي، والحماسات والمختارات والأمالي، كل ذلك ذكره وذكر أصحابه ومخطوطاته ومطبوعاته.

والكتاب في جملته: سواء في مقدمتيه أو في حديثه عن الكتب العشرة، من خير ما يقدم لطالب الدراسات العربية والإسلامية، فهو أولاً قد سلم من تلك الثرثرة التي يخوض فيها بعض أساتذة الجامعة من الكلام في المنهج العلمي، والصعود والهبوط مع العموميات التي لا يعود الطالب منها بشيء، ثم في طعنهم في التراث واستهانتهم بالعقل العربي وسخريتهم من علومه وأعلامه، دون سند أو حجة إلا المتابعة والإخلاد إلى الراحة، والزعم بالانتصار للموضوعية والذود عن حماها، وما هو إلا «ما أصاب حياتنا الثقافية من داء الطراوة والليونة والترهل والركود» كما قال المؤلف في ص ١٥٨ من الكتاب.

والكتاب ثانياً مليء بمواضع الفخر والاعتزاز بذلك التراث الذي انتهى إلينا خلال خمسة عشر قرناً، وهي مواقف ثابتة، لا سبيل إلى الطعن فيها، أو الانتقاص منها، لأنها صحيحة السند، ليست وليدة تنفُّخ كاذب، أو ادعاء ساذج.

فأول ما يلقى الطالب من كلام المؤلف هو قوله في مستهل مقدمته: «لا أظن أدباً معاصراً له من العمر ما للأدب العربي.

إن أقدم نص أدبي، في أية لغة أوروبية معاصرة ــ مثلاً ــ لا يتجاوز القرن الثاني عشر الميلادي بحال، وما قبله فآداب بلغات أخرى، اندثرت أو أصبحت تاريخاً يدرس، وحتى هذه الآداب الأوروبية تطورت لتصبح على ما هي عليه الآن، تطورت في الأصوات وفي الدلالة وفي التركيب، فالإيطالي العادي، والإسباني غير

المثقف، والفرنسي غير المتخصص، والألماني الذي لا يهتم بالأدب، سيجد من العسير عليه، إذا عاد إلى أدب قومه في القرن الثالث عشر الميلادي، أن يقرأه في سهولة، وأن يفهمه في وضوح.

أما الأدب العربي فأقدم نص فيه يعود إلى مطلع النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، أي له من العمر ألف وخمسمائة عام كاملة، ولا يجد القارىء العادي صعوبة في قراءته، أو عسراً في تمثل معناه، فقواعده اللغوية هي التي نسير عليها، وتركيب الجملة فيه هو نفس ما نحتذيه، والغموض الذي يصاحب جانباً منه أحياناً مرده سبب آخر غير اللغة نفسها».

ويعبر المؤلف عن حقيقة كنت أزداد اقتناعاً بها كلما توغلت في التعامل مع تراثنا في فنونه المختلفة، يقول في ص ٨: «وعبر ألف ونصف ألف من الأعوام، لم يتوقف العقل العربي عن الإبداع، حتى في أحلك ساعات الأمة العربية، وكانت حصيلة ذلك تراثاً ثقافيّاً واسعاً، يعكس حقيقة مجتمعه، في سموه واحتضاره، في صعوده وتوقفه».

وكنت قد قلت كلاماً شبيهاً بهذا، في تقدمتي لرسالتي للدكتوراه عام ١٩٧٨، وكان مما قلته: «. . . وقد شمل هذا النشاط العالم الإسلامي كله، مشرقه ومغربه، ولم يفضل عصر أو مصر سواهما إلا ما يكون من بعض الفروق الهينة التي تفرضها طبائع الزمان والمكان. أما حركة العقل العربي من حيث هي، فلم تخمد جذوتها، ولم تسكن حدتها، بتغير الحكام وتبدل الأيام، وإن أردت أن تعرف صدق ما أقول فانظر إلى ما اشتمل عليه القرنان السادس والسابع من كبار المفكرين والعلماء، وأنت تعلم أن هذين القرنين قد شهدا أعنف هجوم تعرضت له الأمة الإسلامية: الحروب الصليبية والغزوة التترية، وقد كان هذا الهجوم الكاسح كفيلاً بالقضاء على هذه الأمة الإسلامية لولا دفع الله وصيانته بما أودعه في روح العقيدة الإسلامية من عوامل النماء والبقاء والازدهار.

أما ما تسمعه الآن من ثرثرة حول الحروب، وما تحدثه من إحباط وانكسار،

فهو من التعلات الباطلة، والكذب على النفس، وكل أولئك مما يلجأ إليه الضعفة ويحتمي به الكسالى، وإنما هو فساد الزمان وسقوط الهمم».

وينبه المؤلف إلى المغيّب من تراثنا، ويذكر أن ما نشر منه ليس كاشفاً عن حقيقته، وأن ذلك كان سبيلاً إلى الطعن والمنقصة، فيقول في ص ١١ : «إن تراثنا العقلي ما زال مطموراً، وما نشر منه ليس بأفضله دواماً، وغياب هذه النفائس شجع بعض النفوس الضعيفة، على أن تتخذ من سب الأدب العربي والقائمين عليه وسيلة لمشاغبات تظهر بها، والهدم أسهل من البناء، والسلبية طريقها معبد، والخلق الفني محفوف دائماً بالمكاره والصعاب».

ويقول المؤلف الفاضل ـ في ص ٥٦ ـ وهو يتحدث عن حركة التعليم العام والخاص في المجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري: «وإلى جانب التعليم العام كانت الطبقات العالية في المجتمع تحضر لأبنائها معلمين خصوصيين، يفقهونهم في الدين والأدب، وفي الكثير من أجزاء الإمبراطورية الإسلامية بلغ التعليم الابتدائي قدراً عالياً من الانتشار، ويقرر المستشرق الهولندي رينهاوت دوزي Dozy بأن «كل واحد تقريباً في الأندلس كان يعرف القراءة والكتابة» بينما كانت أوروبا المسيحية لا تعرف إلا أوليات المعارف، وكان عرفانها، لا يعدو طبقة قليلة معظمها من رجال الدين».

الحضارة العربية :

وحين يعرض المؤلف للحضارة العربية في قرطبة الأندلسية في أوائل القرن الثامن الميلادي يقول: «كانت الحملة الإسلامية في شبه جزيرة إيبريا، المدخل الجنوبي الغربي لأوروبا، أروع عمل حربي عرفه تاريخ العصور الوسطى، فما هي إلا سنوات سبع «٧١١ ـ ٧١٧م» حتى تم فتح شبه الجزيرة التي تعتبر من أجمل وأوسع الأقاليم في أوروبا، وقدر للحضارة العربية بعد نصر يبدو كأنه أسطورة، أن تستقر هناك زمناً، وأن يصبح لها بعد وقت، طابعها الخاص المميز، على الرغم من أصولها المشرقية، وأن تصبح قرطبة ـ وقد جعل منها السمح بن مالك الخولاني

عاصمة ــ أعظم مركز للثقافة في أوروبا، وأن تنال شهرة عالمية تبعث الرهبة والإعجاب، لقد كان لها واحد وعشرون ضاحية، وفيها سبعون داراً للكتب، مرصوفة الطرق، مضاءة الشوارع، زاخرة بالحمامات العامة، في الوقت الذي كانت فيه جامعة أكسفورد ــ مثلاً ــ ترى الاستحمام عادة وثنية. . . وكانت وسائل الثقافة متاحة للناس جميعاً، وعلى حين لم يكن في بقية أوروبا من يعرف القراءة والكتابة، باستثناء رجال الكهنوت، كانت معرفتها أمراً عاديّاً وشائعاً في إسبانيا الإسلامية، وقلّ فيها من كان أمِّيّاً» الكتاب ص ٢٧٩.

ويقول عن محمد بن سلَّام صاحب كتاب طبقات فحول الشعراء ــ ص ١٦٣ ــ : «كان حديثه المفصل عن الانتحال المعالم الهادية لما قام به المستشرقون في أواخر القرن الماضي، وأوائل هذا القرن، من دراسات عن صحة الشعر الجاهلي، ومن احتذى منهجهم وتبنى أفكارهم في العالم العربي، وكل الذين تحدثوا بعده في هذا الأمر كانوا عالة عليه، والفارق بين ابن سلَّام وبين العرب المعاصرين أن الرجل كان يقدر دور الكلمة فلم يتخفف من المسؤولية، ولم يتخذ الشطط مطية، والشهرة غاية، فجاءت آراؤه، وستبقى تشع جلالاً وتواضعاً وإخلاصاً».

فأين هذا الكلام الذي يحمل التوقير كله والإجلال كله لعلمائنا الأوائل، من قول أستاذ جامعي عن الطبيب العربي الشهير ابن النفيس: «إنه حلاق صحة»، وقوله عن أبي حيان التوحيدي: «إنه رجل صايع ولو رآه عسكري يسير في الشارع بالليل لأخذه تحري»؟

والعجيب أنَّ هذا الأستاذ الجامعي يقول هذا الكلام على مسمع من الناس، وهو عائد من حفلة عشاء فاخرة على ظهر باخرة نيلية، في ليلة من ليالي مهرجان أبي حيان التوحيدي الذي أقامه المجلس الأعلى للثقافة (طيب يا أخي خلّي عندك شوية دم، دانت لسه واكل على حساب الراجل! ولقد كان من حق «جابر عصفور» أن يضع أصبعه في حلقك لتقيء ما أكلته على حساب أبي حيان)، فهذا موضع المثل العربي الصادق «أكلاً وذماً»، أي تأكلون أكلاً وتذمون ذماً، أو كما قال عبد الله بن الزبير في

بعض الحروب لجنده: «أكلتم تمري وعصيتم أمري، سلاحكم رث، وحديثكم غث، عيال في الجدب، أعداء في الخصب».

ويتحدث المؤلف الفاضل عن مكتبة الصاحب بن عباد، فيذكر أن ما فيها من الكتب يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر، وأن فهرس كتبه يقع في عشرة مجلدات «وهي أكثر من كل ما في مكتبات أوروبا العامة والخاصة مجتمعة في العصر الوسيط»، ثم يعلق على هذه العبارة الأخيرة، فيقول في حواشي ص ٦١: «لكيلا ينزعج السادة المتأوربون، فإن التعبير ليس لي، وإنما هو للمستشرق الفرنسي جاك رسلير، في كتابه «الحضارة العربية» ص **٩٢**.

ولا يفوت المؤلف أن يضع عيون الطلبة على وجه من وجوه الإنصاف وحرية الفكر في تاريخنا الثقافي، فيقول في ص ٦٧: «وكانت الدولة تضع في المقام الأول من عنايتها نشر الآداب، والعلوم والفنون، ورعاية الكتاب والأدباء والمفكرين، وكان هؤلاء يتمتعون ـ بصفة عامة ـ بحرية فكر غير محدودة، ولقد درس الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» العقائد التي كانت سائدة في عصره، في حياد دقيق لا يمكن أن تجد له مثيلاً عند عالم غربي من علماء عصره.

ثم ينقل عن ياقوت الحموي قصة ذات دلالة على حرية الفكر عند بعض العلماء العرب، والقصة كما ذكرها ياقوت في ترجمة شيخه «المبارك بن المبارك بن سعيد ابن الدهان، المعروف بالوجيه النحوي» من معجم الأدباء ص **٢٢٦٦**، قال ياقوت: «وحدثني محب الدين محمد بن النجار، قال: حضر الوجيه النحوي بدار الكتب التي برباط المأمونية، وخازنها يومئذ أبو المعاطي أحمد بن هبة الله، فجرى حديث المعري، فذمه الخازن وقال: كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيفه، فغسلته، فقال له الوجيه: وأي شيء كان هذا الكتاب؟ قال: كان كتاب نقض القرآن، فقال له: أخطأت في غسله، فعجب الجماعة منه وتغامزوا عليه، واستشاط ابن هبة الله وقال له: مثلك ينهى عن مثل هذا؟ قال: نعم، لا يخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن أو خيراً منه أو دونه، فإن كان مثله أو خيراً منه ـ وحاش لله أن يكون ذلك ـ فلا

يجب أن يفرط في مثله، وإن كان دونه ــ وذلك ما لا شك فيه ــ فتركه معجزة للقرآن فلا يجب التفريط فيه، فاستحسن الجماعة قوله، ووافقه ابن هبة الله على الحق وسكت».

فمثل هذا الكلام، وتلك الأخبار التي ملأ بها المؤلف الفاضل كتابه، مما يقوي ثقة أبنائنا بماضيهم وتراثهم، ويبعث فيهم الاعتزاز به، والحرص عليه، والدفاع عنه.

مواضع للنقد:

أما ما يندفع فيه بعض أساتذتنا وزملائنا الجامعيين، من نقد لعلوم الأمة ومعارفها، مع ما يصحب ذلك أحياناً من السخرية والاستهزاء، فهو مما لا يصح ولا يستقيم، ونعم إن في تراثنا مواضع للنقد والتتبع، وهو منقود من داخله من قديم، فقد اعترض على سيبويه إمام النحاة ونقد واستدرك عليه، وكذلك تعرض البخاري للنقد والتصحيح، وممن نبه على أوهامه الحافظ شرف الدين الدمياطي، عبد المؤمن بن خلف المتوفى بالقاهرة سنة «٧٠٥هـ»، وليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك ــ على ما قاله يونس بن حبيب ــ ولكن هذه الأمور ينبغي أن تنحى عن طلبة العلم في أول أيامهم، وتؤجل إلى أن يشتد عودهم ويستحصد زرعهم، حتى يستطيعوا أن يميزوا الخبيث من الطيب.

وقد زان هذه المعارف التي امتلأ بها الكتاب أسلوب مشرق، وبيان عذب، ارتفع بها المؤلف عن هذا الجفاف، وذلك العسر اللذين يشيعان في كتابات كثير من الجامعيين الآن.

وقد استحيا المؤلف بعض الأبنية والتراكيب الفصيحة التي يتحاشاها كثير من الكتبة الآن، استخفافاً بها، أو غفلة عنها، فمن ذلك استعماله الفعل «كسر» بمعنى قسم وفصَّل، وذلك قوله عن ابن النديم وكتابه الفهرست ــ ص ٣٠٠ ــ «وقد كسر محمد بن إسحاق كتابه على عشر مقالات». وقوله عن المقَّري وكتابه نفح الطيب ــ ص ٣٧٧ ــ «وكسره على ثمانية أبواب». واستعمل هذا الفعل الفصيح أيضاً في ص ١٤٥، فقال عن دراسة الدكتور حنا جميل حداد «شواهد النحو الشعرية» قال:

«وكسرها على قسمين: درس في الأول منهما المناهج والمصادر، وجمع في الثاني كل شواهد النحو».

هذا وقد هُدي المؤلف الفاضل إلى تركيب قديم ضارب في التراث بعروقه، وهو ما ذكره في حديثه عن الخط العربي ـ ص ٢٦ ـ قال: «ونحن نواجه قضية علمية لا بأس من إسقاط الروايات التي عجز أصحابها عن مواجهة المشكلة، ولم يصبروا على محنة البحث، فلاذوا بالأسطورة يجدون في رحابها التفسير والتعليل والرضا والراحة».

فقوله: «ولم يصبروا على محنة البحث» من التراكيب الدقيقة البديعة، وكنت قد علقت شيئاً شبيهاً به، وقع لي في كلام قديم، عمره أكثر من ألف عام، وذلك ما جاء في كلام للإمام أبي سليمان الخطابي، وهو أحد أعلام العربية في القرن الرابع، ثم هو صاحب غريب الحديث، وإعجاز القرآن، وتوفي سنة «٣٨٨هـ»، قال في مقدمة كتابه غريب الحديث ١/ ٥٧: «فحق على طالب الحديث أن يرفق في تأمل مواضع الكلام، ويحسن التأتي لمحنة اللفظ».

وهكذا تحيا الألفاظ والتراكيب العربية الفصيحة، وتنتقل من جيل إلى جيل، كما تجول النُّطَف في الأصلاب الكريمة، وكما تنتقل الخصائص في السلالات الزاكية، ودعك من الذين يقولون بالأساليب التراثية، والأساليب المعاصرة، واستحداث المنافرة والمدابرة بينهما، فإنما هو العجز ولا شيء غير العجز.

وبعد: فهذا عرض سريع للكتاب يغري بقراءته، ولا يحيط بمحاسنه، ولم يبق إلا الاستجابة لما قاله المؤلف في خطبة كتابه من أنه سوف يكون سعيداً بأي ملاحظة لتقويم عمله وإصلاح ما قد يكون داخله من نقص أو خطأ.

وهو موضوع المقالة التالية إن شاء ربك.

* * *

دراسة في مصادر الأدب[1]
للدكتور الطاهر أحمد مكي
[٢]

فرغت في المقال السابق من عرض هذا الكتاب الجليل وبيان فضله وجدواه على ناشئة هذا الجيل. واليوم أستجيب لرجاء المؤلف الفاضل في قبول أي ملاحظة تعين على تقويم عمله هذا، وتصلح ما قد يكون قد داخله من نقص أو خطأ، فأقول وبالله الاستعانة:

أول ما يجب مناقشته من قضايا الكتاب ما ذكره المؤلف الفاضل في ص ٤٣ عن تاريخ النَّقْط في الحروف العربية، قال: «وأول محاولة للنقط كان دافعها وهدفها، كبقية العلوم الأخرى: الحفاظ على دقَّة ضبط القرآن الكريم، وكان الناس يقرأون في مصاحف عثمان رحمه الله وهي غير منقوطة ولا معجمة فيخطئون القراءة، فكلمة (ىىلو) قرأها حفص بن سليمان بن المغيرة (نبلو) وقرأها عبد الله بن مسعود (تتلو)، وكلمة (ىىىا) قرأها حفص (تثبيتا) وقرأها مجاهد بن جبر (تبيينا). والآية (حعل السفىه «السقاية» في رحل أحىه) قرأها رجل: (جعل السفينة في رجل أخيه) وأمثلة أخرى كثيرة، وقف عليها حمزة الأصفهاني مؤلفًا كاملاً هو «التنبيه على حدوث التصحيف».

ومؤدى هذا الكلام أن الاختلاف في القراءات القرآنية راجع إلى تجرد المصاحف من نقط الحروف، وأن ذلك جعل كل إنسان يقرأ بما يؤديه إليه اجتهاده.

---

(١) مجلة «الهلال»، أغسطس ١٩٩٧م.

وهذا خطأ محض، ووهم غليظ ــ وليغفر لنا الأستاذ الكبير هذه الأوصاف؛ لأن الأمر يتصل بكتاب ربنا عزّ وجلّ ــ ولعل أول من وقع في ذلك في عصرنا هو المستشرق المجري جولدزيهر (١٨٥٠ ــ ١٩٢١م) وذكره في كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي» ثم ردده من بعده المستشرق الأسترالي الأصل آرثر جفري، وذكره في مقدمة تحقيقه لكتاب «المصاحف» لابن أبـي داود الذي نشره بالمطبعة الرحمانية بمصر ١٣٥٥هـ ــ ١٩٣٦م، وقد خُدِع بذلك الرأي بعض الباحثين العرب، ومنهم الدكتور عبد الواحد وافي، رحمه الله، وذكره في كتابه «فقه اللغة» في طبعته الأولى، ولكنه عدل عنه في الطبعات التالية.

وقد رد هذا الرأي ودفعه الدكتور عبد الفتاح شلبـي في كتابه «رسم المصحف العثماني» والشيخ عبد الفتاح القاضي، في كتابه «القراءات في نظر المستشرقين والملحدين».

السند المتصل:

وخلاصة الأمر في هذه القضية: أن القراءات القرآنية كلها أساسها السند المتصل والرواية المتواترة عن رسول الله ﷺ بما نزل به جبريل عليه السلام. فالقراءة سنة واتباع وأثر، ولا دخل لرسم الحروف فيها، ولا دخل كذلك للغة ولا للنحو، وعلماء اللغة والنحو يحتجون للقراءات، أو يحتجون لها بعد ثبوتها بالرواية والسند الصحيح، وقد أشرت إلى شيء من ذلك في مقالة سابقة بالهلال (سبتمبر ١٩٩٥م) فلا أعيد ما ذكرته هناك. (انظر ص ٣٩٩).

لكني أذكر هنا مثالين لاختلاف القراءات تبعًا لاختلاف الرواية فقط، مع أن الرسم العثماني واحد غير مختلف:

المثال الأول: في قوله تعالى في فاتحة الكتاب ﴿مٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله عزَّ وجلّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله سبحانه في سورة الناس: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾. فلو تأملت المواضع الثلاثة في

المصحف لوجدت الكلمة فيها هكذا ﴿ مَلِكِ﴾ بالميم واللام والكاف، ولكنَّ حفصًا يقرأ عن عاصم ـ وهي قراءتنا نحن المصريين ـ في فاتحة الكتاب ﴿مَالِكِ﴾ بالألف بعد الميم، وكذلك يقرأ آية آل عمران، أما في سورة الناس فيقرأ ﴿ مَلِكِ﴾ بدون الألف، فلو كان حفص يقرأ وفق الرسم والشكل لقرأ الثلاثة ﴿ مَلِكِ﴾ ولكنه يقرأ بالرواية المتواترة. وانظر تفصيلاً أكثر في كتاب الدكتور عبد الفتاح شلبي: رسم المصحف العثماني ص ٣٣.

والمثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله تباركت أسماؤه: ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، قرأ ابن كثير وأبو عمرو الآية الأولى ﴿فَلاَ رَفَثٌ وَلاَ فُسُوقٌ﴾ بالضم والتنوين، وقرءا الآية الثانية ﴿لاَ بَيْعَ فِيهِ وَلاَ خُلَّةَ﴾ بفتحة واحدة خفيفة.

ووجه قراءة الضم أن «لا» هنا تعمل عمل «ليس» فيرتفع الاسم بعدها على أنه اسمها، ووجه قراءة الفتح أن «لا» هنا هي النافية للجنس، فالاسم بعدها يبنى على الفتح في محل النصب، ويقال: إنه اسم «لا» النافية للجنس، التي تعمل عمل «إنَّ».

فلو كان ابن كثير وأبو عمرو يقرءان وفق الشكل أو الوجه النحوي لقرءا الآيتين قراءة واحدة، إما بالضم في الاثنتين، أو بالفتح فيهما، ولكنها الرواية والتلقي.

ولا أحب أن أغادر هذا المكان دون أن أناقش هذه القراءة التي أشار إليها الأستاذ الفاضل (جعل السفينة في رجل أخيه) ـ وهي تصحيف لقوله تعالى من الآية ٧٠ من سورة يوسف ﴿ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾.

فهذه القرءة مما يتكفه به أهل زماننا، وواضح أنها قراءة مصنوعة، كما صنعت أمثلة أخرى من التصحيف أريد بها التسلي أو الإضحاك ممن نسبت إليه.

وهذه القراءة المصحَّفة تنسب إلى «عثمان بن أبي شيبة» المتوفى سنة ٢٣٩هـ ويقولون إنه نبه على هذا التصحيف، وأن صواب التلاوة ﴿ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ فقال: «أنا وأخي أبو بكر لا نقرأ لعاصم» ويعلق الحافظ الذهبي على ذلك فيقول:

«فكأنه كان صاحب دعابة، ولعله تاب وأناب» ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٣/ ٣٨، ويقول الحافظ ابن كثير: «وما ينقله كثير من الناس، عن عثمان بن أبي شيبة، أنه كان يصحف قراءة القرآن، فغريب جدًا؛ لأن له كتابًا في التفسير، وقد نقل عنه أشياء لا تصدر عن صبيان المكاتب». الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ص ١٧١.

ومما يؤكد كلام ابن كثير هذا أن الأئمة أثنوا على «عثمان بن أبي شيبة» الذي تنسب إليه هذه القراءة المنكرة، فقال عنه يحيى بن معين «ثقة مأمون»، وذكر الذهبي أن الإمام البخاري أكثر من الرواية عنه في «صحيحه»... انظر: سير أعلام النبلاء ١١/ ١٥٢، ١٥٣. فقصة التصحيف في الآية مصنوعة مكذوبة إن شاء الله.

فهذه أخطر قضية يناقش فيها الأستاذ الكبير، وهو مرجو إن شاء الله أن يبادر إلى طبعة جديدة من الكتاب، يصلح فيها هذا الخطأ الضخم.

ومما يناقش فيه المؤلف الفاضل أيضًا ما ذكره في ص ٢٣٠، وهو يتحدث عن خصائص أبي العباس المبرد الأسلوبية في كتابه «الكامل» قال: «ومن لوازم المبرد، في الشرح أن يتبع قوله بكلمة «يا فتى» مما يوحي بأن الكتاب في الأصل أمالٍ ألقاها على طلابه».

وأقول: هذه العبارة «يا فتى» لا صلة لها بالأمالي، وإنما هي كلمة كان المبرد يستعين بها رمزًا للوصل ولبيان وتحقيق حركة الإعراب لا حركة البناء في الكلمة التي تسبقها، وقد نبه على هذا العلامة الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، في تقدمته لكتاب المبرد «المقتضب» ص ١٠٠، وأشار إلى أن سيبويه قد استعمل ذلك مرتين في كتابه، وكذلك ثعلب في مجالس.

قلت: وقد استعمل سيبويه «يا فتى» مرة أخرى في الكتاب ٣/ ٣٢٠.

وهذا نمط من التركيب، يلجأ إليه المصنفون قديمًا، يأتون بكلمة، قد تكون

اسمًا وقد تكون فعلاً، بعد كلمة، يريدون بيان آخر حرف منها، إعرابًا أو بناء، وقد استعمل ذلك سيبويه وثعلب، كما ذكر الشيخ عضيمة.

وتختلف صيغة هذا التركيب من مؤلف لآخر، فقد استعمل سيبويه «قبل» فقال ـ في غير ما ذكره الشيخ عضيمة ـ «ومررتم بجواري قبل» واستعمل أبو عمرو الشيباني «يا فتى» كما استعملها المبرد. فقال: «وما جئته قط يا فتى» كتاب الجيم ٣/ ٧٤، وكذلك أبو سعيد السيرافي، فقال: «هذه جوار يا فتى» ضرورة الشعر ص ٦٥، واستعمل يعقوب ابن السكيت «يا هذا» فقال: «لعب الصبيان خراج يا هذا» إصلاح المنطق ص ٢٨٧ وفي كتابه حروف الممدود والمقصور ص ٧١، استعمل «فافهم» وذلك قوله: «وتميم وقيس يقولون: القصيا فافهم».

واستعمل أبو عمر الزاهد «يا هذا» فقال: «هم النشأ يا هذا» تهذيب اللغة ١١/ ٤١٨، وكذلك ابن دريد، قال «فهو من اللبأ يا هذا» الاشتقاق ص ٣٢٥، وأبو حيان التوحيدي، فقال في جمع حصان «والجمع حصن يا هذا» البصائر والذخائر ١/ ٢٢.

واستعمل سيبويه «كما ترى» قال: «وذلك قولك: جاءٍ كما ترى» الكتاب ٤/ ٣٧٦.

وكذلك استعملها أبو الحسن علي بن الحسن الهنائي الملقب بكراع النمل، قال: «ويقال: هو شناج كما ترى» المنتخب من غريب كلام العرب ١/ ١٦٠.

وقد خفي المراد من هذه الكلمة على مشيخة دار الكتب المصرية الذين قاموا على تصحيح ديوان كعب بن زهير رضي الله عنه، فقد قال شارح الديوان أبو سعيد السكري، يشرح عبارة «الأسود الضواري: الضواري اللواتي قد ضرين بأكل لحوم الناس، الواحد: ضار كما ترى» ديوان كعب بن زهير ص ٢٨.

قال مصححو دار الكتب المصرية في الحاشية: «هذه الجملة «كما ترى» لا لزوم لها في الكلام».

مناقشات مهمة :

وتبقى جملة مناقشات أسوقها بحسب ورودها في الكتاب :

ص ١٨ : ضبط الفعل «ينميه» بضم الياء وفتح النون وتشديد الميم، وهو ضبط غير صحيح، فضلاً عن أنه يكسر وزن البيت، والصواب «يَنْمِيهِ» بفتح الياء وسكون النون وكسر الميم خفيفة. ويقال: نماه إلى أبيه ينميه نميًا: أي نسبه.

ص ٢١ : إن بالشعب إلى جنب سلع. والصواب: إن بالشعب الذي دون سلع.

ص ٢٤ : أبو عمر إسحاق. والصواب: أبو عمرو. وتكرر في ص ٢٥.

وفي الصفحة نفسها ذكر من تلاميذ المفضل الضبي: ابن العربي. وهذا من التطبيع، والصحيح: ابن الأعرابي، وسيأتي حديثه مرة أخرى.

ص ٤٣ : ذكر أن كتاب التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصفهاني مخطوط بإيران. وقد طبع الكتاب بمجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٨م بتحقيق محمد أسعد طلس، ومراجعة أسماء الحمصي وعبد المعين الملوحي.

هذا ومما يحسن التنبيه عليه هنا أن عبارة المؤلف عن كتاب حمزة في التصحيف توحي بأنه عقد كتابه كله للكلمات المصحفة في القرآن الكريم، فهو يقول بعد ذكر ثلاثة أمثلة من القرآن الكريم، ويرى أنها اختلفت قراءتها للتصحيف بخلوها من النقط ــ وقد دفعت ذلك بحمد الله ــ يقول: وأمثلة أخرى كثيرة وقف عليها حمزة الأصفهاني مؤلفًا كاملاً، هو التنبيه على حدوث التصحيف.

والحقيقة أن الكتاب يعالج قضية التصحيف بعامة، في الكلام المنثور والمنظوم. ثم إن ما ذكره حمزة من ذلك في القرآن الكريم إنما شغل من الكتاب ست صفحات ليس غير، من ص ١٥٤ إلى ص ١٥٩، وهو الباب الرابع من الكتاب.

ص ٥٨ : ذكر أن آخر من أملى من اللغويين أبو القاسم الزجاجي المتوفى (٣٣٩هـ) لكنا رأينا بعد ذلك ابن الشجري المتوفى (٥٤٢هـ) يملي «أماليه» الشهيرة، وابن الحاجب المتوفى (٦٦٤هـ) يملي «أماليه» المعروفة.

ص ٥٩ : ذكر تاريخ وفاة الخطيب البغدادي (١٠٧١م)، والأولى ذكر التاريخ الهجري (٤٦٣هـ) وبعده يذكر التاريخ الميلادي، وتكرر ذلك في غير موضع من الكتاب.

ص ٦٧ : أشار إلى كتاب أبي العلاء المعري في نقد القرآن، والصواب «نقض» بالضاد، وليس «نقد» بالدال، وقد ذكرت ذلك في المقالة السابقة.

ص ٧١: ذكر المؤلف هنا كلامًا جيدًا عن «طرق التدوين وضوابط النسخ والمقابلة» مما يؤكد الثقة الكاملة بهذا التراث الذي وصل إلينا. وقد أورد المؤلف طائفة جيدة من مراجع هذا الموضوع.

وأحب أن أضيف إلى ما ذكر هذه المراجع:

المحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي، للحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي المتوفى (٣٦٠هـ)؛ والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي المتوفى (٤٦٣هـ)؛ والإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، لعياض بن موسى اليحصبي السبتي المتوفى (٥٤٤هـ)؛ وأدب الإملاء والاستملاء، لعبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني المتوفى (٥٦٢هـ)، وكنت قد علقت من هذا الكتاب الأخير كلمة عالية عن الأصمعي، تكتب بماء الذهب، وهي قوله في ص ١٤٥ : «**من لم يحتمل ذُلَّ التعلم ساعة بقي في ذُلِّ الجهل أبدًا**».

ص ٧٧: نقل عن كتاب «المقايسات» لأبي حيان التوحيدي، قول إبراهيم الصابي: «رفع ما وهى يحتاج إلى تدبير» والصواب «رقع» بالقاف، وليس «رفع» بالفاء، ونقل أيضاً قوله: «من جهة صاحبه الأول ومن كان أولى به، وكان كالأبله»، والصواب: «وكان كالأب له» فهما كلمتان لا كلمة. وهذا النقل في ص ١٥٤ من

«المقايسات» تحقيق حسن السندوبي ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م، ولم يذكر المؤلف الفاضل رقم الصفحة من المقايسات، وكذلك فعل في كثير من النقول، يذكر النقل، ولا يدل على موضعه من الكتاب المنقول منه، فليته يستدرك ذلك فيما يستقبل من طبعات الكتاب.

وأشد من هذا أن ينقل كلامًا لمؤلف كثير التأليف، دون أن يذكر اسم كتابه الذي ينقل عنه، فضلاً عن أن يذكر رقم الصفحة، ومن ذلك ما ذكره في الصفحة ٧٧ نفسها، قال: «وكان الجاحظ يرى أنه أسهل للمؤلف أن يسود عشر صفحات بالنثر الرفيع، المليء بالأفكار القيمة، من أن يكتشف لمصنفه (في المطبوع: مصنفه) أخطاء ارتكبها، أو أمورًا سها عنها» هكذا نقل عن الجاحظ، ولم يذكر لنقله كتابًا، والكلام في كتاب الحيوان ١/ ٧٩، والمؤلف الفاضل تصرف في كلام الجاحظ بعض تصرف، وليته نقله كما هو!

ص ٧٨: ذكر أن ابن الأعرابي حفيد المفضل، والصواب «ربيب المفضل» كانت أمه زوجة له، كما ذكر الوزير القفطي في إنباه الرواة ٣/ ١٣١.

ص ٨٧: ذكر أن المستشرق رودلف جاير حقق ديوان الأعشى، والأدق: حقق ديوان الأعشى والأعشين، وهذا العمل هو المنشور باسم: الصبح المنير في شعر أبي بصير ميمون ابن قيس بن جندل الأعشى والأعشين الآخرين. طبع بفينا سنة ١٩٢٧م.

(فائدة: الأعشين، هكذا بفتح الشين، وليس: الأعشين بكسرها، وهو جمع مذكر للأعشى في حالة الجر. ولو كان في حالة الرفع لقلت: الأعشون بفتح الشين أيضًا، وهي ما تقتضيه قاعدة الاسم المقصور، نحو مصطفى والأعلى، تقول في جمعهما، في حالة الرفع: مصطفون والأعلون، وفي حالتي النصب والجر: مصطفين والأعلين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٧]. وقد نبهت على ذلك لأني سمعت كثيرًا من لناس يقولون: ديوان الأعشين بكسر الشين).

ص ٩٤: ذكر أن مصادر نسخة السكري من أشعار الهذليين تتمثل في عالم مجهول، اسمه «عبد الملك بن إبراهيم الجمحي»، والحق أن جهالة هذا الرجل ليست مطلقة، فهو ــ وإن لم تعرف له ترجمة ــ كان معروفًا للجاحظ وقد روى عنه خبرًا في الحيوان ٥/ ٥٨٧، وهو ذلك الخبر المشهور «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا رأى رجلاً يضرب في كلامه ــ أي يخلط ــ قال: أشهد أن الذي خلقك وخلق عمرو بن العاص واحد» فهو معاصر الجاحظ. وانظر مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد ص ٥٦٥، وذكر الأستاذ عبد الستار فراج رحمه الله، في مقدمة تحقيقه لشرح أشعار الهذليين ص ١١ أن «عبد الله بن إبراهيم الجمحي» هذا كان في طبقة ابن الأعرابي والأصمعي، وذكر عن «الأغاني» رواية الزبير بن بكار عنه.

ثم أرجو من مؤلفنا الفاضل أن يغير عبارة (وأعاد سبكه ــ أي ديوان الهذليين ــ النحوي الرماني» إلى «ورواه الرماني النحوي» فإن العبارة هكذا توشك أن تكون من تعبيرات المستشرقين، وأحسب أن هناك فرقًا بين «سبك» و «روى» فإن الرماني روى شعر الهذليين عن أبي بكر أحمد بن محمد بن عاصم الحلواني، عن أبي سعيد السكري، ثم تصلح وفاة الرماني لتصبح (٣٨٤).

ص ١٣٩: ذكر من كتب الأمالي «بهجة المجالس وأنس المجالس» لابن عبد البر. والكتاب صنفه مؤلفه تصنيفًا، ولم يمله إملاءً، فلا يعد من هذه البابة.

ص ١٤٠: ذكر أن «حواشي الصحاح» لابن دريد، والصواب: لابن بري، وهي المسماة: التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح، وما عرف منها إلاَّ قطعة نشرها في جزئين مجمع اللغة العربية في القاهرة، بتحقيق الأستاذين مصطفى حجازي وعبد العليم الطحاوي.

وفي نفس الموضع ذكر «أمالي ابن بري» من مراجع لسان العرب، وأمالي ابن بري هي حواشيه على الصحاح، فلا تذكر في العدد.

ص ١٤١ : ذكر أن تاج العروس قريب في قدره من لسان العرب، والمعروف أن التاج أوسع مادة من اللسان، فمجموع جذور اللسان (٩٢٧٣) جذرًا. ومجموع جذور التاج (١١٩٧٨) جذرًا، راجع مقالتي عن المعاجم اللغوية (الهلال مايو ١٩٥٥م).

ص ١٤٤ : ذكر أن كتاب أبيات الاستشهاد لابن فارس لا يزال مخطوطًا والكتاب نشره شيخنا عبد السلام هارون ــ بردَّ الله مضجعه ــ في المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات ١٣٧٠هـ ــ ١٩٥١م.

ص ١٥٠ : ذكر أيضًا أن كتاب من اسمه عمرو من الشعراء لابن الجراح لما يزل مخطوطًا. والكتاب طبع بتحقيق الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، بمطبعة المدني بالقاهرة ١٤١٢هـ ــ ١٩٩١م.

ص ١٧٨ : عرض للخلاف المعروف في اسم كتاب الجاحظ، وهل هو «البيان والتبين» بياء واحدة مشددة بعد الباء، أو «التبيين» بياءين اثنتين؟ وهو الخلاف الذي لم يحسم بعد، لكني أحب أن أضيف جديدًا في هذا الموضوع، من واقع التجربة الخاصة.

أولاً : زرت مكتبة القرويين بمدينة فاس بالمغرب الأقصى ــ حرسه الله ــ عام ١٩٧٥م عضوًا في بعثة معهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وهناك رأيت جزءًا مخطوطًا من كتاب الجاحظ، هو الجزء الثالث، وكتب على صدره في العنوان «البيان والتبين» بياء واحدة مشددة مضمومة واضحة جدًا. وهذه المخطوطة مكتوبة على رق غزال ــ وذلك من سمات المخطوطات القديمة ــ بقلم أندلسي نفيس نفيس موغل في القدم، وجاء بآخر المخطوطة أنها معارضة بثلاثة أصول صحيحة، ذات حواش قيمة: أصل أبي الوليد الوقشي المتوفى (٤٨٩هـ) وسيأتيك حديث آخر عنه. وأصل عبد الملك بن سراج المتوفى (٤٨٩هـ) وسيأتيك حديث آخر عنه أيضًا. وأصل عطاء بن الباذش ــ لم أعرف تاريخ وفاته ــ ولم ير شيخنا عبد السلام هارون هذا الجزء النفيس من الكتاب.

ثانيًا: هذا التوثيق لكلمة «التبين» التي جاءت في صدر هذه المخطوطة العتيقة قد يعكر عليه ما قرأته في كتاب العواصم من القواصم، لأبي بكر بن العربي، ص ٤٧٧ من الجزء الثاني ـ تحقيق الدكتور عمار طالبي ـ وطبعته هي الطبعة الكاملة للكتاب، ولا تغتر بتلك الطبعة التي تحمل اسم الشيخ الجليل محب الدين الخطيب، فإنما هي جزء صغير من الكتاب، خاص بتاريخ الصحابة، وقد نبه الشيخ محب الدين على ذلك. قرأت في ذلك الموضع من الكتاب كلام ابن العربي عن الجاحظ، فقد أشار في سياق ذمه له أنه صاحب كتاب «الضلال والتضليل» ألا ترشح كلمة «التضليل» كلمة «التبيين» من حيث جاءت على وزنها؟

ثم تحدث المؤلف الفاضل عن مخطوطات كتاب البيان والتبيين، ووصفها ودل على أماكنها، ثم ذكر أن الأستاذ عبد السلام هارون نشر الكتاب، مستخدمًا مخطوطات الكتاب، باستثناء مخطوطة مكتبة فيض الله أفندي باستانبول.

والحق أن ذلك كان من شيخنا في الطبعة الأولى للكتاب، أما في الطبعة الثانية الصادرة عام ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م فقد رجع إلى تلك المخطوطة، ونص على ذلك في صدر عنوان الكتاب، فكتب هذه العبارة «الطبعة الثانية تمتاز بمقابلتها على نسخة مكتبة فيض الله».

ص ٢٢٠: ذكر من كتب المبرد التي لا تزال مخطوطة: المذكر والمؤنث، والتعازي والمراثي، وقد طبع الكتابان: الأول عن دار الكتب المصرية عام ١٩٧٠م، بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب، والدكتور صلاح الدين الهادي، والثاني عن مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٧٦م بتحقيق الأستاذ محمد الديباجي.

ص ٢٣١: ذكر أن كتاب التنبيهات على أغاليط الرواة، لعلي بن حمزة مخطوط بدار الكتب المصرية، والكتاب طبع بدار المعارف مصر ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م، مع كتاب المنقوص والممدود للفراء، بتحقيق العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي.

ص ٢٣٢ : ذكر المؤلف الفاضل من شروح الأندلسيين على الكامل للمبرد: شرح أبـي الوليد الوقشي المتوفى (٤٨٩هـ)، ويسمَّى «نكت الكامل» وشرح ابن السيد البطليوسي المتوفى ٥٢١هـ، وذكر أن هذين الشرحين مفقودان إلى الآن، وإن كان السيوطي ٩١١هـ والبغدادي ١٠٩٣هـ قد أشارا إليهما ونقلا عنهما.

قلت: وهذان الكتابان وإن كانا قد فقدا إلى الآن، فقد حفظهما عالم أندلسي قريب من عصرهما هو: أبو الحسن علي بن إبراهيم المعروف بابن سعد الخير الأنصاري البلنسي المتوفى (٥٧١هـ) فقد جمع بين شرحي الوقشي والبطليوسي، وسمَّى ذلك كتاب «القرط على كامل المبرد» وقد سَلِمَ من هذا «القرط» نسختان مخطوطتان، إحداهما بمكتبة إسماعيل صائب أفندي بأنقرة بتركيا، وتاريخ نسخها (٦٥٨هـ) والنسخة الثانية وجدت في الزاوية الحمزاوية بصحراء تمجروت من المغرب الأقصى ــ حفظه الله ــ ثم نقلت إلى الخزانة العامة بمدينة الرباط، وتاريخ نسخها مجهول لوجود بتر في آخرها، لكنها جيدة الخط.

وعن نسخة تركيا فقط قام باحث باكستاني، هو «ظهور أحمد أظهر» بتحقيق الكتاب، وحصل به على درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة «البنجاب» ثم نشره بالمطبعة العربية بلاهور سنة ١٤٠١هـ ــ ١٩٨٠م.

وجاء بعده باحث من أهل الطائف بالمملكة العربية السعودية هو «حمد عبد الله أحمد الزائدي» وقدم دراسة الكتاب وتحقيقه إلى كلية اللغة بجامعة أم القرى وحصل بذلك على درجة الدكتوراه سنة ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م. وقد استفاد هذا الباحث من مخطوطة المغرب التي لم يرها الباحث الباكستاني.

ويلاحظ أن البلنسي يسمِّي شرحي الوقشي والبطليوسي: الطرر والحواشي على كتاب الكامل.

وتأمل أيها القارىء العزيز: كيف ضاعت كتب وحفظتها كتب: فهذا عمل الوقشي والبطليوسي يضيع، لكن البلنسي يحفظه في عمل يجمعهما، وقد عرفت هذه الظاهرة في غير كتاب من تراثنا، وهذا من حفظ الله وكلاءته لعلوم الأمة ومعارفها.

ص ٢٣٤: تحدث عن طبعات الكامل للمبرد، وأحب أن أضيف أن أصح طبعاته إلى الآن هي طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، بتحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي.

ص ٢٤١: ذكر من مؤلفات المبرد كتابه «الفاضل والمفضول» والكتاب مطبوع بدار الكتب المصرية ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م، بتحقيق العلاَّمة عبد العزيز الميمني الراجكوتي بعنوان «الفاضل» فقط، وقد رجح الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، في تقديمه للكتاب والأستاذ الميمني في خاتمته أن صواب العنوان «الفاضل» ليس غير.

ص ٢٦١: ذكر أن كتاب «مقاتل الطالبيين» لأبـي الفرج الأصبهاني طبع بالقاهرة منذ أعوام غير بعيدة وهو يريد تلك الطبعة التي أذاعها شيخنا السيد أحمد صقر رحمه الله، بمطبعة عيسى البابـي الحلبـي ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م، والحق أن الكتاب طبع قبل ذلك طبعتين: الأولى في طهران سنة ١٣٠٧هـ، والثانية في النجف الأشرف بالعراق سنة ١٣٥٣هـ.

ص ٢٦٦: في تحليله لمنهج أبـي الفرج في الأغاني أنه كان يعمد لشرح الألفاظ الغامضة فيما يورده من شواهد. وأحب أن أشير هنا إلى عمل نافع جدًا، قام به الدكتور حسن محسن: فقد استخرج شروح أبـي الفرج هذا من أجزاء كتاب الأغاني ـ على ضخامتها ـ وجمعها مرتبة في كتاب سماه «معجم الألفاظ المفسرة في كتاب الأغاني» ونشرته وزارة الأعلام بالكويت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م فأسدى الجامع وأسدت الوزارة بذاك يدًا جليلة إلى تراثنا اللغوي والأدبـي، وبمثل هذه الأعمال يستفيد «المعجم الكبير» الذي يضطلع به مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فليست اللغة في المعاجم فقط.

ص ٢٦٩: ذكر أن الطبعة الثانية من كتاب الأغاني قام بها الحاج محمد الساسي والصـواب: المغـربـي، وقد كتبت عنه في كتاب الهلال (الكتاب المطبوع في مصر في القرن التاسع عشر. أغسطس ١٩٩٦م) في الصفحات ١٠٠، ١٠٢، ١٥٤.

ص ٣٦٠: ذكر أن كتاب رايات المبرزين لابن سعيد الأندلسي نشره المستشرق الأسباني غرسية غومث بمدريد عام ١٩٤٢م. وأضيف: أن الكتاب أعيد نشره نشرة علمية محررة، بتحقيق الدكتور النعمان القاضي، وصدر عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، ورحم الله ذلك المحقق «النعمان القاضي» فقد كان من أفاضل الناس.

ص ٣٧٦: أشار إلى الأجزاء الثلاثة التي طبعت بالقاهرة من كتاب أزهار الرياض في أخبار عياض، في الأعوام ١٩٣٩م، ١٩٤٠م، ١٩٤٢م، بتحقيق الأساتذة مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ثم ذكر أن بقية الكتاب لا تزال مخطوطة. وأبشر الأستاذ الكريم بأن هذه البقية قد طبعت في جزءين بالمغرب العزيز بدعم من صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م، بتحقيق الأساتذة سعيد أعراب، ومحمد بن تاويت، وعبد السلام الهراس، مع إعادة الأجزاء الثلاثة المطبوعة بالقاهرة بالتصوير، مع استدراكات وتصويبات عليها.

وبعد: فلم يبق إلاّ تقديم أصدق التحية والشكر للأستاذ الكبير الدكتور الطاهر أحمد مكي، على هذا العمل الجليل الذي هو خير ما يقدم لأبنائنا في هذه المرحلة من العمر، وإن كانت مادة الكتاب مما يفيد منها كل قارىء للعربية، ثم أعود إلى ما اقترحته في صدر كلمتي من أن يكون هذا الكتاب ـ وبخاصة المائة صفحة الأولى ـ فرض عين على كل طالب علم في كلياتنا ومعاهدنا المعنية بالدراسات العربية والإسلامية، لا أستثني معهدًا أو كلية، والله الهادي إلى سواء السبيل.

* * *

الشيخ محمود شاكر.. وتاريخ ضخم[1]

إن أقصى ما يعرفه كثير من الناس الآن ــ وبخاصة الشباب ــ عن أبـي فهر أنه صاحب الخصومة مع الدكتور طه حسين حول قضية الشعر الجاهلي وحول المتنبـي، وصاحب الخصومة مع الدكتور لويس عوض حول أبـي العلاء المعري والفتن الأخرى المنشورة في «أباطيل وأسمار»، ثم يعرفه المشتغلون بالدراسات الأدبية بقراءته الفذة وشرحه النفيس لطبقات فحول الشعراء لابن سلاَّم، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ثم تحقيقه المعجب لتفسير الطبري وتهذيب الآثار، ويجمل بعضهم معرفته به في هذه العبارة الفضفاضة التي لا تدل على شيء «شيخ المحققين».

والحقيقة أن الرجل وراء ذلك كله، وفوق ذلك كله، إنه تاريخ ضخم لرجل تنبه منذ طراءة الصبا وأوائل الشباب إلى هموم أمته وما يراد بها ويكاد لها، وقد فطن منذ عقل إلى أن الطريق الوحيد للتغيير هو العلم والمعرفة، فانصرف إليهما، ولم يشغل بغيرهما، ثم أخذ نفسه بأسلوب صارم حازم، فقرأ القرآن صبيّاً، وأقبل على الشعر مبكراً، يحفظه لا كما يحفظه الناس، مقطوعات للإنشاد والتسلي والمطارحة في المجالس، وإنما الشعر عنده باب العربية كلها، وقد قاده الشعر إلى كتب العربية كلها، فالمكتبة العربية كلها عند أبـي فهر كتاب واحد، والعلوم العربية عنده علم واحد، فهو يقرأ صحيح البخاري كما يقرأ الأغاني، ويقرأ كتاب سيبويه قراءته لمواقف عضد الدين الإيجي، فهو بتعبيرنا المصري «خد البيعة على بعضها»، وهكذا

(١) «الوطن»، العدد ٧٧٢٤، ١٤ ربيع الآخر ١٤١٨هـ، أغسطس ١٩٩٧م.

خالط أبو فهر العربية منذ أيامه الأولى، وعرف مناهج الكتب والكتاب في مختلف فنون العربية، وخبر مصطلحات الأقدمين وأعرافهم اللغوية، وهذا فرق ما بينه وبين سواه من الكتاب والنقاد.

فأنت قد تجد ناقداً ذا ذوق وبصيرة، ولكن محصوله اللغوي على قدر الحاجة، وقد تصادفه جمع بين الذوق والبصيرة واللغة ولكن معارفه التاريخية لا تتجاوز الشائع العام الدائر على الألسنة، وقد تراه فاز من الثلاثة بأوفر الحظ والنصيب، ولكنك لن تجد عنده ما تجد عند أبـي فهر من الأنس بالمكتبة العربية كلها في فنونها جميعاً، ودوران هذه الفنون في فكره وقلبه دوران الدم في العروق.

ولقد سارت حياة أبـي فهر في طريقين استويا عنده استواء واضحاً عدلاً:

الطريق الأول طريق العلم والمعرفة، يعب منهما ولا يروى.

والطريق الثاني: التنبه الشديد لما يحاك لأمتنا العربية من كيد ومكر، وما يراد لثقافتها وعلومها من غياب واضمحلال، وظل حياته كلها قائماً على حراسة العربية والذود عنها، يحب من أجلها ويخاصم من أجلها.

وقد احتمل في حالتيه من العناء والمكابدة ما تنوء بحمله العصبة أولو القوة.

وقد حارب أبو فهر في جهات كثيرة، وخاض معارك كثيرة، حارب الدعوة إلى العامية، وحارب الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بحروف اللاتينية، وحارب الدعوة إلى هلهلة اللغة العربية والعبث بها بحجة التطور اللغوي، وحارب الخرافات والبدع والشعوذة، وقد حارب في كل ذلك وحده غير متحيز إلى فئة، أو منتصر بجماعة، وهو صلب عنيد فاتك، ألقى الدنيا خلف ظهره ودبر أذنيه، فلم يعبأ بإقبالها أو إدبارها، واستوى عنده سوادها وبياضها.

ولقد أقصي كثيراً عن محافل الأدب ومجالي الشهرة فلم يزده ذلك إلا إصراراً وثباتاً، ووقف وحده في ساحة الصدق شامخ الرأس مرفوع الهامة يرقب الزيف ويرصده ويدل عليه، ولم يجد خصومه في آخر الشوط إلا أن ينفروا الشباب عنه،

ويبغضوه إليهم بما أشاعوه عن حدته وبأسه وتعاليه، ونكص من نكص مسيئاً في نكوصه، وثبت من ثبت محسناً في ثباته.

ومع كل هذا الحصار الذي ضرب حول الأستاذ الإمام فقد خلص إليه أهل العلم ومحبو المعرفة، ينهلون من هذا المنهل العذب، فكان بيته جامعة عربية ضخمة: طوائف من الناس من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات، وسعهم هذا البيت المفتوح دائماً، ولم يفتح لهم يوماً دون يوم أو ساعة دون ساعة.

ولأبـي فهر في البيان طريق معجب، وأسلوبه في الكتابة أسلوب عال، تحدر من سلالة كريمة، ومداره عى التذوق الذي واتاه بعد دربة طويلة متوارثة، انطلقت من الشعر الجاهلي الذي هو أنبل كلام العرب وأشرفه، ثم استقرت عند القرآن العظيم الذي هو البيان الإلهي الملفوظ، وقد أفضى به ذلك إلى الإحساس العميق باللفظ العربـي في ترجيعه ونغمته: في الدلالة والألفاظ والتراكيب والصور. وأسلوب أبـي فهر بعد ذلك أسلوب كاتب يحترم قارئه ويحبه ويؤنسه ويمتعه، ولا يتعالى عليه بالإغماض، ولا يعنته بالرمز والإشارة إلى ما لا تطوله يداه، ولا يستخف به بالثرثرة وفضول الكلام، ولو كان هذا الرجل قد خرج من الملالة والثورة المتفجرة في نفسه التي لا تهدأ، لأتى بكل عجيبة وغريبة، ولكن الله يثبط أقواماً ليرزق آخرين، على أن هذه الملالة التي حجزته عن كثرة التأليف والكتابة جاءت بخير كثير، فقد أخلت وجهه لطلاب المعرفة من الشرق والغرب.

وبعد، فيا أبا فهر:

لقد كنت في قوم عليك أشحة ... بنفسك إلا أن ما طاح طائح

يودون لو خاطوا عليك جلودهم ... ولا تدفع الموت النفوس الشحائح

رحمك الله رحمة واسعة سابغة، وجعل كل ما قدمته لأمتك ولعروبتك في موازينك يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحضراً.

* * *

محمود شاكر.. والديار التي خلت[1]

وقـالـوا الإمـام قضـى نحبـه وصيحـة مـن قـد نعـاه علَـت
فقلـت فمـا واحـد قـد مضـى ولكنـه أمـة قـد خلـت

وليس في وصف محمود شاكر بأنه أمة وحده شيء من استرسال القلم بدواعي الشجن لحادثة الموت وفوت الأماني بطلب البقاء، فإن سيرة هذا الرجل تنطق بأنه واحد في هذا العصر، فلا يشبهه أحد من أدباء زماننا، وما ظنك بأديب قرأ كتب العربية في فنونها كلها، لا أستثني فناً ولا علماً. أقول قولي هذا غير شاك ولا متردد، فقد خالطت محمود شاكر ثلاثين عاماً، وخبرت سواده وبياضه، وعرفت علنه، وأطلعني على كثير من سره، ونظرت في مكتبته الضخمة فإذا على كل كتاب منها أثر قراءة ونظر وتعليق.

لقد ولد محمود شاكر في أول فبراير ١٩٠٩م، وتوفي في ٧ أغسطس ١٩٩٧م، فهذه ثمانية وثمانون عاماً، قضى منها سبعين عاماً في القراءة والنظر والكتابة، وهذا تاريخ موثوق به، فقد ظهر اسمه في أول عمل علمي سنة ١٩٣٧، حين صحح صفحات من كتاب «أدب الكاتب» لابن قتيبة، الذي أخرجه الشيخ محب الدين الخطيب في ذلك العام، وأشار إلى صنيع محمود شاكر في مقدمته، ومعلوم أنه التحق بكلية الآداب عام ١٩٢٦م، وقد اتصل بالعلم من قبل، فقد أخبرني رحمه الله أنه قرأ «لسان العرب» كله، و «الأغاني» كله، وهو طالب بالثانوي، فهل تظن أن أديباً من أدباء عصرنا قرأ هذين الأثرين، وهو في سن الثالثة عشرة أو الخامسة عشرة؟

---

(١) جريدة «الأهرام» (مصر)، ٢٢ أغسطس ١٩٩٧م.

وتروح أيام وتجيء أيام، ويظل محمود شاكر لصيقاً بالكتاب، لا يكاد يدير وجهه عنه. لقد ألقى محمود شاكر الدنيا خلف ظهره ودَبْر أذنيه، ولم يبال بإقبالها أو إدبارها، وفرغ للعلم والمعرفة، وقد أعانه على أمره عقل فذ، ونفس متوثبة، وأشياء كثيرة مركوزة في الطبع، مذخورة في أصل الخلقة، مما يصطفي الله بها خلقه من الأنبياء وأصحاب الرسالات وصناع الحضارات.

وقد كتبت عن محمود شاكر كثيراً، وحاولت أن ألتمس وجوهاً من الوصف تنبىء عن حقيقة حاله ومكنون أمره، وغاية ما انتهيت إليه أن الرجل رزق عقل الشافعي وعبقرية الخليل ولسان ابن حزم وجلَد ابن تيمية، بل إني رأيت أن ليس بينه وبين الجاحظ أحد في الكتابة والبيان، وكنت أرى أن كل هذا الذي قلته غير كاف في حقه، حتى وقفت على ما أريد من وصفه في كلام لأبي حيان التوحيدي، يقارن بين الجاحظ وابن العميد، يقول أبو حيان:

«إن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان، ولا تجتمع في صدر كل أحد، بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ. وهذه مفاتح قلما يملكها واحد، وسواها مغالق قلَّما ينفك منها أحد».

فهذا كلام مفصل على محمود شاكر تفصيلاً، ومصروف إليه صرفاً، ويزد عليه غيرته الشديدة على العربية ودفاعه الحار عنها، وخوضه تلك المعارك الرهيبة التي خاضها بقلب رجل صلب عنيد فاتك، وقد خاض معاركه كلها وحده، غير متحيز إلى فئة ولا منتصر بجماعة.

وبعد: فيا أبا فهر، أي علم باذخ طوي بموتك، وأي دليل هاد غاب برحيلك، وأي ضوء ساطع طفىء بغيابك، وأي حزن أسود نشب بالقلب بفقدك:

ما في الصحاب أخو وجد نطارحه ... حديث نجد ولا صب نجاريه

وليرحمك ويرحمنا الله.

* * *

أجمل كتاب في حياتي:
«البيان والتبيين» للجاحظ[1]

الكتب كالبشر، منها ما تعرفه ثم لا تُطيقه فتلفظه، ومنها ما تأنس به ساعة من نهار، وقد تؤمل فيه خيراً فتستبقيه في ركن من نفسك، علَّك أن تعود إليه يوماً، لكنك تكتشف من قريب أنه ليس بذاك فتعرض عنه، ومنها ما يخطف بصرك ويعلق بقلبك فإذا أنت منجذب إليه ومعقود به، لا تكاد تدير وجهك عنه، وكأنه «سالم» ذلك الذي يقول فيه أبوه عبد الله بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنهم:

يُديرونني عن سالم وأُديرهُمْ　　　وجلدةُ بين العين والأنف سالم

وكُتب أبي عثمان الجاحظ من هذه الطائفة الثالثة. وقد عرفت الجاحظ أيام الطلب، وكان أساتذتنا رضوان الله عليهم يعرّفوننا بأعلام تراثنا ويقدمونهم إلينا في صورة محفوفة بالجلال ملفقة بالمهابة، وكان تعريفهم لنا بهؤلاء الأعلام مقروناً بنصوص من كلامهم، يقرأونها علينا، ويخوضون بنا لججها، ويكشفون لنا عن أسرارها، فعرفنا العربية صافية قبل أن تكدرها الدلاء، فلم يكن الدرس الأدبي واللغوي في أيامنا غارقاً في ضباب المصطلح والنظرية، وتقويم الفكر العربي، وسائر تلك التهاويل الفارغة والدعاوى العريضة التي فتحت الباب للصغار يعبثون بتاريخهم وعلومهم!

ما علينا، عرفت في ذلك الزمان الجاحظ، مع من عرفت من أعلام النقد

(١) مجلة «الهلال»، سبتمبر ١٩٩٧م.

العربي: أبو الهلال العسكري، وأبو الحسن الآمدي، والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، والشيخ عبد القاهر الجرجاني، ثم كان من صُنع الله لي وتوفيقه إياي أن تخلُص أيامي للتراث العربي في فنونه المختلفة: ناسخاً للمخطوطات ومفهرساً لها ومحققاً لنصوصها، ثم كان من فضل الله وإنعامه علي أيضاً أن أتصل بأعلام التراث وناشريه: محمود محمد شاكر وعبد السلام هارون والسيد أحمد صقر ومحمد أبو الفضل إبراهيم وحسن كامل الصيرفي، وهؤلاء جميعاً فتحوا لي أبواباً من النظر، ودلّوني على فوائد من الكتب، ما كنت لأقف عليها وحدي. وهذه ثمار مجالسة أهل العلم والرواية عنهم، وهذا مما حُرم منه شباب هذه الأيام.

ولقد كان من وصاة شيخنا محمود محمد شاكر ــ عليه رحمة الله ــ أن نقرأ الكتب كاملة، وألاَّ نتعامل معها تعامل المراجع والمصادر، نأخذ حاجتنا ونمضي، كالطائر العجل يَحْسُو من الماء حُسوة ثم ينطلق في فضاء الله.

وكان من وصاته لنا أيضاً أن نقرأ كتب الأدب التي تعنى باللغة والنحو مثل: كتاب الكامل للمبرِّد، وأمالي أبي علي القالي، وشرح الحماسة للمرزوقي، ولكنه ــ رحمه الله ــ لم يكن يتحمس للجاحظ كثيراً، مع إجلاله له وحفاوته به، لأنه يرى أن الجاحظ يستطيل على الناس بذكائه، ويخدعهم بتصرفه في القول والبيان، ولعل الذي زهّد شيخنا في الجاحظ هو ميوله الاعتزالية، والشيخ كما هو معروف من أهل السنة والأثر، ولكني خالفت الشيخ رأيه في الجاحظ، ولعل هذه هي المرة الأولى التي أخالف فيها عن أمره، ألم أنشدك من قبل:

يُديرونني عن سالم وأديرهم ... وجلدة بين العين والأنف سالم

أسس حضارة فتية:

وُلد الجاحظ عام ١٦٠هـ بالبصرة، وتوفي بها عام ٢٥٥هـ، فهذه خمسة وتسعون عاماً ملأها الجاحظ بالقراءة والنظر والتأليف، ولم يُشغل عن ذلك كله بزوجة ولا ولد، وقد ساعدته على ذلك نفس طلعة، راغبة في المزيد، لا تقنع بما

حصلت، ولا تقف عند ما قاله الأوائل، روي عنه أنه قال: «إذا سمعت الرجل يقول: ما ترك الأول للآخر شيئاً فاعلم أنه ما يريد أن يفلح».

وتروى عنه حكايات كثيرة في شغفه بالعلم والتحصيل. يقول أبو هفان: «لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين (باعة الكتب) ويبيت فيها للنظر». وقد استغرقته القراءة حتى أنسته ما لا ينسى. روي عنه أنه قال: «نسيت كنيتي ثلاثة أيام حتى أتيت أهلي فقلت لهم: بم أكنى؟ قالوا: بأبي عثمان». (وهذا شبيه بما نقوله في أيامنا، في مقام التوعد والتهديد: والله أنسيك اسمك).

عاش الجاحظ النصف الثاني من القرن الثاني، والنصف الأول من القرن الثالث، وفي ذلك العصر بالتحديد والقطع ـ عصر هارون الرشيد وابنه المأمون ـ وُضعت أصول العلوم العربية، فالبصرة والكوفة وبغداد ومصر ودمشق وقرطبة وسائر عواصم الإسلام تغلي وتموج بالرواية الشفوية والسماع والتلقي والتدوين، وقد تم نقط المصحف الشريف، وثبتت قراءاته المتواترة عن رسول الله المنزل عليه ﷺ، وعلماء الحديث يجمعونه، ويؤسسون فيه هذا العلم الشامخ «الجرح والتعديل»، وهو أساس القَبول والرد، ويأتي البخاري ومسلم وبقية الستة من أصحاب الجوامع والمسانيد.

وفي ذلك الوقت أيضاً يظهر الأئمة الأربعة، ويدوّنون الفقه الإسلامي: مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل، وينفرد الشافعي من بينهم بتأسيس علم أصول الفقه، ويضع فيه مؤلفه الشهير «الرسالة»، ثم يقيم الخليل بن أحمد أساس أول معجم عربي «العين»، ثم يهتدي إلى ضبط أنغام الشعر وبحوره، ويؤسس فيه علماً لم يسبق إليه، وهو «علم العروض» الذي يسميه بعض أهل زماننا «موسيقى الشعر»، وما هي إلا «العروض»، فلا تُسمِّه بغير هذا!

وينهض تلميذ الخليل: سيبويه، فيضع «الكتاب» في علم النحو.

وينشط الإخباريون بتدوين ما وصل إليهم من أخبار الأمم الماضية، والسيرة النبوية وأخبار الصحابة والتابعين، مثل وهب بن منبه وعبيد بن شرية ــ وهذان كانا في عصر بني أمية ــ والواقدي وكاتبه محمد بن سعد، ومحمد بن إسحاق، وعبد الملك بن هشام، ومحمد بن حبيب، وأبي الحسن المدائني، والزبير بن بكار.

ويأتي جامعو اللغة والشعر وشُرَّاحه ونُقَّاده: يونس بن حبيب، وأبو عمرو بن العلاء، وأبو عمرو الشيباني، ومحمد بن سلاّم الجمحي، وأبو عبيدة، والأصمعي، وأبو زيد الأنصاري، بحار علم جاشت أمواجها وأزبدت وتدفقت.

ويتألق فرسان الترجمة من اليونانية: جبريل بن بختيشوع، ويوحنا بن ماسويه، ويوحنا البطريق، وحنين بن إسحاق، وثابت بن قرّة. ومعظم هؤلاء قد ولي الترجمة في أيام الرشيد والمأمون، وقد كانت صلتهم بالعربية قوية، فيُروى أن «حنين بن إسحاق» ــ وكان فصيحاً جداً في اليونانية ــ لزم الخليل بن أحمد حتى برع في لسان العرب، وهو الذي أدخل كتاب «العين» بغداد، كما يقول ابن جلجل في طبقات الأطباء والحكماء.

فهذه أسس حضارة كاملة، قامت ماتعة فتية في نحو مائة وخمسين عاماً، فأيُّ زمن هذا؟ وأية أمة هذه؟

عاش الجاحظ ذلك العصر كله، وقرأ آثاره كلها، وروى عن رجاله وأعلامه، واستوعب حصاده كله، وأتاه حقه فأودعه جميعه في مؤلفاته الكثيرة، التي يقول عنها المسعودي: «لا يُعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه». وقد أحصى ياقوت الحموي من مؤلفات الجاحظ مائة وثمانية وعشرين مصنفاً، طبع منها: الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء والعثمانية والبرصان والعرجان والعميان والحولان، والرسائل، والتاج في أخلاق الملوك (المنسوب إليه).

التصاق الفن بالنفس :

وأنت حين تقرأ كتب الجاحظ هذه إنما تقرأ ثقافة القرون الثلاثة كلها ــ رواية وتدويناً ــ وهذا شأن الكاتب الكبير، يفتح منفذاً يُفضي إلى منافذ، ويشق باباً يدل على أبواب.

وأحسب أني لو تركت القلم يسترسل في وصف علم الجاحظ وأدبه لما انتهيت إلى غاية، فحسبي هنا أن أنقل كلام ذلك العالم الجليل المجهول القدر الدكتور طه الحاجري، رحمه الله، يقول في مقدمة تحقيقه لكتاب البخلاء: «كان الجاحظ إماماً من أئمة الكلام، وزعيماً من زعماء المعتزلة، وصاحب نحلة من نحلهم، وكان عالماً محيطاً بمعارف عصره، لا يكاد يفوته شيء منها، سواء في ذلك أصيلها ودخيلها، وسواء منها ما كان إلى العلم والتحقيق، وما كان إلى الأخبار والأساطير، وكان راوية من رواة اللغة وآدابها وأخبارها، غابرها ومعاصرها، واسع الرواية، دقيق المعرفة، قوي الملكة في نقد الآثار وتمييزها، ولكنه كان فوق هذا كله كاتباً أديباً بكل ما تتضمنه هذه الصفة من رهافة في الحس، وخصوبة في الخيال، وقوة في الملاحظة، ودقة في الإدراك، وقدرة على التغلغل في دقائق الموجودات، واستشفاف الحركات النفسية المختلفة، وتمكن من العبارة الحية النابضة، والتصوير الكاشف البارع الذي يبرز الصورة بشتى ملامحها وظلالها، في بساطة ودقة وجمال».

وهذه النزعة الفنية التي غلبت على الجاحظ، ووسمت أعماله كلها، ترجع كما يقول الدكتور الحاجري إلى «طبيعة الفن الجميل، من شدة لصوقه بالنفس وتأثيره في الوجدان، وقدرته على مغالبة تقلبات الرأي ومذاهب الحياة، وترجع إلى قوة المزاج الفني وغلبة النزعة الفنية عند الجاحظ»، انتهى كلام الدكتور الحاجري.

وهذه النزعة الفنية هي التي خففت من جفاف تلك المباحث الكلامية التي شحن بها الجاحظ مؤلفاته، وكذلك ما حشده من المعارف والنظريات العلمية السائدة في عصره.

يقول أبو الحسن المسعودي: «وكتب الجاحظ ــ مع انحرافه المشهور ــ (يريد ما كان عليه من الاعتزال وعداوة الشيعة، وكان المسعودي شيعيّاً) تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوّف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة»، مروج الذهب ٤/ ١٩٥.

ويبرز من بين مؤلفات الجاحظ كتابه «البيان والتبيين» معلماً ضخماً من معالم كتب العربية، وباباً واسعاً من أبواب الفكر العربي. ولهذا الكتاب في حياتي أثر ضخم، فهو الذي قادني إلى كتب الجاحظ الأخرى، فقرأتها كلمة كلمة، ولم أتعامل معها تعامل المراجع الخاطفة، ثم هو الذي جذبني إلى كتب العربية الأخرى، ومن قبل ذلك ومن بعده فهو الذي أذاقني حلاوة البيان العربي، وهو الذي هداني إلى هذه الأنغام الجليلة الفخمة المترقرقة من مختار الكلام: شعراً موزوناً معقوداً بقواف محكمة، ونثراً مصقولاً مسنوناً يتهادى بالحرف العربي مشرقاً وضيئاً متسقاً لينصبَّ في السمع، ويتولَّج في القلب، فيحدث تلك النشوة الغامرة، ويمتع بذلك الطرب المؤنس الودود.

ترك الأستاذ على جهله:

والكتاب في وصف بعض الأقدمين يُصنَّف ضمن علوم البلاغة بمعناها الواسع، لا بمعناها الذي حُصر فيما بعد بالمعاني والبيان والبديع. يقول أبو هلال العسكري: «وكان أكبرها وأشهرها ــ يعني كتب البلاغة ــ كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جمّ المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفِقر اللطيفة، والخطب الرائعة والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة» الصناعتين ص ٥.

ويقول ابن رشيق القيرواني ــ وهو يُعرِّف علم البيان ــ: «وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ ــ وهو علامة وقته ــ الجهد، وصنع كتاباً لا يبلغ جودة وفضلاً،

ثم ما ادعى الإحاطة بهذا الفن لكثرته، وأنه كلام الناس وأنفاسهم، لا يحيط به إلا الله عزَّ وجلّ»، العمدة ١/ ٤٤١.

ويقول المسعودي ـ وهو يعدد كتب الجاحظ ـ : «منها كتاب البيان والتبيين، وهو أشرفها، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به»، مروج الذهب ١٩٦/٤.

وقد وضعه ابن خلدون ضمن علوم الأدب بمعناه الواسع أيضاً، فقال قولته السائرة: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر ـ يعني الأمالي ـ لأبي علي القالي البغدادي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها»، مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٣.

والكتاب بذلك الوصف دائر على مباحث في البيان والبلاغة والخطابة والشعر والأسجاع، مع ما يصحب ذلك كله من عرضه لنماذج من الوصايا والرسائل وطائفة من كلام النساك والقصاص وكلام الحمقى ونوادرهم، ثم بعض الاختيارات البلاغية من الكلام الموثق المنسوب.

وأخشى أن يسرع بك الظن أيها القارىء المبتدىء فتظن أن ذلك الكتاب من كتب الأسمار والتسلية والنوادر وإزجاء الفراغ، وأنه صورة من صور اهتمام أدباء العرب بالجزئي دون الكلي، كما يزعم الزاعمون! وليس الطريق هنالك، إن الجاحظ مفكر قبل أن يكون أديباً، حكى شمس الدين بن خلكان، عن أبي القاسم السيرافي، قال: «حضرنا مجلس الأستاذ أبي الفضل بن العميد الوزير، فجرى ذكر الجاحظ، فغض منه بعض الحاضرين وأزرى به، وسكت الوزير عنه، فلما خرج الرجل قلت له: سكت أيها الأستاذ عن هذا الرجل في قوله مع عادتك في الرد على أمثاله! فقال: لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله، ولو واقفته (جاء في وفيات الأعيان: وافقته، بتقديم الفاء على القاف، وهو خطأ، وصوابه بتقديم القاف على الفاء) وبينت

له لنظر في كتبه وصار بذلك إنساناً يا أبا القاسم، فكتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً، فلم أستصلحه لذلك»، وفيات الأعيان ٣/ ٤٧٣.

وهذا كلام عال نفيس، فكتب الجاحظ تعلم العقل قبل الأدب، وقد أخذ من ذلك الأستاذ شفيق جبري عنوان كتابه: «الجاحظ معلم العقل والأدب»، وكذلك تعلم العقل كتب أصحاب البيان الآخرين، مثل أبـي حيان التوحيدي، الذي يقول عنه الدكتور زكي نجيب محمود: «إنه يعمق بالفكرة ويزخرف باللفظ»، ولكن كثيراً من نقادنا المحدثين قد اصطنعوا فجوة بين الفكر والبيان، وأقاموا حجازاً عالياً بين قضايا العقل والإحسان في تأدية المعاني والإبانة عنها، وقد تسلل هذا الفصل إلى عقول الناشئة فيما يقدم إليهم من الفرق بين الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبـي.

ومن ثم فقد حكم هؤلاء النقاد على مصطفى صادق الرافعي ومحمود محمد شاكر، وإبراهيم عبد القادر المازني، ومن إليهم من المحسنين في الأداء، المجيدين في طرائق الكلام، بأنهم بمعزل عن الفكر، وأن بضاعتهم لا تخرج عن الزخرف من القول، والموشى من الكلام. ولعل هذا أحد أسباب الغموض والظلام الذي يشيع في كتابات بعض الأدباء الآن. وقد امتد هذا البلاء إلى مجال الغناء والطرب، فأصبحنا نسمع عن الفرق بين «المؤدي» و «المطرب» وإعلاء شأن المؤدي، والإزراء بالمطرب، لأن المؤدي هو الذي يلتزم باللحن، ولو كان صوته خشناً غليظاً منكراً، وأن المطرب مردد، ولو ظفر من حلاوة الصوت بأوفر الحظ والنصيب! وبالله نستدفع البلايا! (إنتوا عاوزين تعملوا فينا إيه يا جماعة؟ حرمتونا من حلاوة الكلام، والآن تحرمونا من حلاوة الصوت).

وقد عرض الجاحظ في كتابه لقضايا من اللغة، فتحدث عن مخارج الحروف، وأثر اكتمال الأسنان أو نقصها في البيان، وأثر لحم اللثة في النطق، وذكر الحروف التي تدخلها اللثغة، وأي اللثغة أشنع وأيها أظرف. وذكر لكل ذلك المثل والمثلين. وقد أشار إلى طريف من لغة الأطفال، فقال: «والميم والباء أول ما يتهيأ في أفواه الأطفال، كقولهم: ماما وبابا»، البيان والتبيين ١/ ٦٢.

وقد صار ما أورده الجاحظ من كلام الفصحاء والخطباء، وما أنشده للشعراء المقلّين والمكثرين، مدداً لجامعي اللغة وأصحاب المعاجم، فهو قريب عصر بالرواية، مع حافظة واعية تجمع كل شاذة وفاذة.

كتاب شامل للحضارة العربية:

وقد اتسع كتاب البيان والتبيين أيضاً لكثير من أوجه الحضارة العربية، مثل نظم العرب الاجتماعية والسياسية والمالية والخلقية والتعليمية.

وكنت على أن أذكر لك أيها القارىء الكريم شيئاً من حلاوة الكلام في كتابنا هذا: البيان والتبيين، لكني رأيت المقام لا يتسع له، فحسبي أن أنقل لك هنا فاتحته وخاتمته، وحسبك بهما دليلاً على حسن البيان، وجمال الأداء، يقول الجاحظ: «اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلُّف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العُجب بما نحسن، ونعوذ بك من السلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العي والحصر، وقديماً ما تعوَّذوا بالله من شرهما، وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما».

ثم يقول في خاتمته: «وهذا أبقاك الله آخر ما ألفناه من كتاب «البيان والتبيُّن» (هكذا بياء واحدة مشددة، وراجع ما كتبته في عدد الهلال الماضي) ونرجو أن نكون غير مقصرين فيما اخترناه من صنعته، وأوردناه من تأليفه. فإن وقع على الحال التي أردناها، وبالمنزلة التي أمَّلنا، فذلك بتوفيق الله وحسن تأييده، وإن وقع بخلافها، فما قصرنا في الاجتهاد ولكن حرمنا التوفيق، والله سبحانه وتعالى أعلم».

هذا، ولقد كان من فضل الله وإنعامه أن يسّر لكتاب الجاحظ عَلَمين من أعلام العصر، وقفا على تراث الجاحظ، وأعطياه حظه من النظر والفقه والصبر، وبذلا غاية الوسع والطاقة في تحريره وتحقيقه والتعليق عليه، ثم ألبساه حلة العصر بذلك الإخراج المعجب الأنيق، والفهارس الفنية الكاشفة: عنيت أستاذي العلامة عبد السلام محمد هارون، والأستاذ الجليل الدكتور طه الحاجري، برّد الله مضاجعهما، وأنزلهما منازل الأبرار، وقد نشر الأول من تراث الجاحظ: الحيوان

(ثمانية مجلدات)، والبيان والتبيين (أربعة مجلدات)، والرسائل (أربعة مجلدات، تشتمل على ٤٥ كتاباً ورسالة) والعثمانية، والبرصان والعرجان. ونشر الثاني: البخلاء بمقدمة نفيسة جداً عن النزعة الفنية عند الجاحظ، ثم أبرز الخصائص الفنية في كتاب البخلاء.

وبعد: فلم يبق إلا هذا الرجاء الصادق، أسوقه لزملائنا مدرِّسي العربية في كليات الجامعات ومعاهدها: أن يلتفتوا التفاتة جادة إلى أدب الجاحظ، وبخاصة ذلك الكتاب: البيان والتبيين، وأن يجعلوا من نصوصه نصيباً مفروضاً على تلاميذهم، فقد استقامت بهذا الكتاب ألسنة، وارتقت عليه أذواق، واستوت به ملكات، وكفانا إعراضاً وتجافياً عن موروثنا العظيم، وإنما يغفل الناس عن تراثهم بتلك الغشية التي تصيب الأمم في فترات ضعفها، فتذهل عن ماضيها، ثم لا تقنع بذلك الذهول حتى تضم إليه السخرية منه والتحقير له، وإنما يأتي ذلك كله من الاستخذاء والشعور بالدونية والقهر والغلبة والمسخ والتشويه. وربنا كاشف كل كرب وبلية.



أيُّ شلّال هادر توقَّف![1]

في الساعة الخامسة من عصر يوم الخميس ٣ من ربيع الآخر ١٤١٨هـ ـ ٧ من أغسطس ١٩٩٧م دُعي محمود شاكر فأجاب، وبعد نصف ساعة من انتقاله للرفيق الأعلى كنت على رأسه ألقنه الشهادتين، ثم دارت بي الأرض وأنا أنظر إلى هذا الجسد الساكن وقد صرعه الموت، وهو الذي غالب المحن وصارع الشدائد، فلم تلن له قناة، ولم يخفت له صوت، ولم يرتعش في يده قلم، حتى جاءه القاهر الذي لا يُغلب. ثم نظرت إليه أخرى وقلت: أي صوت مجلجل سكت، وأيُّ شلال هادر توقف، وأي نبع عذب غاض، وأي نبت مزهر صوَّح، وأي ركن جليل ساخ، وأي فارس فاتك ترجَّل؟

ثم تذكرت أبيات مطيع بن إياس، يرثي يحيى بن زياد الحارثي:

وينادونه وقد صمَّ عنهم	ثم قالوا وللنساء نحيبُ
ما الذي غال أن تحير جوابا	أيها المصقع الخطيب الأديبُ
فلئن كنت لا تحير جواباً	فبما قد ترى وأنت خطيبُ
في مقال وما وعظت بشيء	مثل وعظ بالصمت إذ لا تجيبُ

وحين جاء الرجال لينقلوه إلى حيث يشيَّع، وتناولوه من جانبيه لان لهم وانقاد، وهو الذي كان عصياً أبياً، ثم تذكرت كلمة معاوية وهو في النزع يُحتضر، يقول لابنيه وهما يقلبانه: «إنكما لتقلبان قُلَّباً حُوّلاً». والقُلَّب: الرجل العارف

(١) مجلة «العربي»، العدد ٤٦٩، ديسمبر ١٩٩٧م.

بالأمور، الذي ركب الصعب والذلول، وقلب الدنيا ظهراً لبطن، والحُوَّل: ذو التصرف في الأمور، وكذلك كان محمود شاكر.

ثم اعتراني ما يعتري الناس من غم، وركبني ما يركبهم من هم، لفقد الأحباب وغياب العلماء، وبذهابهم يذهب العلم، على ما جاء في الأثر: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء». ولكن ماذا نصنع وكل حي إلى فناء، وكل جديد إلى بلى، والملجأ الله، منه يأخذ المحتسب، وإليه يرجع الجازع.

ولقد كتبت عن محمود شاكر غداة وفاته، وكتبت عنه من قبل، وأبنت عن تاريخه الحافل مع العربية: تحصيلاً لها وإحاطة بها، وذوداً عنها، ومنافحة دونها، وكشفاً لأسرارها، مما تفرد به ولم يدانه فيه أحد من أدباء جيله، لكني أستسمح القارىء الكريم أن أعيد كلمة كنت قد كتبتها بالأمس القريب، تلك كلمة أبـي حيان التوحيدي، يقارن بين الجاحظ وابن العميد: «إن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان، ولا تجتمع في صدر كل أحد، بالطبع والمنشأ والعمل والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ. وهذه مفاتح قلما يملكها واحد، وسواها مغالق قلما ينفك منها أحد».

فاقرأ هذا الكلام العالي، وأعطه حظه من النظر والتأمل، ثم نزِّله على محمود شاكر ــ إن كنت تعرفه معرفتي ــ وستراه مفصلاً عليه تفصيلاً، ومصروفاً إليه صرفاً. وللناس أن يتكلموا عن علم محمود شاكر وجهاده، ما شاء الله لهم أن يتكلموا، فالحوض ملآن والنفس جياشة، ولكن الحديث عن مجلسه مما ينبغي الوقوف عنده وتأمله! فأيُّ رجل كان محمود شاكر؟ وأيُّ مجلس كان مجلسه؟ وأيُّ أنس كان يشيع في هذا المجلس؟ وأيُّ علم كان يتفجر في رحابه؟

لقد قلت في بعض ما كتبت: إنه لم يحظ أحد من أدباء هذا الجيل بمعشار ما حظي به محمود شاكر، من الالتفاف حوله والأخذ عنه والتأثر به: طوائف من الناس من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات، ضمهم بيته المفتوح دائماً، وقد خلا من

الرسميات والمواعيد المضروبة من قبل. يقول الأستاذ فتحي رضوان، في وصف ذلك البيت الشاكري:

«كان بيته ندوة متصلة لا تنفَضّ، من أعضائها الثابتين: يحيى حقي، إذا حضر من أوروبا، وعبد الرحمن بدوي، وحسين ذو الفقار صبري، وغيرهم وغيرهم، ولم يكن من حظِّي أن أكون عضواً دائماً فيها، فقد كنت ألمّ بهم أحياناً، فأراهم وأرى من العالم العربي كله، ومن العالم الإسلامي على ترامیه، شخصيات لا حصر لها، تتباين بعضها عن بعض، في الرأي والمظهر والثقافة واللهجة والشواغل والمطامح، ولكنها تلتقي كلها عند محمود شاكر، تسمع له وتأخذ عنه وتقرأ عليه وتتأثر به. وكلما كان من حظي أن أشهد جانباً من هذه الندوة أحسست بسعادة غامرة، أن يبقى ركن في بلدي كهذا الركن، ينقطع أصحابه للفكر والدرس والتحدث في أمور لا تجد من يسمع بها أو يعرف عنها شيئاً في مكان آخر».

وإذا كان الأستاذ فتحي رضوان قد ذكر من عرفهم من أعلام المفكرين والأدباء، الذين كانوا يختلفون إلى بيت محمود شاكر، في الخمسينيات وما قبلها، فإني ذاكر أيضاً من عرفتهم في هذا المجلس العامر، على امتداد الستينيات والسبعينيات: عبد الرحمن صدقي وعلي أدهم وحسن كامل الصيرفي ومحمود حسن إسماعيل ووديع فلسطين وعلي أحمد باكثير ويوسف شوقي وعبده بدوي.

ومن أعلام العرب وأدبائه: أحمد المانع، وناصر الدين الأسد، وأحمد راتب النفاخ، وإحسان عباس، وشاكر الفحام، وإحسان النص، ومحمد يوسف نجم، ووليد عرفات، وعبد القدوس أبو صالح، وعبد الله الطيب المجذوب، وحمد الكبيسي، ونوري القيسي، وعبد الله الجبوري، وهاشم الطعان، وبشار عواد معروف، وإبراهيم السامرائي، ويعقوب الغنيم وأخواه عبد الله ومرزوق، وجمعة الياسين، وصالح العثمان، وعبد الله العيسى، وعبد الله عسيلان، وإبراهيم شبوح، ومحمد بن شريفة، وعبد السلام الهراس، والحبيب اللمسي.. فهل وجدت هؤلاء قد اجتمعوا يوماً عند أديب من أدباء مصر! ثم يتسع المجلس أيضاً للطلاب

المبتدئين، والشباب المعيدين.

ولقد يجتمع الناس في ندوة أديب من الأدباء، ثم تنفض الندوة وينفرط عقدها، ويذهب كل في طريق، وكأنهم كانوا رفقاء رحلة عابرة. ولكن مجلس محمود شاكر يختلف عن غيره من المجالس، بما يشيع فيه من أنس وود وبهجة، وما تنعقد فيه من صداقات عذبة حميمة، يغذيها وينميها صاحب المجلس.

أما المناقشات العلمية والمحاورات الأدبية فلكل امرىء منها حظ مقسوم، لا ينفرد بها صاحب الدار، ولا يستبد بها الكبار، فالكل في هذا المجلس سواء، والكل يتكلم ويشارك، ولم يكن صاحب المجلس يستريح للأحاديث الجانبية أو ثنائية الحوار، فما يكاد يرى اثنين يتحدثان منفردين حتى يتدخل بينهما قائلاً: «أنتوا بتقولوا إيه»، وكأنما يريد أن يقطع عليهما طريق الانفراد، ولا شك أنه كان يصدر في هذا عن روح الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر ــ حتى تختلطوا بالناس ــ من أجل أن ذلك يحزنه». بل إن مائدة الجمعة والموائد الأخرى الحافلة كيوم عاشوراء، الذي كان يوافق مولد صاحب الدار بالتاريخ الهجري، هذه الموائد كانت تجمع إلى أهل الأدب والفكر بعض أهل الحرف والصناعات الذين كان لهم بالبيت وصاحبه صلة وتاريخ، كالمجلد والنجار والحلاق.

ومن طريف ما يُذكر هنا ما رواه لي أبو فهر رحمه الله، قال: «في يوم جمعة، في أوائل ثورة يوليو كان يجلس على مائدة الغداء: محمد رشاد مهنا، والشيخ أحمد حسن الباقوري، ومحمد فؤاد جلال، وكان يجلس على المائدة نفسها الأسطى أنور الحلاق. وفي صباح اليوم التالي اتصل بـي الشيخ الباقوري وقال لي إن محمد فؤاد جلال ــ وكان وزيراً للشؤون الاجتماعية ــ عاتب عليك لوجود الأسطى أنور بيننا. يقول أبو فهر: وفي الجمعة التالية قلت لمحمد فؤاد جلال: اسمع يا فؤاد أنت وزير هناك في مجلس الوزراء، ولكنك هنا في بيتي واحد من عامة الناس، مثلك مثل الأسطى أنور وغيره».

لقد صحبت محمود شاكر ثلاثين عاماً، وما زلت أذكر أول يوم زرته فيه، وكنت في صحبة الأخ العلامة الكبير أحمد المانع أحتمي به من مشاعر الهيبة والخشية والحذر، من تلك الحدة المزعومة في شخصية محمود شاكر، وهو شعور عرفناه جميعاً قبل أن ندخل البيت، وحين توثقت صلتنا بالشيخ اكتشفنا زيف هذا الشعور، وكذب تلك المزاعم التي أشاعها بعض الناس ليصدوا أهل العلم عنه، وإذا نحن أمام قلب طاهر نقي، يغضب ويثور حين يرى حداً من حدود العلم قد انتهك، أو حين يسمع تطاولاً على تاريخ الأمة العربية وعلومها.

وبعد: فالكلام عن محمود شاكر لن ينتهي بنهاية هذه الكلمة، وسيظل هذا الرجل أثراً ضخماً في ضمير هذه الأمة: حراسة للعربية وذوداً عنها، وبصراً بها، وإضاءة لها. وإن أحق ما يقال عن محمود شاكر هنا وفي كل وقت وحين ما قاله هو عن أستاذه مصطفى صادق الرافعي: «بأن الرافعي قد صار ميراثاً نتوارثه، وأدباً نتدارسه، وحناناً نأوي إليه»، وكذلك يكون محمود شاكر «ميراثاً نتوارثه»، إلى آخر ما قال في حق شيخه الرافعي.



«تاج العروس».. والزمن البعيد[1]

كتب الأستاذ سامح كريم في «الأهرام الأدبـي» من الأسبوع الماضي كلمة سمَّاها: «تاج العروس والاهتمام بتراث الأجداد»، وقد نشر بهذه الكلمة أمجاداً وآثاراً وأشجاناً.

أما الأمجاد فقد تجلَّت في شخصية أبـي الفيض المرتضى محمد بن محمد الهندي مولداً، الزَّبيدي ــ بفتح الزاي ــ اليمني نشأة، المصري حياة ووفاة. وهو علم من أعلام النهضة العربية في القرن الثاني عشر الهجري ــ الثامن عشر الميلادي (توفي سنة ١٢٠٥ هـ يوافق ١٧٩٠ م) أي قبل دخول نابليون بحملته مصر بثماني سنوات.

وهذه الحقبة من الزمان يصنِّفها بعض أهل زماننا بعصور الظلام والاحتلال العثماني لمصر، وواقع تاريخنا الفكري يقول غير هذا.

ففي ذلك الزمان وما قبله ببعض العقود، شهدت الساحة العربية أعلاماً كباراً، جمعوا تراث العرب وأضاءوه وأحيوه ونفخوا فيه. يذكر التاريخ منهم: عبد القادر البغدادي صاحب «خزانة الأدب»، والشوكاني صاحب «فتح القدير»، و «نيل الأوطار»، وصاحبنا الزَّبيدي في كتابه «تاج العروس»، و «إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين».

ويُعد «تاج العروس» أكبر معجم عربـي فاق «لسان العرب» لابن منظور، فقد بلغ مجموع جذور اللسان (٩٢٧٣) جذراً، على حين بلغ مجموع جذور التاج

(١) جريدة «الأهرام» (مصر)، ١٧ فبراير ١٩٩٨م.

(١١٩٧٨) جذراً، ومن وراء ذلك فإن لتاج العروس أهمية أخرى، وهو أنه عني إلى جانب اللغة بضبط المشتبه من الأعلام والأنساب والألقاب، كما عني بكتب الطب والنبات وسائر المعارف العامة. ثم كانت له عناية فائقة بالبلدانيات والجغرافية العربية، وبخاصة جغرافية اليمن ومصر، وما أكثر المواضع في هذين البلدين التي يقول فيها: رأيتها أو شاهدتها ـ انظر على سبيل المثال مادتي: شبر ـ حلل، وتأمل أسماء البلاد «شبرا ـ والمحلة»، فقد أحصاها عدداً، وذكر أنه رأى بعضها ودخلها.

لكل هذه الأسباب اتجهت أنظار الناشرين مبكراً إلى طبع هذا الكتاب الجليل، فكانت أول طبعة له طبعة جمعية المعارف بمصر من سنة ١٨٦٨م ـ ١٨٧٠م. لكنها طبعت خمسة أجزاء فقط. ثم توقفت. وبعد ذلك خرجت منه طبعة كاملة في عشرة مجلدات كبار سنة ١٨٨٨م بالمطبعة الخيرية لصاحبها عمر حسين الخشاب [وهو جد الدكتور يحيى الخشاب رحمه الله].

ويذهب زمان ويجيء زمان، وفي أوائل الستينات الميلادية تقوم وزارة الإرشاد والأنباء بدولة الكويت بمشروع عظيم لنشر كتب التراث، وقد أعدت لهذا المشروع عدته، فاختارت نصوصاً عالية، ومحققين كباراً.

ثم كانت الوثبة الكبرى في نشر تاج العروس للزَّبيدي، فوزعت أجزاؤه على طائفة من المحققين الأثبات، وصدر الجزء الأول منه سنة ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م.

وهذا هو موضع الأشجان من كلمة الأستاذ سامح كريم، لقد قدر لهذا الكتاب أن يكون في أربعين مجلداً، وقد تم تحقيق هذه المجلدات كلها، لكن الذي تم طبعه منها إلى الآن تسعة وعشرون جزءاً فقط، وبقي أحد عشر جزءاً.

ولمَّا كنا الآن في سنة ١٩٩٨م، فيكون قد مضى على صدور الجزء الأول ثلاثة وثلاثون عاماً، وهو زمن بعيد جدّاً، فقد صار «العروس» شيخاً، وأوشك «التاج» أن يسقط من فوق رأسه، وهذا التراخي في إخراج كتاب هو من عمد تراثنا اللغوي لا يقبل من دولة تملك المال، وتعرف للثقافة حقها وتقدر العلم قدره، ولها في نشر العلم والتنمية الثقافية مكان ومكانة.

إن مطبعة بولاق بمصر قد أخرجت طبعة محررة من «لسان العرب» لابن منظور في عشرين مجلداً، في خلال ثماني سنوات من سنة ١٣٠٠هـ إلى سنة ١٣٠٧هـ، وكذلك أخرجت مطبعة بولاق كتاب «المخصص» لابن سيده، في سبعة عشر مجلداً، في ست سنوات، من سنة ١٣١٦هـ إلى سنة ١٣٢١هـ، ولم يكن هناك كمبيوتر ولا جمع تصويري، ولكنها عزائم الرجال وصلاح الأزمان!

إن مهمة طبع «تاج العروس» قد انتقلت من وزارة الإعلام إلى المجلس الوطني للثقافة، فهل يطلب الأستاذ سامح كريم من صديقه الأمين العام للمجلس الدكتور سليمان العسكري أن يفزع ويفرغ لهذا الكتاب العظيم، إن الأجزاء الباقية منه لن تأخذ أكثر من حولين كاملين لمن أراد أن يتم هذا العمل الجليل، والله الهادي والمعين.

* * *

مطبعة للمنشورات.. وليست للثقافة[1]

تشتجر الأقلام الآن حول الحملة الفرنسية وأثرها على مصر؛ فمن قائل إنها جاءتنا بالمنِّ والسلوى، وأنها أزالت عنا غواشي الظلم، واستنقذتنا من قرابة التخلف وردغة الخبال، ومن قائل إنها مرَّغتنا في التراب وسامتنا سوء العذاب، وتوسَّط فريق ثالث فقال عن الحملة ونابليون إنهما جاءانا بشيء من النفع، وإثمهما أكبر من نفعهما.

لكن الذي يعنيني هنا قصة تلك «المطبعة» التي أتى بها نابليون. لقد ضخم الناس من أمر هذه المطبعة تضخيماً، ورأوا أنها فتحت لنا طريق العلم والمعرفة. وحقيقة الأمر أن هذه المطبعة لا تعدو أو توشك أن تكون «آلة كاتبة» كبيرة، أحضرها نابليون معه لطبع منشوراته وأوامره باللغة العربية.

وكانت هذه المطبعة الصغيرة تعمل وهي على السفينة في عُرض البحر، وحين اقتحم نابليون ثغر الإسكندرية قام رجال حملته بتوزيع المنشورات والأوامر التي أعدوها في البحر، وأطلق على هذه المطبعة الصغيرة آنذاك اسم «المطبعة الأهلية»، ثم نقلت إلى القاهرة ووضعت في «بيت السناري» بحي السيدة زينب، وقد طبع نابليون على تلك المطبعة الصغيرة إلى جانب المنشورات والأوامر: أمثال لقمان الحكيم، ثم بعض رسائل في النصائح الطبية؛ استمالة لقلوب المصريين واجتلاباً لرضاهم.

---

(١) جريدة «الأهرام» (مصر)، ١٤ أبريل ١٩٩٨م.

وقد طبعت على تلك المطبعة أيضاً محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر، ووضع اسم المطبعة على الغلاف هكذا «مطبعة الجمهور الفرنساوي ١٧٩٩م ـ ١٨٠٠م»، ولم تطبع هذه المطبعة الصغيرة بعد ذلك شيئاً ذا بال، ولا غير ذي بال.

ومهما يكن من أمر، فقد طويت صفحة هذه المطبعة وخرجت من مصر، وعادت إلى فرنسا، كما ذكر الدكتور خليل صابات، والدكتور أبو الفتوح رضوان.

لكن الجديد في هذه القضية أن الدكتور قاسم السامرائي، العالم العراقي والأستاذ بجامعة ليدن بهولندا ذهب إلى أن هذه المطبعة التي جاء بها نابليون إلى مصر، إنما هي مطبعة «آل ميدتشي» بروما، أخذها نابليون من إيطاليا أيام غزوه لها، وحين دخل الإنجليز مصر، وأخرجوا من بقي بها من الفرنسيين، أخذ هؤلاء تلك المطبعة، وأعادوها إلى مكانها الأول في إيطاليا، وما زالت بقايا هذه المطبعة محفوظة بمدينة «فرنزة» في مقاطعة «بروفاونس» بإيطاليا. وهذا الدكتور قاسم السامرائي ثقة مصدق؛ لأنه خبير في الوثائق وتاريخ الكتاب (مخطوطاً ومطبوعاً)، وله دراية عظيمة بالاستشراق والمستشرقين.

فإذا ثبت هذا ـ وهو ثابت إن شاء الله ـ فيكون قول أحد كتابنا عن محاسن الحملة الفرنسية: «إن المدفع ذهب وبقيت المطبعة» قولاً غير صحيح، وفيه من خداع الكلام واللعب بالألفاظ ما لا يغني شيئاً.

على أنه مما ينبغي التنبه له والتنبيه عليه أن المطبعة قد عرفت في الشرق قبل مولد نابليون، وكانت «مطبعة حلب» أول مطبعة عربية في الشرق كله، وقد ظهر أول إنتاج لها عام ١٧٠٦م (ولد نابليون سنة ١٧٦٩م).

وقد أطلعني الدكتور محمد هيثم الخياط العالم السوري الحجة، على صورة غلاف لبعض مطبوعات هذه المطبعة الرائدة في هذه الفترة المتقدمة. وانظر معلومات

أكثر في مقالة للدكتور وحيد قدورة التونسي بعنوان: «أوائل المطبوعات العربية في تركيا وبلاد الشام»، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي ١٩٩٦م.

ولا يبقى إلا القول إن المطبعة التي أضاءت الدنيا كلها إنما هي «مطبعة بولاق» التي أنشأها محمد علي باشا، سنة ١٨١٩م، أو ١٨٢١م، بأيدي المصريين وبهيمنة مشايخ الأزهر، مثل الشيخ نصر الهوريني، والشيخ محمد قطة العدوي، وتفصيل ذلك كله في كتابي: «الكتاب المطبوع في مصر في القرن التاسع عشر».

* * *

كمال النجمي.. والثغور التي تتساقط[1]

عرفته في أوائل الستينيات، وكنت يومئذ غارقاً في هوى الشيخ مصطفى إسماعيل وأم كلثوم، ولا أدير أذني عنهما، ولا أقبل فيهما شريكاً ولا مزاحماً، وكان يسوؤني أن يضعهما أحد في مقارنة.

وفي أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات لم يكن يزاحم الشيخ مصطفى إسماعيل إلا الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، ذلك الفتى الأسمر الوسيم القادم من أقصى صعيد مصر (وقد أطلقت عليه مجلة الجيل الجديد آنذاك: الشيخ مارلون براندو)، وقد أحدث ظهوره في أوائل الخمسينيات دويّاً هائلاً بصوته الأبيض الجلي الرنان ونفسه الطويل المعجب، ولكني كنت أرى يومذاك أن الفرق بين الشيخين بعيد جداً، وكنت أسمع ذلك الرأي أيضاً من هؤلاء السميعة الكبار الذين كنت أحضر مجالسهم في الموالد التي كان يقرأ فيها الشيخ مصطفى، وكان من أشهر تلك الموالد التي يبدع فيها الشيخ: مولد السلطان أبو العلا، والشيخ سلامة الراضي ببولاق.

ثم كان يحزنني أيضاً ما يقوله بعض الناس: أن أسمهان لو عاشت لكانت قد حجبت أم كلثوم، أو أن سعاد محمد صوتها أعذب من صوت أم كلثوم، أو قول بعضهم: اصبروا قليلاً على هذه الفتاة السورية ـــ يعنون فايزة أحمد ـــ فسوف يكون لها شأن مع أم كلثوم!

(١) مجلة «الهلال»، مارس ١٩٩٨م.

ومهما يكن من أمر: فقد خلا لي وجه الشيخ مصطفى والست أم كلثوم، أعب من صوتهما عباً، لكن إحساسي بعبقرية صوتهما كان إحساساً غامضاً، أو قل إنه كان إحساساً ساذجاً، يقف عند حدود الإعجاب والطرب الذي يقنع بالآهات والتنهدات و (إيه الحلاوة دي) و (مفيش كده)، وإن كان قلبي يغلي بمشاعر الإكبار لهذين الصوتين العجيبين، لكن يضيق صدري ولا ينطلق لساني، فلم أكن في ذلك الزمان قد عرفت صنعة الكتابة والإبانة عما في النفس، وأيضاً فإني كنت أستشرف إلى من يأخذ بيدي لتحليل هذين الصوتين تحليلاً فنّيّاً يقوم على أسس ومعايير تتعدى هذا الإعجاب الساذج الذي يستوي فيه العامة.

صحيح أنَّ أذني في تلك الأيام كانت قد التقطت من مجتمعات السمّيعة أسماء المقامات: السيكاه والصبا والنهاوند والراست والبياتي والحجاز، ولكن كيف تتنزل هذه المقامات على منازلها، وكيف يتصرف أهل الطرب فيها، وتلفت حولي في ذلك الزمان فلم أجد من عُني بالشيخ مصطفى وإخوانه من قراء القرآن سوى الأستاذ محمود السعدني في كتابه الذي أصدره في سنة ١٩٥٩م باسم (ألحان من السماء)، والأستاذ السعدني سميع كبير وصاحب قلم سيّال، ولكنه صاحب دعابة، وإغراقه في الدعابة يميل به أحياناً عما ينتظره أهل الجد من التحليل والغوص في الكشف والإبانة، ولذلك لم أجد عنده شيئاً ذا بال عن الشيخ مصطفى، وكذلك نظرت فيما كتب عن أم كلثوم، فلم أجد وقتها إلا كتاب الدكتورة نعمات أحمد فؤاد، وقد شغلتني حلاوة بيانها عن كل شيء، والدكتورة نعمات صاحبة بيان آسر، وقلمها نديّ رقراق، ولكن الذي أريده عن أم كلثوم شيء آخر، فالذي قالته عن أم كلثوم لا يخرج عما قاله ابن الرومي في «وحيد» المغنية:

يسهل القول إنها أحسن الأشـ ـياء طراً ويعسر التحديد

(ديوانه ٧٦٣)

وظللت أتقلب في حيرتي وعجزي حتى أذن ربك بالفرج وجاءني اسم «كمال النجمي» من فم سميع كبير كنت أراه في جلسة الطرب القديم التي كان يقيمها معهد

الموسيقى العربية يوم الثلاثاء كل أسبوعين في أوائل الستينيات، وهذه الجلسة كان يشهدها حراس الطرب القديم، مثل عباس البليدي وعبده السروجي وطبقتهما، وأنماط غريبة من عجائز الرجال والنساء، شهود عصر النغم الذهبي في مصر المحروسة. ولعل جلسة الطرب هذه هي التي أوحت إلى الراحل الكبير عبد الحليم نويرة بفكرة «فرقة الموسيقى العربية» التي يرى بعض أهل زماننا من المتفلسفة أنها قامت لتغطية هزيمة ٦٧، بالبحث عن أمجاد قديمة، وهو إغراق في التفلسف والهرطقة.

كاشفت ذلك السَّمِّيع الكبير عن حيرتي في البحث عن محلل لصوت الشيخ مصطفى وأم كلثوم، فقال لي: عليك بكاتب عظيم اسمه «كمال النجمي» فستجد عنده ضالتك ومأمولك، وقمت من فوري ألتمس كتابات هذا الرجل، وجمعت ما تيسر لي منها وعكفت عليها، فانفتح أمامي باب ضخم من أبواب المعرفة النغمية والصوتية بكلام عال نفيس مباين لكل ما يكتبه الكاتبون في هذه الأبواب، وكان أول ما قرأته له كلام عن الأصوات العربية من الرجال، وكان مما قاله: إن أكمل الأصوات العربية من الرجال هو المطرب اللبناني وديع الصافي، ثم يليه مباشرة صوت الشيخ مصطفى إسماعيل، ثم قدم لذلك بشواهده ودلائله، وقد مكن هذا الكلام للشيخ مصطفى في نفسي، ثم دلني أيضاً على وديع الصافي، وكنت في غفلة عنه.

وهكذا ظللت أتتبع كلام النجمي عن المقامات الغنائية والمسارات اللحنية والفروق بين القراء بعضهم مع بعض، وكذلك أهل المغنى في التصرف بهذه المقامات والانتقال من بعضها إلى بعض، والقَفْلات والعَفْق والعُرَب، وطبقات الصوت، من القرار والجواب وجواب الجواب.

ولقد يكتب بعض الناس عن هذه المصطلحات، ولكن يظل الفرق واضحاً بين ما يكتبونه وما يكتبه النجمي، إن النجمي صاحب خلفية فنية ضخمة، ثم هو يأوي إلى ركن شديد من المعرفة النغمية الممتدة الضاربة بعروقها في التاريخ. والشواهد على ذلك من كتاباته كثيرة، من أبرزها ما كتبه عن غناء زرياب والموصلي، ثم هذه السياحة الطويلة في كتاب أبـي الفرج الأصبهاني «الأغاني»، ومن الدلائل أيضاً على

محصوله واطلاعه الواسع ما ذكره في شرح زجل «الشيخة زعزوعة» تلك الزجالة المصرية القديمة:

دواخـــل مصـــر فـــي قـــاعـــه حـــداهـــم بنـــت جنْكِيَّـــة
وزعـــزوعـــة تـــرقّصْهـــم علـــى شـــامـــي وشـــاميـــة

يقول النجمي: «ولقولهم «دواخل» أصل قديم، ففي كتابه «شفاء الغليل» يقول مؤلفه: «المحدثون يسمون حسن الصوت دخولاً، ويسمون ضده خروجاً»، انظر كتابه: محمد عبد الوهاب ص ٧٠.

وأقول: شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، من كتب المعرَّب في اللغة، ومؤلفه هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري. توفي سنة ١٠٦٩هـ = ١٦٥٩م، ومن كتبه الكبار: عناية القاضي وكفاية الراضي، وهي حاشية على تفسير البيضاوي، وشرح درة الغواص للحريري، وريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، وهو من رجال البعث والإحياء والنهضة العربية في تلك الحقبة التي يسميها بعض أهل زماننا عصور الظلام!

ومن وراء ذلك كله فالنجمي شاعر، يعرف جمال الكلمة ويحسها ويتذوقها، والكاتب إذا اجتمعت له الأصول المعرفية والشاعرية، مع الصدق واستقامة القصد والترفع عن الدنايا وسفاسف الأمور، بلغت كتابته مبلغها، وانتهت إلى غايتها. وهكذا كان كمال النجمي وكانت كتاباته عن الأنغام والأصوات العربية: قديمها الذي جاء موصوفاً في الكتب، وحديثها الذي حفظته الأسطوانات والأشرطة. لقد كتب النجمي كثيراً، وحلل كثيراً، وسجل تاريخاً عزيزاً، ومن أبرز ما شهده وسجله بقلمه البديع: ذلك اليوم المشؤوم الحزين الذي احتبس فيه صوت الشيخ محمد رفعت وسط مستمعيه يوم الجمعة بمسجد مصطفى فاضل باشا بدرب الجماميز (بور سعيد الآن)، وما أحسب أن أحداً سجل هذا اليوم الأسود غير كمال النجمي.

ومن أشهر ما كتب النجمي: أصوات وألحان عربية، وسحر الغناء العربي، والغناء العربي من عصر زرياب إلى عصر أم كلثوم وعبد الوهاب، والغناء المصري: مطربون ومستمعون. والموجة الجديدة وما بعد الثمانينات، والشيخ مصطفى إسماعيل: حياته في ظل القرآن، ومحمد عبد الوهاب مطرب المائة عام. وهذا الكتاب لم يقف عند حدود محمد عبد الوهاب، فهو كشف عام عن الغناء والمغنين في مصر، فضلاً عما استطرد إليه من حديث كاشف عن أم كلثوم. . . إلى غير ذلك مما نثره في مقالات ذوات عدد بمجلة الهلال وغيرها من المجلات العربية.

ومن وراء ذلك الجهد الضخم في رصد وتحليل الغناء العربي كان للنجمي جهد آخر، تجلى في كتاباته بمجلة الهلال عن ظاهرة شعارير الحداثة وما بعد الحداثة، وقد سلقهم النجمي بألسنة حداد، وكشف ضعفهم وتهافتهم، وكان رحمه الله يربط ربطاً محكماً بين ظهور شعراء الحداثة، ومطربي الأغاني الهابطة.

وأقول: لقد صدق النجمي في هذا الربط. فما هو الفرق بين قول الشاعر الحداثي: «أتمضمض بالشمس وأحلب ثدي النملة. إني أعطس في شهر أغسطس» وبين قول ذلك المغني الهابط: «قزقز لبك على القهوة وخُشِّ فْ عبي لا تستهوى»، إنها فجاجة وفساد يأخذ بعضه برقاب بعض!

وهناك جهد ثالث نهض به النجمي: وهو ذلك الباب الذي كان يصدر بمجلة الهلال باسم «لغويات»، فقد كان هو صاحبه ومحرره، ولقد ناقشته يوماً في بعض ما كتب فيه بمقالة في مجلة الهلال (أغسطس ١٩٩٢) ثم ناقشته أيضاً في كتابه عن الشيخ مصطفى إسماعيل (يوليو ١٩٩٢) فما ضاق بنقدي وما عاب عليَّ منه شيئاً، وهذا هو شأن العلماء الكبار.

وبعد: لقد مات كمال النجمي كما مات من قبله وكما يموت من بعده، فالموت حق لكن القرآن الكريم سمَّاه: مصيبة، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم

﴿مُصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ [المائدة: ١٠٦] ـ وإن كانت المصيبة في اللغة كل ما أصاب الإنسان ـ وتعظم هذه المصيبة إذا كان الراحل يقف على ثغر من ثغور العلم ولا يقوم أحد مقامه، وما أكثر الثغور التي تسقط برحيل حراسها، ولقد عاش كمال النجمي حياته كلها حارساً أميناً من حراس الفن الراقي ـ كلمة مقروءة ونغمة مسموعة ـ يجلوه ويذود عنه.

إننا إذا رحل عنا عزيز نقول كما قال التابعي الجليل يوسف بن أسباط: «ذهب من يؤنس به ويستراح إليه» (صفة الصفوة لابن الجوزي ٤/ ٢٦٣). وما أحرانا إذا رحل عنا عالم أن نقول: اللَّهُمَّ عوضنا به خيراً، وهيىء لهذه الأمة رشدها، ثم نأمل الخير في الاستخلاف، ونتشبث بمثل قول العز بن عبد السلام: «ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة» (البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٣٧٩)، وبمثل قول الحافظ الذهبي: «ففي الناس بقايا خير»، (سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٥٠).

ولا يبقى إلا رجاء: إلى دار الهلال، ثم إلى أولاد الراحل الكريم:

فأما الذي إلى دار الهلال: فهو أن تصدر الأعمال الكاملة لكمال النجمي، على أن يشمل ذلك كتبه المطبوعة بين دفتين، ثم مقالاته المتناثرة في الهلال والمصور والكواكب وغيرها.

وأما الذي إلى أولاده: فألا يفرطوا في أي قصاصة ورق تكون في مسودة من مسودات والدهم ويدفعوها إلى دار الهلال لنشرها، ثم رجاء آخر إلى هؤلاء الأولاد البررة، أن يحافظوا على مكتبة والدهم، وليعلموا أن أباهم كان يحب كتبه كما يحب أولاده، ولعله قد أخذ عليهم موثقاً في ذلك، وليس لي أن أقترح وجهاً من وجوه المحافظة على مكتبة الراحل العزيز، لكني أخشى أن تدفع إلى من لا يعرف قيمتها، أو أن تبقى حبيسة الأرفف والجدران تغتالها الأيام اغتيالاً.

وأنتم أيها الكتاب والمفكرون ـ أطال الله في النعمة بقاءكم ـ لا تغفلوا عن

حادثة الموت، وأخرجوا ما عندكم من علم ولا تضنوا ببذله لقرائكم أو تلاميذكم، ولا تنتظروا به الفرصة المناسبة والزمن المواتي فإني أعلم أن بعضكم يدخر الموضوع الفلاني للندوة الفلانية، والفكرة الفلانية للمؤتمر الفلاني، وتأملوا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح: ٤].

لقد قلت غداة وفاة شيخنا محمود شاكر ــ بَرَّد الله مضجعه ــ إن الذي دفن في صدر محمود شاكر معه في قبره من العلم أضعاف ما أخرجه للناس.

رحم اللّه كمال النجمي رحمةً واسعة سابغة، وإنَّا للّه وإنَّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاَّ باللّه.

* * *

الناشرون الأوائل.. وسماحة مصر[1]

في اليوم الثالث من مايو أقام اتحاد الناشرين المصريين حفلاً بهيّاً شرفته السيدة الفاضلة سوزان مبارك لتكريم الناشرين الذين مضى على نشاطهم مائة عام، وهم ستة فيمن يمثلون مرحلة مهمة في تاريخ نشر الكتاب بمصر، وهي المرحلة التي تبعت مرحلة مطبعة بولاق، وسادت على وقع خطواتها، متأثرة بمنهجها في الاختيار والإتقان، وقد احتمل هؤلاء الناشرون العظام عناء باهظاً وسلكوا دروباً مضنية في سبيل إذاعة الكتاب ونشره، فأخرجوا الموسوعات الضخمة في أزمان يسيرة، وفي وقت لم يكن التقدم الطباعي قد عرف.

وإذا كان التكريم قد وقف عند هؤلاء الستة، فإنهم لم يكونوا وحدهم في الميدان، فقد انتشرت عشرات المطابع في وسط القاهرة: الأزهر وباب الخلق ودرب الجماميز وعابدين والأزبكية والظاهر والفجالة، تخرج آلاف الكتب، بحيث أنك تستطيع أن تقول: إن ثقافة العالم العربي والإسلامي في القرن الماضي قد خرجت من عشرة كيلومترات في وسط القاهرة، مضافاً إليها تلك الرقعة المحدودة في رملة بولاق التي سميت مطبعة بولاق.

ومما ينبغي التنبه له أن ثلاثة من هؤلاء الناشرين المكرمين كانوا من أهل الشام، استقبلتهم مصر فأحسنت استقبالهم وأعدت لهم متكأ، فأنتجوا وملأوا الدنيا علماً. وهناك ناشران سوريان لم يدخلا في التكريم، لأنهما خارجان عن شرط

---

(١) جريدة «الأهرام» (مصر)، ١٢ مايو ١٩٩٨م.

التكريم، هما محمد منير الدمشقي، وحسام الدين القدسي، فقد كان لهذين الناشرين العظيمين أثر ضخم في نشر الكتب الموسوعية.

وإن نشاط هؤلاء الشوام في مصر، وهناك غيرهم من المغاربة مثل الحاج محمد الساس دليل على سماحة مصر ورحابة صدرها.

ولا يبقى إلا سؤال واحد هو: أين مكان الأحفاد من نشاط الأجداد؟

لا أكاد أرى أثراً لنشاط مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ودار المعارف أوقفت نشر «ذخائر التراث» واكتفت بإعادة ما طبعته، وبقية الدور خافتة الصوت، ولست أرى من واصل مسيرة جده إلا محمد أمين الخانجي، فلا يزال حريصاً على طبع الكتاب التراثي بعناية وجمال إخراج.

بل إن مما يؤلم النفس ويورث الحسرة أن بعض هؤلاء الأحفاد قد أعطوا إذناً مكتوباً لمزوِّري الكتب في بيروت أن يطبعوا تراث أجدادهم، وتنازلوا عن حقوقهم، وحين طبعت الكتب مصورة في بيروت نزع منها اسم المطبعة الأولى وتاريخ النشر، وبذلك شارك هؤلاء الأحفاد في اغتيال تاريخ أجدادهم، بل اغتيال تاريخ مصر العظيم، والله المستعان على كل بلية.

* * *

الآي تترى[1]

تدور بنا الأيام وتطوينا الليالي، ونحن غارقون في لجة الحياة، نضرب في الأرض ونمشي في مناكبها، نغدو ونروح بآمالنا وحاجاتنا التي لا تنقضي، وأيامنا متشابهة وليالينا مكرورة، ولا ينسخ هذا التشابه، ويكسر ذلك التكرار إلا بعض أيام من الدهر، تبعث فينا النشوة والبهجة، حين تردنا إلى ذكرى عزيزة.

وليس كالمولد النبوي الشريف داعياً إلى البهجة، وجالباً للنشوة، وناشراً لما طوي من الذكريات العزيزة.

ففي اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأنور ولد ذلك الصبي «اليتيم» الذي جاء على فترة من الرسل، وقد غير وجه الدنيا بما أنزل الله عليه من القرآن العظيم، والسنة المطهرة التي هي الحكمة، في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]، اللّٰهُمَّ صلِّ وسلِّم وبارك على سيِّدنا محمد بن عبد الله، وعلى أبويه الكريمين إبراهيم وإسماعيل ثم على سائر إخوانه المصطفين الأخيار، وآله الأطهار وأصحابه الأبرار.

وهذا النبي الكريم الذي تحدَّر من أصلاب كريمة، صنعه الله على عينه، ورزقه الخلق العظيم، فكان مثلاً أعلى للكمال الإنساني، وقد ملأ العيون نوراً، وغمر القلوب حباً، واستوى في حبه من رآه وصحبه، ومن قرأ سيرته واتبع سنته. وقد فتحت سيرته العطرة للأدباء وقالة الشعر، باباً واسعاً لمديحه وذكر شمائله ﷺ،

---

(١) مجلة «الهلال»، يوليو ١٩٩٨م.

بما عرف في الأجناس الأدبية بالمدائح النبوية، وهو ديوان ضخم من دواوين الشعر العربي، وقد كتب فيه العلامة الدكتور محمود علي مكي كتاباً جيداً، فاطلبه واقرأه واحرص عليه.

وقد أخذ الشعراء في مديحه ﷺ في حياته الشريفة، وبعد انتقاله للرفيق الأعلى، وكان أول من مدحه عمه أبو طالب، بقصيدته التي أولها:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وتبعه عمه العباس، بقصيدته التي مطلعها:

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق

وقد كتبت عن هذه القصيدة كلمة بمجلة الهلال (سبتمبر ١٩٩٣). (انظر ص ٢٤٧).

ثم الأعشى بتلك القصيدة العالية التي أولها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا

ثم كان حسان بن ثابت وقصائده الجياد، وتتابع الشعراء على ذلك في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، حتى عصرنا الحديث، بل إن مما يستطرف ذكره هنا أن يدخل إلى الحلبة بعض إخواننا المسيحيين من شعراء المهجر. فهذا الشاعر إلياس فرحات ينظم قصيدة عذبة في المولد النبوي، يجعل عنوانها: «يا رسول الله»، وفيها يقول:

غمر الأرض بأنوار النُّبوهْ كوكب لم تُدرك الشمس عُلُوَّهْ
لم يكد يلمع حتى أصبحتْ ترقب الدنيا ومن فيها دُنُوَّهْ
بينما الكون ظلامٌ دامس فُتحت في مكة للنور كُوَّهْ

والشاعر القروي رشيد سليم الخوري ينظم أيضاً في المناسبة قصيدة، أولها:

عيد البرية عيد المولد النبوي في المشرقين له والمغربين دوي

ويعد أمير الشعراء أحمد شوقي من أكثر شعراء العصر الحديث حفاوة بالمديح

النبوي، ونظماً فيه، وقد أخلص بعض قصائده للمديح والمولد، ثم جاءت الإشارة إلى مدحه ﷺ في أثناء قصائده الأخرى. فمن قصائد الطائفة الأولى: «الهمزية الشهيرة»، وجاءت على البحر الكامل:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسُّم وثناء

و «نهج البردة» وقد عارض بها قصيدة البوصيري، وهي من البحر البسيط، وأولها:

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحُرُم

وقصيدة «إلى عرفات الله»، وهي من البحر الطويل، ويقول فيها:

إلى عرفات الله يا خير زائر عليك سلام الله في عرفات

ثم أرجوزته في السيرة النبوية، التي جاءت في ديوانه: دول العرب وعظماء الإسلام، وأولها:

محمد سلالة النبوهْ ابن الذبيح الطاهر الأبوهْ

ومن قصائد الطائفة الثانية قصيدة: «سلوا قلبي غداة سلا وتابا»، وهي من البحر الوافر، وفيها يقول:

أبا الزهراء قد جاوزت قدري بمدحك بيد أن لي انتسابا

وتقف من بين هذه القصائد، القصيدة الهمزية، عالية باذخة، وتقع في مائة وواحد وثلاثين بيتاً، وفي البيت الحادي والعشرين منها يقول:

والآي تترى والخوارق جمة جبريل رواح بها غداء

وفي كلمة «تترى» مبحث لغوي طريف، وذلك أن كثيراً من الناس ـ ولا أقول بعض الناس ـ يظنون هذه الكلمة «تترى» فعلاً مضارعاً، ويستعملونها في موضعه، ومنذ زمن بعيد كنت أسمع وأقرأ هذا التخليط في تلك الكلمة، فلم أكن أعبأ به أو أقف عنده، للذي كان يغلب على ظني أن هذا مما يقع فيه الطلبة المبتدئون،

فكنت أصحِّحه لهم وأبين وجه الصواب فيه، وأكثر ما كنت أرى ذلك في مناقشة الرسائل الجامعية، حتى استشرى الأمر، ورأيت بعض كبار كتابنا يقع فيه، ومن ذلك ما قرأته لكاتب عالم كبير، قال: «تترى الثورات العلمية وتتواتر»، وقد كنت أخشى من تنبيهه على هذا الخلط، ولكنه سعد كثيراً لذلك التصحيح، وهذا شأن العلماء، فقلت له: «ولست أول سار غرَّه القمر»، فقد وقع كثير من الناس في هذا الخلط، وقد أخبرني عالم اللغة العراقي الدكتور إبراهيم السامرائي أن الدكتور طه حسين وقع في هذا الخطأ واستعمله، ونبَّهه أحد قرَّاء مجلة «الرسالة» وأنا أشك في ذلك، ولكن العهدة على الدكتور السامرائي.

ومهما يكن من أمر فقد رأيته واجباً متعيناً عليّ أن أبينه للناس ولا أكتمه، ولكني كنت أسوِّف حتى سألني ذات صباح قريبٍ صديقي عبد الرحمن شاكر، عن تلك الكلمة، من أي أنواع الأبنية هي؟ وما سأل عنها الصديق إلا لأنها حاكت في صدره حين لم يجد لها تصريفاً في الفعل الماضي أو الأمر، فقلت له: إنها اسم.. فقال: كيف وشارح ديوان شوقي يقول في الحاشية: «تترى: تتوالى» ففسرها بالفعل. فقلت له: هذه هي المشكلة، فإن بعض الأقدمين قد فسرها بالفعل أيضاً، على ما يأتي تفصيله. وهنا قلت: لا بد من بيان يكشف وجه الصواب في هذه الكلمة.

وستدور مقالتي ــ إن شاء الله ــ حول ثلاث نقاط: تأصيل الكلمة وبيان اشتقاقها، وتحرير معناها، وذكر شواهدها من النثر والشعر، وإعرابها في سياقها، ثم دفع شبهة.

يقول علماء الصرف: تترى، اسم، وأصلها: وترى، فالتاء الأولى مبدلة من واو؛ لأنها من المواترة، وإبدال التاء من الواو كثير شائع في العربية، مثل تراث، وأصلها: وراث؛ لأن الفعل ورث، وتقاة، أصلها: وقاة؛ لأن الفعل وقى، وتخمة؛ أصلها: وخمة؛ لأنها من الوخامة، وتجاه، أصلها: وجاه؛ لأنها من الوجه، ونظائر أخرى كثيرة.

ولك في نطقها وجهان: تترى، بغير تنوين وتتراً، بالتنوين، فمن لم ينون يعتبر الألف ألف تأنيث، مثل سكرى وغضبى، ومن ينون يعتبر الألف ألف إلحاق، أي أن الكلمة ملحقة باسم آخر منون ــ وهو جعفر ــ لاتفاقهما في نظم الحركات والسكنات، وتفصيل ذلك في كتب الصرف، وعلى ذلك تقول: جاء القوم تترى، بغير تنوين، وتتراً بالتنوين، والمعنى: جاءوا متتابعين، وتنوين الكلمة دليل على اسميتها؛ لأن التنوين من خصائص الأسماء، والأفعال لا تنوَّن.

وبعبارة أخرى: من نوَّنه جعله مصدراً، وزنه «فَعْلاً» مثل ضرباً ونصراً، ومن لم ينونه جعله مصدراً أيضاً، لحقته ألف التأنيث المقصورة، فهو مصدر على وزن فعلى، مثل دعوى، من دعا، وذكرى، من ذكر. انظر هذا المبحث في: الكتاب لسيبويه ٣/ ٢١١، والمقتضب للمبرد ٣/ ٣٣٨، ٣٨٥، وسر صناعة الإعراب لابن جني ص ١٤٦، وشرح شافية ابن الحاجب للرضي الإستراباذي ١/ ١٩٥، ٣/ ٨١، ٢٢٠، ولسان العرب، مادة (وتر).

والصرفيون واللغويون يستشهدون على ذلك بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، قرأ ابن كثير وأبو عمرو (تتراً) بالتنوين، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي (تترى) بغير تنوين. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد ص ٤٤٦.

وإعرابه على النصب من وجهين: الأول: أنه حال من (رسلنا) أي أرسلنا رسلنا متواترين، أي واحداً بعد واحد، أو متتابعين، والثاني: أنه نعت لمصدر محذوف، أي أرسلنا رسلاً إرسالاً متتابعاً، أو إرسالاً بعد إرسال. انظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري ص ٩٥٥، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي ٨/ ٣٤٤.

وإذا ثبت أن «تترى» من التواتر والمواترة، وهو التتابع، فهل المواترة والتتابع واحد، أم أن بينهما فرقاً؟ يرى كثير من اللغويين أن التواتر غير التتابع، وإن تقاربا في المعنى، وممن ذهب إلى هذا الحريري، يقول: «العرب تقول: جاءت الخيل

متتابعة، إذا جاء بعضها في إثر بعض فلا فصل، وجاءت متواترة، إذا تلاحقت وبينها فصل. . قال: ومما يؤيد ما ذكرنا من معنى التواتر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾، ومعلوم ما بين كل رسولين من الفترة وتراخي المدة.

وروى عبد خيرٍ، قال: قلت لعلي رضي الله عنه: إن عليَّ أياماً من شهر رمضان، أفيجوز أن أقضيها متفرقة؟ قال: اقضها إن شئت متتابعة، وإن شئت تترى. قال: فقلت: إن بعضهم قال: لا تجزىء عنك إلا متتابعة. فقال: بلى، تجزىء تترى؛ لأنه عزَّ وجلّ قال: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ولو أرادها متتابعة لبين التتابع، كما قال سبحانه: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ ــ درة الغواص في أوهام الخواص ص ٨، وانظر أيضاً: تقويم اللسان لابن الجوزي ص ٨٨، وشرح نهج البلاغة لابن أبـي الحديد ٩/ ٢٧٦، وسفر السعادة وسفير الإفادة للسخاوي ١/ ١٧٤.

ومن الدليل أيضاً على أن التواتر غير التتابع حديث أبـي هريرة: «لا بأس بقضاء رمضان تترى»، قال ابن الأثير: «أي متفرقاً غير متتابع»، وروى هذا الحديث أيضاً: «لا بأس أن يواتر قضاء رمضان»، قال ابن الأثير: أي يفرقه، فيصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يلزمه التتابع فيه» النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ١٨١، ٥/ ١٤٨.

والخلاصة: أنه إذا كان بين الأمرين فصل فهي المواترة والتواتر، وإذا لم يكن بينهما فصل فهي التتابع والمداركة والمواصلة، وهذا من الفروق اللغوية بين الشيئين المتقاربين في المعنى، وهو باب مهم من العربية، ومن أحسن ما ألف فيه كتاب «الفروق اللغوية» لأبـي هلال العسكري، وهو مطبوع متداول، فاحرص عليه واجعله قريباً منك يستقم لسانك وبيانك.

وهذه جملة من الشواهد النثرية والشعرية على استعمال «تترى» اسماً لا فعلاً.

أخرج البخاري من حديث قباث بن أشيم الليثي قال: قال النبـيّ ﷺ: «صلاة رجلين يؤم أحدهما صاحبه أزكى عند الله من صلاة أربعة تترى، وصلاة أربعة يؤمهم

أحدهم أزكى عند الله من صلاة ثمانية تترى، وصلاة ثمانية يؤمهم أحدهم أزكى عند الله من صلاة مائة تترى»، التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ١٩٣، وانظر: المعجم الكبير للطبراني ١٩/ ٣٦، والطبقات الكبرى لابن سعد ٧/ ٤١١، والترغيب والترهيب للمنذري ١/ ١٥٢، ومجمع الزوائد للهيثمي ٢/ ٤٢.

و «تترى» في هذا الحديث في موضع الصفة للأعداد السابقة عليها، يؤكد هذا ما جاء في رواية الحديث عند ابن سعد: «فقلت لأبـي خالد: ما تترى؟ قال: متفرقين».

وأخرج الإمام أحمد، من حديث أبـي أمامة الباهلي ـ وهو حديث طويل ـ قال: «ثم أنشأ رسول الله ﷺ غزواً ثالثاً، فأتيته فقلت: يا رسول الله قد أتيتك تترى، مرتين، أسألك أن تدعو الله لي بالشهادة، فقلت: «اللَّـهُمَّ سلِّمهم وغنِّمهم»، وفي رواية أخرى لأحمد أيضاً: «أتيتك تترى، ثلاثاً»، مسند أحمد ٥/ ٢٥٥. ٢٥٨.

و «تترى» هنا حال: من تاء الفاعل في «أتيتك»، وقوله: «مرتين وثلاثاً» المراد أنه قال: أتيتك تترى تترى، وأتيتك تترى تترى تترى.

وأخرج الطبري من حديث حجاج، عن ابن جريج، قال لعطاء: «الرجل ينكح المرأة لم يرها ولم يجامعها حتى يطلقها، أتحل له أمها؟ قال: «لا» تترى. قال حجاج: قلت لابن جريج: ما تترى؟ قال: كأنه قال: لا، لا» تفسير الطبري ٨/ ١٤٧ في تفسير الآية ٢٣ من سورة النساء.

و «تترى» هنا في موضع الصفة للفظ «لا» على ظاهر لفظه، كأنه قال: متتابعة متواترة، واحدة بعد واحدة.

وفي خبر علي بن أبـي طالب، يتحدث عن الطاووس وعجيب خلقه، فيقول في حديث طويل: «وقد ينحسر من ريشه، ويعرى من لباسه، فيسقط تترى»، قال ابن أبـي الحديد: ينحسر من ريشه فينكشف فيسقط. وتترى: أي شيئاً بعد شيء وبينهما فترة»، شرح نهج البلاغة ٩/ ٢٧٥، ٢٧٦.

و «تترى» في هذا الخبر حال من ضمير الفاعل في «يسقط».

وذكر ابن إسحاق في قصة مسير خالد بن الوليد، بعد فتح مكة، إلى بني جذيمة، قول امرأة من هذه القبيلة، ترد على شعر شاعر: «وأنت فحييت سبعاً وعشراً وتراً، وثمانياً تترى» السيرة النبوية ٢/ ٤٣٤.

و «تترى» في محل نصب صفة قولها «وثمانيا» أي متتابعة. وفسرها أبو ذر الخشني بقوله: تترى، أي تتوالى، شرح غريب السيرة ص ٣٨٢، وهو تفسير غير دقيق؛ لأنه فسر بفعل، فأوحى بأن «تترى» فعل أيضاً، والأولى أن يقول: تترى: متوالية.

وفي خبر معاوية حين ولي الخلافة، أنه صعد المنبر، وخطب خطبة بليغة قال فيها: «وإن السيل إن جاء تترى ـ وإن قل ـ أغنى»، سير أعلام النبلاء للذهبي ٣/ ١٤٨، والعقد الفريد لابن عبد ربه ٤/ ٨٢، وفيه تصحيف يصحح بما عند الذهبي.

وتأويل هذا الكلام: أن السيل إن جاء متتابعاً متواتراً كان فيه الفائدة والغناء وإن كان قليلاً، فتترى هنا في حال من الفاعل المضمر في «جاء».

وفي كلام لأبي العلاء المعري، يقول: «رُب حي أشرى، كأنهم ليوث الشرى... جاءتهم المنايا تترى»، الفصول والغايات ص ٢٨٢، و «أشرى» جمع «أشر»، وهو البطر الذي لا يشكر النعمة. وواضح أن «تترى» هنا حال من «المنايا».

وتأتي كلمة «تترى» في الخطب التي يفتتح بها المؤلفون كتبهم، ومن ذلك قول صدر الدين البصري، صاحب كتاب الحماسة البصرية، قال: «الحمد لله حمداً يكون لقائه ذخراً، والصلاة على نبيه محمد القائل: «إن من البيان لسحراً»، صلاة دائمة على ممر الأيام تترى». و «تترى» صفة ثانية لصلاة، أي صلاة دائمة متواترة، وإن كان وضع الكلمة في ذلك السياق يوهم أنها فعل مضارع، فيه ضمير يعود إلى «صلاة» كأنه قال: صلاة دائمة تستمر وتتصل.

فهذه أمثلة من دوران الكلمة في الكلام المنثور، أما مجيئها في الشعر فهو كثير جدّاً، أجتزىء منه ببعض الأمثلة. فمن أقدم ما رأيته منه قول الحارث بن وعلة الجرمي (جاهلي):

ولما رأيت الخيل تترى أثائجا علمت بأن اليوم أحمس فاجر

أثائجاً: جماعات. وأحمس: شديد. وفاجر: يركب فيه الفجور. شرح المفضليات للأنباري ص ٣٣٠، وقال الشيخان: أحمد شاكر وعبد السلام هارون، في حواشي المفضليات ص ١٦٦، «تترى: متواترين، وهي من المواترة، وهي المتابعة... ويخطىء كثير من الكتاب في عصرنا، فيظنونها فعلاً مضارعاً، ويضعونها موضعه».

وقال سويد بن جدعة (جاهلي أيضاً):

ونحن نفينا خثعماً عن بلادها تقتل حتى عاد مولى شريدها
فريقين فرقاً باليمامة منهم وفرقاً بخيف الخيل تترى خدودها

شرح المفضليات ص ١١٤، ولا يخدعنك تقدم «تترى» هنا على الاسم، فتظن أنها فعل، وإنما الكلام على التقديم والتأخير، والأصل: «خدودها تترى» بدليل نظم البيت السابق «عاد مولى شريدها»، وإنما الكلام: «عاد شريدها مولى»، والمولى: هنا العبد. ثم لا يخدعنك أيضاً شرح أبي العباس ثعلب لتترى، بقوله: «تترى، تتبع بعضها بعضاً» حيث فسر بالفعل، فإنه شرح على المعنى.

وقول الشاعر: «خدودها» لم يشرحوه، وأرى أنه هنا جمع خد، وهو الجمع من الناس، فالخدود هنا: هي الجماعات، وليست تلك التي في الوجه.

وذكر ابن كثير عن ابن عساكر، أن سعدى بنت كريز خالة عثمان بن عفان، قالت له تبشره، وتنبئه بزواجه من رقية بنت رسول الله ﷺ:

أبشر وحييت ثلاثاً تترى ثم ثلاثاً وثلاثاً أخرى

البداية والنهاية ٣٤٨/١٠، و «تترى» في موضع الصفة لثلاث، أي ثلاثاً متتابعة متواترة.

وقال ابن قلاقس، الشاعر الإسكندري المتوفى سنة ٥٦٧هـ، يمدح الحافظ أبا طاهر السِّلَفي:

يا من أياديه تترى ليس يجحدها ... إلا أناس لفضل الله قد جحدوا

وقال أيضاً يمدحه:

ظل ذا لوعة وحزن ووجد ... وعليل وحرقة واشتياق

ودموع تترى وقلب عميد ... راعه لمع مبسم براق

ديوانه ص ٣٠١، ٤٨٦، والتقدير: يا من أياديه متواترة، ودموع متواترة.

ثم نعود إلى بيت أحمد شوقي، الذي بدأنا به الكلام:

والآي تترى والخوارق جمة ... جبريل رواح بها غداء

وقد أشرت إلى أن شارح الديوان قد فسر الكلمة بأن معناها: تتوالى، فأوهم بذلك أن الكلمة فعل. وقد يظن ظان أن أحمد شوقي وقع فيها، وأنا أعيذه من ذلك؛ فالرجل كان ذا ثقافة لغوية عالية جداً، وقد أخبرني شيخي محمود شاكر رحمه الله أن أحمد شوقي كان كثير النظر في «لسان العرب»، وأخبرني الأستاذ مصطفى حجازي عضو مجمع اللغة العربية أن الشيخ سليم البشري أحصى ألف لفظة من الكلام الغريب الفصيح أحياها أحمد شوقي في شعره، فبعيد جداً أن يتوهم هذا الشاعر الكبير فعلية «تترى»، وتأويلها في بيته المذكور أن تكون خبراً للآي، والتقدير: والآي متواترة، أو تكون حالاً من فاعل فعل محذوف معه، ويكون تقدير الكلام: والآي تجيء تترى ويستأنس لذلك بما ورد من كلام معاوية «إن السيل إن جاء تترى».

ولا يبقى إلا دفع شبهة تتصل باشتقاق هذه الكلمة «تترى»، والجنوح بها نحو الفعلية:

نقل ابن منظور في لسان العرب عن ابن الأعرابي «ترى يترى: إذا تراخى في العمل، فعمل شيئاً بعد شيء»، وقد نقل ابن منظور ذلك الكلام في موضعين من

اللسان، الموضع الأول في أثناء مادة (وتر) والموضع الثاني في مادة (ترى). وفي النفس من هذا النقل شيء:

أولاً: لانفراد ابن الأعرابي به، ولم ينقل عن غيره من اللغويين.

وثانياً: أن صاحب اللسان ذكره في مادة (ترى) أن هذا من التهذيب «خاصة»، وهو فعلاً في تهذيب اللغة للأزهري ١٤/ ٣٠٩، لكن قول صاحب اللسان «خاصة» مما يضعف هذا النقل؛ لأن مراجع اللسان خمسة، كما هو معروف: الصَّحاح للجوهري، وحاشيته لابن بري، والمحكم لابن سيده، والتهذيب للأزهري، والنهاية لابن الأثير، ولم يرد هذا النقل في شيء منها، سوى التهذيب.

وثالثاً: أن ابن الأعرابي لم يستشهد لهذا الفعل بشاهد من نثر أو شعر، واللغة إنما أخذت من كلام العرب وأشعارها.

هذا وقد زاد الصاغاني في الطنبور نغمة ــ كما جاء في المثل ــ فأضاف إلى ما قاله ابن الأعرابي: «أترى: إذا عمل أعمالاً متواترة، ويكون بين كل عملين فترة»، التكملة ٦/ ٣٨٠، ولا صلة لذلك كله بكلمة «تترى» إلا من بعيد، كما لا يؤخذ من ذلك فعلية «تترى».

وبعد: فقد ثبت إن شاء الله، أن هذه الكلمة اسم، وليست فعلاً، وثبت أيضاً أن غالب استعمالها أن تكون حالاً، وقد تأتي صفة، ثم قد تأتي خبراً، وعلى ذلك نقول: جاءت الأنباء تترى بكذا، أو الأنباء تترى بكذا، ولا نقول: تترى الأنباء بكذا.

وشكراً خالصاً للصديق الأستاذ عبد الرحمن شاكر الذي فتح لي هذا الباب من القول، ورحم الله أحمد شوقي رحمة واسعة سابغة.

ثم الصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على صاحب الذكرى العطرة، اللَّهُمَّ احشرنا تحت لوائه، وارزقنا شفاعته.

* * *

الشيخ الشعراوي.. والموازين الصحيحة(١)

في صباح يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شهر صفر من عام ١٤١٩هـ، الموافق للسابع عشر من شهر يونيو من عام ١٩٩٨م انتقل الشيخ محمد متولي الشعراوي إلى الرفيق الأعلى، وقد أحدث موته دويّاً هائلاً اهتزت له مصر وسائر الشعوب العربية والإسلامية، كما تهتز لموت عظماء الرجال.

وما كاد خبر وفاته يصل إلى أسماع الناس حتى ارتفعت أصواتهم بالعويل والنحيب «في كل دار رنة وعويل»، فكان حالهم حال النابغة حين مات حصن بن حذيفة:

يقولون: حِصن! ثم تأبى نفوسهم ... وكيف بحصن، والجبال جُنُوحُ؟

ولم تلفظ الأرض القبور ولم تزل ... نجوم السماء والأديم صحيح

فعمَّا قليل، ثم جاش نعيه ... فبات ندي القوم وهو ينوح

أو كما قال المتنبي حين بلغه نبأ وفاة أخت سيف الدولة:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر ... فزعت فيه بآمالي إلى الكذب

حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً ... شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

وسواء فزع الناس لحادثة الموت أو اطمأنوا، وسواء سخطوا أو رضوا، فالموت واقع لا محالة، فهو مصير كل كائن وغاية كل حي ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وما رضى الله البقاء إلا لأهون

(١) مجلة «الهلال»، أغسطس ١٩٩٨م.

خلقه عليه «إبليس» عليه لعائن الله تترى، وقد سأل ربه: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝ ﴾ [الحجر: ٣٦ ــ ٣٨]، و [ص: ٧٩ ــ ٨١]، وأنظرني: أي أمهلني ومد في حياتي.

ثم تنجلي غمرة الأسى على وفاة الشيخ الجليل عن سيل متدافع، في رثائه والكتابة عنه والأسف على فقده. وقد شارك في هذه المراثي طوائف من خاصة الناس وعامتهم. والحق أن أهل زماننا انقسموا في أمر الشيخ إلى طائفتين: الطائفة الأولى: أحبته فأسرفت في حبه، وبالغت في شأنه. والطائفة الثانية: أبغضته وشنئته وأسرفت في كرهه، وما أنصف هؤلاء ولا عدل أولئك، والأمر في الحالتين كما قال علي بن أبـي طالب رضي الله عنه: «سيهلك فيَّ صنفان: محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس فيَّ حالاً النمط الأوسط فالزموه».

وإذا كانت الطائفة الثانية قد أساءت بسكوتها وتجاهلها، فإن الطائفة الأولى قد أساءت أيضاً بإسرافها ومبالغتها في الحديث عن الشيخ وكأنه نبـي يوحى إليه، وليس الطريق هنا أو هنالك!.

من أي بئر يستقي؟!

وبدءة ذي بدء فإني أحب أن يكون واضحاً أني من أكثر الناس معرفة بقدر الشيخ الجليل، ومن أعظم الناس حباً له، وهو حب له أسبابه ومسوغاته؛ فمنذ أطل هذا الوجه الكريم على الناس من شاشة التلفزيون في أوائل السبعينات، وأنا مرهف له سمعي، صارف إليه عقلي، مسدد نحوه بصري، أريد أن أعرف مصادره، ومن أي بئر عذبة يستقي، وفي أي كلأ مخصب يرتعي، ومن أي نار متأججة يقبس، ويوماً بعد يوم استوى عمود الصورة أمامي لهذا الشيخ الجليل، وحين تم لي ذلك ــ من خلال سماعي له ومشاهدتي إياه في التلفزيون فقط، وعلى غير لقاء أو تعارف بيننا، إلى أن مات رحمه الله ــ رأيته واجباً عليّ متعيناً أن أقدم هذا الرجل للناس، على نحو كاشف محلل، يتجاوز الإعجاب الساذج إلى الإبانة الصادقة عن منهج الرجل

وأدواته، فكتبت عنه كلمة ضافية سمَّيتها: (الشيخ الشعراوي واللغة) في «هلال» فبراير من عام ١٩٩٤م، ولم أكتف بهذا الذي صنعت منذ أربع سنوات، بل ظللت على حفاوتي بالشيخ وتتبعي له، وتقييد بعض الملاحظات على ما يقوله رحمه الله، وكان ملخص ما قلته يومئذ في حق الشيخ:

إنه شيخ جليل جاء على حين فترة من العلماء الحافظين الضابطين. وهو يمثل صورة زاهية للعالم الأزهري المؤسس على علوم العربية وقوانينها، من حفظ المتون وإتقان التعريفات والصبر على المطولات، والنظر في الحواشي والتعليقات والتقريرات، مع عناية فائقة باللغة، في مستوياتها الأربعة: أصواتاً وصرفاً ونحواً ودلالة، واستظهار معجب للشعر العربي في عصوره المختلفة، ومع تعلق شديد بالقرآن وعلومه، إلى ملكات ومواهب أخرى يعرفها المتابعون للشيخ.

فهذه هي الموازين الصحيحة لتقييم الشيخ والحكم عليه، أما ما أفاض فيه المحبون والمريدون من النظر إلى الشيخ نظرة نبوية، تتجلى في ردهم كل شيء عند الرجل إلى الإلهام والفيوض الربانية، والنفحات والتجليات، والعلم اللدني، فهذه كلها «دروشة» في تقييم الرجال والحكم عليهم. وإنما الصواب أن يقال: إنه رجل مثقف مؤسس واسع الاطلاع، غزير الرواية، وافر الحفظ، سريع اللمح، ذكي اللسان.

فبذل الجهد في تحصيل العلم وإخلاء النفس له هو باب التوفيق والفيوض الربانية، ولذلك يقول تاج الدين السبكي: «وهكذا رأينا من لزم باباً من باب الخير فتح عليه غالباً منه»، طبقات الشافعية ١/ ٦٥، فهذا أول ما ندفعه عن الشيخ من مبالغات الناس فيه.

ومن مبالغاتهم أيضاً قولهم: إنه أتى في تفسير القرآن بما لم يأت به الأوائل، وهذا قول منكر مردود، لأنه قول من لا يعرف تاريخ أمته، وتاريخ علمائها، وأئمة التفسير فيها، ثم هو كلام يرسل إرسالاً، ولا يملك صاحبه عليه دليلاً إلا الهوى الجامح، على ما قال أنس بن أبي أنيس:

يقــولــون أقــوالاً ولا يعلمــونهــا   ولــو قيــل هــاتــوا حققــوا لــم يحققــوا

ولكم أيها السادة أن تقولوا عن الشيخ أنه فريد عصره، وأنكم لا تعلمون له شبيهاً فيما يعالجه أهل العلم الآن من تفسير القرآن والكشف عن مراد الله فيه، لكم أن تقولوا هذا، ونحن نوافقكم عليه، أما أن تسحبوا هذا الحكم على علمائنا السابقين جميعهم فلا نوافقكم عليه، بل نأخذ على أيديكم ونمنعكم منه، ونضيق عليكم فيه، لأنه اغتيال لتاريخ علمائنا وأئمتنا، وقد دللتكم في مقالتي المنشورة بالهلال، على عالم من أئمتنا السابقين ــ لا أقول يشبه الشيخ الشعراوي، ولكن الشيخ الشعراوي هو الذي يشبهه ــ ذلكم هو جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، الفقيه الحنبلي الحافظ المفسر الواعظ المؤرخ الأديب، المولود ببغداد سنة ٥٠٨هـ = ١١١٤م والمتوفى بها سنة ٥٩٧هـ = ١٢٠٠م.

كان عالماً فذاً كثير التصانيف في التفسير والحديث والتاريخ واللغة. لكنه عُرف بالوعظ، وطارت له فيه شهرة عظيمة، حتى قيل في وصفه «عالم العراق وواعظ الآفاق»، وقالوا في وصفه: إنه كان من أحسن الناس كلاماً وأتمهم نظاماً وأعذبهم لساناً وأجودهم بياناً، وكان يحضر مجالس وعظه الخليفة العباسي المستضيء بالله، وكذلك الوزراء والعلماء والفقهاء والقضاة وأرباب الدولة وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم، حتى قيل إن مجلس وعظه حزر بمائة ألف (انظر: العبر في خبر من عبر للذهبي ٤/ ٢٩٨).

وقد وصف الرحالة ابن جبير مجلساً من مجالس ابن الجوزي، وقد حضره، فقال: «ثم إنه بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الأنفس احتراقاً، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ويمسح على رأسه داعياً له، ومنهم من يغشى عليه فيرفع في الأذرع إليه. فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة»، رحلة ابن جبير ص ١٩٧، ١٩٨.

وقال ابن الجوزي عن نفسه، في آخر كتابه القصاص والمذكرين ص ١٩٥: «وإني ما زلت أعظ الناس وأحرضهم على التوبة والتقوى، فقد تاب على يدي إلى أن جمعت هذا الكتاب أكثر من مائة ألف رجل... وأسلم على يدي أكثر من مائة ألف»، وانظر تفصيلاً أكثر في: كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١/ ٤١٠.

فهـذا وجه من وجوه الشبه بين ابن الجوزي والشيخ الشعراوي، وثمة وجوه شبه أخـرى، منـهـا هذه التعبيرات والتراكيب الوعظية التي ترد في كلام الشيخين، ذكر ابن رجب في المـرجـع السابـق أن الناس قد طربوا في مجلس ابن الجوزي، فقال لهم: «فهمتم فهمتم» الأولى مـن الفـهـم، والفاء فيها أصلية، والثانية من الهيام، والفاء فيها حرف عطف. وذكر ابن رجب أيضاً أن رجلاً سأل ابن الجوزي: «أيهما أفضل: أسبِّح أم أستغفر؟ فقال: الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون من البخـور؟»، وواضـح أن الصـابـون هـو معـادل الاستغفـار، وأن البخـور هـو مقـابـل التسبيح.

وكما ازدحم الناس على جنازة الشيخ الشعراوي في بلدته (دقادوس) ازدحم الناس على جنازة ابن الجوزي في بغداد، قالوا: «وحملت جنازته على رؤوس الناس، وكان يوماً مشهوداً بكثرة الخلائق وشدة الزحام، حتى إنه أفطر جماعة من شدة الحر»، وكانت وفاته في رمضان.

ومن العجيب أن ابن الجوزي توفي عن عمر يناهز السادسة والثمانين، وكذلك كان عمر الشيخ الشعراوي يوم وفاته.

وبقي وجه شبه آخر بين الإمامين: وهو أن كليهما كانت تقدم له الهدايا الكثيرة من الأمراء وأصحاب اليسار، ولكن هل كان ابن الجوزي يجعل من هذه الهدايا نصيباً مفروضاً لمصارف البر والتوسعة على الناس، كما شاع وذاع عن الشيخ الشعراوي؟ علم ذلك عند ربـي!.

فهم النص واستيعابه:

ومع هذا التشابه الواضح بين الشيخين، فإن ابن الجوزي ينفرد بكثرة التأليف والتصنيف. حتى ليقول عنه الذهبي: «وما علمت أحداً من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل» تذكرة الحفاظ ص ١٣٤٤، أما الشيخ الشعراوي فلم يترك شيئاً مكتوباً، وأما هذا الركام المطروح في الأسواق من الكتب التي تحمل اسم الشيخ الشعراوي، فلا ينبغي أن تكون محل ثقة أو قبول، وهي أعمال تجميعية من التسجيلات الإذاعية والتلفزيونية، وهي من عمل بعض الناشرين، وواجب على الأزهر وعلى أسرة الشيخ أن تحاصر هذه المطبوعات، وأن تمنع تداولها في الأسواق.

وقد نهى الشيخ رحمه الله عن هذا العمل، فقال في آخر توقيعاته، كما جاء بالأهرام ٦/١٩: «آخر قرار وقعه ناشد فيه الناشرين بأنهم عندما يكتبون كتابات من خواطر الشيخ أن يحسنوا فهم النص ويستوعبوه جيداً، حتى لا يكون هناك هروب من النص، فيساء فهمه ويساء إلينا بالتبعية، لهذا أقرر بعدم نشر أي كتاب منسوب إليّ، بغير اطلاعي شخصيّاً أو من ينوب عني». وهذا الذي يطلبه الشيخ من الناشرين أن يحسنوا فهم النص، شيء لن يكون ولن يتحقق، لأن الشيخ يسترسل في أحاديثه، وينبسط، ولن يستطيع أي إنسان أن يدوِّن هذا الكلام المسترسل ويضبطه إلا صاحبه.

فالواجب إغلاق هذا الباب تماماً، ومن العجب إنك تجد الآن في الأسواق ما يسمَّى بفتاوى الشعراوي، أو الجامع في الفتاوى، والشيخ رحمه الله لم يكن فقيهاً ولا مفتياً، فشروط الفقيه غير متوفرة في الشيخ، والفتيا في دين الله أمر عظيم، ولها أدوات كثيرة ليست متحققة عند الشيخ، فلنحذر الخلط في أمور ديننا، فإن وراءنا يوماً ثقيلاً، وانظر كتاب: (أدب الفتوى وشروط المفتي وصفة المستفتي وأحكامه وكيفية الفتوى والاستفتاء) لابن الصلاح، ومقدمة محققه الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب.

ولم يبق الآن من مبالغات الناس في أمر الشيخ إلا بعض أمثلة، أجتزىء بها عن كثير غيرها.

مبالغات :

فمن ذلك ما كتبه صديقنا الدكتور محمد الجوادي في أهرام ٦/٢٠، عن الشيخ: «أنه متابع جيد لكل تفصيلات الحياة والعلم والاقتصاد ولأدق نظريات الاجتماع، وتطورات العلوم الحديثة ومنجزات التكنولوجيا»! أهكذا يا صديقنا الدكتور؟ لقد تبحبحت كثيراً، إن الذي يتابع أدق نظريات الاجتماع ومنجزات التكنولوجيا لا بد أن يكون لديه لغتان أجنبيتان أو لغة واحدة على الأقل. وما عرف عن الشيخ ذلك!

وفي عدد الأهرام نفسه يقول الأستاذ حسن دوح: «لقد وجدنا فيك الزمخشري والبيضاوي وابن كثير ومالكاً والشافعي وابن حنبل وأبا حنيفة، ووجدنا فيك البخاري ومسلماً وابن ماجه والنسائي، ووجدنا فيك ابن حزم وابن تيمية»، يا أستاذ حسن، أمسك عليك قلمك، إن الشافعي المتوفى سنة ٢٠٥، والبخاري المتوفى سنة **٢٥٦** لم يتكررا، ولم يعرف التاريخ لهما شبيهاً، لأسباب ودواعٍ كثيرة، وكذلك سائر من ذكرت من الأئمة الأعلام، ولا يتسع المقام هنا لبسط الكلام.

على أن الشيخ رحمه الله لم يكن محدثاً، فإن المحدث بالمعنى الاصطلاحي الدقيق: هو من عرف علم الحديث رواية ودراية، وعلم الحديث رواية: هو ما يشتمل على أقوال النبيّ ﷺ وأفعاله، وروايتها وضبطها وتحرير ألفاظها، وعلم الحديث دراية: هو ما يعرف به حقيقة الرواية وشروطها وأنواعها وأحكامها، وحال الرواة من تعديل وتجريح، وقبول ورد، وشروطهم وأصناف المرويات وما يتعلق به. وذلك كله ما يعرف بعلوم الحديث. وما نظن الشيخ رحمه الله ضبط ذلك كله، وانظر تفصيل ذلك في: كتاب تدريب الراوي للسيوطي ١/ ٤٠، وقواعد التحديث لجمال الدين القاسمي ص ١٧.

والعجيب أن ما قاله الدكتور الجوادي والأستاذ حسن دوح، قد نقله بحروفه الأستاذ أحمد أبو كف في المصور ٦/٢٦، دون أن ينسبه إليهما، وخطورة مثل ذلك أن هذا الكلام قد صار كلاماً مصدقاً ينقله الناس بعضهم عن بعض وكأنه من المسلمات!

ومن المبالغات أيضاً ونسبة أمور للشيخ ليست له ما ذكره الأستاذ عبد الرحمن فهمي في بريد الأهرام ٦/٢٥ بعنوان (إحضر حالاً إلى أندونيسيا) يقول: إن أئمة الإسلام في أندونيسيا قد بعثوا إلى الشيخ الشعراوي ليرى ساحراً بوذيّاً يدعو إلى أمور دينية خطيرة، ويستعين عليها بأمور من السحر، فسافر الشيخ سراً ورأى ذلك الساحر وهو يخرج من كمه حبلاً طويلاً يسبح في الهواء، بل إنه يخرج من كمه رجلاً يسبح في الهواء ويتعلق بذلك الحبل. فما كان من الشيخ الشعراوي إلا أن طلب مصورين وأجهزة تصوير ليصوِّروا الحبل والرجل. وكانت المفاجأة أن أفلام التصوير لم تسجل شيئاً من ذلك كله. وهنا أكد لهم الشيخ أن هذا نوع من التخييل والتمويه، وأن هذا الرجل إنما سحر أعين الناس فقط، كما حكى القرآن العظيم عن سحرة فرعون: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، انتهت القصة، وأقول: يا أستاذ عبد الرحمن فهمي، هذه قصة قديمة جداً، وقد سمعت أشباهاً لها منذ عشرين عاماً، والذي فعله الشيخ الشعراوي أنه صنع ما صنعه غيره من كشف هذه الألاعيب.

على أن من أعجب ما قرأته من مبالغات الناس في أمر الشيخ ما ذكره الدكتور عبد الله النجار في باب (قرآن وسنة) بجريدة الجمهورية ٦/٢٦، فقد ذكر كلاماً عن المواجهة بين الشيوعيين والشيخ الشعراوي، أنهاه بقوله: «وستظهر الأيام أن انتصار الشيخ في تلك المعركة الفاصلة هو الذي مهد لسقوط الدولة الشيوعية، وانتهاء ما كان يتحصن به الذيول والأتباع مما كان يعرف بالاتحاد السيوفييتي، وكانت تلك هي معركة القرن»! هل هذا كلام يا رجل؟ لن أصف ذلك الكلام وسأمسك قلمي، لكني أدعو الدكتور عبد الله النجار أن يبرأ مما قال، ويخرج من عهدته، ويعلن أن ذلك من جمحات القلم، ببواعث الشجن وهيجان العاطفة.

على أنه مما ينبغي التنبه له والتنبيه عليه أن الشيخ الشعراوي لم يدخل معارك على الحقيقة مع أحد، فإنه لم يكن يعبأ بمخالفيه، وليس كبراً عليهم واستعلاء، وإنما الرجل كان يتصرف وفق منهج الصوفي الذي ألقى الدنيا خلف ظهره ودَبْر أذنيه،

واشتغل بمحبوبه عمن سواه، ومحبوبه هو القرآن ولغة القرآن، ومنهج الله الذي يبدو له من خلال آيات هذا الكتاب المبين، وهو إن ذكر شيئاً من مقالة الشيوعيين أو الإلحاديين فإنما كان يعالجها من خلال تأمله للقرآن ليس غير، ويحسب للشيخ هنا من ذكائه ووعيه الاجتماعي أنه لم يتعرض لسخط أهل الصحافة وأهل الإعلام، فهو يعلم أن هؤلاء وهؤلاء لهم سلطان وغلبة، ولم يكن يغيب عن الشيخ قول جرير:

إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبت الناس كلهم غضابا

ثم هو لم تغب عنه أيضاً معركة الشيخ محمد الغزالي في الخمسينات مع الأستاذ إحسان عبد القدوس والفنان صلاح جاهين وكاريكاتيره الشهير «أبو زيد الغزالي سلامة»، ثم معركة الشيخ محمد أبو زهرة مع الأستاذ أحمد بهاء الدين في الخمسينات أيضاً، كذلك لم يغب عنه تعرض الشيخ عبد الحميد كشك لغضب الصحفيين وأهل الفن.

والشيخ كشك كان أيضاً من أصحاب البيان واللسن، وجهارة الصوت وقوة التأثير، وكان وراءه جمهور ضخم، ولقيت تسجيلاته انتشاراً وذيوعاً داخل مصر وخارجها، بل وصلت إلى أوروبا والأمريكيتين. لكن انشغال الشيخ كشك بتتبع الأدباء والكتاب وأهل الفن، والتلفزيون والكرة، شتت جهوده، وحصر تأثيره في دائرة محدودة من الناس، وهذه أزمة بعض أصحاب الخطاب الديني، أنهم يوردون أنفسهم موارد التهلكة، حين ينظرون إلى المجتمع على أنه شر كله، وفي هذا الطريق يستغضبون طوائف مهمة في المجتمع، بدواعي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهملين طبائع الأزمان، غافلين عن تقلبات الأحوال وتداخل الأمور، وتشابك القوى وقد قيل بحق: العاقل من عرف زمانه، وقد ألمح إلى هذا الدكتور أحمد كمال أبو المجد، في كلمة له بالمصور ــ العدد المذكور ــ قال: «ومن السمات الواضحة في منهج الشيخ الشعراوي أنه التزم موقفاً إيجابيّاً وبنائيّاً في تعامله مع الواقع، مؤثراً الاشتغال ببناء المنهج السوي، والتبشير به والدعوة إليه، عن الاشتغال بنقد المناهج

الفاسدة، والدعوة إلى هدم الواقع، أو تثبيت الأفكار عند مواضع العوج في دنيا الناس».

لم يعاد يوسف إدريس:

نعم أفلت الشيخ الشعراوي من ذلك كله، فلم يستغضب أحداً، ولم يعاد أحداً، وحين عبس الدكتور يوسف إدريس في وجهه وتناوله وسخر منه، لم يثأر منه ولم يحرش جماهيره به، بل تركه حتى ذهب إليه الدكتور يوسف بنفسه، واعتذر إليه، وكأنه بذلك يحقق قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت]، ومن اللافت للنظر أن الشيخ الشعراوي قد ضمن هذه الآية الكريمة في شعر له قديم، قال:

يــــا مـــــن تضـــــايقـــــه الفعـــــا	ل مـــــن التــــــي ومـــــن الـــــذي
ادفـــــع فـــــديتـــــك (بـــــالتـــــي)	حتـــــى تـــــرى (فـــــإذا الـــــذي)

وهذا لون من الشعر، يضمن فيه الشعراء شيئاً من القرآن الكريم، ويجعلونه في قوافيهم، ومنه قول الشاعر:

ألا يــــا أيهـــــا المـــــرء الـــــ	ـــــذي ألهـــــمُّ بـــــه بَـــــرَّحْ
وقـــــد أنشـــــد بيتـــــاً لـــــم	يـــــزل فـــــي فكـــــره يسنـــــح
إذا اشتـــــد بـــــك العســـــر	ففكـــــر فـــــي (ألـــــم نشـــــرح)
فعســـــر بيـــــن يســـــريـــــن	إذا أبصـــــرتـــــه فـــــافـــــرح

انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٩/ ١٦٦.

وممن عرف بهذا اللون من الشعر أبو بكر محمد بن أحمد المعروف بالخباز البلدي، من شعراء القرن الرابع، قال:

ســـــار الحبيـــــب وخلـــــف القلبـــــا	يبـــــدي العـــــزاء ويضمـــــر الكـــــربـــــا
قـــــد قلـــــت إذ ســـــار السفيـــــن بهـــــم	والشـــــوق ينهـــــب مهجتـــــي نهبـــــا
لـــــو أن لـــــي عِـــــزًّا أصـــــول بـــــه	(لأخـــــذت كـــــل سفينـــــة غصبـــــا)

والحديث عن موقف الشيخ الشعراوي من الشيوعية ــ وهو موقف مفتعل كما قلت ــ يقودنا إلى ما يراه بعضهم من أن الشيخ يمثل ظاهرة سياسية، بجانب كونه ظاهرة دينية، ومن ذلك ما كتبه الدكتور محمد أبو الإسعاد في المصور ٦/٢٦، وأول ما يلقانا من كلام الدكتور قوله عن الشيخ الشعراوي، إنه تأثر بالمذهب الوهابـي، بدرجة واضحة، ويرد الدكتور ذلك إلى عمل الشيخ بالسعودية، ومشاركته في إنشاء رابطة العالم الإسلامي هناك.

وهذا القول غير صحيح، فإن مذهب الشيخ مباين تماماً للمذهب الوهابـي، أو مذهب «الشيخ محمد بن عبد الوهاب» كما يحب السعوديون أن يسمَّى، فالشيخ الشعراوي صوفي الوجه واليد واللسان، وأنت لا تخطىء صوفيته هذه في كل ما يقول، ولا يخفى الفرق بين الصوفية ومذهب القوم هناك «يا بعد يبرين من باب الفراديس». والسعوديون يعلمون جيداً صوفية الشيخ الشعراوي، ولم يمنعهم ذلك من أن ينزلوه منزلاً كريماً بينهم، وأن يوسعوا له في مجالسهم، بل أن وزيرهم النابه «محمد عبده يماني» هو الذي قدم الشيخ إلى الأستاذ أحمد فراج، فكانت الشهرة العريضة.

ويـرى الدكتور أبو الإسعاد أن الشيخ قد دخل طرفاً في الصراع بين التيار القومي الاشتراكي وبين التيار الإسلامي السلفي، وهو ذلك الصراع الذي ساد منطقتنا العربية في الستينات، ويدلل على ذلك بانضمامه إلى رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ــ وليس في جدة ــ عام ١٩٦٢م، وهذا الكلام هو من إسراف المؤرخين والمثقفين في التحليل والاستنتاج، فالحقيقة أن الشيخ لم يدخل طرفاً في أي صراع، وانضمامه إلى رابطة العالم الإسلامي لم يكن لمواقف سياسية مأثورة عنه، وإنما كان لأنه كان شخصية بارزة في المجتمع المكي، بمحاضراته القيمة وتدريسه المتميز في كلية الشريعة بمكة المكرمة، والسعوديون يحرصون دائماً على اجتذاب النماذج المتميزة في مؤسساتهم العلمية والتعليمية، ولو كانوا يخالفونهم أحياناً (ولا ينبئك مثل خبير).

ولو كان الأمر كما يرى الدكتور لاستغل السعوديون الشيخ في صراعهم المر مع الرئيس جمال عبد الناصر إبان حرب اليمن وغيرها. ولم يؤثر عن الشيخ شيء في ذلك.

وأما ما ذكره الدكتور من أن الشيخ الشعراوي قد صلَّى ركعتين شكراً لله على نكسة ١٩٦٧م، فهذه زلة عظيمة من الشيخ غفر الله له، ولا يعتذر له عنها، مهما كانت الأسباب والمسوغات، وما أظن أن الشيخ قال هذه القولة الذميمة استجابة لموقف سياسي معين، وإنما قالها صدى لبعض أصوات العامة التي سمعناها تقول غداة هزيمة «٦٧»: «الحمد لله العساكر كانوا حيركبونا»، وقد سمعتها أنا بأذني من الأحياء الشعبية التي كنت أعيش فيها تلك الأيام، ومعلوم أن الشيخ كان كثير المخالطة للعامة.

وكذلك ليس صحيحاً أن الشيخ وظف شعبيته الدينية لدعم نظام الرئيس السادات، فالسادات كان قد كسب شعبية كبيرة بعد انتصار حرب ١٩٧٣م لأنه مسح العار عن جبين مصر والأمة العربية، وذلك قبل أن يلتقي بالشيخ الشعراوي وزيراً عام ١٩٧٦م، ولم يؤخذ على الشيخ إلا قوله في حق الرئيس السادات: لا يُسأل عما يفعل. وهذه قد غضب منها المتدينون، لأنها قيلت في حق المولى عزَّ وجلّ، والحق أنها كانت غلطة من الشيخ، لا يعتذر عنها إلا بأنها زلة أديب، لا عالم، كما استهجن الناس من قبل قول ابن هانىء الأندلسي (٣٦٢هـ) في الخليفة المعز لدين الله الفاطمي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

ومع ذلك فلم تطل إقامة الشيخ الشعراوي بالوزارة، ويقولون إن خلافات نشبت بينه وبين الرئيس السادات، بسبب قضية الأوقاف، وبخاصة ما يتصل منها بسور نادي الزمالك، ويروون في ذلك نكتة لاذعة بينه وبين السادات «وكلاهما كان صاحب دعابة»، وأعرف ما يقول الخبثاء الآن!

أما موقف الشيخ من غزو الكويت وتأثيم ذلك الغزو، وإجازته الاستغاثة بجيوش غير إسلامية لإنقاذ الكويت، فلم يكن هذا موقف الشيخ وحده.

ولعل ردنا هذا الموجز على مقالة الدكتور أبو الإسعاد يكون هو مدخلنا إلى الحديث الموجز أيضاً، عن الطائفة الثانية ـ ومعظمها من المثقفين والأدباء والجامعيين ـ التي أعرضت عن الشيخ وأبغضته، ولم تكتف بذلك الإعراض وهذا البغض حتى ضمت إليهما هزءاً بالشيخ وسخرية منه، فقالوا: إنه رجل دنيا، وإنه ممثل، وإنه بهلوان ـ ونعوذ بالله من سوء القول، ويستشهدون لذلك بأنه كثير التلفت وتحريك أعضائه والغمز بعينيه.

وهذه حجة داحضة، لأن هذا الذي يأخذونه على الشيخ إنما هو من أدوات الواعظ والخطيب، ولا ننسى أن الشيخ كان في أول أمره معلماً، على أن استعانة الشيخ بجوارحه للشرح والتبيين ـ فضلاً عن أنه من أدوات الخطيب والمعلم ـ من أساليب القدماء في الشرح والإبانة.

قال السيوطي في المزهر ١/ ١٤٤: «إذا سئل العربي أو الشيخ عن معنى لفظ فأجاب بالفعل لا بالقول يكفي، قال في الجمهرة: ذكر الأصمعي عن عيسى بن عمر، قال: سألت ذا الرمة عن النضناض، فلم يزدني على أن حرك لسانه في فيه. قال ابن دريد: يقال: نضنض الحية (الثعبان) لسانه في فيه: إذا حركه.

وقال القالي في أماليه: سئل الأصمعي عن العارضين من اللحية، فوضع يده على ما فوق العوارض من الأسنان».

وحكى ثعلب في مجالسه ص ٤٠٩ عن معاوية أنه قال لعقبة بن أبي سفيان: «يا أخي، أما ترى ابن عباس قد فتح عينيه ونشر أذنيه، ولو قد قدر أن يتكلم بها فعل».

وهذه الحركات من سمات الخطباء والوعاظ، وتجدها كثيراً في البيان والتبيين للجاحظ، وقال الذهبي في ترجمة أبي منصور العبادي، من سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٣١: «واعظ باهر، حلو الإشارة، رشيق العبارة»، وأيضاً فإن تحريك الأعضاء يعكس حالة انفعالية يعانيها الشخص، قد تكون رضا، وقد تكون سخطاً. روي أن معاوية سمع رجلاً يغني فطرب لغنائه، فحرك رجله، فقال له عبد الله بن جعفر:

ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال معاوية: إن الكريم طروب. مجالس ثعلب ص ٤٧.

على أن هذه الحركات من الشيخ إنما تدل على حالة مزاجية خاصة كانت تلازمه في دروسه ومجالسه، وهي حالة من البهجة والنشوة كانت تتلبس الشيخ حين يسبح في أنوار القرآن، ويرتع في رياض العربية: فصاحتها وبيانها، وقل من يتنبَّه لهذا الأمر في تحليل شخصية الشيخ: إنه يتلذذ بما يقول، ويطرب لما يجري على لسانه، فيتلذذ معه الناس ويطربون، والواعظ الجيد كان يوصف قديماً بالمطرب، قال الذهبي في ترجمة العبادي المذكور قريباً: «الواعظ المشهور المطرب».

وقد صرح الشيخ بهذه الحالة المزاجية، فقال رداً على سؤال للأستاذ صلاح منتصر، عن سر جاذبيته: «يعلم الله أني ما أقبلت على لقاء أو تسجيل أو ندوة أو حديث إلا وأنا أدرك حلاوة ما أقبل عليه» الأهرام ٢٠/ ٦.

وأنت لو أرهفت سمعك مع الشيخ لسمعته حين يحلق مع خواطره يتواجد ويطرب فيقول لنفسه بصوت خفيض ولكنه مسموع ــ «الله الله» ــ يعني بالتعبير المصري: الرجل بيشتغل بمزاج ــ وهذا شيء معهود في قراء القرآن والمطربين، يهمهمون أحياناً تعبيراً عن سعادتهم ونشوتهم، وقد لا يهمهمون ولكن حالتهم المزاجية تدل على ذلك.

وفي تسجيل نادر للشيخ مصطفى إسماعيل في سورة هود، وصل الشيخ رحمه الله إلى درجة عالية جدّاً من حلاوة الصوت وجمال الأداء، فقال له أحد المستمعين: «وحياة النبي أنت بتسمع معانا الليلة دي»!

وفي تسجيل حفلة لمطرب المائة عام ــ كما كان يقول أستاذنا كمال النجمي رحمه الله ــ محمد عبد الوهاب ــ صدح بأغنية «كل ده كان ليه»، وكانت الحفلة في نادي الضباط، أوائل الثورة، وصل عبد الوهاب إلى الغاية في الحلاوة والسلطنة، فسمعناه يخاطب أعضاء فرقته الموسيقية: «قولوا لنا حاجة، ما تقولوا لنا حاجة»، كأنه يقول لهم: إنني في حالة من الوجد والنشوة فشاركوني أنتم أيضاً في ذلك بالعزف المنفرد (الصولو) على آلاتكم.

أما أم كلثوم العظيمة فهمهماتها معروفة مسموعة.

موقف غريب!

فما أظن هؤلاء المثقفين الذين كرهوا الشيخ وأعرضوا عنه وسخروا منه وقالوا فيه أسوأ الذي قالوا، ما أظنهم فعلوا ذلك إلا أنفة واستعلاء وذهاباً بأنفسهم أن يجتمعوا على مائدة واحدة مع العامة الذين يصيحون ويفغرون أفواههم إعجاباً بالشيخ، فهذه (ديماغوجية) بغيضة عند المثقفين الأكابر والأدباء، أصحاب الجباه العالية، وهذا يذكرنا بموقف أولئك الذين كانوا يعرضون عن حزب الوفد ويسخرون منه، لأنه يجمع الغوغاء والدهماء من عامة الشعب، ويرون أن حزباً مثل حزب الأحرار الدستوريين جدير بالاحترام والتبجيل، لاجتماع الصفوة في رحابه في مقدمتهم الدكتور محمد حسين هيكل باشا.

ولم يكن المثقفون وحدهم في هذا الموقف من الشيخ، بل شاركهم كثير من الجامعيين، والعتب على هؤلاء أشد، والمحنة في موقفهم هذا أعظم، لأنهم كانوا أولى الناس بأن ينتبهوا إلى الشيخ، ويتأملوا منهجه في البيان واللغة، وهذا السيل المنهمر من الشعر الذي قلما يجتمع في صدر أحد من أهل زماننا.

لقد سلك الشيخ مسالك عجيبة في بيان إعجاز القرآن والكشف عن مراد الله في هذا الكتاب الحكيم، بتأمل اللغة، والنفاذ إلى أعماقها، وإبراز خصائصها الصوتية والتركيبية، وكنتم أنتم أيها الجامعيون أولى الناس بمتابعة الشيخ في ذلك، ودرسه وتكميله، وإضاءته بمناهج الدرس الحديث، ولكنكم فتنتم أنفسكم وارتبتم وغرتكم مناصبكم الجامعية، فتكبرتم وأعرضتم عن الشيخ جملة، وقد ظلمتم أنفسكم باتخاذكم الكبر، فتوبوا إلى بارئكم، واعكفوا على تراث الشيخ المسموع والمرئي، فأعملوا فيه عقولكم، وأعطوه حظه من النظر والتأمل، فإن الشيخ قد أوتي علماً عظيماً، ينبغي علينا نحن ورثة الأنبياء كشفه وإظهاره، وسنحرز معه الأجر ونشركه في المثوبة إن شاء الله. فنحن وإياه على ثغر من ثغور العربية، نحميها ونذود عنها، ونجالد الناس عليها، وتلك مرتبة عليا، فقد قال عبد الله بن المبارك (١٨١هـ): «لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم»، سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٤٣.

وحين نعكف ويعكف المنصفون من المثقفين والجامعيين على تراث الشيخ، كشفاً وإضاءة، نكون قد أقمنا الموازين الصحيحة لتقييم الشيخ والحكم عليه، ونكون أيضاً قد استنقذناه من أيدي العامة التي توشك أن تتخذ قبره حناناً تأوي إليه ـ كما جاء في الخبر ـ ثم تجعل له من كل عام يوماً مشهوداً، ترتفع فيه البيارق وتدق له الطبول وتخفق فيه الرايات، وتدار فيه النفحات، وتدور فيه الرؤوس في حلقات الذكر، وإذا نحن بيوم وليلة أمام طريقة صوفية جديدة تدعى «الطريقة الشعراوية»، ورضي الله عن السادة الصوفية الأعلام، أئمَّة الزُّهد وأرباب الحقيقة وأمراء الكلام، ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝٢٠﴾ [غافر: ٢٠].

* * *

الشيخ الشعراوي.. والفتنة بما يقوله الكبار[1]

رحم الله شيخنا الشعراوي، فمنذ نحو ثلاثين عاماً خرج على الناس صوت جديد، يدعو إلى الله على بصيرة، ويكشف عن مراد الله من كلامه القديم، على نحو مباين لما ألفه الناس في زماننا هذا. ذلكم هو الشيخ محمد متولي الشعراوي، وكان الفضل في إبلاغ هذا الصوت وإذاعته مصروفاً كله إلى الأستاذ الأديب أحمد فراج، في برنامجه التلفزيوني «نور على نور».

ويوماً بعد يوم أخذ الناس يجتمعون حول ذلك الصوت لما ظهر لهم من أسلوبه الفريد في عرض القضايا ومناقشتها والاستدلال عليها، وأخذ الشيخ يبسط سلطانه على ساحة الخطاب الديني المرئي والمسموع، مخلياً مساحة كبيرة بينه وبين سائر الدعاة والوعاظ، لكنه قد لقي ــ في أول أمره ــ شيئاً من الإنكار والتجافي، وبخاصة من بعض المثقفين الذين أعرضوا عنه أنفة واستعلاء، وذهاباً بأنفسهم عما تجتمع عليه العامة، ولعل ذلك الإعراض يرجع أيضاً إلى ما أثر عن الوعاظ قديماً وحديثاً، من مخاطبتهم للمشاعر القريبة في الناس، واستنفارهم لشجون العواطف والقلوب، وبُعدهم عن معالجة قضايا الفكر ومسارح التأمل، على ما قرره توفيق الحكيم في كتابه «فن الأدب»، وفي كلام بعض أهل العلم قديماً ما يشير إلى ذلك.

يقول مجد الدين بن الأثير في مقدمة كتابه «النهاية في غريب الحديث والأثر»، وهو يتحدث عن جهود العلماء في التأليف في علم غريب الحديث: «وكان في زماننا أيضاً، الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، كان متفنناً في علومه،

---

(١) مجلة «العربـي»، العدد ٤٨٠، نوفمبر ١٩٩٨م.

متنوعاً في معارفه، فاضلاً، لكنه كان يغلب عليه الوعظ»، فتأمل هذا الاستدراك الذي يوشك أن يسلب الوعاظ فضيلة في مجال الفكر والعلم.

وقد كتبت عن الشيخ الشعراوي كلمة بمجلة «الهلال» فبراير ١٩٩٤م أبنت فيها عن علمه، وكشفت فيها عن المخبوء تحت طي لسانه، وانتهيت إلى أن الشيخ يمثل صورة زاهية للعالم الأزهري المؤسس على علوم العربية وقوانينها، من حفظ اللغة ــ قريبها وغريبها ــ وحفظ الشعر واستظهار المتون، وإتقان التعريفات، والنظر في الحواشي والتقريرات. ومن وراء ذلك ما يفتح الله به عليه، ويكشفه له من بعض أسرار الذكر الحكيم، فإن هذا القرآن الكريم «لا يخلَق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه» كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي والدارمي.

وكنت قد ذكرت في كلمتي عناية الشيخ باللغة في مستوياتها الأربعة: النحو والصرف والأصوات والدلالة، وأضيف اليوم شيئاً عجيباً سمعته أخيراً في حلقة تلفزيونية، جاء في كلام الشيخ «البشارة والنذارة» يريد التبشير والإنذار.

و «النذارة» بكسر النون بمعنى الإنذار، مما أثر عن الإمام الشافعي فقط، والشافعي لغته حُجة، وهو من أئمة اللسان، كما ذكر الفيومي في المصباح «بعض». قال صاحب القاموس المحيط: «والنذير: الإنذار، كالنذارة بالكسر، وهذه عن الإمام الشافعي».

قلت: وقد جاء تصديق كلام الفيروزآبادي هذا، في النسخة الخطية من «الرسالة» للشافعي، وهي بخط الربيع بن سليمان تلميذ الشافعي، وعليها توقيع الربيع سنة «٢٦٥هـ». والنسخة محفوظة بدار الكتب المصرية، وهي من أقدم المخطوطات في العالم. ويقول الشيخ أحمد شاكر في وصف هذه النسخة: «وأما الثقة بها فما شئت من ثقة: دقة في الكتابة، ودقة في الضبط... ومن أقوى الدلالة على عنايته بالصحة والضبط: أنه وضع كسرة تحت النون في كلمة «النِّذارة»، وهي كلمة نادرة لم أجدها في المعاجم إلا في القاموس، ونص على أنها عن الإمام الشافعي».

قلت: وهكذا ترى أيها القارىء الكريم أن كتب التراث يصدق بعضها بعضاً، ثم تأمل بعد ذلك كيف وقعت هذه الكلمة للشيخ الشعراوي، واستقرت في محفوظه، ثم ظهرت على لسانه.

أنوار اليقين:

وبهذه المعرفة الواسعة باللغة واستحضار الشعر، وتمثل فروع الثقافة العربية الإسلامية كلها، ثم ما يفيضه الله على الشيخ من أنوار اليقين وتجليات الكشف، صار للشيخ الشعراوي عند الناس مكان ومكانة، وأصبح للذي يلقيه على الناس قوة لا يشوبها ضعف، وإقناع لا يعتريه شك، وهكذا شأن الرؤوس والمتبوعين، يثق الناس بما يتلقونه منهم، ويُلقون إليهم المقادة راضين مطمئنين، لا يراجعونهم رأياً، ولا يخالفون عن أمرهم، لكن هذا طريق مخوف، والعاقبة فيه وخيمة، فقد يكون بعض هذا الذي يأتي به الكبار المتبوعون معدولاً به عن وجهه، مصروفاً إلى غير حقيقته.

وكنت قد راجعت الشيخ الشعراوي في بعض تفسيراته وشروحه، في مقالة الهلال التي أشرت إليها، لكنني أعود إليه اليوم في أمر جلل وقضية خطيرة، وإنما هولت وعظمت لأن الأمر يتصل بالقرآن الكريم وقراءاته، والخطأ في ذلك أو الجرأة فيه مما يوقع في الهلكة ويورث الشك والضلال.

وبيان ذلك أن الشيخ رحمه الله عرض في بعض الحلقات التي سمعتها قبل وفاته لقضية القراءات القرآنية، وانتهى إلى أن سبب الاختلاف فيها هو أن «المصحف الشريف» في أول كتابته لم يكن منقوطاً، يعني «أشكال حروف مجردة»، فكان العربي المسلم يقرأ وينطق بملكة اللغة المتوارثة ـ هكذا قال بالحرف ـ ويعني السليقة، ودلل على ذلك ببعض الأمثلة، منها قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال عن الآية الأولى إنها قرئت قراءتين «صبغة» بالصاد المهملة بعدها باء موحدة ثم غين معجمة،

و «صنعة» بالصاد أيضاً بعدها نون ثم عين مهملة. والآية الثانية قرئت «أشاء» بالشين المعجمة، و «أساء» بالسين المهملة، والآية الثالثة قرئت «منه» بكسر الميم وسكون النون ثم هاء، و «منه» بكسر الميم أيضاً وتشديد النون ثم تاء معقودة «مربوطة».

وقد ردَّ الشيخ هذا الاختلاف إلى خلو الكلمات من النقط، فقرأ كل قارىء بسليقته اللغوية وما أدته إليه ملكته العربية.

صنعة أم صبغة؟

وبدءة ذي بدء: فإن قراءة «صنعة الله» بالنون والعين التي ذكرها الشيخ لم أجدها في قراءة متواترة ولا شاذة، ولست أدري من أين جاء بها الشيخ؟ وقد وجه أهل التفسير الآية على معنى «صبغة» ليس غير. قال الزمخشري في الكشاف ١/ ٣١٦ «وهي فعلة من صبغ كالجِلسة من «جلس»، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ. والمعنى: تطهير الله، لأن الإيمان يطهر النفوس، والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: قولوا آمنا بالله، وصبغنا الله صبغة لا مثل صبغتكم.

وأما القراءتان الأخريان «أصيب به من أساء» بالسين المهملة، و «جميعاً منة» بكسر الميم وتشديد النون والتاء المعقودة، فهما قراءاتان شاذتان، كما ذكر ابن جني في «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» ١/ ٢٦١ ـ ٢/ ٢٦٢، والقراءات الشاذة لا تعد من القرآن ولا يتعبد بتلاوتها، وإنما تذكر في مجال الاستشهاد للغة والنحو، فلا ينبغي أن نتشاغل بها، ومن باب الأولى ألا نذكرها أمام العامة. وقد ذكر الشيخ الشعراوي أن حماداً الراوية قرأ «من أساء» بالسين، لكن فاته أن الراغب الأصبهاني قد عد ذلك من زلات حماد وتصحيفاته. (انظر: محاضرات الأدباء ١/ ١١٠).

ثم أعود إلى قضية خلو المصحف الشريف من النقط والإعجام، وهو الذي يراه الشيخ سبباً رئيساً في تعدد القراءات واختلافها، وهي قضية خطيرة جداً، وليس

الشيخ الجليل «أول سار غرَّه القمر»، ولعل أول من نقب هذا النقب في زماننا هو المستشرق المجري جولدزيهر «١٨٥٠م ــ ١٩٢١م»، فقد ذكره في كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي» الذي ترجمه الأستاذان علي حسن عبد القادر، وعبد الحليم النجار، قال في ص ٨ كلاماً عن اختلاف القراءات القرآنية ختمه بقوله: «وإذاً فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط واختلاف الحركات في المحصول الموحد الغالب من الحروف الصامتة كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات، في نص لم يكن منقوطاً أصلاً، أو لم تتحر الدقة في نقطه أو تحريكه».

وكذلك ردد هذا الرأي المستشرق الأسترالي الأصل آرثر جفري، وذكره في مقدمة تحقيقه لكتاب «المصاحف» لابن أبـي داود، قال في ص ٧ من المقدمة: «وكانت هذه المصاحف ــ يعني المصاحف التي بعثها عثمان إلى الأمصار ــ كلها خالية من النقط والشكل، فكان على القارىء نفسه أن ينقط ويشكل هذا النص على مقتضى معاني الآيات».

وقد تابع هذين المستشرقين بعض العلماء العرب، من الجامعيين وغيرهم، وأذاعوه في كتبهم، لكن طائفة أخرى من علمائنا ردوا على «جولدزيهر» رأيه وأسقطوه بأدلة قاطعة، من الآثار والتاريخ ونصوص القرآن الكريم نفسه، ومن أبرز هؤلاء: الدكتور عبد الفتاح شلبـي، في كتابه «رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم»، والشيخ عبد الفتاح القاضي في كتابه «القراءات في نظر المستشرقين والملحدين».

وقد كتبت أنا في هذه القضية غير مرة، لكني أعيد الكلام فيها الآن، للذي ذكرته لك أيها القارىء الكريم من مجيء هذا الوهم على لسان فضيلة الشيخ الشعراوي، وهو رجل مجموع له الناس، ومتبوع مسموع. وأيضاً فإن لمجلة «العربـي» عند الناس مكاناً، ولما يكتب فيها ذيعاً وانتشاراً، فلعل عرض هذه القضية على صفحاتها وبيان وجه الصواب فيها، ما يحسم مادة الخلاف، ويقطع أسباب الشبهة إن شاء الله.

حفظ القرآن:

ولا سبيل إلى ذكر كل أطراف القضية، فإنها من التشعب بمكان، فحسبي أن أذكر رؤوس كلام، وفيما ذكره الشيخان شلبي والقاضي، ثم ما يأتيك من كلام أهل العلم: مقنع وبلاغ، والمأمول منك أيها القارىء الكريم أن تجعل هذه القضية على بالك، وأن تشغل بها نفسك ووقتك، فإنها دين وعقيدة، فأقول وبالله الاستعانة:

أولاً: القرآن كلام الله القديم، نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام، على قلب النبيّ محمد ﷺ، وقد أمره ربه بتلاوته ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ [الكهف: ٢٧]، ثم أمره بإبلاغه للناس وقراءته عليهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، و ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وكان رسول الله ﷺ حين ينزل عليه جبريل بالوحي حريصاً على استظهار القرآن وحفظه، فكان يحرك لسانه حالة نزول الوحي، مخافة أن تفوته كلمة، أو يسقط عليه حرف، حتى طمأنه ربه بأن تكفل له أن يجمعه في صدره، ويسهل له قراءته لفظاً ومعنى، فقال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة: ١٦ ــ ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾، أي قراءته، وهو مصدر على وزن فعلان، مثل غفران وكفران.

وهذا هو أساس الحفظ في تراثنا العربي: إنه أمر أولاً بتلاوته وحفظه، ثم جاءت مرحلة الإفهام بعد ذلك ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ [طه: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعلى: ٦]، و «لا» هنا نفي وليست نهياً. والمعنى: فلست تنسى إذا أقرأناك.

ثانياً: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي بالقرآن يُقرئه أصحابه فيحفظونه، وكان هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم حريصين على استظهار ما يحفظونه وتعهده بالمدارسة والعمل به، وكان الذي سمع يُعلم من لم يسمع، وكان عليه السلام يبعث إلى من كان بعيد الدار منهم مَنْ يُعلمهم ويقرئهم، كما بعث مصعب بن عمير

وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل الهجرة، يعلمانهم الإسلام، ويقرئانهم القرآن، وكما خلف معاذ بن جبل بمكة بعد الفتح يقرىء الناس القرآن. قال عبادة بن الصامت: «كان الرجل إذا هاجر دفعه النبيّ ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم، لئلا يتغالطوا»، انظر: مناهل العرفان للشيخ الزرقاني ١/ ٢٤١، وهو كتاب جيد جداً في علوم القرآن.

ثالثاً: اهتم الرسول عليه السلام هو وأصحابه أول الأمر بجمع القرآن في الصدور ـ أي حفظه واستظهاره ـ وكان ذلك أمراً طبيعيّاً، لأن الرسول عليه السلام كان أمِّيّاً، وبُعث في أمة أمية، يقل فيها الكتاب، ولا يشيع بينها الخط، ثم أوحي إليه عليه السلام أن يكتب القرآن، فاتخذ كتاباً من خيرة الصحابة، زيادة في الاستيثاق لكتاب الله تعالى «حتى تُظاهر الكتابة الحفظ، ويُعاضد النقش اللفظ».

ومع كتابة القرآن الكريم ظل الحفظ هو الأساس والمعتمد، قال ابن الجزري: «ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة، ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان»، فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء، بل يقرؤه في كل حال، كما جاء في صفة أمته: «أناجيلهم في صدورهم».

رابعاً: توفِّي رسول الله ﷺ والقرآن الكريم كله مجموع في الصدور، ومكتوب في السطور، ثم كان جمع أبي بكر القرآن، وبعده كان جمع عثمان، والفرق بين الجمعين معروف في كتب علوم القرآن. ومن أحسن المراجع في ذلك كتاب الشيخ الزرقاني المذكور قريباً.

وخلاصة الأمر أن عثمان رضي الله عنه جمع الناس على مصحف واحد، سمي «المصحف الإمام»، واستنسخ منه نسخاً أرسلها إلى الأمصار الإسلامية، ولم يكتف

عثمان بإرسال تلك المصاحف، بل أرسل مع كل مصحف عالماً من علماء القراءة يعلم المسلمين وفق هذا المصحف، وعلى مقتضاه، فأمر زيد بن ثابت أن يقرىء بالمدينة، وبعث عبد الله بن السائب إلى مكة، والمغيرة بن شهاب إلى الشام، وعامر بن عبد قيس إلى البصرة، وأبا عبد الرحمن السُلمي إلى الكوفة. فكان كل واحد من هؤلاء العلماء يُقرىء أهل مصره بما تعلمه من القراءات الثابتة عن رسول الله ﷺ، بطريق التلقي والتواتر التي يحتملها رسم المصحف. وقد أمر عثمان رضي الله عنه بحرق كل ما عدا مصحفه هذا.

خامساً: معلوم أن «مصحف عثمان» هذا كان خالياً من النقط والشكل، وكذلك المصاحف المستنسخة منه، وكذلك كل ما كتب من القرآن زمان النبيّ ﷺ، كل ذلك كان مجرداً من النقط والشكل، وذلك ليتحمَّل الرسم ما صح نقله، وثبتت روايته عن رسول الله ﷺ.

قال أبو عمرو الداني: «وإنما أخلى الصدر منهم ــ أي الأوائل من المسلمين ــ المصاحف من ذلك ــ أي من النقط ومن الشكل ــ من حيث أرادوا والدلالة على بقاء السعة في اللغات، والفُسحة في القراءات التي أذن الله تعالى لعباده في الأخذ بها والقراءة بما شاءت منها، فكان الأمر على ذلك إلى أن حدث في الناس ما أوجب نقطها وشكلها» المحكم في نقط المصاحف ص ٣، وهذا الذي حدث في الناس فأوجب نقط المصحف وشكله هو دخول الأعاجم من غير العرب في دين الإسلام، وقد تمَّ ذلك في أواخر القرن الأول وأوائل الثاني، على يد أبي الأسود الدؤلي «٦٩هـ»، ونصر بن عاصم الليثي «٨٩هـ»، ويحيى بن يعمر ــ بفتح الميم ــ العَدواني ــ بفتح العين ــ «١٢٩هـ».

ويقال: إنَّ عمل نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر كان بتوجيه وإشراف الحجاج بن يوسف الثقفي، ويقال إنه أمر بإعدام المصاحف الخالية من النقط والشكل. فانظر فضل هذا الرجل الجبار على العربية وعلى قرَّاء القرآن.

ومع هذه الوثبة العظيمة في تاريخ القرآن الكريم، فقد بقي ناس من أهل العلم

على رأيهم في تجريد المصحف من النقط والشكل، منهم الحسن البصري، وابن سيرين، وكان هؤلاء يتمسكون بما روي عن عبد الله بن مسعود: «جرِّدوا القرآن ولا تخلطوه بشيء».

سادساً: ونأتي إلى جوهر القضية، وهو ما يقال من أن خلو المصحف من النقط والشكل كان هو السبب في اختلاف القراءات، لأن كل قارىء كان يقرأ رسم الكلمة وفق ما يؤديه إليه اجتهاده أو سليقته اللغوية، وما يظهر له من معنى الآية.

دلائل لغوية:

والذين ردُّوا هذا الرأي دفعوه بأكثر من حجة ودليل، وسأكتفي هنا بدليلين، ومن أراد الزيادة فعليه بما كتبه المشايخ: الزرقاني وشلبي والقاضي، في كتبهم التي أشرت إليها:

الدليل الأول: أن اختلاف القرَّاء إنما حدث في حياة الرسول ﷺ، فيما تلاه عليهم وسمعوه منه مشافهة، ولم يأت هذا الخلاف نتيجة النظر في المصحف المكتوب المقروء، ودليل ذلك حديث عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم، الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من المحدثين والمفسرين. وهذا هو نص الحديث كما جاء في رواية البخاري «باب أنزل القرآن على سبعة أحرف. من كتاب فضائل القرآن»:

«قال عمر بن الخطاب: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبَّرت حتى سلَّم، فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: أرسله. اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال

رسول الله ﷺ: كذلك أُنزلت. ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أُنزلت. إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسَّر منه».

هذا وقد ذكر الطبري في مقدمة تفسيره آثاراً أخرى في اختلاف القراء فيما سمعوه من رسول الله ﷺ. وهذه الآثار تدل كلها على أن القراءات مأخوذة بالتلقي والمشافهة والسماع من فمه الشريف ﷺ، وإنما اختلفت القراءات عنه ﷺ تيسيراً على أمته وتخفيفاً، مراعاة لاختلاف لغات القبائل، أي لهجاتها.

الدليل الثاني: لو كان خلو المصاحف من الشكل والإعجام سبباً في تنوع القراءات واختلافها، لكان القارىء الذي يقرأ الكلمة وفق رسم معين، يلتزمه في أمثاله ونظائره حيث وقع في القرآن الكريم، ولم يحدث هذا، وإليك مثالاً واحداً: قوله تعالى في فاتحة الكتاب: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾، وقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾، وقوله تعالى في سورة الناس: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾﴾، فلو تأملت المواضع الثلاثة في المصحف لوجدت الكلمة فيها كلها هكذا ﴿ملك﴾ بالميم واللام والكاف فقط، ولكن حفصاً يقرأ عن عاصم، في الفاتحة ﴿مالك﴾ بالألف بعد الميم، وكذلك يقرأ آية آل عمران، أما في سورة الناس فيقرأ ﴿ملك﴾ من دون الألف، فلو كان حفص يقرأ وفق رسم المصحف لقرأ في المواضع الثلاثة ﴿ملك﴾، ولكنه يقرأ بالرواية المتواترة عن رسول الله ﷺ.

وكذلك قد تختلف القراءات أحياناً، لغة ونحواً، وهكذا يبدو للناس في ظاهر الأمر، ولكن الاختلاف في الحقيقة راجع إلى التلقي والرواية، لا إلى القاعدة اللغوية أو النحوية، وهذا مثال واحد:

قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ جاءت هذه الآية في موضعين: سورة النساء ٩٥، وسورة الحديد ١٠، ويقرأ القراء جميعاً (كلًّا) بالنصب في الآيتين، لكن ابن عامر يقرأ آية النساء بالنصب، كسائر القراء، أما آية الحديد فيقرأها وحده (وكلٌّ) بالرفع، وللنحويين في توجيه الرفع والنصب كلام. فلو كان ابن عامر يقرأ وفق

القاعدة النحوية لقرأ الآيتين بالرفع، ولكنه قرأ بالرواية التي تلقاها هو بالتواتر عن سيدنا رسول الله ﷺ: مرة بالنصب ومرة بالرفع، مع أن تركيب الآية واحد في الموضعين.

ومثال ثان: الإمالة ظاهرة صوتية، وهي «أن تنحي بالألف نحو الياء، فيلزم أن تنحي بالفتحة قبلها نحو الكسرة»، وهي لغة بعض القبائل العربية، وقد قرأ بها بعض القراء، والتزموها حيث وجدت دواعيها في القرآن الكريم، لكن حفصاً الذي يقرأ بقراءته كثير من المسلمين الآن بروايته عن عاصم، لم يقرأ بالإمالة إلا في موضع واحد من الذكر الحكيم، وهو قوله تعالى من الآية ٤١ من سورة هود: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾، وهكذا يختلف القراء ويتفقون، بحسب الرواية والتلقي، وليس بحسب رسم المصحف أو الوجه النحوي أو اللغوي، صحيح أن هذين في الاعتبار، ولكن بعد ثبوت الرواية بالتواتر والسند الصحيح، ولذلك قالوا إن للقراءة المقبولة ثلاثة شروط: التواتر بالسند الصحيح إلى رسول الله ﷺ، وموافقة الرسم العثماني، وأن يكون للقراءة وجه صحيح من العربية، فإذا سمعت قراءة مسندة لواحد من القراء السبعة أو العشرة، كأن يقال: قراءة نافع أو عاصم أو الكسائي، فلا تظن أنها من اختراعه أو ابتداعه، ولكنها اختياره الذي ارتضاه من طريق الرواية المسندة الصحيحة، ولذلك أُثر عن أبي عمرو بن العلاء ــ وهو أحد القراء السبعة ــ قوله: «لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قرىء به لقرأت كذا وكذا. وذكر حروفاً».

ويريد أبو عمرو أن القراءة سنة واتباع وأثر، ولا دخل فيها للسليقة أو الاستحسان اللغوي أو الترجيح النحوي أو رسم المصحف. ومن ثم يرى كثير من العلماء أن ترجيح قراءة متواترة على قراءة متواترة لا يجوز؛ يقول أبو العباس ثعلب: «إذا اختلف الإعراب في القرآن عن السبعة لم أفضل إعراباً على إعراب في القرآن، فإذا خرجت إلى الكلام كلام الناس فضلت الأقوى»، راجع الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي ١/ ٤٨ ــ ٤/ ٥٦٣.

قراءات ربانية :

فثبت إذن أن القراءات القرآنية كلها بوجوهها المختلفة من عند الله، ولا دخل لخط المصحف فيها، ولا للوجوه النحوية أو اللغوية فيها كذلك، وثبت أيضاً أن اختلاف القراءات القرآنية إنما هو اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد.

أما السؤال عن كيفية نزول جبريل عليه السلام بهذه القراءات المختلفة، فقد أجاب عنه ابن قتيبة، فقال: «وكل هذه الحروف ــ يعني الوجوه المختلفة للقراءات ــ كلام الله تعالى، نزل به الروح الأمين على رسوله عليه السلام، وذلك أنه كان يعارضه في كل شهر من شهور رمضان بما اجتمع عنده من القرآن، فيحدث الله إليه من ذلك ما يشاء، وينسخ ما يشاء، وييسر على عباده ما يشاء، فكان من تيسيره: أن أمره بأن يقرىء كل قوم بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم»، انظر: تأويل مشكل القرآن ص ٣٨ واقرأ بقية كلامه، فإنه عالٍ نفيس.

وبعد: فهلا آن الأوان لجامعاتنا العربية أن تهتم بهذا العلم ــ علم القراءات ــ : رواية ودراية، فتجعل له نصيباً مفروضاً في مناهج الدراسات العليا، ونعم إنها تمنح فيه درجات عليا، ولكن في جانب واحد منه، وهو جانب الأصوات مع المقارنة بالدراسات اللغوية الحديثة، وهذا ليس كافياً. ولعلي أعود إلى هذا الموضوع بشيء من البسط والتفصيل إن شاء الله.

وتحية إلى فضيلة الشيخ الشعراوي الذي فتح لنا هذا الباب من القول.

* * *

ذيل الأعلام.. ومغالبة الهوى![1]

تأليف: أحمد العلاونة

حين عالجت تحقيق ونشر بعض النصوص التاريخية، ظهر لي أن شطراً كبيراً من حضارتنا العربية والإسلامية لا يظهر إلا من خلال كتب التراجم، وأن مصادر التاريخ الإسلامي على نهج الحوليات والحوادث العامة، كالطبري والمسعودي مثلاً، ليست هي الصورة الكاملة لذلك التاريخ.

ثم نظرت إلى من أسعدني زماني بمعرفتهم من علماء العصر، في مصر وفي غير مصر، فرأيت من علمهم وآثارهم كل غريبة وعجيبة، وهو علم معرّض للضياع إذا لم يدوَّن ويسجل، فتمنيت أن لو أتيح لفن تراجم الأعلام المعاصرين من يصل عمل الزركلي، على النهج الذي سلكه، أو على نهج مقارب له، ولم يطل الانتظار، فقد نهد إلى هذا العمل باحث من الأردن، وهو الأستاذ «أحمد العلاونة»، وقد أعدّ للأمر عدته، وأخذ له أخذه، فشرع يجمع بجهده، ويتصل بمن يتوسم فيهم المعرفة من الأقطار العربية، ممن لهم عناية بالتراجم وتاريخ الرجال، فسأل واستفسر وطلب العون، فأجيب إلى سؤله، وحين اجتمع له قدر من هؤلاء الأعلام، ترجم لهم في ذلك الجزء الذي جاء في (٣٦٨) صفحة من القطع الكبير، وقد صدر عن دار المنارة بجُدة ــ السعودية ــ ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م.

وسمَّى الباحث كتابه «ذيل الأعلام»، و «الذيل» تسمية قديمة يراد بها تكميل العمل الأول، أو الاستدراك عليه، مثل: ذيل تاريخ بغداد لابن النجار، والأصل

(١) مجلة «الهلال»، أكتوبر ١٩٩٨م.

للخطيب البغدادي، ومثل: التكملة والذيل والصلة، للصاغاني، والأصل: الصَّحاح للجوهري.

وقد ترجم الأستاذ أحمد العلاونة لأربعمائة وستة وثلاثين علماً (٤٣٦)، وذكر أنه ابتدأ بوفيات سنة ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م، وهي السنة التي أعقبت وفاة الزركلي، ومعنى ذلك أنه ترجم للأعلام المتوفين فقط ـ وهو شرط الزركلي في الأعلام ـ ولكنه ذكر كلاماً في مقدمته يوحي بأنه ترجم لبعض الأحياء، وذلك قوله: «وبلوت من بعض المعارضين الذين يكتبون تراجمهم لي ولغيري خصالاً ذميمة، منها: أن أحدهم كان يفيض في ترجمته، ويغدق عليه كل مديح حسن، وينسب إليه ما ليس له، وإذا شارك في تأسيس شيء ما أفرده لنفسه، وإذا سئل عن عمره صغَّره ليقال: إنه نبغ صغيراً، فيرى القارىء حسناً ما ليس بحسن، فكان علي أن أغربل ذلك كله».

مآخذ على الزركلي:

وقد رأى الباحث من تمام الفائدة أن يتعقب الزركلي في بعض ما سها عنه، أو أخل به، فذكر مآخذه هو عليه، ثم ذكر أيضاً مآخذ الأستاذ محمد أحمد دهمان، من علماء سورية، ومآخذ القاضي إسماعيل الأكوع من اليمن، وهذا كله جيد، فإن «النقد يجبر النقص ويقيم العوج ويصلح المُنآد»، وقد نقل الباحث كلمة شيخنا محمود محمد شاكر، برَّد الله مضجعه: «فإن جودة العلم لا تتكون إلا بجودة النقد ولولا النقد لبطل كثير علم ولاختلط الجهل بالعلم اختلاطاً لا خلاص منه ولا حيلة فيه».

وقد دعا الباحث العلماء إلى نقد كتابه، وها أنذا أستجيب له، رعاية لحق العلم وأداء للأمانة، فأقول:

أول ما أناقشك فيه أيها الباحث الكريم: المعيار الذي اعتبرته للأعلام الذين يستحقون الترجمة، فأنت قد أخذت على الزركلي أنه ترجم لبعض المجاهيل أو ممن ليسوا أحق بالترجمة، وقد وقعت أنت في ذلك فترجمت لطائفة أعرف بعضهم عن قرب، فبعضهم درَّس لي وبعضهم كان صديقاً لي، وهم أهل فضل، لكنهم ليسوا هناك، ومحلهم من العلم محدود، وليس كل من ولي منصباً أو نال جائزة، أو شرف

بعضوية هيئة علمية جديراً بأن يكون من الأعلام الذين تسجل أسماؤهم في دوائر المعارف أو ما هو شبيه بها، وأضرب لك مثالاً واحداً:

لقد حصل العقاد وطه حسين ومحمود شاكر على جائزة الدولة التقديرية، ولكن هل تظن أن كل من حصل على هذه الجائزة يكون في قامة واحد من هؤلاء؟

إنَّ الناس تتقلَّب في حياتها في مجال الشهرة والأضواء وكثير منهم ليس له من أسباب هذه الشهرة وتلك الأضواء إلا ما تتيحه له قدرته على الحركة واستثمار الفرص المتاحة، وفتح أبواب المصانعة وتبادل المنافع، ثم هذا الذكاء الاجتماعي الذي يمكن لصاحبه في الأرض، بالإلحاح على عين القارىء وأذن المستمع، باسمه الذي يتردد وصورته التي تتلألأ في وسائل الإعلام صباح مساء، وذلك كله رزق الله المقسَّم على خلقه، وهي حظوظ الناس تصيب بعضاً وتخطىء بعضاً:

يشقى أناس ويشقى آخرون بهم	ويُسعد الله أقواماً بأقوام
وليس رزق الفتى من فضل حيلته	لكن جدود وأرزاق وأقسام
كالصيد يُحْرَمُه الرامي المجيد وقد	يرمي فيحرزه من ليس بالرامي

لكن الناس إذا ماتوا انقطعت أسباب شهرتهم، ولم يبق إلا هذه الأعمال الجليلة التي يطيب بها ذكرهم وتخلد بها أسماؤهم، فالموت هو قاطع العلائق، ومنصف الموتى من الأحياء.

روى أبو عبد الرحمن السلمي قال: «حضرت جنازة أبي الفتح القواس الزاهد مع أبي الحسن الدارقطني، فلما نظر إلى الجمع (أي كثرة الناس وازدحامهم) قال: سمعت أبا سهل ابن زياد القطان يقول: سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول: سمعت أبي يقول: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز»، انظر: مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ٥٦٠.

ولن أستطيع أن أذكر أسماء هؤلاء الأعلام الذين ترجم لهم الباحث، وهم غير أهل للترجمة، حتى لا أغضب ذويهم، وأقاربهم، وحتى لا أنبش القبور. ويبدو أن

الباحث قد عوَّل على هؤلاء الذين استشارهم ــ وذكرهم في مقدمة كتابه ــ فأشاروا عليه ببعض أصدقائهم الراحلين «وحسن في كل عين ما تود».

وثاني ما أناقش فيه الباحث الكريم: قضية الحيدة والموضوعية في ترجمة الأعلام، فعلى كاتب الترجمة أن يكون حذراً كل الحذر في صياغة الترجمة، وكبح جماح القلم، حتى لا ينزلق إلى ذكر الرأي الخاص، وهو من محاسن كتاب: «الأعلام» للزركلي رحمه الله، ولم يراع الباحث ذلك، فقد غلبه هواه، ومن ذلك ما ذكره في ترجمة الرئيس المصري «محمد أنور السادات» (ويلاحظ أنه ذكره في حرف الهمزة، وكان المنهج يقتضي أن يذكره في حرف الميم).

إنكار حرب رمضان وشماتة لا تليق:

فمما قاله في هذه الترجمة: «أن السادات اشترك مع سورية في حرب خاطفة ضد إسرائيل. . . غير أن إسرائيل استفادت من تلك الحرب أكثر مما خسرت»، وهذا خَلْف من القول، وباطل من الرأي، وأكثر الناس بغضاً للسادات لا يسعه أن يقول هذا، فإن حرب رمضان التي خطط لها وكتم خبرها وقادها السادات كانت نصراً كبيراً للعرب ولمصر، وقد غسلت العار عن جبين الأمة العربية، وقد رأى الناس كلهم صورة الفيلق الإسرائيلي المأسور بقيادة «عساف ياجوري»، ثم رأينا ورأى الناس تلك الاستحكامات والبنايات الراسخة التي أقامها اليهود في «عيون موسى» تحت الأرض وكأنها هي التي يقول الله عزَّ وجلّ في وصفها: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ﴾ [الحشر: ١٤]، نعم رأينا هذه البنايات المحكمة وقد دكها جيش مصر.

ثم يقول الباحث أيضاً عن مقتل السادات: «إنه قتل بطريقة مدهشة، وابتهج الناس بقتله»! وهذه شماتة لا تليق، ثم إن ذلك التعميم في قوله: «ابتهج الناس بقتله» غير صحيح، فلئن كان بعض الناس قد ابتهج بقتله، فإن كثيرين قد حزنوا له، ولم يقنع الباحث بذلك كله حتى نشر صورة الهجوم على المنصة، وأنا لا أدافع عن

السادات ــ وإن كان ذلك حبيباً إليّ ــ ولكني أريد أن أقول: إن الأعمال الموسوعية ينبغي أن تبرأ من الهوى، وتتصف بالحيدة والموضوعية.

سقطات:

ومن ذلك أيضاً ما ذكره في ترجمة الأديب «عبد الرحمن الشرقاوي» قال: «أديب وشاعر متجن على تاريخ الإسلام ورجاله، نعته الشيخ محمد الغزالي بأنه يجمع القمامات من كتب التاريخ». ثم قال الباحث: «له تآليف ذميمة، منها الفتى مهران مأساة جميلة»، إلى آخر ما ذكر.

يا سيدي الفاضل، نحن لا نترجم للناس لكي نهينهم ونهوي بهم! وأرى أنه إذا بلغ منك الرجل هذا المبلغ من البغض والشنآن، فأسقطه من كتابك، وإذا سئلت عنه فقل: لا أراه جديراً بالترجمة.

إن مؤرخينا القدماء كانوا أكثر إنصافاً وموضوعية، فمؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي (٧٤٨هـ) يترجم للحجاج بن يوسف الثقفي، ذلك الجبار الذي يكاد الناس يجمعون على بغضه واستبشاع ما صنع، يقول عنه الذهبي: «وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه وأمره إلى الله، وله توحيد في الجملة»، فذكر له «حسنات»، وانظر: سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤٣.

ومن أجمل وأحكم ما رأيته من مغالبة الهوى وقهر نوازع النفس، مع عدم إغفال الرأي الخاص، ما ذكره شيخنا محمود شاكر في شأن مستشرق يهودي صحَّح له خطأ وقع فيه فقال في ص ٣٩٥ من طبقات فحول الشعراء: «وكنت أخطأت بيان ذلك في طبعتي السالفة من الطبقات، فجاءتني من الأرض المقدسة التي دنستها يهود، رسالة رقيقة من (م. ي. قسطر) فدلني على الصواب الذي ذكرته آنفاً، فمن أمانة العلم أذكره شاكراً كارهاً لهذا الذكر»، فانظر وتأمل، كيف اعترف بالصنيعة وشكرها، ثم لم يخف ما في نفسه.

ونعود إلى ترجمة «عبد الرحمن الشرقاوي»، فمع كل ما ذكره الباحث من إساءة إليه لم يذكر أهم أعماله الأدبية، وهي رواية «الأرض».

ملاحظات تفصيلية :

وهذه بعض الملاحظات التفصيلية أسوقها وفق ورودها في الكتاب :

في ص ١٧ : ذكر في ترجمة «إبراهيم الأبياري» أنه حقق «مختار الأغاني»، و «الجيم» للشيباني، والصحيح أنه حقق الجزء الأول منهما فقط.

في ص ٢٩ : يزاد في أعمال «أحمد عبد الستار الجواري» أنه حقق كتاب «المقرب» لابن عصفور، مع الدكتور عبد الله الجبوري.

في ص ٣٢ : ذكر في ترجمة «أحمد رامي» أنه حقق كتاب «قاموس البلاد المصرية»، والحق أن هذا الكتاب من تأليف «محمد رمزي» المتوفى سنة ١٩٤٥، وقد ترك هذا الكتاب جذاذات وبطاقات، رتبها وأعدها للنشر أحمد رامي وقت أن كان وكيلاً لدار الكتب المصرية، هكذا أخبرني الدكتور أيمن فؤاد سيد، وهو الخبير بتاريخ دار الكتب ونشاطها. وفي ظني أن «أحمد رامي» إنما أشرف على هذا العمل، وأعانه عليه قوم آخرون من موظفي القسم الأدبي بدار الكتب، وكانوا من أهل العلم.

في ص ٣٤ : ذكر من تحقيقات «أحمد عبيد» كتاب : «مثير العزم الساكن»، والصواب : «الغرام». وكذلك جاء في كشف الظنون ص ١٥٨٩ .

في ص ٥٥ : استطرد في ترجمة «الشيخ جاد الحق علي جاد الحق» شيخ الأزهر، إلى منصب «مشيخة الأزهر»، وأنه كان في مبدأ أمره يقوم على الانتخاب من هيئة كبار العلماء، ثم أصبح تعييناً من قبل رئيس الجمهورية، ثم خلص إلى أمور أخرى، وليس ذلك من طبيعة كتاب تراجم كهذا الكتاب، ثم إنه نسي أنه يترجم لواحد من مشايخ الأزهر، وليس الأزهر وتاريخه.

في ص ٦٨ : ذكر في ترجمة «حسن كامل الصيرفي» أنه حقق دواوين هؤلاء الشعراء : حارث بن حلزة والمرقشين ولقيط بن يعمر، ثم حماسة البحتري والاختيارين للأخفش، وعبث الوليد للمعري، وأخبار البلدان للقزويني. والحق أن

هذه أعمال كانت تحت يده يعمل في تحقيقها، وكان يشير إليها في تحقيقاته، ولكنه لم يطبع منها شيئاً. ثم ذكر من تحقيقاته: لطائف اللطائف للثعالبي، وصواب العنوان: لطائف المعارف، وقد أخرجه بالاشتراك مع «إبراهيم الأبياري».

في ص ٧٧: مما يكمل لوحة حياة «خالد محمد خالد» ــ وهو مما يجهله كثير من الناس ــ أنه كان في مبتدأ أمره خطيباً لامعاً بالجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية التي أسسها الفقيه المالكي الشيخ محمود خطاب السبكي المتوفى سنة **١٣٥٢**هـ = **١٩٣٣**م.

وبعد مؤلفاته الأولى التي أحدثت ضجة وضجيجاً ــ مثل: من هنا نبدأ ولكيلا تحرثوا في البحر ــ عاد إلى الكتابات الإسلامية، وطوى صفحاته الأولى، وعاش في آخر أيامه حياة صوفية هادئة.

في ص ٧٨: يزاد في ترجمة «خليل هنداوي» أنه من الرواد الأوائل في استخدام مصطلح «الأدب المقارن»، انظر: مقدمة العلامة الدكتور محمود علي مكي لكتاب «في الأدب المقارن» لفخري أبو السعود، الذي أعدته جيهان عرفة...

في ص ٨٥: ذكر في ترجمة «رياض السنباطي» أغنية «على بلد المحبوب»، وهو أول لحن له شدت به أم كلثوم، ولكنه كتب «على بلدي المحبوب» بالإضافة إلى ياء المتكلم، والصواب: «على بلد المحبوب» بالإضافة إلى المحبوب.

في ص ٨٧: ذكر في ترجمة الوراق «زكي محمد مجاهد» أنه طبع من كتابه: «الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية» أجزاء ثم أعجلته المنية عن إتمامه. وهذا من كلامي في كتابي «الموجز في مراجع التراجم» ص ٧٤، الذي صدر عام ١٩٨٥م، ولكن الذي حدث بعد ذلك أن أولاده جمعوا تصحيحاته على الأجزاء الأربعة التي طبعت في حياته، ثم أضافوا الجزء الخامس الذي كان أبوهم قد أعده ودفعوا بذلك كله إلى الناشر العالم المجاهد الحبيب اللَّمسي، فأخرج العمل كله في طبعة أنيقة في ثلاثة أجزاء عن دار الغرب الإسلامي عام ١٩٩٤م، بمراجعة وتصحيح الدكتور محمد البقلاوي بالجامعة التونسية.

وفي الصفحة نفسها يزاد في ترجمة «زكي المهندس» إنه والد الممثل الكوميدي «فؤاد المهندس»، والإذاعية الرائدة «صفية المهندس»، وأنه خال الدكتور إبراهيم أنيس» المترجم في ص ١٧ ، ووالد زوجته.

في ص ٩٦ : تردد في مولد ووفاة شيخنا العلامة «السيد أحمد صقر»، وقد ولد رحمه الله سنة ١٩١٥م، وتوفي يوم السبت ٣ من جمادى الآخرة ١٤١٠هـ ـ ٢ من ديسمبر ١٩٨٩م.

في ص ١٠٧ : يزاد في ترجمة «طاهر أبو فاشا» أنه كان من ظرفاء العصر، وأن أم كلثوم غنت له شعره الذي صاغه في تمثيلية «رابعة العدوية» بالإذاعة المصرية في أواخر الخمسينيات، وفي تلك الأيام رفع الدكتور «عبد الرحمن بدوي» دعوى قضائية على «طاهر أبو فاشا»، لأنه أغار على كتابه عن «رابعة العدوية»، وصنع منه تمثيليته.

في ص ١١١ : ترجم لشيخنا مقرىء الوقت الشيخ عامر عثمان، وتمام اسمه «عامر السيد عثمان»، وقد نقل كلاماً لي في ترجمة الشيخ وعزاه إلي. وكان مما نقله «الوقوف ومواقفها»، وصواب كلامي: «ومواقعها»، ويحمد للباحث أنه ترجم لأبرز علماء القراءات، وأصحاب الأصوات، مثل شيخنا هذا، والمشايخ: عبد الفتاح القاضي، وعبد الفتاح المرصفي، وعبد الباسط عبد الصمد، ولكنه أغفل علمين كبيرين، هما: محمود خليل الحصري، ومصطفى إسماعيل.

أما الأول فكان من أكثر القراء التزاماً بأصول التلاوة ودقة الأداء، وهو أول من سجل «المصحف المرتل» في أوائل الستينيات في إذاعة القرآن الكريم ـ وكانت أول إذاعة في العالم العربي والإسلامي تخصص للقرآن الكريم، كما أن له تأليفاً في علم الوقف والابتداء، وأما الشيخ مصطفى إسماعيل فكان في الذروة في حلاوة الصوت وجمال الأداء وتمام الصنعة. وقد كتب عنه الأستاذ كمال النجمي كتاباً، وكتبت فيه مقالة بمجلة الهلال.

في ص ١١٥ : ذكر في ترجمة «عبد الحليم حافظ» أنه غنى لكبار الملحنين، أمثال محمد عبد الوهاب، ورياض السنباطي، وقد أغفل «محمد الموجي»، وهو باب تلك الشهرة العريضة التي حظي بها عبد الحليم. وكان تلحينه لأغنية «صافيني مرة» المفتاح الذهبي لهذا الباب. والغريب أن عبد الحليم بدأ حياته بهذه الأغنية، وختمها بأغنية من تلحين الموجي أيضاً، وهي «قارئة الفنجان» من شعر نزار قباني.

ويقول أستاذنا كمال النجمي: «يكاد ينعقد الإجماع الآن على أن ألحان الموجي، من أجمل ما غنى عبد الحليم»، انظر: الغناء العربي بين الموصلي وزرياب، وأم كلثوم وعبد الوهاب ص ٢٥٧.

وفي الصفحة نفسها: ذكر من مؤلفات «الشيخ عبد الحليم محمود» كتاب: «المنقذ من الضلال»، والصحيح أن هذا الكتاب لأبي حامد الغزالي، والشيخ عبد الحليم إنما حققه ونشره. ثم ذكر من تصانيف الشيخ «عبد السلام بن بشيش» هكذا بالباء الموحدة، والصواب: «مشيش» بالميم.

في ص ١٢٦ : ذكر من تأليف «الشيخ عبد الفتاح القاضي» القراءات الشاذة ورواتها»، والصواب: «القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب».

في ص ١٤٢ : ذكر من تحقيقات أستاذنا «علي النجدي ناصف» الجزء الثالث من «لسان العرب» لابن منظور، ولا أعرف له تحقيقاً كهذا، ولسان العرب لم يحقق أصلاً.

في ص ١٤٩ : ذكر في ترجمة «فتحي رضوان» أنه كان من الملازمين لندوات شيخنا محمود شاكر. وهذا غير صحيح، فقد كانت زياراته لشيخنا نادرة، وقد ذكر هو نفسه ذلك في مقالته التي كتبها عن الشيخ في كتاب «دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير محمود محمد شاكر» ص ٤١٠، هذا ولم يذكر الباحث عن «فتحي رضوان» أنه كان أديباً بارزاً، واكتفى بلوحة حياته السياسية.

في ص ١٦٨: ذكر في ترجمة الشيخ «محمد بهجة الأثري» أنه اعتقل بسبب اشتراكه في ثورة «رشيد كرامي» على الإنكليز، والصواب: «رشيد عالي الكيلاني».

في ص ١٧٩: ذكر من شعر بدوي الجبل، يشمت بفرنسة في هزيمتها في الحرب العالمية الثانية:

الأم الحنـــون أكلـــت (خـ) قـد أتـاهـا مـن هتلـر مـا أتـاهـا

وواضح أن (خـ) اختصاراً من كلمة «خراها»، وكأن الباحث استنكرها، وهي كلمة صحيحة فصيحة.

وجاءت الكلمة في الشعر بإسقاط الهمزة، قال الشاعر:

زمـــاننـــا هـــذا خـــرا وأهلـــه كمـــا تـــرى
ومشيهـــم جميعهـــم إلـــى ورا إلـــى ورا

انظر: الغيث المسجم شرح لامية العجم، لصلاح الدين صفدي ٢/ ٢٢٢، والتحرج من ذكر مثل هذه الألفاظ ليس من البر باللغة، وليس ذكرها مخلاً بالآداب العامة (لا مؤاخذة)، على أن إغفال مثل هذه الألفاظ يذهب بشطر كبير من الأدب.

في ص ١٨٠: ذكر في ترجمة «محمد شوقي أمين» أنه كان يكتب باباً شهرياً في مجلة الهلال بعنوان «أديب وفاكهة»، والذي أذكره أن عنوان ذلك الباب كان «سلطة أدبية».

ويضاف في ترجمته أنه شقيق الأديب الناقد: «محمود أمين العالم»، وبمناسبة ترجمة «محمد شوقي أمين»، فقد فات الباحث أن يترجم لأديب شهير كان من أصدقاء المترجم، وهو «عباس خضر»، وهو من كتاب «الرسالة»، وله تآليف في الأدب كثيرة، وهو من الذين تمسكوا بالطربوش إلى آخر حياته، ومن كتبه الأدباء في طفولتهم، وغرام الأدباء. ولد في ٢ نوفمبر ١٩٠٨، وتوفي ١١ مارس ١٩٨٧، كما أخبرني مؤرخ الأدب الأستاذ وديع فلسطين. وكانوا أصدقاء أربعة: عباس خضر،

ومحمد رفعت فتح الله، وطاهر أبو فاشا، ومحمد شوقي أمين. وقد ترجم الباحث لثلاثة منهم وترك عبّاساً.

في ص ١٨٧: يزاد في ترجمة «محمد المبارك» أنه شقيق العالم النحوي الدكتور «مازن المبارك».

في ص ١٨٨: يزاد في ترجمة «محمد عبد الهادي أبو ريدة» أنه كان من كبار الصوفية، وقد لقيته بالكويت عام ١٩٩٠، وأخبرني أنه أخذ العهد على الشيخ «الحافظ التيجاني» في أول يناير ١٩٢٨م، ومعنى ذلك أنه كان في التاسعة عشرة من عمره.

في ص ١٩٥: ذكر اسم «الدكتور صبري الصربوني» بالصاد، والصحيح «السربوني» بالسين، نسبة إلى جامعة السربون؟ لأنه كان أول مصري يدرس بها.

في ص ٢٠٦: يضاف في ترجمة «محمود حسن إسماعيل» أنه كان من أخلص أصدقاء شيخنا «محمود محمد شاكر»، وقد سألت الشيخ مرة ــ وقد قرأ علينا شعراً له هو شجي النغم ــ لماذا لم تواصل الشعر يا مولانا؟

فقال: تركته لمحمود حسن إسماعيل، وهذان البيتان اللذان أثبتهما الباحث بخط محمود حسن إسماعيل إنما هما من شعره في مقدمة «القوس العذراء» لشيخنا.

في ص ٢١١: ذكر في ترجمة «نجيب البهبيتي» أنه مغربي، والصحيح أنه مصري، وقصته طويلة، وفيها جانب مأساوي، وخلاصة أمره أنه أخرج من الجامعة المصرية، في أوائل ثورة يوليو، بقرار مما كان يسمَّى يومئذ لجان التطهير، فخرج إلى المغرب، وهناك وجد أرحب دار وخير ناس، فدرس هناك بجامعة محمد الخامس، حتى وافته المنية بالرباط.

في ص ٢٢٩: يزاد في ترجمة «يوسف السباعي» أنه ابن الأديب «محمد السباعي»، وهو من كبار المترجمين عن الإنجليزية. ومن أشهر مترجماته «الأبطال» لكارليل، وقصة مدينتين لديكنز، ورباعيات الخيام، عن فيتز جيرالد، وهو مترجم في الأعلام.

ويزاد أيضاً: أنَّ يوسف السباعي كان عديلاً للنحوي الكبير عبَّاس حسن المترجم ص ١١٢ .

وبعد: فهذا عمل جيد. نهنىء صاحبه عليه، ونشد على يده. ونسأل الله له التوفيق في استكماله، على أن يدقق في المعايير التي يترجم على أساسها للناس، وأن يغالب هواه، ويلتزم الحيدة والإنصاف، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والسعيد من وفَّقه الله .

* * *

محمود محمد شاكر[1]

ركن باذخ من أركان الثقافة العربية الإسلامية في العصر الحديث، وإمام ضخم من أئمة البعث والإحياء، ورأس مدرسة الأفذاذ في تحقيق التراث ونشره.

ولد محمود محمد شاكر بمدينة الإسكندرية يوم الاثنين العاشر من شهر الله المحرم سنة ١٣٢٧هـ، الموافق أول فبراير عام ١٩٠٩م.

ووالده الشيخ محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر. من أسرة أبي علياء من أشراف مدينة جِرجا بصعيد مصر. والشيخ محمد شاكر من أعلام العصر، ومن زعماء الإصلاح في الأزهر الشريف، وكان وكيلاً له، توفي سنة ١٩٣٩ م.

وجدُّه لأمه الشيخ هارون بن عبد الرازق، أحد كبار علماء المذهب المالكي في مصر، توفي سنة ١٩١٨م، وهو جد المحقق الكبير عبد السلام محمد هارون المتوفى سنة ١٩٨٨م.

وأخوه الأكبر الشيخ أحمد محمد شاكر، محدِّث العصر ومُسْنِده. اشتغل بالقضاء، وكانت له أحكام مشهورة، ونشر جملة من نصوص التراث، من أعلاها «الرسالة» للإمام الشافعي، وأجزاء من «مسند أحمد بن حنبل»، ومن «سنن الترمذي»، و «المعرَّب» للجواليقي، و «لباب الآداب» لأسامة بن منقذ. توفي سنة ١٩٥٨م.

تلقى محمود محمد شاكر أول مراحل تعليمه في مدرسة الوالدة أم عباس في القاهرة سنة ١٩١٦م.

---

(١) مؤسسة الفرقان للتراث، ١٩٩٨م، لندن.

حصل على شهادة البكالوريا ــ الثانوية العامة ــ القسم العلمي، فقد كان أبوه يُعدّه ليكون طبيباً، من المدرسة الخديوية سنة ١٩٢٥م.

فـي سنة ١٩٢٦م التحق بكلية الآداب، الجامعة المصرية، واستمر بها إلى السنة الثانية، حيث نشب الخلاف المعروف بينـه وبين الدكتور طه حسين حول (قضية الشعر الجاهلي)، وقد أفضى هذا الخلاف إلى أن يترك الدراسات الجامعية كلها.

وفي سنة ١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م سافر إلى الحجاز مهاجراً، وهناك أنشأ بناءً على طلب من الملك عبد العزيز آل سعود، مدرسة جدة السعودية الابتدائية وعمل مديراً لها، ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة في أواسط عام ١٩٢٩م، ومنذ ذلك التاريخ وهو ملازم بيته وكتبه، لم يَلِ عملاً وظيفيّاً يأكل وقته، ولم يتقلد منصباً يريد له أن ينمو ويُكْسِبه الوجاهة عند الناس.

وقد أخذ نفسه منذ طراءة الصبا وأوائل الشباب بأسلوب صارم حازم، فقرأ القرآن صبيّاً، وقرأ «لسان العرب» كله وهو طالب بالتعليم الثانوي، ثم أقبل على قراءة الشعر مبكراً، ويحفظه لا كما يحفظه الناس؛ مقطوعات للإنشاد والتسلي والمطارحة في المجالس، وإنما الشعر عنده باب العربية كلها، وقد قاده الشعر إلى كتب العربية كلها، والمكتبة العربية عند أبـي فهر كتاب واحد، والعلوم العربية عنده علم واحد، فهو يقرأ «صحيح البخاري» كما يقرأ «أغاني أبـي الفرج»، ويقرأ: «كتاب سيبويه»، كما يقرأ: «المواقف» لعضد الدين الإيجي.

وهكذا خالط أبو فهر العربية منذ أيامه الأولى، وعرف مناهج الكتب، وطرائق الكتاب، في مختلف فنون العربية، وخبر مصطلحات الأقدمين وأعرافهم اللغوية، وهذا فَرْق ما بينه وبين سواه من الكتاب والنقاد، فأنت قد تجد ناقداً ذا ذوق وبصيرة، ولكن محصوله اللغوي على قدر الحاجة، وقد تصادفه يجمع بين الذوق والبصيرة واللغة، ولكن معارفه التاريخية لا تتجاوز الشائع العام الدائر على الألسنة، وقد تراه فاز من الثلاثة بأوفر الحظ والنصيب، ولكنك لن تجد عنده ما تجد عند أبـي فهر من

الأُنس بالمكتبة العربية كلها في فنونها جميعها، ودوران هذه الفنون في فكره وقلبه دوران الدم في العروق.

ولقد سارت حياة محمود محمد شاكر في طريقين، استويا عنده استواء واضحاً عدلاً: الطريق الأول: طريق العلم والمعرفة، يعب منهما ولا يروَى. والطريق الثاني: التنبه الشديد لما يُحاك لأمتنا العربية من كيد ومكر، وما يُراد لثقافتها وعلومها من غياب واضمحلال، وظلَّ حياته كلها قائماً على حراسة العربية، والذود عنها، يحب من أجلها، ويخاصم من أجلها، وقد احتمل في حالتيه من العناء والمكابدة ما تنوء بحمله العُصبة أولو القوة.

وقد حارب أبو فهر في جهات كثيرة، وخاض معارك كثيرة: حارب الدعوة إلى العامية، وحارب الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، وحارب الدعوة إلى هَلْهَلة اللغة العربية والعبث بها بحجة التطور اللغوي، وحارب الخرافات والبدع والشعوذة، وقد حارب في كل ذلك وحده غير مُتَحَيِّزٍ إلى فئة، أو منتصر بجماعة، وهو في معاركه كلها صلبٌ عنيدٌ فاتك، ألقى الدنيا خلف ظهره، ودَبْرَ أذنيه، فلم يعبأ بإقبالها أو إدبارها، واستوى عنده سوادها وبياضها، ولقد أقصي كثيراً عن محافل الأدب ومجالي الشهرة، فلم يزده ذلك إلا إصراراً وثباتاً، ووقف وحده في ساحة الصدق شامخ الرأس مرفوع الهامة، يرقب الزيف ويرصده ويدل عليه، ولم يجد خصومه في آخر الشوط إلا أن ينفِّروا الشباب عنه ويُبَغِّضوه إليهم، بما أشاعوه عن حدته وبأسه وتعاليه، فنكص من نكص مسيئاً في نكوصه، وثبت من ثبت محسناً في ثباته.

ومع كل هذا الحصار الذي ضرب حول محمود محمد شاكر فقد خلص إليه طلبة العلم ومحبو المعرفة، ينهلون من هذا المنهل العذب، فكان بيته جامعة عربية ضخمة: طوائف من الناس من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات، وسعهم ذلك البيت المفتوح دائماً، ولم يفتح لهم يوماً دون يوم، أو ساعة دون ساعة.

وقد دار إنتاج أبـي فهر في ميدانين: التأليف والتحقيق، وهو في كلا الميدانين

مشغول بقضية أمته العربية، وما يراد لها من كيد، في عقيدتها ولغتها وشعرها وتراثها كله. وقد أبان عن هذه القضية بياناً شافياً في كتابيه «أباطيل وأسمار»، و «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، ثم نثرها فيما دق وجل من كتاباته، وما برح يعتادها في مجالسه ومحاوراته، يهمس بها حيناً، ويصرخ بها أحياناً، لا تفرحه موافقة الموافق، ولا تحزنه مخالفة المخالف، ولقد قام أمره كله على المكاشفة والمصارحة، فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين الناس، ومنذ أن ظهرت أمامه غواشي الفتن التي أحدقت بأمته العربية، فتح عينيه وأرهف سمعه، ثم شد مئزره وأيقظ حواسه كلها، وشحذ قلمه، يرصد ويحلل ويستنتج، ثم قال في كتابه الماتع أباطيل وأسمار: «فصار حقّاً عليَّ واجباً ألَّا أتلجلج أو أحجم أو أجمجم أو أداري».

ومن أبرز النصوص التراثية العالية التي نشرها أبو فهر: طبقات فحول الشعراء لابن سلام، وتفسير أبـي جعفر الطبري (١٦) جزءاً، إلى أثناء تفسير سورة إبراهيم عليه السلام، وتهذيب الآثار لأبـي جعفر الطبري (٦) أجزاء، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، كلاهما للشيخ عبد القاهر الجرجاني.

ومما يُستطرف ذكره هنا أن أول كتاب تراثي وضع فيه أبو فهر يده بالتصحيح هو كتاب: «أدب الكاتب» لابن قتيبة، الذي أخرجه الشيخ محب الدِّين الخطيب عام ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م، أي منذ (٧٠) عاماً، وكان عمره إذ ذاك (١٨) عاماً، وقد شاركه تصحيح صفحات من الكتاب ابن خاله الأستاذ عبد السلام هارون رحمه الله.

وفي كل تلك الأصول التراثية التي أخرجها أبو فهر يظهر علمه الغزير الواسع الذي لا يدانيه فيه أحد من أهل زماننا؛ لأنه علم موصول بعلم الأوائل، منتزع منه ودال عليه ومكمل له. وكان عمله في نشر هذه النصوص التراثية جزءاً من جهاده في حراسة العربية والذود عنها، سواء فيما نشره هو، أم فيما حث الناس على نشره وأعانهم عليه.

وللأستاذ محمود محمد شاكر من الذرية اثنان: فهر المولود سنة ١٩٦٥م. وهو الآن دكتور مدرس بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ــ جامعة القاهرة، وزُلْفى

المولودة سنة ١٩٦٩م، وهي متخرجة من كلية التجارة ــ جامعة عين شمس، وتعمل بمكتب كبير من مكاتب المحاسبة في القاهرة.

ومما يحز في النفس، ويكدر الخاطر، هذا المرض الذي ألمّ بالأستاذ، وأقعده وألزمه المستشفى الذي دخله ليلة عيد الفطر من العام المنصرم ١٤١٧هـ = فبراير ١٩٩٧م، ولا يزال هناك إلى هذا اليوم صفر ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م، كشف الله عنه ما به، وردَّ عليه عافيته، إنه على ما يشاء قدير.

* * *

محمود محمد شاكر.. والسِّهام الطائشة[1]

ما تردَّدت في اختيار عنوان لمقالة ما تردّدت في عنوان هذه المقالة، فأنا حريص دائماً أن يكون عنوان ما أكتب صريحاً في الدلالة على ما أريد، كاشفاً لما هو مطوي تحت لساني وما يدور في فكري. والذي أكتب فيه اليوم مما زلزل نفسي وملأني غضباً وغيظاً، فكان حقاً أن يكون عنوان المقالة دالاً على هذه الحالة النفسية الغاضبة وممهداً لها.

وقد ترددت بين عدة عنوانات، منها: محمود شاكر والسيوف الكهام ــ وهي السيوف الكليلة التي لا تقطع ولا تؤثر ــ ليس هذا بعُشّكِ فادْرُجي ــ إن بني عمك فيهم رِماح ــ كناطح صخرة يوماً ليوهنها، ونحو ذلك من العنوانات التي يحمل عليها الغضب. والغضب ــ ونعوذ بالله منه ــ نار تأجج في الصدر، وإذا استبد بالمرء أعمى بصره وأكل قلبه وفَرَى كبده وأطلق لسانه، وقديماً ما تعوّذ الناس منه.

أما الذي أغضبني أيها القارىء الكريم فهو ما جاء في العدد الثاني من مجلة الجيل ــ ٨ نوفمبر ١٩٩٨م ــ من هجوم كاسح أَكُول على شيخ العربية وحارسها أبي فهر محمود محمد شاكر، برّد الله مضجعه، والذي تولى كِبْر هذا الهجوم هو الأستاذ حسين أحمد أمين.

والأستاذ حسين هو ابن العلامة أحمد أمين، الذي يُعدّ من أعلام النهضة الحديثة في الفكر العربي الإسلامي، وكانت مؤلفاته عن فجر الإسلام وضحاه وظهره

(١) مجلة «الجيل»، ١٩٩٨م.

منارات وصوًى على طريق العلم والمعرفة، ورصداً عظيماً لمسيرتنا الفكرية، ثم كانت لجنة التأليف والترجمة والنشر التي أنشأها سنة ١٩١٤ م مع مجموعة من الشباب النابهين في ذلك الوقت: أمين مرسي قنديل، وعبد الحميد العبادي، ومحمد صبري أبو علم باشا، ومحمد عوض محمد، ومحمد بدران ــ كانت هذه اللجنة منارة علم ضخمة. فكان من حقه علينا أن نوقّر تاريخه ونرعاه في احترام أولاده وأحفاده، وأيضاً فإن الأستاذ حسين من كتاب الهلال، فبهذه المنزلة يكون عتابنا وحديثنا للأستاذ حسين أحمد أمين. ونسأل الله العصمة من الخطأ والزلل.

والهجوم على محمود محمد شاكر بدأ غداة وفاته، وكان أول من نَقَب هذا النَّقْب السيدة صافيناز كاظم، في كلمة لها بجريدة الدستور ١٩٩٧/٨/٢٠م، أي بعد وفاة الشيخ بثلاثة عشر يوماً، وهي كلمة تقطر غضباً، وتوشك أن تكون شماتة بالموت الذي هو غاية كل حي، وما أصدق الفرزدق:

وما نحن إلا مثلهم غير أننا ... أقمنا قليلاً بعدهم وتقدّموا

وكنت حقيقاً أن أردّ على الأستاذة صافيناز لولا أني رأيت ثورتها ترجع إلى مقابلة جافة من الشيخ لها، في يوم من أيام سنة ١٩٨٢، وبعض الكتاب الذين تتردد أسماؤهم كثيراً في الصحف ووسائل الأعلام يرون لأنفسهم حقاً على الناس، كل الناس أن يهشوا لهم وأن يستقبلوهم بكل ما وسعهم من أسباب الترحيب والبشاشة، وما أريد أن أستطرد في مناقشة الأستاذة صافيناز؛ لأني أرى في كتاباتها في السنوات الأخيرة وجوهاً من الخير ينبغي أن نستبقيها وأن نستزيد منها (إحنا ما صدقنا!)، لكني أحب أن أنشدها قول أبي العلاء:

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى ... إني أخاف عليكم أن تلتقوا

ثم قول أبي العتاهية:

إلى الديّان يوم العرض نمضي ... وعند الله تجتمع الخصومُ

ونترك السيدة صافيناز لنأتي إلى صديقنا الأستاذ نسيم مجلى، فقد كتب بعد

وفاة الشيخ كتاباً نشره بالأهالي، سمَّاه: صدام الأصالة والمعاصرة ــ محمود شاكر ولويس عوض. وكان قد كتب كتاباً كبيراً في القضية نفسها، سمَّاه: لويس عوض ومعاركه الأدبية، وأهداه إلى الشيخ محمود في حياته، وكتب بخطه: «إلى الصديق الكبير الذي أحببته كثيراً، واختلفت معه كثيراً، وتعلمت منه الكثير، إلى الأستاذ محمود شاكر بطل هذه المعارك ومفجرها مع أجمل أمنياتي. نسيم مجلى ٦/ ١/ ١٩٩٥م».

فلمَّا غاب وجه محمود شاكر بالموت، رَتَعَ نسيم مجلى في لحمه، وإذا الذي كان همساً صار صراخاً، والذي كان تلميحاً أضحى تصريحاً، وإذا الذي كان كلاماً في الحواشي بالبنط الصغير، قفز إلى المتن بالبنط الكبير، فكان هذا الكتاب الذي صدر عن الأهالي، وسأعود إليه في آخر المقالة.

لكني أعجب كل العجب من الأستاذ نسيم مجلى، فقد كنت أشهد استقبال الشيخ محمود له وحفاوته به وتوديعه له على باب المصعد، وقوله له: ابقى تعال يا نسيم، وهي كلمة حانية من الشيخ، لا يقولها إلا لمن يحبه ويودُّه، ويا ليته كان قد قالها للأستاذة صافيناز (وكنا خُلُصنا).

فها أنذا يا أستاذ نسيم أُنشدك قول أبـي العلاء:

فيسمــــع منــــي سجـــعَ الحمــــامِ وأسمــــع منـــــه زئيـــــرَ الأسَـــدْ

ثم أترك الأستاذ نسيم لأصل إلى الأستاذ سمير غريب في كتابه الذي صدر أخيراً عن دار الشروق بعنوان (في تاريخ الفنون الجميلة)، وفي ص ٧٩ منه ينقد مقالاً للأستاذ محمود شاكر، نشره في مجلة الرسالة بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٤٠م، وكان محمود شاكر يرد على الدكتور طه حسين كلمة له عن «الفن الفرعوني»، والأستاذ سمير غريب لم يشهد تلك الأيام، فكأن هذه المقالة الشاكرية التي قضى عليها (٥٨) عاماً قد دُسَّت إليه دساً للهجوم على الرجل (لاحظ أن ما ذكره سمير غريب في كتابه ص ٨١، عن رأي محمود شاكر في الفن الفرعوني، هو نفس ما ذكره نسيم مجلى في

ص ٥١ من كتابه. فنقول إذن ما قاله علي بن أبـي طالب رضي الله عنه عن امرأة قالت كلاماً لا يظن أن يكون منها: «أما والله ما قالته ولكن قُوِّلَتْه».

ثم إن الأستاذ سمير غريب لا يعرف فكر محمود شاكر وتوجّهاته ورأيه في الحضارات السابقة على الإسلام، بل هو لا يعرف لغته، والدليل على ذلك أنه وقف عند كلمة له واعتبرها غامضة، وهي قول الشيخ: «من أعظم الآثار الفنية التي يعدها الجيل الأوروبي»، يقول الأستاذ سمير: «وتعبير الجيل الأوروبـي هذا غامض»، وأقول: ليس غامضاً، فالجيل في كلام العرب: هو الصنف من الناس، وقيل: الأمة، وقيل: كل قوم يختصون بلغةٍ: جيل. فبأي هذه المعاني أخذت يكون تأويل كلام الشيخ!

وما أريد أيضاً أن أستطرد في مناقشة الأستاذ سمير غريب، لكني ما كنت أحب له أن يتورط في تلك الظاهرة التي شاعت في زماننا الرديء، وهي ظاهرة التحرش بالناس وإغراء السفهاء بهم، وذلك قوله: «وخطورة كلام محمود محمد شاكر هنا أنه يمكن أن يستند إليها المتطرفون دينياً بغير تأمل ولا تفكير سليمين، وقد نادت به بالفعل جماعات الإرهاب باسم الدين في مصر بعد نشر كلام شاكر بحوالي خمسين عاماً».

والذي لا تعرفه يا أستاذ سمير أن محمود شاكر كان من أكثر الناس بغضاً لهذه الجماعات التي أشرت إليها، بل إن مواقفه ضد الإخوان المسلمين وكل الجماعات الإسلامية، مواقف معروفة غاضبة ومستنكرة، وكان يجهر بمواقفه هذه ولا يكتمها، وكذلك كان أخوه الأكبر محدث العصر الشيخ أحمد شاكر، ومقالته عقب اغتيال محمود فهمي النقراشي مشهورة، وكان قد سمَّاها: «قيَّد الإيمان الفتك»، ونشرها على الناس، بجريدة الأساس، فاقرأوا التاريخ يا ناس! (وانتظروا آخر كلمة لي في هذا المقال، ففيها رفع لهذا الالتباس).

ثم أطوي الكلام لأفرغ إلى ما قاله الأستاذ حسين أحمد أمين، وقبل ذلك أحب أن أسأل: ما هذا يا قوم؟ أتهاجمون الرجل بعد أن غَيَّبَه القبر؟ لماذا لم تردُّوا على

الشيخ كلامه في حياته؟ ما أظن إلا أنكم خفتم أن يأخذ بأكظامكم، ويأتيكم من فوقكم ومن أسفل منكم، فتزيغ أبصاركم كالذي يغشى عليه من الموت، ثم يترككم فإذا أنتم ضُحكة الضاحك وهُزءة المستهزىء، فنُنْشدكم قول طرفة بن العبد:

يـــا لـــكِ مـــن قُبَّـــرة بمَعْمَـــرِ

خـلا لـكِ الجـوُّ فبيضـي واصفِـرِي

ونَقِّـــري مـــا شئـــتِ أن تُنَقِّـــري

قــد رَحَـلَ الصيـادُ عنـك فـابشـري

ورُفـــع الفـــخ فمـــاذا تحـــذري؟

ثم ننشدكم أيضاً قول المهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كليباً الذي كان يضرب به المثل في العزة المتناهية، وكان من خبره أنه إذا حضر مجلسه الناس لا يجسر أحد أن يفخر أو يجاذب، إعظاماً لقدره وإجلالاً لشأنه، فلما مات قال المهلهل:

نُبِّئْـــتُ أن النـــار بعـــدَكَ أُوقِـــدَت ... واستـبَّ بعـدك يـا كليـب المجلـسُ

وتكلَّمـــوا فـــي أمـــر كـــلِّ عظيمـــةٍ ... لـو كنـت حـاضـر أمـرهـم لـم يَنْبِسُـوا

ومن وراء ذلك كله: فليس من النَّبالة والإنصاف أن تهاجم من لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ويردَّ عليك قولك، وقد أمرنا ديننا في مثل هذه المواطن بالمكاشفة والمواجهة، يقول ربنا عزَّ وجلّ يخاطب نبيه المصطفى ﷺ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، قال أبو جعفر الطبري: فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم بما كان منهم من ظهور أمار الغدر والخيانة منهم، حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذوا للحرب آلتها، وتبرأ من الغدر.

وجاء في حديث سلمان الفارسي الذي أخرجه الترمذي وأحمد: «وإن أبيتم نابَذْناكم على سواء»، قال ابن الأثير: أي كاشفناكم وقاتلناكم على طريق مستقيم مستوٍ في العلم والمنابذة، منا ومنكم.

وهذا أوان الفحص عن أمر الأستاذ حسين أحمد أمين، وما كتبه في حق شيخ العربية محمود شاكر.

وبدءة ذي بدء، فإني أقول للأستاذ حسين: لقد بنيت مقالتك هذه على إثر مقابلة مع الشيخ محمود لم تقع منك موقع الرضا، وكانت هذه المقابلة يوم ١٢ ديسمبر ١٩٨٣م، وإني لأعجب لك ومنك يا رجل: هذه خمسة عشر عاماً مُجَرَّمة ـ بتشديد الراء، أي تامة ـ منذ تلك الليلة التي أشعلتك ناراً، وأنت لا زلت طاوياً صدرك على هذه الحَسِيكة، فأيُّ صبرٍ على الكريهة هذا؟ وأي حِمل ثقيل حملته وظللت تدور به حالاً ومرتحلاً طوال هذه السنوات الطِّوال التي يمحو الله فيها ما يشاء ويثبت.

ويحضرني الآن شاهد من الشعر وصورة من التشبيه، ولكني أمسك عنهما؛ صوناً لنفسي من الزلل، واستمساكاً بأصول أخلاقية ألزمت بها نفسي منذ أن عرفت طريقي للكتابة والمذاكرة والمحاضرة. وأنا أنشد لنفسي دائماً قول ابن فرج الجياني الأندلسي:

فملَّكْتُ النُّهى جَمَحَاتِ أمري ... لأجريَ في العفاف على طباعي

يقول: جعلت عقلي حاكماً على نفسي، كابحاً لجماح الهوى والخطأ، لكي أستمر على ما طُبعت عليه من العفة والشرف.

ثم إني علمت أنك كنت أعددت هذه المقالة في حينها، ودفعت بها إلى مجلة الهلال، ولكن الأستاذ مصطفى نبيل رفض نشرها، مع أن مصطفى نبيل من رؤساء التحرير الذين ينظرون إلى المكتوب لا إلى الكاتب، وهو أيضاً يفتح كل النوافذ، ولا يتعصب لاتجاه لحساب اتجاه، فما أعرض عن مقالتك إلا لما وجد فيها من انحراف وضلال، كما قالت العرب في كلامها الحكيم: «لو كان خيراً ما تركوه». وكأني بك يا أستاذ حسين تنشد مصطفى نبيل قول أبي الأسود الدؤلي يعاتب الحصين بن الحر العنبري، وكان أبو الأسود قد أرسل له كتاباً يستجديه فأهمله، فقال أبو الأسود:

نظرْتَ إلى عُنوانه فنبَذْتَه ... كَنَبْذِكَ نَعْلاً أَخْلَقَتْ من نِعالكا

[أخلقت: أي بليت وتقادم عليها عهد].

وأول ما أبدأ به الكلام أن أقول: إن ما حدث للأستاذ حسين، ومن قبله للسيدة صافيناز، من جفاف مقابلة الشيخ محمود شاكر، إنما هو ما أسمِّيه: صدمة اللقاء الأول. فمحمود شاكر يحب أن يعجم عود من يزوره أول مرة، وهل يصبر على تكاليف العلم، وأعباء التلقي والسماع، أم هو إنسان جاء (يتفرج على هذه القعدة) ويرى بعض الشخصيات، ثم يخرج إلى الناس ويقول: إني حضرت ندوة محمود شاكر، كهؤلاء الذين يقولون: إننا من تلاميذ العقاد، لأننا كنا نحرص على حضور ندوته، ويعلم الله أنه ما كان يلقي إلى كثير منهم بالاً.

ومحمود شاكر ليس عنده وقت يضيعه في المجاملة والمصانعة. وهذا شيء عرفناه منه، يهاجم في اللقاء الأول هجوماً شرساً، فإذا رأى الذي أمامه حريصاً على العلم راغباً فيه أقبل عليه واستمسك به وشَدَّ عليه يد الضَّنانة. وفي محنة هذا اللقاء الأول ثبت من ثبت محسناً في ثباته، ونكص من نكص مسيئاً في نكوصه. ولو أنهم صبروا حتى يطمئن إليهم لكان خيراً لهم.

على أنه مما يزيد في محنة اللقاء الأول أن يكون لهذا الزائر الوافد الجديد صورة سابقة عند الشيخ محمود، كأن يكون منتمياً إلى اتجاه معين، أو يكون قد كتب شيئاً لم يعجب الشيخ.

وسآخذ في مناقشتك الآن يا أستاذ حسين، وسأترك الحديث عن الشتائم التي وجهتها للشيخ، إلى آخر المقالة، حتى تكون آخر ما يذكره القارىء من أمرك.

أولاً: قلت إن مفتاح شخصية محمود شاكر يكمن في إحساسه العميق بالفشل، وفي شعوره بأن حياته قد ضاعت سدى.

أي فشل يا أستاذ وأي ضياع؟ إن الذي يعرف محمود شاكر عن قرب لا يحس شيئاً من ذلك. وقد عرفت هذا الرجل معرفة وثيقة خلال ثلاثين عاماً، وخبرت سواده وبياضه، وكاشفني بذات نفسه ودخيلة أمره وتقلبه في العالَمين، وقد رأيت إنساناً سويّاً واضحاً مكشوفاً، لا يداري ولا يماري، يصرّح ولا يكني، ينطق ولا يجمجم،

باطنه وظاهره سواء، وهو سعيد منشرح مقبل على الحياة، يستمتع بطيباتها إذا أقبلت، ولا يحفل بها إذا أدبرت، وينعم بما أفاء الله عليه من مكتبة ضخمة عامرة، لم تتيسّر لأحد من علماء عصرنا، قرأها كلها قراءة كتاب واحد، بذلك العقل الذكي الذي يجمع كل شاذَّة وفاذَّة، ثم هو سعيد أيضاً بالقلوب التي تجمعت حوله، طوائف من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات، وسعهم هذا البيت الكبير، الذي لم يعرف الرسميات فلم يُفتح لهم ساعة دون ساعة.

وقد وصفت كثيراً مجلس محمود شاكر وما ضمّ من فئات الناس، ونقلت وصف الأديب الكبير فتحي رضوان له، وهو قوله: «كان بيته ندوة متصلة لا تنفض، من أعضائها الثابتين: يحيى حقي إذا حضر من أوروبا، وعبد الرحمن بدوي، وحسين ذو الفقار صبري، وغيرهم وغيرهم، ولم يكن من حظي أن أكون عضواً دائماً فيها، فقد كنت ألمّ بهم أحياناً، فأراهم وأرى من العالم العربي كله، ومن العالم الإسلامي على ترامیه، شخصيات لا حصر لها، تتباين بعضها عن بعض، في الزي والمظهر والثقافة واللهجة، والشواغل والمطامح، ولكنها تلتقي كلها عند محمود شاكر، تسمع له، وتأخذ عنه، وتقرأ عليه، وتتأثر به، وكلما كان من حظي أن أشهد جانباً من هذه الندوة أحسست بسعادة غامرة، أن يبقى ركن في بلدي كهذا الركن، ينقطع أصحابه للفكر والدرس والتحدث في أمور لا تجد من يسمع بها أو يعرف عنها شيئاً في مكان آخر»، انتهى كلام الأستاذ فتحي رضوان.

ومن الحقائق التي لا تُدفع أنه لم يحظ أحد من الأدباء المعاصرين الكبار، الذين تقام لهم الموالد ما بين الحين والحين، بمعشار ما حظي به محمود شاكر من التلاميذ والمريدين الذين صار كثير منهم رؤوساً ورؤساء ببلادهم ومواقعهم.

أما هذه الحدة التي في طبع الشيخ ـ ونحن نعترف بها ـ فليست نتيجة الإحساس بالفشل، أو ضياع الحياة سدى. هذه الحِدَّة يا سيدي جاءت نتيجة لإدراك الرجل لمأساة هذه الأمة العربية التي ورثت مجداً شامخاً أضاعه الورثة من أبنائها. وقد تنبه الرجل منذ طراءة الصبا وأوائل الشباب إلى محنة أمته العربية، في قطع

صلتها بموروثها العظيم، ثم وقوعها في حبائل العدو، ينهش في عظمها ويُحكم الغُلَّ في أيديها، فسارت حياته في طريقين استويا عنده استواء واضحاً:

الأول: العلم والمعرفة يعبّ منهما عباً، ويغْري الناس بهما إغراءً.

والطريق الثاني: التنبه الشديد لما يحاك لأمتنا العربية من كيد ومكر، وقد حارب في سبيل كشف ذلك وتعريته في جبهات كثيرة، مما فصَّلتُه في غير موضع من كتاباتي.

وقد أورثه شعوره بذلك الهم الكبير حدَّة في الطبع، وشراسة في الخطاب. والحِدَّة: إذا كان هذا هو مبعثها ومحرِّكها لم تكن مذمومة، فقد جاء في الحديث: «الحِدَّة تعتري خيار أمتي»، قال ابن الأثير: «الحِدَّة كالنشاط والسرعة في الأمور والمضاء فيها، مأخوذ من حد السيف، والمراد بالحدة هاهنا: المضاء في الدين والصلابة والقصد في الخير، ومنه الحديث: «خيار أمتي أحِدَّاؤها»، وهو جمع حديد، كشديد وأشداء».

وقد تحدثت يا أستاذ حسين عن قلة إنتاج الرجل، مع هذه الشهرة العريضة والقراءة والثقافة التي لم يُحصِّل طه حسين جزءاً من المائة منها، وقد صدقت في هذا، لكنك لم تصدق في ذلك السياق كله، فقد ذكرت أنه مع شهرته لم يترك غير كتاب عادي عن المتنبي، وديوان شعر هزيل ضحل، ثم تحقيق لبعض كتب التراث. وهذا كله باطل:

فكتابه عن المتنبي ليس كتاباً عاديّاً، فقد عرض فيه لقضايا ثلاث، لم يكشف القول فيها غيره، ولم يحسم الحكم فيها سواه: نسب المتنبي ـ حبه لخولة أخت سيف الدولة ـ ترتيب القسم الثاني من شعر المتنبي على السِّنين. وقولك: «ديوان شعر هزيل ضحل» ليس لمحمود شاكر ديوان شعر مجموع، وإن كان له شعر معروف، أذاعه من قديم وطرب له الناس. ولعلك تقصد «القوس العذراء»، وهي قصيدة طويلة مستوحاة من قصيدة للشمَّاخ، وهذه «القوس العذراء» من عيون الشعر

العربـي، وقد هزت الدنيا وشغلت الأدباء، وكتب عنها كبار الأدباء: إحسان عباس، ومحمد مصطفى هدَّارة، ومحمد أبو موسى. ثم كتب عنها المفكر والأديب الكبير زكي نجيب محمود، ولا شك أنك تعرفه حق المعرفة، لأن له مع والدك تاريخاً قد يسوؤك بعضه!

وكلمة زكي نجيب محمود عن «القوس العذراء» كلمة عالية جدّاً، وقد أذاعها في مجلة الكتاب العربـي (أغسطس ١٩٦٥م)، قال في أولها: «درة ساطعة هذه بين الدرر، وآية هذه من الفن محكمة من آيات الفن المحكمات».

وقال في آخرها: «وإني لأستأذن أديبنا شاكر في أن أهدي آيته هذه إلى شعراء اليوم ليروا بآذانهم وليسمعوا بعيونهم؛ إذا كانت للآذان رؤية، وإذا كان للعيون سمع، كيف يكون الفن الشعري صياغة وارتفاعاً في دنيا القيم من حضيض إلى أوج».

ثم إن قولك: «تحقيق بعض كتب التراث» يدل على عدم معرفتك، أتسمِّي تحقيق ستة عشر جزءاً من تفسير الطبري، وستة أجزاء من «تهذيب الآثار» له، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وكلاهما لعبد القاهر الجرجاني، والمكافأة وحسن العقبـى لابن الداية الكاتب، وفضل العطاء على العُسْر لأبـي هلال العسكري، وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، للمقريزي، وكتاب الوحشيات لأبـي تمام، وجمهرة نسب قريش، وأخبارها للزبير بن بكار. أتسمي ذلك كله بعض كتب التراث؟

وإن في بعض حواشيه على هذه الكتب ما يعدّ علامات ضخمة في طريق الفكر العربـي والإسلامي. ولو كنتَ مُهَيَّأً لإدراك مرامي هذه التعليقات لدللتك عليها. ثم انظر القائمة الببليوجرافية التي أصدرها المجلس الأعلى للثقافة ودار الكتب المصرية بذكرى الأربعين لوفاته وسترى فيها رصداً جيداً لإنتاج محمود شاكر منذ سنة ١٩٢٦م إلى سنة ١٩٩٧م، وهي السنة التي توفي فيها.

وإذا كنت ترى أن هذا الإنتاج كله قليل بالنسبة لرجل في مثل قامة محمود شاكر: فإن أثر العالم لا يقاس بكثرة إنتاجه، ففي تاريخنا التراثي أعلام احتلوا مكانة عالية بكتاب واحد أو كتابين ليس غير، فسيبويه إمام النحاة ليس له إلا «الكتاب»، وليس لابن سلَّام إلا «طبقات فحول الشعراء»، والقَرْشي ليس له إلَّا «جمهرة أشعار العرب»، وابن عبد ربه ليس له إلا «العقد الفريد»، وابن خلكان ليس له إلا «الوفيات»، وليس لأبي الفرج الأصبهاني إلَّا «الأغاني» و «مقاتل الطالبيين».

وفي عصرنا الحديث لم يترك الأستاذ أمين الخولي من الكتب ما يجاوز أصابع اليد الواحدة، ومع ذلك فإن تلاميذه يرونه رأساً في المنهج، وأنه فتح لهم أبواباً من النظر والتأمل لم يفتحها غيره.

ويتبع وصف محمود شاكر بالحِدَّة وصفه بالتعالي والاعتداد بالنفس وحب الثناء. وهذه القضية ينبغي أن تعالج في هذا الإطار:

العلماء الكبار حين يرون أن الله قد وهبهم ما لم يهبه لغيرهم، يرتفعون بأنفسهم عما حولهم، وفي بعض اللحظات يرون أن من عداهم لا وزن لهم. رُوي أن إبراهيم بن المهدي، وهو أخو هارون الرشيد، وكان حاذقاً بالغناء، اختلف هو وإسحاق الموصلي ــ وكان أيضاً من أساطين الغناء والموسيقى ــ اختلفا في صوت، فقال إبراهيم لإسحاق: «إلى من نتحاكم والناس مَن عدانا بهائم»؟، وقال الأصمعي: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول ــ ولم يقله إن شاء الله بغياً ولا تطاولاً ــ: «ما رأيت أحداً قطُّ أعلم مني».

على أن حب الثناء مركوزٌ في الطباع، ثابت في أصل الخِلقة. قال أبو حيان التوحيدي: «ومن لم يرغب في الثناء فقد رغِب عن ملة إبراهيم؛ لأن الله تعالى أخبر أنه سأله ذلك فقال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤]، ولسان الصدق: هو الثناء الحسن.

وإذا بلغ الكبار هذا المبلغ من سعة العلم وغزارة المعرفة كان حقيقاً على الناس أن يُوسِعوا لهم في المعذرة، وأن يتغمدوا أخطاءهم. ذكر الحافظ الذهبي في ترجمة التابعي الجليل «قتادة بن دِعامة السَّدوسي» أنه كان يرى القول بالقدر، وهي مقالة منكورة عند أهل السنة والجماعة، ثم عقَّب الذهبي على ذلك، فقال في كتاب سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٧١: «ثم إن الكبير من أهل العلم إذا كثر صوابه، وعُلم تحرِّيه للحق، واتّسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعُرف صلاحُه وورَعُه واتِّباعُه، يُغْفر له زَلَله، ولا نضلِّله ونطرحه وننسى محاسنه». وهذا كلام عال نفيس في تأصيل موضوعية النقد ورحابة الصدر العلمي، والإنصاف في تغليب الإيجابي على السلبي في الحكم على الرجال، على حد قول زفر بن الحارث:

أيذهب يومٌ واحدٌ إن أسأْتُه بصالح أيامي وحُسْنِ بلائيا

وقول المتنبي:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللائي سَرَرْن ألوفُ

وقول الآخر:

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنُه بألف شفيع

وهكذا ينبغي أن يُنظر إلى محمود شاكر، أنه من هذا الطراز؛ رجل حصَّل من العلم ما لم يحصله غيره، وجمع من الكتب ما لم يجمعه سواه، وقرأ قراءة ما أطاقها أحد من جيله، ثم إنه راعه ما رأى فيه الأمة من جهل وتأخر، وفزع من قضية انتحال الشعر الجاهلي، واهتاج لما رآه من محاولة اغتيال تاريخ الأمة العربية، في علومها ومعارفها كلها، وطَمْس معالم حضارتها، ولم تكن المسألة عند الرجل من باب التوهم والظنون، والتماس المعابة عند الآخرين، فقد قامت دلائلها عنده واضحة جلية، ثم أثبتت الأيام صدقها فيما بعد.

وحين ظهرت أمامه صدع بالحق وكشف العلة، وحطَّم الأغلال، ولم يبال بمن يقع عليه مِعْوله، قديماً كان أو حديثاً، من أبناء دينه أو من غيرهم، وكثير من الناس

الذين يأخذون الأمور من أيسر طرقها يرون أن محمود شاكر قد حارب طه حسين وسلامه موسى ولويس عوض ليس غير؛ وهذا غير صحيح؛ فإن محمود شاكر وهو بسبيل تصحيح النظر إلى تراث هذه الأمة، ثم الدفاع عنه، تناول أعلاماً كباراً من المتقدمين بنقود قاسية جداً، وفي هذا الطريق نقد الجاحظ والمرزوقي والتبريزي، بل إنه نقد الإمام الجليل أبا بكر الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن» الذي يراه أهل العلم رأساً في هذا الباب، ونقد من قبله المتكلمين المسلمين، وبخاصة المعتزلة، في قضية إعجاز القرآن، وكان يرى أن المعتزلة قد خدعوا الناس بمقولاتهم العقلية، بل رأيناه هو يقسو على نفسه كثيراً إذا زلَّ في فهم، أو غاب عنه وجه الصواب، ومن أمثلة ذلك استدراكاته على تحقيقاته التي يثبتها في آخر الكتاب، أو في الطبعة التالية، وهذه نماذج من تلك الاستدراكات التي شدد فيها على نفسه هو، وقد اخترتها من تحقيقه لكتاب جمهرة نسب قريش، للزبير بن بكار، يقول: «وقد أسأت أشدّ الإساءة في الحاشية رقم (٣) وينبغي طمس هذه الحاشية». ويقول عن شيء من تفسيره، وظهر له خطأه: «وفسَّرتُه متعجِّلاً»، ويقول في موضع ثالث: «وهو سهوٌ مني شديد».

ويقول في مستدركات تحقيق طبقات فحول الشعراء: «عجلتُ فقلت ما قاله ياقوت، فأخطأت خطأ لا شك فيه، فلا أدري كيف تهاوى فيه ياقوت؟»

نحن إذن أمام رجل يتحرَّى الصواب، ويروم الصدق، وقد التزم جانب المكاشفة والمصارحة، وترك التجمُّل والتكلّف والمصانعة، ويعلم الله أننا لو رُزقنا بضعة رجال من طراز محمود شاكر لكان الحال غير الحال!

ثم ذكرت يا أستاذ حسين ثورة الشيخ محمود على الأفغاني والشيخ محمد عبده، وقد غاب عنك أن الذي يقوله الشيخ في هذين الرجلين هو رأي كثير من الناس، من قبل محمود شاكر ومن بعده، ولقد أطلعنا الأديب المثقف الرقيق علي شلش رحمه الله، قبل وفاته بأيام، في بيت محمود شاكر، على وثائق خطيرة تدين الأفغاني، وتحقق رأي الناس فيه. أما الشيخ محمد عبده، فقد عابه كثير من الناس

أيضاً لصلته بكرومر، وقصر الملك، ومن هؤلاء المفكر الكبير علي سامي النشار، وقد سجل ذلك في كتاب منشور، وقد درسناه عليه في أيام الطلب.

ثم ما كان يصح يا أستاذ حسين أن توقع الدسيسة بين الشيخ محمود، وهذا النَّفَر الكريم من الباحثين: الدكتور محمد عمارة، والأستاذ فهمي هويدي، وقد كنت كثير الملازمة للشيخ، وما أذكر أنه عرض بسوء لأيٍّ من الرجلين الجادَّين، ولقد يكون رأيه في محمد عمارة سيئاً أيام أن كان عمارة يقف في الجانب الغربـي، فلما أذن الله له بالفرج والانعتاق، وانتقل إلى شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة، ثم نَسِيَ ما كان يدعو إليه من قبل، رضي عنه محمود شاكر، وكذلك كنا نحن أيضاً: أعرضنا عن محمد عمارة يوم أن كان لويس عوض يفسح له صفحة كاملة في جريدة الأهرام في الستينات، والآن نحبُّه ونحرص على ما يكتب ونوصي بقراءته.

على أن محمد عمارة كان من أكثر الناس إجلالاً لمحمود شاكر، وإن لم يغش مجلسه، وكثير من المفكرين كانوا يحبون محمود شاكر غاية الحب، ولكنهم لا يغشون مجلسه، كأنهم يشفقون من الحدة إياها، وأذكر من كبار هؤلاء المحبين المعرضين: محمد سليم العوا وطارق البشري. وأشير هنا إلى أن محمد عمارة قد أسرع إلى مسجد عمر مكرم ليقدم واجب العزاء في الشيخ محمود، وإن لم يعرف أحداً من أسرته، وقد شدّ على يديّ معزِّياً، وقال لي: البركة فيك يا محمود، وهي كلمة ذات دلالة. فكأنه يقول: إننا نريد لفكر محمود شاكر أن يستمر، ولطريقه أن يظل مسلوكاً.

وكأنك يا أستاذ حسين حين ذكرت اسم محمد عمارة وأقحمته إقحاماً وزججت به زجّاً، إنما أردت أن تستدرج الرجل ليعفو عنك ويمحو في طبعة قادمة، ما دمغك به في كتابه الجيد: الإسلام بين التنوير والتزوير، الذي صدر عن دار الشروق سنة ١٩٩٥م، فقد عقد فصلاً عنك، سمَّاه: «الهزل وغيبة العدالة في تناول الإسلام»، وقد وصفك في هذا الفصل بأنك من الذين يزعمون أنهم مجتهدون في الإسلام، ومجددون في فكره، مع افتقادهم وافتقارهم للحدود الدنيا من دراية العلم

وعدالة العلماء، بل ومع اتصافهم بقدر من سوء النية في عرض قضايا الإسلام.

وقد ذكر محمد عمارة في حواشي هذا الفصل أنه التقاك (الأفصح والأكثر: لقيك)، وقد لقينا من كلام حسين أحمد أمين نَصَباً!) في مكتبة دار الشروق بحضور صاحبها الأستاذ إبراهيم المعلم، وسألك عما سقطت فيه من الهجوم على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقال لك: ماذا تريد؟ فقلت: أريد أن أشكك في كل شيء!

وأقول: إن من حق محمد عمارة ــ بعد أن كتب فيك ما كتب وقرأ كلامك اليوم ــ أن يُنشدك ونحن أيضاً نُنشدك معه، قول الفرزدق يهجو جديع بن سعد الأزدي:

لا تَحْسَبَنَّ دراهِماً أَعْطَيْتَها تَمْحُو مخَازِيَك التي بِعُمان

فماذا تنتظر يا أستاذ حسين من محمود شاكر، ثم من غيره ممن يحترمون تاريخهم ويوقّرون رجالهم، ماذا تنتظر منهم بعد أن أهنت الوارث والموروث؟

وليس يصح لك أن تستنصر باسم والدك العظيم رحمه الله، فهو كان على الجادة، أقام للحضارة العربية صرحاً شامخاً، وأنت انحرفت عن الطريق، وأخذت تضرب في هذا الصرح، ولكن من نِعَم الله أن جعل مِعْولك ضعيفاً، كما جعل كيد الشيطان ضعيفاً، فما ينفعك شيئاً[1] كلما حزبك أمر أن تفزع إلى اسم أبيك، فلن يَجْزي والد عن ولده شيئاً، ولو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد ﷺ يدها. وبما أنك قد سببت واحداً من الصحابة الأكرمين، ولم يفعلها أبوك، فإننا ننشدك قول الأعشى:

كلا أَبَوَيْكم كان فَرْعاً دِعامةً ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصاً

(١) نبّه الأستاذ الطناحي الطابع لهذه الكلمة بقوله: هذه على النصب صحيحة فلا تغيرها لأنها مفعول ثان. أما فاعل «ينفعك» فهو المصدر المؤول «أن تفزع»، وتقدير الكلام: فما ينفعك فزعك إلى اسم أبيك شيئاً.

ثم أنشدك قول الآخر (وقد أعْجلتني عن أن أنسبه لك):

إن القـديـم إذا مـا ضـاع آخـره كسـاعـدٍ فلَّـه الأيـامُ محطـومُ

ثم أنشدك ـ وهو أخفُّ الشواهد عليك إن شاء الله ـ قول أبـي تمام:

وابـن الكـريـم مطـالَـبٌ بقـديمـه غَلِـقٌ وصـافـي العيـش لابـن الـزُّمَّـلِ

وأخيراً أترحَّم على والدك العظيم ثم أنشدك وأنشده قول جرير يخاطب الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز:

تَـزَوَّدْ مثـل زادِ أبيـكَ فينـا فنعـم الـزادُ زادُ أبيـك زادا

ثم إنك غضبت من الشيخ محمود لأنه ذكر أمامك رأياً في والدك لم يقع منك موقع الرضا، فاعلم أن ليس محمود شاكر أول من أبدى رأياً غير طيب في والدك، فالعقاد فعل ذلك، وأظنك لم تنس كتاب زكي مبارك «جناية أحمد أمين على الأدب العربـي»، وأذكر أن أساتذتنا في أيام الطلب كانوا يكثرون من نقد كتب أبيك في عصور الإسلام، كلٌّ في مجال تخصصه، ومن هؤلاء العالم الكبير الدكتور ضياء الدين الريس في كتابه الماتع: «النظريات السياسية الإسلامية»، وأنت الذي أصررت أن تستخرج رأي محمود شاكر في أبيك، وقد ذكرت أنك كلما ألححت عليه في الطلب قال لك «فَوِّتْ»، وكأنه رحمه الله كان يريد أن يقول ما قالته العرب قديماً: «اعْفُ عن ذِي قَبْر»، ثم أما بعد:

فيا أستاذ حسين أحمد أمين: لقد وصفت شيخ العربية وحارسها محمود محمد شاكر ـ على لسان الحاج وهبه، وقد بريء منه في العدد الرابع من الجيل، فصار الكلام خالصاً لك، وخارجاً من كيسك وحدك ـ وصفت الشيخ بأنه فظ فظ فظ، وأنه يدور كالثور الهائج يهاجم ويطعن ويسبّ ويلعن. فأتيت بذلك منكراً من القول وزوراً، ولقد أهنت الأمة العربية كلها في شخص علَم كبير من أعلامها، ورأس ضخم من رؤوسها، وهذه الإهانة لا يُعتذر عنها، ولا تسقط بالتقادم، وقد قال أبو الطيب الصعلوكي ـ من فقهاء الشافعية في القرن الرابع ـ: «عقوق الوالدِين يمحوها الاستغفار وعقوق الأستاذِين لا يمحوها شيء».

ولقد كان محمود محمد شاكر أستاذ الأستاذين. فيجب عليك أن تبرأ من هذا الكلام وتخرج من عُهدته، ثم تتوب إلى ربك وتستغفره بعد أن تغسل فمك سبع مرات إحداهن بالتراب، ليطهر من هذه البذاءات التي خرجت منه.

وعلى المستوى الشخصي فقد أدميت قلبي، وأوجعت ظهري، فلساني لا يطاوعني أن أقول لك ما يقوله بعض الناس في مثل هذه المواقف: سامحك الله، أو غفر الله لك، ولكني أدعو عليك بأن يُسْخِنَ الله عينَك، وأن يُقَيِّض لك من يكوي منك الرأس والدماغ، ولا يمنعني من الاسترسال في الدعاء عليك إلا حديثه ﷺ: «لا تُبَرِّدوا عن الظالم»، أي لا تشتموه وتدعوا عليه، فتخففوا عنه من عقوبة ذنبه. وقوله لعائشة رضي الله عنها وقد سمعها تدعو على سارقٍ سرقها، فقال: «لا تُسَبِّخي عنه بدعائك عليه»، أي لا تخففي عنه الإثم الذي استحقه بالسرقة.

ولو قام تلاميذ محمود شاكر ـ وهو كُثُر في الشرق والغرب ـ بِرَدِّ شتائمك عليك وبَسْط ألسنتهم بالسوء فيك، ما كان عليهم لوم ولا تثريب، ولا تجزع ولا تفزع من فعلهم، فأنت البادىء وأنت المعتدي، وقد قال أبو ذؤيب الهذلي:

لا تَجْزَعَنْ من سُنَّةٍ أنت سِرْتَهَا ... فأوّل راضي سُنَّةٍ من يسيرُها

وإذا كنت قد وصفت شيخنا بأنه يدور كالثور الهائج ـ وهذه عظيمة من العظائم ـ فإني أنشدك أيضاً لأبي ذؤيب، من القصيدة نفسها:

فلا تك كالثور الذي دُفِنَتْ له ... حديدةُ حَتْفٍ ثم ظَلَّ يُثيرها

وصدق الله العظيم: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

وتبقى قضية لا بدَّ من الإشارة إليها وبيان وجه الحق فيها، على سبيل الوجازة والاختصار، وهي قضية (محمود شاكر ولويس عوض)، وآخر ما رأيته من ذيولها كلمات قالهن الدكتور ماهر شفيق فريد، وهو كاتب مثقف محتشِد، لكنه أنبأنا الآن أنه من مريدي ومحبي الدكتور لويس عوض، ولا بأس ولا نكران، وإن من حقه علينا أن ينشدنا قول أبي ذؤيب الهذلي:

وعيَّرها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهرٌ عنك عارُها

وقوله: «ظاهر عنك عارها»، أي زائل عنك هذا العار لا يعلق بك.

وهذه الكلمات قالها الدكتور ماهر بجريدة الأهالي ٨ من أكتوبر ١٩٩٧م، في سياق كلام له عن ديوان «أغاني العاشق الأندلسي» لصديقنا الشاعر عبد اللطيف عبد الحليم (أبو همام)، فحين عرض الدكتور ماهر لقصيدة أبي همام عن شيخه وشيخنا أبي فهر في عيد ميلاده الثمانين، فتح أقواساً واستفرغ فيها جهداً بهذا الكلام عن أبي فهر: «لا أستطيع مهما بلغت بي الرغبة في أن أكون منافقاً أن أتظاهر بأني حزنت على رحيل الرجل الذي سبّ لويس عوض العظيم سبّاً قبيحاً».

يا دكتور ماهر: حاشاك أن تكون منافقاً، لماذا تركب هذا المركب الصعب؟ قل في محمود شاكر ما تشاء، لكن لا ينبغي أن تكون كراهيتك له من أجل موقف واحد، هو موقفه من لويس عوض! فما يُقال لك إلا ما قد قيل للذين من قبلك: لقد غضبتم من محمود شاكر لأنه جرح لويس عوض، ولم تغضبوا من لويس عوض لأنه قتل أمة بأسرها، أو أراد أن يقتلها، فغضبتم من جارح، ولم تغضبوا من قاتل، فكنتم كما قال الفرزدق:

أَتَغْضَبُ إن أُذنا قُتَيْبَةَ حُزَّتا جِهاراً ولم تغضب لقَتْل ابن خازِمِ؟

ومهما يكن من أمر فقد خاض محمود شاكر معركة شرسة مع الدكتور لويس عوض بسبب مقالات هذا في جريدة الأهرام حول «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري، وكان لويس عوض قد ذهب إلى أن أبا العلاء قد تأثر بالفكر اليوناني والأدب اليوناني، وأن «رسالة الغفران» تتشابه في كثير من جوانبها مع مسرحية «الضفادع» لأرسطوفانيس، وقد غضب محمود شاكر من هذه المقالات غضباً شديداً، واستخرجت منه آراءه وأفكاره التي طوى عليها صدره رَدَحاً من الزمن، فهبّ يدفع مقالات لويس عوض، ثم استطرد إلى فتن أخرى كثيرة، تريد أن تغتال تاريخ الأمة اغتيالاً، ومنها: قضية الدعوة إلى العامية في مصر. وقد أودع ذلك كله كتابه الدامغ «أباطيل وأسمار».

ولأن الدكتور لويس عوض مسيحي، فقد بدا لبعض الناس ــ ومنهم الأستاذ نسيم مجلى ــ أن يضعوا القضية في إطار التصادم الإسلامي المسيحي، ثم تصوير لويس عوض بأنه الديمقراطي الحر المعتدى عليه، وأن محمود شاكر مثال صارخ للتراثي المتخلف المتعصب لحد النخاع، وأنه انتهز فرصة لويس عوض ليوجه ضربة قاصمة لتيار الحداثة في الأدب والفن والفكر، وهو التيار المرتبط بالمفاهيم العقلانية والثقافة الغربية العصرية، لصالح التيار السلفي التقليدي أو الأصولي ــ هكذا قال صديقنا نسيم مجلى في كتابه: صدام الأصالة والمعاصرة ص ١٠، وكان قد قال من قبل في ص ٨: «إن شاكر يفسّر الثقافة والتاريخ من خلال منظور ضيق جدّاً، هو المنظور الديني فقط، بحيث ينعكس على رؤيته لكل إبداعاتنا الأدبية والنقدية الحديثة».

وكنت قد نقلت من قبل كلمة الأستاذ سمير غريب، أن ما قاله محمود شاكر في الفن الفرعوني «يمكن أن يستند إليه المتطرفون دينيّاً». وهذا كله باطل من القول يأخذ بعضه برقاب بعض، فمحمود شاكر لم يكن يوماً متطرفاً، ولا محارباً للعقل، وإنما هو رجل مؤمن بتاريخ أمته، وفيٌّ لثقافتها، مدرك لعبقريتها، يسوؤه ما تردّت فيه من أسباب الضعف والتفكك، وفي سبيل دفاعه عن تاريخ أمته وعلومها ومعارفها خاض معارك كثيرة، وقد خاضها وحده غير متحيز إلى فئة ولا منتصر بجماعة، ولم يكن من بين من حاربهم إلاَّ مسيحيٌّ واحد، هو لويس عوض، ومن وراء لويس عوض كان من الذين صارعهم محمود شاكر واشتد في حربهم: طه حسين وعبد العزيز فهمي وسيد قطب، بل إن موقفه العنيف من الشيخ حسن البنا وجماعة الإخوان المسلمين معروف مذكور، وكان عنيفاً جداً مع حسن البنا وجماعته، وهو ما كان يأخذه عليه كثير من المسلمين، وما أريد أن أستطرد في هذه القضية فلها مكان آخر، غير أني أريد أن أنبه الأستاذ نسيم مجلى ومن يَلُفُّ لَفَّه إلى نقطة يبدو أنها غائبة تماماً عن نسيم مجلى؛ لأنه حديث عهد بمعرفة محمود شاكر، فأقول:

يا أستاذ نسيم: إن صلة محمود شاكر بالأدباء والمفكرين المسيحيين قديمة

جداً، ومتينة جداً، وإن بينه وبين كثير منهم مودة وصفاء. ومن أقدمهم في حياة محمود شاكر: الطبيب عالم النبات والحيوان الفريق أمين باشا المعلوف، يقول محمود شاكر في وصفه: «دخل علينا رجل عظيم القدر، كنت أحبه ويحبني كان يومئذ شيخاً فوق الستين، وكنت أتوهمه فوق السبعين، كان ذكي العينين باسم الثغر»، ثم ذكر فضله عليه وإطلاعه إياه على نسخة من ديوان المتنبي بشرح اليازجي، وعلى هوامشها فوائد جليلة ــ لاحظ أن محمود شاكر في هذا الوقت كان فتى في السادسة والعشرين من عمره. انظر كتابه: المتنبي ص ٤٣.

ومنهم فؤاد صرُّوف ويعقوب صرُّوف، صاحبا المقتطف، وقد أفردا له عدداً خاصاً من المقتطف، نشر فيه كتابه الرائد عن المتنبي (يناير ١٩٣٦). ويقول محمود شاكر في بيان قصة تأليفه كتابه عن المتنبي: «والفضل في الذي بلغته مردود كله إلى أخي وصديقي الذي لا أنساه الأستاذ فؤاد صروف، أطال الله بقاءه».

ثم شفيق ونجيب متري، أصحاب دار المعارف، وقد اختار مطبعتهم لطبع الستة عشر جزءاً من تفسير الطبري، الذي هو من أبرز أعماله التحقيقية. ثم الأديب الكبير عادل الغضبان، الذي يقول عن محمود شاكر، في آخر قصيدة القوس العذراء: «التقى صديقنا رفيق الصبا وخِدن الشباب الأستاذ محمود محمد شاكر بصاحب دار المعارف شفيق متري.. وتطرق الحديث بينهما إلى الكلام على العمل وتجويده...»، ويخاطب محمود شاكر عادل الغضبان في آخر «القوس العذراء»، ولم يُسَمِّه، ولكنه ذكر لي أن المقصود هو عادل الغضبان، يقول له: «ولكنك بعثت كوامن نفسي منذ رأيتك، فتوسَّمت وجهك وعرفت فيه شيئاً أخطأته في وجوه كثير من أهل زماننا». ومن فضلاء المسيحيين الذين كان يحبهم محمود شاكر ويوسع لهم في مجلسه صديقنا الأديب المؤرخ الودود الأستاذ وديع فلسطين.

أما صديقه الأثير من الأحباب المسيحيين، في الأعوام الأخيرة فكان العلامة الدكتور مجدي وهبه عضو مجمع اللغة العربية، وكان محمود شاكر كَلِفاً به، محباً له، وكان يختار مجلسه بجواره في الاجتماعات الأسبوعية لمجمع اللغة العربية، ثم

كان مجدي وهبه يدعوه كثيراً إلى «عزبته» لشيء من الراحة والاستجمام. وقد كتب عن كتاب محمود شاكر «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» مقالة جيدة بالإنجليزية، ترجمها صديقنا المرحوم زهير علي شاكر ابن أخي الشيخ، باسم: «غضب مرتقب».

ومن وراء ذلك فقد حدثني محمود شاكر أن صديقه القديم توفيق دُوس باشا هو الذي عرَّفه بأم كلثوم.

ومن طريف صلة شيخنا بالأصدقاء المسيحيين: ما حدثني به هو ــ برَّد الله مضجعه ــ قال: كانت لنا جارة مسيحية فاضلة جداً، وكان من عادتها أنها تزور السيد البدوي بطنطا، فكنت إذا ذكرت لها أنَّ السيِّد البدوي هذا خرافة تغضب جداً، وتثور ثورة شديدة.

وشيء آخر: كان من حضور موائد محمود شاكر، وبخاصة إفطار يوم عيد الأضحى، على خروف العيد: الأستاذ أنور، وهو مسيحي فاضل جداً، مدرس بمدرسة الطبري، وكان الشيخ يحبه كثيراً.

فأي عصبية دينية؟ اتقوا الله يا قوم، وارْبَعوا على أنفسكم، ولا تعزفوا على هذه النغمة النشاز ــ نغمة الإسلام والمسيحية ــ فإنها نغمة غليظة تؤذي السمع وتصُكّه صكّاً، ثم هي بعد ذلك «حجةٌ لاجىء إليها اللئام» كما قال المتنبـي.

ثم إنه من البلاهة والغباء والحمق أن يظن ظان أن محمود شاكر ومن حوله قوم من الدراويش قد لبسوا الخِرَق والمرقَّعات، وقد طالت لِحاهم، وطوَّقت المسابح الضخمة أعناقهم، وتناثر الزَّبَد على أشداقهم، وقد داروا في حلقة ذكر حول الكتب الصفراء، يتعبدون بأصحابها ويحرقون لها البخور، وقد صمُّوا آذانهم وأغمضوا أعينهم عن كل ما يدور في عصرهم!

هل تعلمون يا قوم من كان يحضر مجلس محمود شاكر بصفة دائمة؟ ثم من كان يحبه ويجلُّه: يحيـى حقي ومحمود حسن إسماعيل وعلي أدهم وعبد الرحمن صدقي، ومن لا يحصى من الأدباء والشعراء المعاصرين، مثل صلاح عبد الصبور، وعبد الوهاب البياتي ومحمد الفيتوري ورجاء النقاش، ويوسف شوقي أستاذ العلوم

والموسيقى. وكان من ألصق الناس به: يحيى حقي ومحمود وحسن إسماعيل، وكان أثره فيهما واضحاً جدّاً، وذكراه في أكثر من موضع، فيقول يحيى حقي في سيرته الذاتية: «وأثناء عملي بديوان وزارة الخارجية كانت الكتابة بالنسبة لي خاطراً غير تام الأدوات، ولكن عندما توثقت صلتي بالمحقق البحاثة الأستاذ محمود شاكر، وقرأت عليه عدداً من أمهات كتب الأدب العربي القديم ودواوين الشعر، انفتح الطريق أمامي، ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاهتمام باللغة العربية وأسرارها وبيانها وسحرها».

أما محمود حسن إسماعيل فقد طالت صحبته وملازمته لمحمود شاكر، وما فتىء يذكر فضله عليه وأثره فيه ــ ولا يخفى ما كان في محمود حسن إسماعيل من بَأْوٍ وعُجب ــ وعندما سئل عن أثر محمود شاكر فيه قال: «لا أستطيع تحديد أبعاد ما حُزْتُه من صداقتي لمحمود، لقد زَجَّ بي إلى الشعر الجاهلي، وأمالني مع الشعر الأموي، وطوَّح بي مع الشعر العباسي، فأحاطني بلُحْمة الشعر العربي وسُداه جميعاً. . . وأستطيع القول إن شعري قبل معرفتي بمحمود كان نبعاً هادئاً فجعله بحراً متلاطماً».

هذا وقد كان من محبي محمود شاكر والعارفين قدره: عبد المنعم تليمة وجابر عصفور، وقد شكر صديقه عبد المنعم تليمة في مقدمة تحقيق أسرار البلاغة، وهو الذي حبب إليّ جابر عصفور، وكان يقول في محضر جلسائه: «الولد جابر ده كويس». وفي سرادق عزائه، جلس عبد المنعم تليمة بجوار محمد عمارة، وهكذا كان محمود شاكر يجمع كل الأقطاب، ويفتح كل النوافذ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

رحمك الله يا أبا فهر ونوَّر قبرك، وجعل كل ما قدمته لأمتك، ولتاريخها وللغتها في موازينك يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحضراً، وقطع عنك ألسنة المكذِّبين وادعاءات المبطلين، وما أحراك أن تُنشد هؤلاء وهؤلاء قول الشريف الرضي:

وإن مقـــام مثلـــي فـــي الأعـــادي　　مقـــام البـــدر تنبحـــه الكـــلاب
رمَـــونـــي بـــالعيـــوب ملفَّقـــاتٍ　　وقـــد علمـــوا بـــأنـــي لا أُعـــابُ
وأنـــي لا تُـــدنِّسنـــي المخـــازي　　وأنـــي لا يـــروعِّنـــي السِّبـــابُ
ولمـــا لـــم يُـــلاقـــوا فـــيَّ عيبـــاً　　كَســـونـــي مـــن عيـــوبهـــم وعـــابُـــوا

وقد ادَّخرت نَصَّيْن من كلام محمود شاكر يدينان هذه النابتة التي نبتت في أرض بلادنا وتسمَّت بالجماعات الإسلامية. وهذان النصان يكشفان عن توجه محمود شاكر الفكري وإدانته لطائفة من أبناء دينه، بعيداً عن لويس عوض والمسيحية وسائر ما يدمغه به القوم.

يقول رضي الله عنه في مقدمة تحقيق أسرار البلاغة: «بل بلغت الاستهانة مبلغها في الدين، بعدما نشأ ما يُسمُّونه بالجماعات الإسلامية، فيتكلم متكلمهم في القرآن وفي الحديث بألفاظ حفظها عن شيوخه، لا يدري ما هي، ولا يرد بل يكذب أحاديث البخاري ومسلم بأنها من أحاديث الآحاد، بجرأة وغطرسة!

بل جاء بعدهم أطفال الجماعات الإسلامية، فيقول في القرآن والحديث والفقه بما شاء هو، ويرد ما قاله مالك وأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل، ويقول: نحن رجال وهم رجال! بل تعدى ذلك إلى صحابة رسول الله ﷺ بهذا اللفظ نفسه، فيقول: نحن رجال وهم رجال!

أي بلاء حدث في زماننا هذا؟ إنما هو وباء الاستهانة بكل شيء، وباء تفشى في مصر، بل تجاوزها، ورحم الله أبا العلاء المعري، وذكر وباءً نزل بمصر وغيرها فقال:

مـــا خَـــصَّ مصـــراً وَبَـــأٌ وحـــدَهـــا　　بـــل كـــائـــنٌ فـــي كـــلِّ أرضٍ وَبـــأْ

انطفأ سراج العلم، وسراج الخُلُق، وبقيت العقول في ظلمات بعضها فوق بعض. أيُّ نكبة نزلت بعلوم هذه الأمة العربية الإسلامية على يد الصغار في حقيقتهم، الكبار في مراتبهم التي أنزلتهم إياها تصاريف الزمان، فأطلقوا ألسنتهم في مواريث أربعة عشر قرناً، بالاستهانة والقدح والازدراء».

وبعد:

فلئن كان الأستاذ حسين أحمد أمين قد أغضبنا في أول الأمر، فإننا نشكره في آخره؛ لأنه فتح لنا أبواباً من القول، كشفت شيئاً من منهج شيخنا محمود محمد شاكر، رحمه الله.

ولا زلنا ننتظر من الأستاذ حسين أن يبرأ من ذلك الكلام الذي قاله في حق شيخنا، ويعتذر عنه، وساعتها سنفرح ببراءة ساحته وخلوّ ذِمَّته؛ لأننا لا نحب أن نطوي صدورنا على مَوْجِدَة لأحد.

والحمد لله الذي لا موهبة إلاَّ منه، ولا بلوى إلاَّ بقضائه، ولا مَفْزَع إلاَّ إليه، ولا يُسر إلاَّ فيما يسَّره، ولا مصلحة إلا فيما قَدَّره، له الحكم وإليه المصير، يحكم بين عباده وهو اللطيف الخبير.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد رسوله المبعوث، إلى الوارث والموروث.

* * *

القرآن الكريم.. وتفسير العوام(1)

مع هلال رمضان من كل عام تنبعث ذكرى أعظم حادثة في تاريخ البشر، وأكبر شأن من شؤون المسلمين، وهو القرآن الكريم الذي نزل به جبريل الأمين على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي أمر بأن يبلغه الناس ويتلوه عليهم، وأمرت الأمة الإسلامية أيضاً بتلاوته وتدبر آياته، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال عز من قائل: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقال رسول الله ﷺ: «يا أهل القرآن، لا توسدوا القرآن، واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار»، فضائل القرآن لأبـي عبيد ١/ ٢٥٦، ومعنى «لا تَوَسَّدُوا القرآن» أي داوموا قراءته، وحافظوا عليها، ولا تناموا الليل عن قراءته، فيكون القرآن متوسداً معكم، وهو من الوسادة. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٥/ ١٨٣، وقال تقدَّست أسماؤه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وتدبر القرآن لا يكون إلا بمعرفة وجوه تفسيره، والكشف عن مراد الله وفق طاقة البشر. ومن هنا كان لعلم تفسير القرآن منزلة عالية، ثم كان للقائم عليه والمعني به مكانة سامية، روي أن علي بن أبـي طالب ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم، فقال رجل: جعلت فداك، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت؟ فقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

---

(١) مجلة «الهلال»، يناير ١٩٩٩م.

وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل، وقال الحسن البصري: والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيما أنزلت وما يعني بها، وقال عكرمة في قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٠٠]، يقول عكرمة: طلبت اسم هذا الرجل الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، أربع عشرة سنة حتى وجدته. وقال ابن عبد البر: هو ضمرة بن حبيب. وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرأون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب. وقال النبيّ ﷺ: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة». انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية ١/ ٢٦.

فقه التفسير:

وقد أوحى الله إلى نبيه المصطفى، القرآن ومعانيه، فكان عليه السلام يفهم القرآن جملة وتفصيلاً، ليبينه للناس، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون القرآن كذلك، لأنه نزل بلغتهم، وما خفي عليهم منه كشفه لهم رسول الله ﷺ، وهم مع ذلك كانوا يتفاوتون في الفهم، وذلك رزق الله المقسّم على خلقه، قال ابن قتيبة: إن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إنَّ بعضها يفضل بعضاً، ولذلك فقد اشتهر بعض الصحابة بفقه التفسير، كان من أبرزهم عبد الله بن عباس؛ وذلك لأن رسول الله ﷺ دعا له فقال: «اللهم علّمه التأويل وفقهه في الدين»، والتأويل: هو التفسير، انظر معناه وتخريجه في: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٩٩.

وللتفسير أدوات وشروط، ينبغي على من يتصدى له جمعها والتزامها، يقول الزركشي: «التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكَمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو

والتصريف، وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ»، البرهان في علوم القرآن ١/ ١٣.

وقد حذّر رسول الله ﷺ من الجرأة على تفسير كلام الله بغير علم، فقال فيما رواه ابن عباس: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» حسَّنه وصحَّحه الترمذي. انظر: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ١١/ ٦٧ (أبواب التفسير)، وكذلك أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ٤٩٦.

ولعلَّ هذا التحذير من المنزَّل عليه ﷺ هو الذي خوّف بعض كبار الصحابة من تفسير ما لم يعرفوه من كتاب ربهم عزَّ وجلّ، فقد روي أن أبا بكر الصديق سئل عن تفسير الفاكهة والأبّ، في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ [عبس: ٣١]، فقال: «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم».

وكذلك روي عن عمر أنه قرأ هذه الآية على المنبر، ثم قال: «كل هذا عرفناه فما الأبُّ؟ ثم رفع عصا كانت بيده، فقال: هذا لعمر الله هو التكلف، فما عليك ألا تدري ما الأب، اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكِلُوه إلى ربه»، انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٦/ ٣١٧، وكان الأصمعي مع تبحره في اللغة وسعته في الرواية يحتمي تفسير القرآن وإعرابه. وهذا التوقف والحذر من هذا النفر الكريم إنما كان فيما لم يعلموه، بدليل قول أبـي بكر: «إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»، وبدليل أنه قد تكلم في أحكام الشرع والدين بما علم.

قال نجم الدين الطوفي الحنبلي المتوفى ٧١٦هـ: «وأما الأصمعي رحمه الله فإن كان احتماؤه للكلام فيه بما لا يعلم فهو في غاية التوفيق والصواب؛ لأن كلامه إذن فيه يحرم، وإن كان مع العلم، فذلك إما جمود وجبن، وإما خروج إلى السلامة واكتفاء بمن تكلم فيه قبله وفي عصره من الأئمة الذين هم حجة عليه وله»، انظر: الإكسير في علم التفسير ص ١٠. وقول الطوفي: «وإما خروج إلى السلامة»، وهو ما نقوله الآن في أيامنا: «الهروب من تحمل المسؤولية»، فانظر إلى حلاوة كلامهم وركاكة كلامنا!

غاية دينية:

ومع ذلك التوقي والحذر، فقد رأى علماء السلف من التابعين ومن بعدهم، أنه من الواجب عليهم أن ينهضوا لتفسير كلام الله، بعد أن أخذوا له أخذه، وأعدوا له عدته، من تأمل الكتاب الكريم كله، ورد بعضه إلى بعض، ثم النظر فيما انتهى إليهم من أحاديث رسول الله ﷺ وسننه القولية والفعلية، وما هدي إليه كبار الصحابة من تفسير وتأويل.

وقد أعان هؤلاء السلف أيضاً ما قام به جامعو اللغة ورواة الشعر، مما وضع أمامهم زاداً وفيراً من الألفاظ والتراكيب والمعاني، فتمت لهم أدوات التفسير والتأويل والبيان.

وكان وراء هذا الذي قام به علماء السلف غاية دينية، هي حفظ ذلك الكتاب العزيز من أن تتناوله أيدي الجهلة وأصحاب الأهواء والملل والنحل، وبخاصة أن الأمة الإسلامية كانت قد انفتحت في ذلك الزمان على ثقافات ومعتقدات الأمم الأخرى، يؤنس بهذا ما ذكره العلامة الطوفي، في الموضع المذكور من كتابه، قال: «لعل علماء السلف رحمهم الله رأوا أن الكلام في القرآن متعين عليهم، وأنهم أولى به ممن أتى بعدهم، لقربهم من التنزيل ومعرفة التأويل، فيكون ورعهم وزُهدهم وخشيتهم هي الحاملة لهم على الكلام فيه، خشية أن يدرس من علم شريعة الله ودينه ما لا يمكن تداركه، ورأوا أن الخطأ عنهم في ذلك موضوع (أي مرفوع معفو عنه) كالأحكام الفرعية الاجتهادية، وذلك كما حكي عن موسى بن عقبة، لما رأى ما دخل على مغازي النبيّ ﷺ، من الزيادة والنقص، جمع ما صح عنده من المغازي ليحرسها بذلك من الكذب».

وهكذا اندفع علماء هذه الأمة يوماً بعد يوم في استثارة كنوز هذا الكتاب الحكيم، وكشفها والإبانة عنها، بل إن علوماً بأكملها قامت ابتداء لخدمة ذلك الكتاب العزيز، ثم صارت بعد ذلك علوماً مستقلة، لها مناهجها وأدواتها وغاياتها، مثل النحو وإعجاز القرآن الذي صار أساساً لعلوم البلاغة. ومن هنا أصبح علم التفسير جامعاً لعلوم العربية كلها، وقد سبق تعريف الزركشي لعلم التفسير، والعلوم

المطوية تحت جناحه، وقد جاءت كتب التفسير كلها بعد ذلك دائرة في فلك علوم العربية كلها، إلا ما قد يكون عند مصنفي التفسير من غلبة فن على فن، فالطبري يغلب عليه الاهتمام بالآثار وتفسير القرآن في ضوئها، والزمخشري يميل إلى البلاغة، والقرطبي يغلب عليه الاهتمام بالفقه والأحكام، والفخر الرازي يهتم بعلم الكلام وما إليه من العلوم العقلية، والواحدي يغلب عليه الغريب ـ أي علم الغريب في القرآن، من حيث اللغة ـ والثعلبي يحتفل بالقصص.

وبذلك لم يحظ كتاب سماوي بمثل ما حظي به هذا الذي أنزل على محمد ﷺ، من التأليف في لغته ونحوه وبلاغته وقراءاته وأشباهه ونظائره وناسخه ومنسوخه وفضائله، سيل متدافع من الكتب: طوالها وأوساطها ومختصراتها، بحيث أصبح من السهل اليسير على من يريد معرفة معنى لفظ من ألفاظ القرآن الكريم، أو معنى عام منه، أو حكم من أحكامه، أن يجد بغيته من أيسر سبيل، ولم يقصر علماؤنا رضوان الله عليهم في كشف المشكل وإيضاح المبهم. لكن قوماً ضعفت سلائقهم العربية، أو قعدت بهم هممهم فتكاسلوا عن البحث والتفتيش والمراجعة، فسَّروا بعضاً من القرآن العزيز بآرائهم، ومن عند أنفسهم، فضلُّوا وأضلُّوا، حين تابعهم الناس على هذه الوجوه من التفسير، وهذه آفة الآفات.

وهذا هو الذي أراده الجاحظ بقوله: «وإنما يؤتى الناس من ترك التثبت وقلة المحاسبة»، انظر: الأوائل للعسكري ١/ ٣٣٣، وهو أيضاً ما قاله الشيخ عبد القاهر: «وتلك جريرة ترك النظر وأخذ الشيء من غير معدنه»، دلائل الإعجاز ص ٣٦١.

ويلاحظ أن معظم وجوه الخطأ في تفسير القرآن الكريم تأتي من سرعة الاستشهاد بالآية القرآنية معزولة عن سياقها، منتزعة من أسباب نزولها، مع الغفلة عن وجه الإعراب فيها، إلى أشياء أخرى تظهر إن شاء الله من الأمثلة.

ومن العجب أن بعض هذه الوجوه الخاطئة من التفسير قديمة، وقد استمرت إلى يومنا هذا، وهو ما أسمِّيه «تفسير العوام»، وأريد بالعوام هنا: غير أهل العلم، الذين يتحرون الصواب، ولا يقولون إلا بعد المراجعة والمفاتشة والتقصي.

تفسير العوام:

وقد بدا لي أن أجمع قدراً يسيراً من هذه الأوجه الخاطئة أو الضعيفة، وأبيِّن وجه الصواب فيها، أو ما هو الأرجح والأولى منها.

وأود أن أنبه إلى أنني أعرضت عما جاء من ذلك في أخبار الحمقى والمغفلين، وما أثر عن الخطباء والوعاظ والقصاص، مما ذكره ابن الجوزي وغيره، ثم مما كان يحفل به الجاحظ، من ذكر غفلات المعلمين والقراء والمفسرين، فإن ذلك باب واسع، ولا تؤمن فيه بواعث الوضع أو التشنيع أو المفاكهة واستخراج الضحك.

وأود أيضاً أن أنبه إلى أن هذه النماذج من تفسير العوام، إنما هي من بابين: الباب الأول: ما وقع من بعض الأقدمين، واستمر فهمه والعمل به إلى يوم الناس هذا. والباب الثاني: ما رصدته أنا وتتبعته من فهم بعض المعاصرين وتفسيراتهم، وسأرتب ذلك على الآيات بحسب ترتيب السور في المصحف الشريف.

وقبل ذلك أحب أن أشير إلى أن بعض خطباء الجمعة في زمننا، وكذلك بعض المتحدثين في إذاعة القرآن الكريم، يتساهلون كثيراً ويجترئون على تفسير كلام الله عزَّ وجلّ، بما تمليه عليهم النظرة العجلى، وكثيراً ما ينساقون وراء خداع الألفاظ، وتوجيه المعاني وفق ما هو متعارف بين الناس الآن من الدلالات الخاطئة.

وأمثلة ذلك كثيرة أكتفي منها الآن بمثال واحد موثق باليوم والساعة: في صباح يوم السبت ٢٠ من نوفمبر ١٩٩٨ استمعت في إذاعة القرآن الكريم إلى أحد الدكاترة ـ وهو رجل فاضل أعرفه ـ يفسر قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥]، قال الأستاذ الدكتور: «الزهق في الآية معناه الضجر والسأم والملل»، ثم رأى أن معنى الآية: أنهم إذا كثرت أموالم وأولادهم انتهوا إلى حالة من الملل والسآمة، وذكر أن ذلك يرجع إلى نظرية قال بها أحد الأساتذة الأمريكيين، وهي نظرية «الاستهلاك الكبير» التي تدفع الناس بعد الشبع والامتلاء (أو الامتلاك ـ الشك مني أنا ومن

سَمْعي) إلى ملالة الحياة ومحاولة التخلص منها، وفسر بذلك ظاهرة الانتحار في المجتمع السويدي، وهو مجتمع سعيد جداً؛ لأنه ليست له مشاكل داخلية أو خارجية، ومع ذلك تكثر فيه ظاهرة الانتحار». انتهى كلام الأستاذ الدكتور!

فانظر كيف فسر «الزهق»، تفسير العوام، ثم بنى عليه ذلك الكلام.

وليس «الزهق» هو الملل، إنما هو البطلان والهلاك والاضمحلال، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]، ومعنى (تزهق أنفسهم) في الآية الكريمة: أي تخرج، قال أبو عبيدة: «أي تخرج وتموت وتهلك» مجاز القرآن ١/ ٢٦٢. وقال القرطبي في تفسيره ٨/ ٦٤: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، نص في أن الله يريد أن يموتوا كافرين. سبق بذلك القضاء»، وقال الطبري في تفسيره ١٤/ ٢٩٧: «وتخرج أنفسهم فيموتوا على كفرهم بالله وجحودهم نبوة نبي الله محمد ﷺ».

وواضح أن الدكتور الفاضل قد ظن أن الهمزة في قول العوام «الزهأ ــ وأنا زهآن» إنما هي القاف الفصيحة التي تأتي غالباً في لغة المصريين والشوام همزة، مثل: «ألت» مكان: «قلت»، و: «أريب» موضع: «قريب»، ويُسرف الشوام في ذلك فيقولون: «الموسيئا» بدل: «الموسيقى»، ولا يفعل عوام المصريين ذلك في مثل هذه الكلمة، لأنها من الكلمات الثقافية التي يحافظون على صواب نطقها.

وهنا فائدتان: الأولى أن المعجم العربي لم يذكر مادة (زهأ) أصلاً، في أي معنى، أما قولهم: «زُهاء مائة» بمعنى قدر مائة، فأنت تجدها في المعاجم في مادة (زهى) لأنها من زهوت القوم: أي حزرتهم وقدرت عددهم. وهذه الهمزة التي في «زهاء» ليست أصلية، وإنما هي منقلبة عن واو، وأصلها: زهاو، ومثل ذلك: سماء ودعاء ورجاء، فأصلها كلها: سماو ودعاو ورجاو، لأن أفعالها: سموت ودعوت ورجوت. ويقول الصرفيون: تطرَّفت الواو بعد ألف زائدة فقلبت همزة.

الفائدة الثانية: أن قلب القاف همزة عند عوام المصريين ليس وليد اليوم، وإنما هو قديم، وقد وجدت ذلك في ترجمة «جمال الدين يونس بن بدران بن فيروز الحجازي ثم المليجي المصري، المولود سنة (٥٥٠هـ) والمتوفى (٦٢٣هـ)،

فقد قال الحافظ الذهبي في ترجمته من سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٥٧: «وكان شديد الأُدْمة (أي السمرة) يلثغ بالقاف همزة»، فهل هذه الظاهرة خاصة بذلك الرجل، لقول الذهبي «يلثغ»، أم أنها كانت معروفة عند المصريين؛ ويلاحظ أن الرجل من «مليج»، وهي من قرى المنوفية الآن.

وسمعت أستاذاً جامعياً آخر ـ في حديث إذاعي ـ يترضى على الصحابة فيقول: «وهم أهل التقوى وأهل المغفرة»، وهذا انتزاع خاطىء من القرآن الكريم، فإن عبارة «أهل التقوى وأهل المغفرة» إنما هي في حق المولى عزَّ وجلّ، وذلك قوله تعالى من آخر سورة المدثر: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾، قال الزجاج: «أي هو أهل أن يُتَّقى عقابه، وأهل أن يُعمل بما يؤدي إلى مغفرته» معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٢٥٠، وأخرج الترمذي من حديث أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية: «قال الله عزَّ وجلّ: أنا أهلٌ أن أُتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهل أن أغفر له»، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ١٢/ ٢٢٩ (أبواب التفسير)، هكذا يكون الكلام، فاتقوا الله يا أساتذة في قرآنكم ودينكم!.

وهذا أوان الشروع في المقصود، والله المستعان:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، يستشهد الناس بهذه الآية الكريمة عندما يرون أحدهم يقدم على خطر، كأن يعترض سيارة مسرعة، أو يسير بجانب جدار يريد أن ينقض، أو يمر يده على نار مشتعلة، أو يصارع من هو أقوى منه، ونحو ذلك من ألوان المشتقات التي لا طاقة له بها، فيقولون له: حسبك ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، والاستشهاد بالآية لهذه الحالة إرث قديم، وقد تناقلته الألسنة حتى وصل إلينا، والصحيح أن الآية الكريمة نزلت في النفقة في سبيل الله والحض عليها، بتصوير الإمساك والبخل بأنهما هلاك يلقي فيهما الممسك والبخيل نفسه، وصدر الآية وختامها يدلان على ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

ثمَّ إنَّ سبب نزول الآية ينفي هذا التفسير الخاطىء، فقد روي عن أسلم أبي عمران، قال: «كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر الجهني، صاحب رسول الله ﷺ، وعلى أهل الشام فضالة بن عُبيد صاحب رسول الله ﷺ، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، وصففنا لهم صفاً عظيماً من المسلمين، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا مقبلاً، فصاح الناس فقالوا: سبحان الله! ألقى بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ، فقال: أيها الناس، إنكم تتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنَّا لما أعزَّ الله تعالى دينه وكثر ناصريه، قلنا بعضنا لبعض سراً من رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أنا أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى في كتابه يرد علينا ما هممنا به، فقال: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾. انظر: أسباب النزول للواحدي ص ٥١، وسنن أبي داود ٣/ ١٢ (كتاب الجهاد)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور ١/ ٢٠٧، هذا وقد ذكر الطبري آثاراً أخرى تدل على أن المراد من الآية ترك النفقة في سبيل الله. راجع تفسيره ٣/ ٥٨٣ ــ ٥٨٩.

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ١٩١]، ويقول تعالى: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ويستشهد الناس بهاتين الآيتين فيمن ينقل كلاماً سيئاً من واحد إلى واحد، أو من طائفة إلى طائفة، ليوقع فتنة أو وحشة بينهما، فهي النميمة، والفتنة في اللغة هي المحنة والاختبار والابتلاء. قال الشاعر:

وقد فتن الناس في دينهم ... وخلى ابن عفان شراً طويلا

نعم، إن النميمة تفضي إلى الفتنة، ولكن ليست هي هي، فكأن العوام فسَّروا الفتنة في الآيتين بما تؤول إليه النميمة، لكن هذا ليس دقيقاً، كما أن سبب نزول الآيتين ينفي هذا الفهم والتأويل، وسياق الآية الأولى هكذا: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾، فالفتنة في الآية هي الشرك الذي أراده

الكفار من المؤمنين. قال الطبري: «فتأويل الكلام: وابتلاء المؤمن في دينه حتى يرجع عنه فيصير مشركاً بالله من بعد إسلامه، أشد عليه وأضر من أن يُقتل مقيماً على دينه، متمسكاً عليه، محقاً فيه»، تفسير الطبري ٣/ ٥٦٥.

وكذلك تفهم الآية الثانية: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾، في سياقها وسبب نزولها، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قد بعث عبد الله بن جحش وناساً معه من المسلمين إلى المشركين، فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وذلك في أول يوم من رجب، فاستنكر المشركون ذلك، وقالوا: ألستم تزعمون أنكم تحرمون القتال في الشهر الحرام؟ فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾، يقول: هذا كله أكبر عند الله من الذي استنكرتم، والفتنة التي أنتم مقيمون عليها، يعني الشرك أكبر من القتل، أي من قتل ابن الحضرمي، راجع أسباب النزول ص ٦١، وتفسير مجاهد ص ٢٣٢، وسيرة ابن هشام ١/ ٦٠٤.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾ البقرة ٢٢٤، يستشهد كثير من الناس بهذه الآية على النهي عن الحلف، وليس الأمر على ذلك، ويظهر ذلك من تمام الآية، ومن معرفة سبب نزولها، وقول أهل التفسير فيها، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، قيل إنها نزلت في أبـي بكر الصديق إذ حلف ألا ينفق على مسطَح بن أُثاثة، حين خاض في حديث الإفك، ورمى عائشة الطاهرة بالباطل، وقيل: نزلت في عبد الله بن رواحة حين حلف ألا يكلم بشير بن النعمان ــ وكان زوجه على أخته ــ ولا يصلح بينهما.

وقد روي عن التابعي الجليل إبراهيم النخعي أنَّ المعنى: «لا تحلف ألا تتقي الله، ولا تحلف ألا تبر ولا تعمل خيراً، ولا تحلف ألا تصل، ولا تحلف ألا تصلح بين الناس، ولا تحلف أن تقتل وتقطع»، وقال ابن قدامة في المغني ١٣/ ٤٤٠: «ومعناه لا تجعلوا أيمانكم بالله مانعة لكم من البر والتقوى والإصلاح بين الناس»، ولذلك قال ﷺ لعبد الرحمن بن سمُرة: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً

منها فكفِّر عن يمينك وَأْتِ الَّذي هو خير»، أخرجه البخاري في أوائل كتاب الأيمان والنذور ٨/ ١٥٩، وانظر: أسباب النزول ص ٧٢، وتفسير الطبري ٤/ ٤٢٢.

فالآية لا تنهى عن الحلف والأيمان، كيف والأيمان تُطْلَب، وتدور عليها وبها أحكام كثيرة في الشرع؟ ومع هذا البيان والتوضيح والتصحيح لموضع الاستشهاد من الآية الكريمة، ينبغي أن يكون معلوماً أن الإفراط في الحلف مكروه ومذموم، لأنه يؤدي إلى الكذب، وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، إن المعنى: بترك الحلف، فإنكم إذا لم تحلفوا لم تتوجه عليكم هذه التكليفات. راجع تفسير القرطبي ٦/ ٢٨٥.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، يستشهد كثير من الناس بهذه الآية على أنَّ التقوى طريق وسبب لتعليم الله وتوفيقه لعباده، ويسوون بينها وبين قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وهذا التفسير غير صحيح، وبدعة ذي بدء، فإن آيتي الأنفال والطلاق مبنيتان على أسلوب الشرط والجزاء، وليس كذلك آية البقرة، فانتفت التسوية، هذا أولاً.

وثانياً: فإن هذا الجزء المتلوّ من الآية إنما هو ختام لآية المداينة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ. . .﴾ الآية، وهي أطول آية في الكتاب العزيز، وقد اشتملت على أحكام في كتابة الدَّين والإشهاد عليه، والرهن، وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾، أي: واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ويعلمكم الله أحكامه المتضمنة لمصالحكم. وقال الطبري: «يعني بقوله جل ثناؤه (واتقوا الله): وخافوا الله أيها المتداينون في الكتاب والشهود، أن تضاروهم. . . ويعني بقوله: (ويعلمكم الله): ويبين لكم الواجب لكم وعليكم»، تفسير الطبري ٦/ ٩٣.

وهذا هو التوجيه الصحيح للآية الكريمة، لكن بعضاً من قدامى المفسرين وجَّهوا الآية على المعنى الذي يشيع عند العوام، ومن هؤلاء القدامى: ابن عطية في

المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٠، والقرطبي ٣/ ٤٠٦، وابن كثير ١/ ٥٠٠، لكن المحققين على غير ذلك.

قال الزركشي في البرهان ٤/ ١٤٣: «وأما قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾، فظن بعض الناس أن التقوى سبب التعليم، والمحققون على منع ذلك، لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء بالشرط، فلم يقل: «واتَّقُوا اللَّـهَ يُعَلِّمْكُم»، ولا قال: «فيعلمكم الله»، وإنما أتى بواو العطف، وليس فيه ما يقتضي أن الأول سبب للثاني، وإنما غايته الاقتران والتلازم، كما يقال: زرني وأزورك، وسلِّم علينا ونسلِّم عليك، ونحوه، مما يقتضي اقتران الفعلين والتعارض من الطرفين، كما لو قال عبد لسيده: أعتقني ولك عليّ ألف، أو قالت المرأة لزوجها: طلقني ولك ألف، فإن ذلك بمنزلة قولها: بألف أو عليّ ألف، وحينئذ فيكون متى علم الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال أبو حيان في البحر المحيط ٢/ ٣٥٤: «ويعلمكم الله: هذه جملة تذكر بنعم الله التي أشرفها التعليم للعلوم، وهي جملة مستأنفة لا موضع لها من الإعراب، وقيل: هي في موضع نصب على الحال من الفاعل في (واتقوا) تقديره: واتقوا الله مضموناً لكم التعليم والهداية... وهذا القول ـ أعني الحال ـ ضعيف جدّاً، لأن المضارع الواقع حالاً لا يدخل عليه واو الحال إلاَّ فيما شذَّ من نحو: قمت وأصُك عينه، ولا ينبغي أن يحمل القرآن على الشذوذ».

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣].

وهذه آية يضل في فهمها كثير من الناس، وبخاصة تلك الطائفة من المتعصبين الجهلة، يقولون: إن الله نهانا أن نسمع لمن ليس من ديننا، وألا نتبع إلا من هم على ديننا الإسلامي الحنيف، وسياق الآية وسبب نزولها ينفيان ذلك، فالآية السابقة تقول: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، فالآية نزلت في اليهود، حيث

قال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به في آخر النهار، ثم قال بعضهم لبعض: ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، فكان يهودياً. فالآية تحكي عن مكر اليهود، ومحاولتهم تشكيك المؤمنين في دينهم، ورغبتهم في أن يرجعوهم عن دينهم، ولا تخاطب الآية المؤمنين وتنهاهم عن متابعة غير المسلمين، وانظر: أسباب النزول ص ١٠٤، وتفسير الطبري ٥/ ٥١١.

في يوم جمعة وفي أثناء الخطبة اندفع الخطيب يحث المصلين على اصطحاب أطفالهم لحضور الجمعة والجمعات، وأخذ يحشد الأدلة والشواهد، إلى أن انتهى إلى قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، فكبا كبوة لا ينهض منها، وعثر عثرة يصعب عليه التخلص منها، وذلك أنه رد «الزينة» في هذه الآية إلى أختها في سورة الكهف ٤٦ ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، ويا بُعد ما بينهما! وقد غفل هذا الخطيب عن سبب نزول تلك الآية، وهو ما روي عن ابن عباس أنهم كانوا في الجاهلية يطوفون بالبيت عراة، الرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول وهي تطوف:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

فالزينة في سورة الأعراف: هي الثياب، وما وارى العورة، وكذلك تفسر «الزينة» في الآية التي تلي ذلك: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وانظر: أسباب النزول ص ٢٢٢، وتفسير الطبري ١٢/ ٣٨٩.

يقول تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨].

يخطىء بعض الناس في تفسير «قرآن الفجر» هنا بأنه القرآن الذي يتلى ساعة الفجر، ثم يخطىء بعض المذيعين حين يقدمون التلاوة في ذلك الوقت، فيقولون: قرآن الفجر يتلوه الشيخ فلان. والصحيح أن المراد بقرآن الفجر، هو صلاة الفجر، أي صلاة الصبح، وعبر عنها بالقرآن خاصة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها. إذ قراءتها طويلة ومجهور بها. قال القرطبي: «وقد استقر عمل المدينة

ــ أي عمل أهل المدينة، وعملهم حجة ــ على استحباب إطالة القراءة في الصبح قدراً لا يضر بمن خلفه»، تفسير القرطبي ١٠/ ٣٠٥، والدر المنثور ٤/ ١٩٦.

وبعد: فهذا قليل من كثير، مما يقع فيه الناس من أوهام وتخليط في تفسير كلام الله عزَّ وجلّ، وقد أمسكت عن ذكر أشياء من هذه البابة لأني رأيتها تحمل صوراً من الهزل والفكاهة، ونحن نُجل كتاب ربنا عزَّ وجلّ أن تكون آياته البينات معرضاً للتفكه والمنادمة.

ولا يبقى إلا أن نتوجه إلى مشايخنا الخطباء والوعاظ، ثم إلى زملائنا الجامعيين الذين أخذوا ينازعون المشايخ سلطانهم في الوعظ والتذكير، بل والفُتيا في دين الله، نتوجه إلى هؤلاء وهؤلاء أن يتقوا الله في كتابه العزيز، ولا يتجرءوا على القول فيه دون حجة أو دليل، وأن يراجعوا الكتب ويستفتوا المراجع، والله يعصمنا وإياهم من الزلل.



علي الجارم.. لغوياً نحوياً[1]

الشعر باب العربية، والشعراء الكبار هم أقدر الناس على معرفة أسرار العربية، والوقوف على دقائقها، ثم الحرص عليها والذود عنها، وما كان ذلك إلا لأنهم قرأوا فأكثروا القراءة، وحفظوا فجوَّدوا الحفظ، ولن تجد شاعراً كبيراً إلا ووراءه رصيد ضخم من القراءة المحيطة الجامعة للغة في مجالاتها المختلفة، ويظهر هذا الرصيد فيما يسمِّيه أهل زماننا «المعجم الشعري» للشاعر: حروفاً وأبنية وتراكيب ودلالة.

علي الجارم «رحمه الله» واحد من كبار الشعراء الحفظة العلماء الضابطين، وكانت هذه سمة الجيل كله، شعراء وناثرين، مع تفاوت يسير بينهم، برزق الله المقسم على خلقه. نعم كان هذا الجيل جيل الجد والتحصيل، جيل لم يرفع عينه عن القراءة، ولم يشغله عنها حديث وثرثرة عن التجربة والإبداع والخلق والمعاناة، فإن من الملاحظ الآن أن الأدباء والشعراء يتكلمون أكثر مما يقرأون، ويستمعون أكثر مما يتأملون، وقد قال ابن قيم الجوزية: «من لم تنفعه عينه لم تنفعه أذنه».

وأنت إذا نظرت إلى ما كان بيد ذلك الجيل من الكتاب المطبوع، وجدته شيئاً نزراً قليلاً، ولكن هذا النزر القليل صنع رجالاً، وشاد ثقافة. واليوم كثرت المطبوعات، وقلَّت القراءة.

وداعية أخرى إلى العجب: أن الكتاب المطبوع في ذلك الزمان لم يكن معتنى

---

(١) مجلة «الهلال»، مايو ١٩٩٩م.

وهو آخر مقال كتبه الأستاذ الدكتور محمود الطناحي قبيل رحيله المفاجىء!

به، من حيث التحقيق والتوثيق وحسن الإخراج، فلم تكن مناهج تحقيق النصوص قد استقرت، ولم تكن وسائل الطباعة الحديثة قد عُرفت، ومع كل ذلك فقد أقام هذا الكتاب «المطبوع» المحدود، الساذج في إخراجه، حضارة سامقة، أضاءت ديار العرب والإسلام كلها، وما أشبه أدباء ذلك الزمان إلا بتاجر صنع، بيده رأس مال محدود، ولكنه استطاع بلباقته وحسن تأتيه أن يحرك هذا المال المحدود، ويغدو به ويروح، ليصنع منه ثروة ضخمة.

كان هذا هو طريق الجارم وأدباء زمانه، أخلصوا أيامهم للقراءة والتحصيل، ووعت ذاكرتهم هذه النغمات الجليلة التي حملها بديع الشعر وكريم النثر، في موروثنا الحافل. وحين تهيأت لهم أدوات القول والإبانة، خالط الطارف التليد، وذاب مال المورِّث الجامع في مال الوارث الرشيد، أو كما قال صديقنا عبد اللطيف عبد الحليم، عن شاعرنا الجارم: «ويطلّ على هذا المحفوظ المذخور من عل، فإذا بمحفوظه يتوارى ليبرز كلامه هو».

وإذا كانت هذه الكلمة اليوم عن «علي الجارم» اللغوي النحوي؛ فإن ذلك يلتمس من جانبين: الجانب الأول: نشاطه التأليفي والبحثي، من حيث هو معلم للغة العربية، ثم كبير مفتشي اللغة العربية بوزارة المعارف المصرية، ثم من حيث هو عضو مؤسس من أعضاء مجمع اللغة العربية.

والجانب الثاني: إبداعه الشعري، من حيث هو شاعر كبير، في شعراء عصره، وشعراء ذلك الزمان كانوا ــ كما قلت ــ من اللغة والنحو بمكان مكين.

وقبل الحديث عن هذين الجانبين، أود أن أشير إلى شيء من تلك المكانة اللغوية التي اقتعدها الجارم عند علماء عصره، فهذا الشيخ أحمد محمد شاكر القاضي الشرعي، وهو محدث العصر، وواحد من مدرسة الأفذاذ في تحقيق النصوص ونشرها يذكر أنه كان يلجأ إلى علي بك الجارم، ويعرض عليه عمله في تحقيق كتاب «الرسالة» للشافعي، وكان مما عرضه عليه كلمة «النذارة» وهي مضبوطة في المخطوطة بكسر النون، ولم يرد ذلك في المعاجم المتداولة، ولكن المخطوطة

بقلم الربيع بن سليمان تلميذ الشافعي، وعليها خطه عام ٢٦٥ هـ وهذا تاريخ مهم جداً في علم المخطوطات.

يقول الشيخ أحمد شاكر: «ومن أقوى الأدلة على عنايته بالصحة والضبط، أنه وضع كسرة تحت النون في كلمة «النذارة»، وهي كلمة نادرة لم أجدها في المعاجم إلا في القاموس، ونص على أنها عن الإمام الشافعي. وهي تؤيد ما ذهبتُ إليه من الثقة بالنسخة، وتدل على أن الربيع كان يتحرَّى نطق الشافعي ويكتب عنه عن بينة.

ومن الطرائف المناسبة هنا أني عرضت هذه الكلمة على أستاذنا الكبير العلاّمة أمير الشعراء علي بك الجارم، فيما كنت أعرض عليه من عملي في الكتاب، فقال لي: «كأنك بهذه الكلمة جئت بتوقيع الشافعي على النسخة». وقد صدق حفظه الله».

الجارم لغويّاً ونحويّاً:

ثم نعود إلى هذين الجانبين اللذين يُلتمس منهما عناية الجارم باللغة والنحو.

ففيما يتصل بالجانب الأول فقد كان لعلي الجارم أثر ظاهر في تأليف الكتاب المدرسي، الذي كان يقدم لطلبة المدارس في المرحلتين: الابتدائية والثانوية، ومن خلاله يتعلمون النحو والبلاغة والأدب. فكانت هذه الكتب التي اشترك في تأليفها مع نفر من كبار علماء عصره: المجمل في الأدب العربي، والمفصل في الأدب العربي، والبلاغة الواضحة، ثم ذلك الكتاب الجهير الصوت، الذائع الصيت «النحو الواضح»، ويقول النحوي الكبير الأستاذ إبراهيم مصطفى، في شأن سلسلة (النحو الواضح): «وهي كتب بارعة في الشرح والتوضيح، وفي تقريب النحو وتيسيره، وقد أراحت مئات من المعلمين، ويسرت على ألوف من المتعلمين، وأزاحت عن هذا العلم سحباً من النفور والكراهية كانت تحيط به وتصد المتعلمين، ثم شاعت في البلاد العربية، وصارت كالمنهاج لتعليم النحو، وأحدث أسلوبها في الشرح والتأليف مدرسة، أخذ المعلمون يتبعونها ويؤلفون على مثالها، محاكين أو مقلّدين.

والكتاب المدرسي في ذلك الزمان كان يقوم عليه كبار الأدباء والشعراء،

أمثال: حفني بك ناصف، والشيخ أحمد الإسكندري، والشيخ مصطفى طموم، وأحمد بك العوامري، فكان ذلك الكتاب مهاباً جليل القدر، وكان يُنظر إليه بتوقير شديد، على غير ما نراه الآن من النظر إلى الكتاب المدرسي نظرة استخفاف وازدراء، بل إن هذا الوصف «كتاب مدرسي» قد صار مجلبة للتنقص وطريقاً إلى المعابة، وآية ذلك أنه لا يحسب في موازين الأستاذ الجامعي، فلا يؤخذ في ترقية، ولا يقدم إلى جائزة، ولا شك أن الذي كره إلى الناس ذلك «الكتاب المدرسي» أنه يتخذ الآن سبيلاً للتربح وجمع المال.

وفي طريق الكتاب المدرسي قام الجارم بعمل جليل آخر، هو تقديم عيون التراث إلى النشء الصغار من تلاميذ المدارس، ومن ذلك تلك الطبعة من «البخلاء» للجاحظ، التي أخرجها مشتركاً مع أحمد العوامري، ثم كتاب «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» لابن الطقطقي، مشتركاً مع الجغرافي الكبير محمد عوض إبراهيم، وكتاب «المكافأة وحسن العقبى» لأحمد بن يوسف الكاتب، مشتركاً مع أحمد أمين، وكتاب «تهذيب الأخلاق» لمسكويه، مشتركاً مع نفر من كبار الأساتذة. فانظر ماذا كان يقدَّم لطلبة المدارس في تلك الأيام؟

فهذا هو الشطر الأول من أثر علي الجارم، في التأليف اللغوي والنحوي، سقته على سبيل الوجازة والاختصار.

أما الشطر الثاني منه فمجلاه نشاطه في مجمع اللغة العربية ولجانه. وقد كان الجارم أحد الأعضاء المؤسسين للمجمع، واشترك في لجانه كلها، فرسَّخ تقاليد مجمعية لا زالت باقية إلى الآن، وملأ اللجان باقتراحاته ومناقشاته، مما هو مذكور ومسطور في مجلة المجمع ومحاضره.

ومن بحوثه واقتراحاته:

الترادف ــ طرق تكميل المواد اللغوية ــ المصادر التي لا أفعال لها ــ وضع قواعد جديدة يستعان بها في اشتقاق الأفعال من الجامد ــ بحث في فعيل بمعنى مفعول وبمعنى قابل للفعل ــ الجملة الفعلية أساس التعبير في اللغة العربية ــ الوضع

بطريق المجاز ــ مراتب وضع الألفاظ ــ مشروع تيسير الكتابة العربية ــ مصطلحات الشئون العامة.

ومن مجموع هذه البحوث والمقترحات أحب أن أقف عند أمرين اثنين، يظهر فيهما تضلَّع الجارم من اللغة، وصبره على تحصيلها، واحترامه لها:

الأمر الأول: ذلك البحث الذي وسمه (بالمصادر التي لا أفعال لها)، وقد أقام الجارم هذا البحث على ما ذكره ابن سيده في صفحة (٢٢٣) من الجزء الرابع عشر من المخصص (باب أسماء المصادر التي لا يشتق منها أفعال)، وقد انتهى ابن سيده إلى أن هناك أربعة وخمسين مصدراً لا أفعال لها.

يقول الجارم: «وقد تناولت هذا البحث بإفاضة واستيعاب وتنقيب في المعجمات، فظهر أن لجميعها أفعالاً، عدا سبعة منها». ثم أخذ رحمه الله في ذكر كلام ــ ابن سيده، ثم تعقبه بما في المعاجم: الصَّحاح، واللسان، والقاموس، والتاج، والمصباح المنير.

والأمر الثاني: ما ذكره عن «غريب اللغة»، قال: «وإذا كانت لدينا ذخيرة مغمورة في اللغة فلم لا نستعملها ونحييها، وننقلها من بداوتها إلى نور الحضارة؟ والاستعمال كفيل بصقلها واستساغتها».

ويعود مرة أخرى إلى «غريب اللغة» فيقول، وهو يتحدث عن المعجم الكبير: «فإن هذا المعجم سيشتمل على كل شيء، من حيث الكلام الصحيح وقديمه، مشهوره وغريبه، ذائعه ونادره».

وقضية «غريب اللغة» من القضايا الشائكة العسرة في زماننا هذا، فكثير من الناس ينادون الآن بهجر الغريب من الكلام، واستعمال السهل القريب، وما أظنهم ينادون بذلك إلا لسببين: السبب الأول: عدم معرفتهم بكثير من هذا الكلام الغريب، والإنسان يستوحش مما لا يعرفه وينكره، على ما قال ربنا عزَّ وجلّ: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩].

والسبب الثاني: أنهم يخلطون بين «الغرابة في اللغة»، والغرابة في «البلاغة». فالغرابة في البلاغة يراد بها: الكلام الحوشي المستكره، أصواتاً ودلالة، على ما هو مذكور في كتب البلاغيين.

أما غرابة اللغة فهي شيء آخر. فالغريب من الكلام ـ كما ذكره أبو سليمان الخطابي (٣٨٨هـ): «وهو الغامض البعيد من الفهم، كالغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل... ثم إن الغريب من الكلام يقال به على وجهين: أحدهما أن يراد به بعيد المعنى غامضه، لا يتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر. والوجه الآخر أن يراد به كلام من بعدت به الدار، ونأى به المحل من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها، وإنما هي كلام القوم وبيانهم، وعلى هذا ما جاء عن بعضهم، وقال له قائل: أسألك عن حرف من الغريب، فقال: هو كلام القوم، إنما الغريب أنت وأمثالك من الدخلاء فيه».

أقول: واللهم نعم: الغريب من كلام القوم، وعدم أنسنا به أو استعمالنا له، لا يخرجه عن دائرة كلام العرب، وعلى أن الاستعمال ليس بدليل على الحسن، كما يقول ضياء الدين بن الأثير.

ومعلوم أن كلام العرب على وجهين: واضح وغريب، ذكر هذا ونبه عليه واضع أول معجم عربي: الخليل بن أحمد الفراهيدي، قال في مقدمة كتاب العين: «بدأنا في مؤلفنا هذا بالعين، وهو أقصى الحروف، ونضم إليه ما بعده حتى نستوعب كلام العرب: الواضح والغريب».

وهذا الغريب من كلام العرب قد يكون له ما يقابله من الواضح، فلك أن تعدل عن غريبه إلى واضحه، مع فقر في معجمك اللغوي، أنت مسؤول عنه ومؤاخذ به، عند تفاضل أقدار الكاتبين. وقد لا يكون له ما يقابله من الواضح، فلا معدى لك عن معرفته واستعماله، والجهل به حينئذ مزرٍ بصاحبه، ومضيق عليه سبل القول ومنادح الكلام، ولا يحس لذع هذا، ويستشعر المحنة فيه إلا الشعراء، من حيث هم

محتاجون دائماً إلى وفرة من الألفاظ وسعة في الكلام، لا يفتحهما لهم ذلك الكلام السهل القريب.

ودعوة الجارم إلى استحياء الغريب من اللغة إنما هي دعوة في حق موضعها؛ لأن هذا الغريب من صميم اللغة، والدعوة إلى هجره والتجافي عنه ليست من البر بهذه اللغة الشريفة، بل هي عدوان عليها، وتحيف لشطر كبير منها. وهذه الألفاظ التي ينكرها بعض أهل زماننا ويستبشعونها لست تجدها في النصوص الأدبية فقط، من شعر ونثر، بل إنك واجدها في كتب الأنساب والتاريخ والبلدانيات (الجغرافيا) وكتب الفلك والطب والفلاحة والزراعة، وسائر ما كتب الأوائل من علومهم وفنونهم.

وقد نطق شعر الجارم بهذه الرغبة العارمة في استحياء تلك الألفاظ التي يتحاشاها الأدباء والشعراء في زماننا هذا؛ زهادة فيها أو جهلاً بها، أو استسهالاً للألفاظ القريبة السهلة المستهلكة، فيقول في واحدة من كريم شعره:

كـم لفظـة جهـدت ممـا نكـررهـا ... حتـى لقـد لهثـت مـن شـدة التعـب
ولفظـة سجنـت فـي جـوف مظلمـة ... لـم تنظـر الشمـس منهـا عيـن مـرتقـب
كـأنمـا قـد تـولـى القـارظـان بهـا ... فلـم يـؤوبـا إلـى الـدنيـا ولـم تـؤب

ثم صدَّق شعر الجارم مقترحه، فكثر في شعره الغريب كثرة ظاهرة، وهذا مثل واحد من شعره، من قصيدته في مدح الشيخ الإمام محمد عبده:

المجـد فـوق متـون الضمـر القـود ... تطـوي الفـلا بيـن إيجـاف وتـوخيـد
إذا رمـت عـرض صيهـود منـاسمهـا ... رمـت إليهـا الليـالـي كـل مقصـود
أو مـزقـت طيلسـان الليـل مـن خبـب ... كسـت خيـال الأمـانـي ثـوب مـوجـود
مـولاي علمتنـي كيـف الثبـات إذا ... لـم يتـرك الـرعـب قلبـاً غيـر مـزءود

على أن مما يجب التنبه له أن جميع شعراء النهضة الشعرية الحديثة، بدءاً من محمود سامي البارودي حتى شاعرنا علي الجارم كانوا عارفين بهذا الغريب من

الكلام، وكانوا لا يخلون شعرهم منه، بل إن أمير الشعراء المعاصرين وعلمهم الكبير أحمد شوقي كان مكثراً من استعمال ذلك اللون من اللغة، وله منه أعاجيب، منها قوله:

خلوا الأكاليل للتاريخ إن له ... يداً تؤلفها دراً ومخشلبا

فانظر إلى «المخشلب»، وهو خرز يشبه الدر من حجارة البحر، وليس بدر ويقال إنه لفظ نبطي، والعرب تقول «الخضض». فهذه الكلمة، هل يطيقها أحد من أهل زماننا؟

لقد استخرجها شوقي من محفوظه من شعر أبي الطيب المتنبي، وذلك قوله:

بياض وجه يريك الشمس حالكة ... ودر لفظ يريك الدر مخشلبا

وقد ظهر لي من قراءة شعر الجارم أن كثيراً من هذا الغريب الذي فاض به شعره إنما واتاه من دربة طويلة مع النصوص الشعرية المأثورة، ولم يأته من قراءة كتب اللغة أو المعاجم فقط. وآية ذلك أن بعضاً من تراكيبه الشعرية إنما انتزعه مما استقر في محفوظه من شعر الأوائل:

فمن ذلك قوله من قصيدة في ذكرى المولد النبوي الشريف:

إذا صال لم يترك مصالاً لصائلٍ ... وإن قال ألقت سمعها البلغاء

فالشطر الأول منتزع من قول معاوية بن أبي سفيان، يمدح عبد الله بن عباس رضي الله عنهم:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل ... مصيب ولم يثن اللسان على هجر

وقوله:

غضبان رد إلى اليافوخ عفرته ... ومن يصاول ليثاً وهو غضبان

لقد حمينا أباة الضيم حوزتنا ... من أن تباح ودناهم كما دانوا

فهذا شعر ينظر إلى شعر الشاعر الجاهلي شهل بن شيبان، المعروف بالفند الزماني:

مشينـــــا مشيـــــة الليـــــث غـــــدا والليـــــث غضبـــــان
ولـــم يبـــق ســـوى العـــدوا ن دنـــاهـــم كمـــا دانـــوا

وقوله من قصيدته في سعد زغلول باشا:

إن أم المجـــد مقـــلات فكـــم ســـوفـــت بيـــن جنيـــن وجنيـــن

منتزع من قول الشاعر:

بغـــاث الطيـــر أكثـــرهـــا فـــراخـــاً وأم الصقـــر مقـــلات نـــزور

وقوله من قصيدته في محمد محمود باشا:

طـارت شعـاعـاً وهـولاً مثلمـا عصفـت هـوج الـريـاح بـرمـل البيـد فـي البيـد

مأخوذ صدره من قول قطري بن الفجاءة، من شعراء الخوارج:

أقـــول لهـــا وقـــد طـــارت شعـــاعـــاً مـــن الأبطـــال ويحـــك لـــن تـــراعـــي

وفي القصيدة نفسها يقول:

مـــن كـــل أروع عنـــوان الجهـــاد بـــه قلـــب ركيـــن ورأي غيـــر مخضـــود

وفي هذا البيت شميم من قول حسان بن ثابت، يرثي عثمان بن عفان، رضي الله عنهما:

ضحـوا بـأشمـط عنـوان السجـود بـه يقطـــع الليـــل تسبيحـــاً وقـــرآنـــاً

وفي هذه القصيدة أيضاً:

تـــرنـــو إليـــه فتغضـــي مـــن مهـــابتـــه فـــالطـرف مـا بيـن مـوصـول ومصـدود

ويحمل بعض هذا التركيب أثر قراءة لشعر الفرزدق، وهو قوله يمدح علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين:

يغضـي حيـاءً ويغضـىٰ مـن مهـابتـه فمـــا يكلـــم إلا حيـــن يبتســـم

ويقول الجارم في الأسرة العلوية:

شمس العداوة والحسام مجرد ... فإذا انطوى فملائك أطهار

وصدر البيت مسلوخ من قول الأخطل، في بني أمية، من قصيدته الباذخة في عبد الملك بن مروان:

شمس العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

ويقول في مدح أحمد لطفي السيد باشا:

ففي سكتة المبهور أصدق مدحة ... وكل كلام بين حق وباطل

وفي ذلك المديح نوع شبه بقول عيسى بن أوس، في الجنيد بن عبد الرحمن، أمير خراسان:

مدحتك بالحق الذي أنت أهله ... ومن مدح الأقوام حق وباطل

ومن مرثية الجارم في صديقه «أبو الفتح الفقي» يقول ــ وهي من قصائده الجياد:

كل ابن أنثى في الحياة إلى مدى ... والمرء في الدنيا إلى ميقاته

وهو ينظر إلى قول كعب بن زهير رضي الله عنه، في «لاميته» الشريفة «بانت سعاد فقلبي اليوم متبول»:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوماً على آلةٍ حدباء محمول

ويقول الجارم في مدحه للفاروق ملك مصر السابق، ويهنئه بعيد الفطر:

هنيئاً لك العيد الذي بك أشرقت ... منازله بشراً وضاءت رحائبه

وصدر البيت من قول المتنبي يمدح سيف الدولة، ويهنئه بعيد الأضحى:

هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده ... وعيد لمن سمى وضحى وعيدا

ومن شعره في قصيدة ضمنها بعض ذكرياته بعد عودته من أوروبا:

يلقى بها أينما ألقى عصاه بها ... أهلاً بأهل وأصهاراً بأصهار

ولا ريب أن الجارم قال هذا البيت وفي محفوظه قول الأول:

لا يمنعنك خفض العيش في دعة ... نزوع نفس إلى أهلٍ وأوطان
تلقى بكل بلادٍ إن حللت بها ... أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيران

ومن قصيدة للجارم في ويلات الحرب العالمية الأولى، يقول:

لج به الموت فأودى به ... وحز منه اللِّيت والأخدعا

وآخر البيت من قول الشاعر الأموي الصمة بن عبد الله القشيري:

تلفتُّ نحو الحي حتى وجدتُني ... وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا

ويقول في وصف جريدة لم يسمها:

وكنت صحيفة الأبرار حقاً ... تلقتك الكنانة باليمين

وقد نظر في ذلك إلى قول الشماخ، في عرابة الأوسي:

إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين

ومن مرثيته لصديقه محمود فهمي النقراشي باشا، يقول الجارم:

شيئان ما عيب البكاء عليهما ... فقد الشباب وفرقة الألاف

وهذا من قول الشاعر:

شيئان لو بكت الدماء عليهما ... عيناي حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما ... فقد الشباب وفرقة الأحباب

وهذه القصيدة التي رثى بها الجارم صديقه النقراشي، هي من أعلى شعره فناً وإحكاماً، ومن أغربه لغة وبياناً، وقد أقامها على البحر «الكامل»، واختار لها الفاء المكسورة روياً، وأولها:

ماء العيون على الشهيد ذراف ... لو أن فيضاً من معينك كافي

وأحسب أن الجارم حين جالت هذه القصيدة في نفسه: موضوعاً وبحراً وروياً، إنما كان يستدعي من مذخورة أخرى باذخة لأبي العلاء المعري، يرثي فيها

أبا أحمد الموسوي، الملقب بالطاهر، وهو والد الشريف الرضي، والشريف المرتضى، ومطلعها:

أودى فليت الحادثات كفاف ... مال المسيف وعنبر المستاف

و «المستاف» هي إحدى القوافي التي انتزعها الجارم من قصيدة أبي العلاء، قال:

ذكرى كحالية الرياض شميمها ... راح النفوس وراحة المستاف

وليست «المستاف» وحدها هي التي انتزعها الجارم من قوافي أبي العلاء في هذه القصيدة، فهناك أخريات، تراها في القصيدتين، وهي: الألاف ـ عبد مناف ـ دراف ـ الرجاف ـ الأصداف ـ الأطراف ـ الرعاف ـ ثقاف ـ الأسياف ـ قوادم وخواف ـ الضافي ـ قواف ـ الأشراف ـ سلاف ـ المصطاف ـ الأعطاف ـ المئناف.

ومع ذلك فتبقى في قصيدة الجارم قواف، هي من كيسه ومن حر ماله، ومن أحلاها وأعذبها وأخفها دماً، مع عربية أصيلة، قوله:

إن الفتى ما فيه من أخلاقه ... فإذا ذهبن فكل شيء «ما في»

والحذف هنا بعد «ما في» جميل جداً.

وهكذا يكون الشاعر الكبير: تمتلىء نفسه بموروث الكلام: شعراً ونثراً، ويجري هذا الموروث في دمه جريان الدم في العروق، وتخالط بشاشته قلبه وعقله، ثم يفيض على لسانه: شريف المحتد موصول النسب، ولكنه يبدو هو في نفسه سامق الهامة، عالي الطول، كذلك الطول المتوارث في بني عبد المطلب.

ومن وراء ذلك كله فللجارم في شعره استعمالات دالة على بصره باللغة والتصريف، يقول في إحدى قصائده:

هبني رجعت إلى الأوتار رنتها ... فهل لشرخ الصبا واللهو رجعان

والفعل «رجع» هنا استعمله الجارم متعدياً فنصب به «رنتها»، وكذلك استعمله متعدياً في قوله:

وقفــــت تجــــدد آثــــارهــــا ... وتنشــــر للعــــرب أشعــــارهــــا
وتــــرجــــع بغــــداد بعــــد الفنــــاء ... تحــــدث للنــــاس أخبــــارهــــا

وفي هذه القصيدة نفسها يقول:

تــــرد الشبيبــــة للصــــالحــــات ... وتــــرجــــع للــــديــــن هتــــارهــــا

وهذا الفعل الثلاثي «رجع» يستعمل لازماً ومتعدياً، فيقال: رجع الحق إلى صاحبه، ورجعت أنا الحق إلى صاحبه، وهذا هو الأفصح أن يستعمل «رجع» متعدياً، فيقال: رجعت الكتاب إلى صاحبه، ولا يقال: أرجعته، إلا في لغة لهذيل ضعيفة.

وعلى تلك اللغة الفصيحة جاء القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: ٨٩]، ثم جاء المصدر من الثلاثي أيضاً، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ [الطارق: ٨].

ومن ثقافة الجارم اللغوية أيضاً استعماله الفعل «أمل» مخفف اللام، فقال:

إذا أمــــل الفتــــى فــــالهــــزل جــــد ... وإن يئــــس الفتــــى فــــالجــــد هــــزل

وأكثر ما يستعمل الناس هذا الفعل مشدداً «أمّل» إلى حد أن هذا الفعل المخفف ــ مع سلامته اللغوية ومجيء اسم الفاعل واسم المفعول منه مجيئاً صالحاً «أمل ومأمول» ــ قد خفي على بعض النحاة الأوائل، وهو أبو نزار الحسن بن صافي بن عبد الله البغدادي، المعروف بملك النحاة، المتوفى (٥٦٨هـ) فقد أثر عنه أنه قال: «وأمل، لم أسمعه فعلاً ماضياً»، وقد رد عليه ابن الشجري، وذكر له أنَّ اللغويين حكوه وأجازوه، وذكر له شيئاً من شواهده، ومنها قول المتنبـي:

حـرمـوا الـذي أملـوا وأدرك منهـم　　آمـالـه مـن عـاذ بـالحـرمـان

ومن فقه الجارم باللغة أيضاً استعماله كلمة «سائر» بمعنى «باق»، يقول في قصيدة في رثاء الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي:

تمـرُّ بـه مـرّاً فيسبيـك بعضـه　　وتقـرؤه أخـرى فيسبيـك سـائـره

واستعمال «سائر» بمعنى «باق» هو الفصيح الأكثر، مأخوذ من السؤر، وهو ما يبقى في الإناء، ويرى بعض اللغويين أنه هو الصواب، ولا صواب غيره، يقول مجد الدين بن الأثير: «السائر: الباقي، والناس يستعملونه في معنى الجميع، وليس بصحيح». ومثل ذلك قال ابن الجوزي والحريري، لكن المرتضى الزبيدي حكى عن بعض أئمة اللغة والتصريف أنه يجوز استعمال «سائر» بمعنى الجميع.

ويستشهد أصحاب الرأي الأول بشواهد كثيرة من النثر والشعر، ومن أحلى شواهده قول عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي، ويعرف بأبي قطيفة:

لهـم منتهـى حبـي وجـل مـودتـي　　وصفـو الهـوى مني وللنـاس سـائـره

وهكذا تضلَّع الجارم من لغته وفقهها، وعرف لها حقها فيما كتب وفيما نظم، فأحلته هذه المنزلة الرفيعة بين شعراء زمانه، واقتعدت له مكاناً عالياً في ركب الشعراء العظام، على ما قال هو يصف شعره، في مقدمة الجزء الثاني من ديوانه.

«شعر نصر الفصحى فنصرته، وصان لها ديباجتها فصانته».

وكما صان الجارم العربية فصانت له شعره، فسيصونه الزمن أيضاً، فيبقيه طريّاً غضّاً على الألسنة، مصوناً في تلافيف القلوب، على ما قال حسَّان بن ثابت رضي الله عنه:

مصـون الشعـر تحفظـه فيكفـي　　وحشـو الشعـر يـورثـك المـلالا

* * *

تراثنا.. رحلة شاقة شيقة(١)

ارتبطت ضخامة التراث الإسلامي العربي وعظمته بسمة تميَّز بها الإسلام، وهي أنه احتوى كثيراً من الأمم ذات الحضارات، والتي بعد أن دخلتْ في دين الله أفواجاً ونسيتْ ما كان يعبد آباؤها من قبل هجرتْ لسانها القديم، واتَّخذت اللسان العربي أداة فكر وبيان.

ولم يبقَ فرقٌ بين هذه الأمم والأمة العربية إلاَّ فرق اللون والدم، وهو فرق ساقطٌ مهدر في موازين الإسلام.

ثم إن الحضارة الإسلامة فوق أنها أبدعت وأنتجت في شتى ضروب العلم والمعرفة ــ كانت حلقة اتصال بين تراث اليونان وبين اللاتينية الحديثة، مما يشهد بفضل تراثنا وحضارتنا على النهضة الأوروبية الحديثة.

والمتابع لحركة الإبداع الإسلامية يجد أنها لم تخمد جذوتها، ولم تسكن حركتها بتغير الحكام أو تبدل الأيام أو تعاقب النوائب. ومن أول ما يشهد لذلك احتواء قرني الغزو الصليبي والتتري للعالم الإسلامي نخبةً عريضةً من كبار العلماء والمفكرين، مع أن الهجوم الكاسح كان كفيلاً بالقضاء على هذه الأمة لولا دفع الله وصيانته لها بما أودعه في روح العقيدة الإسلامية من عوامل النماء والبقاء والازدهار.

كما أن غياب حاضرة من حواضر الإسلام عن الساحة الفكرية كان داعياً لقيام حاضرةٍ أخرى تملأ الفراغ وتدعم المسيرة.

---

(١) مجلة البيان ــ لندن ــ يونيو ــ ١٩٩٩.

وأمر آخر أشد وضوحاً هو أن كثيراً من تراثنا قد بقي موفوراً يملأ الخزائن العامة والخاصة إلى عهدٍ قريب، وأن ما ضاع منه بسبب غفلة الناس وتفريطهم أكثر مما ضاع بسبب عوادي الحروب والأيام، ولا زالت الأيام تظهرنا على مخطوطات نفيسة كنا نعدها من المفقودات، وكم في الزوايا خبايا!

ولكي يعلم القارىء قدر العطاء العلمي الذي خلفه لنا سلفنا ــ عليهم رحمة الله ــ فليراجع ما أُلِّف من كتبٍ للفهرسة ــ كـ (الفهرست) لابن النديم، أو (كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون) لمصطفى عبد الله؛ وهو من أنفع وأجمع ما كُتب في موضوعه بالعربية، أو (خزائن الكتب العربية في الخافقين: للفيكونت فيليب دي طرَّازي؛ وقد أحصى في هذا الكتاب عدد المكتبات العربية في العالم فبلغت نحو ١٥٠٠ مكتبة يُقدر ما فيها من كتبٍ عربية بنحو **٢٦٢** مليون مجلد ما بين مخطوطٍ ومطبوع.

مراحل النشر:

لم يعدم المسلمون أسلوباً في حفظ تراثهم ونشره؛ فقبل أن تظهر الطباعة كان الأسلوب المعتمد في نشر كتب التراث هو النسخ، حتى راجت صنعة الوراقة والنساخة، وكان لها أماكنها في الأمصار التي يؤمها العلماء.

ومع أن الطباعة ظهرت في القرن الخامس عشر على يد جوتنبرج الألماني، وتبع ذلك انتشار المطابع في أوروبا ومنها مطابع عربية، إلَّا أن المشرق الإسلامي لم يعرف الطباعة إلَّا في وقتٍ متأخر عن ذلك؛ حيث بدأت في الآستانة في ١٥٥١م، ثم في لبنان عام ١٦١٠م، وانتقلت بعدها إلى عدة أقطار.

المرحلة الأولى لنشر التراث:

ومما ينبغي ذكره أن الطباعة صُبغت تنصيرية تبشيرية في تلك الفترة حتى أنشئت مطبعة بولاق التي عرفت (بالمطبعة الأميرية) في القاهرة بعد رحيل نابليون بفترة وذلك في عام ١٨١٩م أو ١٨٢١م، وطبع فيها مئات الكتب من مختلف الفنون من التفسير

والحديث والأصول واللغة والتاريخ والطب والأدب وغير ذلك من فنون التراث.

ويمكن لي أن أسجل ثلاث حقائق اتسم بها نتاج تلك الفترة من كتب التراث:

أولاً: أن النظرة للتراث كانت شمولية ترمي إلى إظهار كنوزه ونشر الأمهات والأصول في كل فن، ولم يكن الدافع مادِّيّاً؛ لذلك غلب على الطباعة طباعة الموسوعات.

ثانياً: أن حركة إحياء التراث تزامنت مع إنشاء دار العلوم التي رأسها الشيخ حسين المرصفي التي تمثل رد فعلٍ قوي على الدعوة إلى العامية.

ثالثاً: دور الأزهر كان بارزاً وبَصْمَتُهُ كانت مميزة على نشاط المطبعة خلافاً للحال في لبنان الذي سيطر عليه القساوسة والرهبان.

وانتشرت الكتب التي كانت تُطبع على نفقة بعض محبي العلم، وكان على رأس من قام على تصحيح الكتب وإخراجها الشيخ نصر الهوريني، والشيخ محمد عبد الرحمن المشهور بقُطَّة العدوى.

وظلت مطبعة بولاق تعمل وحدها قرابة أربعين سنة، ثم ظهرت المطابع الأهلية التي كانت أولها المطبعة الأهلية القبطية (الوطن فيما بعد)، ثم تلتها مطبعة وادي النيل، ثم تتابعت المطابع وتكاثرت.

والذي يهمنا أن نقف أمام ثلاثة أمور جديرة بالتأمل في تقييم أعمال تلك المرحلة:

١ ــ حرص المطابع في كثير من منشوراتها على طبع كتاب أو أكثر بهامش الكتاب الأصلي أو بآخره لصلة ذلك بالكتاب، أو لمجرد نشر الكتب على أوسع نطاق. ومن الطريف أن نرى خمسة كتب مطبوعة في كتاب واحد، وفي صفحةٍ واحدة اجتمعت خمستها في الصلب والهامش مفصولة بجداول.

إن ظاهرة طبع الكتب بهامش كتب أخرى هي ظاهرة فريدة دالة بوضوح على أن القوم كانوا في سباق لنشر العلم وإذاعته.

٢ ــ أن الذين تولوا طباعة الكتب وتصحيحها كانوا من طبقة المشايخ

الفضلاء، ومن هؤلاء: الشيخ نصر الهوريني، ومحمد قُطَّة العدوي، ومحمد الحسيني، وطه محمود، وغيرهم. وقد كان للكثير منهم تآليف فوق اشتغالهم بتصحيح الكتب؛ لكن يؤخذ عليهم أنهم لم يُعنوا بذكر الأصول المخطوطة التي اعتمدوها في إخراج الكتب.

٣ ـ أن القوم لم يُعنوا بالفهارس الفنية الكاشفة عن كنوز الكتاب المنشور، واكتفوا بذكر فهارس موضوعية موجزة.

ومع هذا كانت تلك المرحلة من أغنى وأخصب مراحل نشر التراث العربي وإذاعته، وهي بكل خيرها وعطائها قد أسلمت إلى ما تبعها من مراحل.

المرحلة الثانية: (مرحلة الناشرين النابهين):

وهم طبقة من عظماء الرجال، جاهدوا في سبيل نشر التراث جهاداً صادقاً دؤوباً، عَنَيْتُ: محمد أمين الخانجي، ومحب الدين الخطيب، ومحمد منير الدمشقي، وحسام الدين القدسي. ومن عجائب الاتفاق أن أربعتهم من أهل الشام، نزلوا مصر واتصلوا بعلمائها، وعملوا على طباعة الكتُب ونشرها، وتأثروا بتلك الروح التي سرت في مطبعة بولاق من نشر الأصول والأمهات مع العناية بدقة التصحيح وأمانة الأداء، وإن كانت قد تخلصت من الشكل الطباعي القديم المتمثل في طبع الكتب بهامش الكتاب الأصلي.

وأهم ما يميز منشورات هذه الطبقة: الحرص على ذكر مخطوطات الكتاب ووصفها؛ إلَّا أنها لم تُعن بالفهارس الفنية لما تنشره، إلَّا ما نراه من بعض مطبوعات الخانجي ومحب الدين الخطيب.

وممن يتصل بهذه الطبقة شيخان فاضلان وعالمان جليلان؛ أما الأول: فهو الشيخ محمد حامد الفقي حامل لواء السلفية، ومؤسس جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر، والذي أنشأ مطابع السنة المحمدية، ونشر فيها مؤلفاته وكثيراً من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وكتب الحنابلة وطبقات رجالها.

وأما الثاني: فهو الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، الذي يُعد صفحة حافلة من تاريخ نشر التراث العربي، قدَّم وحده للمكتبة العربية ما لم تقدمه هيئة علمية مدعومة بالمال والرجال. وقد رُمي الرجل بأنه أعاد طبعات سابقة عليه مما أخرجته مطبعة بولاق ومطابع أوروبا، وأنه لم يعبأ بجمع مخطوطات الكتاب الذي ينشره، وأنه لم يضع الفهارس الفنية الجامعة لمسائل الكتاب المنشور.

لكن هذا لا ينقص من قدر الرجل وجهده الذي بذله في التصحيح وضبط النص ضبطاً صحيحاً، وإضاءته بالشروح اللغوية التي تنفي عنه الجهالة أو الغموض، مع العناية بعلامات الترقيم، وأوائل الفقرات، وعدم تداخل أجزاء الكلام. ويكفيه فضلاً أن كل من تعلم النحو في شرق الدنيا وغربها بعده مدين له بديْنٍ كبير لما بذله من جهد بالغ في إخراج كتب النحو في أسلوبٍ يمتع الدارس ويصقل اللسان.

المرحلة الثالثة: (مرحلة دار الكتب المصرية):

والتي تحمل كل سمات المنهج العلمي الدقيق في إخراج النصوص، والتي تأثرت إلى حدٍّ ما بمناهج المستشرقين الذين شُغلوا بتراثنا والذين استقوا زبدة مناهجهم من أصل تراثنا.

وكان صاحب الفضل في هذا بعد الله سبحانه: أحمد زكي باشا، الذي قال عنه شكيب أرسلان: «كان يقظةً في إغفاءة الشرق، وهَبّة في غفلة العالم الإسلامي، وحياةً في وسط ذلك المحيط الهامد».

وقد برز في هذه المرحلة مشيخة جليلة من العلماء الذين بذلوا جهداً واسعاً فيما أسند إليهم، ولم يحظوا بمعشار ما يحظى به أدعياء التحقيق في هذه الأيام، ومنهم: الشيخ أحمد الزين، والشيخ عبد الرحيم محمود، والشاعر أحمد نسيم، والأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي، والشيخ أحمد عبد العليم البردوني، والعالم الجزائري إبراهيم اطفيّش. ومن الطريف أن الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر كان قد عمل مصححاً في هذه الدار في مقتبل حياته العلمية.

وقد مثلت هذه المرحلة مرحلة نضج وكمال من حيث استكمال الأسباب العلمية، واصطناع الوسائل الفنية المعينة على إخراج التراث إخراجاً دقيقاً يقوم على جمع نسخ الكتاب المخطوطة والمفاضلة بينها، ثم اتخاذ إحدى النسخ أُمّاً أو أصلاً، وإثبات فروق النسخ الأخرى، وما يتبع ذلك من إضاءة النص ببعض التعليقات والشروح، وصنع الفهارس التحليلية الكاشفة لكنوز الكتاب، وما يسبق ذلك كله من التقديم للكتاب، وبيان مكانته في المكتبة العربية، وموضعه من كتب الفن الذي يعالجه تأثراً وتأثيراً، ثم الترجمة لمؤلفه.

المرحلة الرابعة: (مرحلة الأفذاذ من الرجال):

وأهم رموزها الشيخ أحمد محمد شاكر، وأخوه «شيخ العربية» محمود محمد شاكر، والأستاذ عبد السلام محمد هارون، والأستاذ السيد أحمد صقر.

وقد كان ظهور «الرسالة» للإمام الشافعي بتحقيق الشيخ أحمد شاكر سنة **١٩٣٩**م إيذاناً ببدء مرحلة جديدة من النشر العلمي للتراث المستكمل لكل أسباب التوثيق والتحقيق، وهي مرحلة جديدة فيما يظهر للناس في تلك الأيام، ولكنها موصولة الأسباب والنتائج بما سنّهُ الأوائل وأصّلوه.

وقد نشر الشيخ ــ رحمه الله ــ الكتاب عن أصلٍ بخط الربيع بن سليمان صاحب الشافعي، وقد جرى الشيخ في تحقيق «الرسالة» على أعدل المناهج وأقومها من حيث التنبه الشديد لما بين النسخ من فروق، وإضافات النُسّاخ فيما خفي ودقّ، وربط كلام الشافعي ــ رحمه الله ــ في هذا الكتاب بكتبه الأخرى، وتوثيق النقول، وتحرير المسائل، والعناية الفائقة بالضبط، وصنع الفهارس الفنية التي شملت آيات القرآن الكريم، وأبواب الكتاب على ترتيبها، والأعلام، والأماكن، والأشياء من حيوان ونبات ومعدن ونحو ذلك، والمفردات المفسَّرة في الكتاب، والفوائد اللغوية المستنبطة منه، ومواضيع الكتاب ومسائله في الأصول والحديث والفقه على حروف المعجم. ولكن أهم أنواع هذه الفهارس التي نشرها الشيخ الجليل فهرس الفوائد اللغوية لكون الشافعي حجة في اللغة.

وكل ما قيل عن الشيخ و «الرسالة» يقال عن أعلام هذه المرحلة: محمود محمد شاكر و «تفسير الطبري» و «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام، وعبد السلام هارون وآثار الجاحظ، والسيد أحمد صقر وآثار ابن قتيبة. وغير ذلك من التحقيقات والمؤلفات انتصروا فيها للعربية وأعلوا رايتها.

ومن يطالع ـ مثلاً ـ تعليقات الشيخ محمود شاكر على «طبقات ابن سلام» و «تفسير الطبري» يقف على أشياء معجبة في فهم اللغة والبصر بالشريعة ومعرفة بالتفسير وفقه الحديث وتاريخ الرجال، وكل ما شئت من علوم هذه الأمة وفنونها؛ وكأنه رجل قد نُشرت أمامه العربية كلها فانتقى منها ما طلب له.

هذا المنهج الذي سار عليه الأستاذ محمود شاكر ـ رحمه الله ـ في إخراج كتب التراث وتحقيقها منهج عسير بعيد المنال، تصعب محاكاته؛ لأنه متصل بعقيدة صحيحة وقراءة محيطة وظهور بيّن على التراث، ولكنه على كل حال قد وجَّه إلى أعدل المناهج وأقومها في التحقيق والتصحيح.

واليوم تبذل عدد من المؤسسات العلمية المتخصصة جهداً مشكوراً في جمع التراث ونشره عبر وسائل التقنية الحديثة: (الحاسب الآلي) و (شبكات المعلومات). وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على بقية خير في هذه الأمة وعرفانٍ بجهد الأوائل.

* * *

بنت الشاطىء.. وتحقيق التراث[1]

تحقيق النصوص علم له قوانينه وأعرافه ومدارسه، وقد برزت فيه أسماء لعلماء كبار، مستشرقين وعرب ـ ومن المعروف أن المستشرقين كانوا أسبق منا نحن العرب، في إذاعة تراثنا ونشره ـ فمن المستشرقين تبرز أسماء: ديرنبورج، ناشر «كتاب سيبويه»، وهو فرنسي، ووليم رايت الإنجيزي، ناشر «الكامل» للمبرّد، وتشارلس لايل الإنجليزي، ناشر «شرح المفضليات» للأنباري، وبيغان الإنجليزي، ناشر «نقائض جرير والفرزدق» ومن المستشرقين الإنجليز أيضاً كرنكو، وهو أغزرهم إنتاجاً، وأبقاهم أثراً في نشر النصوص التراثية، ومن المستشرقين الإسبان: كوديرا وريبيرا، ناشرا المكتبة الأندلسية، ومن المستشرقين الهولنديين: دوزي، وقد نشر نصوصاً أندلسية كثيرة، بجانب عمله العظيم: تكملة المعجمات العربية، ودي خويه، ناشر المكتبة الجغرافية.

ومن المستشرقين الألمان: فلوجل، ناشر «كشف الظنون» للحاج خليفة، ثم هو صاحب كتاب «نجوم الفرقان في أطراف القرآن»، وهو أصل المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذي صنّفه محمد فؤاد عبد الباقي.

---

(١) مجلة «العربي»، العدد ٤٨٨، يوليو ١٩٩٩م. أراد أستاذنا الطناحي أن يكرِّم الدكتورة بنت الشاطىء في ذكرى رحيلها، فأَبت الأقدار إلاَّ أن تحمل إلينا نبأ رحيله هو أيضاً، فسبحان من له الدوام، لقد كان عَلَماً فذاً من أعلام اللغة العربية، تخرَّج في الأزهر؛ ثم في دار العلوم، ودرَّس في العديد من الجامعات مثل جامعة أم القرى والجامعة الأمريكية، وأصبح عميداً لدار العلوم، وكان مدرسة قائمة بذاتها في علم تحقيق التراث، إذ أخرج تحقيقات ضخمة لعيون التراث العربـي، إضافة إلى مؤلفاته وبحوثه المتعددة. فرحمه الله، وعوَّض العربية عنه خيراً.

ومن أشهرهم وأعلاهم ذكراً: وستنفلد، ولا يدانيه أحد من المستشرقين في كثرة ما نشره من نصوص، وقد قضى عمره كله مكباً على العربية، في لغتها وأدبها وتاريخها وجغرافيتها، وقد ألّف وحقق في ذلك كله نحو مائتي كتاب بين صغير وكبير، ومن أبرز ما نشره: السيرة النبوية لابن هشام، والمعارف لابن قتيبة، ومعجم ما استعجم للبكري، ومعجم البلدان لياقوت. ومن مشاهير المستشرقين الألمان أيضاً: كارل بروكلمان، وهلموت ديتر.

ومن المستشرقين الروس: كراتشكوفسكي، ناشر «الأخبار الطوال» لأبـي حنيفة الدينوري، ومن أنفس آثاره: تاريخ الأدب الجغرافي العربـي.

ومن العلماء العرب برزت في هذا المجال أسماء كبيرة، منها في مصر: أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، وعبد السلام هارون، والسيِّد أحمد صقر، وفي سوريا: محمد كردعلي، وعز الدين التنوخي، وعزَّة حسن، وشكري فيصل، والعلامة أحمد راتب النفاخ ـ على قلة إنتاجه ـ ومن علماء العراق: محمد بهجة الأثري ومصطفى جواد، ومن علماء المملكة العربية السعودية: حمد الجاسر، ومن علماء المغرب: محمد بن أبـي شنب في الجزائر، وفي تونس: حسن حسني عبد الوهاب، وفي المغرب الأقصى عبد الحي الكتاني ومحمد المنوني.

ويبرز من علماء الهند: العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي، والسيِّد بدر الدين العلوي، والسيِّد محمد يوسف، وحبيب الرحمن الأعظمي، وعبد الصمد شرف الدين.

هل هو علم الرجال؟

فهذا العلم إذن هو علم الرجال، لا نكاد نرى للمرأة فيه كبير أثر، ولم تظهر أسماء النساء في هذا المجال إلا من خلال بعض الأطروحات الجامعية، وهو في ميدان تحقيق النصوص باب ضيق جداً، لأن الأصل في تلك الأطروحات الدراسة، ثم يأتي نشر النصوص ملحقاً بتلك الدراسة وذيلاً لها.

ونقرأ من أسماء المحققات وناشرات النصوص عدداً محدوداً من الأسماء، ففي مصر: سيدة كاشف، التي شاركت في نشر كتاب «المغرب في حلي المغرب» قسم مصر، لابن سعيد، وفوقية حسين محمود، التي نشرت من آثار إمام الحرمين الجويني: «لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة» و«الكافية في الجدل»، وهدى قراعة، التي نشرت: «ما ينصرف وما لا ينصرف» للزجاج، و«معاني القرآن» للأخفش.

وفي البلدان العربية أيضاً، برزت أسماء محققات نابهات، ففي العراق: ابتسام مرهون الصفار، وفاطمة حمزة الراضي، وناجية عبد الله إبراهيم، وبهجة عبد الغفور الحديثي، وفي سوريا: أسماء الحمصي، ودرية الخطيب، وناديا علي الدولة، وفي الكويت: سهام الفريح، وفاطمة الراجحي.

ويدور معظم نشاط هؤلاء النسوة في مجال الدراسات الجامعية، ولا أعرف من النساء من مدّت يداً في نشر التراث خارج هذه الدائرة إلا الأديبة اللبنانية وداد القاضي، التي زاحمت كبار المحققين الرجال، ولا عجب في ذلك، فقد تلقت أصول هذا الفن على يد شيخها إحسان عباس، وقد أعانته في نشر موسوعات تراثية كبار، مثل: وفيات الأعيان، وفوات الوفيات، وذخيرة ابن بسام، ونفح الطيب، ومن أبرز تحقيقات وداد القاضي: «البصائر والذخائر» لأبي حيان (عشرة أجزاء)، وكان نشر هذا الكتاب عزمة من عزماتها، إذ كان أحمد أمين والسيِّد أحمد صقر قد نشرا منه جزءاً واحداً عام ١٩٥٣م ثم توقفا عن نشره، ومن تحقيقاتها أيضاً: الأجوبة المسكتة، لابن أبي عون، والإشارات الإلهية لأبي حيان، ورسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان، كما شاركت في نشر كتاب «الوافي بالوفيات» للصفدي، بتحقيق الجزء السادس عشر.

ومن هؤلاء النسوة اللاتي عملن في تحقيق النصوص خارج دائرة الدراسة الجامعية: العراقية خديجة الحديثي، فقد نشرت «ديوان أبي حيان النحوي»، ثم شاركت في تحقيق «البرهان في وجوه البيان» لابن وهب، وهو ذلك الكتاب الذي

نشر قديماً خطأ باسم: نقد النثر لقدامة بن جعفر، و«التبيان في علم البيان» لابن الزملكاني، و«البخلاء» للخطيب البغدادي.

ثم السورية سكينة الشهابي، التي حققت «تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل فيه عن بوادر التصحيف والوهم» للخطيب البغدادي، وكتاب «وجوه القرآن» لإسماعيل بن أحمد الضرير النيسابوري الحيري، و«المنتخب من كتاب أزواج النبيّ ﷺ» للزبير بن بكار، والجزء الخاص بتراجم النساء من «تاريخ دمشق» لابن عساكر.

وفي عالم الاستشراق برزت أيضاً أسماء نساء عملن في مجال تحقيق النصوص ونشرها، منهن الفرنسية جاكلين سوبليه، التي نشرت الجزء العاشر من «الوافي بالوفيات» للصفدي، و«تالي كتاب وفيات الأعيان» للصَّقَّاعي، وهو في تراجم من توفي بمصر والشام من سنة ٦٦٠هـ إلى ٧٢٥هـ، والفرنسية جانين سورديل، التي نشرت «الإشارات إلى معرفة الزيارات» للهروي الرحالة، والإسبانية مانويلا ماريني، ونشرت «كنز الفوائد في تنويع الموائد» وهو في علم الطبيخ، لمؤلف مجهول، والإيطالية ماريا نللينو، وقد نشرت ديوان النابغة الجعدي رضي الله عنه، وهي ابنة المستشرق الكبير نللينو، صاحب «تاريخ الفلك عند العرب»، وله دراسات في تاريخ اليمن والمعتزلة، وهو من المستشرقين الذين درّسوا في الجامعة المصرية، في أول نشأتها.

وكذلك الإيطالية كليليا سارنيللي، وقد نشرت جزءاً من «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للإدريسي، والألمانية سوسنة ديفيلد ـ فلزر ـ وقد نشرت «طبقات المعتزلة» لأحمد بن يحيى بن المرتضى، والألمانية دورتيا كرافولسكي، وقد شاركت في نشر «مسالك الأبصار» و«الوافي بالوفيات» ـ الجزء السابع عشر، ثم تأتي من تايوان مستشرقة جادة، تسمى: هدى جنهويتشي، فتنشر ديوان عامر بن الطفيل، نشرة جيدة.

فهؤلاء أبرز النساء اللاتي عملن في ميدان تحقيق النصوص ونشرها، وتبقى

الملاحظة التي ذكرتها من قبل وهي أن معظم نشاط هؤلاء النسوة إنما كان في مجال الدراسات الجامعية، فلم نجد عند واحدة منهن أعمالاً خارجة عن هذه الدائرة، كتلك الأعمال التي نهض بها الرجال، إلا ما كان من أمر وداد وخديجة وسكينة.

وفي رأيي، أن ذلك الإحجام من النساء عن خوض هذه اللجج إنما يرجع إلى جهد المئونة وعناء المكابدة التي يلقاها من يتصدى لتحقيق النصوص ونشرها، لأن العمل في هذا المجال محوج إلى مراجعات كثيرة في بطون الكتب، ومفاتشة المصادر، ومعرفة التعامل معها واستنطاقها، ثم هو عمل يحتاج إلى صبر شديد وحسن أناة، ودُربة على قراءة المخطوطات، وفك معمياتها، ثم ما يكون من التعليق على النص وإضاءته وربطه بالكتب التي تدور في فلكه، أو تكون منه بسبب، ثم صنع الفهارس الفنية الكاشفة لكنوز الكتاب، وكل ذلك مما لا يقوى عليه ولا يقوم به إلا أولو العزم من الرجال.

مرحلة النشر العلمي:

ثم نأتي إلى العالمة الأديبة الراحلة «عائشة عبد الرحمن» الملقبة «بنت الشاطىء»، ولها في تاريخ نشر النصوص مكان ومكانة، وقد دلفت إلى ذلك المجال التراثي من باب الدراسات الجامعية أيضاً، ولكنها دخلت ولم تبرح، فقد أقامت أطروحتها للدكتوراه، بعنوان «الغفران ــ دراسة نقدية، مع تحقيق رسالة الغفران» لأبـي العلاء المعري، و«الرسالة» هذه أشهر آثار أبـي العلاء، وأخلدها على الأيام، وكان المشرف على هذه الأطروحة الدكتور طه حسين، وقد نوقشت في الخامس من أبريل عام ١٩٥٠م، بكلية الآداب ــ جامعة فؤاد الأول (القاهرة)، وأجيزت بتقدير «ممتاز»، ثم حصلت بهذا التحقيق على جائزة مجمع اللغة العربية في تحقيق النصوص.

وأحب أن أنبه هاهنا إلى أن بنت الشاطىء حين أقدمت على تحقيق هذا النص ــ وكان ذلك في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات ــ كان تحقيق النصوص قد استقر علماً له مناهج ومدارس، وكان المستشرقون قد مدوا فيه يداً مبسوطة، وفي

البلدان العربية والإسلامية، كان نشر النصوص قد انتقل من مراحله الأولى ــ أعني مرحلة مطبعة بولاق ومطابع استانبول والشام، ثم المطابع الأهلية المصرية والناشرين المصريين والشوام الذين وفدوا إلى مصر، واتخذوها دار مقام، كالحلبي والخانجي ومحمد منير الدمشقي، وحسام الدين القدسي، والخشّاب، انتقلوا من هذه المرحلة إلى مرحلة النشر العلمي، من حيث التوثيق وجمع النسخ المخطوطة، ثم دراسة الكتاب المحقق وبيان مكانته في المكتبة العربية وفهرسته، وكانت ديار مصر في ذلك الوقت بالذات تؤسس هذا العلم وتقيمه على عمد ثابتة، وذلك فيما عُرف بمدرسة أحمد زكي باشا شيخ العروبة، ودار الكتب المصرية، ثم مرحلة الأفذاذ من الرجال (أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، وعبد السلام هارون، والسيِّد أحمد صقر)، وقد فصّلت ذلك كله في كتابي: «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي».

فكانت جرأة عالية، وهمة جسورة من بنت الشاطىء أن تبحث لها عن مكان بين هؤلاء الأفذاذ من الرجال في ذلك الزمان. وقد اقتحمت وما وهنت وما قصّرت، فقد أخذت للأمر أخذه، وأعدت له عدته، فجمعت أصحّ النسخ وأوثقها من «رسالة الغفران» المخطوطة، ثم عرضت للنشرات السابقة من الرسالة، وكشفت عن أوجه النقص فيها، ثم قدمت نصاً محرراً مضبوطاً، مضاء ببعض التعليقات، وأزالت عنه عوادي الناس والأيام، ولئن كان بعض شيوخ التحقيق قد عرضوا لعملها فيما بعد بالنقد والتصحيح، فسيظل لهذا العمل مكانته في خدمة تراث أبي العلاء، ثم في تاريخ المكتبة العربية كلها.

وقبل أن أستطرد إلى ذكر باقي الأعمال التراثية لبنت الشاطىء، أحب أن أقف عند أمرين، لا بد من بيان القول فيما، لما نراه الآن من اضطراب وتخليط في أمر تحقيق النصوص:

الأمر الأول: أن بنت الشاطىء لم تقدم على تحقيق «رسالة الغفران» إلا بعد أن عاشت مع أبي العلاء، وخبرت حياته ونفسيته، وعرفت لغته ومدارج القول عنده، وقد أنبأتنا هي أنها عرفت «رسالة الغفران» أيام الطلب حين قرأتها مع أستاذها طه

حسين بالجامعة، في طبعة «أمين هندية» وهي طبعة مؤوفة، غير محررة، ثم أخرجت لنا ثلاثة أعمال حول أبـي العلاء: الحياة الإنسانية عند أبـي العلاء ــ مع أبـي العلاء في رحلة حياته ــ أبو العلاء المعري.

وهذا درس جيد لمن يروم تحقيق نص من نصوص التراث: أن يعيش مع مؤلفه، فيخبر حياته وأسلوبه، ويعرف مكانة كتابه في فنه، ثم صلته بكتب العربية الأخرى، وهكذا صنع الشيخ أحمد محمد شاكر حين أخرج «الرسالة» للشافعي، وشيخنا محمود محمد شاكر حين أخرج «طبقات فحول الشعراء» لابن سلاَّم، وأستاذنا عبد السلام هارون يوم أن توفر على كتب الجاحظ، والسيِّد أحمد صقر، يوم أن أظهر كتب ابن قتيبة، والشيخ بهجة الأثري حين أخرج «خريدة القصر» وعبد العزيز الميمني الراجكوتي في تحقيق «سمط اللآلي»، وكذلك كان صنيع المستشرقين.

أما ما نراه اليوم من جرأة بعض خلق الله على نشر كتب التراث دون معرفة سابقة، أو دون إلف ومخالطة للمؤلف، فشيء يأباه العلم، ولا يقدم للتراث شيئاً ذا بال، وأستطيع أن أقول دون توقف أو تردد: إن كثيراً من هذا الذي يخرج الآن من تراثنا محققاً لا صلة له بالعلم، ولا بعلم تحقيق النصوص، سواء كان هذا الذي يحقق لدراسة جامعية للحصول على شهادة عليا، أو كان نشراً علمياً يراد به العائد المادي ليس غير.

الأمر الثاني، وهو وثيق الصلة بالأمر الأول، أن بنت الشاطىء خاضت لجة هذا البحر، وهي مؤمنة بقضية كبرى، هي قضية ذلك التراث العربـي، وواجبنا نحو إبرازه وكشفه وإضاءته، لتقوم عليه الدراسات الصحيحة، فلا دراسة صحيحة مع غياب النص الصحيح المحرر.

الإرث العظيم:

ويتصل بتلك القضية الإيمان بقيمة ذلك الإرث العظيم الذي انتهى إلينا، وما فتئت بنت الشاطىء تصرح بذلك فيما دقّ وجلّ من كتاباتها، وأعرف بعض من

يشتغلون بنشر النصوص لا يؤمنون بذلك التراث، بل يسخرون منه ويستهزئون به إذا خلوا إلى شياطينهم، ولكنها الضرورة الملجئة، وسبحان ربك رب العزة الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ولقد عادت بنت الشاطىء مرة أخرى إلى صاحبها أبـي العلاء، فنشرت له أثراً غالياً من تراثه، وهو كتاب «الصاهل والشاحج»، ويتكلم فيه أبو العلاء، على لسان فرس وبغل، وقد نشرته عن نسختين أصليّتين موثّقتين، احتفظت بهما الخزانة الملكية بالرباط، وللمغاربة فضل عظيم في الحفاظ على مخطوطات نفيسة ذوات عدد، من تراثنا الموزّع في مكتبات العالم، وقد قدمت بنت الشاطىء لتحقيق هذا النص بدراسة ماتعة، شملت مدخلاً تاريخياً، وآخر موضوعياً، ثم قارنت بين كليلة ودمنة والصاهل والشاحج.

ومن القضايا التي شغلت بنت الشاطىء زمناً طويلاً، وما زالت تعتادها وتكرر القول فيها، وتستأنف حولها كلاماً لأدنى ملابسة: قضية توثيق المرويات النقلية التي وصلت إلينا في أول الأمر شفاهاً إلى عصر التدوين، وهذه المرويات قد تعرضت لهزات عنيفة، وبخاصة ما يتصل بقضية الشعر الجاهلي، والقول بانتحاله ووضعه بعد ظهور الإسلام، وهي القضية التي أزعجت الجلة من شيوخنا، وعلى رأسهم شيخنا محمود محمد شاكر، وقد رأى هؤلاء الشيوخ أن التسليم بالشك في الشعر الجاهلي يفضي ــ لا محالة ــ إلى الشك في مرويات أخرى جاءتنا مشافهة، كنصوص السنة النبوية والسيرة الشريفة النبوية، وكتب تاريخ الصحابة، وعلوم الإسلام كلها.

وقد وجدت بنت الشاطىء ضالتها ومفزعها عند علماء الحديث، فيما أصَّلوه من قواعد منهج توثيق المرويات، وفحص الأسانيد، ونقد المصادر، فيما عُرف بعلم الجرح والتعديل، ثم وقفت عند كتاب واحد من كتب علوم الحديث، ورأت أنه جدير بالنظر والخدمة والتحقيق، ذلك هو «مقدمة ابن الصلاح» وهو تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن المتوفى سنة (٦٤٣هـ)، وقد رأت في هذا الكتاب مجلى ذلك العلم، فنهدت لنشره نشرة علمية، فجمعت منه أصولاً خطية موثقة جيدة، ثم صدّرته

بمقدمة محكمة، أبانت فيها عن مناهج المحدثين، ثم نقدت النشرات السابقة للكتاب، وقد رأت من تمام الفائدة أن تلحق بالكتاب نصاً يتصل به، هو: «محاسن الاصطلاح وتضمين كتاب ابن الصلاح» لسراج الدين عمر بن رسلان البلقيني المتوفى سنة (٨٠٥هـ)، ومن أعمال بنت الشاطىء التراثية أيضاً تحقيق الجزء الثالث من «المحكم في اللغة» لابن سيده.

فهذه نصوص أربعة من أصول علومنا، نهضت بها بنت الشاطىء، تحقيقاً وضبطاً، مع تأليفها لكتاب نافع، هو: «تراثنا بين ماض وحاضر»، ولولا اشتغالها بالتدريس والتأليف لكان لها في ميدان تحقيق النصوص أثر كبير.

ولا يبقى من حديث الدكتورة بنت الشاطىء إلا أمر شغلني زماناً، وما زلت في عجب منه إلى يوم الناس هذا: إن بنت الشاطىء لا تفتأ تذكر فضل شيخها وزوجها الأستاذ أمين الخولي، فهو الذي علمها كيف تقرأ، وهو الذي هداها إلى المنهج، إلى أشياء كثيرة تسميها كلما جاء ذكر الشيخ، لكني أجد مباينة شديدة بين التلميذة وشيخها فيما يتصل بالبيان وطرائق القول ــ أو فن القول، كما كان الشيخ يقول ــ فأسلوب بنت الشاطىء أسلوب عذب ندي، يترقرق فصاحة وصفاء وإشراقاً، وهو أسلوب ترى فيه أثر القرآن الذي تلقّته صبية من فم أبيها الشيخ الصوفي، ثم هو من بعد ذلك أسلوب عال موصول النسب بأساليب أصحاب البيان، كالجاحظ وأبي حيان ومصطفى صادق الرافعي ومحمود محمد شاكر.

أما أسلوب الشيخ، فهو أسلوب حاد صارم، كأنما يستمد صرامته من صرامة المنهج الذي أخذ به نفسه، وهو ذلك المنهج الذي ما زال تلاميذه يحمدونه له، ويجهرون به ويردُّونه إليه، ولو شئت لقلت: ويبجحون به (أي يفتخرون)، وهؤلاء الكتّاب الذين يسرفون في قيود ما يسمونه المنهج وضوابطه، يصعب عليهم ــ عن عمد أو غير عمد ــ أن يرطِّبوا ألسنتهم، أو يزيّنوا أقلامهم بشيء من نداوة الكلام وسماحته ويسره، كأنهم يريدون أن يظلوا بمنجاة من الذاتية أو التأثرية (أو كلام الإنشا) فتأتي عباراتهم وفيها قدر غير يسير من الجفاف والعسر، لأنهم يغرقون في

العقلانية، وقد نجا من هذه المهواة كثير من الأدباء قديماً وحديثاً، منهم أديب العربية الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، فكتبه تعلم العقل ــ كما يقول أبو الحسن المسعودي ــ ثم هو أمير البيان العربـي غير مُزاحم ولا مدفوع.

وقد اعترف تلاميذ الشيخ أمين الخولي بذلك، فيقول الدكتور حسين نصار:

«ووصلت الدقة بعبارة الخولي أنه كان يتعب قارئه أشد التعب، ليصل به إلى المفهوم الدقيق الذي يريده»، ويقول أيضاً: «وعلى الرغم من ذلك يجب الاعتراف بأن من لم يتصل به في أعماله ويتابع أفكاره، ويألف لغته، كان يجد مشقة في فهمه»، انظر كتاب الدكتور حسين نصار: أمين الخولي ص ٤٠ و٩٢ ــ المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٦م، ولله في خلقه شؤون.

رحم الله بنت الشاطىء رحمة واسعة سابغة، وجعل كل ما قدمته لتراثها ولدينها في موازينها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً.

* * *

الرسائل الجامعية.. و .. ساعة ثم تنقضي[1]

الدراسات العليا الجامعية هي أعلى درجات السُّلَّم التعليمي، وهي ذؤابته وسنامه، وهي غاية كل طالب علم ومنتهى أمله، ثم هي الصورة الصادقة للأمم وحظها من التقدم والرقي، ولجامعاتنا المصرية في ذلك قدمة وتاريخ وأثر (يسعدني كثيراً أن أرى في المؤتمر العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة الأستاذ الدكتور شوقي ضيف، وعن يمينه الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد، وعن يساره الأستاذ الدكتور شاكر الفحام، وهما من تلاميذه، ومن أعلام الأمة العربية).

والذين شاهدوا مناقشة الرسائل الجامعية في الخمسينات والستينات ثم يشاهدونها الآن يرون فروقاً واضحة بين ما كان وما هو كائن، ولست من الذين يرون الماضي خيراً كله، وأن الحاضر شر كله، ففي الناس بقايا خير، كما يقول الحافظ الذهبي (سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٥٠) ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة، كما يقول العز بن عبد السلام (البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٣٧٩)، ولكننا بإزاء مقارنة وموازنة ليست في صالح الحاضر.

ولست أريد من هذه الفروق، الفروق العلمية، فلذلك حديث آخر، وإنما أريد تلك الفروق التي تتصل بالهيئة التي تتم بها مناقشة الرسائل، ثم بأسلوب بعض الأساتذة المناقشين في استقبال ذلك الأمر الجلل، وطريقتهم في إدارة الحوار.

---

(١) مجلة «الهلال»، يونيه ١٩٩٩م.

هذا المقال كتبه الراحل د. محمود الطناحي قُبيل وفاته، وكأنه يكتب وصيته الأخيرة.

وأول ما يلقاك أيها القارىء الكريم من ذلك في الماضي تلك الهيبة الخاشعة التي تحف بأعضاء هيئة المناقشة حين يدخلون القاعة؛ لأنهم قضاة، ومجالس القضاء مصحوبة دائماً بمظاهر الجلال والوقار، ويظل أعضاء المناقشة مدة المناقشة كلها على هذا الحال من الجد والصرامة، أذكر يوماً حضرت فيه مناقشة، وكان رئيس الجلسة الأستاذ عباس حسن رحمه الله، وكان فيه بأْو وصرامة، وحين استقر على المنصة هو وزميلاه نظر فوجد باقات من الورد أمامه وأمام الطالب، فاستدعى العامل، وقال له: ارفع هذا، هل نحن في فرح؟

ويسري هذا الجد إلى الحضور جميعهم، فلا كلمة ولا تعليق، ولا تسمع إلا همساً، وإذا بدا للطالب أن يتظرّف ليخفف من حدة مناقشيه، أعيد بقسوة إلى حالة الوقار والجد، أذكر مرة للأستاذ عباس حسن أيضاً، أنه أورد على الطالب ملاحظة تتصل بالدقة في نقل الأرقام من المصادر، فقال للطالب: أنت ذكرت رقم الصفحة (٢٤٥) والصواب: (٢٥٤)، فقال الطالب: لا بأس يا أستاذنا، فقد حصل فيها قلب مكاني! فما كان من الأستاذ عباس حسن إلا أن نهره بقوة، وقال: عيب يا ولد (القلب المكاني في علم الصرف هو تقديم حرف على حرف، ومثاله في الفصحى: جذب وجبذ، وجاه ووجه، وفي العامية: أرانب وأنارب، ومسرح ومرسح، وزنجبيل وجزنبيل).

ثم لم يكن يُسمح فيما مضى لأحد من الحضور أن يعلق على ما يدور من مناقشة، بل لم يكن الحديث يتجه إليهم أصلاً، وإنما الكلام بين المناقش والطالب ليس غير، ثم لم يكن يسمح للأطفال بحضور تلك المناقشات.

أما اليوم، فالأساتذة يدخلون في موكب بهيج من الضحك والانبساط والتطلق، ويسري هذا كسابقه إلى الحضور، فترى القاعة تموج بالانشراح والبهجة والتعليقات الحلوة، والأطفال يتقافزون ويمرحون في القاعة، وقد جيء بهم ليروا (بابا) في يوم عُرسه، والنساء يزغردن عند إعلان النتيجة، بل إني سمعت إحداهن تنشد لقريبها الطالب:

يـا شجـره يـا حلـوه يـا مفـرّعـه   شـرفـت أعمـامـك الأربعـة

هكذا والله.

ثم تجري المناقشة مصحوبة أيضاً بتلك الحال من البهجة والتطلق، والمزاح مع الطالب، ونعم نحن نتبسّط مع أبنائنا في المرحلة الجامعية الأولى، بلون من المفاكهة، لندفع عنهم أسباب الملال، ثم لنغريهم باستقبال ما يرد عليهم من ألوان العلم، أما في هذا اليوم الكبير فلا، وإن جاء شيء من ذلك فيكون في أضيق الحدود.

وأسوأ ما يكون هو التوجه إلى الحضور بنوع من طلب الرضا والاستحسان، أو التماس التأييد والنصرة، وكل ذلك يجر إلى المشاركة في المناقشة، وهذا عيب قادح فادح، فالكلام في هذه المواطن إنما يكون للجالسين على المنصة والطالب ليس غير.

أما ما يكون من تقارُض الثناء بين أعضاء المناقشة، فهو باب واسع جداً، وأظهر ما فيه قول المناقش الثاني: إن زميلي الجليل الذي سبقني قد كفاني مؤونة الكلام في كثير من القضايا، وهذا الكلام قد يكون صحيحاً، ولكن استفاضته وتفشيه وتتابع المناقشين عليه أذهب الثقة به.

فهذا ما كان من حديث المقارنة بين الهيئة التي كانت تتم عليها المناقشات في الماضي، والهيئة التي تتم عليها الآن.

حديث عجيب:

أما الحديث عن أسلوب بعض الأساتذة المناقشين في استقبال ذلك الأمر الجلل، وطريقتهم في إدارة الحوار، فهو حديث عجب، ولا سبيل إلى استقصائه وبلوغ الغاية منه، وأول ما تأتيك به المقارنة بين ما كان وما هو كائن في هذا الصدد: أن الأستاذ المناقش فيما مضى كان يدخل إلى المناقشة وهو محتشد، قد أخذ للأمر عُدَّته، وجمع له أدواته، وكانت مناقشته تطول جداً؛ لأنه أعطى الرسالة حظها من

النظر والتأمل، فقرأها كلها، أما اليوم فأنت تحس من أول لحظة بأن الأمر هيِّن، بل هو بالغ السهولة.

وبدءة ذي بدء فإني أقول بحق وبصدق إن عند كثير من الأساتذة الجامعيين علماً، ولكنهم لا يخرجونه، ليس ضناً به ولا كزازة، ولكنهم لا يبذلون جهداً في قراءة الرسالة الجامعية، لأنهم يزنون الأمور بميزان العائد المادي، فماذا تعطيك الرسالة من المال؟ إن كتابة ثماني صفحات في مجلة كذا تعطيك ثمانمائة جنيه (٨٠٠) مع الشهرة والرنين، ونعم إن الكتابة في هذه المجلة الغنية لا تتاح لكثير منهم، لكن هناك وجوهاً أخرى من الكسب تعطي أجزل مما تعطيه الرسالة الجامعية، ولذلك فإن بعضهم لا يقرأ الرسالة كلها، بل يكتفي منها بصفحات قليلة، يوزعها على امتداد الرسالة أثلاثاً أو أرباعاً، فلا يخرج علمه كله، فهو كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [التوبة: ٥٤].

وعدم قراءة الرسالة كاملة يفضي أحياناً إلى خلل شديد، أعلم يقيناً أن رسالة جامعية للدكتوراه نوقشت وأجيزت بمرتبة الشرف الأولى، وقد اكتشف الطالب بعد المناقشة أنه قد سقط منها في أثناء التجليد نحو مائتي ورقة، وكان موضوع الرسالة تحقيق نص من نصوص النحو، وفي الغالب لا يقرأ الأساتذة النصوص المحققة كلها، وهذا هو الذي حجب عنهم اكتشاف هذا السقط.

ومن أمارات الاستخفاف أن بعض الأساتذة يصرح في أول مناقشته بأنه اعتاد ألا يتجاوز ساعة واحدة، كأنه يريد أن يطمئن المشرف والمناقش الثاني والجمهور والطالب، ويظل الحضور ينظرون في ساعاتهم. وحين توشك الساعة أن تنقضي يرتفع صوت واحد من الحاضرين: الساعة خلصت يا دكتور، فيرد عليه الدكتور: لا يا خويا، فاضل دقيقتين، ساعتك غير مضبوطة، ويتضاحك الجميع. ومن هنا فقد زالت أسباب الخوف والهيبة عن كثير من الطلبة، وأصبح بعضهم يُنشد بعضاً:

وما هي إلا ساعة ثم تنقضي ... ويذهب هذا كله ويزول

ولكن الفرق بين «ساعة» ذلك الدكتور و «ساعة» هذا الشاعر فرق كبير، فساعة الدكتور ساعة زمانية، ستون دقيقة ليس غير، أما ساعة الشاعر فيراد بها مطلق الوقت، الذي قد يتجاوز مدى الساعة الزمانية.

ومن أعجب ما رأيته من علامات الاستخفاف أن زميلاً كان يناقش بجواري فقال للطالب: والله يا بني أنت حظك حلو، أنا قرأت رسالتك في القطار! قطار يا دكتور؟ كيف يحدث هذا؟ ألا تحتاج إلى مرجع تعوّل عليه أو تصحح منه؟ ولهذا يدخل الطالب لجنة المناقشة محتشداً جامعاً، حتى إذا رأى ذلك كله سكن رُوعه، وهدأت نفسه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٤].

والسَّوأة السَّوْآء، بعد ذلك هي هذه العامية القبيحة التي يستكثر منها بعض المناقشين، ويدير عليها حواره كله، فتسمع مثلاً أمثال هذه العبارات: واخد بالك من الحتة دي ــ خد بالك من الرأي دوّتْ ــ كده هوّت ــ إحنا بنتكلم عشان خاطر نعلمك يا بني ــ نِبُص نلاءِي (أي ننظر نلاقي).

هذا شيء محزن حقاً، لا ينبغي السكوت عليه أو المصانعة فيه، ونحن نلم أحياناً بالعامية في أسلوب الربط، ولكنها العامية المقبولة، التي تأتي في حدود ضيقة، لكن الذي نسمعه الآن من بعض المناقشين يتعدى أسلوب الربط والحدود الضيقة، إنه يكاد يسري في أثناء المناقشة كلها، إنك لو أغمضت عينيك، وسمعت بعض المناقشين لظننت أنك في موقف أحمد حلمي أو القُللي، والمناي ينادي: واحد دكرنس، واحد المنصورة، وقد سرت هذه العدوى إلى شباب المعيدين، طلبت يوماً من أحدهم شيئاً، فقال: حاضر يا عسل! فقلت: ما هذا يا بني؟ لا ينبغي أن تستعمل مثل هذه الألفاظ، فقال: لقد سمعتها من فلان وفلان وفلان، وذكر أسماء كبيرة، فلما سمعت هذا قلت له: خلاص يا حلاوة ــ براءة ــ أنت كده في السليم، فنظر إلي نظرة انتصار، فهممت أن أقول له: «متبصليش بعين رديَّةْ شوف إيه اللي عملته في شرح الألفيه» (بالمناسبة أنا مدرس نحو، أدرس لطلبتي شرح ابن عقيل

على ألفية ابن مالك، ولا أرضى به بديلاً)، وهكذا يتسلل إلينا البلاء، وتسري بننا العدوى، فلا نملك لها صرفاً ولا تحويلاً:

تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد بعدوى فما أعدتني الثُّؤَباءُ

ورحم الله شيخنا أبا العلاء، والبيت من قصيدة باذخة، اطلبها في اللزوميات، واقرأها وأقرئها تلاميذك.

ومع هذه العامية البغيضة التي ذكرتها، فإن بعضهم يتحرى الفصحى، ولكنه يُخلِّط تخليطاً شديداً في أبنية الأسماء والأفعال، ثم يلحن ولا يعطي الإعراب حقه.

وإذا كنا قد أخذنا على بعض المناقشين الليونة والاستخفاف، فإننا نأخذ على بعضهم أيضاً اصطناع الشدة والقسوة، واللجوء إلى الصياح والجلبة وقعقعة السلاح، والنظرإلى الطالب على أنه ذبيحة يتناولها بالمدى والسكاكين، ومحاولة إحراجه وإلجائه إلى أضيق الطرق، ثم ما يكون من تضييع الوقت في أشياء هينة، كالحديث عن علامات الترقيم والأخطاء المطبعية، والفرق بين المصادر والمراجع، ثم التهويش بما لا دليل عليه، كأن يقول المناقش: لقد سكتُّ عن أشياء مهمة لضيق الوقت! إن الأشياء المهمة يا زميلي العزيز لا ينبغي تجاهلها أو السكوت عليها، وإلا فلم كانت هذه المناقشات العلنية؟ ثم إن مثل هذا الكلام يوقع الطالب في حرج: لأنه يوحي للحاضرين أنه قد وقع في الخطأ إلى أذنيه، ثم هي إلصاق تهم لا يستطيع أن يدفعها عن نفسه.

وأمر آخر خطير جداً: إن المشرف قديماً كان يشترك مع زملائه في مناقشة الطالب، وتدور مناقشته حول مخالفة الطالب عن أمره فيما رسمه له من خطة الرسالة، أو بأنه حين قرأ الرسالة كاملة ظهرت له جهات من النقص يرى ضرورة تنبيه الطالب عليها، وأذكر أن الأستاذ عمر الدسوقي، وكان مشرفاً على أخي وعشيري عبد الفتاح الحلو، رحمهما الله جميعاً، أذكر أنه حمل عليه حملة شديدة في المناقشة، فاقت مناقشة الآخرين: الدكتور عبد الحكيم بلبع رحمه الله، والدكتور عبد القادر القط، أطال الله في عمره. أما الآن فالمشرف يتعصب جداً للطالب،

ويسوؤه أن يعرض له أحد بنقد أو ذم، وكأنه هو كاتب الرسالة، وهذا لا يصح، فالمشرف يجب عليه أن يخلي بين الطالب ومناقشيه إلا إذا اقتضى الأمر توضيح مبهم، أو رفع التباس، ويحسن أن يكون هذا بعد انتهاء المناقشة، حتى لا يسقط الثقة بالمناقشين.

ومن أسوأ ما تراه الآن من تعصب بعض المشرفين أنه إذا رأى حدة من بعض المناقشين اتجه إلى الطالب وغمز له بعينيه، يعني «فوِّت»، وهذا شيء رديء جداً، يراه الحاضرون بوضوح، ويخرجون يتندرون به، فيقولون: «شفت لما الدكتور غمز له بعينه»! هأْ هَأْ هَأْ.

لا يجوز:

ومن هموم هذه المناقشات الجامعية أيضاً: أن بعض الرسائل تتناول شخصيات معاصرة تعيش بيننا الآن، وتدعى تلك الشخصية لحضور المناقشة، وفي رأيي أن ذلك لا يجوز لأنه ربما تعرض أحد المناقشين لنقد تلك الشخصية أو القسوة عليها، فيكون في ذلك حرج على الجميع، وأذكر أن صديقاً لنا أعد رسالة عن شيخنا محمود محمد شاكر ــ برّد الله مضجعه ــ وكان ذلك في حياته، ودعي شيخنا لحضور المناقشة، فأبى وقال: لا أحب أن أضع الأساتذة في حرج، أو أضيق عليهم سبل القول.

وما بقي من شجون هذه المناقشات الجامعية إلا أمران:

الأول: تقدير درجة الرسالة، وفي هذه المسألة مداخلات كثيرة، أعرف بعضها وأُعرض عن بعض، فالذي أعرفه منها: أن بعض المناقشين ــ بدواعي إدخال السرور على المشرف والطالب والحضور ــ يوحي في أثناء المناقشة بما سيكون عليه التقدير، حتى إذا أعلن يكون قد فقد حرارة المفاجأة ونشوة الفوز، ومن ذلك أن درجة الامتياز ومرتبة الشرف الأولى قد كثرتا جداً، ولو أجريت إحصاء بين الامتياز وجيد جداً، لوجدت الدرجة الأخيرة ضئيلة بالنسبة إلى أختها.

ومن أعجب العجب أن المناقشة تكون حامية جداً، ويُدخل المناقشان وجوهاً من النقص كثيرة على الرسالة، ثم تخلو اللجنة للمداولة، وتكون المفاجأة حصول الطالب على الامتياز أو مرتبة الشرف الأولى (ويا دار ما دخلك شر)، وأذكر أني كنت أناقش طالباً في رسالة دكتوراه، ووجهت إليه أنا وزميلي مؤاخذات كثيرة، وحين خلونا إلى تقدير الدرجة أصرّ المشرف على مرتبة الشرف الأولى، وأصررت أنا وزميلي على التي هي دونها، فغضب المشرف غضباً شديداً، فقلت له: أيها الزميل العزيز، ألست ترى أننا وجهنا إلى الرسالة سهاماً كثيرة؟ فقال: بلى، فقلت: وأنت تصر على أن تعطيها الدرجة العليا، قال: نعم، قلت: ما رأيك لو جاءتنا رسالة أخرى بهذا العنوان والموضوع وقد خلت من كثير من المؤاخذات التي أخذناها على رسالة تلميذك، ماذا كنا نعطيها من التقدير؟ فحار وأَبْلَس، ثم قال: خلاص يا دكتور، اعمل معروف متحرجنيش مع الطالب!.

ومن الأمور المؤسفة أيضاً: أن الطالب حين يحصل على تقدير لا يعجبه يواسيه المشرف قائلاً: والله يا بني أنا كنت عاوز أعطيك التقدير الذي تحبه، ولكن الزملاء غلبوني على أمري، وهذا لا يصح لأن رأي اللجنة جماعي، والمجالس أمانات.

ومن قضايا تقدير الدرجة: التفرقة أحياناً بين المعيد الذي يعمل داخل الكلية، وبين الطالب الذي يتقدم من الخارج، فالأول يعامل برفق، ويدخل إلى حلبة المناقشة هادئاً مطمئناً لأنه يعرف ما سيؤول إليه أمره، والثاني هو ونصيبه، وما ذلك إلا لأن المعيد يُنظر إليه على أنه زميل المستقبل، وبعض الكبار يحبون أن يتخذوا يدا عند الصغار، ولله في خلقه شؤون.

ونعم إن بعض الشرفاء لا يعرفون هذه التفرقة، ومن ذلك ما حدث أخيراً في كلية دار العلوم، حين أصر بعض الأساتذة على رفض رسالة دكتوراه قدمها مدرس مساعد بالكلية، لأنه قد ظهر أن الرسالة مسلوخة من كتب بعض الأساتذة، والغريب أن ذلك السارق قد وجد من يساعده وينتصر له من داخل الكلية، وبالله نستدفع البلايا!

وهذا السارق إنما جرّأه على السرقة وأغراه بها أنه وجد بعض الأساتذة الكبار

يسرقون ويدينهم القضاء، ثم لا تفعل الجامعة معهم شيئاً، فمن حق هذا الطالب السارق أن ينشد قول الشاعر:

سرقتُ مالَ أبي يوماً فأدَّبَني وجُلَّ مالِ أبي يا قومنا سَرَقُ

والأمر الثاني: أن مقدم الرسالة يتلقى تصحيحات كثيرة وتعديلات كثيرة على رسالته، وبعد أن يحصل على الدرجة والتقدير، يخرج وكأن شيئاً لم يكن، وحين يطبع الرسالة ويخرجها إلى الناس لا يعتني كثيراً بالإصلاحات التي قدّمها له أساتذته، بل إن بعضهم يبلغ به اللؤم أنه حين يخرج الرسالة كتاباً مقروءاً يُسقط منها الشكر الذي قدمه للمشرف وللمناقشين، ومن العجب أن بعض الذين يفعلون هذا شباب طيبون، وأصحاب فضل وعلم، ولكنها العدوى التي تجتاح الناس كالوباء العام.

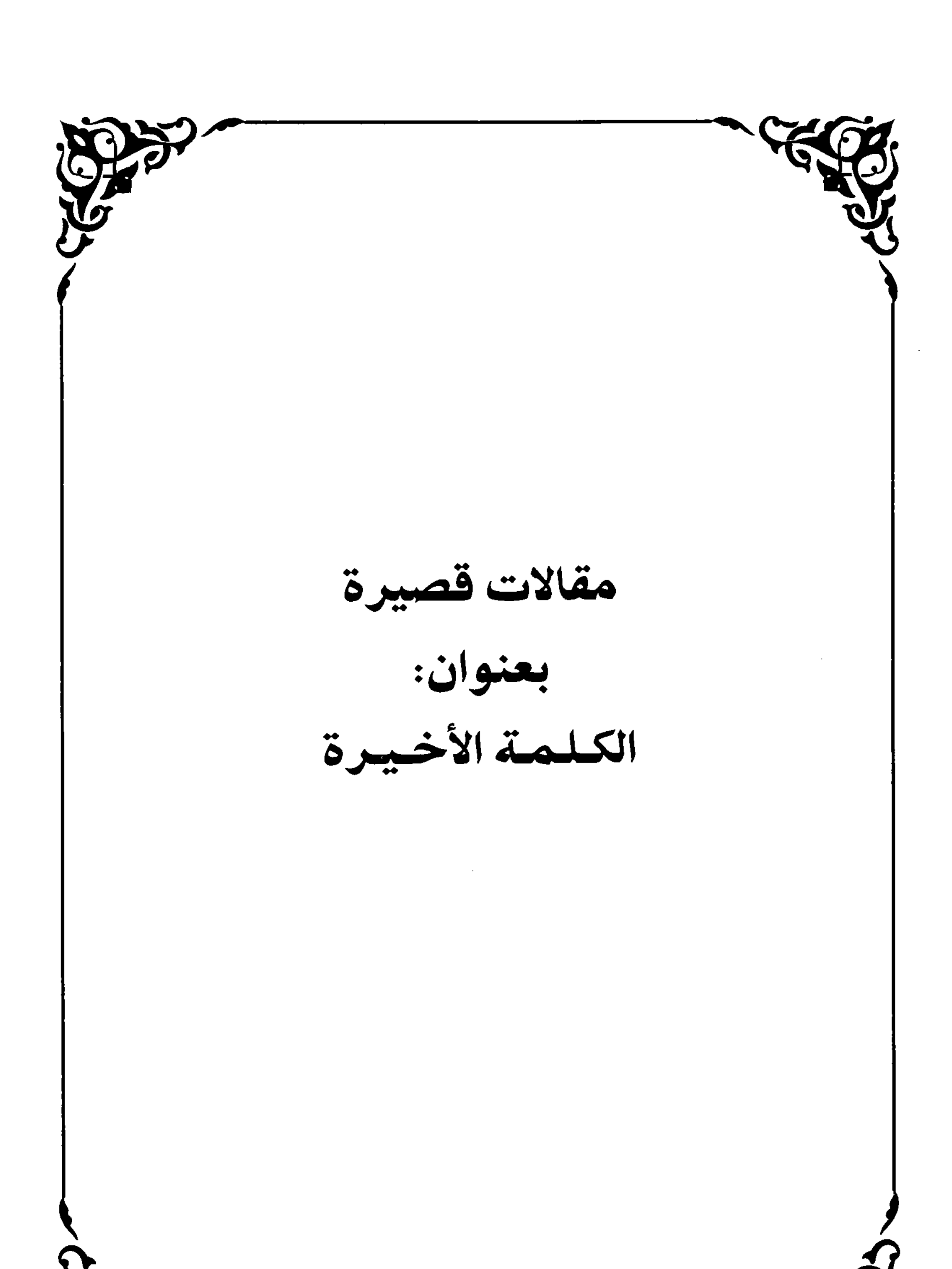
والرأي عندي أن الطالب لا يُجاز على رسالته الإجازة المشفوعة بالدرجة إلا بعد أن يقدم نسخة من رسالته محررة ومستفيدة من إصلاحات أساتذته، فإذا ما أخرجها للناس بآفاتها وبإسقاط أسماء مشرفه ومناقشيه سُحِبت منه، وأعلنت فضيحته على الناس.

فيا زملاءنا الأعزاء: أعرف أن عندكم علماً كثيراً، ولكني أدعوكم أن تخرجوه للناس ولا تضنّوا به، واعلموا أن ما تؤجرون عليه من المجلات الغنية، وبرامج التلفزيون الخليجية إنما أخذتموه باسم الجامعة الضخم، وبالطيلسان الجامعي الفضفاض، فأنتم في الأصل معلمون، فأعطوا الجامعة حقها عليكم، وأخلوا وجوهكم لطلبتكم، وأعطوهم حظهم من العناية والتوجيه، وخُذوهم بالجد، ثم أعيدوا للرسائل الجامعية بهاءها ووقارها وشرفها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

* * *





مقالات قصيرة

بعنوان:

الكلمة الأخيرة

المؤتمرات العلمية.. والنغمة المكرورة(١)

حضرت منذ أيام مؤتمراً علمياً لإحدى الكليات النظرية، تحت عنوان «التجديد في العلوم العربية والإسلامية»، وقد كثرت هذه المؤتمرات في السنوات الأخيرة كثرة ظاهرة، ولو أن إنساناً شغل نفسه بتتبع هذه المؤتمرات فتأمل الأوراق المقدمة لها، والتوصيات التي انتهت إليها، لوجد تشابهاً واضحاً في هذه وتلك، فالقضايا هي القضايا، والتوصيات هي التوصيات، وقد يجد اختلافاً في طريقة المعالجة وفي صورة التوصيات، ولكن الجوهر هو هو، على ما قال الشاعر:

عباراتنا شتى وحسنُك واحدٌ ... وكلٌّ إلى ذاك الجمال يشير

ولو أنَّ الأمور كانت تجري في هذه المؤتمرات على سنن من الاستقامة والإنصاف والعدل، لقلنا لا بأس ولا نكران، فالطارف يذكِّر بالتليد، والمكرر أحلى ــ كما يقول أهل الحديث، ولكن المشاركين في هذه المؤتمرات يشرقون ويغربون، وتأتي كلمة التجديد بلمعانها وبريقها معينة لهم على ما هم بسبيله من التنقص والمعابة لعلومنا جميعها، ولتاريخنا كله، فلا مهابة لعلم، ولا حصانة لأحد، ألسنا تحت مظلة «البحث العلمي والموضوعية والتجرد»؟

وتسمع في هذه المؤتمرات أحكاماً ضخمة مكرورة، مثل: تفسير القرآن مليء بالإسرائيليات.

(تنبيه: نحن لم نُنْهَ عن الإسرائيليات جملة، وكيف وقد أخرج البخاري ومسلم

---

(١) مجلة «الهلال»، يونيه ١٩٩٥م.

وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: «وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، أي بما لا تعلمون كذبه).

ومن هذه الأحكام أيضاً قولهم: الحديث مشحون بالوضع والضعف. والنحو تعقيد وتأويلات، والبلاغة تكلف وأصباغ، والعروض قيود ودوائر تدير الرأس، والتاريخ أرستقراطي، كُتِبَ للخلفاء والملوك، والجغرافيا العربية بلهاء، وأدبنا العربـي غارق في الذاتية ومجالس السمر، إلى آخر هذه القضايا المألوفة، وهي «شِنْشِنَةٌ أعرِفُها من أَخْزَم» كما تقول العرب في أمثالها.

لكن الخطورة في هذا الكلام في تلك المؤتمرات يقال بمحضر من الطلبة. وهم على ما نعرف من قلَّة المحصول. وقد قام عندهم شيء من الشك في هذا الذي يسمعون لا يستطيعون له دفعاً ولا رداً. لغرارتهم وجهلهم لها وللمكانة العالية لأساتذتهم عندهم. وبخاصة أن هذه القضايا تساق في ثياب مزركشة من مثل «الموضوعية والجدلية والإشكالية وحتمية التاريخ والمنظومة الحضارية»، وهي كلمات شديدة الأسر نافذة التأثير.

ويحدِّثني كثير من الطلبة عما يجدونه من تناقض صريح بين ما يسمعونه في هذه المؤتمرات، وما يلقى عليهم داخل المدرجات وكأنهم يقولون: «كيف تُبَغِّضُون إلينا طعاماً ثم تدعوننا إلى أكله».

فيا أساتذتنا الأكرمين، ويا زملاءنا الأعزاء: رفقاً بهؤلاء الصغار، حتى لا توقعوا الشك في قلوبهم، وتورثوهم الحيرة والبلبلة، فتزلَّ قدم بعد ثبوتها.

* * *

الجزَّار الثالث[1]

من شعراء العصر المملوكي البارزين أبو الحسين الجزار المتوفى (٦٧٩هـ). كان جزاراً بفسطاط مصر، ورث الجزارة عن أبيه، واشتغل بها إلى أن عرف بالشعر، وتقدم به إلى السلاطين والملوك، فنال جوائزهم وعاش في رحابهم، وكان ظريفاً صاحب طرائف في شعره وفي سلوكه، يقول عنه ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب ٥/ ٣٦٤: «شاع شعره في البلاد وتناقلته الرواة».

وفي منتصف الخمسينات قدم الأستاذ الإذاعي طاهر أبو زيد في برنامجه الشهير «جرب حظك» جزاراً مثقفاً، يقرأ الأدب، ويسمع الموسيقى الكلاسيك، وكان اسمه على ما أذكر «عزت أبو نقاية»، فهذا هو الجزار المثقف الثاني.

أما الجزار المثقف الثالث فقد التقيت به في الشهر الماضي بمقهى من مقاهي حي «جليم» بالإسكندرية.

ففي ضحى يوم كنت أجلس بهذا المقهى إذ دخل رجل ربعة موفور الجسم، يلبس خواتم ذهبية ضخمة وتتدلى من رقبته سلسلة ذهبية تلمع من ثنايا قميص ملون، ثم جلس وطلب «شيشة» اعتنى بإعدادها عامل المقهى عناية ظاهرة تضاءلت بجانبها «شيشتي» المتواضعة، فقلت: آه، هذا معلم كبير، ولا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، لكن شدني إليه مجموعة من الكتب والمجلات، وضعها بجانبه، لمحت منها مجلة عالم الفكر ومجلة العربي ثم كتاب الدكتور نصر حامد أبو زيد، فاستأذنته في رؤية كتاب الدكتور نصر، فقال لي: ما لك ولهذا الكتاب؟ فأجبته بسؤال: وهل

(١) مجلة «الهلال»، أكتوبر ١٩٩٥م.

قرأته أنت؟ فقال: نعم، قلت: وما رأيك فيه؟ فأجاب بكلام عال جداً، أمسك عن ذكره هنا حتى لا أزيد النار اشتعالاً، ثم سألته: هل قرأت كتاب ابن بلدك الأستاذ «محمود رؤوف أبو سعدة» عن إعجاز العَلَم الأعجمي في القرآن، الذي نشرته دار الهلال؟ قال: نعم، ولكن لي عليه ملاحظات. وذكر منها أشياء جيدة، فأغراني ذلك كله بمد حبال المحاورة معه، حتى جاء ذكر «الجاحظ»، فقال: الجاحظ عظيم، لكنه غطى بشهرته على أدباء كبار، قلت: مثل من؟ قال: أبو حيان التوحيدي، قلت: هل تقرأ لأبـي فهر محمود محمد شاكر؟ قال: نعم، وأعظم أعماله «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، أما «أباطيل وأسمار»، فهو جيد، لكن فيه تكرار كثير.

وامتد الكلام إلى أدباء الحداثة، فقال: إنهم لا ينتجون أدباً جيداً لأنهم لا يقرأون، قلت: لعل عذرهم ضيق الوقت وكثرة الصوارف، قال: لا، لو رأيتهم في قصور الثقافة، وهم ينفقون وقتاً طويلاً في الثرثرة وفيما لا طائل تحته، لأخذك العجب، ثم ناقشنا قضايا كثيرة كشفت عن اطلاعه الواسع. قلت: ما اسمك؟ قال: «صلاح المصري»، وأعمل بالجزارة التي ورثتها عن أبـي. وقبل أن أودعه قال: على فكرة أنا خريج دار العلوم سنة ١٩٧٠، دفعة الدكتور الشاعر «عبد اللطيف عبد الحليم».

قلت: ومع هذا تبقى صورتك العظيمة عندي: أنك جزار مثقف، أما تخرجك في دار العلوم فلن يغني عنك شيئاً، لقد عرفت من أبناء دار العلوم المحقق والعالم والأديب والشاعر، لكني عرفت منهم أيضاً من يكتب صورة «البقرة»، وصورة «آل عمران» بالصاد لا بالسين، فهذا كما قال ربنا عزَّ وجلّ: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

وبعد: فهل بقي من الجزارين المثقفين أحد؟ الله أعلم. ولعلنا نظفر بالمزيد منهم حتى يصبح لدينا «سلخانة» من المفكرين، و «مذبح» من النقاد.

* * *

العامية في مهرجان أمير البيان[1]

كان عرساً ثقافياً رائعاً، ذلك الذي أقيم لأبـي حيان التوحيدي، رغم أني لم أدع للمشاركة فيه، مع أن أعدل ترجمة أنصفت أبا حيان جاءت في كتاب حققته ونشرته منذ ٢٥ عاماً، أنا وأخي عبد الفتاح الحلو رحمه الله، وهو طبقات الشافعية للسبكي، «والشكوى لغير الله مذلة، وربنا مع المنكسرين جابر»، وقد نجح جابر عصفور نجاحاً ظاهراً في الإعداد لهذا المهرجان وخرج به في أبهى صورة.

وأبو حيان ثاني اثنين أضاءت بهما الكلمة العربية، فأنت مع الجاحظ ومعه تنعم بحلاوة البيان العربـي ويغمرك بهاؤه وسناه، الذي يحجبك عنه الآن دعاة الألسنية والموضوعية والتفكير العلمي، «ارجع من فضلك إلى ما كتبته عن البيان والطريق المهجور ــ الهلال مارس، ابريل ١٩٩٥م».

ولم يُغَبِّر في وجه هذا المهرجان إلا تلك العامية البغيضة التي جرت على ألسنة كثير من المعقِّبين على الندوات، وبعضهم من أساتذة الجامعات، مثل قول أحدهم: «الرأي دَوَّتْ» مكان: «الرأي هذا»، وقول بعضهم: «الأفكار العبيطة» موضع: «الساذجة» والحرص على كسر النون في أوائل الأفعال المضارعة، مثل: نِفهم ونِقرأ ونِحاول «ولا تقل إنها لهجة عربية قديمة. فالذي ينطقها هكذا لا يعرف ذلك، «وإلحاق الشين في أواخر الأفعال، مثل: ما أظنش، وما افتكرش، عيب يا أساتذة «فضحتونا أمام الأجانب».

(١) مجلة «الهلال»، نوفمبر ١٩٩٥م.

هذا أمر، وأمر آخر: أن بعض الذين ألقوا البحوث على المنصة تجاوزوا النحو كثيراً، وخلطوا في أبنية الأسماء والأفعال، ولم يتحرّوا المخارج الصحيحة للحروف، فخرج كلامهم معجوناً بعضه ببعض، ولو بُعث أبو حيان من مرقده لفزع فزعاً عظيماً، ولشكانا إلى أبي سعيد السيرافي النحوي، بل لكانت نقمته علينا أشد من نقمته على الوزيرين: ابن عباد وابن العميد.

ثم أقولها كلمة حق: لم أجد من التزم النظام النحوي، وتحرّى الصواب اللغوي في منطقه «أي نطقه» إلا جابر عصفور، فتحية له على رعايته لهذا المهرجان، ثم ألف تحية على احترامه للعربية، مع أني أختلف معه كثيراً فيما يكتب.

* * *

ما المسؤول عنها بأعلم من السائل[1]

ابنتي طالبة بقسم اللغة العربية بإحدى كليات الآداب، وأنا أعلّم العربية في كلية مناظرة، فكان حقّاً علي أن أكون في عون ابنتي فيما يشكل عليها مما تدرس من علوم العربية، ويشق على المدرس كثيراً أن يمارس عمله مع أبنائه، لكني أغالب هذا الشعور استجابة لعاطفة الأبوة، لكني أيضاً أقف عاجزاً أمام كثير مما تدرسه ابنتي، وبخاصة ما يتصل بعلوم النقد الأدبي والبلاغة والأدب المقارن وتحليل النصوص، فكثير مما يقدم من هذه العلوم للطلبة الآن كلام عجيب حقاً، وليس له من العربية إلا الحروف والأفعال والأسماء، مصبوباً ذلك كله في نظام نحوي صحيح في جملته، لكنك إذا أردت أن تخرج منه بمعان أو دلالات ذات معنى أعجزك ذلك، فهو كلام «تعقل مفرداته ولا تفهم مركباته» كما وصف ابن دقيق العيد كلام ابن سبعين الصوفي، وأحياناً لا تعقل مفرداته، ولذلك يعجزني ــ على كثرة ما قرأت وحفظت ــ أن أجيب ابنتي على ما تسأل، وكثيراً ما أجيبها: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، ثم أصلِّي على رسول الله ﷺ.

وقد لجأت إلى زملائي الذين يعرفون لغة القوم، من أصحاب الألسنية والبنيوية والتفكيكية، ليدلوني على أمثل طريقة لتفهم ابنتي ذلك الكلام، فقالوا: لا سبيل أمامها إلا أن تحفظ ذلك الكلام بحروفه لتضعه كما هو في ورقة الإجابة.

وهذا رأي خطير جدّاً، لأن معناه أن يتحول الطالب إلى ببغاء يردد دون أن

(١) مجلة «الهلال»، أبريل ١٩٩٦م.

يفهم، ومعناه أيضاً أن يفقد الطالب القدرة على أن يؤدي بألفاظ من عنده كلام أستاذه، وهو ما ترفضه نظريات التربية القديمة والحديثة.

وقد حاولت أنا فعلاً أن أجد كلمات مرادفة لهذا الذي تقرؤه ابنتي من كلام أساتذتها، فلم أرجع بشيء ذي بال، وكنت حرياً أن أذكر شيئاً من هذا الذي تعانيه ابنتي وأعانيه معها، ولكني لا أريد أن أحمل «الهلال» وزر هذا الكلام والرد عليه، لكنه في الجملة كلام يدور حول التناص والتماهي والتفكيك والتفجير اللغوي، والإشكالية ـ إشكالية أي شيء؛ مع تلك البدعة الغريبة: بدعة «الأسطورة والأساطير» في الأدب العربي، فكل معاني الشعر الجاهلي وصوره وأخيلته مردودة إلى الأسطورة ومحمولة عليها ومفسرة بها.

وإن تعجب فعجب أن بعض الذين يكتبون هذا الكلام الغامض المعمَّى هم ممن نشأوا بالأزهر وتخرجوا في دار العلوم، والأصل في من يتخرج في هذين المعهدين أن يكون عربي الوجه واليد واللسان، ولكن هكذا كان، وربك يفعل ما يشاء.

* * *

أبي يغزو.. وأمي تحدث[1]

هذا مثل شائع من أمثال العرب، وأصله فيما ذكر ابن الأعرابي: أن رجلاً قدم من غزوة، فأتاه جيرانه يسألونه عن الخبر، فجعلت امرأته تقول: قتل من القوم كذا، وأسر كذا، وجرح كذا، والرجل صامت لا يتكلم، فقال ابنها متعجباً: «أبي يغزو وأمي تحدث»، هكذا رواه المفضل بن سلمة، والميداني، ورواه الزمخشري: «وأمي تحبِّر»، والتحبير: التزيين، ثم قال: يضرب لمن يفتخر ببلاء غيره.

وأنت ترى أيها القارىء الكريم، وأنا أرى معك تصديق هذا المثل كل يوم فيمن يتحدثون كثيراً على ألسنة غيرهم، ويحمِّلونهم ما لم يحملوا، ويقوِّلونهم ما لم يقولوا، وكثيراً ما يضيفون إلى ذلك كلاماً آخر عن أنفسهم هم: معتدلين أو مبالغين.

وقد ذكرت هذا حين قرأت عقب وفاة شيخ المجمعيين الدكتور إبراهيم بيومي مدكور كلمة بالأهرام لأحد أساتذة الجامعة، نعى فيها الدكتور مدكوراً، ذاكراً بعض مآثره وآثاره ليخلص بسرعة إلى الحديث عن نفسه هو وتلاميذه هو، ثم رآها فرصة ليضع كتفه بجوار كتفه، وهامته إلى هامته، فيذكر خلافه معه في الرأي والقضايا الفلسفية الكبرى.

وذكرت هذا المثل أيضاً يوم حصل فارس الرواية العربية نجيب محفوظ، على جائزة نوبل العالمية، وانطلقت أقلام المنظِّرين والمتفلسفة، تحلل وتفسر، وتستنطق الأديب الكبير بما لم يقله؛ بل إن بعضهم ألبسه «برنيطة» فردَّ فنه الروائي إلى فلان

(١) مجلة «الهلال»، يونيو ١٩٩٦م.

الإنجليزي، أو فلان الفرنسي، والرجل ساكت لا ينطق، مجامل لا ينفي، وكأنه يقول في نفسه: «لا والله ليس الطريق هنالك!». على أن أديباً من هؤلاء الأدباء أعطى لنفسه خصوصية عجيبة بنجيب محفوظ، فهو لا يزال يشعرنا بأنه الأقرب والأحظى عند الأستاذ، وأنه مستودع سره، ومستراح ضميره، ويقول مرة: أبـي نجيب، ومرة: عمي نجيب، ثم يتمادى فيرد أدبه إلى أدبه، ويقرن فنه بفنه، ويا بُعْد ما بينهما!

ويذكر تلاميذ الأستاذ العقاد وجلساؤه أن ذلك الكتاب الذي كتبه هذا الأديب الشهير والصحفي الكبير عن «صالون العقاد» فيه تزيُّد غير قليل على العقاد، وأن قدراً كبيراً من المكتوب إنما هو عن الكاتب لا عن العقاد، هكذا قالوا والعهدة عليهم، فإني لم أجالس العقاد رحمه الله، وقد فاتني بذلك خير كثير.

على أن هذا كله يذكرنا بمثل عربـي آخر، هو قولهم: «سَيْرَيْنِ في خُرْزَة»، والسير معروف، وهو من الجلد يُصنع منه النعال، ويُضرب هذا لمن يجمع حاجتين في حاجة واحدة، وما أصدق العرب في أمثالها وحكمها!

* * *

الندواتية(1)

وأخيراً، وبعد صبر وترقُّب وطول انتظار منَّ الله عليَّ ودُعيت إلى ندوة من تلكم الندوات التي تتوالى في هذه الأيام كما تتوالى دفعات المطر، وقد كثرت هذه الندوات كثرة ظاهرة، فلا تُمسي بك ليلة بندوة حتى يأتيك صباح بأخرى.

وفي تلك الندوات تلتقي بثلاث فئات: رئيس الجلسة والمتحدث والمعقِّب، وترى بين الثلاثة وداً صافياً وأُنساً عذباً. فهذا غني عن التعريف، وذاك ترك أعمالاً جليلة ليشارك في ندوتنا هذه، وثالث يتواضع ويقول: إنه لا يستحق كل ذلك الثناء (ويعلم الله أن بداخله كبْراً يكفي أمة).

ويمضي النقاش بين الثلاثة ملفَّقاً في ثياب المصانعة والمس الرقيق، ثم يختم بهذه العبارة الحانية: إن هذه الملاحظات لا تغض من قيمة البحث الذي استمتعنا به اليوم، «ويعلم الله أنها تغض وستين تغض كمان»، وهكذا تسير الأمور، وإذا سمعت شغباً أو حِدّة أو ارتفاعاً في الأصوات، فلا تظن أن المسألة دخلت في باب الجد، وإنما هو من قبيل قول الأحوص في عاتكة:

إنـــي لأمنحـــك الصـــدود وإننـــي قسمـــاً إليـــك مـــع الصـــدود لأَمْيَـــلُ

لأن «الندواتية» يحب بعضهم بعضاً، ويحرصون على استبقاء الود بينهم، ترقُّباً للندوات القادمة، ولعلهم مقدمون على خطوة كالتي خطاها كتاب بريد الأهرام، فنسمع عن تكوين «أصدقاء الندوات»، وقد أصبحت أسماء «الندواتية» مكرورة ومعروفة كأسماء كتاب بريد الأهرام تماماً.

---

(1) مجلة «الهلال»، أبريل ١٩٩٧م.

لكني أشهد أن بعض هذه الندوات تعالج قضايا جادة، وتتناول شخصيات كبيرة، وأنها يُعَدّ لها إعداداً جيداً، ولكن يُفسد ذلك كله المصانعة والاستخفاف، والمشاركة دون الاحتشاد وامتلاك الأدوات، «وانظر الكلمة الأخيرة في عدد سابق من الهلال لأستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكي».

ثم أشهد أيضاً أن من بين هؤلاء «الندواتية» أناساً أهل فضل وعلم، ولو أنفقوا هذا الوقت مع تلاميذهم في الجامعة، أو مع كتبهم وتصانيفهم لكان ذلك أنفع وأجدى على الفكر والأدب؛ لأن كثيراً مما يطرح في هذه الندوات ومثلها المؤتمرات العلمية كلام في كلام، وقديماً ما نبَّه الناس إلى أن كثرة القول مفسدة للعمل، فقال القائل: «زيادة القول تحكي النقص في العمل»، وقال أبو العلاء في لزوميّاته:

إذا كثُر الناس شاع الفسادُ   كما فسد القولُ لما كثُرْ

والله أعلم.

* * *

موائد الرحمن[1]

بعد أيام يهلّ هلال رمضان، وفي رحاب هذا الشهر الكريم يعيش الناس أياماً طيبة حافلة بالنور والضياء، وتنبسط نفوس الصائمين بألوان كثيرة من الخير والبر، من أظهرها وأبرزها ما عرف في السنوات الأخيرة من موائد الإفطار التي نراها في المساجد، وفي بعض الميادين، يتحلق حولها الصائمون ينعمون بأطايب الطعام.

وقد عرفت هذه الموائد باسم «موائد الرحمن»، وقد تأثرت هذه التسمية بما يطلقه إخواننا السعوديون على الحجيج بأنهم «ضيوف الرحمن».

وهذه الموائد تحقق للمصريين عادتهم في استدعاء مظاهر البهجة، وارتفاع الأصوات الفرحة في أثناء رص الموائد ورش الماء أمامها، وتوزيع الأطباق «وعقبال العودة يا حاج» «ونزلت كم طبق بالصلاة على النبـي؟» «وخللي بالك من الرجل البركه دا والنبـي».

ولكن هل تحقق هذه الموائد الغاية التي يتغيّاها هؤلاء المحسنون من إقامتها؟ وهل يستفيد منها أهل الحاجة فقط؟ أم أنها يغشاها من يستحق ومن لا يستحق، وما نصيب النساء والأرامل منها؟ ثم ما نصيب هؤلاء الفقراء الذين يقعدهم الحياء واستبقاء الكرامة عن غشيان هذه الأماكن العارية ــ وقد ورد في كلام بعضهم: الأكل والنوم عورتان فاستروهما ــ وهؤلاء الفقراء هم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، ثم وصفهم بشار بقوله:

---

(١) مجلة «الهلال»، يناير ١٩٩٧م.

إن الكـريـم ليخفـي عنـك عسـرتـه حتـى تـراه غنيّـاً وهـو مجهـود

ألا يمكن أن يكون هناك بديل عيني في صورة مبلغ من المال يذهب إلى هؤلاء المحتاجين في بيوتهم؟ لقد حسم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب هذه القضية حسماً قاطعاً، فيما رواه الطبري في تاريخه ٤/ ٢٤٥ (حوادث سنة ٢٤) قال: «وكان عمر يجعل لكل نفس منفوسة (أي مولودة) من أهل الفيء في رمضان درهماً في كل يوم، وفرض لأزواج رسول الله ﷺ درهمين درهمين، فقيل له: لو صنعت لهم طعاماً فجمعتهم عليه! فقال: أشبعوا الناس في بيوتهم».

ورحم الله عمر، فقد جعل الله الحق على لسانه وقلبه، كما أخبر الصادق المصدوق، فيما رواه الترمذي عن ابن عمر. وأخرج البخاري أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر».

والمحدَّث بتشديد الدال المفتوحة: هو المُلْهم، كأنه حُدِّث بشيء فقاله.

وكل عام وأنتم بخير.

* * *

جلال معوض.. وزمن الورد[1]

من كلام العرب الحكيم قولهم: «زمن الورد»، ويضرب به المثل في الحُسن والطيب، ذكر ذلك الثعالبي في كتابه ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ٦٤٤. وهو كتاب جيد يحوي معارف كثيرة وينبغي قراءته.

وقد ذكرنا بهذا الزمن الأستاذ جلال معوض رحمه الله في برنامج له ظريف قدمه خلال رمضان بإذاعة البرنامج العام اسمه «عصر من الغناء».

وقد أداره على أغاني أم كلثوم، وقد صار هذا التركيب «أغاني أم كلثوم» تركيباً خالداً على سمع الزمان، تسمعه فتشعر بالجلال والعزة والبهجة والبهاء تماماً كما تسمع «أغاني أبي الفرج الأصبهاني»، و «إلياذة هوميروس»، و «كتاب سيبويه».

وإذا كان جلال معوض قد طوّف مع أم كلثوم في مراحلها كلها، فقد وقفت أنا طويلاً عند مرحلة «الخمسينات» لأني أرى أنَّ صوت أم كلثوم في هذه المرحلة كان قد استحصد واستوى على سوقه، بعد أن تخلص من «السَّرْسَعة» ـ وإن كانت محببة جدّاً ـ التي صاحبتها في الثلاثينات والأربعينات. صوت أم كلثوم في الخمسينات صوت مثقف رشيد، استولى على أصول النغم وخبر درجات المقامات، وأحسن الدخول والخروج، كصوت الشيخ مصطفى إسماعيل في الخمسينات أيضاً.

وفي تلك المرحلة هجرت أم كلثوم الطقاطيق وأغاني الأفلام، واتجهت إلى المطولات أو (المعلقات) من شعر فصيح، أو عامية راقية. وكان من حسن حظ

---

(١) مجلة «الهلال»، أبريل ١٩٩٧م.

الملحن العظيم رياض السنباطي أن خلت له الساحة في هذه الخمسينات، فمحمد القصبجي وقف عند «رق الحبيب»، وقنع بأن يدندن خلف أم كلثوم على عوده، والشيخ زكريا أحمد اكتفى بأهل الهوى والأمل وأنا في انتظارك وهجر صوت أم كلثوم هجراً غير جميل في قطيعة استمرت من سنة ١٩٤٧ إلى ١٩٥٩ (راجع مقالة أستاذنا كمال النجمي في هلال فبراير) فخلا وجه أم كلثوم للسنباطي من أواخر الأربعينات إلى الخمسينات وما بعدها، فأبدع معها وبها، وكانت هذه الروائع: سلوا كؤوس الطلا، وسلوا قلبي، والنيل، ونهج البردة، وولد الهدى، وإلى عرفات الله، ورباعيات الخيام، وأغار من نسمة الجنوب، ومصر تتحدث عن نفسها، وقصة الأمس، وقصة حبي، وثورة الشك، وأراك عصي الدمع.

ثم هلت ليالي القمر، ويا اللي كان يشجيك أنيني، وغلبت أصاح في روحي، وجددت حبك ليه، وسهران لوحدي، ويا ظالمني، وشمس الأصيل، وعوِّدت عيني، وهجرتك، وأروح لمين، والحب كده.

وفي هذه الأغنية الأخيرة ملامح كثيرة من روح زكريا أحمد وبخاصة مطلعها، والذي لا يعرف أنها من تلحين السنباطي يظنها للشيخ زكريا.

وقد كان جلال معوض موفقاً في اختيار هدأة الليل موعداً لبرنامجه الجميل هذا، فالليل أبعث للشجن وأدعى للذكريات والبكاء معها وعليها. ألم يقل مجنون بني عامر:

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا ... لي الليل هزتني إليك المضاجع
أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعني والهم بالليل جامع

وأيضاً فإن جلال معوض قد أمتعنا بصوته الحلو الذي يجمع بين العذوبة والفحولة، وهذا شأن أبناء جيله: حسني الحديدي وصلاح زكي، ثم المفكر النابه أحمد فراج.

* * *

زاحِمْ بِعَوْدٍ أَوْ فَدَعْ[1]

العود، بفتح العين وسكون الواو: الجمل المُسِنّ. وهذا من أمثال العرب، ومعناه: لا تستعن إلا بأهل السن والتجربة، ويمكن أن يوجه هذا المثل أيضاً على معنى: لا تنافس ولا تغالب إلا بشيء ذي قدر ونفع.

وقد تذكَّرت هذا المثل حين كنت بدولة الإمارات العربية المتحدة منذ شهور، أستاذاً زائراً بجامعة العين، وفي الفندق الذي كنت أنزل به أتيحت لي فرصة طيبة لرؤية القنوات الفضائية العربية، فرأيت شيئاً معجباً حقاً، سواء في قنوات أبو ظبي ودبي والشارقة أو في سائر الفضائيات الأخرى. في هذه الفضائيات ترى ألواناً رفيعة من الدين والأدب والفن والسياسة والاجتماع والرياضة، إلى القضايا الساخنة والحوارات الجادة بين أطراف متباعدة فكراً ومكاناً، بحيث أصبح التلفزيون أداة تثقيف وإنارة، وفارقته مسحة الإملال التي يشكو منها الناس.

أرى هذا كله ثم أقارن بينه وبين ما تقدِّمه قناتنا الفضائية المصرية، فلا أخرج من المقارنة إلا بما قاله حافظ إبراهيم:

وزعيمهم شاكي السلاح مدجج وزعيمنا في كفه منديل

إن برامج الفضائية المصرية فقيرة بجانب ما تقدمه أخواتها العربيات، ومعظم ما تقدمه قناتنا: أفلام ومسرحيات ومسلسلات، إلى جانب بعض البرامج الخفيفة، مثل: أغاني الأفلام، وأغاني وأماني، وسباق الأغنيات، ونجم على الهواء، بحيث

(١) مجلة «الهلال»، مارس ١٩٩٨م.

يخيل للناظر أن مصر قد فقدت علماءها ومفكريها وأدباءها، ولم يبق على ظهرها إلا أهل التمثيل والمغنى. على أن هذه البرامج الخفيفة قد ترضي بعض الأذواق، ولكنه رضا موقوت، على ما قال ابن الرومي:

وقـــد يفضّلهـــا قـــوم لعـــاجلهـــا لكنـه عـاجـل يمضـي مـع الـريـح

والعجيب أن كثيراً من برامج هذه الفضائيات العربية الجادة مسجلة في مصر، وتقوم على شخصيات مصرية، وهؤلاء المصريون الذين يتعاملون مع تلك القنوات يحبون بلدهم مصر، بل ويعشقونها، ويقولون: «يا حبيبتي يا مصر»، ولكنهم يتصرفون وفق القاعدة التي تقول: «الصلاة خلف عليٍّ أتمّ، لكن الطعام على مائدة معاوية أَدْسم».

فعلى قناتنا المصرية إذا أرادت أن تزاحم وتنافس: أن تجوّد وتحسّن، وإلاَّ انصرف الناس عنها، وغابت صورة مصر المحروسة.

* * *

الفهارس

[١] فهرس الآيات القرآنية .

[٢] فهرس الأحاديث النبوية .

[٣] فهرس الأعلام .

[٤] فهرس الكتب والدوريات .

[٥] فهرس المراكز والمؤسسات الثقافية .

[٦] فهرس الخزائن والمكتبات .

[٧] فهرس دور الطباعة والنشر .

[٨] فهرس الموضوعات .



[١] فهرس الآيات القرآنية

* * *

[٢] فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث	الصفحة

(أ) الأقوال:

(ب) الأفعال والأوامر والنواهي:

* * *

[٣] فهرس الأعلام

* * *

[ابن]

* * *

[أبو]

* * *

أعلام النساء

* * *

[أم]

* * *

[٤] فهرس الكتب والدوريات

(أ) فهرس الكتب:

(ب) فهرس الدوريات:

* * *

[٥] فهرس المراكز والمؤسسات الثقافية

* * *

[٦] فهرس الخزائن والمكتبات

* * *

[٧] فهرس دور الطباعة والنشر

* * *

[٨] فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

فهرس المجلد الأول

المقالات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

فهرس المجلد الثاني

الموضوع	الصفحة

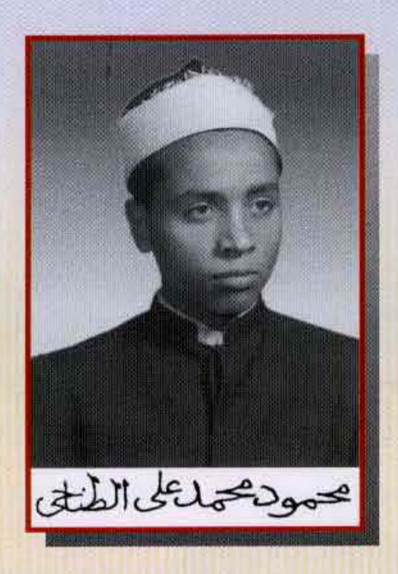
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

صور من حياة محمود الطناحي رحمه الله



* صورة للطناحي أثناء دراسته الثانوية بمعهد القاهرة الديني بالأزهر الشريف، ويظهر خَطُّهُ على الصورة في نفس العام، والتاريخ ١٩٥٥ .

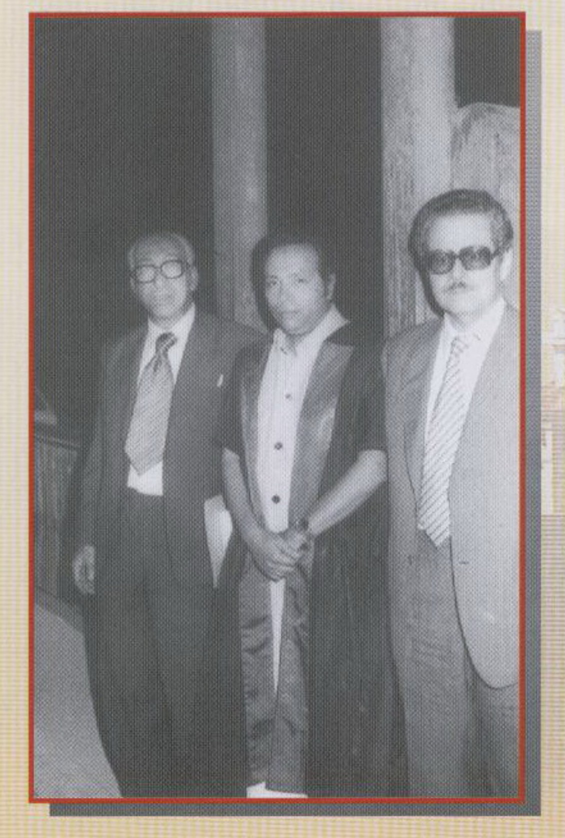


* الطناحي في آخر حياته .



* صورة نادرة للطناحي عقب حصوله على درجة الماجستير من كلية دار العلوم، تجمعه بأعضاء لجنة المناقشة وهم على الترتيب من اليمين:

أ. د/ تمام حسان، أ/ عبد السلام هارون، د/ حسين نصار، وذلك بتاريخ ١٩٧٢ .



* الطناحي عقب حصوله على درجة الدكتوراه من كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة، يتوسط في الصورة الأستاذ محمود شاكر رحمه الله، والأستاذ أحمد المانع ـ المستشار الثقافي السعودي بالقاهرة آنذاك، والتاريخ ١٩٧٨ .



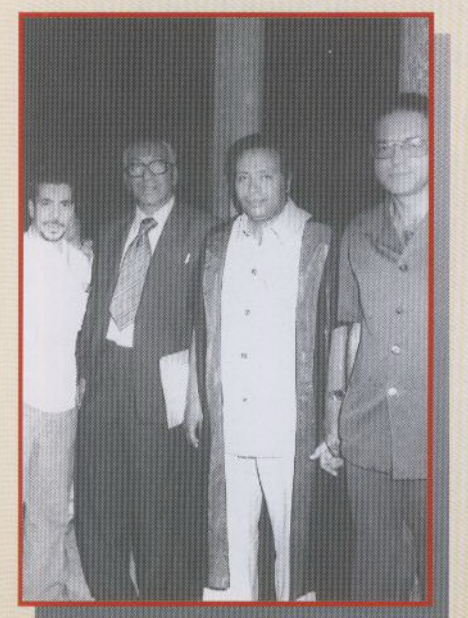
* صورة تجمع الطناحي بالأستاذ السيد صقر والدكتور حسين نصار والدكتور شكري عياد والدكتور عبد الحميد يونس والدكتور الربداوي، وذلك بإحدى قاعات المحاضرات بكلية الآداب بجامعة القاهرة، والتاريخ في ديسمبر ١٩٦٧ .



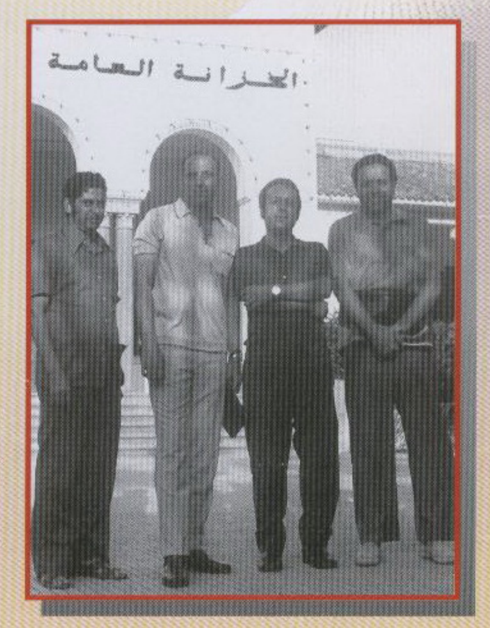
* صورة تجمع الطناحي بصديق عمره الدكتور عبد الفتاح الحلو رحمه الله، وزميله بمعهد المخطوطات الأستاذ نبيل عبد الفتاح سلّمه الله، والأستاذ محمد رشاد عبد المطلب رحمه الله، وذلك بجامعة القاهرة بتاريخ ١٩٧٢ .



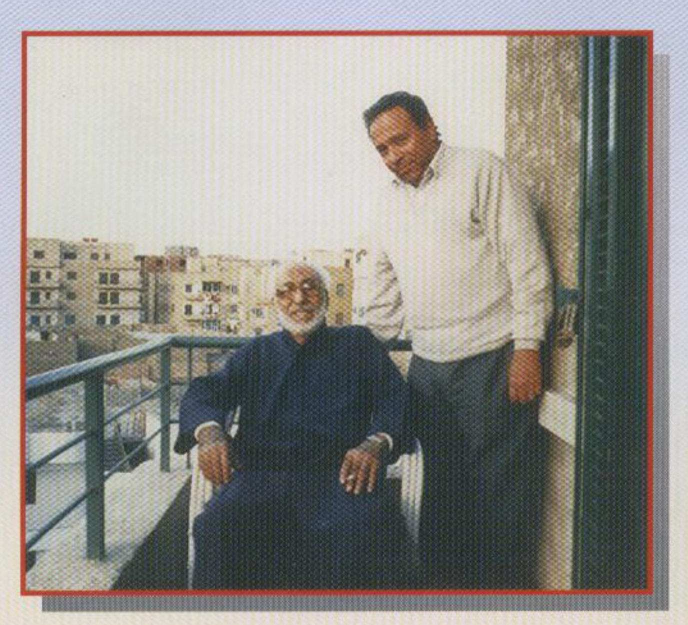
* صورة تجمع الطناحي بالأستاذ الدكتور عبد الفتاح الحلو رحمه الله ـ من اليمين ، والأستاذ الدكتور عبد الله الغنيم سلّمه الله ، والشاعر الحساني عبد الله ، وذلك بجامعة القاهرة ، والتاريخ ١٩٧٢ .



* الطناحي يتوسط الدكتور عبد الفتاح الحلو رحمه الله ، والأستاذ محمود شاكر رحمه الله ، والأستاذ محمود المدني حفظه الله ، يوم مناقشة رسالة الدكتوراه ، والتاريخ ١٩٧٨ .



* صورة أمام الخِزَانة العامة بالرّباط أثناء بعثة معهد المخطوطات العربية إلى المغرب عام ١٩٧٥ ، ويبدو الطناحي الأول من جهة اليمين .



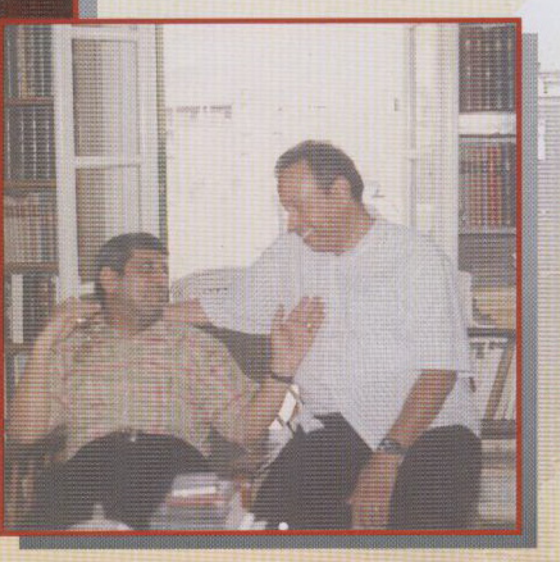
* صورة تجمع الدكتور الطناحي بالعلامة الكبير الأستاذ محمود شاكر، بشرفة منزل الأستاذ شاكر رحمهما الله، والتاريخ ١٨/ ١١/ ١٩٩٣.



* صورة نادرة تجمع الطناحي مع أستاذه الشيخ شاكر رحمهما الله، وصديق عمره الأديب الأستاذ عبد الحميد البسيوني حفظه الله.



* صورة تجمع: أ/ جمعة الياسين، أ/ عبد العظيم المغربي، د/ أيمن فؤاد سيّد، د/ عادل سليمان، أ. د/ محمود الطناحي رحمه الله، أ/ محمود المدني، د/ أيمن الرافعي، والجميع يلتفون حول العلامة محمود شاكر على فراش المرض قبل وفاته بأيام معدودة بمستشفى النزهة الدولي بالقاهرة، والتاريخ شهر يوليو ١٩٩٧.



* صورة تجمع الطناحي بالأستاذ الدكتور عبد الله حمد محارب ـ المستشار الثقافي لدولة الكويت بالقاهرة، بمنزل الأستاذ محمود شاكر، والتاريخ يونيو ١٩٩٥.



* الطناحي أثناء مناقشة إحدى رسائل الدكتوراه بكلية الآداب ــ جامعة الإسكندرية، وإلى جواره الدكتور عبده الراجحي، والتاريخ ٢٧/ ٢/ ١٩٩٧ .



* صورة للدكتور الطناحي بمكتبته الخاصة بمدينة نصر، والتاريخ ١٣/ ٦/ ١٩٩٧ .



* صورة تجمع العلامة محمود الطناحي مع نجله الأستاذ محمد.

يشكر الناشر الأستاذ الفنان محمد سالم زين العابدين على الإخراج الجميل لهذه الصور



الدكتور محمود محمد الطناحي

- وُلد عام ١٩٣٥م بمحافظة المنوفية ــ جمهورية مصر العربية.
- حصل على الشهادة الابتدائية من معهد القاهرة الديني بالأزهر الشريف.
- حصل على شهادة الليسانس في علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية من كلية دار العلوم ــ جامعة القاهرة.
- حصل على شهادة الماجستير من الكلية نفسها (قسم النحو والصرف والعروض).
- حصل على شهادة الدكتوراه من الكلية نفسها أيضاً (قسم النحو والصرف والعروض).
- عمل معيداً بمعهد الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- وعُيِّن خبيراً بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية.
- وانتدب أستاذاً مشاركاً بكلية اللغة العربية، جامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- عُيِّن أستاذاً مساعداً بكلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة القاهرة ــ فرع الفيوم، وعمل أستاذاً بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب ــ جامعة حلوان.
- اتصل بالمخطوطات العربية ناسخاً ومفهرساً ومحققاً، وانتدب عضواً في بعثات معهد المخطوطات العربية إلى تركيا والمغرب والسعودية واليمن، فكشف نوادر خزائنها وفهرس لمخطوطاتها.
- شارك وحاضر في ندوات عديدة عن المخطوطات والمطبوعات العربية.
- ترك من الإنتاج العلمي ٣٥ كتاباً بين تحقيق وتأليف أفاد بها وأجاد وأغنى المكتبة العربية بأبحاث قيِّمة.
- كما له مقالات عدة في المجلات والدوريات العربية.
- تتلمذ على علاَّمة العربية الشيخ محمود محمد شاكر، وكان شديد التعلُّق به والدفاع عنه.
- توفِّي رحمه الله يوم الثلاثاء ٦ ذي الحجة ١٤١٩هـ، ٢٣ مارس ١٩٩٩م.